شعر الصعاليك
منهجه وخصائصه

دكتور عبد الحليم حفني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

"ربّ اشْرَح لی صَدری و یَسّر لی اُمْری
وَ احْلُل عُقْدَةً من لسَانی یَفْقَهوا قَوْلی"

صَدق الله العظیم

قرآن کریم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تيسيرا على ناقد هذا البحث ، فى استيضاحه ما يراه غير واضح ، وفى وقوفه أمام ما يراه غير قويم ، أو غير واف من جوانب البحث ، أرى أن أخفف عنه بعض هذا الجهد ، وأن أصرف عنه بعض التردد والوقوف ، فقد يكون الباحث أقدر من غيره على ادراك ذلك كله فى بحثه ٠

ولناقد هذا البحث أن يثق فى صدق عونى له ، فاننى لا أرى بين باحث العلم وناقده خصومه ، بل على العكس ، أرى فيهما رفيقى جهاد واجتهاد ، فى أنبل ميدان تعرفه البشرية ، لأنه الميدان الذى يقود البشرية الى امام ، وسط معوقات عاتية عنيفة تشدها الى وراء ٠ ولست أرى فى باحث العلم وناقده الا جنديين ، يحاول كل منهما بما أتيح له من جهد ، أن يساهم فى تقدم البشرية ، ولو قيد شعره ، أو يحميها من القهقرى فى أهون الفروض ٠

وليس على باحث العلم بأس فى أن يعين ناقده على نقده ، بل أراه واجبا تفرضه أمانة العلم ، ويوجبه شرف الميدان نفسه ، أعنى ميدان العلم ٠

ولا يستطيع باحث العلم أن يزعم لنفسه ولا للناقد أنه أحاط بموضوعه علما ، وأنه سد منه كل ثغرة ، وانما يستطيع أن يقول : هذا جهدى واجتهادى، لم أدخر منهما شيئا ، وليس يضير باحث العلم ألا يبلغ بجهده واجتهاده غاية الشوط ، فالله العليم الخبير قد وضع للعلماء شعارهم الأسمى فى قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ووضع للعالم منهاجه الأقوم فى قوله سبحانه « وقل رب زدنى علما » فلن يضير الباحث اذن الا يبلغ جهده واجتهاده غاية الشوط ، وانما يضيره أن يدخر جهدا استطاعه ، وأن يقصر عن غاية كان يمكنه بلوغها ، واذا كان هذا يضير الباحث ، فان هناك أمرا يملؤه ضيرا من قمة رأسه الى أخمص قدميه وهو التفريط عن عمد ولو ذرة فى أمانة العلم ، هذه الأمانة التى رسم النبى صلى الله عليه وسلم منهاجها للعلماء فى قوله « رحم الله امرءا سمع مقالتى فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » ٠

ويخيل الى أن أول ما يتبـادر الى ناقد البحث ، سؤال تقليدى ، هـو لماذا اخترت هذا الموضوع لبحثك ؟

وأفهم من هذا السؤال أن الناقد يشير بسؤاله الى بعض النواحي ، منهـا ان موضوع الصعاليك وشعرهم ، لم تحدده البحوث ، بمعنى أن هذا الموضوع لم تتوفر عليه جهود من الباحثين ، حتى تجعل منه موضوعا واضح المعلومـات نير الطريق ، كشأن غيره من الموضوعات التى أصبحت واضحة مجتمعة الجوانب، ولكن موضوع الصعاليك وشعرهم لا زال متناثرا فى شتات الكتب ، ومتفرقـات المراجع ، فالباحث فيه لن يجد كتبا عن الصعاليك ، ولا عن شعرهم ، كمـا يجد فى كثير من الموضوعات ، وانما عليه أن يجوب كل المراجع العربية القديمة ليجد خبرا عابرا فى هذا الكتاب ، أو ترجمة لشـاعر منهم فى كتاب آخـر ، أو متناثرات من شعرهم ، وقد يتصفح الباحث كتابا كاملا فلا يجد فيه عنهـم شيئا ، وان وجد فلن يجد سوى هذه المتفرقات ، ولا أعلم أحدا فى القـديم أفرد الصعاليك ببحث مستقل سوى السكرى فى كتاب اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا فيما نعلم ، وانما نقل عنه بعض العلماء القدامى ، ومنهـم البغدادى فى خزانة الأدب (١) ، كمالا أعلم ان أحدا فى الحديث فعل ذلك سوى الدكتور يوسف خليف فى بحثه عن الشعراء الصـعاليك فى العصر الجاهـلى فحسب ، وأغلب الظن أن تناثر موضوع البحث وصعوبته ، كانا أهم ما صـرف الباحثين عن الاتجاه اليه ، ايثارا للعافية ، وتجنبا للخطأ فى موضوع لم تتحدد فيه البحوث ، ولم تتضح حوله الآراء والاتجاهات •

فافهم من سؤال الناقد كأنه يشير الى هذه الصعوبة التى تكتنف موضوع البحث ، والى هذه الظلال التى تعتم بعض جوانبه ، وكأنه يقول : هل وثقت من بحثك فى موضوع كهذا ، حتى تقدمه فى رسالة علمية ؟

وأقول له : ان هذه الصعوبة وهذه الظلال ، لم يكن احدهما مفاجئـا لى أو غريبا على • بل لعلهما كانا أهم ما دفعنى الى اختيار الموضوع ، فاننى أرى أنه من العبث أن يبدد الباحث جهده فى موضوع فرغ منه الباحثون أو كادوا ، وأنه من العبث أن يترك الباحث موضوعا يمكن أن يأتى فيه بجديد من الجهـد والموضوع فى حاجة الى هذا الجهد ، والى هذا الجديد ، الى موضوع يرى حوله كثيرا من الجهود ، ويرى فيه كثيرا من التجديد الذى يستنفد جوانب الموضـوع أو يوشك •

وكون البحث رسالة علمية لا أرى أنه يغير من الأمر شيئا ، فالمفروض فى كل بحث أن يكون علميا ، وكل ما يمكن أن تضيفه صفة الرسالة العلميـة

(١) أنظر للمثال ٢/١٩ ـ ٢٢ •

هو اقتضاؤها مزيدا من الجهد ولعل هذا أيضا مما حفزني الى اختيار صعوبة هذا الموضوع ، مقدرا أن حاجة الرسالة العلمية الى مزيد من الجهد أنسب ما تكون لموضوع هو في حاجة الى مزيد من الجهد ، كموضوع الصعاليك وشعرهم :

وبالنسبة لأزمنة موضوع البحث ، يخيل الى أن الناقد يستنتج من عموم عنوان البحث أن يسأل السؤال التالي :

لماذا لم تحدد زمنا معينا لموضوع البحث ؟

وأفهم من سؤال الناقد أنه كان ينبغي تحديد عصر معين لموضوع البحث كالعصر الجاهلي ، أو الاسلامي ، أو نحو ذلك من التحديد الزمني الذي يعين على حصر البحث وشموله ، والذي يؤلف عادة في الرسائل العلمية .

وأجيب عن ذلك بأنني التزمت هذا التحديد في البحث كله ، سواء في الحديث عن الشعراء الصعاليك ، أو شعرهم ، فقد ميزت الشعراء الجهليين منهم عن المخضرمين ، وعن الاسلاميين ، كما فعلت ذلك بالنسبة للمخضرمين وللاسلاميين ، حسب ما أتاحت لي الروايات والأخبار ،والروايات والأخبار في هذا الموضع غير غامضة ولا ملتوية في جملتها ، وان لم تخل من ذلك في تفاصيلها ، فالذي لا تنص الرواية صراحة على أنه جاهلي أو مخضرم أو اسلامي ، تسوق من أخباره ، أو من مضمون شعره ما يكشف عن الظروف المحيطة به في صلاته وبيئته ، فنعلم من أي عصر هو ، فان لم تفعل الرواية هذا ولا ذاك ، وجدنا في رواية أخرى ما يسد ثغرات الرواية الأولى ، وكذلك الأمر في شعرهم ، فبالاضافة الى التزامي في الاستشهاد والتمثيل نسبة كل شعر الى صاحبه ، مما نعلم منه من أي عصر هو بالاضافة الى ذلك كان التفريق الأساسي في الموضوعات ، وفي الخصائص ، فقد أشرت خلال الحديث عن الموضوعات التي طرقها شعرهم ، الى الموضوعات التي خلا منها شعرهم في عصر من العصور ، أو التي انفرد بالحديث فيها شعر عصر آخر ، وكذلك في الحديث عن الخصائص ، راعيت الحديث عن الخصائص التي يتسم بها شعر الصعاليك كله في سائر عصوره ، والتي تميزه عن شعر غير الصعاليك ، وراعيت الحديث عن الخصائص التي ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، مشيرا الى انفراده في بعض المواضع عن شعر صعاليك الاسلام خاصة ، أو عن غيرهم عامة من الشعراء سواء أكانوا صعاليك أم لم يكونوا ، وكذلك فعلت في تمييز خصائص شعر صعاليك الاسلام عن غيرهم على النهج السابق ، والخضرمة ليست فترة زمنية حتى تجعل لها خصائص مستقلة ، بمعنى أنه لم تكن بين الجاهلية والاسلام فترة زمنية ، بالنسبة للمنتقلين بعقيدتهم من الجاهلية الى الاسلام فشعر الصعاليك اذن اما جاهلي ، واما اسلامي ، وليست بينهما مرحلة ثالثة

بالنسبة للمخضرمين ، الا فى نقطتين متقاربتين فى المضمون ، هما أثر الاسلام فى شعر المخضرم ، وأثر الاسلام من الناحية الدينية الروحية فى عصر المخضرمين ، وقد أشرت الى هاتين النقطتين ، فى فصلى صراع السلطة ، وخصائص شعر صعاليك الاسلام فى مقارنته بشعر صعاليك الجاهلية .

وحتى فى الحديث عن بيئة الصعلكة ونشأتها وأسبابها ، فرقت بين عصرى الجاهلية والاسلام ، فى مقتضيات كل منهما بالنسبة للصعلكة .

ولكننى لم أوضح هذا التفريق بين العصور ، أو شمول البحث لهـا فى العنوان لأننى لا أبحث عصرا واحدا أو عصرين مثلا ، حتى أحدد ذلك ، وانما أبحث شعرا اصعاليك كله ، أعنى ما وصل الينا فى كل العصور ، وقد كان العنوان وافيا فى الدلالة على هذا المعنى من حيث شموله لشعر الصعاليك مجملا، أما التفصيل فمن شأن البحث ، وليس من شأن العنوان .

ولكن هذا السياق فيما أظن قد يجر الناقد الى سؤال أهم من السؤال السابق ، وهو : كيف يسوغ جمع شعر مختلف العصور والبيئات ، لبحثه فى موضوع واحد ، أو لوضعه فى بحث واحد ؟

وأقول له : قد يبدو غريبا حقا جمع شعر لشعراء من قبائل وبيئات كثيرة مختلفة ، ومن عصور كثيرة ومختلفة أيضا ، والمألوف فى البحوث العلمية الادبية بحث نوع واحد من الأدب ، أو أدب واحد ، لبيان ما فيه خصائص ، أو مدى تأثير الظروف المختلفة فيها ، أو بحث نوعين من الأدب ، للمقارنة بين ما يحملان من خصائص ، ولكن شعر الصعاليك متعدد البيئات ، ومتعدد الشعراء ، ومتعدد الصور ، وهذا موضع الغرابة التى قد تبدو من بحثه على هذه الصورة .

ولكننا لا نجد لهذه الغرابة موضعا حين نعلم أن شعر الصعاليك يعتبر وليد بيئة واحدة ، لا نعنى بها تشابه طبيعة شبه الجزيرة ، وانما نعنى أن شـعر الصعاليك فى جملته نابع من حياتهم فى الصعلكة ، وحياتهم فى الصعلكة كانت دائما تختار أماكن معينة ، يكاد الصعاليك على اختلاف عصورهم لا يختلفون فى صفات هذه الأماكن وصورتها ، لأن أماكن معينة هى التى تصلح لمزاولة الصعلكة، هى الجبال وصحراواتها ، فى الصورة التى صورها شعرهم ، ومن هذا نعـلم أن بيئتهم واحدة ، لا تختلف من بدو الى حضر ، ولا من ريف الى مدن ، ولا من خصب الى جدب ، ولا غير ذلك مما يؤلف تأثيره فى شعر الشاعر ويختلف به شعر شاعر عن غيره ، فشعرهم كله وليد بيئة واحدة ، هى الجبال والصحراوات بل وليد جبال معينة ، وصحراوات معينة ، تتيح لهم مزاولة مهنتهم ، كمـا وصفوها فيما سيأتى من البحث ، وكذلك بالنسبة للعصـور ، فمع أن منهم شعراء فى الجاهلية ، وشعراء فى صدر الاسلام ، وشعراء فى عصر بنى أمية ، وشعراء فى العصر العباسى ، الا أن هذه العصور وان كانت ذات تأثير كبير فى

شعر غيرهم ، فهي غير ذات تأثير بين في شعرهم ، لأن تأثير هذه العصور ليس من حيث انها أزمنة ، فالزمن لذاته ليس مؤثرا ، ولكن من حيث المجتمعات التي صاحبت هذه العصور ، بمعنى أن مجتمع العصر العباسي مثلا ، يختلف في حضارته وظروفه المختلفة عن مجتمع العصر الأموي ، وعن مجتمع العصر الجاهلي وهكذا نجد الاختلاف في حقيقته بين المجتمعات ، وليس بين العصور ٠

والصعاليك بحكم حياتهم في الصحراوات والجبال ، وبحكم عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمعات ، لم يتأثروا كثيرا باختلاف المجتمعات وظروفها ، الا من شذ منهم وقد أشرت اليه في البحث ، أما سائر الصعاليك ، فقد جمعتهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ، بيئة واحدة ، ونفسية واحدة ، وحياة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقد لا يكون بينهم من الاختلاف ما يكون في حياة الشخص الواحد من تقلب الأحوال النفسية والمعيشية به ، وقد لا يكون بين شعرهم كله ــ من حيث اختلاف الروح ــ ما يكون في شعر شاعر واحد ٠

وكل ما في شعر الصعاليك من فواصل ، هو ما بين الشعر الاسلامي والجاهلي لهم ، فالاسلام هو الشيء الوحيد الذى استطاع أن يترك في شعرهم أثرا، ولذلك جعلته فاصلا في المقارنة بين شعرهم الجاهلي والاسلامي ، على أن تأثير الاسلام في شعرهم لم يكن كاملا ، فقد أثر الاسلام من الناحية الروحية فيهم ، فاظهر في شعرهم جانب التوبة وجوانب أخرى محددة بسطت حديثها في البحث ، وأهمها روحي أيضا ، وهو الشعور بالذنب ، أما التغيرات الاجتماعية التي اضفاها الاسلام على المجتمع ، فلم يكن تأثيرها في الصعاليك كبيرا ولا بينا ٠

ومن حيث انه لم يكن في شعر الصعاليك من فواصل تؤثر فيه الا الاسلام، لذلك لم أجعل غيره فاصلا في الحديث عن شعرهم ، فاختلاف العصور ، من أموي الى عباسي الى غير ذلك ، لم يكن له كما قلت تأثير بين في شعورهم ٠

والحص للناقد هذه الاجابة ، بأن شعر الصعاليك من حيث البيئة يعتبر نوعا واحدا ، لا يحتاج بحثه الا الى بيان انعكاس هذه البيئة فيه ، وقد تحدثت عن ذلك وعلى الأخص في فصلي شعر الطبيعة ، وخصائص شعر صعاليك الجاهلية ومن حيث العصور ، يعتبر شعر عصرين ، هما الجاهلية والاسلام ، وقد بينت أثر كل منهما فيه ، مقارنا بينهما ، في مواضع معنونة بلفظي الجاهلية والاسلام ، وخاصة في فصلي الصعلكة في الجاهلية ، والصعلكة في الاسلام ، وفصلي خصائص شعر الجاهليين ، وخصائص شعر الاسلاميين ٠

وفيما يتعلق بالاستشهاد بالشعر ، قد يسألني الناقد : لم أكثرت من الاستشهاد بشعرهم في بعض المواضع ، وقللت منه في بعض آخر ؟

فأقول له : ان البحث فى هذا كان نوعين ، نوعا يقتضى حشد أكبر عدد ممكن من الأمثلة ، للدلالة على شيوع هذا المعنى فى شعرهم ، وأهم ما يتمثل فيه هذا النوع ، الموضوعات ، فحين أقول مثلا أنه يشيع فى شعرهم الحديث عن الفقر ، فلا يبرز هذا الشيوع مثال أو مثالان ، وانما يبرزه عدد كبير من الأمثلة لشعراء عديدين ، حتى يبدو فعلا أن حديث الفقر شائع فى شعرهم ، وهكذا بقية الموضوعات ٠

والنوع الآخر هو بقية المعانى التى يكتفى فى التدليل عليها بالمحدود من الأمثلة ، وغاية مايلزم فى هذا النوع التمثيل لأكثر من شاعر ، أو للجاهلية والاسلام ان كان المقام يدعو أو يدعى اشتراك العصرين فى موضوع الحديث ٠

وأستبعد أن يكون الناقد قد عنى فيما عنى أننى لم أستشهد كثيرا بشعر غير الصعاليك ، للمقارنة بين شعر الصعاليك وهذا الغير ، أستبعد ذلك لأن موضوع البحث ليس مقارنة مباشرة بين شعر الصعاليك وغيرهم ، وانما بيان منهج شعر الصعاليك ، والخصائص والسمات الغالبة عليه ، فهو بحث موضوعى ذاتى ، وليس بحث مقارنة ، لذلك لم يكن هناك ما يدعو الى كثرة الاستشهاد بشعر غيرهم ، الا فيما يوجبه سياق معين ، وقد فعلت ذلك ، كما فى الحديث عن التصريع فى مطلع شعرهم ، فان الحكم على شعر الصعاليك من حيث تصريع المطلع ، يستوجب أن نرى تقاليد غيرهم من الشعراء فى مدى التزامهم التصريع، لنعلم حينئذ ، هل كان عدم التزام الصعاليك للتصريع أسلوبا خاصا بهم ، أم جريا على شىء مألوف ؟

وهناك سؤال لا أظن أنه يفوت الناقد ، وهو : كيف منهجك فى المراجع ؟

فأقول له : ان « شعر الصعاليك » الذى هو موضوع البحث ليس له قط - فيما أعلم - مراجع محددة مستقلة ، وانما هى بعض البحوث المعدودة فى بعض جوانب محدودة ، معظمها فى صورة فصل موجز من كتاب ، أو ترجمة لبضعة شعراء من مشهورى الصعاليك كالشنفرى وتأبط شرا والسليك بن السلكة،وقد أشرت الى اهمها فى مصادرشعرهم ، وذلك باستثناء البحث الذى أشرت آنفا اليه (١) وهو جزء من الموضوع ، وحول موضوع هذا البحث ، وليس فى صلبه ، ولا أظننى استفدت منه غير الارشاد الى بعض المراجع ، على أننى أعتقد أن اهم مرشد الى المراجع ، لبحثى وللبحث المذكور ، هو تاريخ الأدب العربى (٢) ، وذلك فى سياق حديثه عن ثلاثة من شعراء الصعاليك هم تأبط شرا والشنفرى وعروة بن الورد ، ولكنه فى هذا السياق ذكر أهم المراجع التى ورد فيها ما يتعلق بهؤلاء ، سواء فى المراجع القديمة أو البحوث الحديثة ، بل

(١) بحث الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف ٠
(٢) للمستشرق كارل بروكلمان وقد ترجمه الى العربية الأستاذ النجار ٠

كاد يستقصيها ، ان كنت أملك هذا التعبير ، ولكنى أعتقد أن منهجه فى المراجع خير نواة لأى بحث عن الصعاليك وشعرهم .

وأقول « نواة » لان المراجع مهما تعددت ، فليس فيها بحث عن الصعاليك وشعرهم ، وانما فيها نصوص متناثرة ، متفرقة أشد التفرق . يستطيع الباحث مع ذلك بجهده أن يكون منها مادة لبحث علمى .

وأتصور الناقد يقطع على حديثى ليقول : ولكنك لم تستوعب كل المراجع القديمة التى يمكن أن يكون فيها شىء من شعر الصعاليك ، فأذكر الناقد بما قلت فى بدء هذه المناقشة . من انه لا يظن أن مرجعا من المراجع القديمة يخلو من شعر الصعاليك ، ومع ذلك فقليل منها يحوى من شعرهم قدرا مفيدا ، أما الكثير فبعضه يردد متناثرات مكررة فى مراجع أخرى ، وبعضه لا يحوى من شعرهم شيئا ذا غناء ، وعلى سبيل المثال ، فان يتيمة الدهر للثعالبى بأجزائها الأربعة لا تحوى سوى بضعة أبيات من شعرهم ، قد لا تبلغ الخمسة ، متفرقة غير مجتمعة (١) ، وزهر الآداب للحصرى كذلك ، مع اختلاف فى نسبة بعض هذا البضع ، ومع لبس فى بعضه الآخر ، كاللبس الذى لم يوضح بين صخر الهذلى وأبى صخر الهذلى (٢) والأول صعلوك جاهلى سيأتى حديثه ، الثانى اسلامى أموى غير صعلوك وهذان المرجعان مثال لما يعانيه الباحث عن شعر الصعاليك من جهد فى بعض المراجع ثم يخرج منها بغير طائل ، وفضلا عن هذا الجهد فى غير طائل بالنسبة لبعض المراجع ، فانى أظن أن استقصاء كل ما فى المراجع القديمة على اختلاف أنواعها ، فوق طاقة أى باحث .

ولكن الذى عنانى ، والذى أعتقد أنه وفى بحاجة البحث ، هو جمع أكبر قدر ممكن من شعرهم ، مراعى فيه تمثيله لأكبر عدد من شعرائهم ، ومن موضوعات شعرهم ، ولكل النواحى التى يعنى البحث بدراستها وابرازها .

وكما بدأ الناقد حديثه بسؤال تقليدى ، فاننى أتوقع أن يختمه أيضا بسؤال تقليدى ، هو : على أى أساس رتبت أبواب بحثك ؟

وأجيبه بأن الشعر فى حقيقته هو مشاعر صاحبه نحو غيره ، أيا كان هذا الغير أعنى سواء كان هذا الغير من نوع الناس ، أم من نوع البيئة ومشاهدها ومخلوقاتها ، أم من أى نوع آخر ، بل حياة الشاعر نفسه وما يعانيه فيها ، وشخصه هو بذاته وأحاسيسه يعتبرهما الشاعر من أهداف شعره ، مبينا مشاعره نحوهما ، وأصل هذا المعنى قرره ابن رشيق فى قوله « وانما سمى

---

(١) أنظر للمثال جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٢) أنظر للمثال زهر الآداب (هامش العقد الفريد) ص ٢٩٨ .

(٣) أنظر خزانة الأدب للبغدادى ٣٧٧/٢ وحماسة أبى تمام ١٢٠/١ .

الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره » (١) ، والبغـــدادى فى قوله « وسمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر لما لا يشعر له غيره » (٢) ، ومعنى ذلك أن الشعر ليس الا تعبيرا عن مشاعر صاحبه نحو موضوع الشـــعر ، وهذا المعنى بجوانب أخرى متصلة به لم يعد موضع خلاف بين النقاد ، وحيث كان الشعر تعبيرا عما حوله ، لزم أن نلقى ضوءا على هذا الذى هو حوله من البيئة والظروف لنرى مدى تأثر ما حوله فيه ، ومدى تعبيره عما حوله ، وشـــعراء البحث هم الصعاليك ، وهم طائفة من الناس لم يجمعهم نسب ولا مكان ولا زمان ، وانمـا جمعتهم وحدة الظروف ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف ، وهـــذا الذى جمعهم أو اجتمعوا فيه نسميه الصعلكة ، واذن فقد كانت موضوعات البحث فى جوهرها وتلخيصها ، هى شعر الصعاليك من حيث مدى تأثير الظروف المحيطة به فيه ، ومن حيث تصويره لهذه الظروف وتعبيره عنها ، مع مراعاة أن كـــل الظروف المحيطة بهذا الشعر كانت تدور حول حياة الصعلكة ، نتيجة لتفـــرغ الصعاليك لهذه الحياة ، واعتزالهم بهـا عن المجتمعات ، وقد تمثل هـــذا فى الموضوعات وفى الخصائص ، وقد اقتضى الحديث عن شعر الصعاليك ، بيان الظروف التى أحاطت به ، وقد تمثل هذا فى نشـــأة الصعلكة وأسبابها فى الجاهلية والاسلام ، وقبل ذلك كله لزم أن نعرف طبيعة الصعلكة نفسها ، وقد تمثل هذا فى البحث اللغوى والاجتماعى عن مدلول الصعلكة ، وقد كان ترتيب هذه الموضوعات فى البحث كما يلى :

١ ـ المفروض قبل أى حديث عن الصعاليك وشعرهم أن نعرف حقيقـة الصعلكة والظروف والأسباب التى سمحت بنشأتها ، وأن نلم بصورة مهما تكن موجزة فينبغى أن تكون كافية لانارة البيئة التى عاش فيها الصعاليك ، والحياة التى أحاطت بهم ، لأن شعرهم لن يكون ـ كأى شعر آخر ـ الا تعبيرا وتصويرا لهذه الحياة والبيئة ، وقد جعلت هذا الموضوع الباب الأول لانبناء البحث كله على فهم الصـــعلكة . وعلى تأثير بقية الباب فى موضـــوعه الذى هو شـــعر الصعاليك .

٢ ـ قبل الحديث عن شعر أى شاعر يقتضى الوضع أن نعرف من هـــذا الشاعر ؟ وما صفاته وما مميزاته ان كان له ميزات ؟ لأن شعره ثمرة مشاعره وعقله ، وهو حكم عليهما أيضا ، لذلك جعلت الحديث عن الشعراء الصعاليك الباب الثانى ، وراعيت فيه الاقتصار فى ترجمة كل شاعر على ما يحدد شخصيته ويميزها عن غيرها ، مبينا زمنه من حيث الجاهلية أو الخضرمة أو الاســـلام ، وراعيت أيضا أن العدد الذى ترجمت له ، والذى جعلت شعره موضوع البحث

(١) أنظر العمدة ١/١١٦ .
(٢) خزانة الأدب ١/١٨٤ الشاهد ٣٨ .

بحيث يكون عددا كافيا فى تمثيل صعاليك العصر الذى ينتمى اليه ، وقد بلغ عدد الذين ترجمت لهم من فترات الجاهلية والخضرمة والاسلام ثلاثين شاعرا ، كل شعراء فترة على حدة ، وذكرت عددا آخر مشيرا الى بعض مراجع أخباره ،لمن أراد أن يطلب المزيد من تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم ·

٣ ــ وبعد ذلك كان من الطبيعى الحديث عن شعر هؤلاء الشعراء على ضوء ماسبقه من حديث صعلكتهم وبيئتها وظروفها ، فجعلته الباب الثالث ، وقد بينت فيه مصادره ، والاختلاف الذى وقع فيه ، ثم ركزت الحديث على صلب البحث ، وهو منهج شعرهم واتجاهاته الموضوعية ، وقد بدا منه أن شعرهم صورة من حياتهم فى الصعلكة بكل ما فى هذه الحياة من آلام الفقر وآثاره ، والهموم والشعور بالمطاردة ونحوهن ، وبكل ما فيها من حاجة الى أسلحة حسية وأسلحة نفسية ، وقد جعلت ذلك فى فصول محددة ، رتبتها حسب ما يقتضيه منطق حياة الصعلوك ، مشيرا الى هذا المنطق حينذاك ، وبالطبع لا تخلو حياة انسان من اجتماعيات ، وقد صور الشعراء الصعاليك اجتماعياتهم فى شعرهم ، فتحدثت عن ذلك ، مبينا منهجهم فى هذا النحو أيضا ، وقد كان منهجهم فيه حول حياة الصعلكة ومقتضياتها أيضا ·

٤ ــ والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن نرى هل كان شعرهم من الأصالة والشاعرية الصادقة بحيث يمثل حياتهم هذه المنفردة المتميزة عن غيرها فى كل شيء ؟ فجعلت هذا الحديث بابا رابعا وأخيرا ، لبيان الخصائص والسمات التى يتسم بها شعرهم فى جملته ، والتى تبدو مميزة له عن غيره ، ولما كان الاسلام كما قلت هو الفاصل الوحيد الذى أثر وخاصة الجانب الروحى منه فى شعر الصعاليك ، لذلك بينت هذا التأثير فى مقارنة بين شعر الجاهليين والاسلاميين منهم · وبعد هذا فلست أزعم للناقد أن هذا البحث قد أغلق الباب على الباحثين فى الصعاليك وشعرهم ، بل على العكس أرجو أن يكون هذا البحث فتحا للباب أمامهم ، وليس غلقا له ، فان فى أشخاص الصعاليك من الصفات المتميزة ، ومن المواهب النفسية والجسدية ، ومن الفضائل أيضا ما يدعو حتى الباحثين فيهم ، الى معاودة البحث فى شأنهم مرة أخرى ·

ولست أشك فى أن الدارس للصعاليك وشعرهم يخرج من دراسته هذه ، بصورة تختلف اختلافا الا يكن كاملا فهو غير يسير عن الصورة التى كانت مرتسمة فى ذهنه وذهن كثير غيره عنهم ، وما أظن هذا الدارس الا منتهيا الى أسف غير ضعيف على طائفة جنت عليها بيئتها ، وجنى عليها مجتمعها ، حيث دفعاها أو ساهما بأكبر قسط فى دفعها الى الشر دفعا ، ثم طمسا ما فيها من خير وفضل باغلاق السبل فى وجهه أو تحويله الى شرور عاتية ·

وما أظن هذا الدارس الا موافقا لى على أن هذه الطائفة لو أتيح لها مجتمع

غير مجتمعها لكان لكثير من أفرادها شأن غير هذا الشأن ، ويكفى أن منهم من لو أنصفه الناس لعدوه من رواد الاشتراكية فى التاريخ كله ، كعروة بن الورد ، ويكفى أيضا فى خلقهم أنهم جميعا كانوا أعف الشعراء لسانا ، سواء حين يرضون وحين يسخطون .

وما أظن هذا الدارس أيضا الا موافقا لى على ما هو أهم من ذلك لموضوع البحث ، وهو أن شعر الصعاليك الا يكن جيدا رائعا كله، فان كثيرا منه ، وخاصة كثيرا من جاهليه يسمو الى قمة فى جودة الشاعرية والتصوير تنافس أسمى ما وصل اليه الشعر العربى ان لم تجاوزه فى بعض الأحيان ، كما فى لامية العرب ، وبعض شعر الهذليين ، وأن هذا الشعر ان يره البعض متخلفا بعض الشيء فى بعض النواحى غير الموضوعية كعدم وفائه بكل الأغراض التى طرقها الشعر العربى ، فقد تقدم على غيره فى نواح أخرى كان فيها أتم من نضج غيره ، كالأسلوب القصصى ، والتمثيل الواقعى لحياة أصحابه وأشخاصهم

وفى ختام هذا الحديث أقول : مع أن فى المحاورة السابقة فيما أظن عونا حقيقيا وصادقا للناقد ، الا أن من الحق ومن أمانة العلم التى تحدثت عنها أن أقول : أنه لم يكن فى ذهنى ناقد حقا حين لجأت الى هذه المحاورة ، ولكننى وجدتنى اضيق بجفاف كثير من المقدمات ، فأشفقت على قارىء هذه المقدمة أن يحس نحوها بالضيق الذى أحسه نحو كثير من المقدمات ، فلجأت الى هذه المحاورة ، راجيا أن تخفف بعض ما قد يكون فيها من جفاف ، وقبل ذلك كله ، وبعده أيضا ، أسأل الله جل علمه التوفيق .

د . عبد الحليم حفنى

الباب الأول

الصعلكة

١ ـ الصعلكة فى اللغة

قال القـــاموس المحيط « صـــعلكه أفقره » ٠٠ والصـــعلوك الفقير ، وتصعلكت الابل طرحت أوبارها ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد ، لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنمه ، وصعلك الثريدة اذا جعـــل لهـا رأسا ، والمصعلك من الأسنمة الذى كأنمـــا حدرجت أعلاه حدرجة ، وقال الأصمعى فى قول أبى دؤاد يصف خيلا :

قد تصعلكن فى الربيع وقرع جلد الفرائض الأقدام ٠

قال تصعلكن دققن وطار عفاؤها عنها ، والفريضة موضع قدم الفارس ، ٠٠ وصعلك البقل الابل أى سمنها ٠٠ » ٠

وفى هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر ، وأنها فىاستعمالاتها الأخرى تدور أيضا حول الفقر ، أما بمعناه المباشر وهو التجرد ، فان الفقـــر فى الانسان هو التجرد من الغنى ، وكذلك التصـــعلك فى الابل بالتجرد من أوبارها وصعلكة الثريدة تجريدها من الضـــخامة ، وهكذا ، وأمـا بآثـــاره كالضـــمور والهزال مثـــل تصعلك الأسنمة باستدارتهـا وضـــمورها بالنسـبة للأسنمة الأخـرى المنبعجة والضـــخمة ومن هذا تصعلك الخيـل فى الربيع فى البيت السابق ، كما أشار الاصمعى الى ذلك فى شرحه للبيت السابق بقـوله « دققن ، وطار عفاؤها عنهـــا » وأما كون تصعلكهـا فى الربيع فقـــد يكون ذلك لأن الشاعر أراد اجهاد الخيل وارهاقها بركوبها والتنقل بها وراء الرزق الذى يرجى نموه فى الربيع ، ويؤيد ذلك قوله « قرع جلد الفرائض الأقدام » والفريضة موضع قدم الفارس ، أى أن جلود الخيل من كثرة احتكاك الأقـدام بها فى الركوب ، وحثها على السرعة ، قد تقرعت ٠

فيمكن اذن رد كل هذه الاستعمالات الى معنى الفقر أو آثاره من ضـــمور

وهزال ونحو ذلك ، ولا يصطدم بهذا مثل قوله « وصعلك البقل الإبــل أى سمنها » ومع ذلك يمكن حمله على آثار الفقر أيضا ، فقد يراد أن الابل حين تسمن تسلك مسلك الصعاليك – بالمعنى العرفى للصعلكة – من النفــور والشرود والهياج ، والصعلكة بهذا العرف تعتبر فى أهم جوانبها أثرا من آثار الفقر .

وقال فى لسان العرب « الصعلوك الفقير الذى لا مال له ، زاد الازهــرى ولا اعتماد ، وتصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم :

غنينـا زمانا بالتصـعلك والغنى فكلا سقاناه بكاسيهما الدهــر
فما زادنا بغيـا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

وتصعلكت الابل خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصـعلك الرأس مدوره ورجل مصعلك الرأس صغيره ، وقال شمر : المصعلك من الأسنمة الذى كانما حدرجت أعلاه حدرجة كانما صعلكت أسفله بيدك ثم مطلتـــه صعدا أى رفعته على تلك الدملكة والاستدارة ، قال الأصمعى يصف خيلا :

قد تصـــعلكن فى الربيــع وقرع جلد الفرائض الأقدام

قال : تصعلكن دققن وطار عفاؤها (١) عنها .

ومن هذا نرى أن صاحبى اللسان والقاموس متفقان على أن المعنى الأصـلى للصعلكة هو الفقر ، وأن استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد الذى هو معــنى الفقر أو أثر من آثاره ، وأن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوى للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفى لها بقوله « وزاد الأزهرى ولا اعتماد » فان قوله « ولا اعتماد » يعبر عن معنى دقيق فى مفهوم الصـــعلكة بالمعنى المعروف لها ، واذا كان الفقر من أهم الدوافع الى الصعلكة ، فان ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا من أحد من الناس عمادا لهم ، فى حين رضى بعض الفقراء لأنفسهم عيش الذل ، واستدرار الحسنات، ويعبر أحد الصعاليك وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقــر منا يعش بحســامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(٢)

وأما الجوهرى فيقول فى الصحاح عن الصعلكة الصعلوك الفقير .... وصعاليك العرب ذؤبانها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنــه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم ممــــا يغنمه ، والتصعلك الفقر ، قال الشاعر .

---

(١) العفاء بكسر العين قال فى القاموس هو الشعر الطويل الوافى .
(٢) حماسة أبى تمام جـ ٢ ص ٩٣ .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى ٠

أى عشنا زمانا ، ويقال تصعلكت الابل اذا طرحت أوبارها ٠٠ وبهذا نجد أن الصحاح يتفق مع لسان العرب والقاموس المحيط (١) فى أن المعنى الأصلى هو الفقر ، وان استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد ٠

ولكننا نلاحظ أن الصحاح بقوله « وذؤبانها » قد تقدم نحو المدلول العرفى للصعلكة خطوة كانت أوسع من خطوة اللسان ، فقد أشار بذلك الى أن الصعلكة تستعمل فيما تستعمل فيه كلمة « ذؤبان » وحين نذهب اليه أعنى الصحاح ، فى شرحه لكلمة « ذؤبان » نراه يقول « وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون »،فقد صرح اذن فى شرحه لكلمة « ذؤبان » أن الذؤبان هم الصعاليك، وأن الصعاليك ليسوا مجرد الفقراء ، وانما يتلصصون ، فى حين أنه لم يذكر هذا المعنى صراحة فى شرحه للفظ الصعلكة ٠

ومن العجيب أن المعاجم الأخرى شاركتالصحاح أيضا فى أنها كانت أكثر توضيحا لمدلول الصعلكة الاجتماعى أو العرفى عند شرحها لمادة « ذأب » أما فى مادة الصعلكة نفسها فقد اكتفت بالتركيز على معنى الفقر والاستعمالات التى تدور حوله وحول آثاره ولوازمه ٠

وكذلك فعلت معظم كتب الأدب واللغة ، فمع أننا نجدها تسوق أخبار الصعاليك على أنهم قطاع طرق أو فتاك أو لصوص نجدهم عندما يتعرضون لشرح كلمة صعلوك لا يكادون يتعدون الفقر أو التجرد من المال كما فعل المبرد(٢) والقالى (٣) ، وقليل من هذه الكتب ما يتحدث عن المعنى العرفى للصعلكة ، كما ورد فى جمهرة أشعار العرب حيث يقول « الصعلوك الفقير ، وهو أيضا المتجرد للغارات » (٤) ، وهو - فيما نعلم - أكمل تعريف أوردته الكتب لمعنى الصعلوك أو لشرح الصعلكة أما الكتب الأخرى فلا نملك الا أن نسجل عليها شيئا من قصور فى شرحها للصعلكة ، وكذلك دوائر المعارف التى أخذت عنها (٥) ٠

حيث اكتفى معظمها باعتبار أن الصعلكة هى الفقر أو التجرد من المال (٦) وأورد بعضها زيادات وان كانت تشير الى المدلول العرفى (٧) ، الا أنها لا تصرح

(١) مع مراعاة أن القاموس متأخر عن الصحاح وآخذ عنه كما فى خطبة القاموس ٠

(٢) الكامل جـ ١ ص ٣١٠ ٠

(٣) الامالى جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ ٠

(٥) مثل دائرة معارف القرن العشرين ٠

(٦) كما فى القاموس مادة (صعلك) والكامل جـ ١ ص ٣١٠ والأمالى جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

(٧) كما زاد فى اللسان (ولا اعتماد) وفى الصحاح (وصعاليك العرب ذؤبانها) وكلاهما فى مادة (صعلك) ٠

به . مع انها جميعا تتفق ولكن فى مواضع أخرى غير موضع لفظ الصعلكة ، على ان الصعلوك ليس هو مجرد الفقير ، فكتب اللغة (١) تشرح الصعلكة على انها اللصوصية والتذؤب ولكن فى مادة أخرى – كما سيأتى – هى مادة ذاب ، وكان أولى بها أن تسوق ذلك فى مادة الصعلكة نفسها .

وكتب التراجم واللغة والأدب تصف أشخاصا بأنهم صعاليك ، وتسوق أخبار صعلكتهم على أنها لصوصية وغارات وفتك ونحو ذلك ولكن معظمها حين يشرح لفظ الصعلكة يعرفها أيضا بأنها الفقر والتجرد من المال (٢) دون أن يعرض لمدلولها العرفى الذى يتحدث عن الصعاليك به .

٢ – الصعلكة وألفاظ أخرى :

والواقع أن هناك ألفاظا أخرى تشارك الصعلكة فى مدلولها ، ولا يسمح البحث فى هذا الموضوع أن يتجاهلها ، لأن فى تجاهلها اخلالا بجوانب من الموضوع نفسه ، وذلك أن موضوع البحث لا تعنيه الصعلكة بمدلولها اللغوى وهو الفقر، وانما يعنيه مدلولها العرفى ، وهو اللصوصية وقطع الطريق ، وباقى أساليبهم العدوانية ، وهذا المدلول تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى تعارفت كتب التاريخ والأدب العربى أن تصف بها هذه الطائفة التى نحن بصددها ، دون تحديد فاصل بينها ، بحيث نجد بعضها يتداخل فيؤدى معنى البعض الآخر ، كما فعلت معاجم اللغة فى احالتها معنى التصعلك على التذؤب واللصوصية .

وهذه الألفاظ كثيرة ، وأشهرها ، لص ، وذئب ، وفاتك ، وخليع ،وشيطان، وشاطر ، وبعض هذه الألفاظ ألصق بالصعلكة من بعض .

ومن الواضح أن أقرب هذه الألفاظ الى المدلول العرفى للصعلكة هو **اللص**، وذلك بحكم وضعه اللغوى ، وبحكم استعماله .

وقد لقيت كلمة « ذؤبان » اهتماما فى توضيح مدلولها العرفى أكثر من الاهتمام بغيرها ، ففى القاموس المحيط « ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » وفى الصحاح « وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون » وفى أساس البلاغة « من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطارهم » وفى لسان العرب « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب ، وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون»(٣)وهكذا تتفق كتب اللغة مع الروايات

(١) كالصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط ، أنظر فيها مادة (صعلك) ومادة (ذاب)

(٢) أنظر على سبيل المثال الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج ١ ص ١٥٩ والامالى للقالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) أنظر مادة (ذاب) فى الكتب السابقة .

الأدبية والأخبار على وصف الصعاليك بأنهم من ذؤبان العرب ، وتتفق أيضـــا على أن لفظي ذؤبان وصعاليك يؤديان معنى واحدا يدور حول السطو واللصوصية٠

وأما لفظ « فاتك » فقد تذبذب بين استعمالين ، استعمال في معنى السطو وقطع الطريق ، أي في معنى الصعلكة ، واستعمال عام يدور حول الجرأةوالشجاعة وان كان فيه شيء من اساليب الصعاليك ، فأما الاستعمال الأول فقد ورد كثـيرا في تراجم الصعاليك كأبي خراش (١) ٠ وسعد بن ناشب (٢) ، وفي أخبـــار أخرى ، كما يروى الميداني عن فاتكين مجهولين يقول أحدهما للآخر « هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحـدا من عشـيرتك أو عشيرتي الا ســلبناه ، قال : نعم ، فتعاقدا على ذلك ، وكلاها فاتك يحذر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلباه ٠٠ الخ »

وأما الاستعمال الثاني وهو الجرأة والشجاعة ، فنجده في كتب المعاجــم يقول : القاموس المحيط » فاتك : جريء شجاع ، وفتك به انتهز منه فرصـــة فقتله أو جرحه (٣) ٠٠ » ونلاحظ أنه يضيف الى الجرأة والشجاعة معنى آخــر هو المغافلة والغيلة ، وهذا المعنى هو الذي يربط الفتك بالصعلكة ويجعلهمـــا عند التطبيق في وصف شخصي ما يلتقيان بحيث يؤدي أحدهما معنى الآخر ،وهذان المعنيان للفتك ، الجرأة والغيلة ساقهما الصحاح حيث يقول : « الفاتك :الجريء، والجمع فتاك ، والفتك أن يأتي الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليـــه فيقتله ، وفي الحديث (قيد الايمان الفتك) (٤) ٠

وأما صاحب لسان العرب فقد أضاف الى المعنيين السابقين معنى آخر ، هو مضاء العزيمة وعلو الهمة مع الاستقلال بالرأي ، فنجده يقول « الفتك : ركوب ما هم من الأمور ودعت اليه النفس ، والفاتك : الجريء الصدر ، وفاتك : جريء وفتك بالرجل انتهز منه غرة فقتله أو جرحه ، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة٠ وكل من قتل رجلا غارا فهو فاتك ، ومنه الحديث أن رجلا أتى الزبير (بن العوام) فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فقال ســمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قيد الايمان الفتك ، لا يفتك مؤمن ٠ قال أبو عبيد الفتك : أن يأتي الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتـله

---

(١) خزانة البغدادي ٢٩٩/١ وشرح حماسة أبي تمام ٣٢٦/١ ٠

(٢) الكامل للمبرد ١٢١/١ ٠

(٣) أنظر مجمع الأمثال ٣/٢ ٠

(٤) مهذب الأغاني ٩٩/١ ٠

(٥) أنظر القاموس المحيط مادة (فتك) ٠

(٦) أنظر تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (فتك) وفي شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ج ١ ص ٢٣ (الفاتك الذي يفاجيء غيره بالمكروه) وفي مجمع الأمثال ج ٢ ص١٠٧ (الفتك يعني الغيلة وهي القتل مكرا) ٠

وان لم يكن أعطاه أمانا قبل ذلك ، ولكن ينبغى له أن يعلمه ذلك قال المخبل السعدى :

واذ فتك النعمان بالناس محرما فملء من عوف بن كعب سلاسله

وكان النعمان بعث الى بنى عوف بن كعب جيشا فى الشهر الحرام وهم آمنون غارون فقتل فيهم وسبى ·

وقال الفراء : الرجل يفتك بالرجل : يقتله مجاهرة ·

وقال ابن شميل : تفتك فلان بأمره : مضى عليه لا يؤامر أحدا ·

وقال أبو منصور : أصل الفتك فى اللغة ما ذكر أبو عبيد ، ثم جعلوا كل من هجم على الأمور العظام فاتكا قال خوات بن جبير ·

على سمتها والفتك من فعلاتى (١) »

فنجد اللسان يحدد ثلاثة معان للفتك ، أحدها عام ، وهو الجرأة والشجاعة وهو وان كان من صفات الصعاليك الا أنه عام فيهم وفى غيرهم ، فالصلة فيه بين الفتك والصعلكة غير واضحة ، أما المعنيان الآخران وهما الغيلة واستقلال العزيمة فهما من شعارات الصعاليك وخصائصهم · لأن الغيلة وانتهاز الغفلة من لوازم الصعاليك ، الذين يعتمد عيشهم وسلوكهم على السطو والغارات واللصوصية ، وكذلك استقلال العزيمة ومضاؤها من لوازمهم أيضا بحكم اعتماد حياتهم على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك والتصدى الدائم لمجابهة الاعداء ، سواء كان هؤلاء الأعداء مهاجمين أو مدافعين ، ولذلك نجد هذا المعنى شائعا فى شعر الصعاليك ، حيث يفخرون دائما بمضاء عزيمتهم واستقلالها ، وعدم ركونهم الى المشورة أو التردد كما يقول سعد بن ناشب عن نفسه ·

اخى غمرات لا يريد على الذى يهم به من مفظع الأمر صاحبا
اذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحبا(٢)

ويقول فى مرة أخرى :

اذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجى ذى الأثر(٣)

وعمرو بن براقة يجعل لنفسه عالما وحده ، فانه حينما يوغل الليل فى الدجى حتى يكفهر ، وحينما يوغل كل شىء فى النوم حتى يصفو الجو للبوم ، يتحول هو الى قوة مقدمة حازمة فيقول :

---

(١) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (فتك) ·
(٢) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ١٤ ·
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧١ والسريجى : السيف · الأثر : فرند السيف ·

اذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الافراط بوم جواثم
ومال بأصحاب الكرى غالباتــه فانى على أمر الغــواية حازم (١)

وهذان المعنيان هما الرابطة بين الفتك والصعلكة ، وهما اللذان جعلا لفظ فاتك يطلق فى أغلب حالاته مرادا به الصعلكة فى معنـــاها العرفى من اللصوصية وقطع الطريق وما ينحو منحاهما .

ولكننا فى حالات قليلة نجـد لفظ فاتك يوصف به أشخاص ليســوا من الصعاليك مرادا به مجرد الجرأة والشــجاعة ، كمـا وصف عمرو بن كلثوم بأنه فاتك ، مع أنه كان سيد تغلب غير منازع بل ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة (٢) بل يضربون به المثل فى الفتك (٣) فالمراد فى وصفه به مجـرد الشجاعة ، وضرب المثل به اشارة الى قصة فتكه بعمرو بن هند ، وكذلك ضربوا المثل فى الفتك بأشخاص آخرين ، اشارة الى قصة مشهورة لكل منهم كان فيهـا جريئا ، وان كان أغلب هذه القصص فيها طابع الغدر والغيلة الا أنها لا تكفى لجعلهم من الصعاليك ، وذلك كقولهم أفتك من البراض (بن قيس الكنانى) وأفتك من الجحاف (بن حكيم السلمى) ، وأفتك من الحارث بن ظالم (٤) .

وبالاضافة الى ما سبق نستفيد من بحث هذا اللفظ ما يوحيه معنــاه وفهم العرب له من معانى الخلسة والغيلة والمغافلة ، وأثر ذلك فى حياة الصعاليك وتأثر مجتمعاتهم به .

خليـع :

فى الصحاح « تخالع القوم اذا نقضوا الحلف بينهم .. وغلام خليــع هو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطلبوا بجنايته (٥) » .

وفى لسان العرب « .. وغلام خليع وهــو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطالبوا بجنايته ، والخولع الغلام الكثير الجنايات ، والخليع الرجـل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرءون منه ومن جنايته ، ويقولون انا خلعنا فلانـا فلا نأخذ أحدا بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التى يجنيها ، وكان يسمى فى الجاهلية الخليع ، وفى الحديث » وقد كانت هــذيل خلعوا خليعا لهم فى الجاهلية « قال ابن الأثير كانوا يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والاعانة ، وأن

---

(١) الأمالى ج ٢ ص ١١٩ وفى مهذب الخضرى لأغانى الأصفهانى ج ١ ص ٩٢ مع اختلاف فى بعض الألفاظ .
(٢) خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٣٢٨ ومهذب الخضرى لأغانى الأصفهانى ج ١ ص ١٩٣
(٣) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٧٨ الى ص ٩٠ .
(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ الى ص ٩٠ .
(٥) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى مادة (خلع) .

يؤخذ كل واحد منهم بالآخر فاذا أرادوا أن يتبرءوا من انسان قد حالفوه أظهروا ذلك للناس وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليع أى مخلوع ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم فكأنهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه »(١)

وقال فى القاموس المحيط « ٠٠٠ وكان فى الجاهلية اذا قال قائل هذا ابنى قد خلعته كان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع ومخلوع ٠٠ والخلعــاء جماعتهم ، وبطن من بنى عامر بن صعصعة كانوا لا يعطون أحــدا طاعة ٠٠٠ والخــولع المقامر المجــدود الذى يقمر أبدا ، والغــلام الكثير الجنــايات كالخليع ٠٠٠ » (٢) ٠

فالصحاح ساق فما يتعلق بموضوعنا معنيين يشيران الى بعض التقاليد العربية ، التى وضحها اللسان والقاموس ، فمن تقاليدهم الأحلاف ، ســواء كانت بين فرد وجماعة أم بين جماعتين ، فيمكن لشخص فى أى ظرف من الظروف التى تحتاج عونا وسندا أن يلجأ الى غيره يطلب جواره وحماه ، ويسمى ذلك جوارا أو حلفا ، كما يمكن أيضا لجماعة أو قبيلة أن تحالف أخرى ، فاذا احتاج المجير أو الحليف الى التخلى عن جواره أو حلفه فعليه أن يعلن ذلك للناس ، كما أن الحلف والجوار فى عقدهما يستلزمان ذلك حتى يأخذ الجار أو الحليف كل حقوق جاره أو حليفه ٠ يعلن المجير للناس أننى أجــرت فلانا ، فيصبح العدوان على الجار ٠ عدوانا على المجير ، ويعلنون أيضا أننا حالفنا بنى فلان ، فيصبح العدوان على حلفائهم عدوانا عليهم ، وعندما يحتاجون الى فض الحلف أو الجوار عليهم أيضا اعلانه للناس ، فيصبح المجير فى حل من جاره ،والحلفاء فى حل من حلفائهم ، ويسمى فض الحلف بين الجماعات نقضا كما يســمى تخالعا ، والى هذا قصد الصحاح ، أما بالنسبة للفرد فيسمي خلعا ، ويسمى المنقوض عهده خليعا ٠

وهناك عادة تعنينا للموضوع أكثر من غيرها ، وهى خلع القبائل لبعض أبنائها ، وذلك ــ كما اتفقت كتب اللغة ــ فى حالة واحدة ، هى أن تكثر جنايات شخص بحيث يصبح عبئا ثقيلا على قومه ، لأن الجنايات كان يترتب عليهــا أحد أمرين ، اما الانتقام بالسيف ، وذلك اذا كانت الجماعة المعتدى عليها ذات عزة وقوة ، فتأبى الا أن تنتقم بالسيف ، واما المطالبة بالدية وذلك فى الأحوال العادية ، وكلا الأمرين ، الانتقام والدية مرهق ثقيل ، فحينما تتكرر حوادث شخص وجناياته بحيث يصبح ضره لأهله أكثر من نفعه ، وعند ما يرونه عبئا لا تطيقه حياتهم يتبرءون منه ومن جناياته ، فلا يطالبون أحدا ولا يطالبهم أحد

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) ٠

(٢) القاموس المحيط للفيروزابادى مادة (خلع) ٠

بجناية جناها أو جنيت عليه ، ولكن بشرط أن يكون التبرؤ علنيا مشهورا بحيث يبلغ الجماعات الأخرى وكان ذلك يتم غالبا فى الأسواق لأنها كانت تجمع أناسا من مختلف القبائل والأنحاء ، ولكن المعنى الذى يهمنا فى هذا الموضوع ، والذى ينبغى أن نقف عنده هو اجماعهم – كما رأينا – على أن هناك سببا معينا من أجله وحده تخلع القبيلة أحد أبنائها وتتبرأ منه ، هذا السبب هو كثرة جنايات هذا الفرد (١) وبالتالى نتساءل : ومن الذى تكثر جناياته ؟ لا شك أنه شخص فرغ حياته لارتكاب الجنايات ومزاولة الأعمال التى تترتب عليها الجنايات • وهذه الصفة لا تتحقق الا فى شخص يتخذ من هذه الحياة مهنة أو عيشا دائما له ، وحينئذ لا نجد طائفة تنطبق عليها هذه الصفة الا الصعاليك الذين عرفهم صاحب جمهرة أشعار العرب بقوله « الصعلوك : الفقير ، وهو أيضا المتجرد للغارات » (٢) •

ولذلك نجد معظم الصعاليك موصوفين بهذا الوصف كأبى الطمحان القينى ، وقيس بن منقذ بن الحدادية ، وصخر الغى الهذلى (٣) والأحيمر السعدى (٤) •

والذين لم يوصفوا بهذا الوصف من الصعاليك نعتقد أن السبب فى عدم خلعهم ظروف خاصة تتعلق بارتباطهم بأقوامهم ، كالشنفرى الذى لم يرتبط بقومه لأن بنى شبابة بن فهم أسروه منذ صغره فعاش فيهم ثم فى بنى سلامان ابن مفرج بعد قصة المفاداة به (٥) فلم تكن بقومه حاجة الى أن يخلعوه لأنه بعيد عنهم ولا يطالبهم أحد بجناياته ، وكعروة بن الورد الذى لم يخلعه قومه لأنه كان مصدر نفع وقوة لهم ، بل كان من معالم مجدهم التى ظلوا يتناقلونها أجيالا ، كما فى أحاديثهم عنه الى عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان (٦) •

وهناك ألفاظ أخرى كشيطان وشاطر وعيار تدور فى فلك الألفاظ السابقة لم نر ما يدعو الى الاطالة بالحديث فيها •

---

(١) يراعى ما ذكره القاموس من تسمية بنى عامر بن صعصعة خلعاء لأنهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة واهمية ذلك فى الصلة بين الخلع والصعلكة •

(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ •

(٣) أنظر على سبيل المثال تراجم هؤلاء بالأغانى للاصبهانى ١/٣٦، ٩٩ ، ٢/١٨٥ •

(٤) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٩٠ •

(٥) شرح المفضليات عن ابن الانبارى جـ ١ ص ١٠٨ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ ١ ص ١٠٤ ومهذب الأغانى ١/٩٥ – ٩٩ •

(٦) أنظر هامش الاصعيات ص ٣٥ والتنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ١١٣ ومهذب الأغانى ٢/٣٣ •

ونخرج من هذا الحديث اللغوى بأن لدى العرب ألفــاظا يكمل مدلول بعضها مدلول البعض الآخر ، وأنها وان اختلفت مدلولاتها من لصوصية أو فتك أو غارة أو نحوهن الا انها تنتهى الى سلوك معين ، هذا الســلوك يتميز بأنه سلوك « عدوانى » مهما اختلفت صوره وأساليبه ، ويتميز أيضا بأنه ســلوك دائم بالنسبة لصاحبه ، بمعنى أنه لا يمثل حادثا أو حوادث محدودة ، وانما يمثل السلوك الدائم الذى يبلغ درجة الوصف ، بحيث يحقق صفة دائمة يوصف بها صاحب هذا السلوك • ونخرج أيضا بأن هذه الالفــاظ أصبح عنوانهـا « الصعلكة » وأنها حين تطلق ، فالمجال الطبعى لها هو مجال الصعاليك •

على أن أهم ما نستفيده من اختلاف هذه الألفاظ ، هو تنوع أســاليب الصعلكة ، حيث يدل كل لفظ منها على أسلوب معين فى مزاولة صاحبه لسلوكه العدوانى ، فنخرج منهــا بأن للصعلكة أســاليب متنوعة فى مزاولتها ، وأن الروايات حيثما تنسب لفظا منها الى أحد الصعاليك فى ترجمته ، فانما تعنى أسلوبه وطريقته التى عرف بها فى الصعلكة ، وهذا لا يمنع أن يكون للصعلوك الواحد أكثر من طريقة ، حينما ينسب اليه أكثر من لفظ من هذه الألفاظ فى ترجمته وأخباره •

الصعلكة فى العرف العربى :

انتهينا فى الحديث السابق الى أن رجال اللغة قاربوا بين مدلول عــدة ألفاظ كصعلوك وذئب وخليع وفاتك ولص ، وجعــلوها فى جملتها تنتهى الى غاية واحدة ، هى التعبير عن « سلوك عدوانى » وأن هذه الألفاظ تعتبر صورا وأساليب لهذا السلوك ، فأحيانا يكون لصــوصية ويسمى صاحبه لصــا ، وأحيانا يكون تذؤبا أى فيه خلق الذئب ويسمى صاحبه ذئبا ، وأحيانـا يكون فتكا فيه طابع المغارة والغيلة ، ويسمى فاعله فاتكا ، وما الى ذلك ، وأن هــذه الأساليب تدخل فى مفهوم الصعلكة ، كما رأينا فى المعاجم السابقة مثل قولهم « ذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون (١) » فهــذا التعبير يتضمن ثلاثة ألفاظ هى ذئب ، وصعلوك ، ولص ، وقد جعلها كلها مجتمعة تؤدى معنى واحدا هو الصعلكة بالمعنى العرفى الذى هو موضوع هــذا الحديث • فالصعلكة اذن عند اللغويين يمكن أن تكون مجموع الصفات التى تؤديها هذه الألفاظ الأخرى كذئب وفاتك وخليع ولص ، كما يفهم من شرحهم لتلك الألفاظ عامة ، وكمــا رأينا من اتفاقهم جميعا على أن الذؤبان هم الصعاليك •

وقلنا هنــاك ان اللغويين اهتموا بشرح الصعلكة فى مواد أخــرى غير مادتها ، أما فى مادة (الصعلكة) نفسها فقد اهتموا ببيان أصلها وهو الفقر ،

(١) الصحاح للجوهرى مادة ذاب •

وقصروا فى بيان مدلولها العرفى ، وهو السلوك العدوانى المستمر فى صوره المختلفـــة ·

ونريد هنا أن نعرض للصعلكة لنرى موضعها من الاستعمال والعـــرف العربى فنقول :

أما الاستعمال العربى ســـواء فى الجاهلية والاسلام ، فنجده يغلب عليه ربط الصعلكة بمدلول آخر غير الفقر أو مع الفقر ·

فحينما يتحدثون عن الصعاليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص ، شعاره الاعتداد بالنفس دون الأهـــل أو القبيلة ، ووسيلته العدوان فى أى صورة تتهيأ له ، فيقطع الطريق حينما يتاح له قطعها ، ويسطو ويغزو متى وجد الى ذلك سبيلا ، ويفتك حينما تمكنه الغرة ،ويتلصص ان لم يجد الى ما سبق وسيلة ، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال فى أغلب الأحيان أو تحقيق مآرب خاصة دائما ·

ولنسق بعض الأمثلة استشهادا على ذلك ·

ففى قصة النعمان بن المنذر حينما رفض أن يزوج كسرى قائلا لرسول كسرى « أما كان فى عين السواد وفارس ما يغنيه عن بناتنا ؟ » فغضب عليه كسرى ، مما اضـــطر النعمان الى أن يستجير بالقبائل حتى نزل سرا فى بنى شيبان عند هانىء بن قبيصة ، ثم قال له هانىء « عندى رأى لست أشير به لأدفعك عما تريد من مجاورتى ، ولكنه الصواب ، فقال : هاتـــه ، قال : ان كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه الا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك · امض الى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالا ، وألق نفسك بين يديه ، فاما أن يصفح عنك فعدت ملكا عزيزا ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ، ويختطفك ذئابها (١) » ·

فليس من المعقول أن يكون هانىء بن قبيصة قصد بالصعاليك مجـــرد الفقراء ، فان الفقراء ليسوا مصدر خطر يخوف به أو منه الناس ، وانما المعقول أن يكون هانىء خوف النعمان من قطاع الطرق ومحترفى الغارات الذين يمكن أن ينالوه فى مخبئه أو أثناء تنقله بين القبائل ، كلما انكشف نزوله لدى قبيلة انتقل الى غيرها · فمدلول الصعلكة فى هذه القصة غير الفقر ·

وفى قصة مقتل المتنبى يقول فاتك الأسدى للمتنبى قبل رحلته التى قتل

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى جـ ١ ص ٢٦١ ·

فيها « والطريق بينك وبين دير قنة خشن قد احتوشته الصعالكة ، وبنو أسد يسيرون فى خدمتك الى أن تقطع هـذه المسافة ، فيقول المتنبى : ما أبقى الله بيدى هذا الأدهم وذباب الجراز الذى أنا متقلده فانى لا أفكر فى مخلوق (١)» ولكن تشاء الظروف أن يكون مقتل المتنبى على يد هؤلاء الصعاليك الذين خوفه منهم فاتك ٠

ومن الواضح أن مدلول الصعلكة هنا قطع الطريق وليس الفقر ٠
والقصة الأولى كانت فى الجاهلية ، والثانية فى الاسلام ٠

ونجد الشعر ، وخاصة شعر الصعاليك أكثر توضيحا لهذه الحقيقة ، مع مراعاة أن الشعراء ليسوا الا جزءا من مجتمعهم ، يتحدثون بلغته ، ويصدرون عن معارفه وأعرافه ، فهذا الشاعر الجاهلى عمرو بن براقة وهو أحد الصعاليك ، يفسر لنا الصعلكة فى حوار مع امرأة ٠

يبين فيه أنه هو والمرأة يعرفان أن الصعاليك طراز آخر غير الفقراء ، وذلك فى قصة غارة أغارها ، انتقاما لغارة أغير عليه بها ، فيقول عن المرأة التى أرادت أن تثبطه عن الغزو بأنه لم يبلغ مبلغ الصعاليك فى جرأتهم واقدامهم وركوبهم المخـاطر ٠

يقـول :

تقـول سليمى لا تعـرض لتلفة ‏ ‏ ‏ ‏ وليلك عن ليـل الصعاليك نائم

وقد رد عليها منكرا تجاهلها أنه صعلوك ، وتجاهلها صفاته باعتباره فردا من الصعاليك فيقول لها ٠

وكيف ينام الليـل من جـل ماله ‏ ‏ ‏ ‏ حسـام كلون الملح أبيض صـارم
ألم تعلمى أن الصـعاليك نومهـم ‏ ‏ ‏ ‏ قليـل اذا نام الخـلى المسـالم
اذا الليـل ادجى واسجهرت نجومه ‏ ‏ ‏ ‏ وصاح من الافـراط بوم جوائم (٢)

فالصعلكة هنا أيضا ليست هى الفقر ٠

كذلك حين نتتبع أخبـار الصـعاليك المنبثة والمتفرقة فى مراجع الأدب والتاريخ العربى نجدها جميعا تحصرهم فى صفتين ، اللصوصية وقطع الطريق

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ١٤٧ وأنظر معجم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٥٣٠ عن استعمال خليع وفاتك فى قصة أبى جندب الهذلى وجمعه لكل خليع وفاتك ليغير بهم على بنى لحيان ٠ وانظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج ١ ص ٢٥٠ عن اسـتعمال الصعلكة فى الجاهلية ، حيث يقول خفاف بن ندبة عن عباس بن مرداس ذاما اياه أنه (يكالب الصعاليك على الأسلاب) وهو صريح فى أن المقصود بالصعلكة أساليب السلب والغزو ٠

(٢) الأمالى للقالى ج ٢ ص ١١٩ ٠ واسجهرت نجومه : أبيضت كناية عن توغل الليل ٠

بما يمكن أن تحتوى عليه هاتان الصفتان من أحداث السطو والاغارة والفتك والسلب وما الى ذلك بما لا يدع مجالا للشك فى أن الصعلكة أخذت فى العرف والاستعمال العربى صورة غير صورة أصلها اللغوى وهو الفقر ، وأن هذه الصورة ليست حديثة فى العرف العربى ، وانما هى قديمة قدم التاريخ العربى ، فان بعض الصعاليك الذين تحدثوا عن الصعلكة بهذه الصورة ، وتحدث عنهم العرب بهذه الصورة أيضا كانوا فى فجر التاريخ العربى كالشنفرى وابن براقة والسليك ٠

ولكن من الحق أن نقول ان لفظ الصعلكة استعمل أحيانا فى أصله اللغوى وهو الفقر كما يقول حاتم :

عنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكاسيهما الدهر (١)

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين (٢) قال صاحب الأمالى « قال أبو عبيدة معناه يستنصر ، والصعلوك: الفقير فى كلام العرب » ٠

وقد يبدو فى ظاهر الأمر ان ذلك يعود بالكلمة الى الغموض والذبذبة فى المدلول من حيث استعمالها مرة فى الفقر ، ومرة فى اللصوصية وقطع الطريق ٠

ولكن الواقع أنه لا غرابة فى ذلك ، حيث يمكن اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التى نقلت من الأصل اللغوى الى مدلول عرفى أو اصطلاحى ، أو غلبة فى الاستعمال ، كما نقل لفظ الحج من الأصل اللغوى وهو القصد الى حج بيت الله الحرام وغلب استعماله فيه ، وكما نقل لفظ الزكاة من الأصل اللغوى وهو الطهارة الى الصدقة المفروضة فى الاسلام على الأموال ٠

فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح الى مدلول جديد غير مدلوله اللغوى مع وجود رابطة بين المدلولين ، أو اشتراك فى ناحية أساسية بينهما فى المعنى ٠

ومما هو معروف أن المدلول الجديد للفظ لا يمنع استعماله فى معناه الأصلى ، فاستعمال الحج مثلا فى القصد الى الكعبة بالوصف المحدد لذلك ، لا يمنع من استعمال لفظ الحج فى معناه الأصلى وهو القصد الى أى شىء ٠

وهذا يفسر استعمال الصعلكة فى المدلولين ، الأصلى والعرفى ، فقد نقلها

---

(١) الأمالى للقالى جـ ٢ ص ٢٨٣ وقد شرحه القالى بقوله يعنى بالفقر والغنى والبيت فى الصحاح ولسان العرب مادة صعلك ٠

(٢) الأمالى للقالى جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

العرف من المعنى الأصلى وهو الفقر الى مدلول آخر هو العدوان غير المشروع فى صورة اللصوصيه أو قطع الطريق وهذا المدلول الجديد لا يمنع من استعمالها فى معناها الأصلى وهو الفقر كما وردت فعلا فيما أشرنا اليه ٠

وهذا أيضا تفسير لما نجده من استعمال بعض الشعراء للفظ الصعلكة فى المعنيين فى قصيدة واحدة ، فهذا عروة بن الورد العبسى يقـــارن بين النوعين ، الصعلوك الفقير ، الذى رضى لنفسه عيش الخمول والمسكنة ، متسقطا حسنات الناس وأفضالهم ٠ مهينا نفسه بالذل والحاجة الى الناس ، والصعلوك المتحرك المتحفز ، الذى يضع نفسه فوق الناس ، فارضا رهبته وبأسه عليهم ، ونجـد عروة لائما النوع الأول أشـــد اللوم ، راضيا عن الثانى أشـد الرضى فيقول عن الأول :

لحى الله صـــعلوكا اذا جـن ليله ... مضى فى المشاش آلفا كل مجـزر (١)
يعـد الغنى من دهـــره كـــل ليـــلة ... أصاب قراها من صـــديق ميسر (٢)
قليل التمـاس المال الا لنفســه ... اذا هو أضـحى كالعريش المجـور (٣)
ينام عشــاء ثم يصبح قاعـــدا ... يحث الحصى عن جنبه المتعفـــر

ويقول عن النوع الثانى مقارنا بينهما :

ولله صـــعلوك صــفيحة وجهـــه ... كضـوء شهاب القابس المتنور (٤)
مطـــلا عـــلى أعـــدائه يزجرونه ... بساحتهم زجـــر المنيح المشـــهر (٢)
وان بعـــدو الا يأمنـــون اقتـــرابه ... تشوف أهـــل الغائب المتنظر (٦)
فذلك أن يلق المنيـــة يلقهـــا ... حميدا ، وان يستغن يوما فأجدر (٧)

فقد استعمل لفظ صعلوك فى النوع الأول فى مدلوله اللغوى البحت ، وهو الفقير المجرد من المال ، واستعمله فى النوع الثانى فى الدلالة العـــرفية

---

(١) لحى : لعن ٠ المشاش : رءوس العظام اللينة التى تمضـغ ٠ مجزر : مكان الجزر ٠ أى يجمع العظام اللينة مكان الذبائح ليقتات بها ، من باب المبالغة الساخرة وفى رواية الأغانى مصافى من المصافاة بمعنى الاصطفاء ٠

(٢) يغنى غاية ما يتمناه أن يتفضل عليه صديق أو محسن باكلة ٠

(٣) العريش : خيمة من خشب أو جريد ٠ المجور : الساقط ٠

(٤) صفيحة وجهه : بشرته ٠ القابس : الذى يقبس النار ٠ المتنور المضىء ٠

(٥) مطلا : مشرفا على أعدائه يهددهم بالغزو والسطو ٠ المنيح : اشارة الى نوع من الأقداح كانوا يضربونها ٠ المشهر : المشهور ٠

(٦) يعنى توقعهم السطو منه يشغلهم شغل الأهل بعودة الغائب المرتقب الاوبة ٠

(٧) الاصمعيات ص ٣٥ وديوان الحماسة جـ ١ ص ١٥٩ مع اختلاف يسير فى الألفاظ ومهذب الأغانى ٢/٢٣ وفى معاهد التنصيص للعباسى جـ ٣ ص ١٢١ ٠ البيت الأول (لحى الله صعلوكا ٠٠) لعروة والقصيدة منها عشرة أبيات فى الكامل جـ ١ ص ٧٨ م الاستقامة ٠

للفظ ، وهي الشخص المتحفز دائمـــا للسطو والعدوان وذلك في قصـــيدة واحـــدة ٠

وكذلك فعل السليك بن السلكة ، فقد استعمل اللفظين في قصيدة واحدة، أحدهما في المدلول اللغوى ، والآخر في المدلول العرفى فيقول مخاطبا امرأة :

فـــلا تصـــلى بصـــعلوك نؤوم اذا أمسى يعـــد مـــن العيـــال
ولكن كـــل صـــعلوك ضـــروب بنصل السيف هامات الرجال (١)

ولكن الذى يلفت النظر أننا اذا تجاوزنا المعاجم التى تهتم بشرح المفردات كلسان العرب والقاموس المحيط ، الى الكتب التى تهتم بالأدب والأدباء كخزانة الأدب للبغدادى والامالى للقالى والأغانى للاصبهانى والكامل للمبرد نجد أن أكثر هذه الكتب أيضا تقتصر فى شرحها للصعلوك على أنه الفقير أو الذى لامال له (٢) ، مع أنها فى الوقت نفسه تسوق أخبار هذا الصعلوك على أنه من قطاع الطرق واللصوص والفتاك ، دون أن تشير فى شرح لفظ الصعلوك الى هذا المعنى ولعلها فى ذلك تلتزم دقة النقل عن المعاجم ٠

وحين نأتى الى مناقشة المعاجم فى شرحها للفظ صعلوك ، وكيف أن معظمها اقتصر على الأصـــل اللغوى وهو الفقر ، دون اشـــارة الى المعنى العرفى وهو اللصوصية وقطع الطريق ٠

نستطيع أن نعلل ذلك بأن الفقر الذى كان من أبرز الدوافع للصـــعاليك فى سلوكهم مسلكهم المعروف ، والذى لازمهم حتى بعد سلوكهم هذا المسلك حتى أصبح طابعا ظاهرا فى حياتهم وفى أشعارهم هو الذى جعل معظم كتب المعاجم تكتفى فى شرحها للصعلكة بأنها الفقر ٠

وكون الفقر من أبرز دوافع الصعاليك الى الصعلكة ، وكونه من أبرز المعانى التى دار حولها شعرهم حقيقة لا مراء فيها ، كما سبق من وصف ابن براقة لنفسه بأنه « جل ما له حسام » وكما يبين السليك سبب تصعلكه فى قوله ٠

أشـــاب الرأس أنى كـــل يـــوم أرى لى خـــالة وســـط الرحـــال
يشـــق عـــلى أن يلقين ضـــيما ويعجـــز عـــن تخلصهـــن مـــالى

فقد جعل سبب تصعلكه أمرين ، أحدهما تعرضه لغارات صعاليك ومغيرين آخرين يسبون حرماته وحرمات أهله ، فهو يريد أن ينشىء قوة يرد بها عنه وعن أهله هذا العدوان ، والأمر الآخر هو فقره وعجـــزه عن فداء الأسيرات منهـــم بمـــال ٠

---

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة ٠

(٢) على سبيل المثال الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة ٠ والأمالى ج ١ ص ٢٦٢ فى وصف عروة والأمالى ج ٢ ص ٢٨٢ ٠

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ ٠

والشنفرى يتفنن فى تصوير فقره بل حرمانه فى أبلغ صـــور الحرمان وأشدها تأثيرا فى النفس فهو يتحدث عن الجوع ، فيقول انه أصبح أليفا له حتى أنه اهتدى الى طريقة يعالجه بها هى تجاهله وعدم المبـــالاة به ، وهى نوع من الرياضة الروحية والنفسية تزاول فى كثير من أنحاء العالم اليوم وخاصة فى الهند اهتدى أليها الشنفرى بفطرته وتجربته ، ويقول الشنفرى عن جوعه وعن احتفاظه بعزته وكرامته مع هذا الجوع ·

أديم مطـــال الجـــوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١)
وأستف ترب الأرض كى لا يـرى له عـــل من الطـــول امرؤ متطول (٢)

ويرسم الشنفرى أيضا صورة من صور الجوع والحرمان القاسيين ، وطيه أمعاءه على جوع شديد ، وعيشه على القوت الزهيد فيقول :

واطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيـــوطة مارى تغار وتفتل (٣)
واغدو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاداه التنـــائف اطحـــل (٤)

وهكذا نكاد لا نجد شعرا لصعلوك يخلو من الحديث عن الفقر والحاجة ،ولعل هذا ما جعل أكثر كتب اللغة تكتفى فى شرحها للفظ صعلوك بأنه الفقير ، عـلى اعتبار أن الصعاليك مهما يكن مسلكهم فهم فقراء ·

ولكن هذا أو غيره ان يكن نوعا من الاعتذار والتبرير عن كتب اللغـــة فانه لا يعفيها من توجيه تهمة التقصير فى أدائها لمدلول هذا اللفظ ، فان استعمال الصعلكة فى أساليب العدوان بصوره المختلفة أمر مشهور سواء فى الجاهليـــة والاسلام كما مثلنا له من الروايات ومن الشعر ، وكتب اللغة نفسها لا تجهـــل ذلك ولا تنكره ، بل ترويه فيما تروى ، وعلى سبيل المثال فان لسان العرب من الكتب التى أوردت شعرا كثيرا للصعاليك فى سياق شرحه للألفاظ ، حيث حفل شعرهم ، وخاصة الجاهلى منه بذخيرة واسعة من الألفاظ القليلة التداول والتى تحتاج الى تفسير ·

---

(١) الأمالى للقالى جـ ٣ ص ٢٠٦ · مطال : من المماطلة · أضرب عنه : أعرض · ذهل عن الشئ نسيه ·

(٢) الطول : المن ·

(٣) الخمص : الجوع · الحوايا : الامعاء · الخيوطة : السلوك والخيوط · مارى رجل مشهور بالفتل وتغار : تحكم ·

(٤) أزل : الذئب · التنائف : المفاوز · أطحل : أغبر اللون · والأبيات من اللامية · المصدر السابق وشرح الألفاظ عن أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ·

وقد بلغ من شهرة الصعاليك بسلوكهم المذكور ، أنه يكفي في ذكر شخص، أو الترجمة لشاعر أن يوصف بأنه صعلوك فيعرف أنه من اللصوص وقطاع الطرق كما ورد في الأغاني وخزانة البغدادي وغيرهما .

ومع أن كتب اللغة لا تجهل ذلك ولا تنكره ، فان معظمها لم يشر في تفسيره لهذا اللفظ الى ذلك أو حتى الى أنه يستعمل أحيانا في هذا المعنى ، أو أن هناك طائفة من الفقراء أو الصعاليك اشتهروا بهذا السلوك ، بل الأكثر غرابة أنها تأتي بلفظ الصعلكة في سياق اللصوصية وقطع الطريق ، ولكن في مادة أخرى غير مادتها ، كما فعل القاموس المحيط في مادة (الذئب) حيث يقول « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » أما في مادة « صعلك » فانه يقول « والصعلوك كعصفور الفقير ، وتصعلك افتقر » فلم يذكر عن المدلول العرفي للصعلكة شيئا ، مع أنه أتى بها في سياق هذا المدلول في مادة أخرى كما سبق ، ومع أن القاموس تحدث في مواضع مختلفة عن الصعاليك ، كحديثه عن تأبط شرا في مادة (غال) وعنه وعن الشنفرى في مادة (غرب) وان كان حديثه عنهما غير دقيق ، كعده اياهما من الاسلاميين ، مع أن الرواة لا يختلفون في أنهما جاهليان ، وكحديثه عن فرس حاجز بن عوف الازدي في مادة « ذأب » وعن فرس السليك بن السلكة في مادة « نحم » ، وكذلك فعل لسان العرب كما سبق .

وقد كانت كتب اللغة أكثر توضيحا لهذا المدلول في الفاظ أخرى غير لفظ الصعلكة ، كالذؤبان .

٤ – من الصعلوك ؟

الاجابة عن هذا السؤال في غاية الأهمية لكل بحث أو حديث عن الصعاليك ، لأن الحديث عن الصعاليك مبني أساسا على تحديد : من الصعاليك ؟

أ – مفهوم الصعلكة :

على الرغم من فهم المجتمع لطبيعة طائفة الصعاليك وسلوكهم ، وحديثه عنهم في اتجاه واضح ، وعلى الرغم أيضا من فهم علماء اللغة القدامى لذلك ، فقد

رأينا فى تعريفهم للصعلكة قصورا وشيئا من ميوعة أتاح المجال لذبذبة المفهوم وخضوعه للاستنتاج ، فقد كانت هناك جوانب موضع اتفاق بينهم ، حول الألفاظ التى تدور فى فلك الصعلكة ، وكانت هناك جوانب أخرى لم تبلغ هذه الدرجه ، ونستطيع أن نجمل هذه الجوانب فيما يأتى :

١ ـ هناك ألفاظ معينة لم يختلفوا فى أنها مترادفة فى أدائها لمفهوم الصعلكة العرفى ، حيث جعلوها تدور فى فلك واحد ، وأحالوا بعضها على بعض كما رأينا فى أحاديث كتب المعاجم ، فحينما يتكلمون عن الصعاليك يقولون أنهم ذؤبان العرب ، ونذهب الى ذوبان العرب ، من هم ؟ فيقولون : انهم صعاليك العرب ، ومن صعاليك العرب ؟ فيقولون : هم الذين يتلصصون . أو هم لصوص العرب . ولم يرد قط فيما نعلم أنهم اختلفوا فى هذه المدلولات .

واذن فلا شك فى أن الوصف بكلمة « لص » أو بكلمة « ذئب » يساوى تماما الوصف بكلمة « صعلوك » من حيث الاستعمال العربى أعنى بصرف النظر عن الأصل اللغوى الذى أخذت منه كل هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا فى أن الصعاليك واللصوص والذؤبان ـ من حيث المفهوم العرفى لسلوكهم ـ طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة فى أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذى أخذت منه كل من هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا فى أن الصعاليك واللصوص والذؤبان ـ من حيث المفهوم العرفى لسلوكهم ـ طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة فى أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذى يجمعهم وهو الصعلكة ، بمعنى أن بعضهم يفعل ما يشبه أفعال الذئاب ،ولكنه من الطائفة نفسها ، وبعضهم يفعل أفعال اللصوص ، ولكنه أيضا من الطائفة ، والبعض الآخر كأصحاب الغارات ، هو كذلك من الطائفة ، ولكن الطائفة كلها غلب عليها لقب « الصعاليك » .

٢ ـ هناك لفظ يعتبر بحكم ملابساته ، وبحكم ما ورد حوله من روايات مقصورا على الصعلكة ، وملحقا بالألفاظ السابقة ، وهو لفظ « خليع » فان ملابساته السابقة للخلع من حيث ان سببه كثرة الجنايات ، واللاحقة للخلع ، من حيث ان حياة الخليع ، وتشرده واعتماده على نفسه بعد الخلع ، من شأنه أن يجعله يزداد اصرارا على جناياته ، ونشاطا فى السعى لتحصيل معاشه ، وكل ذلك هو طريق الصعلكة ، مع مراعاة استبعاد احتمال أن تكون جناياته التى تسببت فى خلعه ، جنايات لم يقصد منها ما يقصده الصعاليك ، فان خلع قومه اياه دليل واضح على أن هذه الجنايات لمصلحته الشخصية ،

أعنى أنها جنايات صعلكة ، وليست لمصلحة قومه ، والا لم يكن من المعقول بمنطق الجاهلية ان يخلعوه • ويؤيد هذا أن كل الذين وصفوا بهذا الوصف من الأشخاص المحددين كانوا فيما نعلم من الصعاليك ، والذين لم تحدد أشخاصهم كما ورد فى الحديث الشريف « وقد كانت هذيل خلعوا خليعا لهم فى الجاهلية » (١) فلم يكن مثل هذه الرواية من الوضوح بحيث يتاح لنا تتبع حياة هذا الخليع ، لنعلم من أى نوع كان ، ولكن الروايات لا تنفى أنه من الصعاليك ، بل تشير الى أنه من الصعاليك ، أو تقوى احتمال هذا ، بنسبته الى هذيل ، التى كانت أشهر قبائل العرب بالصعلكة ، وبالعدائين الذين كان عدوهم أداة من أهم أدوات الصعلكة ، وفى ديوان الهذليين أورد السكرى خمسة من صعاليكهم ، هم خويلد بن مرة المكنى بأبى خراش ، وابنه خراش وأخوه عروة الذى قتل فى غزوة صعلكة كان فيها هو وخراش ، وكذلك صخر الغى ، وحبيب الأعلم (٢) والمهم أنه لا توجد لدينا روايات فيما نعلم تنفى أن كل من وصفوا بهذا الوصف كانوا من الصعاليك ، ولا روايات تصف بهذا اللفظ شخصا ليس من الصعاليك . ونستبعد بالطبع ما شاع منذ أواخر العصر العباسى من اطلاق الخلاعة على الصفات الخلقية ، فان حديثنا عن هذا اللفظ محصور كما سبق فى حالة واحدة ، هى حالة الذين خلعهم اقوامهم لكثرة جناياتهم ، وهؤلاء هم الذين نعنى أن الروايات لم تذكر أن أحدا منهم لم يكن صعلوكا • واذن فنستطيع أن نقول انه يمكن الحاق لفظ « خليع » الذى خلعه قومه بالألفاظ السابقة التى تعتبر نصا فى الصعلكة •

٣ ـ الألفاظ الأخرى التى وصف بها الصعاليك ، مثل ، فاتك ، وشيطان ، وشاطر ، وان كان الوصف بها غالبا على الصعاليك كما ورد فى تراجم معظمهم ، الا أنها ليست مقصورة عليهم ، فقد وصف بها أشخاص من المؤكد أنهم لم يحترفوا الصعلكة ، وان كانوا زاولوا بعض أساليبها فى بعض الأحيان أو لبعض الظروف ، فقد وصف شخصان من أكبر سادات العرب ببعض هذه الألفاظ ، هما عمرو بن كلثوم الذى وصف بأنه فاتك (٣) وعامر بن الطفيل الذى وصف بأنه « من شياطين قومه » (٤) وحقا انهما وصفا بذلك لمزاولتهما بعض أساليب الصعاليك ، ولكننا لا نستطيع أن نعد مثلهما من الصعاليك ، لعدم احتراف الصعلكة •

ولذلك لا نستطيع الاعتماد على هذه الألفاظ وحدها فى نسبة شخص

---

(١) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) •
(٢) أنظر شرح ديوان الهذليين للسكرى •
(٣) أنظر خزانة البغدادى ٣٢٨/٢ ومجمع الأمثال للميدانى ٨٨/٢ •
(٤) خزانة البغدادى ٣٦٤/٢ •

الى الصعلكة الا اذا صاحبتها قرائن تؤيد ذلك، وان كنا في كل حال نستفيد من مدلولها في خلق من يوصف بها وسلوكه ، أعنى أن كل من يوصف بلفظ منها معناه أنه يزاول عملا من أعمال الصعاليك ، وأسلوبا من أساليب صعلكتهم ، ومن هنا نخرج بنتيجة مهمة هى أن مدلولات هذه الالفاظ من صميم الصعلكة وأساليبها ، وأننا اذا كنا لا نراها كافية فى ادخال صاحبها فى طائفة الصعاليك ، فليس لقصور هذه الألفاظ فى الدلالة على الصعلكة ، بل لمعنى واحد ، هو أنها لا تدل على الاحتراف للصعلكة ، وكأن الفارق بينها وبين ألفاظ ، صعلوك وذئب ولص ، أن هذه الثلاثة لا تطلق الا على الذين اتخذوا من الصعلكة حرفة أو مهنة دائما ، أما ألفاظ فاتك وشيطان ونحوهما ، فتطلق لمزاولة أسلوب من أساليب الصعاليك ، سواء صدر من صعلوك محترف للصعلكة ، أم من غيره ·

ب - من الصعلوك ؟

واذن ففى الاجابة المحددة على هذا السؤال لابد من مراعاة أمرين · أحدهما أن كل الألفاظ السابقة تدل على أساليب مختلفة للصعلكة ، والآخر أن هناك فارقا أساسيا فى مجرد مزاولة مدلولات هذه الألفاظ ، وبين من يتخذها حرفة دائمة ·

وعلى ضوء ذلك ننظر الى محاولة بعض الباحثين أن يضع تعريفا للصعلكة (١) وقد كان تعريفه أن الصعلكة هى « الغزو والاغارة للسلب والنهب» والواقع أنه لو كان هذا المعنى استنتاجا ، أو تحديدا لبعض المواضع لما عنانا كثيرا أن نناقشه ، ولكن وضعه فى قالب التعريف ثم تكريره اياه على أنه تعريف للصعلكة ، هو ما يضطرنا الى مناقشته اضطرارا ، فمن بدهيات التعريف كما يقول المناطقة أن يكون جامعا مانعا ، ولكننا لا نرى فى هذا التعريف جمعا ولا منعا ·

فهو غير جامع ، لأن لفظى الاغارة والغزو ، لا يشملان كل أساليب الصعلكة ، كاللصوصية مثلا ، والباحث نفسه نقل أحاديث كتب المعاجم ، ومن بينها عدم اختلافهم فى أن اللصوصية مرادفة للصعلكة ، فلماذا اقتصر على أسلوبى الغزو والاغارة تاركا اللصوصية وغيرها من أساليب الصعلكة ؟ وقد يقال ان الروايات تجعل بعض هذه الألفاظ متداخلا فى بعضها الآخر ، بمعنى أن الروايات أحيانا تكتفى بمدلول أحد هذه الالفاظ بالنسبة للصعلوك ، وتعنى

---

(١) أعنى الدكتور يوسف خليف فى بحث الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى انظر ص ٥٨ وما قبلها ·

به مدلول غيره من الألفاظ ، كان يوصف صعلوك بأنه فاتك مرادا به كل أساليب صعلكته ، فكذلك فعل الباحث الذى نناقشه ، حيث اكتفى بالغزو والاغارة للدلالة على كل أساليب الصعلكة ، ولكن ذكره أكثر من لفظ ، يلزمه أن يسوق كل الألفاظ التى تدخل فى نطاق الموضوع ، والآخر أن هناك أساليب يبعد جدا أن يشملها لفظ الغزو أو لفظ الاغارة ، كقطع الطريق الذى يعتبر من أبرز أساليب الصعلكة ، ان لم يكن أبرزها على الاطلاق ، فمن البعيد جدا أن نتصور قطع الطريق داخلا فى معنى الغزو والأغارة ، بحكم الوضع اللغوى لهذين للفظين ، وبحكم استعمالهما أيضا ، فالتعريف اذن غير جامع لأنه لا يشمل كل أساليب الصعلكة ٠

وكذلك هو غير مانع لأنه يسمح بادخال غير الصعاليك فى مفهوم الصعلكة ، ومن حيث ان مجرد الغزو والاغارة للسلب والنهب ليس مقصورا على الصعاليك ، بل كان طابعا عاما فى الجاهلية ــ التى هى موضوع بحثه ــ والأخبار والروايات تفيض بما هو معروف من غارات القبائل بعضها على بعض ، ولم يكن الثأر كل أهدافها ، بل كثيرا ما كانت الغارة لا تستهدف الا السلب والنهب ، اظهارا لبأس المغيرين ، وارهابهم القبائل الأخرى كما أن كثيرا من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كانوا يزاولون أحيانا أخص أعمال الصعاليك كقطع الطريق ، وبعض هؤلاء كان من أبرز سادات العرب وسيأتى أن كثيرا من سادة العرب ومشهوريهم زاولوا أساليب الصعلكة مستهدفين أيضا السلب والنهب ، كعمرو بن معد يكرب ، ودريد بن الصمة ، والنابغة الذبيانى الشاعر المشهور ، وكثير غيرهم (١) ولا شك أن هذا التعريف يشملهم ، لأنهم كانوا يغزون ويغيرون للسلب والنهب ، ومع ذلك فلا نستطيع أن نعدهم من الصعاليك ، كما لم يستطيع أحد من الرواة والمؤرخين أن يعدهم منهم ، وقد كان يمكن أن نضيف الى ذلك أن الصعلكة ليست قاصرة على السلب والنهب ، بل مما تحدث عنه الصعاليك كثيرا ، وجعلوه هدفا أساسيا ، الثأر والانتقام كما يقول عمرو ذو الكلب ٠

وابرح فى طوال الدهر حتى اقيم نساء بجلة بالنعال (٢)

وكما يجعل أبو خراش طلب الثأر قرينا لطلبه المغنم « لأدرك ذحلا أو أشيف على غنم » (٣) ولكننا نرى أن الغرض الأساسى من الصعلكة هو المغنم ، وأن الأغراض الأخرى عارضة أو هى وليدة الصعلكة ٠

---

(١) انظر فصل الصعلكة فى الجاهلية من هذا البحث ٠

(٢) ديوان الهذليين ٣/١١٥ وابرح بمعنى لا ابرح ، والنعال اشارة الى عادة نساء الجاهلية فى ضربهن صدورهن بالنعال فى البكاء على الميت ٠

(٣) انظر ديوانه ص ٨٠ ، ٨٢ ٠

على أن هناك ملاحظة أخرى في عدم شمول التعريف ، وهى أنه من أهداف الصعاليك وغيرهم في الغنائم سبي النساء ، كما نرى في أخبار كثير منهـــم كعروة بن الورد (١) والسليك بن السلكة (٢) ولســنا نرى أن لفظي السلب والنهب يشملان سبي النساء ، الا بتكلف لا نرى ما يدعو اليه .

واذن فمن الواضح أن هذا التعريف غير جامع للموضوع ، وغير مــانع عنه غيره .

واذا كان لابد من محاولة وضع تعريف للصعلكة ، فنأمل ان يكون التعريف الاقرب هو « احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم » .

وعلى طريقة المناطقة نقول : نعني بالاحتراف ملازمة العمل الذى يشــبه الحرفة ، من حيث استمراره ، ومن حيث كونه العمل الاساسى في حياة صاحبه والمورد الأساسي لمعيشته ورزقه أيضا ، ووضعه في التعريف ليخـــرج الذين يزاولون أعمال الصعلكة ولكن في غير صورة الاحتراف ، كغارات بعض القبائل على بعض ، وكمزاولة بعض الافراد لاعمال الصعلكة في غير احتراف ، كمـــا أشرنا الى أعمال بعض السادة والمشهورين الذين كانوا يغزون ويغيرون ويقطعون الطريق بقصد الغنيمة ، ولكنهم لم يحترفوا هذا الســـلوك ، وقولنا « السلوك العدواني » نعني به كل الأساليب التي فيها عدوان على الغير مقصود به الغنيمة. كاللصوصية وقطع الطريق والغارات ونحو ذلك ، ووضعه في التعريف ليشمل كل هذه الأساليب ومع أنهما لفظان متواصفان يكمل أحدهما معنى الآخر ، الا أن كل لفظ منهما يخرج ما لا يتفق مع التعريف ، فلفظ « سلوك » يقصـــد به اخراج مالا يوصف بأنه سلوك عملي ومع ذلك يكون عدوانا ، ويقصد بـــه أحيانا الكسب ، ويتخذه صاحبه حرفة أيضا ، كالهجاء الذى احترفه بعـــض الشعراء ليتكسبوا به كالحطيئة ، أعني بالرهب منه ، فلولا لفظ « سلوك » لشمل التعريف مثل هذا ، لأن الهجاء بالنسبة لمثل هذا الشاعر ، احتراف ، وهو عدوان ، ومقصـــود به الكسب والمغنم في رحلاته بهذه الحرفة ، ولفظ « عدواني » يقصد به اخراج مثل التسول ، فانه احتراف سلوك معين بقصـــد الكسب والمغنم ، ويخرج أيضا المدح الذى احترفه بعض الشعراء متنقلين بـــه قاصدين الكسب والمغنم ، ولكن اجتماع اللفظين « سلوك عدواني » يخـــرج كل ما شابه ذلك من غير أعمال الصعلكة ، مع شموله لكل أساليب الصـــعلكة وأعمالها . وقولنا « بقصد المغنم » ليشمل الواقع في حياة الصعاليك ويعبـــر عنه ، فان احترافهم للصعلكة مقصود منه التعيش ، ومجابهة الفقر ، وليخـــرج أيضا احتراف سلوك عدواني لغير قصد المغنم ، كاحتراف مهلهل بن ربيعـــة

---

(١) المرجع السابق ١٣٠/٢ والدحل الثار واشيف اشرف .

(٢) انظر شرح التبريزى لحماسة أبي تمام ٣٧٨/١ في شرح رثاء أم السليك اياه .

أخى كليب الحرب ضد قاتلى كليب أربعين سنة · لا يرى لغير الحرب والثـأر فى حياته موضعا ، ومع ذلك لا يعد مثل ذلك من الصعلكة ، لأنه لا يقصد به المغنم ، ومع أن « قصد المغنم » لفظان متضايفان أيضا يكمل أحدهما معنى الآخر ، الا أن لكل منهما دلالة مستقلة ، غير دلالة الاضافة فى اجتماعهما ، ولفظ « قصد » يخرج به السلوك العدوانى الذى تترتب عليه مغانم غير مقصودة لذاتها ، كالحروب ، فليس كل من يحصل على غنيمة من الحرب ، مهما زاول الحرب أو احترفها يعتبر صعلوكا ، لأن سلوكه ليس أساسه « الغنيمة » ، وانما جاءت الغنيمة نتيجة وليست قصدا ، ولفظ « المغنم » آثرناه على غيره من التعبيرات مثل « الحصول على المال » أو « السلب والنهب » ليشمل بعض أهداف الصعاليك كسبى النساء ، فانه يعتبر مغنما ، ولكنه لا يعتبر حصولا على مال ، أو سلبا ونهبا ، الا بتكلف لا نرى ضرورة تدعو اليه ·

ومن ذلك نرى أن تعريف الصعلكة بقولنا هى « احتراف السلوك العدوانى بقصد المغنم » شامل لجوانب الصعلكة ، ومانع غيرها من مشاركتها فى التعريف

نشأة الصعلكة

أ – أسبابها

من الصعب تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية لأكثر من سبب ، فمن ذلك أن التاريخ العربى نفسه قبل الاسلام غير محدد على وجه الدقة ، والمؤرخون حين يحددون بدء التاريخ فى أمة من الأمم يلجأون غالبا الى أمرين ، أحدهما روايات المؤرخين وكتاباتهم عن هذه الأمة بصورة محددة ، والآخر الآثار التى تركتها أجيال هذه الأمة فى توال وتتابع بحيث يمكن مقارنة آثار جيل بجيل آخر ، أو نسبة كل مرحلة من مراحل هذه الآثار الى جيل معين ·

ولكن الجزيرة العربية لظروف كثيرة أهمها عدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتيسر لها أحد الأمرين السابقين بصورة محدية للتاريخ ، فلم يظهر فيها قبل الاسلام مؤرخ يسجل لنا تاريخها ، ولظروف كثيرة أيضا كعزلتها وعدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتردد عليها مؤرخون يسجلون لنا تاريخها ، وأيضا لظروف كثيرة لا يقتضى المقام سردها لم تكن لها آثار

ذات قيمة تاريخية من حيث تحديد التاريخ . فلم يبق لنا من تاريخها قبل الاسلام الا هذه الروايات المتناثرة التى لا تخلو من اضطراب حينا ، ومن طابع أسطورى خرافى حينا آخر ، والتى كان أهم مصادر الحفاظ عليها أمرين ، أحدهما اعتزاز العرب بالشعر ، ولذلك نجد أقرب ما رواه الجاهليون من تاريخهم الى الحقيقة هو ما رووه من شعر مجتمعاتهم وأسلافهم ، والثانى تقديس القبيلة لأمجادها وخاصة مظاهر القوة فيها وفى تاريخها ، ولذلك نجد أن كل ما وصل الينا من تاريخ الجاهلية يكاد ينحصر فى هذين ، الشعر والأمجاد . ومما لا شك فيه أنه لولا قيام الدولة الاسلامية لذابت هذه الروايات كما ذاب غيرها فى ثنايا العصور ، وأقول الدولة لأن الاسلام كمجرد دين ليس من شأنه أن يحقق هذه الغاية التاريخية ، ولكن ميزة الاسلام أن من أهدافه الأساسية تكوين الدولة . وحين قامت هذه الدولة حققت فيما حققت حفظ التاريخ العربى . ولكنها لم تجد من التاريخ السابق لها الا هذه الروايات التى لم تستطع أن توغل فى الجاهلية أكثر من نحو قرن ونصف من الزمان ، ثم اعتراها الوهن (١) ثم شوهتها الخرافات والأساطير حتى لم تعد قبل هذا التاريخ صالحة للتاريخ ولا ملائمة للعقول (٢) كأحاديثهم عن بقايا عاد وطسم وجديس .

والصعلكة لم تكن حدثا من الأحداث الطارئة أو العارضة فى حياة المجتمع العربى قبل الاسلام ، وانما كانت ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجزء منه ، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل ، وانما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه ونتيجة لذلك نجد أن الصعلكة لازمت كل العصور الجاهلية التى ورد لنا منها تاريخ وكل أماكن الجزيرة العربية تقريبا ، وفيما يأتى من الأمثلة توضيح لذلك .

وحين نأتى الى بيان الأسباب التى أدت الى ظهور الصعلكة فى المجتمع الجاهلى نقول :

قبل الخوض فى تفصيل هذه الأسباب ينبغى أن نفرق بين الأحداث سواء كانت عادية أو غير عادية ، وبين الظواهر الاجتماعية ، فالأحداث كالحروب والثورات وما يعرض فى حياة الجماعات والأمم تتميز بأنها محدودة بزمان ومكان ، وترتبط بها أسباب مباشرة فى أغلب الأحيان ، وغير مباشرة فى أقل

---

(١) أنظر خزانة الأدب للبغدادى جـ ٢ ص ٩٩ – ١٠٣ على سبيل المثال وانظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ٤٤٧ – ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٩ عن أصل السهم وشامة القمر حيث يزعمون أن السهم ولدته القوس وشامة القمر أثر من جناح ملك .

الاحيان ، ويرتبط بها الاثنان فى كثير الاحيان ، ويكفى لتعليلها أحيانا سـبب واحد .

أما الظواهر الاجتماعيـة – كانتشار عادة الثأر مثلا فى مجتمع ما – فلا ترتبط غالبا بسبب مباشر ، و لا يحدها زمن معين ، ولا مكان معين ، ولا يكفى فى تعليلها غالبا سبب واحد .

فمثـلا فى المجتمـع الجاهلى نرى حرب البسوس،مع أنها ظلت نحو أربعين عاما تزلزل أماكن كثيرة فى الجزيرة العربية (١) الا أنها لا تعدو أن تكون حدثا من الأحداث العارضة فى المجتمع ، ويمكن تحديد الأماكن التى دارت رحاها فيها ، وكذلك زمانها ، ويمكن تحديد السبب المباشر لها ، وهو رمى كليب ناقة البسوس بسهمه ، واستنفار البسوس جيرتها ، والسبب غير المباشر هو التنافس والصراع الخفى بين جسـاس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، وذويهما من بكر وتغلب .

أما الصعلكة فلا يمكن أن نعتبرها حدثا عارضا فى المجتمع الجاهلى ، ولا يمكن أن نحصرها فى زمن أو أزمان ، ولا يمكن أن نحصى الذين دخلوا نطاقها – من الشعراء وغير الشعراء – فقد لازمت التاريخ الجاهلى منذ كان تاريخـا ، وشملت كل أماكن الجزيرة تقريبا كما سنتبين من الأمثلة ، وكذلك لا نستطيع أن نقرنها بسبب واحد مباشر أو غير مباشر بحيث يكون هذا السـبب وحيدا فى نشأتها .

ولئن كان الفقر قد ارتبط بالصعلكة من حيث أن مدلولها اللغـوى يعنى الفقر ، ومن حيث ان الصعاليك كان يغلب عليهم الفقر ، فاننا لا نسـتطيع أن نجعل الفقر سببا وحيدا ولا حتى سببا مباشرا للصعلكة ، وذلك لعدة أسباب، منها أن المجتمع الجاهلى ليس المجتمع الوحيد الذى تعرض للفقر ، فما أكثـر ما تعرضت جماعات وأمم فى القـديم والحديث وفى عصرنا الحـاضر (٢) لفقر أشد من فقر العرب ، بل لمجاعات طاحنة ، ومع ذلك لم يلزم أن يترتب عليهـا ظهور ظاهرة كالصعلكة فى المجتمع العربى ، ومنها أننا نجد من أحاديث الرواة عن الصعاليك (٣) ، ومن شعر الصعاليك أنفسهم (٤) أن الفقر وحـده لم يكن هو الدافع لهم دائما الى الصعلكة ، ومنها أن كثيرا من سلوك الصعاليـك وخاصة قطع الطريق والفتك والاغارة والسلب ، لم يكن وقفا على الصعاليك ولا

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٣ – ٢٩ فى قصة طويلة واحداث كثيرة وكذلك العقد الفريد ج ٢ ص ٧٧ – ٨١ .

(٢) كما يشاهد فى كثير من ولايات الهند منذ بضع سنوات حتى الآن .

(٣) أنظر الأمالى للقالى ج ٢ ص ١١٨ .

(٤) أنظر العقد الفريد ج ١ ص ٣٤ (باب فرسان العرب) .

من يوصفون بالفقر وحدهم ، وانما زاوله كثير من سادات العرب وزعمـــاء القبائل والاغنياء (١) الذين لا يمكن أن يعدوا من الصـــعاليك ، ولا يمكن أن يوصفوا بأن الفقر هو الذى دفعهم الى سلوك ما يسلكون ٠

ولسنا بذلك نقلل من أهمية الفقر فى كونه من أسباب الصعلكة ، فالواقع أنه من الأسباب البارزة والمهمة فى الصعلكة ، ولكننا ننفى أن يكون هو السبب الوحيد أو المباشر للصعلكة ، ولكنها أسباب كثيرة مختلفة ، متفاوتة فى أهميتها بالنسبة للصعلكة ٠

ويمكن أن نحصر أهم هذه الأسباب فيما يأتى :

١ ـ عدم وجود دولة جامعة

ولسنا نعنى الشكل الظاهرى لمعنى الدولة الجامعة ، وانما نعنى عـدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة ، ويحس أفراد شعب هذه الأمة ، بأنهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعا يؤثر فى سلوكهم ٠

وليس من اللازم أن تكون هذه القوة فى شكل دولة بالمعنى المفهوم للدولة، بل قد تكون كذلك ، وقد تكون هذه القوة فى صورة قانون يخضع له أفـراد الأمة ويحسون بسلطانه على نفوسهم وسلوكهم ، وقد تكون غير ذلك ، فليس المهم فى الشكل وانما فى المضمون ، وان أيا من الأمور السابقة اذا فقد سلطانه على النفوس ليصبح مجرد شكل ظاهرى ، فانه يفقد اشعاعه ، وبالتالى يفقد كيانه الحقيقى من حيث التأثير والتوجيه ٠

فالقانون مثلا اذا فقد صفة الالزام ، وضعف سلطانه على النفوس ، بحيث لا يشعر الأفراد بأنهم ملزمون بتنفيذه ، فانه يفقد كيانه الحقيقى كقانـون ، ويصبح مجرد اسم وهيكل لا حياة فيه ولا تأثير له ، وكذلك الشأن بالنسبة للدين وللدولة وغيرهما ٠

فهذه القوة المؤثرة الجامعة هى التى نعنى فقدانها فى العرب قبل الاسلام ٠ فلم تكن لهم دولة جامعة ، ولا قانون جامع ، ولا دين جامع ٠

فأما عن الدولة ، فمن المعروف أنه لم تقم للعرب قبـل الاســلام دولة تجمعهم فى تاريخهم كله ، وأنه لم يكن هناك الا هذه الدويلات أو الامارات التى قامت فى جنوب الجزيرة وشمالها ٠

(١) على سبيل المثال مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٩٠ والأمالى للقالى جـ ٢ ص ٢٧١ (عن دريد بن الصمة) ٠

ففى الجنوب قامت دولة معين فى شمال اليمن ، وكانت على جانب لا بأس به من القوة والثروة (١) ، وظل حكمها نحو خمسة قرون ونصف (٢) .

ثم قامت بعدها دولة سبأ (٣) التى تبوأت بحديث القرآن الكريم عنها مكانا رفيعا (٤) ، وكانت جنوب معين ، ثم انتقل سلطان معين اليها ، وظل حكمها نحو ثمانية قرون (٥) ، وخلال حكمها تهدم سد مأرب الذى كان لتهدمه أثر كبير فى حياة العرب الاجتماعية ، حيث ترتبت على انهدامه هجرات كثيرة ، عمت أنحاء الجزيرة تقريبا كمسيرة بنى ثعلبة بن عمرو الى يثرب ، فيتكون منهم فيما بعد الأوس والخزرج ، وكذلك بنو حارثة بن عمر — وهم خزاعة — الى مكة حيث أجلوا جرهما القحطانية عن الحرم واحتلوه مكانها ، وكذلك سار بنو عمران بن عمرو نحو عمان فأصبحوا فيما بعد أزد عمان ، وسار بنو جفنة ابن عمرو الى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا اليه ، وسار بنو لخم بن عدى الى الحيرة وأقاموا فيها ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة ، وسارت طيىء بعد هجرة الأزد الى الشمال فنزلوا بالجبلين أجأ وسلمى فى الشمال الشرقى من المدينة ، وسارت كليب بن وبرة من قضاعة الى بادية السماوة طرف شمال نجد (٦) وهكذا كان لحادثة سيل العرم وانحطام السد أثر كبير فى مجرى الحياة الاجتماعية فى الجزيرة كلها (٧) وهذا مما يعنينا فى موضوع البحث فان القحط والمجاعات التى يخلفها السيل وتهدم السد الذى ترتكز عليه الحياة الاقتصادية ، ثم ما تعانيه القبائل المهاجرة من قسوة العيش أثناء الهجرة ، ثم فى المكان الذى تهاجر اليه فى بدء تكون حياتها الاقتصادية ، واحتكاكها فى خلافات وحروب مع القبائل المقيمة فى هذا المكان نتيجة للصراع على ملكية موارد البيئة ، وعلى تثبيت الكيان الاجتماعى والنفوذ القبلى ، كل ذلك من العوامل التى تلقى ضوءا على نشأة الصعلكة بما يمكن أن تساهم به فى نشأتها .

ونعود الى حديث سبأ فنقول انه بعد تفكك المملكة السبئية قامت المملكة الحميرية التى ظل حكمها لليمن من قبل الميلاد المسيحى بنحو قرن حتى غزو

---

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ .

(٤) سورة النمل الايات ١٩ — ٤٤ .

(٥) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٦) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٨ — ١١ .

(٧) أنظر معجم ما استعجم للبكرى عن هجرات القبائل العربية وانسابها ج ١ من ص ٥ الى ص ٩١ . وانظر الزمخشرى فى الكشاف تفسير الآية ١٨ من سبأ .

الأحباش لليمن فى قصة الفيل الشهيرة قبيل الاسلام (١) ، واستمر حكمهم نحو سبعة قرون .

هذه ممالك الجنوب ، وقد كانت فى الطرف الجنوبى للجزيرة .

وأما فى الطرف الشمالى فقد قامت مملكتان صغيرتان ، وكان نفوذ الملك فيها يكاد يكون محصورا فى أبناء قبيلته ، فهو فى واقع أمره رئيس قبيلة ، يمتاز عن رؤساء القبائل بأنه ملك متوج ، وبأن سلطانه أثبت ، بما يحوطه من وسائل الملك ، وهاتان المملكتان هما مملكة الحيرة ، وهى من المناذرة الذين جاوروا الفرس ، وموقعها على بحيرة النجف قرب الكوفة ، ومنهم النعمان ابن المنذر (٢) .

ومملكة غسان ، من قبائل قضاعة التى هاجرت من اليمن الى شرق الأردن (حاليا) وهاجر بطن منهم (من الازد) الى الشام على ماء يسمى غسان فسموا به ، واستقروا فيما حول دمشق وتدمر ، متجولين فى فلسطين ولبنان (٣) (حاليا) .

أما الحجاز - تهامته وغوره (٤) - ونجد فلم يعرفا فى تاريخهما كله قبل الاسلام نظام الملك والدولة انما عاشا على النظام القبلى .

ومن هذا العرض السريع نستنبط أنه لم تكن للعرب دولة تجمعهم بحيث يشعرون معها بالخضوع والانقياد ، وان هذه الممالك التى قامت لم تبسط سلطانها على الجزيرة ، وانما كان بعضها أشبه بالنظام القبلى كما فى ممالك الشمال - الحيرة والغسانية - وبعضها كان أشبه بالامارات المحلية كالمملكة المعينية والحميرية . على أن هذه الامارات لم يستقر فيها الملك بالمعنى الحقيقى الكامل له ، وانما غلب عليها نظام العشائر والقبائل فى عصور كثيرة ، فالمملكة المعينية مثلا لم تكن ملكا خالصا ، وانما كانت خليطا من ملوك متوجين ومن رؤساء عشائر (٥) ، والمملكة الحميرية كانت نهبا فى الصراع بين الحميريين والكهلانيين (٦) فلم يكن لاحداهما اذن من السلطان الثابت والهيبة المستقرة ما يبسط أثره على الحياة - الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد ، ومن ثم لا يرى الأفراد حاجزا على سلوكهم ولا حائلا بينهم وبين ما يرتضونه لأنفسهم من سبل السلوك ، سواء كان هذا السلوك صعلكة أو غيرها .

---

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٨ - ١١ .
(٢) تاريخ الاسلام السابق جـ ١ ص ٣٢ .
(٣) خزانة البغدادى جـ ٢ ص ٣٠٢ نقلا عن الصحاح والاصمعى ، وفى القاموس المحيط مادة (نجد) جعل الغور هو تهامه .
(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٣١ .
(٥-٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢ .

ونجد الصعاليك أنفسهم يعتزون بهذا المعنى ، ويتوارثونه ، مفتخرين بأنهم لا يرون لأحد سلطانا على حياتهم وسلوكهم حتى بعد أن أصبحوا فى ظل الملك والسلطان فهذا عبد الله بن سبرة الحرشي يقول :

اذا شالت الجوزاء والنجم طالع — فكل مخاضات الفرات معابر
وانى اذا ضن الأمير باذنه — على الاذن من نفسى اذا شئت قادر(١)

ومالك بن الريب صعلوك بنى مازن ، لا يخضعه سلطان بنى أمية القوى العريض فيتوعدهم وعيد الند المكافىء ، ولا ترهبه سطوة الحجاج الثقفى وبأسه العنيف ، فيهجوه الهجاء البالغ ، ويسخر منه السخرية المرة الموجعة ، فى تعريضه بتعليم الحجاج الصبيان فى سابق عهده فيقول لبنى مروان وللحجاج :

ان تنصفونا يال مروان نقترب — اليكم والا فأذنوا ببعاد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا — بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب — وكل بلاد أوطنت كبلادى
فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده — اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف — كما كان عبدا من عبيد اياد
زمان هو العبد المقر بذله — يراوح صبيان القرى ويغادى (٢)

ولم يكن هناك حينئذ من يتوقع منه أن يجترىء على الحجاج على الأخص بمثل هذا الهجاء غير مثل مالك بن الريب ، لا لأنه مالك أو غيره ، وانما لأنه أحد الصعاليك الذين يملكون من سعة الأرض مالا يملكه غيرهم ، حيث يرون — دون غيرهم — أن كل مكان على وجه البسيطة يمكن أن يكون وطنا لهم ، كما يقول مالك فيما سبق « وكل بلاد أوطنت كبلادى » وفوق ذلك فان الهجرة ليست عبئا ولا مبغضة لهم ، وانما هى أمنية يعبر عنها مالك فى هذا التعبير الجميل عن شوق ناقته الى ريح الفلاة فيما سبق .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا — بعيس الى ريح الفلاة صوادى

وهذه النزعة فى صعاليك المجتمع الاسلامى ، أعنى نزعة الشعور بالتحرر من السلطة ، لم تكن وليدة البيئة ولا العصر ، فانهما لم يكونا حينذاك يسمحان بذلك ، وانما كانت وليدة « المهنة » وهى الصعلكة ، وميراثا متنقلا بين الصعاليك منذ الجاهلية .

وأما فى الجاهلية فلم تكن هناك سلطة « رسمية » فوق الصعاليك حتى نستشهد لاستهانتهم بها ، فلم تكن هناك الا سلطة المجتمع بعاداته وتقاليده ،

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام جـ ١ ص ١٨٥ وفى شرح التبريزى أن عبد الله بن سبرة من الفتاك وحرش موضع باليمن .
(٢) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٣٠١ .

وحتى هذه السلطة أباها الصعاليك ، لأنهم لا يؤمنون بأى سلطان من أى نوع ، ونجد هذه النزعة شائعة فى شعرهم ، فالشنفرى يعبر عن ثورته على المجتمع البشرى كله بالهجرة عنه الى مجتمع الوحوش ، ساخطا على الأول ، راضيا عن الثانى فيقول من اللامية الشهيرة .

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فانى الى قوم سواكم لأميل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك مافى الأرض ضيق على امرىء ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

ثم يتحدث عن القوم الذين يريد أن يهجر الناس جميعا من أجلهم ، فاذا هن ذئب ونمر وضبع .

ولى دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل

وتأبط شرا يأبى أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده ، ويصر على أن يفرض نفسه وسلوكه على المجتمع ، فاذا لم يقبل الناس منه ذلك فان فى الأرض متسعا له لا يعبر عنه بالأماكن ، وانما بالآفاق .

انى زعيم لئن لم تتركوا عذلى ... أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
أن يسأل القوم عنى أهل معرفة ... فلا يخبرهم عن ثابت لاقى (١)

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائعة فى شعر الصعاليك ، ومعنى ذلك أن الصعلكة والسلطة ـ الحقيقية المتمكنة ـ لايتفقان ، فقد وجدت أو بمعنى أصح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة ، ومفهوم ذلك أنه حين توجد هذه السلطة لا توجد الصعلكة ، ولو كظاهرة اجتماعية ، وهذا لا ينفى وجودها كحالات فردية ، فان الشذوذ لا يخلو منه مجتمع . وهذه الحقيقة هى التى نهدف للوصول اليها ، فان عدم وجود هذه السلطة فى المجتمع الجاهلى كان من الأسباب الأساسية فى وجود الصعلكة كظاهرة ،

هذا عن الدولة ، وأما عن القانون كصورة من صور القوى المهيمنة المحددة لسلوك أفراد المجتمع ، فنقول أنه من الواضح أنه لم يكون هناك قبل الاسلام قانون عربى ، والواقع أنه بانتفاء وجود الدولة ينتفى وجود القانون ، لأن القانون أو أى تشريع لابد له من سلطة تنفذه وتحميه ، واذا انتفت هذه السلطة ينتفى الوجود الحقيقى للقانون ، ولو افترضنا وجود قانون بدون سلطة منفذة حامية له يصبح وجوده كلا وجود ، من حيث تأثيره والزامه للأفراد ، والأديان ـ حتى الباطل والبدائى منها ـ بوصفها تشريعات اجتماعية

---

(١) الأمالى للقالى جـ ٣ ص ٢٠٥ .
(٢) المفضليات للضبى ص ٢٧ .

وخلقية روحية ، قوتها ليست فى ذاتها وانما فى القوة الالهية التى يعتقدها أفراد المجتمع كامنة وراءها ، فاعتناق الفرد لأى دين ، وانقياده لـــه ليس مصدره الدين نفسه ، وانما القوة الالهية التى يعتقد أنها مصـــدر هذا الدين وحماه ، والتزامه الانقياد لهذا الدين انما مصدره الخوف من هذه القـوة الكامنة وراء هذا الدين ، بصرف النظر ــ فى هذا المعنى ــ عن صحة عقيدته أو بطلانها ، فالمهم هو مجرد اعتقاده ودرجة هذا الاعتقاد ، فان ذلك هو الذى يحدد انقياده ومدى تأثره فى نفسيته وسلوكه ٠

وحين نتحدث عن العرب الجاهليين فى مجال التشريع بنوعيه الوضـــعى والدينى نقول :

أما من ناحية التشريع والقانون فهو كما نقول أنه من المعروف أنه لم يكن هناك قانون بهذا المعنى ، وكل ما كان هنالك هو العرف الاجتماعى ، فى صورة أعراف وتقاليد تواضع عليها المجتمع نتيجة لظروفه ومقتضيات حياته ومعيشته كتحريم القتال فى الأشهر الحرم ، وحماية الجار ، وخلع الشخص الذى تكثـر جناياته فيعلن قومه أنهم برآء منه ومن جناياته فلا يأخذهم أحـــد بعدهـــا بجريرة له (١) ٠

الا أن هذه الأعراف كان ينقصها وجود القوة التى تضمن تنفيذها ، فلم يكن لها من قوة أو سلطة الا العرف الاجتماعى ، ولهذا كان تنفيذها يتأثـــر بالاعتبارات الذاتية أكثر من القيود الاجتماعية ، بمعنى أن القبيلة تجـاه هذه الأعراف ، كانت تنظر الى ذاتها أولا ، فاذا وجدت فى نفسها الشجاعة والقـوة بحيث لا تستطيع القبائل الأخرى أن تجبرها على تنفيذها كانت حينئذ تـرى نفسها فى حل من التقيد بها ، ما لم يرتبط بها معنى آخر كالاعتزاز بالكرامة والخلق ، حين ترى فى التحلل من الموقف الذى يقتضيه العـــرف ما يسىء الى سمعتها أو كيانها بين القبائل ، على أن مسألة المجتمع كانت تأخذ أحيانا وضعا نسبيا ، فتستطيع القبيلة اذا كانت ذات كيان قوى أن تجعل من نفسهـــا مجتمعا خاصا يمكن أن يخالف عرف المجتمع العام اذا وجدت فى ذلك مصلحة ذاتية لها ، كما كانت تفعل قريش فى احرامها بالحج فى الجاهلية ، حيث كانت تحرم بالحج من داخل الحرم ، فى حين كان يتعين على سائر العرب أن يحرموا من خارجـــه ٠

ولهذا نجد التقيد بهذه الأعراف يأخذ عند العرب طابعا عجيبا من التناقض، فيتشبثون أحيانا بها الى حد المبالغة الشديدة ، ويستهينون بها أحيانا الى حد التجاهل ، بل قد يتعدون حدودها الى النقيض ٠

---

(١) القاموس المحيط مادة خلع ٠

فمثلا ايواء الضيف ، كان من هذه الأعراف ، حتى أن ما يترتب عليه من الجود والبذل كان من أهم مقومات السيادة ومجـالات الفخر ، وقـد بلغ من تناقضاتهم فيه الى حد مثل قصص حاتم الطائي المشهورة فى الجود ، والى مثل قصة أبى خراش ـ أحد صعاليك بنى هذيل ـ التى كان حرصه فيها على اكرام ضيوفه سببا فى هلاكه ، حينما أخذ يهيىء لهم الطعام والذبيحة ، ثم رجـاهم أن يحضروا ماء من مكان قريب فأبوا الا أن يحضره هـو ، فنزل على ارادتهم وأحضر الماء ، ولكنه أثناء عودته به تلدغه حية ، ولكنه يتحامل على نفسه فيكمل رحلته بالماء اليهم ، ويزداد تحاملا فيأبى الا أن يتم لهم الطعام دون أن يخبرهم حتى لا يفسد عليهم شهيتهم للطعام ، وتبلغ الصورة ذروتها حينما يبيت عندهم وهو يعانى سكرات الموت دون أن يخبرهم بأمر اللدغة ، حتى لا يفسـد على أمزجتهم التمتع بضيافته وبالنوم الهنىء ، ثم يصبحون فينظرون فاذا هو يحتضر ، ويكون ختام ضيافتهم تشييع جنازة أبى خراش ، وقد عقب عمر بن الخطاب بعد ذلك على قصة أبى خراش وأضيافه اليمنيين ، بأنه لولا أن تذهب سنة لأمـر الا يستضاف يمنى بعدها أبدا ، (١) وجعل الأصمعى هذه القصة سببا فى نهى النبى عن اختناث فم القربة (٢) بل قد تذهب المبالغـة ببعضهـم الى حـد استضافة الوحوش ، كما فعل الفرزدق بن غالب حينما استضاف ذئبا ، وأبى الا أن يشاركه الذئب الطعام ليقول بعد ذلك مفتخـرا ·

واطلس عسـال وما كان صاحبـا ... رفعت لنـارى موهنا فاتانى (٣)
فلما دنـا قلت ادن دونـك اننى ... واياك فى زادى لمشتركـان
فبت أقـد الـزاد بينى وبينـه ... على ضـوء نـار مرة ودخـان
وقلت لـه لما تكشر ضاحكـا ... وقائـم سـيفى من يدى بمكان
تعش فان عاهـدتنى لا تخـوننى ... نكن مثـل من يا ذئب يصطحبـان
وانت امـرؤ يا ذئب والغـدر كنتما ... اخـيين كانـا ارضعـا بلبان
ولو غيرنـا نبهت تلتمس القـرى ... رمـاك بسـهم أو شباة سنان(٤)

ومع هذه الصور التى ترتفع بالاهتمام بالضيف وبالجود الى هذه الدرجة نجد صورا أخرى تنزل به الى أدنى درجاته بل تتجاوز حدوده الى صور غريبة من البخل والشح تبلغ من كثرتها حد أن يفرد لها الجاحظ كتابا كاملا (٥) ·

ومن أعرافهم حفظ الجوار ، فقد كان من حق الخليع والمستضعف والخائف وغيرهم أن يلجأ الواحـد منهم الى من يجيره ، ومن الحق على المجير أن يحمى

(١) خزانة الأدب للبغدادى جـ ١ ص ٢٩٧ ·
(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٣٦٧ واختنائها الشرب من فيها بعد كسره الى الخارج ·
(٣) الأطلس الذئب الأغبر ، وعسال خفيف المشية : رفعت لنارى أى رفعت نارى له أى أظهرتها له ليحضر اليها ·
(٤) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢١٦ ·
(٥) أنظر كتاب البخلاء للجاحظ ·

جاره مما يحمى منه نفسه وأهله ، ونرى فى هذا العرف أيضا صـــورا من المتناقضات فأحيانا تبلغ صور المحافظة على الجوار الى ذروة الوفاء ، كالسـموأل ابن حيان الذى يضرب به المثل فى الوفاء (١) والذى بلغ من وفائه أن امرأ القيس الكندى استودعه دروعا له ثم مات ، فأراد ملك كندة أن يستولى على هذه الدروع فأبى السموأل أن يسلمها الا الى ورثة امرىء القيس ، فغـزاه الملك وحاصره ، فتحصن منه السموأل ولكن الملك اســتطاع أن يأسر ابن السموأل ، ثم طلب الملك السموأل فأشرف عليه من الحصن ، فقال له الملك متوعدا وابن السموأل عنده : سأذبح ابنك ان لم تسلم الدروع وتحت وطأة البشاعة التى ارتسمت فى نفس السموأل لذبح ابنه قال له : أنظرنى الى غد ، ثم جمع قومه وأهل بيته فكلهم أشار بتسليم الدروع ، ولكن الوفاء كان أقوى فى نفس السموأل من كل شىء ، فحين أصبح أشرف على الملك مكررا رفضه فى حزم واصرار ، وجاء الملك بابن السموأل ليذبحه أمام عينى أبيه ، ثم ذبحه والسموأل ينظر اليه ، واحتفظ السموأل بالدروع ، ثم قدم بها الموسم فسلمها الى ورثة امرىء القيس ثم قال :

وفيت بادرع الكنـــــدى انى ... اذا ما خـــان اقـــوام وفيت
وقالـــوا انـــه كـنـــز رغيب ... ولا والله اغـــدر ما مشيت (٢)

بل بلغ ببعضهم أن يجير بالقبر ، كما كان الفرزدق يجير من استجار بقبر أبيه (٣) كما أجار المرأة الجعفرية التى استجارت بقبر أبيه وفى ذلك يقول :

عجـوز تصلى الخمس عاذت بغـالب ... فلا والذى عاذت بـه لا أضيرها (٤)

بل كان بعضهم يجير الوحوش فتصبح حمى له لا يمس ، كمـا كان كليب ابن ربيعة يقول :

« وحش أرض كذا فى جوارى ، فلا يهاج » (٥)

ومع ذلك فهناك صور أخرى كان ينزل فيها الحفاظ على الجار الى درجـة واهية من الوفاء ، تبلغ أحيانا حد التجاهل والتنكر ، فمن ذلك قصة السليك ابن السلكة مع ابن مويلك الخثعمى ، فقد استجار السليك بابن مويلك ، واذا أسد بن مدرك الخثعمى يعدو على السليك وهو قافل من احدى غزواته فيقتله ، وأراد ابن مويلك مجيره أن يثأر له أو يطلب ديته ، ولكن أسدا يقـــول :

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى جـ ٢ ص ٣٧٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
(٣) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٩١ .
(٤) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٩١ .
(٥) خزانة البغدادى جـ ٢ ص ٢٤ والعقد الفريد جـ ٢ ص ٧٨ .

والله لا أديه ولا كرامة ، ولو طلب فى ديته عقالا ما أعطيته ويقول :

اني وقتـــلى سـليكا ثم أعقلـــه كالثـور يضرب لما عافت البقر (١)

وهكذا تنتهى حياة السليك دون ثأر أو دية ، كما كان ينبغى فى عـــرف الجاهليـــة ٠

ومحرز بن المكعبر الضبى يهجو بنى عدى الذين أغير على ابله فلم يحركوا ساكنا وهو جارهم ، حتى اضـــطر الى أن يستجير بجيران آخـرين من بنى مازن (٢) فيقـــول :

أبلغ عديـــا حيث صارت بها النوى وليس لدهـــر الطالبين فنـــاء
كســالى اذا لاقيتهـم غير منطق يلهى به المتبول وهو عنـــاء
فهلا سعيتم ســعى عصبـة مازن وهل كفلائى فى الوفـاء سواء ؟ (٣)

وهكذا حين نتتبع تقيد المجتمع الجاهلى بأعرافه وتقاليده (٤) ، نجـد هذا التقيد يخضع أكثر ما يخضع لعاملين ، القوة والمنفعة الذاتية ــ لا العـــامة ــ فحيثما وجدت القوة خضع لها المنطق والعرف ، وحيثما وجدت المنفعة الذاتية كانت أول الأهداف ، وهذا لا يمنع أن تكون هناك أهداف أخرى من المصلحة العامة والحفاظ على الخلق الاجتماعى والتقاليد المتوارثة ، ولكنها جميعا تأتى بعد ذلك الهدف ، وهو المصلحة الذاتية ٠

ونخلص من هذا الى أن أحد شقى التشريع ، وهو القانون الوضعى لم يكن معروفا لدى العرب الجاهلين ، وانه كانت هناك أعراف وتقاليد اقتضتها ظروف المجتمع وطبيعته ، ولكن هذه الأعراف لم تأخذ صفة الالزام بحيث يتقيد الأفراد بالتزامها ، ولعدم وجود سلطة تقوم على تنفيذها ٠

والصعاليك كانوا أقدر أفراد المجتمع على انتهاك هذه الأعراف والتنكـر لها ، لأنهم يملكون أمرين مهمين فى هذا المجال ، أحدهما القوة المتحررة من كل قيد وسلطان ، والتى تسير دفة الحياة فى مجتمعهم ذاك ، والآخر أنهم أكثر أفراد

---

(١) مهذب الأغانى للخضرى ٢/١٦٧ ٠

(٢) شرح ماسة أبى تمام للتبريزى جـ ٢ ص ١٩١ ٠

(٣) ديـــوان الحماســـة لأبى تمام جـ ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ٠ والنوى : البعد ٠ والشطر الثانى من البيت الأول معناه أن الثار لا يذهب مادام صاحبه يطلبه ٠ والمتبول : ذو العداوة والحقد ٠

(٤) وعن انتهـاك تقليد الحرم أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ٢ ص ٥٣٠ فى قتل زهير بن هرة محرما وشعر أبى خراش فيه وانظر أيضا لسان العرب مادة فتك عن فتك النعمان وقتله فى بنى عوف بن كعب أثناء الشهر الحرام وشعر المخبل السعدى فى ذلك وانظر هجاء أبى خراش فى الغدر بالجوار ديوان هذيل ٠

المجتمع وطوائفه تحللا من روابطه وعراه ، بل لا يربطهم بالمجتمع الا ما يرون فيه منفعة لهم ، سواء كانت مادية أو أدبية ، لذلك لم يكن المجتمع بما فيه من تقاليد وأعراف حجرا على حريتهم وسلوكهم ، ولذلك نرى الشنفرى يقتل قاتل أبيه وهو محرم بالحج ، مخالفا بذلك عرف المجتمع ، بل مفاخرا بذلك فيقول :

قتلنا قتيلا مهديا بملبد ... جمار منى وسط الحجيج المصوت
جزينا سلامان بن مفرج قرضها ... بما قدمت أيديهم وأزلت (١)

وأما عن الشق الآخر من التشريع ، وهو التشريع الدينى فنقول :

الواقع أن الأديان نوع من التشريعات ، سواء أكانت تشريعا روحيا ، وخلقيا اجتماعيا ، كسائر الأديان ، أم كانت تشريعا كاملا ، روحيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، وهو الاسلام بالذات .

وفى كل حال فالدين نوع من التشريع ، والقوة التى تحمى هذا التشريع هى الايمان ، الايمان بأن وراء هذا التشريع قوة تحميه ، وتعاقب وتثيب عليه ، ولذلك نجد سلطان الأديان وتأثيرها محصورا فى المؤمنين بها ، ونعنى بهذه القوة القوة الالهية لدى المؤمنين بالأديان السماوية ، وحين ننظر الى الدين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، نجد أن الوثنية هى الدين الغالب ، ان كان للوثنية أن تسمى دينا ، بل تكاد تكون هى الدين الوحيد الذى طغى وسيطر عليها ، فباستثناء الأقليات المتنصرة فى شمال الجزيرة وخاصة فى غسان ، وفى جنوبها وخاصة فى نجران والجماعة التى تهودت فى اليمن بزعامة (أسعد أبو كرب) أحد ملوك حمير (٢) وما انبثق عنها من جماعات محدودة ، وخاصة فى يثرب (المدينة) وما حولها ، باستثناء هذه الأقليات كانت الجزيرة بصفة عامة وثنية .

على أننا نلاحظ أن هذه الأقليات كانت منزوية منطوية على نفسها ، ولم يكن نشر أديانهم والتبشير بها من أهدافهم ، وحتى المتحنفون (٣) لم يكن تنصرهم تأثرا بغيرهم ، وانما كان هروبا من الوثنية التى لم تسغها عقولهم ، ومرحلة من مراحل سعيهم وراء الحقيقة الكاملة التى أظهرها الاسلام ، فلم تحدثنا الأخبار عن نشاط تبشيرى فى الجزيرة ، الا ما كان من (يوسف ذو نواس) الحميرى الذى حرق المسيحيين فى نجران ليحملهم على اليهودية (٤) ، والذى أثار عمله هذا موجة من النشاط الدينى لأول مرة فى الجزيرة ، حيث

---

(١) المفضليات للضبى ص ١١١ وبنو سلامان بن مفرج هم قبيلة حرام بن جابر قاتل أبيه وأنظر لسان العرب مادة فتك عن انتهاك هذا العرف .

(٢) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٢٨ .

(٣) ورقة بن نوفل وزملاؤه .

(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٢٩ وكان ذلك سنة ٥٣٤ م .

ترتب عليه أن غزت الحبشة اليمن لتثار لشهداء دينها ، ثم حاولـــوا نشر المسيحية بهدم الكعبة الذى لم يستطيعوا تحقيقه كما فى قصة الفيل المعروفة ، وكانت هذه الموجة قبيل الاسلام ، كما كانت من عوامل التمهيد النفسى له ، حيث سرت فى الحجاز لأول مرة موجة حية من الاحساس بالأديـان السماوية والصراع حولها ، فالحجاز بالذات كان مركز الوثنية الذى لم تزعزعه هـزة دينية قبل الاســلام ٠

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن هناك دين يوصف المجتمع الجاهلي بالانتماء له ، وأما الوثنية فلا توصف بأنها دين ، وانما هى مظهر من مظاهر البدائية لا تشريع له ، وقصارى تأثيرها فى المجتمع من الناحية الروحية ارضاء جانب من غريزة التدين فى الانسان ، واحساسه الفطرى بالقوة الالهية ، ولذلك يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله « وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » على أن عبادتهم للأصنام آلت الى نوع من التنافس والعصبية ، حيث خصت كل قبيلة نفسها باله (صنم) تعبده وتتقرب اليه ٠

وأما من الناحية الاجتماعية السلوكية فلم يكن لعبادتهم الأصنام فيهـا أثر ، فلم تحدثنا الأخبار فيما نعلم أن أحدا منهم امتنع عن سلوك معين خوفا من الأصنام ، أو زاول سلوكا معينا تقربا اليها ٠

واذا كانت عبادة الأصنام لم تحمل أحدا من الأفراد العاديين فى المجتمع على شيء ، ولم تستطع أن تمنع أحدا منهم عن شيء ، فأولى ألا تحمل ولا تمنع الصعاليك والفتاك ، الذين لا يؤمنون بشيء الا بأشخاصهم ، ضاربين بالمجتمع وما فيه ، وبسخطه ورضاه عرض الحائط ، كما يقول أحدهم :

غلام اذا ما هم بالفتك لم يبـل الامت قليـــــلا ام كثيرا عـواذله (١)

وحتى المشورة التى تواضع المجتمع على أنها سداد وحزم ، يرونهـا هم ترددا وعجزا ، كما يقول قائلهم :

وما العجـز الا أن تشـــاور عاجزا وما الحـزم الا أن تهـــم فتفعـلا (٢)

وننتهى من هذا الحديث الى أنه لم تكن هناك سلطة من دولة أو قـــانون أو دين ، تمنع وجود طائفة كالصعاليك ، أو تحجر على سلوكهم حين يوجدون ٠

---

(١) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢١ ٠
(٢) المصدر السابق ٠

٢ ـ ظهور زعامات غير متزنة :

على أن عدم وجود هذه السلطة ترتبت عليه أمور أخرى نعتقد أنها ساهمت في نشأة الصعلكة وفي انتشارها ، وأهم هذه الأمور ظهور زعامات غير متزنة في المجتمع الجاهلي ، كانت هذه الزعامات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر ، وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم الى الرياسة ، وانما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسودوا من أجلها من يتحلى بها ، وان اختلفت نظرة القبائل الى هذه الصفات ، وصاحب الخزانة يسوق لنا طرفا منها نقلا عن الجاحظ فيقول « قال الجاحظ في كتاب شرائع المروءة : وكانت العــــرب تسود على أشياء ، أما مضر فتسود ذا رأيها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصـــال ، السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وأصبحت في الاسلام سبعا ، وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندى ، وكف الأذى ، ونصرة المولى ، وتعجيل القرى ، وقد يسود الرجل بالعقـــل والعفة ، والأدب والعلم ٠٠ » (١)

ولكنا مع ذلك نجد أن هذه الصفات ليست ملتزمة ، والرواة أنفسهم يتحدثون بذلك ، فصاحب الخزانة أيضا ينقل عن الأصمعي « قال الاصمعي : ذكر أبو عمر بن العلاء عيوب جميع السادة وما كان فيهم من الخلال المذمومة الى أن قال : ما رأيت شيئا يمنع من السؤدد الا قد رأيناه في سيد ، وجدنـا الحداثة تمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخـل دار الندوة وما استوت لحيته ، ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سـفيان بخيلا عاهرا ، وكان عامر بن الطفيل بخيلا قاهرا وكان سيدا ، والظلم يمنع من السؤدد وكان كليب بن وائل ظالما وكان سيد ربيعة ، وكان حذيفة بن بـدر ظالما وكان سيد غطفان والحمق يمنع السؤدد وكان عيينه بن حصن أحمق وكان سيدا ، وقلة العدد تمنع السؤدد وكان السيل بن معبد سيدا ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان والفقر يمنع السؤدد وكان عتبة بن ربيعة مملقـــا وكان سيدا » (٢) ٠

ومن هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد مقومات الرياسة والسيادة ، وفي انطباق هذه المقومات على الذين تسند اليهم السيادة والرياسة نقول أنه من الواضح أنه لم يكن للزعامة كما قلنا قانون ولو عرفي ينظم الوصول اليها ٠

ومن باب أولى لايوجد قانون ـ ولو عرفي أيضا ـ يحدد المقومات التي ينبغي التحلي بها أو المحافظة عليها أثناء الزعامة ، وآية ذلك أن الروايات فيما

(١) خزانة الأدب للبغدادي جـ ٢ ص ٢٦٩ ٠

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٠ ٠

نعلم لم تحدثنا عن زعيم خلعه قومه من الزعامة لاختلال مقومات معينة ، أو اخلاله بصفات محددة ، ومن ذلك هؤلاء الذين عددهم الأصمعى آنفا ٠

ويمكن أن نستخلص مما تحدثنا به الروايات عن نظـرة العـــرب الى السيادة ، أنها كانت تحتاج الى دعامتين ، أولاهما قوة الشخصية ، ونعنى بقوة الشخصية المدلول الخاص لهذا التعبير ، وليس مجرد القوة أو شدة البأس ، فقد كان فى القبائل كثير من هذا النوع ، وكانوا يوصفون بأنهم شجعان أو فرسان أو فتاك ، ولكن لم يوصفوا بأنهم سادة ٠ والدعامة الثانية هى الوراثة ولو غير المباشرة ، بأن يكون طالب الزعامة من بيت ألف فيه الزعامة ، سواء أكان أبوه زعيما أم غير زعيم ٠

وليس هذا الحديث مما يعنينا لذاته ، وانما يعنى الموضوع منه أنـــه حينما لم تكن لهؤلاء الرؤساء ضوابط أو أسس تقوم عليها رئاساتهم اندفع بعضهم فى بغى لا يتقبله المجتمع ، وظلم تأباه طبيعة مجتمع لم يألف الذل قط ، بل ولا مجرد الخضوع ولكن هذا البعض استطاع أن يستغل بعض الظروف فى شخصيته أو عصبيته ، فيطغى ويبغى ، كما فعل كليب حين كان يحمى المراعى والوحوش ومواقع السحاب (١) وصورا أخرى من البغى والطغيـــان وكهؤلاء السادة الذين تحدث عنهم الأصمعى آنفا (٢) ، وهذا البغى والطغيان من شأنه أن يدفع بعض النفوس الأبية الى التمرد ومحاولة صده والخروج عليه ٠ كما فعل جساس بن مرة فى قتله كليبا ، وكما فعل علقمة بن علاثة فى صراعه مع عامر بن الطفيل الذى عده الأصمعى من السادة القاهرين الظالمين كما سبق٠

على أنه من مظاهر ظلم بعض هؤلاء الســــادة احتكارهم موارد الرزق المحدودة فى البيئة ، وتضييقهم بذلك على الناس بما فيهم أقوامهم ، ويـــدل على ذلك ما تفيض به الأخبار من ثرائهم الفاحش اذا قورن بالفقر الشـــديد الذى يعانيه الناس من حولهم ، ومن أمثلة البغى فى مصادر الرزق ما ســبق من احتجاز كليب التغلبى سيد ربيعة للمراعى بل ولمواقع السحاب لنفســه دون الناس جميعا بما فيهم قومه ٠

وبذلك يكون هؤلاء السادة قد ساهموا مع الظروف فى قسوتها على مجتمع محدود الموارد ٠ ومن الطبيعى أيضا أن يكون هذا الســلوك من جانب بعض الرؤساء عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد ، ولجوئهم الى وسائل كالصعلكة ٠

فانه اذا كان فى المجتمع من يأبى الظلم ويتمرد عليه ، ويرفض البغى ويتصدى له ، واذا كان فى المجتمع من يؤلمه الفقر الذى ســـــاهم السادة فى

---

(١) خزانة البغدادى جـ ٢ ص ٢٤ ، والعقد الفريد جـ ٣ ص ٧٨ ٠

(٢) خزانة البغدادى جـ ٢ ص ٢٧٠ ٠

خلقه ، واذا كان فى المجتمع من تغريه أموال هؤلاء السادة بالتلصص اليهـا والسطو عليها ، فأولى الناس بذلك هم الصعاليك ، لأنهم أكثر الناس امتلاكا للوسائل المضادة ، وأقواهم على استخدامها ، سواء اكانت مضادة البغى والظلم . أم مضادة الاحساس بالفقر ، أم مضادة الثراء والغنى ٠

٣ ــ عدم التوازن بين الفقر والغنى :

أجمعت كتب اللغة ومعاجمها كما رأينا ، وكذلك دوائر المعـــارف التى أخذت عنها (١) على أن أصل الصعلكة الفقر ، ولا شك أن هذا يلقى ضوءا قويا على نشأة الصعلكة وكذلك على حياة الصعاليك المادية ، حيث يبين من هذا الضوء أن من أبرز ما قامت عليه الصعلكة فى نشأتها وفى حياتها الفقر ٠

وشعر الصعاليك أنفسهم ينطق بهذه الحقيقة ، بل يمكن أن يقال ان الفقر كان أبرز المعانى التى ترددت فى شعرهم على الاطلاق ، بل نكاد لا نجد شاعـرا منهم لم يتحدث عن الفقر فى صورة من صوره ، وصور الفقر عند الصعاليك لم تكن تمثل فقرا عاديا ، وانما فقرا قاسيا ، وكانت آثاره من الجوع والهزال والحرمان أشد امعانا فى القوة ، والسليك يرسم لنا صـــورة بينة الصدق عن الجوع وآثاره ، فيقول أنه حتى فى الصيف الذى تكثر فيه ألبـــان البـــادية وخيراتها يبلغ منه الجوع أحيانا أن يأخـذه الدوار حين يقف فتظلم عينـاه ، يقول :

وحتى رايت الجـوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشانى ظلال فاسدف(٢)

ولحديث الشعر عن الفقر موضعه حين نتحدث عن الشـــعر ، ولكن الذى يعنينا الآن هو مساهمة الفقر فى نشأة الصعلكة وحياتها ، من زاوية اتصاله ــ أعنى الفقر ــ بالغنى ٠

والواقع أن الفقر ليس جديدا ولا غريبا على البيئة فى الجزيرة العربية ، وخاصة فى الحجاز (٣) فهى بيئة أهم مواردها الرعى ، ثم قليـــل من الخصب الزراعى فى مناطق محدودة من اليمن وخاصة بعد تهدم سد مأرب ــ وفى شمال الجزيرة ، وبقع متناثرة فى نجد وحول يثرب (المدينة) يضاف الى ذلك النشاط

(١) مثل دائرة معارف القرن العشرين جـ ٥ مادة (صعلك)

(٢) مجمع الامثال للميدانى جـ ٢ ص ١٠ ومهذب الاغانى جـ ١٦٧/٢ وأسدف اى دخل فى السدفة وهى الظلام ٠

(٣) أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٨٣ المقدمة الخامسة فصل اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجو ٠

التجاری الذی يعتمد على موارد البيئة من ناحية ، واحتياجاتها من ناحية أخرى ، وكلاهما تبعا لذلك محدود أيضا ·

واذن فالفقر من حيث هو ليس غريبا ولا نادرا فی بيئة كهذه البيئة · ونكن الفقر من حيث هو لا نعتقد أنه يكفی أن يكون سببا فی الصعلكة ، وانمـــا نعتقد أن الاحساس بالفقر هو الذی يصلح أن يكون سببا ، والفرق كبير بين الفقر والاحساس به من حيث ما يترتب عليهما من آثار فی حياة صاحبيهما ، وليس هذا الفارق فی الفقر وحده ، وانما فی كل المعانی التی يمكن أن تترتب عليها آثار اجتماعية ، فالثورات على الظلم مثلا ليس مصـدرها الظلم نفسـه ، وانما مصدرها الاحساس بالظلم ·

ولا نعنی بالاحســـاس مجرد العلم ، فكثير من الفقراء يعلمون أنهم فقراء والمفروض أن يعلم الفقير أنه فقير ولكنهم مع ذلك يستكينون لقسطهم وحظهم من الحياة ، لأن هذا العلم لم يبلغ من نفوسهم مبلغ الانفعال والتأثر ، ولكن بعضـا آخر منهم يمس هذا الاحساس نفسه ، ويثير حوافزها فيترتب على ذلك ما يترتب فی حياته من سلوك وأحداث · وهناك عوامل فی المجتمع من شأنها أن توجد الفقر نفسه ، وتوجد الاحساس به ، ومن أهم هذه العوامل ما يأتی :

١ ـ ضعف موارد البيئة جعـــل ميزان التعـــادل بين الافراد والجماعات حساسا من الناحية المادية فاذا أثرى فرد كان ثراؤه على حساب الآخرين ، واذا غنيت جماعة كان غناها يمثل هبوطا أو فقرا فی حياة جماعة أخرى من الناحية المعيشية والمادية ، كما يعبر المعری عن هذا المعنى فی سياق فلسفی فيقول ·

غنی زيد يكـــون لفـــقر عمـــرو فلا فقـــر يـــدوم ولا غنـــاء

ومن الطبيعی ألا يكون هناك توازن أو تقارب فی الثروة بين الافراد وبين الجماعات فی بيئة أبرز شرائعها السيف وشدة البأس ، فكلما كان الفرد أشـد بأسا وأمضى سيفا أتيح له أن يحصل على أكبر قدر من كل شیء ، ومن هـــذه الأشياء الثروة ، وكلما كانت الجماعة أو القبيلة أشد بأسا وأرهب جانبا دنت منها الأهداف والغايات وفی مقدمتها الثراء ·

وأخبار الثراء الفاحش الذی وصل اليه بعض العرب دون بعض تفيض بها الروايات والأخبار وبعضها مشهور كثراء عثمان بن عفان وصفوان بن أمية منذ الجاهلية ، وكالآلاف التی تركها عبد الرحمن بن عوف عند موته ، بل كان بعضهم يحتكر لنفسه موارد الطبيعة من المراعی ومواقع الغيث ، كقصص كليب المشهورة ، ومن هؤلاء الأثرياء غالب أبو الفرزدق ، الذی أصاب الناس مجاعـة فكان ينحر لقومه كل يوم ابلا يطعمهم حتى نحر ذات يوم مائة ناقة (١) ، وبلغ

(١) خزانة البغدادی جـ ٢ ص ٢٤٩ وفی الأمالی جـ٣ ص ٥٣ أن الابل التی نحرها مائتان

من شهرته بكثرة ابله ، أنه حين دخل على علي بن أبي طالب ســـأله علي : من الشيخ ؟ قال : أنا غالب بن صعصعة ، قال ذو الابل الكثيرة ؟ قال : نعم (١) ، ومن هؤلاء أيضا سحيم بن وثيل بن حنظلة الذى نافس غالبا فى نحر الابل ، فنحر لقومه ذات يوم نحو ثلاثمائة ناقة (٢) ٠

ويتضح هذا الثراء فى الديات والمغارم التى كان يلتزمها سادة القبـــائل وزعماؤها فى الجنايات لتى كانت « تعفى بالمئين (٣) » من الابل كما يقـــول زهير بن أبي سلمى فى قصيدته المشهورة ، وكما فعل الحارث بن أبي سفيان الذى ألزم نفسه دية قدرها ألف بعير (٤) ، وكما فدى هوذة بن على نفسه من أسر بنى سعد بثلاثمائة بعير (٥) ، وكما تحمـــل حاتم عن قيس بن خفاف ثلاثمائة بعير (٦) ومصــــادر هذه الثروة كانت الابل ومراعيها فى البادية أما فى المدن فكانت مصادرها التجارة ، كتجارة قريش المشهورة ، ورحلتيها فى الشتاء الى اليمن ، وفى الصيف الى الشام (٧) كل عام وهما اللتان يتحدث عنهما القرآن الكريم فى قوله تعالى « لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشـــتاء والصـــيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ، وكلطائم النعمان بن المنذر ، التى كانت تشبه القوافل التجارية ، يرسلها الى الأســواق لتباع فيها ، ومن ذلك أنه كان يرسل الى سوق عكاظ كل عام بلطيمة تباع له هناك (٨) بالسوق ٠

ونتيجة لذلك نجد فضلا عن الافراد جماعات وقبائل اشتهرت فى جملتها بالثراء منذ عصـــور الجاهلية كقريش الذين يصـــفهم الزمخشرى بأنهم كانوا كسابين بتجارتهم وضربهم فى البلاد(٩) وكآل المنذر لما لهم من امارة ولطائم كما سبق ٠

---

(١) أمالى القالى ج ١ ص ١٥٣ ٠

(٢) خزانة البغدادى ج٢ ص ٢٤٩ وفى المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٢ عن ابن دريد أن سحيما عاش فى الجاهلية أربعين سنة وفى الاسلام ستين سنة وغالب بن صعصعه معاصر له فثراؤهما يمثل الجاهلية والاسلام والقصة أيضا فى الامالى ج ٣ ص ٥٣ ٠

(٣) خزانة البغدادى ج٢ ص ٢١٧ وتعفى أى تمحى بالمئات يقصد الديات ٠

(٤) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ج ٢ ص ١٧٤ ٠

(٥) معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٠٦٥ ٠

(٦) الامالى ٣/٢١ ٠

(٧) تفسير الكشاف (سورة قريش) الجزء الرابع ص ٦٣٩ ٠

(٨) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٨٧ ٠

(٩) تفسير الكشاف (سورة قريش) ج ٤ ص ٦٤٠ ٠

وهذا الثراء المجاور للفقر ، هو الذى نعنيه فى اثارة الاحساس بالفقر وفى آثارة التطلع للغنى معا ، فبعض الفقراء الذين وجدوا فى نفوسهم صفات خاصة – هى صفات الصعاليك – من حساسية النفس وقوة العزيمة ، آلم هذه الحساسية فى نفوسهم أن يرتعوا فى البؤس والحرمان ، بينما يلاصقهم أناس آخرون يرتعون فى الثراء والنعيم ، وقد لا يكون كثير من هؤلاء الأغنياء أحق منهم بالغنى ، ثم ينظرون فاذا فى نفوسهم قوة قوية ، وارادة ماضية ، ففيم استكانتهم لحرمان لا يرونه حقا عليهم ؟ وفيم قعودهم عن آمال لا يعجزهم تحقيقها ، أو تحقيق بعضها على أسوأ الظنون ؟ وفيم رضاهم بالهوان بين الناس ؟ والعصاليك أنفسهم يتحدثون عن جولان هذه المعانى فى نفوسهم ، فهذا عروة ابن الورد يخاطب امرأته قائلا :

ذرينى للغنى أسعى فانى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليهم ... وان امسى له كرم وخير
يباعده القريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور (١)

وكما يقول تأبط شرا .

اذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر (٢)

٢ – نواحى البيئة نفسها غير متفقة فى خصبها وجودها بالخير ، فمع أن الجزيرة العربية معروفة بأنها منطقة صحراوية جبلية فى جملتها ، تتمثل فى سلاسل من الجبال والصحراوات تتخللها طولا وعرضا ، وتعتمد على الامطار التى تتساقط فى فترات متقطعة على أرض غير خصبة ، وعلى قليل من العيون التى تشبه الآبار ، والتى غاية ما يرجى منها أن تكفى الملتفين حولها فى مشربهم وحفظ حياتهم ، نقول مع ذلك نجد فى الجزيرة مناطق محدودة اشتهرت بالخصب والجودة، وقد يكون هذا الخصب نسبيا ، أعنى بالنسبة للأرض المجدبة حولها ، ولكننا لا يعنينا تقويمها لذاتها ، وانما تعنينا نظرة المجتمع حينذاك اليها واكباره لخصبها وتطلعه الى هذا الخصب ، فمن هذه المناطق المشهورة بالخصب بعض الاماكن فى اليمن وخاصة فيما حول مأرب حين جعل السبأيون منها جنة فياضة بالخيرات ، كما يصف القرآن الكريم ذلك فى قوله « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٣٧ (باب السعى للرزق) .
(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام جـ ١ ص ١٧ .

من سدر قليل » (١) ويقول ابن عباس عن خصبها « كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها وتعبر بين تلك الشجر فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر » (٢) .

ومن هـذه المناطق الخصبة الطائف وما حولها وشهرتها كمصيف لسادة العرب ، وشهرتها أيضا بكرومها وثمارها قديمة منذ عصور الجاهلية ،ومن كرومها هذا الحائط لذى لجأ اليه النبى صلى الله عليه وسلم فى أزمة لجوئه الى ثقيف وتخلى ثقيف عنه وايذائها اياه فى القصة المشهورة ومن مناطق الخصب المشهورة أيضا يثرب (المدينة) المعروفة بثمارها وخاصة النخيل ، ومنها أيضا منطقة نجد فى بعض نواحيها ، ومنها بعض مناطق السماوة ، مثل بيشة التى وصف جرير بن عبد الله خصبها للنبى صلى الله عليه وسلم (٣) ومنها قطر التى اشتهرت فى القديم بكثرة خمورها (٤) لكثرة الكروم فيها ، ومنهـا اليمامة التى يقول عنها الطبرى « واليمامة اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا ، لهم فيها صنوف الثمار ، ومعجبات الحدائق » (٥) والخصب البارز فى هذه المناطق كان يجاوره فقر مدقع فى المناطق نفسها بتفاوت أفرادها فى الثراء وطغيان بعضهم على أنصبة الآخرين فيها ، وكان يجاوره أيضـــا فقر مدقع فى الأحياء والقبائل القريبة منها بطبيعة الحال .

وهنا يثور الاحســاس بالفقر عند بعض الفقــراء ، حين يجدون جيرتهم وأقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به ، فى الوقت الذى يعانون فيه هم ما يعانون ، وهنا أيضا يثور فى نفوسهم التطلع للغنى والحصول على المال ، حين يجدونه قريب المنال .

وليس من المصادفة أن نجد معظم الصعاليك والفتاك ينتمون الى هذه المناطق الخصبة ، فمثلا نجد من منطقة مأرب عددا كبيرا ، ومنهم حاجز بن عوف الازدى ، وأبو الطمحان القينى ، ومالك بن حريم الهمدانى ، وعبد الله بن سبرة الحرشى، ومن منطقة الطائف وما حولها صعاليك هذيل وهم كثير ، منهم أبو خراش والأعلم وصخر الغى ، ومن منطقة اليمامة صعاليك بنى تميم وهم كثير أيضا ، ومنهم عبدة ابن الطبيب والسليك بن السلكة ، وسعد بن ناشب ، ومن منطقة يثرب وما حولها عدد كبير أيضا منهم عروة بن الورد العبسى وتأبط شرا الفهمى ، مع مراعاة أننا لا نتحدث الا عن الشعراء من الصعاليك ، والمفروض أن الذين لم يكونوا شعراء أكثر من الشعراء ، ومع مراعاة أن هؤلاء البارزين من الصعاليك الذين تحدثت

---

(١) سورة سبأ الآيات من ١٤ الى ٢١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى الآيات السابقة جـ ٣ ص ٤٥٤ .

(٣) انظر معجم ما استعجم للبكرى جـ ١ ص ٢٩٣ .

(٤) انظر المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٨٢ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ٤٥٢ .

عنهم الرويات والاخبار كان معظمهم رؤساء عصابات من الصعاليك كما يتحدث السليك عن رفاقه في العصابة فيقول :

وباتوا يظنـــون وصـــحبتي اذا ماعلوا نشزا أهلوا واوجفوا (١)

وكما يقول تأبط شرا عن الرفاق ·

سباق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هدا بين أرفاق (٢)

وكعصابات عروة بن الورد المشهورة في أخباره ·

بقى في هذا المجال أن نشير الى مصدر من مصادر الثروة في المجتمع العربي القديم ، وهو التجارة وما يرتبط بها من الأسواق والطرق التجارية وما لذلك من أثر في الصعلكة ·

والتجارة كانت بالنسبة للمدن موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم الاقتصـــادية ، كما تحدثنا عن قوافل قريش ، وعن لطائم النعمان بن المنذر ، وكذلك كانت لكسرى لطائم تمتد بينه وبين عماله بالجزيرة في اليمن مدة احتلال الفرس لها — وفي الشمال عند المناذرة ، ومن هذه اللطائم لطيمته التي أرسلها اليه عامله على اليمن فأغار عليها بنو تميم وأخذوها بعد أن قتلوا بعض خفرائها وأسروا البعض الآخر (٣) ·

وكان لتجارة القوافل طريقان معروفان منـذ القدم ، وكلاهما يبدأ من ظفار بجنوب اليمن وهي التي كانت تسمى ريدان (٤) في عواصهم الممالك اليمنية القديمة ، ويسلك أحدهما في تعاريجه بشرق الجزيرة متجها الى الشمال في محاذاة الخليج العربي ، ويسلك الآخر في تعاريجه وانحناءاته أيضا غرب الجزيرة مارا بالحجاز ومحاذيا البحر الاحمـر (٥) وكان الطريقان يمـران بمعظم البلاد والقبائل العربية ·

وفضلا عن نشـــاط القوافل التجارية التي كانت تتردد بين الجزيرة وبين ممالك أخرى كالفرس والروم والحبشة والهنـد ، وتخترق في ترددها هاتين الطريقين مارة بالبلاد والقبائل العربية ، قاصدة في أغلب الأحيان أسواق العرب بائعة ومشترية ، فضلا عن ذلك كانت هناك التجارات الداخلية المحلية ، بين قبائل العرب وهذه الاسواق ، سالكة أحدى الطريقين أو طرقا فرعية أخرى من

---

(١) مهذب الخضرى لأغاني الاصبهاني ١٦٧/٢ ·
(٢) المفضليات للضبي ص ٢٧ · وهدا أى رافعا صوته بالأمر والنهي ·
(٣) أنظر معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٠٥٩ ·
(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٨ ·
(٥) أنظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ١٢٤ عن مراجع أخرى ·

شأنها أن يهيئها أو يبحث عنها المقيمون فى مكان لانفسهم حتى توصلهم بالأماكن والمجتمعات الأخرى ٠

وأما أسواق العرب فكانت كثيرة منبثة حول أهم البلاد والطرق ، وقد عدد صاحب كتاب الشعراء الصعاليك منها نحو ثلاث عشرة سوق متفرقة فى أنحاء الجزيرة كلها ومنها الاسواق المشهورة كعكاظ ومجنة وذى المجاز (١) ٠

ومع ذلك فهناك أسواق أخرى وان كانت غير مشهورة ، تحدث البكرى عن بعضها ، مثل سوق الحربة — بفتح الحاء وسكون الراء — التى يقول عنها « وحربة سوق من أسواق العرب فى عمل اليمامة ، وفيه أدركت أم الوردالعجلانية بثأر ذات النحيين الهذلية (٢) » فى قصة ساقها تتعلق بالمثل العربى « أشغل من ذات النحيين » وقصة هذا المثل (٣) ٠

والذى يهمنا فى حديث التجارة والاسواق أنها كانت من العوامل المهمة فى خلق الصعلكة ، فهذه القوافل التى كانت توغل فى مجاهل الصحراء ، والتجار الذين كانوا يترددون بتجارتهم على الاســواق فى هذه الطرق والمجاهل ، كل ذلك كان صيدا ثمينا يغرىطوائف الصعاليك منقطاع الطرق وأصحاب الغاراتبأن يتعرضوا لها ويستميتوا فى الفوز بها ، بل انها كانت تغرى القبائل نفسها وعلى رءوسها سادتها بأن يتعرضوا لها ويقاتلوا دونها ، ولذلك كان من المعروف عندهم أن أصحاب القوافل لا يستطيعون أن يعبروا هذه الطرق بقوافلهم الا اذا أمنوا القبائل التى يمرون بها سواء بحلف أو اتاوة ، أو خفارة قوية ، كما ورد فى أخبار النعمان بن المنذر فى لطائمه التى كان يتاجر بها فى الأسواق ، حيث قال ذات مرة — وعنده البراض (بن قيس الكنانى) وعروة بن عتبة الرحال — من يجيز لى لطيمتى هذه حتى يقدمها عكاظ ؟ فقال البراض أنا أجيرها على كنانة ٠ قال النعمان : ما أريد الا رجلا يجيرها على الحيين من قيس وكنانة ، فقال عروةالرحال أنا المجيزها على أهل الشيح والقيصوم من نجد وتهامة ٠٠ وفيهــا قصة فتــك البراض وعروة الرحال فى هذه الرحلة (٤) ٠ ومن ذلك قصة لطيمة باذام عامل كسرى على اليمن والتى كان خفيرها هوذة بن على ، فأغار بنو تميم على اللطيمة وقتلوا خفراءها وأساور كانوا معها وأسرت بنو سعد هوذة بن على ٠٠ (٥) وفى أخبار السليك بن السلكة « أنه كان يعطى عبد الملك بن مويلك الخثعمى اتاوة من غنائمه على أن يجيزه فيتجاوز بلاد خثعم الى من وراءهم من أهل اليمن » (٦) ٠

---

(١) أنظر المصدر السابق ص ١٢٧ نقلا عن اليعقوبى وابن حبيب وياقوت ومصادر أخرى ٠
(٢) معجم ما استعجم جـ ٢ ص ٤٩٠ ٠
(٣) أنظر مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٧٦ ٠
(٤) أنظر المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٧ وفيه القصة كاملة ٠
(٥) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ ٣ ص ١٠٥٩ مادة (حلو) وفيه القصة كاملة ٠
(٦) مهذب الخضرى لأغانى الاصبهانى جـ ٢/١٦٧ ٠

ولم يكن يسلم من هذا الخوف الذى يؤرق التجار والمنتقلين بأموالهم الا قريش كما يقول الزمخشرى « وكانت لقريش رحلتان : يرحلون فى الشتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتيهم آمنين لانهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم (١) .

وننتهى من هـذا الحديث الى أن الفقر وان كان من الاسـباب البارزة فى الصعلكة الا انه لذاته لم يكن السبب الوحيد ولا الأهم ، وانما الأهم هو احتكاكه بالغنى ، غنى أصـحاب الابل فى البادية أو « أرباب المخائض » كمـا يسميهم الصعاليك فى شعرهم ، وغنى أصـحاب التجارة فى المدن والبلاد ، وهـذان المجالان ، مجال المخائض ، ومجال التجارة أهم مجالات الصعاليك ، كمـا كان الصعاليك أهم خطر يهدد هذين المجالين ، ولذلك نرى يزيد بن الصقيل العقيـلى أحد الصعاليك يمن على أصحاب المخائض بعد توبته ، ويبشرهم بالأمن والاطمئنان بعد هذه التوبة فيقول :

ألا قل لأرباب المخائض اهملـوا فقـد تاب ممـا تعلمون يزيد (٢)

والاحيمر السعدى — أحد الصعاليك — يجعل من سيفه سلطانا قاهرا قادرا على أموال التجار فيقول :

تعيرنى الاعـدام والبدو معـرض وسيفى بأموال التجـار زعيم (٣)

ثم تاب الاحيمر أيضا فراح يتحدث عن حزن ومرارة لا يستطيع أن يخفيها كلما مرت قوافل التجار أو عبرت زوامل المتاع ، وكلما عاوده الحنين الى الصعلكة ولكنه مع ذلك ينصح زملاءه السـابقين فى الصعلكة أن يتناسوا خيرات العراق واليمن التى يجوز بها التجار عليهم ، ويتوبوا مثلما تاب فيقول :

اشـكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مـروا من الحـزن
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بز العراق وينسو طرفة اليمن (٤)

---

(١) تفسير الكشاف (سورة قريش) جـ ٤ ص ٦٣٩ .
(٢) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٦١ .
(٣) الأمالى للقالى جـ ١ ص ٤٨ والاعدام الفقر .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٩ والزاملة الناقة عليها حملها والبز الثياب .

٤ ـ طبيعة الارض والحيـــاة :

أ ـ الأرض :

نتيجة لما هو معروف من أن أرض الجزيرة العربية يغلب عليها الطابع الجبلى الصحراوى ، نجد أن هذه الطبيعة تخلق حصونا طبيعية لأبنائها ، تحميهم حينما يلتمسون الحماية ، وتخفيهم حينما يطلبون الخفية ، وأرض هذه طبيعتها من شأنها أن تغرس فى أبنائها طبائع خاصة يتوارثونها وتؤكدها لهم وســائل حياتهم ، وابن خلدون يقول عن هذه الطبيعة التى أوحتها البادية الى أبنائها وعن حمايتها لهذه الطبيعة يقول عن العرب بالبادية « وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركـــوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر (١) » وابن خلدون من أول المنادين بأن الانسان فى خلقه وسلوكه ولغته ولونه ونفسيته ابن بيئته ، وأن البيئة بكل ما تحويه من أرض ومناخ وخصب وراء كل اختلاف وتغاير بين البشر (٢) ٠

والبيئة العربية فى الجزيرة كل ما فيها قاس عنيف ، ففقرها وجد بها قاس عنيف (٣) ومناخها فى كلتا حالتيه كذلك ، برد شديد ، وحر أشد منه ، كمـــا يصف خالد بن صـــفوان لهشام بن عبد الملك بردبيشة السماوة فيقول «حتى اذا كنا ببيشة السماوة بعث الله علينا ريحا حرجفا (باردة) انجحرت لهـــا الطير فى أوكارها والسباع فى أسرابها ، فلم أهتد لعلم (جبل) لا مع ، ولا لنجم طالع » (٤) ٠

ويصف الشنفرى ليلة أشتد فيها البرد ، حتى أن صاحب القوس ليضطر الى تحطيم قوسه ـ التى تقوم عليها حياته ـ ليستدفىء بها وبأدواتها فيقول ٠

وليلة نحس يصطلى القوس ربهـــا   واقطعه اللائى بهـــا يتنبـــل (٥)

ويصف الشنفرى أيضا يوما من أيام الحر الشديد الذى ملأ الجو لوابا يشبه الخيوط حتى ان الافاعى التى درجت وعاشت فى الصحراء لم تحتمل وطأة هذا الحر فيقول :

ويـــوم من الشـــعرى يذوب لوابه   أفاعيه فى رمضـــائه تتململ (٦)

---

(١) المقدمة ص ١٤١ فصل (العرب لا يتغلبون الا على البسائط) ٠
(٢) أنظر المقدمة من ص ٧٨ الى ٨٧ المقدمات الثالثة والرابعة والخامسة ٠
(٣) أنظر المصدر السابق ص ٨٣ ٠
(٤) معجم ما استعجم للبكرى ج ١ ص ٢٩٣ ٠
(٥) الأمالى للقالى ج ٣ ص ٢٠٥ ونحس : برد شديد ويصطلى يستدفىء وربها صاحبها ٠
(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٦ ٠ الشعرى الحر الشديد ٠ الرمضاء الرمال الحامية من الحرارة ٠

كل شيء في هذه الصحراء اذن قاس عنيف ، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة أشداء .

وقد كانت بهذه الطبيعة ، وبما تيسره من الاختفاء في مجاهلها وجبالها ومتاهاتها ، من العوامل البارزة في نشأة الصعلكة وحياتها .

ولذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبة من الخصب ، الا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة الصعبة المنال، فنجدهم يألفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم ارتيادها ، وحين ننظر الى شعرهم نجده حافلا بذكر هذه الأماكن الوحشية المبعدة في الوحشة والامتناع ، فتأبط شرا يتحدث عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم أنه لا يخلو من السعالى والغول وهو رحا بطان (١) ، ولكن تأبط يألف هذا المكان ولا يخاف غيلانه وسعاليه ، بل يتحدث عن قتله احداها فيقول .

ألا من مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت يوم رحى بطان
بأني قد لقيت الغول تهوى ... بقفر كالصحيفة صحصحان

وليس هناك ما يوجب اعتقادنا بانه حادث خرافة ، فليس من مانع أن يكون قتل فعلا نوعا من الحيوانات الوحشية التي تقرب في صفتها من الاوصاف الأسطورية أو الخرافية للغول ، وهناك حقا بعض هذه الأنواع كبعض فصائل القرود ، ويتحدث تأبط شرا أيضا عن بعض الجبال التي يألفها كجبل اسمه مروان فيقول :

ولا بالشليل رب مروان قاعدا ... باحسن عيش والنفاثي نوفل (٢)

والشنفرى يتحدث عن الأماكن الكثيرة التي يرتادها ويتنقل بينها ، ويصفها بانها جميعا أماكن نائية متغورة « هنالك يلقى المتغورا » ومنها عصوصر ، الجبل المداني لبني سلامان الذين كان يعيش فيهم فيقول :

امشي باطراف الحماط وتارة ... تنفض رجلي أسبطا فعصوصرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل ... هنالك يلقى القاصي المتغورا (٣)

ويتحدث عن ابعاده في الغزو حتى يبلغ أماكن موغلة في البعد ، وجميعها جبال موحشة فيقول :

غزوت من الوادي الذي بين مشعل ... وبين الحشا هيهات ابعدت غزوتي(٤)

---

(١) انظر معجم مااستعجم جـ١ ص٢٥٧ وفيه القصة وكذلك انظر القاموس المحيط مادة (غال)
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٢١٧ .
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٤٦ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢٩ وفيه عن الحشا : هو جبل شامخ مرتفع .

ومن الجبال الاخرى جمدان ، وكان يرتاده مالك بن الريب وعنه يقول :

سرت في دجى ليل فاصبح دونهـــا مشارف جمدان الشريف فغرب (١)

ومنها الفرط وكان يرتاده عمرو بن براقة ويذكره بقوله :

اذا الليـــل أدجى واكفهر ظلامـــه وصاح من الأفراط بوم جواثـم (٢)
ومال باصـــحاب الكرى غالبـــاته فانى على أمر الغواية حـــازم (٣)

ومنها ثبير وكان يرتاده أبو خراش الهذلي ، ويقول عن قلته التي تسمى غينا :

لقـــد علمت هـــذيل أن جـــاري لـدى أطـــراف غينـــا من ثبير (٤)

ومن الجبال أيضا تعشار ، وكان يرتاده عبدة بن الطبيب وعنه يقـــول :

صـــاحبت قيسا صحبة فومقتـــه بتعشار لم أســـمع له بعد قاليا (٥)

وأما المفاوز وأماكن القفر والوحشة التي اختص الصعاليك بألفتها والتردد عليها فكثيرة ، ومنها كراء وتيمن اللذان يذكرهما عروة بن الورد قائلا :

تحـل بواد من كـــراء مضـــلة تحاول سلمى أن أهـــاب وأحصرا
وكيف يرجيها وقد حيـــل دونهـــا وقد جاورت حيا بتيمن منكرا (٦)

ومنها حلية ، التي يتحدث عنها الهذلي فيقول :

كأنما ابطنت أحشـــاؤها قصـــبا من بطن حلية لا رطبا ولا نقدا (٧)

والاحيمر السعدى يحدثنا عن فترة من حيـــاته في هـــذه الاماكن المقفرة الموحشة فيقول « كنت ممن خلعني قومي وأطل السلطان دمي وهربت وترددت في البوادي حتى ظننت أني قد جزت نخل ونار ، وكنت أرى النوى في رجيع

---

(١) معجم ما اســـتعجم للبكرى ج ٢ ص ٣٦٣ وعن جمدان يقول : هو جبل بالحجاز بين قديد وعسفان .

(٢) المصدر الســـابق ج ٢ ص ٣٩٣ وعن الفرط يقول : هـــو الجبل الصـــغير وجمعه افراط .

(٣) الأمالى للقالى ج ٢ ص ١١٩ وفي مهذب الخضرى لأغانى الأصبهانى ج ١ ص ٩٢ وهو تكملة لمعنى البيت الأول وكلاهما من قصيدة .

(٤) معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٠١٢ . ويقول عن غينا : هى قلة ثبير وهى التى فى أعلاه .

(٥) المصدر السابق ج١ ص ٣١٦ (حرف القاء والعين) وفيه عن تعشار على خلاف : هو جبل فى بنى ضبة .

(٦) المصدر السابق ج٤ ص ١١٢١ وفيه عن كراء : من أرض بيشة كثيرة الأسد وعن تيمن : أرض قبل جراش وكراء فى شق اليمن .

(٧) المصدر السابق ج٢ ص ٤٦٣ وفيه عن حلية : أجمة باليمن معروفة وهى مأسدة .

الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لانها لم تر أحدا قبلى ···· (١) » وسواء صحت هذه التفاصيل أم لم تصح فان الرواية على أى حال تدل على أنه الف أماكن لم يألفها غيره · والذى يعنينا من حديث هذه الاماكن أنها كانت بمثابة حصون للصعاليك حين يلم بهم خطر أو يتعقبهم طالب أو مطارد ، وما كان أكثر مطالبيهم ومطارديهم ، لكثرة ما كانوا يجنون ويعتدون . بل كانت أحيانا مستراحا لهم حتى حينما يشعرون بالضيق بالناس والنفور منهم ، وما كان أكثر ما يضيق الناس بهم ويضيقون بالناس ، لما بين حياتهم وحياة الناس من اختلاف وتصارع · ولذلك نجد هذا المعنى شائعا فى شعر الصعاليك معبرا عن روح النفور من المجتمع ، والاستعداد ، بل الشوق للهجرة الى القفار والاماكن الموحشة بالذات ، كما يقول الشنفرى فى اللامية :

اقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل

ثم بين هؤلاء القوم الذين يهفو اليهم ويتمنى الرحيل نحوهم ، فاذا هم صنوف من الوحوش فيقول :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخذل (٢)

ومالك بن الريب يعبر عن هذه المعانى فيقول :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أو طنت كبلادى (٣)

فحتى ناقته ألفت الفلاة وريحها فهى صادية اليها ، وقوله « كل بلاد أوطنت كبلادى » يدل على روح التنقل وحب الهجرة ، بل يوحى معناه فى جملته بأنه لا يربط نفسه بمكان معين ، ولا يرى له وطنا يشده اليه ، ويقيده بالاقامة وانما كل الأرض وطنه ، مادامت تحقق له ما يريده ، وتنحى عنه مالا يريد وهذا المعنى شائع فى شعر الصعاليك ، ولذلك كان شعرهم أقل حنينا الى الأماكن ، أو تعلقا بمكان معين ، وهذه الروح كانت من عوامل صعلكتهم وأسبابها ، كما كانت من لوازم الصعلكة أيضا ، لأن المشدود الى مكان معين لا يصلح أن يكون صعلوكا ·

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢١ هـ) والصحيح نخل وبار كما فى الشعر والشعراء وغيره ·

(٢) الأمالى للقالى ج ٣ ص ٢٠٥ ·

(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٢ ·

(ب) طبيعة الحياة :

سيطرت على المجتمع العربى حينذاك ظروف كثيرة كان من شأنها ان تساعد على نشأة الصعلكة وعلى استمرارها ، ويمكن أن نجمل أهم هـــذه الظروف فيما يلى :

١ ــ طبيعة البيئة ــ كما قال ابن خلدون آنفا (١) من شـأنها أن تخلق القسوة والعنف ، ونعنى بطبيعة البيئة ناحيتها الطبيعية ــ بطبيعة أرضـــها ومناخها ــ والاجتماعية بوضـــع الصـــلات الاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات والقبائل والأفراد ٠

وقد تمثل هذا العنف الذى اقتضته طبيعة البيئة فى أكثر من ناحية ، أهمها الصراع الدائم المستميت بين القبائل ، والغزو والاغارة ، وكلاهما كان ينبع فى ظاهره من أسباب ملموسة ، ولكنه كان فى حقيقة أمره يمثل تشبث كل جماعة بالحياة ، وحرصها على اثبات الكيان ٠

فأما الصراع فتمثله أيام العرب المشهورة كيوم ذى قار ويوم الفجار ، وقد حولت هذه الأيام حياة العرب الى رحى من الحروب لا تكف عن الدوران ، لا يتوقف سيل طحناها من الآدميين ، حتى أن بعضهـــا كون سلسلة من الأيام المتلاحقـة التى ظلت عشرات السنين ، حتى أصبحت تهـدد طرفيهـا بالفنـــاء كحـرب البســوس (٢) وداحس والغبراء (٣) وقد تتبع العلماء هذه الأيام احصـــاء وتاريخا ، ولكن الذى يهمنا من هـــذه الأيام الآن انها طغت حتى شملت كل الجزيرة واستوعبت كل الأجيال التى بلغنا تاريخها من الجاهلية ، وان الاشتراك فيها كان ضريبة عينية على كل فرد من أفراد القبيلة طالما يستطيع حمل السلام بل كان الأطفال يشتركون فيها من باب تدريبهم على القتال وفنونه ، والاستعانة بكل قوة فى القبيلة ، كما يروى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان ينبل عـلى أعمامه فى حرب الفجار وهو صبى صغير ٠ وأما الغزو والاغارة فكانت وجها آخر للصراع بين الجماعات والقبائل ، هذا الصراع الذى كانت أهدافه غـــير المباشرة من التشبث بالحياة واثبات الكيان أهم وأعمق من أسبابه المباشرة ، سواء كانت هذه الأسباب انتقاما وقصاصا ، أم كانت طمعا ورغبة ، أم كانت ارهابا وتهديدا ، فنجد أخبارهم حافلة بالغارات التى تبدأ غالبا بالطمع فى المال

---

(١) المقدمة ص ١٤١ ٠

(٢) أنظر خزانة الأدب للبغدادى جـ٢ ص ٢٢ ــ ٢٩ وما كان بين بكر وتغلب من أيام مثل شيبان والذنائب وواردات وهباءة وعنيزة ٠٠ الخ وظلت هذه الحروب بينهم أربعين سنة أنظر مجمع الأمثال جـ١ ص ٣٧٤ ــ ٣٧٧ ٠

(٣) أنظر خزانة البغدادى جـ١ ص ٨٩ و جـ٢ ص ٢٦١ من أيـام أخرى وكذلك الأمالى جـ٣ ص ٥٣ عن بعض أيامهم ٠

ثم تأخذ طابع الدور والتسلسل كما يقول المناطقة ، تغير جماعه على أخرى رغبة فى مالها ، فتضطر الجماعة الأخرى للانتقام بغارة ترد بها عـلى الجماعة المعتديه ، وتعود هذه الى غارة انتقامية وهكذا (١) ، وهذا الوضع نجـده شائعا عاما بين سائر القبائل ، حتى ان أسلوب الغارات من حيث هو لم يكن وقفا على طائفة معينة بل كانت تزاوله كل طبقات المجتمع (٢) وفى مقدمتهم زعماء القبائل وسادتها ، بل تحول أسلوب الغارات عندهم الى نوع من قطع الطريق كما رأينا فى أخبار القوافل واللطائم وحتى هذا النوع الذى يبدو لنا انحرافا فى السلوك الاجتماعى ، لم يكن فى نظرهم كذلك ، بل كان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، ولذلك نجد أخبار قطع الطريق تتردد كثيرا فى تراجم سـادة القبائل ورؤسائها ، على انهم كانوا يقطعون الطريق ، لا على القوافل واللطائم فحسب ، وانما على الأفراد أيضا ، ومن هؤلاء دريد بن الصمة سيد بنى جشم الذى ورد فى أخباره انه بينما كان خارجا فى فوارس من بنى جشم اذ رأى رجلا معه ظعينة — امرأة فى هودج — فأمر فرسانه أن يسلبوا الرجل ظعينته ، فى قصة طويلة (٣) ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى حوادث قطعه للطريق (٤) ومنهم عامر بن الطفيل الذى بلغ من سيادته فى بنى عامر انهم حين مات نصبوا حول قبره نصبا ميلا فى ميل ، وجعلوها حمى لا تنتشر فيـه راعية ، ولا يسلكه راكب ولا راجل ، بل ان بعضهم استضيق هذا الميل قائلا : ضيقتم على أبى على ، ومع ذلك كان عامر بن الطفيل يوصف بأنه من شياطين العرب (٥) وقطاع طرقها ، ومنهم الحارث بن بدر أحد سادة بنى تميم المشهورين الذى جعلوا قطعه للطريق ثم توبته من أسباب نزول حكم قطاع الطرق فى قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسـادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم · الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » (٦) ومنهم النابغة الذبيانى الشاعر المشهور ، الذى ورد انه كان يغزو للسلب والغنيمة مع رفيقه زبان بن منظور أو زياد بن سيار (٧)

---

(١) أنظر على سبيل المثال معجم ما استعجم للبكرى جـ١ ص ١٩٦ وجـ٢ ص ٥٣٠ عن هذيل وقبائل أخرى وخزانة البغدادى جـ١ ص ٨٩ عن عبس وقبائل أخرى ·

(٢) أنظر تفسير الكشاف للزمخشرى آية ٣٣ المائدة عن قطع قوم هلال بن عويمر الطريق وخزانة البغدادى جـ٢ ص ٢٦٨ عن قصص أخرى ·

(٣) أنظر الأمالى للقالى جـ٢ ص ٢٧١ ·

(٤) أنظر خزانة البغدادى جـ٢ ص ٢٦٧ ونهاية الارب للنويرى ٢/١٩١ — ١٩٦ ·

(٥) أنظر خزانة البغدادى جـ٢ ص٢٦٤ وأنظر شرح الفضليات عن ابن الانبارى ص ٣٦٠ وعن سيادته مجمع الأمثال جـ٢ ص ٨٦ ·

(٦) أنظر تفسير الكشاف للزمخشرى فى الآيتين ٣٣ ، ٣٤ سورة المائدة ·

(٧) أنظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٦١ ·

فلم يكن السطو والغزو وقطع الطريق اذن شذوذا أو انحرافا فى عرف المجتمع الجاهلى وانما كان ميدانا مرموقا ، يتنافسون فيه ، ولكنه لم يكن يبرز فيه الا ذوو القوة والبأس الشديد وكان هدا البأس هو كل ما يحتاجه شخص أو جماعة ليفتحوا لأنفسهم هذا الميدان على مصراعيه ثم لا يلقون من المجتمع بعد ذلك الا كل تهيب واكبار ٠

والصعاليك كانوا يملكون هذه القوة وهذا البأس ما فى ذلك شك ، كما يبدو ذلك واضحا فى أخبارهم وأشعارهم ، بل كان معظمهم يملك قوة كادوا ينفردون بها عن المجتمع ، هى سرعة العدو الذى يصفونه بأنه يسبق الخيل كما فى أخبار كثير منهم مثل الشنفرى والسليك وأبى خراش وتأبط شرا وابن براقة (١) هذه القوة كانت تمثل حصنا دائما متنقلا مع كل منهم ، يتيح لهم حرية الحركة والتنقل ، ويتيح لهم الأمن من المخاطر ، وفى الوقت نفسه لا يلقى سلوكهم انكارا من المجتمع من حيث أنه سلوك شائع حتى بين السادة الزعماء ٠

على أن هذه الحروب والغارات ، وما تبعها من فتك وجنايات ، قد غيرت مجرى حياة كثير من أفراد القبائل ، فبعضهم كثرت جناياته وثقلت آثارها على قومه حتى اضطروا الى خلعه فلم يجد أمامه الا طريق التصعلك (٢) ، وبعضهم اكتشف فى نفسه صفات معينة من الجرأة أو سرعة العدو أو حسن التسلل فشجعه ذلك على الاتجاه للصعلكة ، كهذيل التى اشتهرت بكثرة غاراتها (٣) وكثرة هجماتها حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل (٤) وقد كانت هذه القوة والسرعة فى العدو لذاتها من العوامل الهامة فى الصعلكة كما كانت من أهم أسلحة الصعاليك ٠

٢ ـ كانت فى البيئة التى يعيش فيها الصعاليك عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع الى الصعلكة وتيسر السبيل أمام اللاجئين اليها ، ومن هذه العوامل الفراغ الكبير الذى يتخلل حياة الأفراد فى بيئة لا عمل فيها الا الرعى للذين يملكون ما يرعونه أو يجدون من يرعيهم ، وكثير من الأفراد لا يجدون هذا ولا ذاك فماذا يفعلون ليجدوا ما يقتاتون به ؟ وماذا يفعلون ليشغلوا فراغهم الدائم ويملأوا به حياتهم الفارغة ؟ وماذا يفعلون ليثبتوا لأنفسهم وللناس مجرد وجودهم فى الحياة ؟ لاشىء الا الصعلكة ، فان فيها متسعا للجميع ، وجوابا لكل ما سبق من سؤال ٠ والصعاليك أنفسهم يتحدثون عن هذا المعنى كثيرا ، حامدين

---

(١) أنظر شرح المفضليات عن ابن الانبارى ص ٢٧ و ١٠٨ ومعجم البكرى جـ٤ ص ٣٥١ والأغانى فى تراجم هؤلاء وغيرهم من العدائين من الصعاليك ٠

(٢) أنظر على سبيل المثال العقد الفريد جـ٣ ص ٢٩٠ ٠

(٣) أنظر معجم ما استعجم للبكرى على سبيل المثال جـ١ ص ١٩٦ وجـ٢ ص ٥٣٠ ٠

(٤) معجم البكرى جـ٤ ص ٣٥١ ٠

خروجهم من هذا الفراغ ، لائمين فى شدة على من ارتضى لنفسه أن يكون فارغ الحياة نؤوما ، مضيعا بين الناس ، كما يقول تأبط شرا :

فلا تصلى بصعلوك نـــؤوم اذا أمسى يعد من العيـــــــال (١)

وكما يقول عروة بن الورد :

لحا الله صـعلوكا اذا جن ليـله مصافى المشاش آلفا كل مجزر

ويسخر عروة سخرية مرة من فراغ هذا الفارغ فيقول :

ينام عشـــاء ثم يصبح ناعســـا يحث الحصا عن جنبـــه المتعفـــر
يعـين نســـــاء الحى ما اســـتعنه ويمسى طليحا كالبعير المحسر (٢)

ويقول الأحيمر السعدى أيضا مستخفا بنؤوم الضحى كناية عن الفراغ :

وقالت ارى ربع القـــوام وشـــاقها طويل القنـــاة بالضـــحاء نؤوم
فإن آك قصدا فى الرجـــال فاننى اذا حل أمـــــر ساحتى لجسيم (٣)

ومن هذه الظروف والعوامل التى كانت بارزة فى البيئة ، والتى كانت من شانها أن تدفع الى الصعلكة وتحميها سهولة الهجرة ، وتيسر الاختفاء ، وكلاهما من الأمور الهامة بل اللازمة لحياة الصعاليك · فالصعاليك خفيفو الحركة لا يقيد حركتهم شىء ، ولا يثقلهم متاع · ليس لهم مما يشد الناس الى الأرض شىء فليست لهم حرفة ثابتة ، من زراعة أو صناعة ، وليس لهم مما يملكه الناس من عقار أو شىء ثابت ، فالصعلوك « جل ماله حسام » (٤) كما يقول عمرو بن براقة ، وهذا مما يجعل ارتباطهم بالأماكن ضعيفا ، وبحكم مسلكهم واتجاههـــم العدائى يزداد ارتباطهم بالأماكن ضعفا ، فكل الأمكنة مادامت تحقق لهم مآربهم سواء ، كما يقول مالك بن الريب « كل بلاد أوطنت كبلادى » (٥) ·

والواقع ان طابع الهجرة والتنقل صفة عامة فى بوادى العرب لضعف ارتباط مصالحهم بالأرض نفسها ، ولذلك نجد الفرق واضحا بينهم وبين أصحاب الأرض المنزرعة ·

ولكن الصورة بالنسبة للصعاليك أوضح ، فلئن كانت الهجرة فى حياة مجتمعهم ظاهرة أو أحداثا متكررة ، فانها بالنسبة اليهم قوام حياتهم وصفتهم

---

(١) الكامل للمبرد جـ١ ص ٣١٠ ·
(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام جـ١ ص ١٥٩ ومصافى من المصافاة والمشاش العظم اللين والمجزر مكان الذبح اى كل همه جمع العظام من المجازر ليأكلها والطليح المحسر الكل المتعب ·
(٣) الأمالى للقالى جـ١ ص ٤٨ وربع القوام وقصدا كلاهما معناه متوسط الطول ·
(٤) الأمالى جـ٢ ص ١١٨ ·
(٥) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٣٠١ ·

الدائمه وقد تبعد بهم الهجرة أو تدنو ، ولكنها تنقل دائم على أي حال ، والشنفرى يصور في بيتين اثنين تنقله بين خمسة أماكن فيها الجبال والقفار والمتاهات فيقول :

امشي باطراف الحماط وتارة تنفض رجلي أسبطا فعصوصرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقى القاصي المتغورا (١)

على أننا نجد ألفاظه تنبىء عن عمق احساسه بالتنقل ، فهو لم يقل انني أرتاد هذه الأماكن لأستقر فيها ، وانما قال أنه كأنه يمر بها مرورا ، ولذلك اختار هذا التعبير البليغ وهو « تنفض رجلي » ٠

وهدفهم من هذا التنقل بطبيعة الحال هو ما تقتضيه حياتهم في الصعلكة من حاجتهم الى الأماكن التى يزاولون فيها صعلكتهم ، والتى يحتمون فيها من نتائج هذه الصعلكة ، وذلك ان مجالات الصعلكة بما فيها من لصوصية وسطو وسلب ليس لمزاولتها مكان معين ، بل غالبا ما يكون نشاط الصعلوك بعيدا عن متاع أهله وقومه ، فيركز نشاطه على القبائل الأخرى وخاصة الذين بين قومه وبينهم عداوات حتى يجد من قومه عونا اذا دعت الحاجة ، والمسافات بين القبائل بعيدة مترامية ، مما يضطر الصعلوك الى اجتياز أماكن كثيرة قبل أن يصل الى أدنى مكان يحقق له غرضه من غارته ، على انهم كانوا كثيرا ما يبعدون في غزواتهم ، حتى ان بعض صعاليك السراة ويثرب واليمامة كان يبعد في غارته حتى يبلغ اليمن ، كما كان بعض اليمنيين يعكسون الأمر ، كما ورد كثيرا في أخبارهم المتناثرة مما لا نرى حاجة الى الافاضة فيه الآن (٢) ٠

ولكن الذى يعنينا من هذا الحديث ان ظروف الصعاليك الشخصية والاجتماعية كانت تيسر لهم التنقل الى أوسع مداه ، وان طبيعة الارض بجبالها وقفارها كانت تتيح لهم الحصانة والحماية الى أوسع مدى أيضا ، ومن أمثلة ذلك اخبار الاحيمر السعدى وان ذلك كله كان من العوامل البارزة في الصعلكة ٠

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى جـ ٣ ص ١٩٤٦ والحماط وأسبط وعصوصر وذات الرس وبطن منجل كلها أماكن ٠

(٢) وانظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٧٥ ـ ٨٦ وكما في أخبار السليك أنه كان يغير على اليمن مع أنه من بنى تميم باليمامة ومنازلهم باليمامة وما حولها قرب شمال الجزيرة ٠ انظر ترجمة السليك وأخباره بمهذب الأغانى (بالفهرس)

٥ ـ عوامل أخرى :

وهناك من عوامل الصعلكة عوامل أخرى غير ما سبق ، وان كنا لا نسلكها فى العوامل العامة لكونها يغلب عليها الطابع الفردى ، الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل تأثيرها مهما قل فى ظاهرة الصعلكة ٠

ويمكن ان نلخص أهم هذه العوامل فيما يأتى :

(أ) عوامل فردية :

وأعنى بها العوامل التى من شأنها أن تتعلق بالفرد وحده ، وتنصب عليه آثارها دون أن يشاركه المجتمع أو الجماعة فيها ، وهى ظروف كثيرة منها ظرف الاغربة والأغربة عند العرب تعبير يقصدون به نوعا من أبنائهم ، وهو النـوع الذى يولد أسود ، لأن أمه من الاماء السود ، وفى وصفهم بالأغربة ما يشير الى لونهم لأنه تشبيه بلون الغراب ، وهؤلاء الأغربة كانوا يشقون أيما شـقاء لا بلونهم الأسـود ـ وان كان اللون من مفاخر العرب ـ ولكن بنسبهم غير الخالص حيث ان أمهاتهم غير حرائر ، والعرب فى الجاهلية لم يكـونوا ـ فى أغلب الأحيان ـ يعترفون بأبنائهم من الاماء اعتزازا بخلوص أنسـابهم وتنقيتها من أى دم غير عربى ، وخاصة اذا كان هذا المولود أسود ، فانه يجمع فى نظرهم بين خستين لا يرتضون نسبتهما اليهـم ، هما عدم خلوص النسب والسواد فيبقى هذا الوليد ومن يخرج من نسله عبيدا كسائر العبيد ، مع علم أبيه بل والقبيلة كلها أحيانا بأنه ابنه ، كما حدث لعنترة بن شداد الذى قضى شطرا كبيرا من عمره عبدا ، لا يملك الا أن يرعى مع زملائه العبيد ، ولم يكن اعتراف شداد بعنترة ابنا له خروجا على هذه العادة ، وانما كان اضطرارا أملاه ظرف كان يهدد كيان القبيلة وحياتها (١) ٠

فكان هؤلاء الأغربة ينشأون فى ظروف قاسية على نفوسهم أشد القسوة متناقضة فى نفوسهم أشد التناقض ، كانوا يخرجون الى الحياة فيجدون أنفسهم عبيدا يلقون كل ما يلقى العبيد من ضياع ومذلة وهوان ، ومع ذلك فهم موقنون فيما بينهم وبين أنفسهم كل اليقين بأنهم مظلومون عن عمد واصرار ، فهم فى حقيقة أمرهم أحرار لا عبيد ومن حقهم أن يكونوا من طبقة السادة ، لا من طبقة الأرقاء ، وكان أشد ما يؤلمهم بطبيعة الحال أن يجدوا هؤلاء الذين يرونهم ـ فى الواقع ـ اخوة لهم متسلطين عليهم ، مستعبدين اياهم ٠

---

(١) أنظر القصة فى خزانة البغدادى جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨٩ ٠

فأما العاجزون منهم وذوو الهمم الضعيفة فكانوا يبتلعون أحزانهم ، ثم يظلون يجترونها حتى يدركهم الموت أو يدركوه ، وأما الذين يجدون فى نفوسهم قدرة على كسر هذا القيد ، ومهربا من هذا السجن الاجتماعى ، فانهم كانوا لا يترددون ٠

وأقرب طريق – وان لم يكن أيسره – لديهم ، لكسر هذا القيد هو القوة فى أى صورة من صورها ، فان اعترفت القبيلة بهذه القوة ورغبت فى الاستفادة منها – كما فعل قوم عنترة بن شداد – أصبح هذا الغراب فردا من القبيلة والا فأوسع مجال أمامه هو مجال الصعلكة الفسيح ، كما فعل السليك بن السلكة (١) ، على اننا نلاحظ انه ليس من اللازم أن تكون الأم أمة كام خفاف ابن ندبة (٢) الحرة والأخبار تحدثنا عن أن أغربة العرب فى الجاهلية ثلاثة عنترة ابن شداد وخفاف بن ندبة ، والسليك بن السلكة (٣) ، الا أن خفافا لم يكن يشارك صاحبيه هذه الأزمة فقد كانت أمه حرة وليست أمه ٠

ومهما يكن من شيء فاننا نعتقد ان الأغربة فى الجاهلية كانوا أكثر من ذلك بكثير وانهم انما تحدثوا عن هؤلاء باعتبار انهم من الأشخاص البارزين الذين عنى العرب جميعا بأخبارهم ، وأعجبوا بما أوتوا من بسالة وقوة وشدة بأس ٠

والذى نريد أن نصل اليه من ذلك هو أن هذا الوضع – وضع الأغربة – الاجتماعى ، من شأنه – وان كان من الحالات الفردية – أن يكون من عوامل الصعلكة وأسبابها ، كما كان السليك بن السلكة الذى يقول عن احساسه بهذا المعنى « انى لو كنت ضعيفا لكنت عبدا ولو كنت امرأة لكنت أمة ، اللهم أعوذ بك من الخيبة ، اما الهيبة فلا أهاب أحدا (٤) ، وقد كان يمكن أن نتحدث هنا عن وضع الخلعاء ، ولكن الخلع – كما قلنا – نتيجة للجنايات والصعلكة ، وليس سببا لها ، ونحن نتحدث عن أسباب الصعلكة ٠

ومن هذه العوامل الفردية حالات الأسر ، ومما سبق علمنا ان الغارات كانت أمرا شائعا متداولا فى أنحاء الجزيرة كلها ، وان القبائل وعلى رأسها سادتها وزعماؤها كانت تزاول هذه الغارات ، أحيانا للانتقام ، وأحيانا للسلب بادىء ذى بدء ، وحتى فى حال الانتقام لم يكن القتل وحده هدفا لها ، وانما كان السلب والأسر من أهم أهدافها ، لأنه مغنم مادى ، سواء كان سلبا أو أسرا

---

(١) أنظر ترجمته فى شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٣٧٨ وفيه أن أمه السلكة وهى سوداء وأنه أحد العدائين الذين لا تلحقهم الخيل وترجمة أخرى وقصة طويلة وأنظر مهذب الخضرى لأغانى الأصفهانى جـ٢/١٦٧ وبها ما سبق وترجمة طويلة ٠

(٢) أنظر شرح الاصمعيات عن ابن الانبارى ص٨ وفيه أن أمه ندبة وكانت سوداء وهى بنت شيطان بن فتان من بنى الحارث بن كعب ٠

(٣) فى القاموس المحيط مادة (غرب) أضاف اليهم رابعا هو أبو عمير بن الحباب ٠

(٤) مجمع الأمثال جـ٢ ص ٩ ٠

فان الأسير كان يفدى نفسه أو يفديه قومه بالمال وأهم ما كانوا يحرصون على أسره النساء فى غاراتهم ، والظعائن (١) فى قطعهم للطريق ، كما سبق فى قصة دريد بن الصمة وظعينة ربيعة بن مكدم (٢) ، وفى أخبار السليك انه خرج فى تيم الرباب يتتبع الأريا فـويغير على الاحياء والأموال حتى مر بأرض بين ديار بنى عقيل وسعد بن تميم فلقى رجلا من خثعم ·· ومعه امرأة ، فأخذه هو والمرأة ، ثم أطلقه وبقيت المرأة (٣) · ومثل هذا كثير فى أشعارهم ·

وفى الحرص على أسر النساء ـ بالاضافة الى معنى الاهانة للأعـــداء والمنافسين ـ معنى مادى ، فان قومها سيكونون أحرص على فدائها غـيرة على الحرمات ، فان لم يفدوها تصبح هى ومن تلده عبيدا لآسرها ، وهـــذا كسب بالنسبة اليهم كبير ·

والذى يعنينا من هذا هم الأسرى ، فانه وان كان كثير منهم كان يفدى نفسه أو يفديه قومه ، الا أن بعضهم كان يظل عبدا ، اما لجهل قومه بمكانه أو بآسريه كما حدث فى قصة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الذى وهبته اياه خديجة زوجه ، وكان زيد قد سبى وهو صغير من قومه بنى كلب ، ثم اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ثم قدم حجاج من كلب الى مكة فعرفهم وعرفوه ، فأخبروا أباه حارثة وعمه كعبا ، فقدما مكة وعرضا على محمد فداءه ، فقال ان اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا ، فاختار زيد محمدا ورفض الذهاب مع أبيه ، فقام محمد الى الحجر فأعلن أن زيدا منذ اليوم ابنى يرثنى وأرثه وهى مرتبة فوق مجرد الحرية ، فطابت نفس أبيه وانصرف راضـــيا (٤) ، وأما لرفض الآسرين الفداء ، وذلك غالبا ما يكون فى حالات أسر النساء حرصا على امساكهن ، وفى حالات استحكام العداء بين الآسرين والمأسور منهم اهانة وتشفيا ، واما لعجز الأسير عن الفداء ·

وهنا نجد هذا الأسير يمر بالحالة النفسية التى يمر بها الأغربة ، يشعر فى قرارة نفسه بأنه عربى حر ، وانه كان ينبغى أن ينال من الحقوق ما يناله السادة ، بل أن يكون سيدا منهم ، ولكنه يجد الواقع عكس ما تحدثه به نفسه كما حدث للشنفرى الذى أسره بنو شبابة بن فهم من قومه وهم بنو الأواس ابن الحجر ، فمكث فترة فى بنى شبابة حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من بنى شبانة ففدوه بالشنفرى ، وهكذا انتقل الشنفرى الى بنى سلامان وعاش فيهم عيش العبيد يرعى ابلهم ، وقد شغله العمل والرعى وعدم الاحتكاك الكثير

---

(١) فى القاموس مادة (ظعن) الظعينة : المرأةمادامت فى هودج (وهذا يكون اثناء السفر)
(٢)الأمالى للقالى جـ٢ ص ٢٧١ ·
(٣) انظر القصة فى شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٣٧٨ ·
(٤) أنظر خزانة البغدادى جـ ٢ ص ١١٠ ·

بالناس عن الاحساس المثير بوضعه الاجتماعى ، ولكنه حينما بدأ يحتك هاجت فى نفسه كل الأحاسيس بالأوضاع التى فرضها عليه هــذا الظلم الاجتماعى فثار ثورته العارمة ، وصب هذه الثورة على بنى سلامان فى نقمة عجيبة ، بدأت باندفاعه الى الصعلكة ، وانتهت بقتله من بنى سلامان تسعة وتسعين رجــلا فيما تتواتر به الروايات . وكان بدء ثورته حينما صفعته ابنــة الرجل الذى يعيش فى كنفه ، احتقارا له ، ونفورا من ندائه اياها بقوله « يا اخيه مترفعـة عن أن يكون أخاها ، أو اهانة له على التفكير فى الزواج منها ــ على اختـــلاف الروايات ، وأغلب الظن ان وراء هذه القصـــة المبتورة قصة حب خالج قلب الشنفرى وأضاءه بآمال مشرقة براقة أسكرته حينا من الدهر ، فتناسى نفسه وتناسى الوضع الاجتماعى فى غيبوبة هذا الحب العميق ، ولم توقظه من هــذه الغيبوبة الا لطمة قعسوس ابنة الرجل الذى يعيش فى كنفه ــ فاذا هو يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حازم أمره كأشد ما يكون الحزم ، واذا هو منطلق الى الصعلكة بأقصى ما يملك من ارادة ــ وما كان أقوى ارادته ــ وبأسرع ما يملك من عدو ــ وما كان أسرع عدوه (١) ــ ليصبح من أبرز أعلام الصعاليك ، وأشعر شعرائهم (٢) .

فقد كانت الظروف الشخصية التى احاطت بالشنفرى من أسره وشعوره بالهوان بين أناس لا تربطه بهم رابطة ، ولا يرى لهم عليه حقا بل ولا يراهم خيرا منه شخصا أو نسبا ، كل ذلك كان سببا قويا وأصيلا فى اتجاه الشنفرى الى الصعلكة ، ومن يدرى لو كانت قد تهيأت له ظروف أخرى مستقيمة وادعة كيف كان يكون ؟ أغلب الظن انه كان يصبح سيدا مرموقا وزعيما قائدا لا فى الأزد وحدها ، فان عقليته الفذة التى تبين من خلال شعره ، وارادته الفذة أيضا كما تحدثنا عنها أخباره ليسا من طراز عادى فى الناس ، وانما من طراز تبخل الحياة بمثله أن يكون كثير التكرار ، والتبريزى يلخص رأى العرب فى عقليــة الشنفرى فيقول « يضرب به المثـــل فى الحــذق والدهاء (٣) » فلننظر الى ما كان يعانيه فى صعلكته وتنقله الدائم ، من صور عجيبة غاية العجب

---

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى شرح المفضليات عن ابن الانبارى ص ١٠٨ وشرح ديوان الحماسة للتبريزى جـ١ ص ١٨٧ ومهذب الخضرى لأغانى الأصبهانى جـ١ ص ٩٥ ومجمع الأمثال جـ٢ ص ٤٦ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكامان جـ ١ ص ١٠٤ ثم أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٥ ، ٣٦ وأعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى والكامل للمبرد جـ٢ ص ٧٩ والعقد الفريد جـ ١ ص ٣٠ وأخطأ صاحب القاموس المحيط فى عده من الاســلاميين الأغربة (مادة غرب) مع أنه جاهلى وله فى معجم البكرى جـ٢ ص ٤٢٩ ، جـ٣ ص ٩٤٦ وفى الحيوان للجاحظ (بالفهرس) .

(٢) أنظر الشوامخ للدكتـور محمد صبرى ص١٢٥ والحياة العربية من الشـــعر الجاهلى للدكتور الحوفى ص ٢٣٤ .

(٣) شرح الحماسة جـ١ ص ١٨٧ .

قاسية أشد القسوة ، فى احتمال الجهد والجوع والبرد والحر والمخاطر ، وقدرته الأشد عجبا على تصوير هذا كله (١) فى صور حية ناطقة ، بل انه ليخيل الى من يدرس شعره أن الصور نفسها تشارك الشنفرى فى احساسه وانفعاله . فتتلوى من الجوع حينما يتحدث عن الجوع ، وترتعش من وقع البرد حينما يتحدث عنه ، وتتأفف من وهج القيظ حينما يتحدث عن الحر ، وهكذا ، وحين ننظر الى صلابته فى قوة ارادته ، وتصميمه على انفاذ عزمه كما آلى على نفسه أن يقتل من بنى سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين ، ثم حال الموت بينه وبين اكمال المائة ، ومن طريف ما يروى ان أحد بنى سلامان مر بقبر الشنفرى فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فعقرت رجله فمات ، فكملت بهذا السلامى المائة التى كان الشنفرى يتمنى أن يبلغها من بنى سلامان وهو حى (٢) ومع ان مثل هذا الخبر يبدو غريبا غير مصدق ، الا أن علماء الروح اليوم لا يرون فى مثله غرابة ، بل ينسبون للأرواح ما هو أبعد من ذلك وأشد غرابة ، فليس بغريب فى منطقهم صدور مثل ذلك من روحه بعد موته (٣) ٠

وننتهى من هذا الحديث الى انه كانت هناك ظروف كنظرة المجتمع الى الأغربة ، وظروف الأسرى وما يلقونه فى حياتهم كانت تدفع أصحابها الى أى مسلك يحررهم من هذا الظلم الاجتماعى وكانت الصعلكة أقرب هذه السبل اليهم ، كما حدث للسليك والشنفرى ، ومما لاشك فيه ان كثيرين كانت ظروفهم مثل ظروف هذين ، وان بعضا غير قليل منهم سلك ما سلكاه ، غير انه لم يحظ بعناية التاريخ منهم الا أولئك الذين كانوا مثار اعجاب المجتمع ، والذين فرضوا أنفسهم على التاريخ بما أوتوا من مواهب ومقومات حية متحركة ، وأغلب الظن ان شخصا كعنترة بن شداد كان الحاجز بينه وبين الصعلكة اعتراف أبيه بنسبه ، فان عنترة كان يملك من القوة والاباء والنفور من الهوان ما يملكه أقوياء الصعاليك ، وقد مر عنترة قبل تحريره بالظروف النفسية التى يمر بها الأغربة والأسرى الذين تحولوا الى صعاليك ، فلو لم يعترف أبوه بنسبه ، فمن المرجح أنه لم يكن ليستسيغ الذل والهوان مع ما فى نفسه من مقومات العزة والأنفة ، ولم يكن حينئذ أمامه للهروب من وضعه الاجتماعى والخروج عليه الا الصعلكة ٠

---

(١) أنظر للمثال لامية العرب فى الأمالى جـ ٣/٢٠٥ واعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ٠

(٢) أنظر ترجمته فى المصادر السابقة ٠

(٣) أنظر العالم غير المنظور للأستاذ على عبد الجليل راضى ٠

(ب) الوراثة :

الوراثة من العوامل الانسانية الموجهة لحياة البشر جميعا ، بل هي عنصر الحياة الأول ، أعنى أنها عنصر الامتداد لحياة الكائنات الحية جميعا بما فيها النبـــات ٠

وعلماء الوراثة اليوم يسلمون بسيطرتها حتى على نزعات السلوك المختلفة كالشذوذ فى أى ناحية من نواحى النزعات السلوكية ، وكادمان الخمر ٠ وان كان كثير منهم مع تسليمه بأثر الوراثة لا يرى فيها تعارضا مع أهمية تأثير البيئة وليست التفاصيل مما يعنى موضوعنا ، وانما يعنينا هذا الحديث عن نزعات السلوك وأثر الوراثة فيه ٠

والعرب كانوا يعرفون الوراثة ويقدرون آثارها ٠ بل كانوا يعتزون بها الى حد المبالغة والافراط فى كثير من الأحيان ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من عاداتهم الاجتماعية الحيوية الى تقديرهم للوراثة ، وذلك ، كنفورهم أحيانا من التزوج بغير العربيات حفاظا على توارث الدم العربى فيما يلد لهم من أولاد ، وبالتالى ازدراءهم لمن يولدون بينهم من أمهات غير عربيات ، وقد ظلت هذه النظرة فيهم حتى بعد الاسلام ، وأخبارها أوضح وأكثر من أن تحتاج الى بيان ٠

ومن الزاوية التى تعنينا وهى زاوية السلوك ، فان العرب كانوا يدركون أثر الوراثة فيها ، ولهم أخبار وأمثال فى ذلك كثيرة مشهورة ، منها قولهم « شنشنة أعرفها من أخزم » (١) ومنها « من أشبه أباه فما ظلم » (٢) وفى الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دســاس » على أنهم بلغوا بالوراثة فى فهمهم لها حد النزعات النفسية ومن ذلك قصة المنافرة التى قامت بين سيدى عشيرتين من العرب ، حتى انتهيا الى أن قال أحدهما :

أبادلك العـــداوة ما حيينـــا

فيرد عليه الآخر بقوله :

ونحـــن اذا متنـــا نورثهـــا البنينا

ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون سلوك الصعلكة النابع من النزعة النفسية موروثا ، وحيث ان الصعلكة كما قلنا كانت ظاهرة اجتماعية غير محـــدودة

---

(١) مجمع الأمثال جـ١ ص١٣٦ وملخصه ان أبا أخزم الطائى كان له ابن يسمى أخزم ، وكان عاقا له ، ثم مات وترك بنين له ، فوثبوا يوما على جدهم يضربونه حتى أدموه ، فقال :

ان بنى ضرجونى بالدم   شنشنة أعرفها من أخزم

فذهب الشطر الأخير مثلا ، وتمثل به عمر بن الخطاب اعجابا بعبد الله بن عباس واشارة الى انه ورث سداد الرأى من أبيه ، ومن أمثلتهم فى هذا «العصا من العصية» ٠

(٢) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠ ٠

العدد بالنسبة الى مزاوليها ، فان الوراثة من شأنهـا أن تحافظ على بقائهـا ما دامت الظروف مهيأة لها ، وان تنمى عدد روادها ومزاوليهـا ، وحين نتتبـع بعض أخبار القبائل نجد ان منها ما اشتهر بصفات معينة ظل أفرادها يتوارثونها حتى أصبحت صفة لهم يعرفون بها ومن ذلك تسمية بعض بنى عامر بن صعصعة بالخلعاء لانهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة » (١) فقد اتفق هذا البطن من بنى عامر فى صفة واحدة مشتركة بينهم هى الصفة السابقة ، وسموا من أجلها باسم معين ولاشك ان للوراثة أثرا ظاهرا فى شيوع صفة معبنة بين جماعة دون مجتمعهم الذى يعيشون فيه ، وكذلك نجد بطنا من عبد القيس يسمون الرواطى كانـوا يوصفون بأنهم لصوص (٢) ويسرى هذا الوصف عليهم ٠

وحين نمضى فى تتبعنا لأخبار القبائل وأخبار الصعاليك ، نجد أن بعضها اشتهر بتخريج عدد كبير من الصعاليك ، بالاضافة الى شهرتها بكثرة غاراتها واشتراكها فى صراعات متوالية حتى أصبح طابع الغارات والسـطو والفتـك والصعلكة صفة غالبة عليها ، ومن هؤلاء بنو سعد ، من بنى تميم ومن صعاليكهم السليك بن السلكة ، وعبيد بن أيوب ، وعبدة بن الطبيب والأحيمر السعدى (٣) ومن هذه الجماعات التى كانت بهذه الصفة بنو مازن وهم أيضا بطن من بنى تميم ومن صعاليكهم سعد بن ناشب (٤) ومنهم مالك بن الريب وأبو حردبة اللذان يقول عنهما الراجز :

الله نجـاك من القصـيم
وبطن فلج وبنى تميـم
ومن غـويث فاتح العـكوم
ومن أبى حـردبة الأثيـم
ومالك وسيفه المسـموم (٥)

ومن هذه الجماعات أيضا هذيل ، وهى مشهورة بكثرة الغارات (٦) ، وكثرة الخلعاء (٧) والصعاليك ومنهم أبو خراش وصخر الغى والاعلم ، ومن

(١) القاموس المحيط مادة (خلع) ٠

(٢) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ٣ ص ١٠٨٢ ٠

(٣) تراجمهم وأخبارهم متفرقة فى مصادر كثيرة منها العقد الفريد جـ٣ ص ٢٩٠ عن الأحيمر ، عن السليك شرح التبريزى لديوان الحماسة جـ١ ص ٣٧٨ وعن عبيد بن أيوب الكامل جـ١ ص ٢٠٠ وعن عبدة بن الطبيب عن شرح ابن الانبارى للمفضليات ص ١٣٤ وغاراتهم كثيرة خلال هذه التراجم وغيرها وأنظر على سبيل المثال معجم البكرى جـ٣ ص ١٠٨٢ ٠

(٤) أنظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ١٤ ٠

(٥) أنظر معجم البكرى جـ٣ ص ١٠٢٧ وفيه أن أبا حردبة ومالك بن الريب لصان مازنيان ولمالك ترجمات فى مصادر آخرى ٠

(٦) أنظر للمثال معجم البكرى جـ١ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، جـ٢ ص ٥٣٠ ٠

(٧) أنظر مثلا لسان العرب مادة (خلع) ومهذب الأغانى جـ٢ ص ١٨٥ ٠

توارث مقومات الصعلكة فى هذيل شهرتها بكثرة العدائين الذين لا تلحقهم الخيل ، حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل (١) وسرعة العدو كانت من أهم أسلحة الصعاليك ٠

ومع ذلك فلسنا نقول ان هذه الوراثة مجردة من أثر البيئة ، فان الوراثة وخاصة اذا كانت جماعية تتحول نفسها الى بيئة ، بمعنى ان الصعلوك حين يرث نزعة الصعلكة ، ثم ينشأ فاذا هو فى بيئة تظللها هذه النزعة ، تصبح الصعلكة المنتشرة من حوله بيئة فى ذاتها نهيىء المجال لابراز عنصر الوراثة واستغلاله ، وكثيرا ما تختلط الوراثة بالبيئة ، فى مثل هذه الحال التى يوث فيها الوليد ميراثا ثم ينشأ فى بيئة يشيع فيها سلوك هذا الميراث ، وقد عبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وانما يتميز عامل الوراثة عن عامل البيئة حينما ينفرد صاحبه بصفة أو سلوك غير مألوفين فى مجتمعه ، ويمكن أن ينطبق هذا على تلك الجماعات التى تميزت بسلوكها المعين كالرواطى ومع تكرارنا لملاحظة ان أسلوب الغارات والسطو والصعلكة كان ظاهرة مألوفة فى المجتمع الجاهلى كله ، الا اننا نلاحظ ان هذه الجماعات سيطر عليها هذا الأسلوب ، حتى لصق بها كصفة غالبة على أفرادها ومتعاقبة فيهم ، بصورة تميزهم عن الجماعات الأخرى ٠

وهنا نتساءل : ما الذى جعل هذه الجماعات تتميز بهذا السلوك على هذا الوضع الشائع ، وحين نجيب عن ذلك ، ننظر فاذا جماعات أخرى تشارك هذه الجماعات فى ظروفها وموقعها من البيئة ولكنها لا تتصف بما اتصفت به الجماعات الأخرى ، ومثال ذلك هذيل ، فان شهرتها بالغارات والخلعاء والصعاليك لا تشاركها فيها قبائل أخرى تشاركها الظروف والبيئة ومن هذه القبائل هوازن وسليم وغفار (٢) ، وكلهم فى ظروف هذيل الجغرافية والاجتماعية ، وكذلك الاقتصادية ، وأهم ما فى هذا الموقع من عوامل الصعلكة ومقتضياتها من الغارات والخلع والفتك وغير ذلك وقوعه حول طريق القوافل الأساسية الموصلة بين اليمن والشام ، وحول الطرق الفرعية الموصلة بين مكة وقبائل الشمال فى اتصالهم بمواسم الحج ، ووقوع هذا الموقع أيضا قريبا من أهم أسواق العرب وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وهذه العوامل وان كانت من أهم ما أشاع الصعلكة فى هذيل الا أن نقطة التساؤل هى : ولماذا لم تكن هذه القبائل المذكورة مثل هذيل فى صفتها هذه ، مع انها تشارك هذيلا فى هذه الظروف ؟

---

(١) معجم البكرى جـ٤ ص ٣٥١ ٠

(٢) أنظر الخريطة بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ١ ص ٩ ومعجم البلدان ومعجم ما استعجم عن أماكن هذه القبائل ٠

وحينئذ لا نجد ما تستريح اليه النفس فى الاجابة سوى ادخال عامل الوراثة الذى تدل عليه شهرة هذيل بتوارث أهم أسلحة الصعاليك وهو سرعة العدو حتى أن أبا خراش الهذلى كما قلنا كان أحد عشرة اخوة كلهم لا تسبقه الخيل ٠

وكذلك الجماعات الأخرى مثل بنى مازن وبنى سعد ، وكلاهما من بنى تميم فانه وان كانت بعض القبائل قد شاركتهم شهرتهم بالصعلكة كبنى عبد القيس الذين اشتهر منهم الرواطى بأنهم لصوص (١) الا ان هناك قبائل أخـــرى تقع فى مثل موقعهم من البيئة وتشاركهم ظروف الحياة ومع ذلك لم يشع فيهـا أسلوب الصعلكة ، كبنى بكر وبنى تغلب ، وطيىء وغطفان (٢) وأهم ما تشترك فيه هذه القبائل من عوامل الصعلكة هو وقوعها حول أحد الطريقين الرئيسين للتجارة ، وهو الطريق الشرقى الذى يحاذى الخليج العربى ويصل ما بين ظفار فى جنوب اليمن الى شمال الجزيرة ، ثم العراق والشام ، وكذلك قربها من الطرق المؤدية الى الموانىء الواقعة قديما على الخليج العربى ٠ وقربها أيضا من اليمامة التى اشتهرت ببعض الخصب بالنسبة الى غيرها من الأماكن واختلاف جماعتين فى الصفات والسلوك مع تساويهما فى الموقع والظروف ، لا يبدو له من مبرر غير عامل الوراثة ، وان كانت هذه الوراثة فى أغلب أحيانها ممتزجة بظروف البيئة ودوافعها ٠

وهذا عبيد بن أيوب العنبرى يقرر ان صعلكته انما هى وراثة عن آبائه فيقـــول :

رأت خلق الأدراس أشعث شـــاحبا   عـــلى الجدب بساما كريم الشـــمائل
تعـــود من آبائـــه فتكاتهـــم   واطعامهم فى كل غبراء شـــامل (٣)

واذن فالوراثة فى صورها السابقة كانت من الأسباب التى ساهمت فى نشأة الصعلكة وفى حياتها ، سواء أكان أثر الوراثة من حيث النزعة النفســية الى العدوان وما يلابسه من نواحى الصعلكة أم من حيث الدوافع المباشرة التى كانت تشجع على الصعلكة وتدفع اليها ، كتوارث صفة العدو ونحوها من الأدوات المباشرة فى مزاولة الصعلكة والتهيؤ لها ، وهذا النوع الأخير وان كان يعتبر من قبيل الاستعداد الشخصى الا أن اقترانه بالوراثة يزيد من فاعليته ومن توجيهه فى مجال معين من السلوك ٠

---

(١) أنظر معجم ما استعجم للبكرى ١٠٨٢/٣ ٠
(٢) أنظر خريطة بلاد العرب قبل الاسلام بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ١ ص ٩
(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ ٠

(ج) الاستعداد والشذوذ :

قلنا اننا في هذا الفصل من فصول اسباب الصعلكة نحاول أن نعرض لبعض العوامل والأسباب التي وان لم تكن ذات طابع عام فاننــــا لا نستطيع تجاهلها في مقام حصر الأسباب التي من شأنها أن تكو ندافعا من الدوافـــع الى الصعلكة ٠

ونعني بالاستعداد التهيؤ الفطري في الشخص للاتجاه الى الصعلكة ، سواء أكان تهيؤا من الناحية النفسية كالميل الغريزي للعدوان ، أو امتلاك قوى نفسيه معينة تستلزمها حياة الصعلكة كالجرأة وقوة العزيمة ، وشدة التحمل أم كان تهيؤا جسميا كامتلاك صفات معينة تحتاجها حياة الصعاليك احتياجا أساسيا كخفة الحركة وسرعة العدو ، وحسن التسلل والمراوغة ونحو ذلك ٠

ونعني بالشذوذ وجود صفة أو تهيؤ فطري معين ، في فرد أو أفراد ينفردون به عن سائر أفراد مجتمعهم فيصبحون بهذا الانفراد شاذين عن الوضع العام في المجتمع ٠

وقد شاءت مشيئة الله القدير الحكيم ، أن يبدع الكون وما فيه في نظام عجيب ، ظل وسيظل فهمه فوق مستوى العقول ، فلا يتاح للعقول من نظام هذا الكون الا أهونه وأيسره ، أما أجله وأعظمه فهو في منأى عن عقول البشر مهما عظمت هذه العقول ٠

ومن نظام الله العجيب في كونه ، أن نرى النقيضين في كل شيء ، لا يوجد مطلق قط في الحياة ، وانما تقيده مجاورة نقيضه له ، الخير معه الشر ، والظلام معه النور ، والذكاء معه الغباء ، والحياة معها الموت وهكذا ٠

وفي حياة الناس الشجاعة يجاورها الجبن ، والجـــود يجاوره البخل ، والصدق يجاوره الكذب ، والكرم يجاوره اللؤم وهكذا ٠

على أن النقيضين لا يسيران في خط واحد ، وانما يتدرجان الى قمتين متناقضتين ، ينتهي كل منهما الى احداها ، فالذكاء والغباء مثلا ، نجد عامة الناس يتفاوتون فيهما ، ولكن في مجال متقارب ، بينما يشذ بعض الناس فيرتفعون الى درجات عليا من الذكاء ، يتفاوتون فيها أيضا ويتدرجون حتى يكرن بعضهم في القمة العليا ، بينما يشذ بعض آخرون فيتدرجون الى أسفل متفاوتين في الغباء ، ويظلون في التدرج ، حتى ينتهي بعضهم الى القمة السفلى وهي الجنون ٠

ومن يدري ، فلعله لو اطلع مطلع في مثل هذا المجال ، لوجد الناس يكونون ما يشبه الهرمين ، أحدهما الى أعلى ، والآخـر الى أســـفل ، وأن التدرج في كلا الهرمين متساو ، وان حجم الهرمين نفسه متساو ، وتكون النتيجة أن يكون

عدد الأذكياء فى كل درجة من درجات هرم الذكاء يقابله ويساويه عدد الأغبياء فى الدرجة نفسها من هرم الغباء .

ومن يدرى أيضا فلعل هناك أشياء كثيرة فى الحياة بنظام كهذا النظام .

ومن يدرى أيضا فلعل كل ما فى الناس من صفات الخير والشر يتدرج فى هرمين متضادين أيضا كهذا النظـام ، بحيث يتساوى عدد الخيرين ، وعـدد الشريرين فى كل درجتين متقابلتين من هذين الهرمين .

ومن المحقق ان التاريخ لم يعرف جيلا كاملا فى أمة كاملة من الناس حطم هرم الشر - ان كان حقا هرما - وخرق التوازن بين قوتى الخير والشر ، بحيث ذابت قوة الشر فى جميع صورها التى يتصف بها الناس من صفات وسلوك فلم يبق منها الا الشذوذ الفردى الذى تأبى سنة الحياة الا أن تتشبث به فى كل شيء ، من المحقق ان التـاريخ لم يعرف هذا الجيـل الكامل فى الأمة الكاملة الا جيل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهذه حقيقة لا نظن ان هناك من يمارى فيها ولو كان من أعداء الاسلام . ولعل فى هذا تفسيرا لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولقول النبى « خير القرون قرنى » .

ومهما يكن من شيء بالنسبة لموضوعنا ، فان الخير والشر كل منهما يمثل استعدادا فطريا عند بعض الناس ، واذا كان فى الناس من هم مهيئون بطبعهم للخير فان فيهم أيضا من هم مهيئون بطبعهم للشر ، بل ان من الناس من يرى ان بعض نوازع الشر كالظلم هى الأصـــل فى الانسان ، وان الامتناع عنها انما يكون لظروف تمنعه من مزاولتها ، كما يقول الشاعر العربى :

والظلم من شيم النفوس فان تجـــد ذا عفـة فلعـــلة لا يظلم

وحين نعرض هذا المعنى - على غرابته عن العرف - على التحليل لا نجد فيه بعدا كبيرا عن الحقيقة ، فان الظلم بمعنى الجور على حقوق الآخرين يمثل احدى الغرائز الفطرية فى الانسان ، وهى غريزة الأنانية ، التى يسلم علماء النفس بأنها احدى الغرائز فى الانسان وهكذا كل صفات الشر التى تتصل بالغرائز البشرية يمكن اعتبارها هى الأصل فى سلوك الفرد ، وان الظروف الخارجية هى التى تحول بينه وبين مزاولتها ، وهى ظروف كثيرة تختلف من مجتمع الى آخر ، فأحيانا تتمثل هذه الموانع فيما يسميه علماء الاجتماع « سلطة المجتمع » بمعنى شعور الفرد بأن المجتمع ينكر هذا السلوك ويسخط عليه وأحيانا تتمثل فى التشريع الذى يحرم هذا السلوك ويحدد له عقابا ، ســواء أكان التشريع دينيا أم دنيويا ، وسواء أكان العقاب أيضا بشريا أم الهيا ، وأحيانا تتمثل هذه الموانع فى سلطة العقل ، بمعنى أن يدرك الفرد قبح هذا الســلوك فيكف عنه .

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة آل عمران .

والصعلكة فى جملة مضمونها نوع من الظلم ، بمعنى الجور على حقوق الآخرين ، فى أى صورة من صور الجور ، فالاستعداد الفطرى لها فى طبيعة الافراد ليس غريبا على الغرائز البشرية ، مالم تتجمع حول هذا الاستعداد الموانع التى أشرنا اليها لتحول بين الفرد وبين ابراز هذا الاستعداد • وقد رأينا ان الموانع السابقة قد ضعفت فى المجتمع الجاهلى ، حتى أفلت منها زمام السلوك فى المجتمع كله ، لا فى مجتمع الصعاليك وحدهم ، حتى جعلوا الظلم — الذى تعتبر الصعلكة نوعا منه — شعارا لهم يعبر عنه شاعرهم بقوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

حتى أصبح كثير من أفراد المجتمع — غير الصعاليك — يزاولون كثيرا من أساليب الصعلكة كالغارات والسطو وقطع الطريق ، وفى مقدمتهم بعض سادة القبائل الذين كانوا يزاولون هذه الأساليب اما بأنفسهم ، كما مثلنا بعمرو بن معد يكرب وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة والحارث بن بدر ، وأما بمقاسمتهم الصعاليك غنائمهم التى يغنمونها ، كما كان يفعل عبد الملك بن مويلك الخزاعى (١) ، والعباس بن مرداس السلمى (٢) •

على انه مهما وجدت الموانع ، ومهما بلغت هذه الموانع من القوة ، فهناك الشذوذ الفردى الذى يعتبر أقوى من الموانع جميعا ، والذى نعتقد انه سنة الحياة التى لا تتخلف فى كل شىء ، حتى فى القواعد العلمية ، ولذلك حكم العلماء مطمئنين بأنه « لكل قاعدة شواذ » وحتى هذا المجتمع الاسلامى الذى كان خير أمة أخرجت للناس ، لم يخل من الشذوذ الفردى ، ولذلك أقيمت كل الحدود الشرعية فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أفراد مثلوا هذا الشذوذ فى سلوكهم (٣) •

وكذلك اليوم نرى الدول التى بلغت فيها موانع الانحراف درجة عالية من سيادة السلطة والقانون كما فى أوربا وأمريكا ، لم تخل ولن تخلو دولة منها قط عن الشذوذ الفردى ، بل ان بعضها تجاوز فيه الانحراف حالة الفردية الى ما يشبه الظاهرة الاجتماعية ، وفيما يتعلق بالصعلكة ، نجد صورة منها فى هذه الأمم فيما يسمونهم هناك «رجال العصابات» الذين يسلكون مسلك صعاليك العرب نفسه ، ويهدفون الى ذات الغاية التى استهدفها الصعاليك ، وهى الحصول على المال • بل اننا لو حاولنا أن ندرس موقف هذه الأمم من صعاليكها ، أعنى

---

(١) أنظر مهذب الأغانى فى أخبار السليك ٢/١٦٧ •

(٢) أنظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٢٥٠ فى حديث خفاف بن ندبة عن العباس بن مرداس •

(٣) كما أقيم حد الزنا بالرجم على المرأة الغامدية ، وحد السرقة على المرأة التى ورد فى قصتها حديث «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» وحد القذف على قاذفى المغيرة ابن شعبة ، وحد الشرب على أبى محجن الثقفى وآخرين •

ممن يسمونهم رجال العصابات لرأينا ان موقفها يتضمن الاعتراف بأن السلوك العدواني ، الذى يمكن أن يسمى بالظلم ــ باعتباره السابق ــ والذى يمثـــل سلوك الصعاليك يتضمن الاعتراف بأن هذا السلوك يمثل استعدادا فطريا غريزيا ، وذلك بتركيزها فى وسائل الاعلام والترفيه على تجسيم ســـلوك السعاليك ــ العصابات ــ وابراز أحداثه وأهدافه ، والتفنن فى تصـــويرها ونشرها ، ومعنى هذا ، ان ذلك من حاجات المجتمع النفسية ، لأن وسائل الأعلام والترفيه انما تستهدف ارضاء الإستعداد والحاجات النفسية والعقلية لدى الأفـــراد ٠

وليس من شأن موضوعنا أن يفيض فى مثل هذا الحديث ، ولكن الذى يعنينا هو أن الاتجاه الى الصعلكة فى جذوره النفسية العميقة يمثل استعدادا فطريا يتعلق ببعض غرائز الأنانية والذاتية ، وان هذا الاستعداد ان لم تكبح جماحه موانع خارجية يبرز ممثلا فى سلوك يعبر عن هذا الاستعداد ، وانه حتى مع وجود الموانع وقوتها فان الشذوذ الفردى حتم فى كل حال ٠ ونصل من هذا الى أن الاستعداد الفطرى سواء تمثل فى اتجاه شائع أو فى شذوذ فردى يعتبر من الدوافع الى الصعلكة ، واننا لا نستطيع اغفال الحديث عنه فى مقام حصر أسباب الصعلكة والدوافع اليها ٠

وفى ختام الحديث عن أسباب الصعلكة ونشأتها ، نقول ان ما سقناه من أسباب ودوافع وان كان لا يمثل الاستقصاء الكامل للأسباب ، الا انه يمثل فيما نعتقد الأسباب المباشرة والقريبة من المباشرة ، وانه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كالشعور بالقرابة بين العرب ، فان شعور القبائل العربية بأنها جميعا تنتمى الى أصل واحد ، هذا الشعور يغرس فى نفوسهم معنى التكافؤ ويجعلهم لا يتقبلون البغى أو الظلم من أحد ممن تجمعهم به هذه القرابة ، ويرون من حقهم أن يكونوا أكفاء له ، ويجعل وقع البغى والظلم فى هذه الحالة ثقيلا على النفوس مثيرا لها أكثر من اثارة ظلم الأجنبى وبغيه ، وشاعرهم يعبر عن هذا المعنى بقوله :

فظلم ذوى القربى اشـــد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند(١)

وقد يكون هذا المعنى من الأسباب التى زادت نيران الحروب والصراع بينهم اشتعالا ، وهذه الحروب تخلف فيما تخلف ظروفا تهيىء المجـــال للصعلكة ، وأشخاصا ألفوا حياة الغارات والسطو يستطيعون أن يستغلوا هذا الألف فى مجال كالصعلكة ، نقول انه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كهذا السبب الا انها أسباب تعتبر بعيدة ، ويبدو الارتباط بينها وبين الصعلكة واهيا ،

(١) من شعر طرفة بن العبد ٠

مما يجعل فى تتبعها شيئا من الشطط والغلو ، والحديث الشريف يشير الى معنى الاستعداد الفطرى ، أو اليه والى الوراثة معا فى قوله « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام » (١) .

الصعلكة فى الجاهلية

١ ـ الصعلكة والمجتمع :

رأينا فى حديث كتب اللغة وفى أحاديث الروايات انهم لم يضعوا للصعلكة صفة محددة ، ولا نوعا معينا من السلوك ، فأحيانا يصفونهم بالذئاب لأن سلوكهم يشبه أسلوب الذئاب (٢) وأحيانا يصفونهم بأنهم لصوص (٣) . وأحيانا يصفون الصعلوك بأنه المتجرد للغارات (٤) ، وبأنهم ذوو الأسلاب أى الذين يغنمون من غاراتهم اسلابا (٥) ، وأحيانا يصفون بعضهم بأنهم فتاك (٦) أو بأنهم خلعاء من الذين خلعهم ذووهم لكثرة جناياتهم (٧) ، وبأوصاف أخرى فى هذا المحيط(٨)ونخرج من هذا كله بأن الصعلكة ليس لها فىعرفهمصفة أو سلوك محدد ، وان هذه الصفات التى ساقوها متفرقة فى جملتها تكون مفهوم الصعلكة ، وصفات الصعاليك ، واننا يمكن أن نجمل ذلك فى أن الصعلكة هى « احتراف السلوك العدوانى بقصد المغنم » سواء كانت فى صورة لصوصية أو قطع طريق أو سطو أو غارات أو اغتيال .

وعلى ضوء ما سقنا من أسباب الصعلكة ونشأتها فى الجاهلية ، ومن علاقتها بالمجتمع ، نرى ان الصعلكة كانت جزءا من ظاهرة عامة حينذاك ، من حيث ان معظم أساليب الصعلكة كان يزاولها كثيرون غيرهم كالفتك وقطع الطريق ، بل بعضها كان مظهرا شائعا تقوم عليه حياة القبائل كالغارات ، والفارق بين

(١) انظر صحيح البخارى .
(٢) أنظر لسان العرب مادة (ذأب) والصحاح مادة صعلك .
(٣) المصدر السابق مادة (ذأب) .
(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ .
(٥) أنظر حديث خفاف بن ندبة عن عباس بن مرداس شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٢٥٠ .
(٦) أنظر مثلا مهذب الأغانى عن فضالة بن شريك ٢/٢١٠ وعن قيس بن منقذ ٩٩/١ .
(٧) أنظر مثلا العقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ عن الاحيمر السعدى ومهذب الأغانى ج٢ ص ١٨٥ عن صخر الغى .
(٨) مثل شيطان وخارب . أنظر مهذب الأغانى .

الصعاليك وغيرهم في هذا ، انهم كانوا يتخذون من هذه الحياة ما يشبه الحرفة في التفرغ لها والمداومه عليها والانقطاع لها ، وان غيرهم كان يتخذ منها ما يشبه الهواية التي تزاول في ظروف نفسية واجتماعية معينة . غير ان شيوع أساليب الصعلكة في المجتمع ، لم يجعـل الصعلكة من حيث هي شـذوذا ينكره المجتمع بل كانت تمثل غاية ما يتنافس فيه الأفراد وهو القوة ، بل يرى بعض الباحثين انها كانت مفخرة (١) .

ومما لاشـك فيه ان الصعلكة لم تكن تلقى في الجاهلية انكارا ، وان الصعاليك لم يكونوا موضع النفور أو الازدراء أو البغض ، فلم تحدثنا أخبارهم فيما نعلم قط عن انكار أو ما يشبه الانكار لهم أو لصعلكتهم ، مع أنه كانت لهم مجامع عامة للشورى ، كدار الندوة في مكة ، وكالمجامع المشهورة في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، وكانوا يتباحثون في هذه المجامع في أمورهم العامة ويعالجون مشاكلهم المشتركة ، ويعلنون قراراتهم وما يستحدثونه من عرف أو اتفاق أو حكم ، ومع ذلك فلم يثر موضوع الصعلكة ولم يناقش فيها ، ولم يرو الرواة ان قبيلة من القبائل حالت بين أبنائها وبين سلوك الصعلكة ، وأما موضوع الخلع الذى كانوا يخلعون به أحدهم ، فلم يكن لسلوك الصعلكة من حيث هو وانما تفاديا للمغارم التى يجرها ، ولذلك أجمعت كل الروايات على ان سبب الخلع هو كثرة الجنايات من حيث مطالبة أهل الخليع بها ، أعنى من حيث كونهم مطلوبين للاعداء بها ، فكان خلعهم للشخص تفاديا للمغارم ، وليس انكارا للسلوك من حيث هو .

بل على العكس كانوا ينظرون الى الصعلكة على انها مظهر من مظاهر القوة والمنعة ، وان أفرادها كسب كبير لقبائلهم ، وسلاح قوى يذود عنهم قوى كثيرة مماثلة ، ويحصنهم من عداوات كثيرة متربصة ، ويحتاجون اليه حين تدعـو الحاجة ، ففى أخبار هذيل ان أبا جندب الهذلى حينما أراد أن يثأر لأخيه الأسود من بنى لحيان جمع الخلعاء والفتاك ليغير بهم على بنى لحيـان (٢) فى أخبـار امرىء القيس انه حينما أراد أن يثأر لأبيه جمع جموعا من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكهم (٣) بل كانوا يصرحون بالفخر بهؤلاء الصعاليـك، فمن الأخبار ان عمر بن الخطاب سأل الحطيئة الشاعر العبسى : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال كنا ألف حازم ، قال وكيف ؟ قال « كان فينا قيس بن زهير حازما لا نعصيه ، وكنا نقدم أقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد » (٤) وعروة هذا من أعلام الصعاليك .

---

(١) أنظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى ص ٢٣١ .
(٢) أنظر معجم البكرى جـ ٢ ص ٥٣٠ .
(٣) أنظر الشعراء الصعاليك ص ٢٣ نقلا عن الخزانة للبغدادى .
(٤) التنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ١١٣ ومهذب الأغانى جـ ٢/٢٣ .

والواقع ان الصعاليك أثاروا فى المجتمع الجاهلى موجة عاتية من الرعب والفزع ، كما تحدثنا بذلك أخبارهم وأحاديث المجتمع عنهم ، فارهبوا أصحاب الابل على مراعيهم وحظائرهم ، وارهبوا التجار فى طرقهم ومسالكهم ، وأرهبوا المارة فى سبلهم ومعابرهم (١) ،ولكن ذلك لم يكن ليحظ من قدرهم فى المجتمع الجاهلى بالذات ، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والاعجاب والاكبار ، وأصبحوا أمنية القبائل ، تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الاقوياء العتاة ، الذين ترتعد منهم فرائص البادية ، ويرن صدى ذكرهم وأحاديثهم فى طول الجزيرة وعرضها ٠ وحتى حكماء العرب ، كانوا يرون مجد القبيلة وقوتها وحمايتها غايه تبورها كل الوسائل ومن حكمهم المشـــهورة فى ذلك قولهم « ما خلا قوم من السفهاء ألا ذلوا » فما دام الأمر يتعلق بمجد القبيلة فهم يتمنون حتى السفهاء ، فضلا عن الصعاليك الذين لم يكونوا سفهاء ، وانما كان الكثير منهم من الشخصيات اللامعة التى أوتيت من المواهب العقلية والبدنية حظا مرموقا ، وأوتيت أيضا من بريق اسمها ودويه فى الآذان حظا أكبر واعظم وهذا السليك بن السلكة يجعله عمرو بن معد يكرب فارس اليمن أحد أربعة لا يخشى غيرهم فى الجزيرة كلها فيقول عمرو : ما أبالى أى ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقنى دونهـا عبداها أو حراها وعنى بالعبدين عنترة العبسى والسليك بن السلكة ، وبالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث اليربوعى(٢) وقد عبر المجتمع عن اكباره للصعاليك فى المراثى التى رثى بها كثير منهم (٣) وكانت مواهب الصعاليك من أشد ما تحتاج اليه البيئة حينذاك ، ومن أهم ما يحرص أبناء البيئة على التنافس فيه ٠

ومن ذلك القوة والشراسة وصعوبة المراس التى يدرك سعد بن ناشب أثرها فى نظرة المجتمع الى صاحبها فيقول :

وفى اللين ضعف والشراسة هيبـــة   ومن لا يهب يحمل على مركب وعر (٤)

وكون الصعاليك يمثلون غاية القوة الفردية فى المجتمع الذين يعيشون فيه أمر واقع كما سيأتى خلال الحديث عن شعرهم ، وكانت هذه القوة من مقومات مركزهم فى المجتمع ٠

ومن ذلك ميزة كادوا ينفردون بها عن مجتمعهم وهى ميزة العدو الخارق

---

(١) من الأدلة على ذلك نزول حكم خاص بقطاع الطرق فى القرآن الكريم وهو فى الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة فى قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)

(٢) خزانة البغدادى جـ٢ ص ٢٦٣ ٠

(٣) أنظر للتمثيل مهذب الأغانى جـ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، جـ١ ص ٢٢٤ وحماسة أبى تمام جـ١ ص ٣٧٨ ٠

(٤) أمالى القالى جـ٢ ص ١٧١ ٠

للعادة ، وهو ما يصورونه بأنه لا تسبقه أو لا تلحقه الخيل ، وقد اشتهر كثير من الصعاليك بهذه الميزة ، منهم الشنفرى والسليك وتأبط شرا وابن براقة وأكثر ما كانت سرعة العدو شهرة في هذيل الذين كان أبو خراش فيهم أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل كما قلنا ، وأبو خراش هذا هو الذى رأى الوليد بن المغيرة ذات مرة يريد أن يرسل فرسين له في سباق فقال له : ما تجعل لى ان سبقتهما عدوا ؟ قال ان سبقتهما فهما لك ، وسابق أبو خراش الفرسين فسبقهما وأخذهما (١) وكان هذا العمل من جانب الوليد بن المغيرة تعبيرا ومثالا لاعجاب المجتمع بهذه الميزة واكباره لها ٠ والأخبار عن مطاردات الخيل لكثير من العدائين كالسليك وتأبط شرا والشنفرى وابن براقة وانتصارهم فيها تثير العجب والاعجاب معا ، حتى ضرب ببعضهم المثل فى العدو (٢) ومن المواهب التى أعلت من شأن الصعاليك فى المجتمع الجاهلى الشعر ، والشعر من أهم أسلحة العرب فى السلم وفى الحرب على السواء ، ولذلك كان أبرز مفخرة لهم ، وحتى انه كان من عاداتهم المشهورة ان القبيلة التى يظهر فيها شاعر تفد القبائل الأخرى لتهنئتها بهذا السلاح الذى وهبت اياه ، وحتى ان النبى صلوات الله وسلامه عليه لاحساسه بخطورة هذا السلاح فى هذا المجتمع ، ضاق فى أول الأمر بأن المسلمين لا يملكون من هذا السلاح ما يكفى للذود عنهم، حتى هيأ الله لهم حسان بن ثابت فطابت به نفس النبى وكان يدعو الله له أن يؤيده بروح القدس ، وقد حدث ذات مرة أن بلغ النبى أن أبا سفيان يهجوه ، فقال : اللهم انه هجانى ، وانى لا أقول الشعر ، فاهجه عنى ، فقام عبد الله بن رواحة يعرض على النبى أن يهجو أبا سفيان ، فقال له النبى : لست له ، ثم قام حسان ابن ثابت ، فقال له النبى : أنت له ، وهجا حسان أبا سفيان (٣) ٠

وصعاليك الجاهلية كان فيهم الشعراء الذين يفرض شعرهم نفسه على المجتمع بل وعلى التاريخ والذين يعدون فى الصفوة المجيدة والممتازة فى شعراء المجتمع الجاهلى ، كالشنفرى وابن الورد وتأبط شرا والهذليين وهذا الشعر كان ولاشك من مدعمات اكبار المجتمع لهم ، بل نستطيع أن نقول ان مركزهم الشعرى كان من أهم ما أضفى على الصعلكة نفسها ثوب الجلال والتقدير فى المجتمع الجاهلى ، كما يقول الحطيئة لعمر بن الخطاب ، كنا نأتم بشعر عروة بل ان الشعر من أبرز العوامل التى حفظت لهم كثيرا من تقدير المجتمع لهم بعد الاسلام ، كما رأينا من اقرار عمر بن الخطاب للحطيئة فى كلامه عن شعر عروة بن الورد ، وكقول معاوية بن أبى سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد

(١) خزانة البغدادى جـ١ ص ٢٩٩ ٠
(٢) أنظر مجمع الأمثال جـ٢ ص ٤٧ ، ٣٢٣ ٠
(٣) العقد الفريد جـ٣ ص ١٠٨ ٠

لأحببت أن أتزوج اليهم (١) وقول عبد الملك بن مروان : ما يسرني أن أحـــدا من العرب لم يلدني ولدني الا عروة بن الورد لقوله :

واني امرؤ عـــــافى انائي شركة ... وانت امرؤ عافى اناءك واحـــد
اتهـزا منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهـــد
افرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بـــــارد (٢)

وانه وإن كان من نواحى اعجاب هؤلاء الخلفاء بعروة الناحيـــة الخلقية الاشتراكية التى عرف بها الا اننا لا نغفل أثر الشعر فى هذه التزكية ، وكونه كان الأداة التى حملت أخلاقه الى الناس ، وعلماء النقد العربى لا يتجاهلون قدرهم الشعرى ، كما ذهب أبو عبيدة مثلا فى وضع شعر عروة فى الطبقة الثالثة (٣) بالنسبة لسائر شعراء العرب ، وكما عد صاحب الأغانى السليك « من شعر شعراء العرب » (٤) على أنه ينبغى أن نلاحظ فى مقـام حديثنا عن صعلكة الجاهلية ، ان ما وصل الينا من صعاليكها وأخبارهم دون ما كان يتوقـع بكثير ، ففى مجتمع كالجاهلية يبلغ فيه شيوع الصعلكة وخطرها حدا يجعل التشريع الاسلامى يفرض لها عقوبات صارمة تتمثل فى حد قطع الطريق الذى ورد فى قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوامن الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم · الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » (٥) وفى حد السرقة الذى ورد فى قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم · فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » (٦) ومن المنطقى فى أى قانون أو تشريع أن تكون العقوبةتخفيفا وتشديدا على قدر الجريمة ، ومن الواضح فى هذين الحدين الاتجاه الى أقصى الشدة فى العقاب ، وهذا يعنى خطورة الجريمتين المشرع لهمـــا ، ويتضمن انتشارهما بصورة تهدد أمن المجتمع كله واستقراره ، ويؤيد هذا ان النبى صلى الله عليه وسلم فى بدء دعوته ، حرص على أن يجعل من أهم ما يغرى به الناس ليقبلوا على الاسلام هو تبشيرهم بأن الاسلام سيحقق لهم الأمن فى طرقهم ومسالكهم حيث يقول : والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه » ، وأخطر من كانوا يهددون

(١) انظر مهذب الأغانى عن عروة بن الورد ٢٣/٢ ·
(٢) المصدر السابق عن عروة جـ٢/٢٣ ·
(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٣٤ ·
(٤) مهذب الأغانى عن السليك ١٦٧/٢ ·
(٥) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المائدة ·
(٦) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المائدة ·

هذه الطرق هم الصعاليك ، وهم أيضا أخطر من تنطبق عليهم أحكام الحدين السابقين فى القرآن الكريم .

ومع ذلك فلم يبلغنا من هؤلاء الصعاليك الا العدد المعدود ، ومن الواضح فى تعليل ذلك ان التاريخ العربى قبل الاسلام لأسباب كثيرة أشرنا الى بعضها فيما سبق لم يصلنا منه الا ما يتعلق بالأمجاد القبلية لحرص أبنائها على تناقلها وبالطرائف لميل الناس بطبعهم اليها ، وبالشعر لتمجيد العرب اياه وخاصة جيده ، ولذلك نلاحظ ان كل ما ورد الينا من أخبار الصعاليك فى الجاهلية يمكن رده الى هذه الأسباب ، أما الأخبار التى لا تحمل طابعا من هذه الطوابع فلم يصل الينا منها شىء ذو غناء .

وفى ختام هذا الحديث عن موقف المجتمع من الصعاليك نحب أن نشير الى أن ماورد مما يوحى بمهانة أو تحقير لبعضهم كان لا يمثل رأى المجتمع ، كما ورد فى أخبار قيس بن الحدادية (بن منقذ) انه قال لجماعة طلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا لهم : ان قومى لن يفدونني ولو طلبتم بى عنزا جرباء ماأعطيتموها(١) فانما قال ذلك لأن قومه كانوا قد خلعوه ، فهو يعبر عن حقيقة صلته بقومه لا عن قيمته ، ولا عن تقويم قومه اياه ، كذلك قصة المفاداة بالشنفرى انما كانت ابان أسره قبل أن يصبح صعلوكا (٢) .

٢ ــ أساليب الصعلكة :

واذن ــ كما قلنا آنفا ــ فلم يكن للصعلكة أسلوب واحد معين ، وان كان يجمعه جميعا انه سوك عدوانى يستهدف الغنيمة ، ولذلك تعددت وسائل مزاولتها واختلفت باختلاف استعداد الصعلوك وامكانياته الذاتية ، فان كل صعلوك انما يزاول ما يناسب امكانيات القوة والاستعداد فيه ، واختلفت أيضا باختلاف الظروف التى تتيح للصعلوك مزاولة صعلكته ، وعلى ضوء ما آمنا به نستطيع أن نتصور أن أهم مجالات الصعلكة ، الطرق التجارية سواء أكانت أساسية أم فرعية وخاصة فى مواسم عبور القوافل ، ومواسم الأسواق والمراعى وخاصة مراعى الابل ، والحظائر الخاصة بها ، ثم ما يعرض من ظروف طارئة غير منتظمة .

ولسنا نريد من هذا الحديث استقصاء حوادث الصعلكة فى الجاهلية وانما نريد أن نعرض لنماذج تمثل أنواع الصعلكة من لصوصية أو سطو وغارة أو قطع طريق .

---

(١) مهذب الأغانى ١/٩٩ ــ ١٠٥ .

(٢) شرح حماسة أبى تمام عن التبريزى جـ١ ص ١٨٧ .

فمن ذلك ما ورد فى أخبار لسليك ، انه خرج ذات ليلة يريد الغـــــزو ومعه رجلان كمال يقول صاحب الأغانى أو جماعةكما يقول مجمع الأمثـــال وكانت ليلة ذات مطر وبرد ، فعرض له بيت منفرد من البيوت ، فواعد أصحابه أن ينتظروه فى مكان قريب معين ، ليستطلع لهم ، ثم تسلل الى مؤخرة البيت وكان البيت ليزيد بن رويم الشيبانى وكان شيخا ، واذا الشيخ وامرأته بفناء البيت ، وظل السليك فى مؤخرته منتظرا يفحص البيت بعينه الحاذقة ، فاذا ابن الشيخ يأتى بالابل من مراتعها ، فيقول له أبوه غاضبا منكرا عودته : هلا انتظرت بها وعشيتها ساعة من الليل ؟ قال ابنه : انها أبت العشاء ، قال الشيخ : العاشية تهيج الآبية ، فذهبت فى مثالهم ، ثم قام الشيخ مغضبا فنفض ثوبه فى وجوه الابل لترجع ، وعاد بها الى مراتعها ، ثم جلس الشيخ قريبا من ابله وقد غطى وجهه من البرد ، واذا السليك الذى كان متتبعا حركاته يسله من ثوبه ويعلوه بالسيف فيطير رأسه ، ثم يطرد الابل حتى يأتى بها أصحابه ويقول بعد ذلك واصفا الابل وتمكنه منها :

وعاشـية رج بطـان ذعرتهـا بســوط قتيل وسطها يتسيف

وواصفا قتله الشيخ ومنظر طرائق الدم عليه كأنه لون نسيج مخطط :

كأن عليه لون برد محبر اذا ما أتاه صارخ متلهف

وواصفا لهفة أصحابه فى انتظاره ، وظنهم الظنون بابطائه :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفـــوا

ومتحدثا عما يلاقيه فى مثل عمله هذا من مخاطر ، وعن السبب الذى يضطره الى هذه المخاطر .

وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة وكدت لأســـباب المنية أعرف
وحتى رايت الجـــوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشانى ظلال فاسدف (١)

وفى أخبار السليك أيضا انه خرج فى رفقة حتى أتوا جوف مراد باليمن فاذا ابل كثيرة بالوادى فقال لصاحبيه : انتظرا قريبا حتى آتى الرعاء ، فأعلم لكما علم الحى ، أقريب هم أم بعيد فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا بعيدا قلت لكما قولا ألحن به لكما فأغيرا ، فانطلق حتى أتى الرعاء ، فلم يزل يستدرجهم فى الحديث حتى علم ان الحى بعيد لا يلحقوه ان طلبوه فقال للرعاء : ألا أغنيكم ؟ قالوا بلى . فتغنى بأعلى صوته :

---

(١) أنظر مجمع الأمثال جـ٢ ص ٩ ومهذب الأغانى جـ١٦٧/٢ مع اختلاف بينهما فى ألفاظ الشعر .

يا صاحبي الا لاحي بالـــــوادي الا عبيـــد وآم بين اذواد
أتنتظران قليلا ريث غفلتهم أم تغدوان فان الريح للغــادي (١)

فلما سمع صاحباه ذلك أتياه فأخذوا الابل وذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريخ الحي حتى كانوا قد مضوا بالابل (٢) .

ومن أساليب السليك في الصعلكة انه كان أثناء رحلاته وغاراته يجمع من يعترضه من الصــعاليك فيضمهم اليه حتى يكون منهم عصــاباته (٣) وان كانت عصاباته في أغلب الأحيان كما يبدو من أخباره لا تتجاوز نفرا قليلا .

على ان السليك لم تقتصر صعلكته على الابل ، بل تعدتها الى خطف الناس وأسرهم بغية الحصول على الفداء ، ففي أخباره انه أثناء خروجه للغارات ذات مرة لقي رجلا من خثعم ومعه امرأة فأخذهما ، ثم فاوض الخثعمي على الفـداء (٤) .

وأما تأبط شرا فكان يؤثر أن يغزو وحده على رجليه (٥) لثقته في سرعة عدوه ، حيث كان أحد ثلاثة هم أعدى العدائين في العرب (٦) هو والشنفرى وعمرو بن براقة وكلهم من الصعاليك وفي أخباره قصته مع زوج أمه ـ أبي كبير الهذلي ـ الذي أراد أن يستدرجه ليقتله بتواطؤ مع أمه ، حينما أحس أبو كبير غيرة تأبط على أمه ، قال أبو كبير لتأبط شرا « هل لك في أن تغزو ؟ قال : ذلك من أمري ، فخرجا ليلا حتى اذا أدركهما مســـاء اليوم الثــاني أبصرا نارا . يعرف أبو كبير انها نار أعداء لتــأبط شرا ، فوجهه اليها فرأى عليها رجلين من ألص العرب فوثبا اليه يريدان قتله ، فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر عطف عليه فقتله ، ورجع الى الآخر فرماه أيضا فقتله ، ثم جاء الى نارهما فأخذ الخبز وجاء الى أبي كبير ، فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه فلما رجعا قال أبو كبير : ان أم هذا الغلام لا أقربها أبدا » (٧) وأما عروة بن الورد فكانت عصابته كثيرة العدد ، لأنه كان بمثـابة مدرسة يتخرج فيها الصعاليك ، واشتهر بأنه كان مأوى خيرا لهم ، ولذلك لقب بعروة الصعاليك . وصاحب الأغاني يبسط صورة من ذلك فيقول « وكان عروة اذا أصابت الناس ســنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه

---

(١) أم في البيت الأول جمع أمة واذواد جماعات الابل الذكور والريح القوة والنصر .
(٢) مجمع الأمثال جـ٢ ص ١١ .
(٣) أنظر المصدر السابق جـ٢ ص ١١ .
(٤) أنظر شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جـ١ ص ٣٧٨ .
(٥) أنظر خزانة البغدادي جـ١ ص ٩٥ ، ٩٦ ترجمته وسبب تسميته تأبط شرا والخلاف في ذلك .
(٦) أنظر شرح المفضليات عن ابن الانباري ص ٢٧ .
(٧) أنظر شرح الحماسة عن التبريزي جـ١ ص ١٩ .

هؤلاء من دون عشيرته ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ومن قوى منهم اما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب اليه قوته خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان أهله وقد استغنى » (١) وهذه الشهرة عنه من شأنها أن تجذب اليه الراغبين في التصعلك والذين يأنسون في أنفسهم استعدادا له ، وكان هذا الخير الذى يفيضه عليهم مصدره بطبيعة الحال الصعلكة ، لأن عروة لم يكن غنيا ، بل لم يكن له مال ، وكان أكثر المتحدثين عن الفقر والحاجة (٢) ، وهذه النفقات الكثيرة التى كان يحتاج اليها لاعالة هذا العدد الكبير كانت تقتضى منه بطبيعة الحال أيضا كثرة الغارات ، وكثرة المشتركين فيها ليحصلوا على أكبر مغنم مستطاع ، ومن غزواته هذه الغزوة التى تعتبر مثلا من أمثلة اشتراكية الصعاليك ، حينما غنم من غزوته تلك مائة من الابل وامرأة وقسم الابل بين أصحابه بالسواء وكان نصيبه كواحد منهم ، غير انه أخذ المرأة ، فأبى صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل فى مقابل المرأة (٣) .

وكان من أصحاب هذه الغارات التى تستهدف القبائل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية والذى يقول عنه صاحب الأغانى انه « أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب ، وممن كان يعدو على رجليه عدوا يسبق الخيل » (٤) ومن هؤلاء المغيرين على القبائل عمرو بن براقة ، ومن أخباره قصة غزوته لحريم الهمدانى التى استاق فيها كل شىء لحريم والتى يخاطب همدان بعدها قائلا :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم ... فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم) (٥)

ومنهم عمرو بن العجلان المعروف بذى الكلب والذى يقول عنه صاحب الأغانى « كان يغزو بنى فهم غزوا متصلا » (٦) ، والتى تصف أخته ريطة سبيه للعذارى فتقول :

والمخرج العاتق العذراء مذعنة ... فى السبى ينفح من اردانها الطيب (٧)

(١) مهذب الأغانى ج٢/٢٣ .
(٢) أنظر ديوانه .
(٣) أنظر مهذب الأغانى ج٢/٢٣ .
(٤) أنظر ترجمته بمهذب الأغانى ج١ ص ٩٣ .
(٥) القصة والقصيدة فى الأمالى ج٢ ص ١١٨ ومهذب الأغانى ج١ ص ٩٢ وثلاثة أبيات منها فى العقد الفريد ج١ ص ٣٤ .
(٦) أنظر ترجمته فى مهذب الأغانى ج٢ ص ١٨٨ .
(٧) المصدر السابق ج٢ ص ١٨٨ وفيه بقية القصيدة .

والشنفرى يصور لنا بالشعر غزوة من غزواته يبدو انه كان فيها وحده فيقول انه فى ليلة شديدة البرد ممطرة خرجت غازيا — بمكان يسمى الغميصاء — وعدت ومازال الليل حالكا ، ولكنى فى غزوتى هذه « أيمت نسوانا وأيتمت الدة » وأصبح أهل الحى يتساءلون منقسمين فى رأيهم عمن أحدث هذه الآثار — التى يبدو انها كانت قتلا وليس حصولا على مال — فبعضهم يقول ان الذى سطا بالليل انما هو ذئب أو وحش ، ويرد البعض الآخر مؤكدا أنه سطو عفريت من الجن ، وليس من الناس (١) ، وفى أخباره الأخرى انه كان يغير على الازد .

على ان أساليب الصعلكة فى الجاهلية لم تكن تخلو من طرافة فى مزاولتها كما يروى الجاحظ عن أسلوب جحدر بن ضبيعة فى سرقة الابل فيقول : « كان جحدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة فجعل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الابل ، فاذا وجدت الابل مسها نهضت ، وشد الشنة فى ذنب بعض الابل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم كان يثب فى ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان . قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا (٢) .

وعروة بن الورد مع كثرة رفقته وأتباعه من الصعاليك واللائذين به فى أحيان كثيرة ، الا أنه كان كما يبدو من أخباره يعتمد على نفسه فى الهجوم وكانت أساليبه تدور حول التسلل بمفرده الى حظائر الماشية كما فى قصته مع الرجل الذى كانت امرأته تخونه مع عبده . أو السطو كما فى قصته مع أصحاب الكنيف (٣) .

الصّعلكة فى الاسلام

أشرقت الارض بنور ربها حينما أهل عليها نور الاسلام ، فاضاء القلوب وأضاء الأرض وما عليها ، وأحست الصعلكة بعشى شديد أمام هذين النورين نور القلوب الذى لا يتيح لأصحابه أن ينحرفوا الى متاهات الظلمة والتـواء

---

(١) أنظر اللامية فى الأمالى جـ٣ ص ٢٠٥ من البيت ٥٠ الى ٥٧ وأول الأبيات (وليلة نحس ..)

(٢) الحيوان جـ ٥ ص ٤٣٣ مع أن التبريزى فى شرح الحماسة جـ ١ ص ١٩٥ يصفه بقوله « من الفرسان المعدودين » والشنة القربة .

(٣) انظر أخباره فى شرح ديوانه لابن السكيت .

السلوك ، ونور الحياة الذى لا يترك فيها كهوفا للعبث ، ولا منعرجـات يأوى اليها أولئك الذين لا تطيب لهم الحياة الا فى الظلام ، ولا يحلو لهم العيش الا فى المتاهات والسبل الملتوية ، من أمثال الصعاليك وقد كانت اليد التى تحمل هذه الشعلة المشرقة يدا قوية حازمة ، وأعنى بها التشريع الاسلامى نفسه .

هذا التشريع الذى راعى فيما راعاه — فضلا عن عمومه وصلاحيته لكل العصور والبيئات — ظروف البيئة التى نزل بها هذا التشريع ، وقد كانت أساليب الصعلكة من أبرز مشاكل البيئة حينئذ وأكثرها اقلاقا لطمأنينة المجتمع وازعاجا لأمنه ، وتهديدا لحياة الأفراد وأموالهم ، حتى ان النبى صلى الله عليه وسلم جعل فى مقدمة ما يبشر به من هذا الدين الجديد انه يحقق لهم الأمن حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب عـلى غنمه ، وحتى ان الله سبحانه يمن على قريش أن جعل لهم حرما آمنا بينما يتخطف الناس من حولهم فيقول « **أو لم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** » (١) فما كان أحوجهم حينئذ الى تشريع يعالج لهم فيما يعالج هذا المشكل من حياتهم ، وقد عالجه التشريع الاسلامى بأحزم ما يكون الحزم ، وأحكم ما تكون الحكمة . ممثلا فى حدى السرقة وقطع الطريق المشار اليهما آنفا ، ومن هذه الزاوية يعلم الذين يتهمون بعض الحدود والعقوبات فى الاسلام بالشدة والقسوة ألا قسوة فيها ولا شدة اذا نظروا الى مدى فظاعة الجرائم التى استوجبت هذه العقوبات ، وأثر هذه الجرائم فى أمن المجتمع واستقراره وطمأنينته ، وأذكر نقاشا دار بينى وبين أحد أساتذة علم الاجتماع فى هذا الموضوع (٢) حينما كان مشرفا على بحث أعده فى موضوع عادة الثأر (٣) ، حيث سألنى : وما الذى تراه لعلاج عادة الثأر ؟ قلت : وسائل كثيرة ، ولكن فى مقدمتها شريعة القصاص فتولاه ما يشـبه الدهشة ، ثم دار بينى وبينه حوار قصير ، كنت فيه أمثل وجهة نظر التشريع الاسلامى ، وكان هو يمثل جلال العلماء ، فى سعيهم وراء الحقيقة ، وتسليمهم للحق فور انبلاجه ، قال بعد أن أفاق من دهشته : ولكنه تشريع بدائى ، ونحن فى القرن العشرين فهل تريد أن نعود الى البدائية الأولى ؟

قلت : لنسلم جدلا بأن شريعة القصاص بدائية ، ولكنى أسألك أليس شيوع عادة الثأر فى مجتمع ما مظهرا من مظاهر البدائية ؟

قال : بلى .

قلت : وعلماء الاجتماع فى العالم وفى مقدمتهم « سافينى » متفقون على أن

---

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

(٢) هو الدكتور على فؤاد .

(٣) هو بحث (بركان الدماء : الثأر) بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٣٣٥ الى ٢٩٣٣٩ لصاحب هذا البحث .

أى تشريع فى أى أمة وفى أى بيئة لن ينجح الا اذا كان نابعا من عادات الأمة وتقاليدها وتاريخها مراعيا ذلك كله فيما يصدر عنه من بنود ، أليس كذلك ؟

قال : بلى ٠

قلت : والتشريع الاسلامى هو التشريع الوحيد النابع من عادات أمتنا وتقاليدها وتاريخها والمراعى لذلك كله ، ومن أوضح ما يكون ذلك فيه القصاص أليس كذلك ؟

قال : بلى ٠

قلت : واذن فهل من الحكمة أن نعالج عادة الثأر بتشريع القرن العشرين النابع من أمة تختلف عن أمتنا فى عاداتها وتقاليدها وتاريخها ؟

قال بعد لحظة من التفكير : لا ، وأنا أؤيدك فيما تقول ٠

وكانت النقطة التى تدور حولها حكمة التشريع الاسلامى فى القصاص فى ذلك البحث ، هى ان الحكمة البالغة ليست فى القصاص ذاته ، وانما فى مراعاة عادات الأمة وتقاليدها فى تطبيق القصاص ، ويتركز هذا فى اعتبار القصاص حقا مدنيا لا جنائيا ، بمعنى اشعار أولياء الدم ان القصاص حق لهم يملكون فيه التنفيذ ، والتعويض (الدية) والعفو ، وشعورهم بملكية هذا الحق فيه مفتاح الاشكال ، كما ان الفارق بين التشريع الاسلامى وغيره فى اعتبار القصاص حقا مدنيا أو جنائيا فيه أيضا كل الاشكال بالنسبة للتشريعات الأخرى حيث تجاهلت عادات المجتمع وتقاليده فى اعتباره ان كل تعد على فرد من الجماعة تعد على الجماعة كلها ، وفيه كل النجاح بالنسبة لشريعة القصاص حيث راعت هذه العادات والتقاليد (١) وكان من حكمة تشريع الحدود والقصاص فى الاسلام انها تبدو فى ظاهرها رهيبة عنيفة لتحدث أثرها فى الزجر والردع ، ولكنها حينما تصل الى التطبيق والتنفيذ تكون قد انتهت الى درجة كبيرة من الرفق واللين ، تكاد تكون عكس صورتها الظاهرية (٢) ، ومن أمثلة ذلك القصاص الذى يبدو مصبوغا بحمرة قانية من الدم ، ولكنه فى طريقه الى التنفيذ يمر بمراحل من عرض الدية والعفو حتى انه لو عفا واحد فقط من الورثة أو قبل الدية سقط القصاص ، والزم الباقون قبول الدية أو العفو وهكذا حين ينتهى الى التنفيذ نجده فى أغلب الأحيان أبيض ناصعا بدل الحمرة القانية ، مع نجاحه فى حسم الاشكال ، وهكذا الحدود ، تبدو أيضا رهيبة عنيفة ، ولكنها فى طريقها الى التنفيذ يكفى لترقيقها وتلطيفها ، أن تمر بالحديث الشريف « ادرأوا الحدود بالشبهات » لأن الحدود والقصاص ، وأى عقوبة فى أى تشريع ليست مقصودة لذاتها ، وانما لاحداث أثرها فى الردع والزجر ٠

(١) أنظر المصدر السابق (بركان الدماء : الثأر) ص ٨٠ وما بعدها

(٢) أنظر من هنا نبدأ لمحمد خالد ٠

والحدود والقصاص قد أدت أثرها على أكمل وجه مستطاع ، وآية ذلك ان المجتمع العربى الذى طغت فيه أساليب الصعلكة والفتك والغارات ، سواء أكان مزاولوها من المحترفين وهم الصعاليك ، أم من الهواة وهم غير الصعاليك حتى أصبحت هذه الأحداث أبرز ما يلمسه الناظر الى المجتمع الجاهلى ، هـذا المجتمع ننظر اليه منذ سيطو الاسلام على شبه الجزيرة فنجد هذه الظاهرة قد اختفت ، سواء منها ما ظهر من قطع الطريق والغارات ، وما بطن من أساليب الفتك واللصوصية ، بل من العجيب انه حتى الشذوذ الفردى ــ الذى يفترض أنه لا يخلو منه مجتمع ــ أوشك على الانمحاء حين جاء الاسلام ، فاننا لو أحصينا ما بلغنا من حالات الشذوذ التى استوجبت تنفيذ الحدود ، وخاصة حد السرقة وقطع الطريق منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب لما وجدنا هذه الحالات تتجاوز أصابع اليد الواحدة فيما نعلم .

ومن أثر الاسلام فى الصعاليك اننا نجد التــوبة شائعة فيمن بلغتنا أخبارهم ، ومن هؤلاء التائبين الاحيمر السعدى الذى كان سيفه يهدد التجار ورافلهم كما يقول :

تعرنى الاعــدام والبدو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم

ثم تاب فلم يخف حنينه الى عادة سيطرت على حياته وهى الصعلكة ، ولكنه مع هذا الحنين مصر على التوبة ، بل ناصح للصعاليك أن يسلكوا طريق التوبة فيقــول :

اشكو الى الله صــبرى عن زواملهم وما ألاقى اذا مروا من الحــــزن
قل للصوص بنى اللخنـاء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (١)

ومن هؤلاء التائبين يزيد بن الصقيل العقيلى ، الذى يقارن بين حال أصحاب المخائض قبل توبته وبعدها ثم اطمئنانه الى التوبة فيقول :

ألا قل لأرباب المخائض أهمــلوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وان امرءا ينجو من النار بعدما تزود من أعمالهــا لسـعيد (٢)

وليس معنى ذلك كله موت الصعلكة ، فان من عواملها ما هو طبعى ملازم للحياة ، كالاستعداد الفطرى والشذوذ الفردى فى المجتمعات م وبالنسبة لشبه الجزيرة العربية هناك عامل هام طبعى وهو طبيعة الأرض وما تيسره لأبنـــائها من الاختفاء والاحتماء ، يضاف الى ذلك ان سلطة الدولة بدأت تضعف ،وقبضتها بدأت تتراخى عن الأفراد حينما بدأت الفتن والخلافات تثور فى معظم أنحاء الدولة فى سلسلة طويلة متشــعبة ، بدأت هـذه السلسلة بالخلافات بين على

(١) امالى القالى جـ١ ص ٤٨ .
(٢) الكامل للمبرد جـ١ ص ٦١ .

ومعاوية ، ثم امتدت حلقاتها ممثلة فى الحروب بين العلويين والأمويين ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين العباسيين والعلويين ، بالاضافة الى ما تخلل ذلك من فتن الخوارج والمذاهب المنحرفة ، والمتمردين ثم توالت الفتن بين بعض طوائف الأمة والبعض الآخر ، وبينهم جميعا وبين الأمم الطامعة ، والطوائف المتمردة فى دوامة عاتية هيأت مجالا واسعا للصعلكة أن تعيد نشاطها ، فتوالى ظهور مجموعات من الصعاليك لم تكد تخلو منهم الأمة فى فترة من الفترات بل هيأت هذه الظروف للصعلكة أن تستعيد كثيرا من مكانتها ، وأن تخف نظرة السخط التى كانت تواجه بها أيام عنفوان الدعوة الاسلامية حتى ان صعلوكا كعبيد الله بن الحر استطاع بقوة شخصيته وبما جمعه حوله من صعاليك وأعوان أن يفرض نفسه فى المجتمع كقوة تستعصى على الأمراء ومنهم ابن زياد والمختار ومصعب بن الزبير ، بل تفرض التودد اليها على بعض الخلفاء كمعاوية وعبد الملك ابن مروان (١) ، وحتى استطاع أحد فتاكهم كعبد الله بن سبرة الحرشى أن يفرض قوته أيضا حتى يستعين به الأمراء فى طلائعهم لغزو الروم (٢) ونستطيع أن نجمل أهم ما يميز حياة الصعاليك الاسلاميين بعد الفترة الأولى من الاسلام فيما يأتى :

١ ـ تغيرت النظرة الى الصعلكة بعد الاسلام ، فبعد أن كانت مجالا للفخر وميدانا للتنافس ، وموضعا للاعجاب ، أصبحت موضعا للسخط والانكار ، وان كانت فى أغلب العصور لم تكن موضعا للاحتقار ، وفرق بين السخط والاحتقار وكان أهم مصادر هذا السخط الانكار الشديد الذى صبه الاسلام عليها ثم زوال معظم الأسباب والظروف التى تهيىء لها الحياة المطمئنة الراضية ونتج عن ذلك تبدل كبير فى وضعها بالنسبة للجاهلية ، فبعد ان كانت مظهرا شائعا أصبحت مزاولتها ـ مهما كثر مزاولوها ـ شذوذا ، وأصبح مزاولوها مهما كثروا قلة يمكن اعتبارها حالات فردية فى النسبة العامة للمجتمع وأصبحت نظرة المجتمع فى جملته اليها نظرة السخط والانكار والاضطهاد ولذلك نرى اضطهادهم شائعا فى أخبارهم ، فمن أخبار الاحيمر السعدى ان السلطان أهدر دمه وان قومه خلعوه ، وانه أصبح طريدا شريدا لا ملجأ له الا الفيافى والقفار ، ولا أنيس له الا الوحوش وأصواتها (٣) ، وهو القائل فيما قال عن حاله هذه :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى ... وصوت انسان فكدت اطير

(١) خزانة البغدادى جـ٢ ص ١٩ ـ ٢٢ نقلا عن كتاب اللصوص للسكرى فى ترجمة طويلة وتفصيل لهذه الأحداث .

(٢) عن شرح التبريزى لديوان الحماسة جـ١ ص ١٨٥ .

(٣) العقد الفريد جـ٣ ص ٢٩٠ .

ومن أخبار سعد بن ناشب المازنى ان السلطان هدم داره (١) فاضطر الى التشرد وهو القائل :

عليكم بدارى فاهدموها فانهـــا تراث كريم لا يخاف العواقبـا (٢)

ومن أخبار مالك بن الريب انه اضطر الى أن يهرب من مطاردة الحجـــاج ابن يوسف وانه مما قال فى ذلك :

فان لنا عنكم مراحا ومرحـــلا بعيس الى ريح الفـلاة صـــوادى
ففى الأرض عن دار المـــذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبـلادى (٣)

ومن أخبار شبيب بن عمرو ان على بن أبى طالب وجه اليه شخصين يدعيان ابنى شميط ليقبضا عليه فنجا منهما بفرسه التى سماها العصا ، وفى ذلك يقول :

ولما أن رأيت ابنى شميط بسكة طيىء والباب دونى
تجللت العصا وعلمت أنى رهـــين مخيس ان ادركونى (٤)
ولو أنى لبثت لهم قليلا لجرونى الى شيخ بطين (٥)
شديد مجامع الكتفين بـــاق على الحدثان مختلف الشئون

وقد قال على تعقيبا على قول شبيب :

تجللت العصا وعلمت أنى رهـــين مخيس ان ادركونى

« والذى فلق الحبـــة وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى لأودعته السجن وكان نتيجة لاحساسهم بسخط المجتمع ان ضعفت نزعة الفخر فى شعرهم ، وخاصة الفخر بالصعلكة نفسها ، بعكس ما كان شائعا فى شعر صعاليك الجاهلية ، بل ظهر حديثهم عن السجن وما يعانونه ، كمـا نجد فى شعر جحدر بن معاوية (٧) ، وشعر الجرنفس (٨) وشعر مالك بن الريب (٩) .

٢ ـ كان الصعاليك الاسلاميون فى جملتهم أكثر اختلاطا بالمجتمعات من الصعاليك الجاهليين ، وقد يبدو هذا متعارضا مع قولنا انهم كانوا يواجهون

(١) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ١٤
(٢) الكامل للمبرد جـ١ ص ١٢١ .
(٣) الكامل للمبرد جـ١ ص ٣٠١ .
(٤) تجللت : ركبت . مخيس اسم سجن بناه على بن أبى طالب .
(٥) بطين : عظيم البطن يعنى عليا كرم الله وجهه .
(٦) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٢٥٢ .
(٧) أنظر معجم البكرى جـ٤ ص ١١٤١ .
(٨) الحيوان للجاحظ جـ٧ ص ١٥٨ .
(٩) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

موجة من سخط المجتمع ، والواقع أنه كانت هناك ظروف جانبية أو فرعية كانت تعترض هذا السخط أو تتخلله فى كثير من الاحيان ، ومن هذه الظروف ، أن عـددا من الصعاليك كانت لهم من القوة والمنعة ما جعل الأطراف المتطاحنة فى صراع الخلافات والفتن التى أشرنا اليها تحرص على أن تتقى شر انضمامهم الى عدائهم ، وتحرص على أن تكسبهم فى قواها ، كما فى أخبار عبد الله بن الحر الذى تودد اليه كل من معاوية وعبد الملك بن مروان وعماليهما ، ولكنه ظل حصنا مستقلا عن الانطواء تحت أى سلطان ، وكذلك طلب منه الحسين بن على العون فى القتال فابى وظل معتصما بقوته واستقلاله (١) ٠

وكان منهم الشعراء البارزون الذين حرص الولاة والأمراء على الاستفادة بشعرهم فقربوهم اليهم ، متجاهلين سلوكهم حينا ، وناصحين لهم بالتوبة أحيانا كما فى أخبار بكر بن النطاح الحنفى مع أبى دلف وقرة بن محرز وما كانا يفيضان عليه من العطاء ويجريان عليه من الأرزاق ويهبانه من الهبات مقابل مدحه لهما واشادته بمكانهما ، وقد صنع صنيعهما أمراء آخرون توددا الى بكر وانتفاعا بشعره (٢) ٠

وكما فى أخبار مالك بن الريب وسعيد بن عثمان والى خرسان (٣) وكما فى أخبار فضالة بن شريك مع يزيد ن معاوية (٤) ٠

وكان من هـذه الظروف التوبة المستمرة أو المتقطعة التى تعترض حياة بعض الصعاليك فيهجرون صعلكتهم ليندمجوا فى المجتمع ، ومن هذه الظروف أيضا أن الفقر والحاجة التى كانت تفرض على صعاليك الجاهلية قضاء كل أوقاتهم أو معظمها فى الصعلكة طلبا للقوت قد خفت حدتها بعد الاسلام بتيسر الرزق وبسطة العيش فلم يكن الصعلوك الاسلامى فى مثل حاجة الجاهلى الى قضاء حياته متجولا متنقلا وراء لقمة يسيرة من العيش ، بل كان خيرا منه حالا مما لا يضطره الى التنقل الدائم ، على أن المغانم بعد الاسلام كانت أجدى على الصعاليك منها فى الجاهلية ، فقد يغنم الصعلوك غنيمة تكفيه أمدا ليس بالقصير على أننا لا ننسى أن الأخبار فى الاسلام كانت فى وصولها الينا أوضح منها فى الجاهلية ، وخاصة فيما يحيط بالخلفاء والأمراء ، وهو مجال كانت تفتقده الحياة فى الجاهلية ، ونتيجة لهذا الجانب من الألفة بين معظمهم وبين المجتمع ظهر فى شعرهم جانب لم يكن ملموسا فى شعر صعاليك الجاهلية ، وهو جانب

---

(١) أنظر خزانة البغدادى جـ٢ ص ١٩ ـ ٢٢ نقلا عن كتاب اللصوص للسكرى ٠

(٢) أنظر مهذب الخضرى لأغانى الاصفهانى جـ٨ ص ٨٤ والأمالى جـ١ ص ٢٣٦ والعقد الفريد جـ١ ص ٦٦ والكامل جـ٢ ص ٨٧ ٠

(٣) أنظر الأمالى جـ٣ ص ١٣٥ وخزانة البغدادى جـ٢ ص ٤٣ ـ ٥٢ ومهذب الأغانى ١٠/٥ ـ ١٩ ٠

(٤) أنظر مهذب الخضرى لأغانى الأصفهانى ٢١٠/٢ ٠

المدح والهجاء والرثاء ، كما فى مدائح بكر بن النطاح لأبى دلف ومالك بن على الخزاعى وخربان بن عيسى (١) وكما فى مدائح ومراثى ابى الطمحان القينى لمالك بن سعد وبجير بن أوس بن حارثة (٢) وفضالة بن شريك لعاصم بن عمر يهجوه (٣) ، وان كان هذا الجانب يعتبر وهنا فى صلابة الصعلكة وعتوها وتمردها هذه الصلابة وهذا التمرد اللذان قامت عليهما الصعلكة وحفظا لها كيانها وحصناها من الضياع ، كما أنهما كانا من أهم مدعمات مركزهم سواء فى الجاهلية والاسلام ، على أن الذين ظهر فى شعرهم هذا الجانب الاجتماعى من الهجاء والمدح والرثاء عدد محدود ، ومع أن ما ورد منه غير قليل ، الا أنه يبلغ من الكثرة بحيث نعتبره من الطوابع المميزة ، أو الممثلة لشعرهم .

٣ ، مما يلاحظ فى وضع الصعاليك الاسلاميين أنهم احتفظوا بالطابع العام لشخصية الصعاليك ، وهو ما أشرنا اليه من الصلابة والتمرد والاعتداد بالذات الى حد الاستهانة بكل شىء فى سبيل هذا الاعتداد ، حتى الموت ، ولذلك تجد من أبرز ما يتردد فى شعرهم جاهليه واسلاميه استصغار الموت ، والتحفز دائما لاستقباله كشىء عادى مرتقب ، هذه الصفات المتنوعة من القوة فى أشخاص الصعاليك ، يجمعها اعتبار الصعلوك نفسه قوة مستقلة تأبى على الخضوع والانقياد ، حتى ولو كان شخصا مفردا ليس ذا اتباع أو أنصار ، وحتى لو كانت القوة التى تريد أن تسيطر عليه قوة غالبة فى المجتمع أو متسلطة عليه، فاذا أحس الصعلوك أنه لن يستطيع الصمود أمام هذه القوة أو مقاومتها ، فانه لن يتردد فى الهجرة الى أى مكان يحتفظ فيه بقوته واستقلاله وعزته ، كما يقول الشنفرى فى الجاهلية « وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى (٤) » وكما يقول مالك بن الريب فى الاسلام « وفى الأرض عن دار المذلة مذهب (٥) » فليس للصعلوك مكان خاص يميل اليه ، وليس له مجتمع معين يهوى العيش فيه ، فأن هدفه الوحيد هو الاحتفاظ بحريته كما يريدها هو ، وبقوته كما يصرفها هو ، وبعد ذلك تتساوى لديه الأماكن والمجتمعات ، كما يقول مالك بن الريب قاصدا هذا المعنى نفسه « وكل بلاد أوطنت كبلادى (٦) » ، بل أنه يؤثر الفيافى والقفار اذا جارت مجتمعات البشر على حريته وقوته واستقلاله كما رسمهن لنفسه ومالك ابن الريب يقول فى ذلك :

أن تنصفونا يآل مروان نقترب اليكم والا فاذنوا ببعاد

(١) أنظر أمالى القالى جـ١ ص ٢٣٦ ومهذب الأغانى جـ٨ ص ٨٤ وما بعدها .
(٢) أنظر أمالى القالى جـ١ ص ١٠٩ ، جـ٢ ص ٣٢٥ ومهذب الأغانى ٢٦ ـ ٢٨ .
(٣) أنظر مهذب الأغانى جـ٢/٢١٠ .
(٤) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٥ اللامية .
(٥) الكامل للمبرد جـ١ ص ٣٠١ .
(٦) الكامل للمبرد جـ١ ص ٣٠١ .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى (١)

وكما فعل الاحيمر السعدى فى هجرته الى الفيافى المقفرة الا من الوحوش(٣) وان الصعلوك ليؤثر الوحوش (على اختلاف أنواعها وعلى خطورة جيرتهـا) على بنى آدم اذا ضيقوا على حريته أو حاولوا المساس بعزته كما يقول الاحيمر صعلوك الاسلام :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكـدت أطـير (٣)»

وقد قال قبله صعلوك الجاهلية الشنفرى :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل (٤)

والذى يعنينا من هذا ان صعاليك الاسلام احتفظوا بطابع القوة والاستقلال الذى تقوم عليه الصعلكة وتعتز به ، ولم تستطع قوة أن تخضعهم أو تسيطر عليهم ، بل فرض بعضهم على كل القوى أن تتودد اليه بعد أن أعياها كعبيد الله ابن الحر الجعفى الذى أعيا الأمراء والولاة من مثل ابن زياد والمختار والمصعب ابن الزبير ، واضطر كلا من معاوية وعبد الملك بن مروان والحسين بن على أن يتوددوا اليه كما أشرنا ، وكما استطاع عبد الله بن سبرة الحرشى أن يجعل الولاة يستعينون به فى غزواتهم ومناوشاتهم كما قلنا ، فأمثال هذين استطاعوا أن يفرضوا قوتهم على المجتمع وعلى القوى المتعـادلة فى المجتمع ، والذين لم يستطيعوا أن يفرضوا قوتهم فروا بها الى حيث يكونون فى مأمن ،والى حيث يستطيعون أن يزاولوا حريتهم كما يحلو لهم ، كما فعل مالك بن الريب فى هروبه من الحجاج (٥) وشبيب بن عمرو فى هروبه من على بن أبى طالب (٦) وكما فعل سعد بن ناشب الذى ترك داره للوالى يهدمها (٧) وآثر الفرار بقوتـه وحريته ، وكمـا فعل الاحيمر السـعدى فى اختيـاره حيـاة الفيافى ومصاحبة الوحوش على الاستسلام للسلطان (٨) .

وهذه الصلابة التى احتفظ بها الصعاليك واشتهروا بها فى مجتمعاتهم ، دعمت مكانتهم فى المجتمع ، واضفت على صعلكتهم كثيرا من الهيبة ، وشيئا

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ وانظر الكامل للمبرد جـ١ ص ٢٠٠ والاصمعيات ص ١٢٥ عن صعاليك آخرين .
(٢) أنظر العقد الفريد جـ٣ ص ٢٩٠ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٧ .
(٤) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٥ والسيد : الذئب والأرقط النمر والعرفاء الضبع .
(٥) الكامل للمبرد جـ١ ص ٣٠١ .
(٦) **شرح الخطيب لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٢٥٢ .**
(٧) الكامل للمبرد جـ١ ص ١٢١ وشرح التبريزى للحماسة جـ١ ص ١٤ .
(٨) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٩٠ .

غير يسير من التقدير ، بالاضافة الى أن النظرة الدينية التى وصمتهم بالانحراف والشذوذ والتأثيم الشديد ، وان كانت لم تنمح ، الا أنها بعد عصر الخلفاء ، وبعد تحدر الفتن فى الأمة من كل صوب ، وبعد أن أصبح الصعاليك مجرد جزء من هذه الفتن ، خف لهيب النظرة الدينية اليهم ، لأن هذه النظرة لم تعد مركزة عليهم وحدهم ، بل كانت موزعة على فتن كثيرة ، لم تكن الصعلكة أهمها ولا أخطرها .

ومن هذه القوة العنيدة التى استطاعوا أن يحافظوا عليها ، والتى كان من أهم وسائل احتفاظهم بها تهيؤ ظروف كثيرة لذلك ، أبرز هذه الظروف وان لم يكن أهمها شيوع الفتن المثلة فى قوى كثيرة متصارعة متطاحنة ، من هذه القوة العنيدة انساب شعر كثير لهم ، لا يمثل الشعور بالشذوذ والانحراف ، وانما يمثل القوة والاعتداد بالنفس ، والتمادى فيهما الى درجة واضحة متميزة .

على أننا فى خلال هذا لا ننسى الفارق بين الفترة الأولى من الاسلام ، وما وليها من العصور وبين العصور نفسها فى موقفها من الصعلكة ، وتأثر الصعلكة بهذا الموقف ، وان كانت الروايات غير واضحة كل الوضوح فى التحديد الزمنى لما ساقته من شعر ، الا أننا نحس أثر الفترة الأولى من الاسلام فى شيوع التوبة بين الصعاليك ، وفى تحدث شعرهم بهذه التوبة وفى ظهور معنى يظهر لأول مرة فى شعر الصعاليك وهو الحديث عن السجن والقيد ، حيث ان الذين لم يستطيعوا الهرب وقعوا فى طائلة السلطان والشريعة ، فاذا هم فى السجون والقيود .

وفى الآية الكريمة التى تقارن بين حال أهل الحرم فى أمنهم ، وحال المجتمع الجاهلى فيما عدا الحرم نرى التصوير العميق فى قوله تعالى « **أو لم يروا أنـــا جعلنا حرما آمنا ويتخطف النـاس من حولهم أفبالباطل يؤمنـــون وبنعمة الله يكفرون** (١) فهذا التعبير « يتخطف الناس من حولهم » يصور لنا حال المجتمع الجاهلى ، ويشير الى أثر الصعلكة فيه . ولذلك يقول الزمخشرى فى تفسير الآية « كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون آمنون فيها ، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب (٢) » ومن هذا يمكن أن نتصور الفارق بين الجاهلية والاسلام فى حاليهما ، وفى أثر الصعلكة فى كل منهما .

أساليبها :

أساليب الصعلكة تتحكم فى تحديدها وتوجيهها عدة ظروف ، منها طبيعة الأرض ، وطبيعة المجتمع وحياته ، ومنها استعداد الصعلوك نفسه ، ومن هذه

(١) الآية ٦٧ سورة العنكبوت .
(٢) تفسير الكشاف فى الآية السابقة ٣/٣٦٥ .

الظروف ما ظل ثابتا لم يتغير كطبيعة الأرض واستعداد الصعاليك ، ومنها ما طرأ عليه كثير من التغيير كحياة المجتمع بجوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا التغيير بدوره لم يكن ثابتا ، وانما اختلف باختلاف العصور والحكام ، وما يسود المجتمع من أحداث .

وحين ننظر الى أساليب الصعاليك الاسلاميين نجد أساليب صعلكتهم تبعا لذلك مختلفة أيضا ، ولكن التغيير الملموس الذى نحسه فى الفارق بين أساليب الجاهليين والاسلاميين هو ضعف أسلوب الغارات الى حد الاختفاء فى معظم العصور ، وتبعه لذلك اختفاء نغمة الغارات والتمدح بها فى الشعر ، فبينما نجد الغارات أبرز ما يتحدث عنه صعاليك الجاهلية ويفخرون به فى شعرهم ، وبينما يشيع فى الروايات أيضا عنهم حديث الغارة ووصفهم بها ، نجد شعر الاسلاميين يكاد يخلو منها ، ونجد الروايات أيضا تتحاشى وصفهم بالغارات ، وهذا أثر مباشر لما طرأ على الحياة الاجتماعية من تغيير ، فبينما كانت حياة القبائل فى الجاهلية تقوم على غارات بعضها على بعض بصفة دورية متصلة لا تكف ولا تكاد تنتظم وقد اتخذ الصعاليك من هذه الحياة أسلوبا من أساليب صعلكتهم ، بينما الوضع كذلك فى الجاهلية نجد طريقة الغارات تكاد تختفى فى الحياة الاجتماعية بعد الاسلام ، ولم تعد الظروف تسمح بانتهاجها فتختفى تبعا لذلك من أساليب الصعاليك ، الا فى الظروف الشخصية أو السياسية الشاذة حينذاك ، كما ورد فى أخبار عبيد الله بن الحر حينما أحس نقمة معاوية عليه « ثم خرج عبيد الله مغضبا وارتحل الى الكوفة فى خمسين فارسا وسار يومه ذلك ، حتى اذا أمسى بلغ مسالح معاوية ، فمنعوه من السير فشد عليهم وقتل منهم نفرا وهرب الباقون ، وأخذ دوابهم وما احتاج اليه ، ومضى لا يمر بقرية من قرى الشام الا أغار عليها حتى قدم الكوفة (١) فقد كان هذا الظرف السياسى حينذاك فى الصراع العنيف بين معاوية وعلى ، وما استتبعه من ظهور الخوارج والطوائف المنشقة ، والمذاهب المنحلة وما الى ذلك من الظروف الشاذة ، كما أن شخصية عبيد الله بن الحر فى شهرته بالقوة ، وانقياد اتباع طيعين له من الظروف غير العادية أيضا ، فقد كان وضع عبيد الله بن الحر فى صعاليك الاسلام أقرب الى وضع عروة بن الورد فى صعاليك الجاهلية .

والذى يشيع فى أساليب صعاليك الاسلام كثيرا قطع الطريق ، كما تحدثوا بذلك فى شعرهم ، وكما ورد فى وصف كثير منهم بأنه « يصيب الطريق (٢) » سواء أكان الطريق طريق القوافل أم طريق الأفراد ، وسواء أكان المغنم مالا ، أم بضاعة مما تحمل القوافل كما يقول الاحيمر السعدى :

---

(١) خزانة البغدادى جـ٢ ص ١٩ .

(٢) انظر للمثال شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١ ص ٢٥٢ ومهذب الأغانى جـ٨ ص ٨٤

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم … وما ألاقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا … بز العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخذه … من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

فهو يتحدث عما تحمله الابل من بز وثياب وطرف ، وفى أخبار أبى النشناش النهشلى أنه كان يعترض القوافل فى شذاذ من العرب بين الحجاز والشام فى عصر مروان بن الحكم (٢) ، ويتحدث أبو النشناش عن مغانمه فيقول انه يستهدف الجزيل من المغانم ، أى أنه يربأ بصعلكته عن اليسير منها كما يقول :

وداوية يهماء يخشى بها الردى … سرت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأرا أو ليدرك مغنما … جزيلا وهذا الدهر جم عجائبه (٣)

وكذلك يبرز من أساليبهم الحديث عن سرقة الابل أيا كان أسلوب سرقتها، كما يتحدث عن ذلك يزيد بن الصقيل بعد توبته فيقول :

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا … فقد تاب مما تعلمون يزيد (٤)

وكما يقول الاحيمر السعدى فى شعار جعله لنفسه :

وانى لأستحيى من الله ان أرى … أجرر حبلا ليس فيه بعير
وأن أسأل الجبس اللئيم بعيره … وبعران ربى فى البلاد كثير (٥)

ومن أساليبهم الفتك بما يوحيه الفتك من فهمهم له وحديثهم عنه ، من أساليب التغرير والغدر التى تنتهى بحياة المغرر بهم فى أغلب الأحيان كما سبق فى شرح اللفظ ، ومن أساليب الفتك أيضا أعمال المجازفة وركوب المخاطر ،كما يقول المبرد « والاقدام على الغرر وركوب الخطر ، قد يتحسن عند الفتاك (٦) ، وقد وصف كثير من صعاليك الاسلام بأنهم فتاك كسعد بن ناشب (٧)وعبدالله ابن سبره (٨) وفضالة بن شريك (٩) .

---

(١) الأمالى للقالى جـ١ ص ٤٨ والزوامل الابل اذا كانت محملة ، والقطار الابل المقطورة وراء بعض .
(٢) الأغانى للأصفهانى جـ ١١ ص ٤٢ .
(٣) الاصمعيات ص ١٢٥ وانظر مالك بن الريب بخزانة البغدادى جـ٢ ص ٥١ .
(٤) الكامل للمبرد جـ١ ص ٦١ .
(٥) معجم الشعراء ص ٣٧ .
(٦) الكامل جـ١ ص ١٢٠ .
(٧) المصدر السابق جـ١ ص ١٢١ .
(٨) عن شرح التبريزى للحماسة جـ١ ص ١٨٥ .
(٩) مهذب الأغانى جـ٢/٢١٠ .

الباب الثانى

الشعراء الصعاليك

من الواضح أننا لا نعنى من حديث الصعاليك الا بالشعراء منهم ، وأن الشعراء ليسوا كل الصعاليك ، بل المفروض فى غير شك أن الشعراء منهم قلة قليلة بالنسبة لغير الشعراء ، ومن فضل الشعر على التاريخ الأدبى العربى أنه حفظ جانبا كبيرا من حياة الأمة العربية وتاريخها لولاه لم يكن ليبلغنا عنه شيء يغنى ، كما لم يبلغنا عن مجالات كثيرة شيء يغنى .

أما غير الشعراء من الصعاليك ، فلم يكن هناك ما يدعو الروايات الى العناية بهم وخاصة بعد الاسلام ، فأن الاسلام ينكر الصعلكة أشد الانكار ، فلم يكن يسع الرواة أن يجعلوا من حديثها لذاته موضوعا يتناقلونه ويضعونه موضع العلم الذى يتناقلونه تعليما وأخبارا ، ولكنهم وجدوا من جلال الشعر وتعظيم العرب له مبررا للعناية بشعر الصعاليك وبعض أخبارهم .

ومن أمثلة ذلك أن مالك بن الريب اقترنت أخبـار صعلكته بزميلين له ، أحدهما شظاظ الضبى (١) الذى ضرب به المثل فى اللصوصية ، فقيل ألص من شظاظ (٢) ، والآخر أبو حردبة المازنى (٣) وأبو حردبة هـو الذى يقول عنه الراجز وعن مالك :

الله نجـــاك من القصيـــم
ومـن أبى حـــردبة الأثيــم
ومالك وسـيفه المسـموم (٤)

ولكن مالك بن الريب كان شاعرا ، فعنيت به الروايات ، أما صاحباه فلم يكونا شاعرين ولذلك ، لم يبلغنا عنهما شيء مفيد ، وهناك صـعاليك من غير

(١) خزانة البغدادى جـ٢ ص ٤٢ .
(٢) مجمع الأمثال جـ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ٣ ص ١٠٢٧ .
(٤) المصدر السابق .

الشعراء ساقت الروايات عنهم ذكرا خاطفا لارتباطهم أو ارتباط أسمائهم بشيء آخر ، كذى الشنة وهب بن خالد قاطع الطريق ، فملازمة الشنة وهى القربة له كانت فى ذاتها حدثا ، وسببا فى تعرض معاجم اللغة لذكره فى سياق شرح الشنة (١) ومن الادلة على أن الصعاليك غير الشعراء كانوا أكثر بكثير من شعرائهم ما ورد من أن أبا جندب الهذلى حين أراد أن يثأر لأخيه الأسود بن مرة من بنى لحيان ، واعد كل خليع وفاتك أن يأتوه فى موعد ومكان معينين ليغير بهم على بنى لحيان (٢) ومعنى ذلك أن هؤلاء الصعاليك من الخلعاء والفتاك الهذليين كانوا عددا كبيرا ، فى حين أنه لم يبلغنا من أخبارهم الا أخبار أبى خراش والأعلم وصخر الغى ونفر قليل ، وذلك لأن هؤلاء كانوا شعراء ٠

وسياق الحديث عن الشعر يجعلنا مضطرين الى التمييز بين الشعراء الجاهليين ، والمخضرمين والاسلاميين منهم ، لما لهذا التحديد الزمنى ، وما يرتبط به من نظام الحياة والمجتمع من أثر فى الشعر ٠

والواقع أن الحديث عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم يحيط به كثير من الالتواء والتبعثر ، والباحث فى هذا المجال يجد مشقة أى مشقة فى الوصول الى صور واضحة عن هؤلاء الشعراء وعن أشعارهم نتيجة لضعف التاريخ العربى القديم واضطرابه فيما يتعلق بالأفراد وبخاصة اذا لم يكن لهم وضع بارز فى الدين أو السياسة ، وعلى الأخص هؤلاء الصعاليك ، فلولا ما تميز به الاسلام من سماحة وبسطة وسعة فى الأفق والفهم للأمور ، لكان الحديث عن الصعاليك فى ذاته جريمة ، لأن الصعلكة نفسها جريمة أى جريمة فى الاسلام ٠ ولكن سلاحين تدرع بهما العلماء فى تداول رواياتهم ، أحدهما هذه البسطة والسعة فى فهم الاسلام للأمور مما لا نرى ما يدعو للافاضة فى حديثه ، ولكن يجمله مثل شعار العلماء فى هذا المقام من قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر » فالمنكر شىء ، والحديث عنه وروايته شىء آخر ، والسلاح الثانى هو تعظيم العرب للشعر وجعله ميدانا للتنافس بينهم ، ثم اقرار الاسلام للشعر واعترافه بهذه المكانة له ، هذان العاملان كان لهما الفضل فيما نعتقد فى مجرد وصول أخبار الصعاليك الينا ٠

ولكن هذه الأخبار لكونها معتمدة على الروايات ، ولما يفرض فى الروايات من اختلاف الرواه فى قوة ذاكرتهم ، وفى دقتهم فى النقل تعرضت لاضطراب وتعارض واضحين فى شعر الصعاليك ولذلك نجد معظم شعرهم تختلف فيه الروايات ، ومما يلطف من هذا الاختلاف أن معظم الخلاف منصب على الألفاظ ، وأقله ما يصيب المعانى كما سيأتى ٠

والذى يعنينا هنا هو أن نقول اننا حين نتحدث عن الشعراء الصعاليك لانزعم أننا نستطيع الحصر على وجه اليقين ، لأن هؤلاء الشعراء وأخبارهم متفرقة بل

---

(١) أنظر القاموس المحيط مادة شنن جـ٤ ص ٢٤١ ٠

(٢) معجم البكرى جـ٢ ص ٥٣٠ ٠

متناثرة فى كل الكتب القديمة تقريبا ، سواء أكانت كتب تاريخ ، أم كتب ادب ولغة ، أم كتب معاجم ، ولا نستطيع أن نزعم ، ولا نعتقد أيضـا أن هناك من يستطيع أن يزعم أن فى وسعه أن يلم بجميع الكتب العربية ليستقصى كل ما فيها عن الصعاليك .

ومما يزيد موضوع الصعاليك صعوبة أنه موضوع لا زال بكرا ، وأول من افرد الصعاليك ببحث خاص هو ابو سعيد السكرى فى كتاب اللصوص ، وقد أخذ عنه كثير من العلماء كالبغدادى فى خزانته ولكن منهج السكرى لم يتصل ، ولم يجد من العلماء من يواليه ، واقتصر الحديث عنهم على الاستشهاد بأبيات أو أخبار متفرقة فى معظم الأحيان ، يتبين منها أنها غير مقصودة لذاتها ، وانما لتأييد ما هى مسوقة من أجله ، ولو قد وجد السكرى من يواليه لكان فى تضافر العلماء والباحثين ما يبرز لنا صورة واضحة أو قريبة من الوضوح محددة أو قريبة من التحديد فيما يتعلق بأشخاص الصعاليك وشعرائهم ، فيما يتعلق بأخبارهم وأشعارهم وفى برد كل ذلك الى الوضع الصحيح من التحديد الزمنى ، ونسبة كل شاعر وشعره وأخباره الى عصر معين وزمن معين ، ولكننا نتيجة لعدم تحقق ذلك نجد عناء فى نسبة شعراء الصعاليك ا لىعصورهم وأزمانهم التى عاشوا فيها ، ولئن كنا نستطيع أن ننسب كلا منهم الى الفواصل الرئيسية فى التاريخ العربى من الجاهلية والخضرمة والاسلام ، فاننا نعيى بما هو أبعد من ذلك فى الدقة ، من نسبة الجاهلى الى عصر أو جيل معين فى الجاهلية ، ومن الفصـل الدقيق بين الشعر الجاهلى والاسلامى بالنسبة للمخضرمين ، بمعنى أننـا حين ندرس شعر المخضرمين لا نجد الوسيلة الدقيقة أو الروايات التى ترشدنا الى فصل الشعر الذى قالوه فى الجاهلية عن الشعر الذى قالوه فى الاسلام ، الا اذا كان الشعر نفسه يتضمن ما يوحى بذلك ، أو كان يرتبط بحادث عرفت نسبته الى الجاهلية أو الاسلام ، ومع ذلك فقلما نجد هذه الاعتبـارات ، ومن نسـبة الصعلوك الاسلامى الى عصر أو جيل معين فى الاسلام وان كان هذا الجانب أوضح الجوانب فى موضوع الصعاليك ، أو بمعنى أدق ، أقلها فى الغموض .

ولهذا كله لم يلق موضوع الصعاليك اقبالا من الباحثين المحدثين ، مع سعة البحوث الأدبية وتشعبها فى العصر الحديث ، فبصرف النظر عن المقالات على ندرتها ، والفصول الموجزة العجلى والمسوقة ضمن موضوعات أخرى (٢) . لا نعلم بحثا أخرجته المطابع الا بحث « الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف عن جانب واحد من الموضـوع كما يبين من عنوانه ، هو الجانب الجاهلى .

---

(١) للمثال أنظر خزانة الأدب للبغدادى جـ٢ ص ١٩ ، ٢١ .

(٢) مثل ما جاء فى فصل الغنى والفقر بكتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتـور الحوفى ص ٢٢١ ـ ٢٣٤ وبعض المقررات بكلية اللغة العربية وحديث كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى عن بعض الصعاليك كالشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد .

فحين نتحدث اذن عن الصعاليك لا نجد مفرا من الاعتماد الكامل على المراجع العربية القديمة ، متنقلين بين أشتاتها ومتناثراتها ، بل وكلماتها الخاطفة أحيانا عن الصعاليك ما وسعنا التنقل ، راجين ألا يكون القصور – ان كان – شديدا ٠

وحيث أن تراجم الشعراء لا تعنينا لذاتها فى هذا الموضوع ، لذلك نكتفى منها بما يميز الشاعر عن غيره ، أو يحدد صفاته ، فى أقصى ما يستطاع من ايجاز ، تاركين التفاصيل بعد الاشارة الى أهم مصادرها ومراجعها لمن أراد الرجوع ٠

الجاهليون

١ – الشنفرى :

نشأ فى أزد اليمن ، ولكن بنى شبابه بن فهم أسروه صغيرا ، فظل فيهم حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من بنى شبابة ففدوه بالشنفرى ، فعاش فى بنى سلامان بنجد أسيرا كالعبد ، أو عبدا كالأسير ، حتى تعلق بفتاة هى بنت الرجل الذى يعيش عنده ، وأراد أن يتزوجها فأنفت من ذلك ، وأذنه ، وأحس المهانة فى مقامه بين بنى سلامان فلجأ الى الصعلكة ، واستغل معظم نشاطه فيها فى الانتقام من بنى سلامان ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، والشنفرى هو الذى يضرب به المثل فى سرعة العدو الذى يسبق الخيل ويضرب به المثل فى الحذق والدهاء ، وهو ابن أخت تأبط شرا رغم أنه أكبر منه سنا ، وكان أحد رفقة ثلاثة ، اشتهروا بأنهم من أقوى الناس وأعداهم ، هو وتأبط شرا وعمرو بن براقة وهو أحد شخصين لكل منهما ديوان شعر ، هو وعروة بن الورد ، وان كان ديوانه هو لم يصل الينا منه الا أقله ، وهو صاحب لامية العرب ، التى يعتز الشعر العربى كله باحتوائه على مثلها ، والتى فتنت المستشرقين فأولعوا بها وبترجمتها ، حتى ترجمت الى نحو خمس لغات أجنبية ، والتى حظيت منذ القديم بأعجاب الأدباء والنقاد ، حتى أفرد الزمخشرى لها كتابا لشرحها هو « أعجب العجب فى شرح لامية العرب (١) » ويجعل بعض الباحثين شعره فى المرتبة الأولى من حيث التمثيل والتصوير ٠

(١) انظر هذه الأخبار وغيرها عنه وعن شعره متفرقة فى المصادر الآتية : مجمع الأمثال ٤٦/٢ والعقد الفريد ٣٠/١ وأمالى القالى ٢٠٥/٣ و ١٥٥/١ وشرح المفضليات ص ١٠٨ وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١٨٧/١ والكامل للمبرد ٧٩/٢ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان

٢ – تأبط شرا :

هو ثابت بن جابر الفهمى ، خال الشنفرى ، وأحد الثلاثة السابقين الذين اشتهروا بأنهم أقوى واعدى من عرفهم زمانهم ، وقد بلغ من اعتداده بنفسه وبقوته وعدوه أنه كان يغير وحده على رجليه ولا يهاب أحدا ، والذى عدوه من أبطال البدو المعدودين ، حتى أن قصص مغامراته واقدامه تشبه الأساطير ، وان كان معظمها موضع اتفاق بين الروايات مما يحمل على تصديقها ، والذى عرف مع شدة بأسه وصرامته ، بالمهارة البارعة فى التخلص من المآزق البالغة الخطورة ، والتى لا يتاح الخلوص منها الا لشخص وهب حظا عظيمـا من الذكاء وسرعة البديهة والعدو الخارق للعادة فى قصص كثيرة لا تكاد تختلف عليها الروايات ، وقد سجل معظمها فى شعره ، وكان مع ذلك من مشاهير الشـعراء المجيدين (١) ، وأمه تصف للناس طريقة تربيتها اياه وكأنها أحست تساؤلهم عن سر ما أوتيه من صفات لم يألفوها فى غيره ، فهى تسوق لهم جانبا من تعليل ذلك كما روى الجاحظ فى قوله « رووا جميعا أن أم تأبط شرا قالت : والله ما ولدته يتنا ، ولا سقيته غيلا ، ولا أبته على مأقة ، وقد شرح الجاحظ هذه الألفاظ بأن اليتن خروج المولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ، وأن الغيل ارتضاع لبن الحبلى وذلك فساد شديد ، وأن المأقة هى مضمون العنف والحمق من الأم فى ترقيص ابنها واعداده للنوم بطريقة مفزعة لا رفق فيها (٢) ، مع أن بعض الرويات تتهم أمه بالتواطؤ مع زوجها أبى كبير الهذلى على قتل تأبط شرا ، وهو غلام ناشىء ، حينما توقع أبو كبير الشر من تأبط شرا ، وأحس بالحقد فى نظراته نتيجة لكثرة دخوله على أمه ، وقد استدرجه أبو كبير الى حيث يلقى هلاكه فى احدى الغارات حتى انتهى

١٠٤/١ وما بعدها وأعجب العجب فى شرح لأمية العرب للزمخشرى وأمالى القالى ٣٦/٣ والشوامخ لمحمد صبرى ص ١٢٥ ومهذب أغانى الأصفهانى ٩٥/١ ومعجم ما استعجم للبكرى ٤٢٩/٢ ، ٥٥٩ ، ٢٤٩/١ و ٩٤٦/٣ و ١٣٩٢/٤ والحيوان للجاحظ فى سبعة مواضع (بالفهرس المجمع) وخالف صاحب القاموس فعده فى الاسلاميين مادة (غرب) والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥/١ .

(١) أنظر تفصيل ما سبق وأحداثا وأخبارا عنه وعن شـعره فى المصادر الآتية : مهذب الأغانى للأصفهانى ٢٢٤/١ وأمالى القالى ٣٨/١ ، ١٣٤/٢ ، ٢٧٨ ، وتنبيه البكرى على أوهام القالى ص ١٠٨ ومجمع الأمثال ٤٦/٢ وخزانة البغدادى ٩٣/١ ، ١٣٩/٩٥ والمفضليات للضبى ص ٢٧ والاصمعيات ص ١٣٥ وحماسة أبى تمام ١٦/١ ، ١٩ ، ٢١ ، ١٨٩ ، ٣٤٢ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٠٤/١ والعقد الفريد ٣٤/١ ، ١٢٧/٣ ومعجم ما اسـتعجم للبكرى ١٨٧/١ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ وبه قصـة قتله الغـول وشـعره فى ذلك و ٣١٨/١ ، ٤٠٠/٢ ، ٤٢٤/٢ وبه قصة مقتله ، ٥٠٨/٢ ، ٦٣٨/٢ ، ٦٤٦ وأحد عشر موضـعا آخر (بالفهرس المجمع) والحيوان للجاحظ ٦٣/١ ، ١٨٢ ، ٦٨/٣ ، ٢٥٥/٦ على شك فى نسبة شعر له فى هذا الموضع ، ٤٥٠/٦ (على شك أيضا) ، ٢٨٦/١ رثاء أمه اياه وعده القاموس المحيط اسلاميا مادة (غرب) وهو غير صحيح والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٨٦/١ وشرح القصائد السبع لابن الانبارى ص ٤١ مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

به الى عدوين له ، ولكن أبا كبير رجع أكثر خوفا من تأبط شرا وأشد فرقا حينما وجده قتل عدويه وعاد بطعامهما(١) ، وليس من اللازم أن نعتقد أن أمه تواطأت مع زوجها فى هذه المؤامرة ، فيجوز أن يكون أبو كبير منفردا بها ، أو أنــه نسب الى أمه الاشتراك ليخفف من جرمه ، وعلى فرض صــحة الرواية كلها ، فليس من اللازم أن تكون متعارضة مع حديث أمه عنه ، ووصفها لتربيتها اياه ٠

٣ ــ السليك بن عمير السعدى :

وهو المشهور بالنسب الى أمه السلكة ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه كانت أمة سوداء فورث عنها لونها ، وكان لذكره وشهرته دوى فى أنحاء الجزيرة كلها ، حتى أن عمرو بن معد يكرب يقول (ما أبالى أى ظعينة لقيت على ماء من أمواء معد ما لم يلقنى دونها عبداها أو حراها) وعنى بأحد العبدين السليك ، وقد ضربت به الأمثال التى بلغت من الشهرة فى أنحاء الجزيرة كلها حدا بارزا فلا يعد بنسعة نفر الا ويكون السليك أحدهم سواء فى سرعة العدو أو فى مضاء العزيمة وشدة البطش أو فى الشجاعة والفروسية ، فالروايات تصفه بأنه أحد العدائين الأربعة فى العرب ، وأحد الغربان الثلاثة ، وأحد خمسة يصفهم الجاحظ بقوله : « فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأسا ، وبهم يضرب المثل (٢)، حتى فى الخيل المشهورة عند العرب كان يسهم فيها بفرسه المشهورة بالنحام » ٠

وقد شمل نشاطه فى الصعلكة أرجاء واسعة من الجزيرة حتى أنه كثيرا ما كان يغير فى أنحــاء اليمن مع أن موطنه فى تميم باليمامة ، ولكثرة غاراته اشتهر بأنه « سليك المقانب ، والمقانب جماعات الخيل ، وقد استطاع بهــذه المقومات التى اقترنت بشخصيته الفذة فى مجالها أن يوفع من خسيسته التى ورثها من سواد أمه ورقها ، فبدل ان كان موضعه المرتقب بين العبيد ، أصبح فى موضع الهيبة والتقدير والاعجاب اللائى لم يحظ بهن فى جيله سوى النفر المعدود ، وكان من أبرز مواهبه قوة شاعريته التى جعلته من الشعراء البارزين المجيدين فى عدة مجالات ، والذين يتردد شعرهم فى سائر أنحــاء شــبه الجزيرة (٣) ٠

---

(١) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام جـ١/١٩ ٠

(٢) رسائل الجاحظ ١/١٩٢ ٠

(٣) أنظر ترجمته وتفاصيل أخباره وأشعاره فى مجمع الأمثال ٢/٩ ، والعقد الفريد ٧١ ، ٢٥٠ وأمالى القالى ٢/١٨٦ ، وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١/٣٧٨ وخزانة البغدادى ١/٨٩ والكامل للمبرد ١/٢١٠ وشرح المفضــليات لابن الانبارى ٧٠٤ ، ٧٠٥ والكامل للمبرد ٢/٥٧ ودائرة معارف البستانى مادة (سلك) ومجمع الأمثال ١/٣٠ ، ٢/١١ ، ٤٧ ومعاهد التنصيص ٤/٣٠ ويتيمة الدهر للثعالبى ٤/١٢٣ والحيوان للجاحظ ١/١٨ ورســائل الجاحظ ١/١٩٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٢٤ ومعجم ما استعجم للبكرى فى مواضع كثيرة منها ٣/١٠٨٠ ، ٤/١١٧٠ ، ١٣٣٩ والقاموس المحيط مادة (نحم) ومادة (غرب) ٠

٤ ـ عروة بن الورد العبسى :

أمتاز عروة بأنه أضفى على الصعلكة كثيرا من الاحترام والتقدير سواء أكان فى عصره الجاهلى أم فيما وليه من بعض عصور الاسلام ، وذلك بما تحلى بـه عروة من خلق فريد فى السخاء والعطف الشديد على الفقراء ، واعتبار نفسه مسئولا عن تفريج كرباتهم وضوائق العيش عنهم ، ثم فى تواضعه الشديد معهم ، وتطبيق أكرم صور الاشتراكية معهم سواء فى بذله ما عنده لهم ، أو فى مقاسمتهم اياه غنائمه فى عزواته وغاراته من أجلهم فى قصص وأخبار كثيرة أفاضت فيها الرواة وكتب القدامى ، ولذلك لقب « عروة الصعاليك » ويريدون بالصعاليك فى هذا اللقب الفقراء ويعللون دائما سبب هذا اللقب بأن عروة كان يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم ، ثم يسوقون أخباره فى ذلك • ولذلك يقول عنه عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد ، ويقول أيضا : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدنى ولدنى الا عروة ابن الورد لقوله :

وانى امـرؤ عافى انائى شركة   وانت امـرؤ عافى اناءك واحـــد

ولذلك يقول معاوية بن أبى سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ومن أخباره أيضا أن ابنا للحصين بن الحمام أتى باب معاوية ابن أبى سفيان ، فقال لحاجبه استأذن لى على أمير المؤمنين ، وقل : ابن مانع الضـــيم ، فاستأذن له فقال له معـاوية : ويحك ، لا يكون هـذا الا ابن عروة ابن الورد العبسى أو الحصين بن الحمام المرى ، أدخله •

وقد اقتضت منه هذه السماحة فى خلقه ، وهـــذا التزاحم من الفقراء والصعاليك على بابه أن يكثر من غاراته وأن يبعد فى أرجاء الأرض طلبا للغنائم والأسلاب •

وهو الوحيد من بين شعراء الصعاليك الذى وصلنا ديوان مطبوع له (١) جمعه ابن السكيت وكان من الشعراء المكثرين ، ويمكن أن يعد أكثر شـــعراء الصعاليك تناولا لأغراض مختلفة وقد عده أبو عبيدة فى الطبقة الثالثـــة من الشعراء وعده صاحب جمهرة أشعار العرب من الشعراء ذوى القصائد المنتقيات وهو من الشعراء القليلين الذين كان لشعرهم تأثير فى الحياة الاجتماعية ، ولذلك يقول الحطيئة لعمر بن الخطاب حينما ساله عن قومه : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف حازم ، قال : وكيف ؟ ، قال : كان منا قيس بن زهير وكان حازما لا نعصيه ، وكنا نأتم بشعر عروة بن الورد ، ونقدم بأقدام عنترة • وكان عبد الله ابن جعفر يوصى معلم ولده ألا يعلمهم قول عروة :

---

(١) للشنفرى ديوان مخطوط بدار الكتب المصرية وينقل بعض الباحثين أنه مطبوع أنظر الشعراء الصعاليك د• يوسف خليف •

ذرينى للغنى اسـعى   فانى رأيت الناس شرهم الفقـير

ويقول : ان ذلك يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم (١) ·

٥ - قيس بن منقذ السلولى الخزاعى :

وهو المشهور بابن الحدادية ، وهى أمه ، وكان ذا بأس شديد ، وكان من الفتاك ومن شجعان الصعاليك ، وقد كثرت غاراته ، وثقلت جناياته على قومه فخلعوه ، وأشهدوا على خلعه بسوق عكاظ عـلى ألا يحتملوا جريرة له ، ولا يطالبون أحدا بجريرة يجرها عـلى قيس ، ولكن ذلك لم يفت فى عزمه ، ولم يصرفه عن غاراته وجناياته ، بل ازداد ضراوة وشراسة ، وجعـل قومه هدفا من أهداف غاراته ، وأصبح مأوى للصعاليك والشذاذ والخلعاء ، يغير بهم ويعتمد على بأسهم ، وكانت له مواقف يمثل فيها خلق السيد الكريم ، لا الصعلوك الخليع ، كقصة الغنائم التى استاقها فى غارته على بنى قمير من قومه خزاعة ، حينما ناشده ابن محرق أن يرد ما استاقه من غنائم ، فقـال له قيس : أما ما كان لى ولقومى فقد أبرزت قسمك فيه ، وأما مااعتورته أيدى هـذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه ·

وله شعر كثير ، يبرز فيه جانب الغزل وجانب الفخر بقومه قبل أن يخلعوه ، بالاضافة الى شعره فى محيط الصعلكة (٢) ·

٦ - مالك بن حريم الهمدانى (٣) :

مع ان الرويات تصفه بأنه من لصوص همدان ، الا أن أخباره تنبىء عن أن أسلوبه فى الصعلكة كان يعتمد على الغارات أكثر من التلصص ، ومع ذلك

---

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٩ - ١٦٠ ، وشرح ابن السكيت لديوان عروة ، وديوانه ، وأمالى القالى ٢/٢٣١ ، ٣/١٨ ، ٥٩ ، ٢/٢٠٠ ، والتنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ١١٢ وشرح الاصمعيات لابن الانبارى ص ٣٥ والاصمعيات ٣٥ - ٣٨ وحماسة أبى تمام ١/١٥٩ ، ١٧٧ ، ٢/٣٠ ، ٢٥٨ ، ٣٠١ وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١/١٥٩ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١/١٠٩ والكامل للمبرد ١/٧٨ ، ٢٦٢ والقاموس المحيط مادة (صعلك) ومعاهد التنصيص ٣/١٢١ والكامل ١/٣٦ وجمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٣٤ والعمدة لابن رشيق ٢/٣٥ والحيـوان للجاحظ ٢/٢٧٣ ، ٤/٣٥٦ ، ٦/٣٠٩ والبيان والتبيين للجاحظ ١/٢٣٤ والأغانى للأصفهانى ١٤/٢ ، ١٣/٦٦ ، ٣/٣٧ - ٣٨ ، ٧٣ - ٨٨ ومعجم البكرى ٣/٧٣٧ ، ٨٩٢ ، ٩٩٩ ومواضع أخرى ·

(٢) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى الأغانى للأصفهانى ١٤/١٤٤ - ١٦١ ·

(٣) اختلف فى ضبط حريم والأرجح أنه بفتح الحاء المهملة وكسر الراء ، وروى خريم بالخاء وحزيم بالزاى وسماه البحترى فى حماسته خطأ مليك بن حريم ·

فان شعره ينبىء عن شخصية قوية كريمة تلتزم منهج الخلق الحميد فيما تقتضيه الصلات الاجتماعية ، حيث نجد شعره يركز على الحديث عن الخلق والعفة والدعوة اليهما ، ويعده النقاد من فحول الشعراء ، وهو من القليلين الذين رويت لهم قصائد طويلة من شعراء الصعاليك وقد روى له الأصمعي فى أصمعياته احداها وتبلغ أربعين بيتا ، وكانت بينه وبين عمرو بن معد يكرب منافرات شعرية (١) ٠

٧ ـ صخر الغي الهذلي :

هو صخر بن عبد الله الخيثمى من هذيل ، كان مع اخوته صخير والأعلم وأبى عمر يكونون عصابة عتية عنيدة ، دائبة النشاط والغزو ، وقد ساقت لهم الأخبار قصصا طريفة فى حسن التخلص والتمويه على الأعداء ، وكانوا من العدائين ٠

ويعلل الأصفهانى سبب تلقيب صخر بالغى بقوله « ولقب بالغى لخلاعته وشدة بأسه ، وكثرة شره » ، وبلغ من شدة بأسه واعتزازه بشجاعته انه حينما أحاط به أعداؤه من بنى المصطلق أبى أن يسلم نفسه اليهم ، أو أن يحاول النجاة منهم ، بل ظل يقاتلهم ، ويرتجز بشعر مؤثر ، حتى قتل ٠

وكان شاعرا قويا عميقا ، أبرز شعره شعر الصراع مع أعدائه ، ومنافراته مع عدوه أبى المثلم ، وشعر الطبيعة الذى يعكس حياته فى الصعلكة ٠

ولئن كانوا يقولون فى أمثالهم « الفضل ما شهدت به الأعداء » فان فى شهادة أبى المثلم لعدوه صخر ما ينبىء عن خلق صخر وشخصيته ومركزه فى المجتمع ، فحينما قتل صخر رثاه أبو المثلم بقوله :

لو كان للدهر مال عند متلده ... لكان للدهر صخر مال قنيان
أبى الهضيمة ناب بالعظيمة ... متلاف الكريمة لا سقط ولا وان
حامى الحقيقة نسال الوديقة معتاق ... الوسيقة جلد غير ثنيان (٢)
رباء مرقبة مناع مغلبة ... ركاب سلهبة قطاع أقران (٣)

---

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الأغاني للأصفهانى ٢٥/١٤ وأمالى القالى ١٢٠/٢ ، وحماسة ابى تمام ٣/٢ والحيوان للجاحظ ٢١٠/٢ وشرح الاصمعيات عن ابن الانبارى ص ٥٦ ـ ٦٣ وشرح التبريزى للحماسة ٣١/٢ ، ٣٢ ، والأصمعيات ٥٦ ـ ٦٢ والعمدة لابن رشيق ٢٠/١ ٠

(٢) الحقيقة : الراية والحرمات والوديقة الحر الشديد أى يسرع المسير فى الحر الشديد والوسيقة الابل ٠

(٣) الرباء المشرف من مرتفع والمرقبة المنظره فى رأس الجبل والسلهبة الفرس الذكر العظيم ٠ والأبيات فى العمدة لابن رشيق ٢٦/٢ والبيان والتبيين للجاحظ (هامش) ٣٢٦/٣ ٠

هباط أودية حمـــال ألوية شهاد أندية سرحان فتيـــان
يعطيك ما لا تكاد النفس تســـلمه من التلاد وهوب غير منان

وزاد الاصفهانى عليها البيتين التاليين :

يحمى الصحاب اذا جد الضراب ويكفى القائلين اذا ما كبل العـــانى
ويترك القرن مصفرا أنامله كأن فى ريطتيه نضخ ارقـــان (١)

وفى هذه الأبيات من أوصاف القوة والشجاعة ، والخلق والمروءة والسماحة ما يكفى لرفع صخر الى صفوة البارزين فى مجتمعه (٢) ٠

٨ - عمرو بن براقة الهمدانى :

غلبت عليه نسبته الى أمه براقة ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمدانى وكان رفيقا للشنفرى وتأبط شرا فى الصعلكة وعمرو يعتبر من الأشخاص القليلين الذين يعتبرون نموذجا لشخصية الصـــعلوك القوى العنيـــد ، الذى لا يصده عن عزمه شىء ، ولا تقف فى طريق أهدافه عقبة ، وقصته مع حريم الهمدانى مثال لذلك ، حيث أغار حريم فسطا على ابل لعمرو ، وكان حريم مخوفا رهيبا ، فصمم عمرو على أن يغير عليه وقد حذره بعض الناس بقولهم « لا تعرض لتلفات حريم » ولكنه أنفذ عزمه ، وأغار على حريم فاستاق كل شىء يملكه حريم ، وقد أخذته نشوة النصر ، فأنشأ قصيدة رائعة ، بل كل بيت فيها رائع ، ومنها هذه الحكمة التى كان العرب يعتبرون مضمونها شعارا لهم وهدفا ، والتى لم تزدها العصور حتى اليوم الا اجلالا لها وايمانا بها وهى :

متى تجمع القلب الذكى وصـــارما وأنفا حميا تجتنبك المظـــالم (٣)

ومنها هذا البيت الذى يعتبر الصعاليك مضمونه شعارا وهدفا لهم ، وهو :

ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعش ذا غنى أو تخترمه المخـارم (٤)

---

(١) الارقان اليرقان يعنى الصفرة والبيتان والأبيات السابقة فى الأغانى ٢٠/٢٠ مع اختلاف يسير فى الألفاظ ٠

(٢) أنظر ترجمة صخر وأخباره وشعره فى الأغانى ٢٠/٢٠ ، ومهذب الأغانى ٢/١٨٥ وخزانة البغدادى ٤٢/١ وأمالى القالى ٢٠٤/١ ، ٢١٠ وزهر الآداب للحصرى ٢٢٩/١ ترجيحا وديوان الهذليين ٥١/٢ والبيان ٢٧٥/٢ والعمدة ٢/٢٦ ونهاية الأرب للنويرى ٢٠٥/٦

(٣) أخطأ عبد السلام هارون وأحمد شاكر محققا الاصمعيات فى نسبة هذا البيت الى مالك ابن حريم فى شرح الاصمعيات ٥٦ حيث قالا « ومالك هذا هو صاحب البيت السائر الحكيم : متى تجمع القلب ٠٠ الخ) والبيت من قصيدة ١٩ بيتا ذكرها القالى فى الأمالى ٢/١١٩ والأصفهانى أنظر الأغانى (بالفهرس) ومهذب الأغانى ٩٢/١ وفى العقد الفريد ١/٣٤ هذا البيت وبيتان معه ومعجم البكرى ٣٩٣/٢ وكل المصادر تنسبها لعمرو بن براقة ٠

(٤) القنا جمع قناة والمخارم سبل الموت ٠

وقد تمثل الحجاج ببعض القصيدة فى خطبته التى توعد فيها أهل العراق(١) وكان ابن براقة من العدائين المشهورين بأنهم لا تلحقهم الخيل ، وفيما تسوقه الأخبار من قصص عدوه مع الشنفرى وتابط شرا ، وفى صراع هذا العدو مع الأعداء والمغار عليهم كثير من العجب والطرافة (٢) ، وقد عده صاحب العقد الفريد من فرسان العرب المعدودين فى الجاهلية (٣) .

٩ ـ الأعلم الهذلى :

اسمه حبيب بن عبد الله من هذيل ، وهو أخو صخر الغى ، ولئن كان صخر أقوى منه فى الشاعرية ، فان الأعلم كان أقوى من صخر فى الصعلكة ويبدو من أخباره انه كان يتزعم العصابة التى كانت تعتمد من حيث أفرادها على صخر وصخير وأبى عمرو ، وكان الأعلم من العدائين البارزين ، ويبدو اعتزازه بهذه الميزة فى شعره ، كما ان حياة الصعلكة وما تقتضيه من ارتياد القفار جعلت منه وصافا مجيدا لحيوانات الصحراء ووحوشها ، ويمتاز شعره بصفة عامة بالجودة البارزة فى تصوير البيئة ومشاهدها .

١٠ ـ عمرو بن عجلان :

اسمه عمرو بن عجلان بن عامر جار هذيل ، واشتهر بعمرو ذى الكلب لأنه كان يصطحب دائما كلبا له ، كما يقول ابن الاعرابى ، أو لأنه اصطحب كلبا للصيد فنودى ياذا الكلب فغلب عليه واقترن به ، كما يقول أبو عبيدة ، وكان كثير الغزو والغارة وخاصة على بنى فهم ، وشعره القليل الذى بلغنا ينبىء عن سيطرة حب الغزو والتنقل عليه ، ويروون فى سبب موته انه نام ذات ليلة فى غزوة لبنى فهم ، فوثب عليه نمران فافترساه ، فادعت فهم قتله ، وأخته جنوب تصفه لنا فى رثائها اياه فى شعر كثير (٤) ، منه قولها :

---

(١) البيان والتبيين ١٣٨/٢ وتمثل بالبيت الأول (متى تجمع القلب .. وبيت آخر هو : اذا قوم غزونى غزوتهم .. فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم ؟ وفى الامال ١١٨/٢ حريم المرادى وليس الهمدانى .

(٢) أنظر مجمع الأمثال ٤٦/٢ والمصادر السابقة ، وسماه صاحب مجمع الأمثال ابن براق وهو غير دقيق لأن براقة أم عمرو .

(٣) أنظر العقد الفريد ٣٤/١ (باب فرسان العرب فى الجاهلية والاسلام) .

(٤) أنظر ترجمته وشعره واخباره فى شرح السكرى لديوان الهذليين ٧٧/٢ وديوان الهذليين ٧٧/٢ ـ ٨٨ ومهذب الأغانى ١٨٥/٢ والحيوان للجاحظ ٣٢٦/٤ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٧٥/١

فاقسم يا عمرو لو نبهـــاك اذا نبها منك داء عضـــالا
اذا نبها ليث عريســـــه مفيتا مفيـدا نفوسا ومالا
وخرق تجاوزت مجهـــوله بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار بـه شـــمسه وكنت دجى الليل فيه الهـــلالا (١)

وفى شعر آخر لها تقول منه :

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها منعنجر من نجيع الجوف أسكوب
والتارك القرن مصفرا أنامله كانه من دجيع الجوف مخضوب (٢)

وصاحب الأمالى يسوق ما يفهم منه ان عمرو بن عجلان كان من صرعى الغرام ، وانه ضرب به المثل فى كونه قتيل الحب (٣) ، وما ذكره السكرى فى سبب موته من أن بنى فهم أرصدوا له على ماء حتى قتــلوه (٤) انسب من الروايات الأخرى ، ويؤيده شعر أخته فى ديوان الهذليين ، ولعل الذى أدخل اللبس قول أخته قبل الأبيات السابقة الأولى « أتيح له نمرا أجبل » (٥) ويمكن حمله على تشبيه القاتلين بالنمرين ٠

١١ ـ حاجز بن عوف الازدى :

من العدائين الذين اشتهروا بأنهم يسبقون الخيل ، ومن الصعاليك الذين سلكوا أسلوب الغارات فالأخبار تصفه بأنه كان من المغيرين على قبائل العرب وشعره يظهر فيه الاعتداد بسرعة العدو على رجليه ، ومع ذلك كان من أصحاب الخيــل التى نالت شهرة فى العرب فقد كانت له فرس اسمها ذئبــة ، وكان حليفا لبنى مخزوم ، وله شعر يعتز فيه بحلفهم، وكان موته مجهول الموضــع والسبب حيث خرج فى بعض غزواته فلم يعد ، ولم يظهر له أثر ، ولأخته شعر فى رثائه ، ويصفه صاحب الأغانى بأنه « شاعر جاهلى مقل ليس من مشهورى الشعراء » ويصفه أيضا بقوله « وكان حاجز مع غاراته كثير الفرار » وقـــد وصفته عمته فى رثائها اياه بقولها « كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف ، ولا ينــام ليلة يخاف » (٦) ٠

---

(١) العمدة لابن رشيق ٣١/٢ والعريسة الشجر الملتف والخرق المكان الواسع ذو الرياح والوجناء الناقة والحرف المهزولة ٠

(٢) الأغانى ٢٢/٢٠ ــ ٢٣ من قصيدة ٠

(٣) الامالى ٢١٦/٢ فى شعر قيس بن ذريح ، وانظر ترجمته وأخباره وشعره ورثاء أخته فى العمدة لابن رشيق ٣١/٢ والأغانى ٢٢/٢٠ ــ ٢٣ ومهذب الأغانى ١٨٨/٢ والحيوان للجاحظ ١٨٥/٢ ومعجم البكرى ٩٩٥/٣ ، ١٢١٦/٤ وديوان الهذليين ١١٣/٣ ــ ١٢٦ ٠

(٤) ديوان الهذليين ١٢٠/٣ ٠

(٥) ديوان الهذليين ١٢١/٣ ٠

(٦) أنظر ترجمته واخباره وشعره ورثاء أخته وعمته فى الأغانى للأصفهانى ٤٧/١٢ ــ ٥٠ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٩٩/١ والقاموس المحيط (مادة ذأب) ومهذب الأغانى ٩٣/١ ٠

١٢ ـ جحدر بن ضبيعة بن قيس :

اسمه ربيعة ولقب جحدرا لقصره ، وهو من فرسان بكر الذين ابلوا فى حرب البسوس ضد تغلب ، واشتهر جحدر بيوم التحاليق ، حينما اتفقت بكر كلها على حلق رءوسها فى هذا اليوم لتكون علامة يتميزون بها ، ويعرف بها بعضهم بعضا ، ولم ينفرد منهم الا جحدر ، فقد كان دميم الوجه والجسم ، وأشفق أن تكتمل دمامته حينما يحلق رأسه ، فناشدهم أن يبقوا على لمته لاول فارس يطلع من الثنية حينما يبدأ القتال (١) ، وقال لهم فى ذلك شعرا يعاهدهم فيه على أن يجزوا لمته ان نجا منه أول فارس يلقاه من تغلب (٢) وكانت له مواقف شجاعة بارزة فى أيام أخرى من أيام حرب البسوس . فمن ذلك ما ورد من أن أحد خلفاء بنى أمية أرسل ابنه الى قتادة يسأله سؤال الممتحن ، من قتل عمرا وعامرا التغلبيين يوم قضة ؟ قال قتادة : قتلهما جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، فشخص بها السائل ثم عاد الى قتادة ، فقال : أجل قتلهما جحدر ، ولكن قتلهما جميعا ؟ قال قتادة : اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزج فعادى بينهما (٣) ، ويصفه التبريزى بأنه من الفرسان المعدودين (٤) ولكن جحدرا مع فروسيته كان فيما يبدو من أخباره ضعيف الهمة فى الصعلكة ، وكان يعتمد على أسلوب التلصص وليس الغارة ، وكانت له حيل طريفة فى التلصص فمن ذلك ما رواه الجاحظ « كان جحدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة (٥) فجعل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الابل ، فاذا وجدت الابل مسها نهضت وشد الشنة فى ذنب بعض الابل ، فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ، ثم كان يشب فى ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان ، قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا » (٦) .

المخضرمـــون

١ ـ عبـدة بن الطبيب :

والطبيب اسمه يزيد بن عمرو من بنى تميم ، وعاش عبدة فى الاسلام زمنا ليس بالقصير ، وساهم فى بعض الوقائع والحروب ، وله قصيدة طويلة

---

(١) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٩٥/١ .
(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام ١٩٥/١ .
(٣) مصادر الشعر الجاهلى نقلا عن مصادر أخرى .
(٤) شرح الحماسة ١٩٥/١ .
(٥) الشنة القربة من الجلد الجاف المقدد .
(٦) الحيوان للجاحظ ٤٣٣/٥ .

قالها على أثر موقعة القادسية ، وكان أسود اللون وتصفه الروايات بأنه من لصوص الرباب .

وشعره من أجود ماجادت به القرائح العربية ، وقد احتل شعره مكانا مرموقا ونال شهرة واسعة ، ونكاد لا نجد مؤلفا من القدامى الا ويشيع فى أحاديثه الاستشهاد بشعر عبدة ، وهو صاحب البيت المشهور فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى :

وما كان قيس هلكه هلك واحـــد   ولكنه بنيـان قــوم تهدما

والذى يرى أبو عمرو بن العلاء والأصمعى أنه أرثى بيت قالته العـرب ، والذى يقول عنه ابن الأعرابى هو قائم بنفسه ، ماله نظير فى الجاهليـــة ولا الاسلام ، وأنشدوا أمام عمر بن الخطاب قصيدته التى أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصـول   أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١)

فلما بلغـوا قوله :

والمـرء ساع لأمر ليس يدركـه   والعيش شــح واشفاق وتاميــل

قال عمر مرددا « والعيش شح واشفاق وتأميل » ثم كان يردد هذا الشطر متعجبا من حسن تقسيمه وتفصيله وما يتضمنه من حكمة ، ومع أنهم يصفونه بأنه من الشعراء المجيدين المقلين ، الا أننا حين نتتبع بعض المصادر نجدهـــا تسوق شعرا كثيرا له ، يدل على أنه مبتور من قصائد كثيرة لم تصل الينا (٢) . وقد أجاد عبدة فى كل ما تعرض له من أغراض ، وعبد الملك بن مروان يرى أن أجود ما وصفت به مناديل الخيل أوصاف عبدة بن الطبيب لها ، (٣) وقد عدد عبدة لبنيه حصيلة ما جمعه من حياته الطويلة فى أربع مآثر ، فمما قاله فى قصيدة جامعة فى الحكم :

أبنى انى قـــد كبـرت ورابنى   بصرى وفى لمصلــح مستمتــع
فلئن هلكت لقـــد بنيت مساعيا   تبقى لكـــم منها مآثر أربـــع
ذكر اذا ذكر الكـــرام يزينكم   ووراثـــة الحسب المقـدم تنفـع

---

(١) (القصيدة بالمفضليات ص ١٣٥ وتبلغ ٨١ بيتا وهى التى قالها بعد القادسية .

(٢) من هذه المصادر معجم ما اســـتعجم للبكرى أنظر ٢/٤٠٢ ، ٢/٦٥٥ ، ٣/١٠٨٢ ، ٤/٣٧١ ومواضع أخرى والحيوان للجاحظ .

(٣) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى المفضليات ١٣٤ ــ ١٤٩ وشرح المفضليات ١٣٤ نقلا عن الطبرى ٤/٤٣ ، ١١٥ ، وأمالى القالى ١/٤٦ ، ٢٧٠ ، ٣/١٣٨ وحماسة أبى تمام ١/٢٢٨ ، ومعاهد التنصـيص للعباسى ١/١٠٢ وشرح التبريزى للحماســة ١/٣٢٨ والحيوان للجاحظ ١/٤٠ ، ٤/٢٥٤ ، ٣/٤٦ ، ٤/١٦٦ ، ٥/٥١٣ ، ٦/٦٧ ، ٧٢ ، ٤٦٢ والبيان والتبيين ١/١٢٢ ، ٢٤٠ ، ٢/٢٥٣ ومجالس ثعلب ١/٢٤٣ .

ومقام أيــام لهـــن فضيلة عنـد الحفيظة والمجامع تجمع
ولهى من الكسب الذى يغنيكم يومـا اذا احتضر النفوس المطمع
ونصيحـة فى الصـدر صادرة لكم ما دمت أبصر فى الرجال وأسمع(١)

٢ ـ أبو خراش الهذلى :

اسمه خويلد بن مرة من بنى هذيل ، وكان أحد عشرة أخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل وكان أبو خراش أبرزهم موضعا وأشهرهم ذكرا ، وهو أحد فرسان العرب وفتاكهم ، أسلم وهو شيخ كبير ، ولم تثبت له صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من شهرته بسرعة العدو ، وثقته بنفسه فيهـــا أنه دخل مكة يوما فرأى الوليد بن المغيرة يهيىء فرسين له للسباق ، فقال له أبو خـراش : ما تجعـل لى أن أنا سبقتهما ، قال : ان سبقتهما فهما لك ، وسابقهما فسبقهما ، وأخذ الفرسين ، والروايات تسوق أخبارا كثيرة عن مطاردة أعدائه اياه وعدم استطاعتهم اللحاق به ، ويبدو من أخباره أنه كان كريما سمحا الى حد بعيد ، وأن هذه السماحة كانت طبعا غالبا عليه ، حتى أنها كانت سببا فى هلاكه ، كما ورد فى قصة ضيوفه اليمانيين ، الـذين نزلوا عليه ، فهيأ شاة يذبحها لهم ، ولم يكن لديه ماء ، فسألهم أن يحضروا ماء من مكان قريب ، فأبوا الا أن يحضره هو ، فخرج بقربته تحت الظـلام ليحضر الماء ، وفى عودته لدغته حية ، فتحامل على نفسه وأسرع الى ضيوفه فأعطاهم الماء ، وظل متحاملا على نفسه فلم يخبرهم حتى لا يفسد عليهم اقامتهم عنده ، وأصبح ضيوفه فاذا أبو خراش فى الموت ، فأقاموا حتى دفنوه وحين بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، قال : والله لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف يمانى بعدهـا ٠

ثم كتب الى عامله باليمن أن يأخذ النفر الذين نزلوا به فيغرمهم ديته ٠

وكان أبو خراش من الشعراء المجيدين ، والذين بلغنا من شعرهم قدر كبير ، وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم ببعض شعره ، فقد كان أبوخراش يقول وهو يسعى بين الصفا والمروة ٠

لا هـم هـذا خامس ان تما اتمـه اللـــه وقـد اتما
أن تغفر اللهم تغفر جما ٠٠ الخ (٢)

---

(١) القصيدة فى المفضليات للضبى ص ١٤٥ وهى ثلاثون بيتا ، وانظر شعره فى الصعلكة فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧١ م الخانجى ٠

(٢) يقول البغدادى فى الخزانة أن البيت الأول لأمية بن أبى الصلت أخذه أبو خراش وضم اليه آخر وتمثل بهما النبى ٠

وقد تمثل به النبى وصار من الأحاديث النبوية التى تتداولهـــا كتب الحـديث ٠

وقد أجاد أبو خراش فى وصف الصحراء وحيوانها ، وفى حديثه عن سرعة العدو ، وفى رثائه لأخوية مرة وعروة (١) ، ومات مسلما فى خلافـة عمر بن الخطاب ، وفى شيخوخته ، غزا ابنه خراش فى جيش عمر بن الخطاب فتوسل أبو خراش الى عمر بقصيدة ، فأصدر عمر قرارا بألا يغزو وحيـــد أبويه الا بعد اذنهما ٠

٣ ـ فضالة بن شريك الأسدى :

يصفه صاحب الأغانى بقوله « كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرما أدرك الجاهلية والاسلام » وفضالة من القلة بين شعراء الصعاليك الذين احتـــكو بالمجتمعات وخاصة الأمراء ، فاضطرهم هذا الى أن يخوضوا فى المدح والذم ، ولكن فضالة مع جرأته فى الهجاء حتى على الأمراء ووجوه الناس كان عفيف الهجاء غير مقذع فيه ، ولكنه مع ذلك كان يبلغ من مذمومه مبلغـــا أليمـــا ، ومن ذلك قصته مع عاصم بن عمر بن الخطاب حينما أبى عاصم أن يقريه فكان مما قاله فضالة فى هجائـه :

الا أيهـا الباغى القـرى لست واجدا ... قـــراك اذا ما بت فى دار عاصم
اذا جئتـــه تبغى القـرى بات نائما ... بطينـا وامسى ضيفه غير نائـم

ففزع عاصم من هجائه واستغاث بأمير المدينة ، فهرب فضالة الى الشـــام مستعيذا بيزيد بن معاوية مادحا اياه ، وفضالة أو ابنه عبد الله ـ على اختلاف الروايات ـ صاحب القصة المشهورة مع عبد الله بن الزبير ، حينما وفد فضالة ـ أو ابنه ـ على عبد الله بن الزبير ملتمسا العطاء بقوله : ان ناقتى قـــد تعبت ودبرت ، فقال ابن الزبير : أرقعها بجلد ، وأخصفها بهلب ، وسر بها البردين ، فقال : انى جئتك مستحملا لا مستشيرا ، فلعن الله ناقة حملتنى اليك ، قال له ابن الزبير : ان وراكبها (٢) ٠

---

(١) انظر ترجمته وأخباره وشـــعره فى خزانة الأدب البغدادى ١/٢٩٧ ، والعقد الفريد ١/٥٣ ، ٢٦١ وحماسة أبى تمام ١/٣٢٦ وأمالى القالى ١/٢٦٧ وشرح حماسة أبى تمام عن التبريزى ١/٣٢٦ والكامل للمبرد ١/٢٦٧ ، ٣٤٧ ، ٢/٤٦ والحيوان للجاحظ ٤/٢٦٧ والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٥٤ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٢٥٥ ، ٣/٧٤١ ومواضع أخرى ٠ وديوان الهذليين ٢/١١٦ ـ ١٧٢ وشرح ديوان الهذليين للسكرى ٢/١١٦ وما بعدها والأغانى للأصفهانى ٢١/٦٣ وما بعدها ٠ وخراش ابنه وهامش الحيوان ٤/٣٥١ ٠

(٢) اى نعم وراكبها دعاء على الناقة وصاحبها ٠

ومن ذلك أيضا قصة هجائه لابن مطيع أمير الكوفة ، حيث بلغ من عفة هجاء فضالة اياه ، أنه لم يهج من ابن مطيع الا كفه ، ومع ذلك بلغ منه ما لا يبلغه هجاء آخر حيث قال عن بيعة ابن مطيع :

دعا ابن مطيع للبياع فجئته — الى بيعة قلبى بها غير عارف
فقرب لى شسناء لما لمستها — بكفى لم تشبه أكف الخلائف
معودة حمل الهراوى لقومها — فرورا اذا ما كان يوم التسايف
من الشسنات الكزم أنكرت لمسها — وليست من البيض السباط للطائف

ومات فضاله قبل خلافة عبد الملك بن مروان (١) .

٤ - أبو الطمحان القينى :

هو حنظلة بن الشرقى القينى القضاعى ، يصفه الأصفهانى بقوله : « شاعر فارس خارب صعلوك من المخضرمين أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيهما » ، وقد روت له الأخبار قصصا كثيرة فى صعلكته ، وركوبه المخاطر ، وتنقله فى أنحاء كثيرة من الجزيرة ، ومن ذلك قصته مع قيسبة بن كلثوم أحد ملوك اليمن ، وكان قد أسره بنو عامر أثناء قصده الى الحج بمكة ، فمر به أبو الطمحان وهو فى القيد ، فاتفق قيسبة مع أبى الطمحان على أن يكتب قيسبة رسالة شعرية على رحل أبى الطمحان ، وعلى أبى الطمحان أن يشخص بها الى اليمن حتى يبلغها الى قومه مقابل مائة ناقة ، وقد أنفذ أبو الطمحان الاتفاق .

ولكننا من خلال أخبار أبى الطمحان نلاحظ عليه ملاحظتين شذبهما عن أخص ما يميز الصعاليك ، احداهما اسفافه وتنزله الى أعمال ينفر منها خلق الصعاليك ، فالصعاليك على أن حياتهم كانت تعتمد على السلب والنهب والتلصص الا أنهم كانوا يتعففون دائما عما ينافى المروءة والخلق الكريم ، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك ، ومن هذا قصته مع المرأة التى آوته وأكرمته ، فسطا على شرفها ومالها ثم هرب ، وأكثر من ذلك أنه كان يفخر بهذه القصة وهى المعروفة بقصة الدير ، والأخرى أن شعره على كثرته وان لم يخل من جودة يخلو دائما من روح العزة والاباء ، والاعتداد بالذات ، وهى الروح التى تعتبر أهم ما يميز شعر الصعاليك وأحاديثهم عن أنفسهم (٢) .

---

(١) أنظر مهذب أغانى الأصفهانى للخضرى ٢/٢١٠ والبيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٧٩ ، ١٥/٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الأغانى للأصفهانى ١٣/٢ - ١٤ وأمالى القالى ١٠٩/١ ، ٣٢٥/٢ وحماسة أبى تمام ٨٣/٢ ، ٢٧٠ ، ٤١٢ والكامل للمبرد ٣٠/١ والحيوان للجاحظ ١٠٥/٣ ، ١١٣ والبيان والتبيين للجاحظ ١٨٧/١ ، ٢٣٥/٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤٨/١ ومصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ٢٣١ .

الاسلاميون

١ ـ مالك بن الريب :

من بنى مازن بطن من تميم ، عاش فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وكان يقطع الطريق مع رفقة اشتهر منهم شظاظ الضبى الذى ضرب به المثل فقالوا « ألص من شظاظ » وأبو حردبة المازنى الذى قال أحد الراجزين فى الخوف منه :

الله نجاك من القصيم ....
ومن أبى حردبة الأثيم ومالك وسيفه المسموم (١)

ويعتبر مالك بن الريب أشهر الشعراء الصعاليك فى الاسلام لعدة أسباب ، منها شدة بطشه فى قطع الطريق كما يقول الراجز السابق ، وكما ورد فى أخباره الكثيرة ، ومنها ما يدل على أنه كان يتحدى حتى منافسيه فى قطع الطريق ، ومن شهرة قوته أنه قتل أفلح الذى ظل يقطع الطريق على القوافل وحده بخراسان عشرين سنة ، ومن تلك الأسباب أنه يعتبر من الشعراء البارزين فى اجادتهم وكثرة ما جادوا به من شعر وشعره يعتبر فى رقته وتعبيره الصادق السمح عن النفس لونا جديدا الى حد ما فى الشعر العربى آنذاك ، وقد اكتسبت مرتيته التى رثى بها نفسه حين أحس الموت شهرة وذيوعا ، سواء من حيث اعجاب مجتمعه بها ، أم من حيث ولوع الرواة والمؤلفين بتناقلها وهى التى أولها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا(٢)

وقد عدها صاحب جمهرة أشعار العرب من عيون المراثى (٣) . وله شعر عده النقاد فى القمة التى حاول شعراء كثيرون أن يبلغوها أو يقلدوها فلم يوفقوا (٤) .

ومن تلك الأسباب ما عرف عنه من صفات تميز بها سواء فى خلقه أو خلقه ، فيصفونه بأنه كان من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، وبأنه كان من ذوى السماحة والمروءة ، حتى أنه حينما سأله سعيد بن عثمان والى خراسان عن سبب قطعه للطريق مع ما فيه من جمال وحسن بيان أجابه بأن

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ١٠٢٧/٣ .

(٢) خزانة البغدادى ٤٧/٢ ـ ٤٩ وأمالى القالى ١٣٥/٣ والشعر والشعراء ٣١٢/١ والأغانى ٤٨/١٣ .

(٣) أنظر خزانة البغدادى ٥٢/٢ والشعر والشعراء ٣١٢/١ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١٤٣ وساق القصيدة كاملة ..

السبب عجزه عن مكافأة الاخوان ، وبانه كان من الجرأة والتمرد بحيث توعـد بنى مروان ، وهجا الحجاج بن يوسف هجاء موجعاً بعد أن تمرد على الحجاج واستعصى عليه (١) .

٢ ـ بكر بن النطـاح :

عاش فى صدر العصر العباسى وعاصر الرشيد والمأمون ، يصفونه بأنه « كان شجاعا بطلا ، فارسا شاعرا » وبأنه « كان صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر » وشهرته بالشعر أكثر من شهرته بالصعلكة ، حيث أن الروايات لم تكثر من أخبار تصعلكه ، بينما ساقت له شعرا كثيرا فى عدة أغـــراض ، ويعدونه من الشعراء المجيدين كما يقول التبريزى « حسن الشعر جيد التصرف فيـه » ولكننا حين نعرض شعره على الطابع المميز لشعر الصعاليك نجده يفقد جانبا كبيرا من روح العزة والاباء والصلابة التى يمتاز بها شعرهم ، هذا عـلى الرغم من أن بكرا كان كثير الفخر بشجاعته فى شعره ، ولكن روح العزة التى نتحدث عنها فى شعر الصعاليك شىء غير مجرد الفخر ، بل قد تكون شيئا غير الفخر ، فقد يتحدث الصعلوك عن فقره أو جوعه أو تشرده أو اضطهاده أو أى معنى من المعانى التى تقترن عادة بالمهانة والضعة واستصغار النفس ، ولــكن الصعلوك يجعل من هذا الهوان عزة واباء ، كما يقول الشنفرى « وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى » وكما يقول مالك بن الريب « ففى الأرض عن دار المذلة هجرة » وكما يقول الشنفرى عن الجوع فى لاميته :

واستف ترب الأرض كى لا يـرى له   على مـــن الطـول امرؤ متطـــول

ويمكن تعليل فقدان بكر بن النطاح لهذه الروح فى كثير من شعره بأنـه يمكن تقسيم حياته الى قسمين ، قسم زاول فيه الصعلكة وتجاوب مع حياتها وأحداثها ومشاعرها ، وقسم أقلع فيه عن الصعلكة ، وهو الذى يصفونه فيه بأنه « أقصر » فيه عن التصعلك ، ثم ركن الى أبى دلف الأمير متمتعا بعطائـه ، مفيضا فى مدحه ومدح أخيه معقل ، ولذلك نجد شعر بكر بن النطاح لا يسير على نغمة واحدة من حيث الروح الصعلوكية ، ولكن الروايات لم تحدد لنا أى شعره قاله فى القسم الأول من حياته ، وأيه قاله فى القسم الثانى ، ولكننـا نرى أثر القسمين واضحا فى مثل ما بين البيتين الآتيين من فرق ، فبينما نجد فى شعره مثـل قوله :

---

(١) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى خزانة البغدادى ٤٧/٢ ـ ٥٢ والأغانى للاصفهانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى وأمالى القالى ١٥٨/١ ، ١٣٥/٣ والكامل للمبرد ٣٠١/١ وجمهرة القرشى ١٤٣ ـ ١٤٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ ورسائل الجاحظ ١٩٣/١ والبيان والتبيين للجاحظ ٣٧/٣ .

وصن يفتقر منا يعش بحسامه ... ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(١)

نجد في شعره مثل قوله مستجديا أبادلف :

له راحة لو ان معشار جودها ... على البر كان البر أندى من البحر (٢)

فبينما البيت الأول ينطق بأنه من صميم شعر الصعاليك وتعاليهم على السؤال في أى صورة من صوره ، مؤثرين الغصب والسلب عليه كما يقول الأحيمر السعدى :

وأنى لأستحى أن أسأل العبد اللئيم بعيره
وبعران ربى فى البلاد كثير (٣)

بينما البيت الأول كذلك ، نجد البيت الثانى بعيد كل البعد عن روح الصعاليك وطابع شعرهم ، ونلاحظ أن النوع الأول قليل فى شعر بكر ، بينما الثانى كثير متعدد الاغراض وخاصة فى المدح والغزل والوصف (٤) ٠

٣ ـ عبيد بن أيوب العنبرى

والعنبرى نسبة الى بنى العنبر من بنى سعد ، ويصفونه بأنه « من اللصوص » وله فى اتجاهه الشعرى طابع غريب من حيث الغرض ، فقد أولع بالحديث عن الخرافات ، وشاع فى شعره وصف مخلوقات وأوهام غريبة ، كالغيلان والسعالى والجن ، حتى أصبح هذا الاتجاه طابعا مميزا لشعره ، ويبدو أن هروبه من السلطان وتشرده وحيدا ، وخوفه الشديد فى متاهات الصحراء ، وقفارها ، قد خيل اليه هذه الأوهام ، وشعره نفسه يتحدث كثيرا عن هذه المخاوف التى زلزلت ثباته ، وصورت له كل شىء يراه أمامه أو يتخيله عدوا مخيفا ، وهو يصور مبلغ الخوف منه بمثل قوله :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة ... لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل أمن قلت هذى خديعة ... وان قيل خوف قلت حقا فشمر
وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى ... وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٥)

---

(١) مهذب الأغانى ٨/٨٤ ٠

(٢) المصدر السابق ٠

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ م الخانجى ٠

(٤) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى مهذب الأغانى ٨/٨٤ وأمالى القالى ١/٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ والعقد الفريد ١/٦٦ والتنبيه على أوهام البكرى ص ٧٧ ، وديوان الحماسة لأبى تمام ٣/٩٣ ـ ٩٥ ، ومعاهد التنصيص للعباسى ٣/٩٠ ، ٤/٦١ ، ٩٩ وشرح التبريزى للحماسة ٣/١٧ ٠

(٥) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ ٠

ونحس مبلغ سيطرة الفزع والخوف على نفسه فى هذه اللهفة التى يبديها فى طلبه للامن كما يقـــول :

اذقنى طعم الأمن اوســـل حقيقـة	على فان قامت ففصـــل بنانيـا
خلعت فؤادى فاستطير فاصـــبحت	ترامى بى البيـــد القفار تراميا (١)

ولكنه لم يجد هذا الأمن الذى تتعطش اليه نفسه ، فسيطر عليـه فزع رهيب جعله يفرق من كل شىء فى قرارة نفسه ، ثم يصور هذا الرعب والفرق فى صورة بطولة وشجاعة يمتاز بها عن سائر الناس ، فيتحدث عن أنه يخالط الغيلان والجن والوحوش ولا يخافها ، بل يصف أحاديثه معها ، ومخالطتـه ومعاشرته اياها ، كما فصل الجاحظ هذا الحديث فى سرد ما تحدث عنه شعر عبيد من الغيلان ، وأساطير الضب والضفدع ، والسعلاة ، ومناكحة الجـن ومحالفتهم ، واليربوع ، وقد علل الجاحظ هذه النزعة باستغلال الشـاعر لسذاجة محيطه ويبدو ان عبيدا عرف أخيرا جدا طريقه الى الأمن حينما عـرف طريق الرجوع الى الله ، والتوبة اليه ، ولذلك نراه يتحدث عن توبته حديثا يظهر فيه انكاره لما أسلف من أعمال ، ويظهر أيضا استخفافه بما أسلف ممـــا لا يتفق مع « العقل » الذى يتحدث عنه فيما يتحدث من قوله :

يارب عفوك عن ذى توبـــة وجـــل	كأنــه من حذار الناس مجنون
قد كان قــدم أعمــالا مقاربـــة	أيام ليس له عقـــل ولا دين (٢)

وقد سبقه الى الحديث عن مخالطة الوحوش من الصعاليك الأحيمر السعدى فى حديث نثرى له (٣) ولكنه لم يسرف اسراف عبيد ، بل كان أقـــرب الى التحفظ منه ، وتحدث تأبط شرا فى شعره عن أنه قتل الغول (٤) ، وقلنـــا فيما سبق أنه ليس من اللازم تكذيبه ، وليس من اللازم القول بأن فيه الاتجاه الى نزعة الوهم أو استغلال سذاجة مجتمعه البدوى ، وانما كان حديثا عن حادثة فردية ، يمكن حمل الأمر فيها على أنه قتل حيوانا غريبا عليه يظنـه الغول كما تصورها أساطيرهم (٥) وستأتى مناقشة لهذا الموضوع فى فصل الوهـــم .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ .

(٣) أنظر العقد الفريد ٢٩٠/٣ والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ .

(٤) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ والقاموس المحيط مادة (غال) .

(٥)أنظر أخبار عبيه وشعره وترجمته فى الكامل للمبرد ٢٠٠/١ والحيوان للجاحظ ٤٨٢/٤ ، ١٣٨/٥ ، ٢٤١ ، ١٢٨/٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ؛ ٣٩٥ والبيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ .

٤ ـ عبيد الله بن الحر الجعفي

كان عبيد الله من الشخصيات اللامعة في المجتمع ، بل في الدولة حينذاك ، وله تاريخ بارز ، منه أنه شهد القادسية وأبلى فيها ، وقد أحس في نفسه قوة ومنعة ، فاستعصم بقوته ومنعته وأبى ان يسلم قياده لأحد حتى الأمراء والخلفاء ، وأصبح من أوصافه أنه لا يعطى للأمراء طاعة ، وقد جمع حوله صفوة من ذوى القوة والفروسية ، يقدرون فى بعض الأخبار بخمسين فارسا ، لم يكونوا من قومه . أو من جماعة معينة ، ومعنى ذلك أنهم من المتمردين في أى صورة من صور التمرد كقطاع الطرق واللصوص ومن على شاكلتهم ، وأخذ يعيث بهم في البلاد ، ويغير على القرى والقوافل ، وبلغ من قوته أن حاول جميع أطراف الخصومات في زمنه أن يستميلوه اليهم ، ومنهم معاوية بن أبى سفيان ، وعلى بن أبى طالب ، والحسين بن على ، وأمراء الامصار . ولكنه أبى ، وظل معتصما بقوته ، راسما حياته وسلوكه ، كما يريد هو ، لا كما يريد له الخلفاء والأمراء ، وبلغ من شهرة قوته وأخباره أن التبس أمره على بعض المتاخرين من العلماء كابن الاثير ، فعدوه من القواد (١) مع أن السكرى ترجم له في كتاب اللصوص ونقل عنه ذلك البغدادى في الخزانة (٢) والجاحظ في رسائله يذكر بعض رفقائه في قطع الطريق ، كما يقول في مفاخر السودان والزنج والحبش قالوا : « ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر ، لم يكن فى الأرض أشد منه ، كان يقطع على القافلة وحده ، بما فيها من الحماة والخفراء » (٣) ، وزاد الجاحظ فذكره (بعد أن تحدث عن فروسيته) في سياق الحمقى حيث قال « ومن النوكى عبيد الله بن الحر وكنيته أبو الأشوس » (٤) . ويبدو أن عبيد الله كان من الذين مستهم عقدة الشعور برق الأمهات ، كما كان السليك وأضرابه من أبناء الاماء والأسيرات ، فأراد بالتمادى فى مظهر القوة أن يعوض شعوره بهذا النقص الاجتماعي وبصعلكته وتمرده الانتقام من المجتمع لوضعه هذه الفواصل غير المنطقية بينه وبين أبناء الحرائر ، وعبيد الله نفسه يحدثنا بذلك فيقول :

ان تك امى من نساء اصابها ... سباء القنا والمرهفات الصفائح
فتبا لفضل الحر ان لم انل به ... كرائم ابناء النساء الصرائح (٥)

وهناك عبيد الله بن الحر طريد الأمراء ، ويروون في موته قصة تدل على

---

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٦٨ ونقل عنه ذلك مؤيدا له عبد السلام هارون هامش الحيوان للجاحظ ١/١٣٤ .
(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢/١٩ ، ٢٢ .
(٣) رسائل الجاحظ ١/١٩٣ .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢١ .
(٥) الأمالى للقالى ٣/٢٢٠ .

مبلغ خطورته ، حيث وجه اليه أمير الكوفة ستمائة فارس بينما لم يكن معه من أصحابه حينئذ الا عشرة ، ومع ذلك قاتلهم ، فلما تساقط أصحابه ، وبلغت منه الجروح ، انحاز الى معبر (١) فوثب اليه رجل نبطى قوى يريد أن يقبض عليه ، فلما يئس عبيد الله ، قبض على النبطى ، وألقى بنفسه وبالنبطى فى النهر فماتا معا ، فرأى الناس شيخا يتوجع ، وكان أبي النبطى ، قائلا : كان ابنى يقتل الأسد ، وكان يخرج هذا المعبر من الماء فيقره ثم يعيده وحده ، حتى ابتلى بهذا الشيطان - يعنى عبيد الله بن الحر الذى أغرقه معه - وجعلوا يسكتونه وهو يردد : ما كان ليغرق ابنى الا شـــيطان (٢) ، وكان عبيد الله من الشعراء المجيدين ، وله مدائح فى الحسين بن على .

٥ - الأحيمر السعـــدى

من لصوص بنى سعد ، وأجمعت الروايات على أنه من الخلعـاء ، حيث خلعه قومه بعد جناياته ، وطارده السلطان ، فهام على وجهه ، فى مجاهـــل الصحراء ومكامنها ، ثم كان يحدث الناس بغرائب وحدته وتشرده ، وما يلقاه خلال ذلك ، وأنه لطول ألف الوحوش له أنست اليه ، فلم تكن تنفر منه ، ومثل هذه الأخبار وان لم تكن تدعو الى التصديق الا أنها على أى حال تصور حياة صاحبها فى تشرده وحيدا وتعرضه للأخطار ، وقد صور الأحيمر حياته هذه فى شعره ، وهو صاحب البيت المشهور :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى ... وصوت انســان فكـــدت اطـــير

كما صور فى شعره صعلكته وتهديده لامن التجار وقوافلهم بمثل قوله :

تعيرنى الاعدام والبـــدو معـــرض ... وسيفى بامـــوال التجـــار زعيم

وقد عده صاحب العقد الفريد من الفرسان القلائل فى العرب ، وان صح ذلك يحمل على حياته قبل خلعه وتشرده .

والأحيمر تاب ، وتحدث عن توبته فى شعره ، ولكن حديثه يوحى بتأصل نزعة التصعلك فى نفسه ، ولذلك نراه مترددا بين الرجوع الى الله ، والحنين الى أموال التجار ، ونصيحة الصعاليك بالتوبة فمن ذلك قوله :

أشـكو الى الله صبرى عن زواملهـم ... وما الاقى اذا مـــروا من الحـــزن
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبـوا ... بز العراق وينســـوا طرفة اليمـــن
فرب ثوب كـريم كنت آخـذه ... من القطـار بلا نقـــد ولا ثمـن

(١) ما يسمى بالعامية « الكوبرى » فوق النهر .
(٢) خزانة البغدادى ٢/٢٢ وهامش الحيوان للجاحظ ١/١٣٤ .

وقد تحدث فى شعره عن عدة أغراض أهمها ما يتعلق بحياة خلعه وصعلكته (١) وهو القائل :

وانى لأستحيى لنفسى أن أرى　　امر بحبل ليس فيه بعير

٦ – يزيد بن الصقيل العقيلى

أما يزيد العقيلى فقد كان كما يبدو من حديثه صادق التوبة عن الصعلكة، مطمئن النفس فى رجوعه عنها ، فقد كان يسرق الابل ثم تاب ، ويبدو من شعره ما كان له من رهبة وخطورة عند أصحاب المخائض من الابل ، ولذلك يطمئنهم يزيد بتوبته حين يقول :

الا قل لأرباب المخائض أهملوا　　فقد تاب مما تعلمون يزيد

ويبدو صدق توبته فى مثل قوله :

وان امرءا ينجو من النار بعدما　　تزود من اعمالها لسعيد

ولكن ما بلغنا من أخباره وشعره قليل (٢)

٧ – أبو النشناش النهشلى

غلبت هذه الكنية عليه حتى طمست اسمه فلم تتحدث به الروايات ، وكان من لصوص بنى تميم ، واسع النشاط فى لصوصيته حتى أنهم يصفونه بأنه كان يقطع طريق القوافل بين الحجاز والشام ، وكان يجمع حوله رفقة من الشذاذ والصعاليك ، وأبو النشناش يجيد تصوير نفسية الصعاليك وحياتهم ومن ذلك قوله :

وداوية يهماء يخشى بها الردى　　سرت بابى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأرا او ليدرك مغنما　　جزيلا ، وهذا الدهر جم عجائبه

ويصور شعار الصعاليك وآمالهم فى مثل قوله :

فللموت خير للفتى من قعوده　　فقيرا ومن مولى تدب عقاربه

---

(١) انظر ترجمته واخباره وشعره فى الأمالى للقالى ٤٨/١ ، ٤٩ والعقد الفريد ٣٤/١ (باب فرسان العرب) و ٢٩٠/٣ والحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ م الخانجى والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٠٠/٣ ، ٤ ٥٣ .

(٢) انظر الكامل للمبرد ٦١/١ وأمالى القالى ٢٥٢/٢ (هامش على شك) .

ولم أر مثل الهم ضاجعه الفتى	ولا كسواد الليل اخفق طالبه
فمت معدما أو عش كريما فانني	أرى الموت لاينجو من الموت هاربه(١)

والنهشلي نسبة الى بني نهشل ٠

٨ – سعد بن ناشب المازني

من بني مازن من تميم ، اتخذ من البصرة موطنا ، وزاول صعلكته وجناياته ، فهدم بلال بن أبي بردة والي بني مروان داره وتوعده ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه الشديد ، واندفاعه بأساليب الصعلكة نحو غاياته ، بل سخر بشعره من هدم داره واستصغر أن يكون هدم الدار صارفا لمن كان في مثل عزمه وقوته عما يريد ٠

ويبدو من خلال شعره أنه كان يتمتع بارادة قوية وعزم عنيد ، ويعتبر شعر سعد من خير ما يمثل شخصية الصعلوك الواثق من عزمه ، المتمكن من قوة ارادته ، وله أبيات كثيرة شائعة التردد مشهورة ، تصور قمة العزم العنيد كقوله :

اذا هم لم تردع عزيمة همه	ولم يات ما ياتي من الأمر هائبا
فيالرزام رشحوا بي مقدما	الى الموت خواضا اليه الكتائبا
اذا هم القى بين عينيه عزمه	ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رايه غير نفسه	ولم يرض الا قائم السيف صاحبا

ولسيطرة هذه المعاني على نفسه نراها تتردد كثيرا في شعره ، فمن ذلك قوله :

وفي اللين ضعف والشراسة هيبة	ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بي على من لان لي من فظاظة	ولكنني فظ أبي على القسر
اقيم صغا ذي الميل حتى ارده	واخطمه حتى يعود الى القدر
اذا هم القى بين عينيه عزمه	وصمم تصميم السريجي ذي الأثر

ولم يخل شعره من الحديث عن خلقه ، فهو يقول انه كريم في فقره وغناه ، ان أعسر وافتقر فهو خير كريم ، وان غنى وأيسر فيساره شركة بينه وبين الناس ٠

ان تعذليني تعذلي بي مرزءا	كريم نثا الأعسار مشترك اليسر

---

(١) أنظر ترجمته وشعره في الاصمعيات ١٢٤ والخزانة للبغدادي ١/٢٦٢ وديوان الحماسة لأبي تمام ١/١١٥ وشرح الاصمعيات (هامش ص ١٢٤) وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام (هامش ١/١١٥) والقاموس المحيط مادة (نش) ٠

ويصفونه بأنه من الفتاك ، وأنه من مردة العرب ، وقد ورث الصعلكة عن أبيه كما يصفه ابن قتيبة بقوله « وكان أبوه ناشب أعور ، وكان من شياطين العرب » (١) وهو مازني من عشيرة مالك بن الريب ٠

٩ ـ توبة بن الحمير

أبوه الحمير بن حزم من بني عقيل ، وكان توبة من اللصوص البارزين ، ولكن شهرته بعشق ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية غلبت عليه ، حتى أصبح هذا العشق قرين اسمه ، وكاد يطغى على صفته الأصلية وهي اللصوصية وزاد من هذه الشهرة أن ليلى كانت شاعرة ، بل لم يقدم عليها من شاعرات العرب سوى الخنساء ، وقد رثته ليلى بأشعار كثيرة ، وليلى هي التي يقـــول توبة في حبهـــا :

ولو أن ليلى الأخيلية ســـلمت على ودوني جنـــدل وصفائـــح
لسلمت تسليم البشاشـــة اوزقـــا اليها صدى من جانب القبر صائـح

وقد وفدت ليلى على عبد الملك بن مروان وهي كبيرة ، فقال لها : ما رأى توبة فيك حين عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفـة ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها ٠

وكان توبة واسع المجال في صعلكته ، ويبدو من أخباره أنه كان يركز غاراته على همدان وبني الحارث بن كعب مع أن بينهما وبين موطنه مفاوز ، ومن أخبار لصوصيته تلك الغارة التي أودت بحياته حين أغـــار على بني الحارث فلم يتمكن من الغنيمة فأغار في عودته على بني عوف فاستاق ابلالهم بعد أن قتل منهم رجلا ، فلاحقوه ومعه أخوه وابن عم له أو مولى له يـدعى قابض ، على اختلاف الرواية فقتلوه وأعرجوا أخاه وتتحدث الروايات عن أن توبة ـ لابعاده في غاراته ـ كان يحمل معه الماء ٠ وقد يبدو غريبا بعض الغرابة أن تجتمع في توبة صفتان غير متآلفتين ، هما عاطفة الحب العميق بما توحي به من رقة وسماحة نفس ، والصعلكة بما توحيه من صفات الجفوة والعنف ، ولكننا حين ننظر الى عوامل الصعلكة ودواعيها في المجتمع العربي كما أسلفنا نجد أنها لم تكن مجرد نزعة شريرة في نفس مزاوليها ، بل أحيانا لم تكن من النزعة الشريرة في شيء ، وانما كانت مظهرا اجتماعيا تولد من عوامل عديدة متشعبة ، وليلى حبيبة توبة تحدثنـا عن هاتين الصفتين في رثائها اياه فتقول عن توبة :

---

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره في أمالي القالي ١٧٠/٢ ، ١٧١ والكامل للمبرد ١٢١/١ وديوان الحماسة لأبي تمام ١٤/١ ، ٢٧٠ والعقد الفريـد ٢٣٠/١ وشرح التبريزي لحماســة أبي تمام ١٤/١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٦٣ م الخانجي ٠

فتى كان أحيى من فتاة حيية — وأشجع من ليث بخفـــان خـادر
فنعم الفتى ان كان توبة فاجرا — وفوق الفتى ان كان ليس بفاجر (١)

١٠ ـ عبد الله بن سبرة الحرشى

منسوب الى حرش وهو موضع باليمن ، وكان عبد الله كما يبدو من أخباره من الأشخاص المعروفين فى المجتمع بالقوة والبأس الشديد ، وتصفه الروايات بأنه من فتاك العرب ، ولكن حادثة له مع الروم طغت على أخباره فى الصعلكة والفتك ، ذلك أنه فى فترات المناوشات التى كانت تحدث بين المسلمين والروم على الحدود مما يشبه ما يسمى اليوم بحرب العصابات ، استعان أحد الـولاة بعبد الله بن سبرة ليغير فى عصابة على بعض الروم ، وتختلف الروايات فى تفاصيل هذه الغارة ، ولكنها تتفق على أن عبد الله بن سبرة قاتل فى هذه الغارة بطريقا روميا فقتله عبد الله بعد أن قطع الرومى يد عبد الله أو اصبعيه عـلى اختلاف الرواية ، وقد قال عبد الله فى قطع يده شعرا كثيرا معتزا بأن قطعها اقترن بنصر له كبير (٢) .

١١ ـ شبيب بن عمرو بن كريب :

أحد لصوص طيىء ، وكان يقطع الطـــريق فى خـلافة على بن أبى طالب ، فبعث اليه على أحمر بن شميط وأخاه فى فوارس ، فهرب شبيب ، واســـتطاع النجاة منهم ومن على بن أبى طالب وحين اطمأن الى نجاته قال فى ذلك شعرا منه :

ولـــا رايت ابنى شـــميط — بســـكة طيىء والبـاب دونى (٣)
تجللت العصـــا وعلـــمت انى — رهين مخيس ان يثقفـــونى (٤)

ويتابع شعره واصفا على بن أبى طالب بقوله :

ولـــو انى لبثت لهم قليـــلا — لجرونى الى شـــيخ بطين (٥)
شـــديد مجـــامع الكتفين باق — على الحدثان مختلف الشـــئون

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره وأخبار ليلى وشعرها معه فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠ م الخانجى وحماسة أبى تمام ١٠٨/٢ والكامل للمبرد ٢٧٥/٢ ، ٣٠٧ والأغانى للاصفهانى ٢٨٠/٣ والحيوان للجاحظ ٢٩٩/٢ ومعجم البكرى ٨٨٥/٣ ، ١٣٤٠/٤ ، ٤٥٣/٢ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٠٨/٢ والعمدة لابن رشيق ٢٨/٢ .

(٢) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى التنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ٣٢ ، ٣٣ ، وأمالى القالى ٤٧/١ وديوان الحماسة لأبى تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ .

(٣) السكة السطر من الشجر .

(٤) العصا فرس شبيب مشهورة ، ومخيس بضم الميم وتشديد الياء المكسورة سـجن على ابن أبى طالب ويثقفونى رواية الجاحظ وفى ديوان الحماسة أن يدركونى .

(٥) بطين أى عظيم البطن وهى سفة الامام على .

وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بلغه هذا الشعر : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصـــدقت ظنه ، يعنى وضــــعه فى السجن (١) ٠

١٢ ـ فرغان بن الأعرف المرى :

تختلف الروايات فى ضـــبط اسم ، فيرويه أبو تمام فى حماسته فرعان بالعين ، ويرويه ابن قتيبة بالغين المعجمة ، وهو مناسب لما ورد من شعره كمـا ضبطه ابن قتيبة ، وهو من بنى مرة بن عبيد وكان شاعرا لصا ، وكان يغير على الابل ، ويروى ابن قتيبة أن فرغان أخذ جملا لرجل فجاء الرجل فأخذ بشعر فرغان وجذبه فبرك ، فقـــال الناس : كبرت والله يا فرغان ، قال كلا ، ولكنه جذبنى جذبة محق ٠ وقد اعتمد فرغان فى فخره على قـــوته ببنيه كمـــا يقـــول :

يقـــول رجال ان فرغان فاجـــر ... ولا الله أعطانى بنى وماليـــا
ثمـانية مثـل الصقور واربعـا ... مراضـــيع قد وفين شعثا ثمانيا

ويشاء له حظه السىء أن يرى بنيه هؤلاء الذين يفخر بأن فجوره قائم على قوتهم وقد أذاقوه الهوان ، وهذا ابنه منازل أحد الثمانية الصقور كما يقـــول فرغان يعق أباه ويؤذيه ويضربه كما يقول فرغان نفسه :

جزت رحم بينى وبين منـــازل ... جزاء كما يستنزل الدين طالبـه

ثم يقول فى ذلك واصفا شيخوخته وضعف بصره وصفا مؤثرا :

فلما رآنى ابصر الشخص اشخصا ... قريبا وذا الشخص البعيد اقاربه
تغمد حقى ظالما ولـــوى يدى ... لوى يده الله الذى هـــو غالبـه

ثم يقول أيضـــــا :

أ ان رعشت كفا أبيك واصبحت ... يداك يدى ليث فانك ضاربه ؟

وتوارث أبناؤه هذا العقوق ، فيروى التبريزى أن ابنه منازلا هذا كان له ابن يدعى خليج فعق خليج أباه منازلا فقدمه الى ابراهيم بن عربى مستعديا عليه قائلا :

تظلمنى حقـــى خليـــج وعقنى ... على حين كانت كالحنى عظـــامى

فى أبيات أخرى ، فأراد ابراهيم بن عربى ضربه ، فقال خليج أصلح الله الأمير ، لا تعجل ، أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا منازل بن فرغان الذى

---

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى حماسة أبى تمام ٢٥٢/١ والبيان والتبيين للجاحظ ٨٥/٣ وشرح التبريزى للحماسة ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ ٠

عق أباه ، وفيه يقول « جزت رحم بيني وبين منازل » الابيات • فقال : ابراهيم : يا هذا ، عققت فعققت ، فما أعلم لك مثلا الا قول خالد لأبي ذؤيب •

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ... فاول راضى سيرة من يسيرها (١)

١٣ ـ جحدر بن معاوية العكلي :

غلب عليه في معظم الروايات لقب جحدر اللص ، مما يدل على شـهرته باللصوصية ، وخطورته فيها ، ويصفه القالي بقوله « وكان لصا مبرا » ثم يفسر المبر بالغالب ، وينسب جحدر نفسه في شعره الى بني كعب بن عمرو وقد تردد اسم جحدر كثيرا في المنافسات الشعرية المشـهورة بين غالب أبي الفرزدق وسحيم التميميين على أن جحدرا رفيق سحيم ومن أشـد أعوانه على غالب ، واتفقت الروايات على أن جحدرا وقع في طائلة الحجاج وأودعه الحجاج سجنه ، ومن بين جدران سجن الحجاج جادت شاعرية جحدر بقصائد غراء ، تعتبر من أجود الشعر في موضوعها ، من حيث تصوير الهموم ، والحنين الى الاهل والوطن ، والشعور بالحجر على الحرية ، وقد ساق القالي احدى هذه القصائد في واحـد وعشرين بيتا ، وحين ندرس هـذه القصـيدة نرى أن المتنبي في قصـيدته المشهورة عن الحمى لم يكن مبتدعا ، وانما كان متأثرا بقول جحدر :

تأوبني فبت لهـا كنيعـا ... همـوم ما تفارقني حـواني
هي العـواد لا عـواد قومي ... اطلن عيـادتي في ذا المكـان
اذا مـا قلت قـد أجلين عني ... ثني ريعـانهن عـلى ثـاني
وكـان مقر منـزلهن قلبي ... فقـد أنفهنـه والهـم آني

ويقول منها في الحنين الى الاهل والأحبة :

أليس الليل يجمع أم عمـرو ... وايانا فـذاك لنـا تـداني
نعم وترى الهـلال كما أراه ... ويعلوها النهـار كما علاني

ويقول عن سجنه :

اذا جاوزتما سـعفات حجـر ... وأودية اليمـامة فانعيـاني
وقـولا جحـدر امس رهينـا ... يحـاذر وقع مصـقول يماني

ويقول من قصيدة أخرى عن هذا السجن بالكوفة :

يارب أبغض بيت أنت خالقـه ... بيت بكوفان منه استعجلت سفر (٢)

---

(١) أنظر ترجمته واخباره وشعره في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٠ وحماسة أبي تمام ١٨٢/٢ وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام ١٨٢/٢ ، ١٣ •

(٢) أنظر ترجمته واخباره وشعره في أمالي القالي ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ ، ٥٣/٣ ، ٥٥ والحيوان للجاحظ ٤٣٥/٥ومعجم ما استعجم للبكري ١١٤١/٤ •

١٤ ـ الجر نفس اللص :

لم تفصح الروايات فيما نعلم عن أكثر من هذا اللقب فى ترجمته ، وان كان ينسب نفسه فى شعره الى بنى ثعل ، وهو ممن وقع فى قبضة السلطان من الصعاليك ، وذاق مرارة القيد والسجن ، وفى ذلك يقول :

ابلــغ بنى ثعــل عنى مغلغلة   فقد أتى لك من نىء بانضــاج
اما النهار ففى قيــد وسلسلة   والليل فى جوف منحوت من الساج(١)

وبعد هذه النبذ السريعة عن هؤلاء الشعراء ، والتى لم نقصد بها الترجمة الكاملة المفصلة لكل شاعر حيث ان ذلك ليس هدفا أساسيا للموضوع ، وانما قصدنا تمييز شخصية كل شاعر عن الآخر ، وتحديد الخطوط العامة فى حياة كل شاعر وشخصيته حتى نستطيع منها فهم اتجاهه الشعرى ، والحكم على هذا الاتجاه على ضوء ظروفه الشخصية والاجتماعية ، بعد ذلك نقول أن هناك عـددا من شعراء الصعاليك لم يرد استشهاد بشعر أحد منهم فى هذا البحث ، ولذلك نكتفى بمجرد ذكر اسمائهم وهم :

١ ـ جعفـــر بن علبـة الحارثى (٢)   ٢ ـ ابراهيم بن هـــانىء (٣)
٣ ـ ابو مـــارد الشـــيبانى (٤)   ٤ ـ حاجــز بن الجعــد (٥)
٥ ـ قـــراد بن عبـــاد (٦)   ٦ ـ عروة بن مرة الهـــذلى (٧)

ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع بأن من سبق ذكرهم هم كل شعراء الصعاليك، ولكن الذى نؤكده أنه ليس هناك مرجع معين لشعراء الصعاليك ، وأن المرجع الوحيد الذى خصص للصعاليك تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم فيما نعلم هو كتاب اللصوص للسكرى ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا ، وانما نقـــل عنه بعض العلماء كالبغدادى (٨) فجمع هؤلاء الشعراء الذين سبق ذكرهم وجمـع تراجمهم وأشعارهم وأخبارهم مجرد اجتهاد فى التنقل بين متناثرات المراجـــع وأشتاتها ٠

---

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ وفى الهامش أنه ذكر فى الاشتقاق ٢٣٣ لابن دريد ٠
(٢) انظر خزانة البغدادى ٤٦/٢ الشاهد ١١٥ وأغانى الأصفهانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بفهارس الأغانى وهو مخضرم ٠
(٣) أنظر الحيوان للجاحظ ١١٠/٣ ورسائل الجاحظ ١٩٢/١ ٠
(٤) أنظر شرح القصائد السبع الجاهليات لابن الابنارى ص ١٢٥ ٠
(٥) أنظر معجم ما استعجم للبكرى ١٣٨/٢ ٠
(٦) أنظر حماسة أبى تمام ٢٧٣/١ ٠
(٧) أنظر الحيوان للجاحظ ٣٥١/٤ وديوان الهذليين ١٥٧/٢ فى رثاء أبى خراش أخيه اياه وأغانى الأصفهانى ٦٣/٢١ وقتل عروة ضحية احدى غاراته ٠
(٨) أنظر خزانة الأدب ١٨/٢ ـ ٢٢ ٠

وأعود فاكرر القول بأن الروايات فى بعض حديثها عنهم لم تكن موضحة ولا محددة كل التحديد ، وخاصة فيما يتعلق بالفواصل الزمنية ، كشعر المخضرمين ، حيث لا نعلم أى شعرهم قالوه فى الجاهلية ، وأيه قالوه فى الاسلام ، الا ما ارتبط بحادث معروف الزمن ، أو ما دل عليه موضوع الشعر نفسه ومعانيه ، ونواحى أخرى من الغموض والاختلاف والتجاهل لبعض النواحى المهمة فى الحديث عنهم ، ونعتقد أن هذا هو ما يدفع الباحثين فى الشعراء الصعاليك الى الاتجاه الى التعميم ، وتحاشى التخصيص والحصر ، ايثارا لتجنب الخطأ أو القصور ، ولكننا نؤثر القول بأن المجتهد اذا أصاب فله أجران ، واذا أخطأ لم يحرم من أجر ، وقبل أن أفرغ من هذا الحديث أضيف أن الستة الأخيرين الذين لم أترجم لهم ، بالاضافة الى عدم الاستشهاد بشعرهم فاننى لم أصل الى تراجم وافية لهم فيما استطعت الوصول اليه فى فترة البحث غير أنهم شعراء صعاليك مع اضافات غير كافية الا جعفر بن علبة الذى ذكر البغدادى له ترجمة وشعرا فى باب ان المشددة بالاضافة الى المواضع المشار اليها بالهامش ٠

الباب الثالث

شعر الصعاليك

مصـــادره :

لم يكن من قبيل المصادفة أن يتجنب الباحثون موضوع الصعاليك ، فلا يجعلونه هدفا لبحوثهم ودراساتهم ، فالواقع أن جانب الصعاليك وأشـــعارهم يكاد يكون أشد موضوعات الأدب العربى صـــعوبة واســتعصاء على اليسر فى البحث والدراسة ، من حيث انه الموضوع الوحيد تقريبا الذى لم تصل الينا عنه دراسة أو بحث متكامل ، مع أن الصعاليك سواء فى الجاهلية والاســـلام يمثلون طائفة بارزة مميزة فى المجتمع العربى ، سواء أكان بروزها وتميزها موضع رضى أم سخط وكلا الحالين كان المفروض أن يدعو الى الدراسة والاهتمام ، فان التميز من شأنه لذاته أن يحظى بالاهتمام والتتبع والرغبة فى الاستطلاع ، فكنا نتوقع أن نجد من الدراسة المستقلة ولو القدر الذى يعين الباحثين •

ولكن الواقع أننـــا حين نرجع الى الاقدمين فى بحوثهم ، نجد أنه لم يعن بدراسة مستقلة عن الصعاليك الا أبو سعيد السكرى فى كتابه اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا ، وانما نقل عنه بعض العلماء مقتطفات مبتورة ، كما نقل البغدادى عنه بعض حديثه عن عبيد الله بن الحر (١) وقد تتبع بعض الباحثين مصادر شعر الصعاليك (٢) ولكن نتيجة واحدة ينتهى اليها كل باحث فى مصادر شعرهم ، وهى أنه بعد فقد كتاب اللصوص للسكرى لم يعد هناك مصدر جامع لشعرهم ، وعلى كل باحث اذا أراد أو حاول الاســـتقصاء ـ مع تعذر امكانه ـ لشعرهم أن ينتقل بين كل ما كتبه القدامى ، ســـواء من كتب منهم عن اللغة ، أو الأدب ، أو التاريخ ، أو المعاجم ، أو التراجم •

(١) خزانة الأدب ١٩/٢ ، ٢٢ •

(٢) أنظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان عن الشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد وأنظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ١٥١ ـ ١٦٧ •

وتفاديا للاطالة في تتبع مصادر شعر الصعاليك ، والتي نعلم مقدما أنهـا ستنتهي الى النتيجة السابقة ، نلم في حديث موجز عن هذه المصادر فنقول :

بعد فقد كتاب اللصوص للسكرى لم يعد فى المراجع القديمة حديث مستقل عن الصعاليك ولا عن شعرهم ، وانما سيقت تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم متفرقة لا قصدا الى موضوعها لذاته وانما فى سياق موضوع الحديث أو الكتاب ، أعنى ضمن الموضوع الذى يتعرض له المؤلف فمثلا معاجم اللغة كالصحاح للجوهرى والقاموس المحيط للفيروزابادى ولسان العرب لابن منظور هدفها شرح الألفاظ وبيان معانيها فى استعمالاتها المختلفة ، وفى هـــذا الســـياق قد يورد بعض ما يتعلق بأحد الصعاليك ، فمثلا فى مادة غرب يتحدث عن أغربه العرب هم فلان وفلان والسليك بن السلكة ، وفى مادة نحم والنحام فرس السليك بن السلكة ، وفى مادة صعلك ، وعروة الصعاليك ، هو عروة بن الورد كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما عنــده ، وفى مادة ذأب ، وذؤبان العرب لصوصهم ، وذئبة فرس حاجز بن عوف وهكذا ، وقد حفلت هذه المعاجم بمجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك نظرا لان شعرهم يحتــوى على كثير من أســـماء الأماكن ، ومن الألفاظ الغريبة التى تحتاج الى شرح .

وفى كتب القواعد اللغوية ، كخزانة الأدب للبغدادى ، تحتاج هذه القواعد الى شواهد عليها ، وفى سياق الشاهد تذكر القصيدة التى أخذ منهـــا هــذا الشاهد ، ومن باب الاستطراد الذى يكاد يكون ملتزما ، يساق الشـــعر الذى تربط بينه وبين شعر الشــاهد أى رابطة ، كتشـــابه المعنى أو اتفاق الغاية أو الحادثة التى قيل فيها هذا الشعر أو نحو ذلك ، وفى خلال ذلك نجد مجموعة لا بأس بها من الأحاديث عن عدد كبير من الصعاليك وشعرهم .

وفى كتب الأخبار الادبية كأمالى القالى وكامل المبرد ، لا نجد لهذه الكتب موضوعا معينا ، وانما هى روايات أدبية مقصودة لذاتها ، ورغم تبويب هــذه الكتب ، الا أننا نجد أن موضوعات كل باب لا تنطبق عليه كلها ، وانمـــا يبدأ الباب برواية أو روايات تناسب عنوانه ، ثم يستطرد فى موضوعات شتى قد لا يربطها بعنوان الباب سبب ، فمثلا فى الكامل باب ذكر الأذواء من اليمن فى الاسلام ، يبدؤه بالأذواء ثم يستطرد الى أحاديث عن بعض الأمويين والعباسيين وولاة مصر ، الى أشعار مختارة ، وآيات من القرآن قد يغلط فى مجازها النحويون وهكذا مما لارابطة بينه وبين عنوان الباب الا مجرد الاستطراد (١) وقد كان من فضـــل هذا الاستطراد أن حفلت هـــذه الكتب بمجموعات كثيرة من أشـــعار الصعاليك .

وفى كتب الامثـــال كمجمع الامثـــال للميدانى ، نجد طائفة من أخبـــار

(١) أنظر الكامل للمبرد ٣١٣/٢ – ٣٢٨ .

الصعاليك وأشعارهم حيث ان بعض الامثال قيلت في حوادث لبعض الصعاليك مثل « العاشية تهيج الآبية » في قصة سطو السليك على بيت رويم الشيباني وما قاله السليك فيها من شعر ، وبعض الامثال يتحدث عن الصعاليك ولو بالمعنى العام مثل « كل صعلوك جواد » .

ومن أهم الكتب في الحديث عن الصعاليك وشعرهم وان لم يكن أدقها كتاب الاغاني للاصفهاني وقد سيطر على الاصفهاني فيه هدفان ، أحدهما ما جعله هو هدفا في حديثه بمقدمته وعنونته للكتاب ، وهو أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، والآخر ولعه بطرائف الاخبار وغريبها ، وقد سلك الى هذين الهدفين أسلوب الاستطراد الذى غلب على معظم كتب الاخبار القديمة وبذلك كله ساق كثيرا من الاخبار والتراجم والشعر عن كثير من الصعاليك لان في طرافة تراجمهم وأخبارهم ما يغرى مثله بالافاضة في الحديث عمن يتعرض لحديثه منهم ، فضلا عن أن بعضهم له أشعار يتغنى بها ، ومع أن الاصفهاني ليس موضع الثقة الكاملة في رواياته وأحاديثه (١) الا أن له من علمه الواسع ، وذاكرته الجبارة في تآليفه ، ما لا يجعل لباحث أدبى غنى عنه .

ومن أهم آثار السكرى بالنسبة لشعر الصعاليك ، مجموعتا « أشعار الهذليين » و « ديوان الهذليين » حيث احتويا على مجموعة كبيرة من شعر صعاليك هذيل كأبى خراش والاعلم وصخر الغى وما تبودل بين الهذليين وعدوهم تأبط شرا من شعر ، ومن المصادر الهامة أيضا في شعر الصعاليك ، كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبى تمام وحماسة البحترى ، حيث جمعا فيهما شعرا كثيرا من بينه قصائد ومقطوعات عديدة لكثير من شعراء الصعاليك ، ومن خير هذه الكتب دقة واستيفاء للقصائد المفضليات للضبى والاصمعيات للاصمعى وفي كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ومعجم الشعراء للمرزباني نجد تراجم لعدد لا بأس به من شعراء الصعاليك ، الا أن تراجمهم غير وافية ، وكذلك شعر من ترجموا لهم حيث نجد معظمه مقتطفات من القصائد غير مقصودة لذاتها في أغلب الأحيان ، وانما لارتباطها بالترجمة أو الأحداث .

وفي معجمات الاماكن والبلدان كمعجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت نجد مجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، لان هدف هذه الكتب شرح أسماء الاماكن وبيان موضعها ، وشعر الصعاليك حافل بالحديث عن الاماكن نظرا لكثرة تنقلهم في أماكن كثيرة تقتضيها حياة الصعلكة وأعمالها ، وأماكن نائية أو موغلة ليس من اليسير على غيرهم أن يرتادها ، حتى ان بعض هذه الاماكن لم يرد الا في شعر الصعاليك مثل نيال التى قال القالى : لم أر نيال الا في شعر السليك (٢) ويعتبر معجم البكرى من أكثر الكتب ترديدا لشعر الصعاليك،

---

(١) أنظر آراء كثير من قدامى العلماء في تجريحه بترجمة المؤلف في صدر كتاب الأغاني .
(٢) أنظر معجم البكرى ٤/١٣٣٩ .

فان به مجموعة كبيرة من شعرهم ، بل انفرد بذكر شعر لم يرد في مصادر أخرى فيما أعلم كبعض ما أورده من شعر جحدر بن معاوية (١) وتوبة بن الحمير (٢) الا أن ما ساقه من شعر يعتبر في جملته أبياتا مفردة ، وقل أن يسوق بيتين أو ثلاثة مجتمعة ، ومع ذلك فان ما أورده من شــــعر له دلالة على جانب كبير من الاهمية ، فان بعض ما أورده من أبيات مفردة أو مثناة ، انفرد بذكره عن المصادر الاخرى كما مثلنا آنفا ، ومعنى ذلك أن هذه الابيات بترت من قصــــائد كانت معروفة أو مدونة حتى زمن البــكرى ، ثم عبث بهــا الزمان فضاعت ولم تصــل الينا ، وينطبق هذا على كثير جدا من الابيات التى ساقهــــا البكرى فى المعجم ، فاننا حين نأخذ هذه الابيات الكثيرة لنحاول العثور على القصائد التى انتزعت منها هذه الابيات ، لا نعثر على قصائدها ، وفى هذا جانب مهم من الحجة للذين يرون أن كثيرا من الشعر القديم أو أغلبه لم يصل الينا ، وفيه أيضا جانب من الحجة على الذين يرون أن النثر هو الذى ضاع معظمه ،وأن الشعر لم يذهب الا أقله (٣) ٠

ثم بقية المراجع القديمة مهما اختلفت موضوعاتها ، ولا أعتقد أن هناك شيئا من المبالغة أو تجاوز الحقيقة فى القول بأنها جميعا وبدون استثناء تكاد لا تخلو من حديث أو شعر لبعض الصعاليك ، قل ذلك أو كثر ، على ما فى الوصول الى هذه الاحاديث من صعوبة بالغة ، لا لتناثرها فحسب ، بل لانه لا يجمعها موضوع معين ، ولا تندرج فى حديث بعينه ، وانما تأتى عرضا فى سياق حديث قد يكون بعيدا عن كل ما يتعلق بالصعاليك ، وقد يضطر الباحث الى استعراض كتــاب كامل ليخرج منه ببضعة أبيات ، أو بضع فقرات عن الصعاليك ، ومن نحو هذا تتبين قيمة الجهد المشكور لهؤلاء النفر الذين عكفوا (٤) على دراسة بعض الكتب القديمة كالأغانى وبعض كتب الجاحظ وبعض معاجم الأماكن وكتب أخــرى لحصر ما ورد فيها من أسماء الاعلام والاماكن والطوائف والمعانى ثم بتبويبه فى فهارس مجمعة تعين الباحثين أى عون ، وتدخر لهم كثيرا من الوقت والجهد ٠

وأما عن دواوين الصعاليك ، فلم يصل الينا منها الا ديوانان ، احدهما ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت ، وله شرح عليه ، أورد فيــه ترجمة عروة وأخباره والحوادث التى ارتبط بها بعض شعره ، وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين فى مجلد واحد ، والآخر ديوان الشنفرى وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما فى النسخة الخطية ٠ الموجودة بدار الكتب المصرية (٥) ٠

---

(١) معجم البكرى ١١٤١/٤ بيت واحد ٠
(٢) المصدر السابق ٨٨٥/٣ بيت واحد ٠
(٣) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٠/١ ٠
(٤) مثل جهود الأساتذة محمد عبد الجواد الاصمعى وعبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر ٠
(٥) أنظر تتبع مراحل الدواوين فى تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٠٥/١ ومابعدها

وقد تتبع صاحب تاريخ الأدب العربى أهم المراجع التى ورد فيها أخبار أو أشعار عن مجموعة من شعراء الصعاليك ، هم تأبط شرا والشنفرى وعروة ابن الورد (١) ٠

روايتـــه :

مع أن الرواة والعلماء القدامى بذلوا جهدا بالغا فى تحرى الرواية والتزام الصدق فى كل ما ينقلونه ويروونه ، وأخذوا أنفسهم وأخذوا غيرهم أيضا بالتزام الدقة فى النقل والرواية وكان حسابهم على التهاون فى ذلك شديدا عسيرا ، حتى ان الصاحب بن عباد يصف أبا الغوث بأنه ابن سوء وأنه جاء من قبله الخذلان لانه روى عن البحترى قوله ٠

واحـق الايـام بالانس ان يـؤ ثر فيـه يوم المهـرجان الكبـير

مع أن صحة البيت فيما يعرفه :

واحـــق الايام بالانس أن تـؤ ثر يـــوم المهـــرجان الكبـــير

وحتى ان الاحمر أخذ على المفضل الضبى أنه روى لا مرىء القيس ٠

« نمس بأعراف الجياد أكفنا » مع أن صـــحته « نمش » بالشين المعجمة لا السين وأخذ عليه أيضا قوله :

واذا الـم خيالهـــا طـــرقت عينى فمـــاء شـــجونها سجم

بالقاف مع أن صحته « طرفت » بالفاء ، وأخذ الاصمعى على المفضل أيضـا روايته لبيت أوس « تصمت بالماء تولبا جذعا » بالذال ، مع أن صحته « جدعا » بدال مكسورة (٢) نقول مع أن العلماء التزموا مثل هذه الدقة ، وعابوا على الناقلين والرواة مثل هـــذا الخلاف الذى يعتبر معظمه يسيرا ولا يحدث فى المعنى كبير تغيير ، الا أننا حين نذهب الى شعر الاقدمين وخاصة شعر الصعاليك نجد فيه اختلافا غير هين ولا يسير من ناحيتين :

---

(١) أنظر المصدر السابق ٠

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٤٩/٢ ، ٢٥٠ ٠

أولا : الاختلاف في الألفاظ :

قد يكون الاختلاف في الالفاظ في الاخبار والتاريخ شيئا مقبولا مادام أصل المعنى محفوظا ولكن الامر يختلف بالنسبة للادب عامة ، والشعر خاصة ، فان الالفاظ في الشعر مقصودة لذاتهـــا بما تؤديه من جرس وايحاءات قـــد لا تستطيع ألفاظ أخرى وان رادفتها أن تؤديها وقد يتوارد شعراء كثيرون على معنى واحد ، فيصوغه كل منهم في أسلوبه الخاص ، وقد يتفاوتون في ذلك جودة وضعفا تفاوتا كبيرا مع أن المعنى واحد ، والى هذا قصد الجاحظ حين رأى أن المعاني مطروحة في الطريق يلقاها العربي والعجمي ، وانما يتفاوت الشعراء بحسن السبك وجودة اللفظ .

وشعر الصعاليك تعرض لاختلاف في كثير من ألفاظه ومن أمثلة ذلك ميمية عمرو بن براقة ، فقد تعرض بعض أبياتها للخلاف في ألفاظها فصاحب الأمالي يروى :

وكيف ينام الليل من جل ما له   حسام كلون الملح ابيض صـــارم
غموض اذا عض الكريهة لم يدع   له طمعـا طـوع اليمـين ملازم

بينما يروى البيت الثاني صاحب الاغاني هكذا :

صموت اذا عض الكريهة لم يدع   لها طمعا طوع اليمين مكارم

ويروى القالي (١) والبكري (٢) وابن عبد ربه (٣) منها :

اذا الليل أدجى واكفهـر ظـلامه   وصاح من الافراط يـــوم جواثـم

بينما يرويه صاحب الاغاني هكذا (٤) :

اذ الليل ادجى واسجهرت نجومه   وصـــاح من الافراط هام جوائم

ويروى القالي منها :

افا ليوم أدعى للهوادة بعد ما   اجيل على الحى المذاكى الصـــلادم
فان حريما ان رجـا أن أردها   ويذهب ما لى يا ابنة القيل حالم

ويروى الاصفهاني :

افا لآن أدعى للهوادة بعـد ما   اميل على الحى المذاكى الصـــلادم
كان حريما اذ رجـا أن يضمها   ويذهب ما لى يابنة القوم حالم

---

(١) الامالي ٢/١١٩ .
(٢) معجم ما استعجم ٢/٢٩٣ .
(٣) العقد الفريد ١/٣٤ .
(٤) ويروى في موضع « واسجهرت نجومه » .

ويروى القالى والاصفهانى منها :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم   فهل أنا فى ذا ياهمدان ظالم

ويروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١) :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم   فهل أنا فى ذا آل همدان ظالم

ويروى القالى :

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا   وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم

ويروى الاصفهانى :

فلا صلح حتى تعثر الخيل بالقنا   وتضرب بالبيض الدقاق الجماجم

ويروى القالى :

متى تطلب المال الممنع بالقنا   تعش ما جدا أو تخترمك المخارم

ويرويه الاصفهانى :

ومن يطلب المال الممنع بالقنا   يعش ذا غنى او تخترمه المخارم

وفيها اختلاف غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك الاختلاف فى بعض شعر شبيب عمرو بن كريب ، فيروى أبو تمام منه (٢) :

ولو أني لبثت لهم قليلا   لجروني الى شيخ بطين
شديد مجامع الكتفين باق   على الحدثان مختلف الشئون

بينما يرويهما الجاحظ هكذا (٣) :

ولو انظرتهم شيئا قليلا   لساقوني الى شيخ بطين
شديد مجالز الكتفين صلب   على الحدثان مجتمع الشئون

واذا أردنا مثالا واضحا لاختلاف الرواية فى الالفاظ ، وفى ترتيب الابيات ، فلنرجع الى مرثية مالك بن الريب ، فقد عنيت مراجع كثيرة بسردها منها أمالى القالى وأغانى الاصفهانى ، وخزانة البغدادى وجمهرة أشعار العرب للقرشى ، وفى كل منها اختلاف عن الآخر سواء فى الالفاظ أو فى ترتيب الابيات ، ولسنا نرى بأسا بسردها على طولها لنتخذها نموذجا لهذا الاختلاف ، لأهمية أثر هذا الاختلاف من وجهة القيمة الأدبية سواء أكان الاختلاف فى الالفاظ أم فى

---

(١) الموضع السابق من العقد الفريد .
(٢) ديوان الحماسة ٢٥٣/١ .
(٣) البيان والتبيين ٨٥/٣ .

الترتيب ، وهذه القصيدة قالها مالك حين أحس الموت ، يرثى بها نفسه ويعبر عن شعوره بالتشرد والغربة ، وهى كما رواها القالى (١) ٠

١ ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ‏ بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا
٢ فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه ‏ وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
٣ لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى ‏ مزار ولكن الغضى ليس دانيا
٤ ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى ‏ وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
٥ وأصبحت فى أرض الأعادى بعدما ‏ أرانى عن أرض الاعادى قاصيا
٦ دعانى الهوى من أهل أود وصحبتى ‏ بذى الطبسين فالتفت ورائيا
٧ أجبت الهوى لما دعانى بزفرة ‏ تقنعت منها أن ألام ردائيا
٨ أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا ‏ جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
٩ ان الله يرجعنى من الغزو لا أرى ‏ وان قل ما لى طالبا ما ورائيا
١٠ تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى ‏ سفارك هذا تاركى لا ابا ليا
١١ لعمرى لئن غالت خراسان هامتى ‏ لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
١٢ فان أنج من بابى خراسان لاأعد ‏ اليها وان منيتمونى الأمانيا
١٣ فلله درى يوم أترك طائعا ‏ بنى بأعلى الرقمتين وماليا
١٤ ودر الظباء السانحات عشية ‏ يخبرن أنى هالك من ورائيا
١٥ ودر كبيرى اللذين كلا هما ‏ على شفيق ناصح لو نهانيا
١٦ ودر الرجال الشاهدين تفتكى ‏ بأمرى ألا يقصروا من وثاقيا
١٧ ودر الهوى من حيث يدعو صحابتى ‏ ودر لجاجاتى ودر انتهائيا
١٨ تذكرت من يبكى على فلم أجد ‏ سوى السيف والرمح الردينى باكيا

---

(١) الامالى للقالى ١٣٦/٣ ٠

١٩ وأشقر محبوكا يجر عنـــانه الى الماء لم يترك له الموت ساقيـــــا
٢٠ ولكن بأكناف السمينة نســـوة عزيز عليهن العشية ما بيـــــــا
٢١ صريع على أيدى الرجال بقفـــرة يسوون لحدى حيث حم قضائيـــا
٢٢ ولما تــــراءت عنـــد مرومنيتى وخل بها جسمى وحانت وفاتيـــــا
٢٣ أقول لأصحابى أرفعونى فانـــه يقر بعينى أن سهيل بداليــــــا
٢٤ فيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا برابيـــة انى مقيــــم لياليـــــا
٢٥ أقيما على اليوم أو بعض ليـــلة ولا تعجلانى قـــد تبين شانيــــا
٢٦ وقوما اذا ما اســـتل روحى فهيئا لى السدر والاكفان عند فنائيــــا
٢٧ وخطأ بأطراف الأسنة مضـــجعى وردا على عينى فضـــل ردائيـا
٢٨ ولا تحسدانى بارك الله فيكمـــا من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
٢٩ خذانى فجرانى بثوبى اليكمـــا فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديـــا
٣٠ وقد كنت عطافا اذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجا الى من دعانيـــا
٣١ وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى وعن شتمى ابن العم والجار وانيـــا
٣٢ فطورا ترانى فى ظـلال ونعمـــة وطورا ترانى والعتاق ركابيـــــا
٣٣ ويوما ترانى فى رحا مســـتديرة تخرق أطراف الرماح ثيابيـــــا
٣٤ وقوما على بئر السمينه أسمعـــا بها الغر والبيض الحسان الروانيـــا
٣٥ بأنكما خلفتمـــانى بقفـــرة تهيـل على الريح فيها السوافيا
٣٦ ولا تنسيا عهدى خليلى بعدمـــا تقطع أوصـــالى وتبلى عظاميـــا
٣٧ ولن يعدم الوالون بثا يصيبهـــم ولن يعدم الميراث منى المواليـــا
٣٨ يقولون لا تبعد وهم يدفنـــونى وأين مكان البعد الا مكانيـــــا
٣٩ غداة غد يا لهف نفسى على غـــد اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويـــا
٤٠ وأصبح مالى من طريف وتـــالد لغيرى وكان المال بالأمس ماليـــا
٤١ فيا ليت شعرى هل تغيرت الرحا رحا المثل أو أمست بفلج كما هيـــا
٤٢ اذا الحى حلوهـــا جميعا وأنزلوا بها بقرا حم العيـــون سواجيـــا
٤٣ رعين وقد كاد الظـــلام يجنهـــا يســـفن الخزامى مرة والا قاحيـــا

٤٤ وهـل أترك العيس العوالى بالضحى | بركبانهـا تعلو المتـــان الفيافيـــا
٤٥ اذا عصب الركبان بين عنيـــزة | وبولان عـاجوا المبقيـات النواجيـا
٤٦ فيا ليت شـعرى هل بكت أم مالك | كمـا كنت لو عـالوا نعيك باكيـــا
٤٧ اذا مت فاعتادى القبور وسـلمى | على الرمس أسقيت السحاب الغواديا
٤٨ على جدث قد جرت الريح فوقـه | ترابا كسحق المرنبانى هابيـا
٤٩ رهينة أحجار وترب تضـمنت | قـرارتها منى العظـام البواليـا
٥٠ فيا صاحبا أما عرضت فبلغـن | بنى مـازن والريب ألا تلاقيـا
٥١ وعر قلوصى فى الركاب فانهـا | ستفلق أكبادا وتبـكى بواكيـا
٥٢ وأبصرت نار المازنيات موهنـا | بعليـاء يثنى دونها الطرف رانيـا
٥٣ بعود النجوج(١) أضاء وقودهـا | مهـا فى ظلال السـدر حورا جوازيا
٥٤ غريب بعيـد الدار ثار بقفـــرة | يد الدهر معـروفا بأن لا تدانيـا
٥٥ أقلب طرفى حول رحلى فلا أرى | به من عيون المؤنســات مراعيـا
٥٦ ــ وبالرمل منا نسوة لو شهدننى | بـكين وفدين الطبيب المـداويا
٥٧ وما كان عهد الرمل عندى وأهـله | ذميمـا ولا ودعت بالرمل قاليا
٥٨ فمنهن أمى وابنتـاى وخـالتى | وباكيـة أخرى تهيج البـواكيـا

وهى فى رواية الأمالى كما نرى ثمانية وخمسون بيتا ، وكذلك أوردها البغدادى فى خزانته (٢) من حيث العـدد وكذلك أيضـا أوردها صـاحب الأغانى (٣) بينما جعلها القرشى فى جمهرته (٤) اثنين وخمسين بيتا فقط ، وأما من ناحية الاختلاف فأقرب الروايات الى بعضـها روايتا الأمالى والاغانى ، ومع ذلك فبينهما اختلاف فى الألفاظ فى تسعة أبيـات ، واذا تجاوزنا عن أن الأصفهانى صدر القصيدة بالبيتين الرابع والعشرين والسابع والعشرين فذكرهما أولا ساردا القصيدة بعدهما ثم كررهما فى موضعهما من القصيدة مرة أخرى ، ويمكن حمل ذلك على أنه فكر أولا فى الاكتفاء بهما كنموذج من القصيدة ثم رأى أن يوردها كاملة ، وكل ما يؤخذ عليه أنه كان ينبغى أن يفصل بينهما وبـين

---

(١) الانجوج واليلنجوج عود الطيب يتبخر به .
(٢) الخزانة ٢/٤٧ .
(٣) الأغانى ١٣/٤٨ ومواضع أخرى بالفهرس .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٤٣ .

القصيدة ، حتى لا يوحي ذلك بأنهما مطلع القصيدة خاصـــة وأن القصيدة لم تلتزم التصريع في مطلعها ، مما يجعل أي بيت من هذه الوجهة يصلح مطلعـــا لهـــا ، اذا تجاوزنا ذلك نقول أن الأبيات التسعة التي اختلف فيها مع القالي تفاوت فيها الاختلاف قوة وضـــعفا ، فبعضها في مجرد حرف كالبيت الرابع والعشرين الذي ساقه الاصفهاني في أول القصيدة ثم كرره في موضعه منهـــا فرواية الأمالي « فيا صاحبي » ورواية الأصـــفهاني « أيا صاحبي » وبعضها في الكلمات وهيئاتها كالبيت التاسع عشر ، في الأمالي « واشقر محبوكا يجر عنانه وفي الأغـــاني « وأشقر محبـوك يجر لجامه » والبيت التاسع والعشرين . في الأمالي « خذاني فجراني بثوبي » وفي الأغاني « ببردى » والأمالي « فقـد كنت » والأغاني « فقد كان » وفي البيت الثلاثين في الأمالي « وقد كنت ··· سريعا لدى الهيجاء » وفي الاغاني « الى الهيجاء » وفي البيت الثالث والأربعين في الأمالي « كاد الظلام » وفي الأغاني « كان الظلام » وفي البيت الخمســـين في الأمالي « فيا صاحبا » وفي الأغاني « فيا صاحبي » وفي البيت الذي بعده في الأمالي « وعر قلوصي » وفي الأغاني « وعطل قلوصي » وفي البيت الذي بعدهمـــا في الأمالي « موهنا » وفي الأغاني « أنهـــا » وفي الأمالي « رانيا » وفي الأغـــاني « رائيا » وفي البيت الأخير في الأمالي « فمنهن أمي وابنتاي وخالتي » وفي الأغاني « أمي وابنتاها » وسياق القصيدة يرجح رواية الأمالي حيث يتحدث فيهـــا عن بعض بناته في البيت العاشر ·

وأما في رواية البغدادي فاختلاف أكثر ، حيث نجده في خمسة عشر بيتا هي الأبيات الخامس والثامن والثاني عشر والسابع عشر والتاسع عشر وفي التاسع والعشرين والثلاثين والثاني والأربعين والثالث والأربعين ، والسادس والأربعين، والخمسين والذي بعده والثالث والخمسين والذي بعده والأخير ، وفي بعضها وافق الأمالي وفي البعض الآخر وافق الأغاني ، وزاد البغدادي أن في اختلافاته يتغير تركيب الكلمات ، ففي البيت الرابع والخمســين في الأمالي « غريب بعيد الدار » أما في الخزانة فهي « بعيد غريب الدار » ·

على أننا نلاحظ أن هذه الخلافات في جملتها لا تغير المعنى ، وكل حديثنا عنها من ناحية أهمية الألفاظ نفسها وترتيبها كما نطق بها الشاعر ، فان الأديب أو الشاعر المطبوع ينفث في كلمـــاته وفي ترتيبها من الجـــرس ، والأحاسيس الخاصة ما لا نجده في ألفاظ أخرى وان رادفت ألفاظه ، بل ولا في ألفاظه نفسها اذا أخرجت من موضعها أو تغير ترتيبها ، ويكون مثل ألفاظ الأديب أو الشاعر حينئذ ومرادفاتها من الألفاظ الأخرى مثل سلكين من نوع وحجم واحد يسري في أحدهما تيار كهربي دون الآخر ، فهما في مرأى العين لا يختلفان في شيء ، ولكنهما عند اللمس والتذوق يختلفان اختلافا شديدا ·

وإذا كان الاختلاف في المصادر السابقة – على أهميته – في الالفاظ فقط ، بحيث لا يتغير بها المعنى تغيرا كبيرا ، فان صاحب جمهرة اشعار العرب (١) كان اختلافه أبعد من ذلك ، فمن حيث العدد جعلها اثنين وخمسين بيتا فقط وخالف في الترتيب بين بعض أبياتها ، وزاد فيها بما لم يرد في الروايات الاخرى كقوله بعد البيت الثلاثين « وقد كنت محمودا لدى الزاد ... الخ » وغير ألفاظا لم يرد خلاف فيها فيما سبق كقوله في البيت قبل الاخير (٢) « فمنهن أم » مع أن الروايات الأخرى تتفق على أنها « أمي » .

هذا عن المراجع التي ساقت القصيدة كلها ، وحين نذهب الى المراجع التي استشهدت منها بأبيات مفردة ، أو اقتطعت منها نماذج ، نجد فيها أيضا اختلافا فيه بعض ما سبق وفيه اختلاف عن كل ما سبق فابن قتيبة يورد منها ثمانية أبيات (٣) فيها بعض ما سبق من اختلاف وفيها مخالفة في بعض الالفاظ لكل ما سبق كقوله في البيت الرابع والعشرين « فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا » ، مع أنه في الروايات السابقة « فانزلا » .

والأصفهاني في موضع غير الموضع الذي ساق فيه القصيدة (٤) يذكر بيتا منها منسوبا لجعفر بن علبة الحارثي ضمن قصيدته ويقول ان هذا البيت بعينه يروى لمالك بن الريب في قصيدته المشهورة التي يرثي بها نفسه وهو البيت الواحد والخمسون .

وعطـل قلوصي في الركاب فانهـا ستبرد أكبادا وتبكي بواكيا

بلفظ « ستبرد » مع أنه ذكره في القصيدة « ستفلق » .

والبكري (٥) يختلف في البيت العشرين عن كل الروايات السابقة فيقول « وان بأطراف الشبيكة نسوة » مع أنها في الروايات السابقة « ولكن بأكناف السمينة نسوة » .

واذا كان علماء مثل القالي وابن قتيبة والبكري والأصفهاني والبغـدادي والقرشي غير علماء آخرين يختلفون في قصيدة واحدة ، مع أنهم يصفونها بأنها مشهورة ، ومع أن عصر شاعرها كان خيرا مما سبقه من العصور من حيث كثرة الرواية وضبطها وكثرة العلمـاء القائمين على نقدها وحمايتها من العبث بهـا والانحراف فيها ، نقول اذا كان الأمر كذلك نعلم الى أي مدى يكون الاختلاف فيما دون هذه القصيدة وصاحبها من الشهرة ، وما قبل هذا العصر مما لم تكن

(١) القرشي ص ١٤٣ .
(٢) في الروايات الأخرى هو البيت الأخير .
(٣) الشعر والشعراء ٣١٢/١ .
(٤) أنظر الأغاني ٤٨/١٣ .
(٥) معجم ما استعجم ٧٨١/٣ .

فيه الرواية قد وصلت الى صورتها تلك ، ولم يكن التفرغ لجمع الشعر وتدوينه قد وصل الى مرتبته حينذاك ، ولذلك يجد الدارس أن الاختلاف بين الروايات في الشعر الجاهلي أشد منه في الشعر الاسلامي ، وكتاب التنبيه على اوهـام القالي للبكري يعتبر من حيث هو مثالا لبعض ما وقع من خطاء الرواية ، حيث ان الكتاب كله تصحيح لأخطاء الأمالي التي صدرت عن أبي علي القالي .

ثانيا : الاختلاف في نسبة الشعر :

والنوع الثاني من الخلاف في شعر الصعاليك ، هـو اختلاف الروايات حول نسبة بعض الشعر لأحدهم أو لغيره ، والمتتبع لهذا النحو ، يجد ان هذا الخلاف قد مس معظم شعراء الصعاليك ، فمثلا كما رأينا الأصفهاني يروى أن أحد أبيات مرثية مالك بن الريب قد تنوزع حول نسبته الى مالك أو جعفر بن علبة (١) .

وعن عروة بن الورد يروى القالي (٢) « قال عروة بن الورد » :

لا تشـتمني يا بن ورد فانـه ... تعـود على مالي الحقـوق العـوائد
ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به ... خصـاصة جسم وهـو طيان ماجد
واني امـرؤ عـافي انائي شركة ... وانت امرؤ عافي انائـك واحـد
أقسـم جسمي في جسـوم كثيرة ... واحسو قـراح الماء والماء بارد

ويرد البكري على رواية القالي بقوله « هذا من أوهام أبي علي – القالي – رحمه الله وغفلته ، فكيف ينشد لابن الورد « لا تشتمني يا بن ورد » وانمـا البيت الأول من الأبيات التي أنشد لقيس بن زهير بن جذيمة صاحب حـرب داحس ، يرد على عروة وكان بينهما تنافس وكان قيس أكولا مبطانا فكان عروة يعرض له بذلك في أشعاره ، فمن ذلك قوله :

واني امـرؤ عـافي انائي شـركة ... وانت امـرؤ عافي انائـك واحـد

فقال قيس يجيبه :

لا تشـتمني يا بن ورد فانني ... تعـود على مالي الحقـوق العـوائد

وقال محمد بن يزيد – رحمه الله – ان قوله « ومن يؤثر الحق النؤوب ... » ليس لعروة وانما هو لهذا العبسي الذي رد عليه (٣) » وهكذا يقسـو البكري على القالي في غفلته مصححا خطأه ، مع أنه هو نفسه يشير الى عدم تأكده

---

(١) أنظر الأغاني ٤٨/١٣ .
(٢) الأمالي ٢٠٠/٢ .
(٣) التنبيه على أوهام القالي ص ١١٢ .

من هذا التصحيح ، بدليل انه أدخل في الحديث رواية ابن يزيد ، ومع تحامل البكرى على القالى نجد أن البكرى نفسه لم يكن دقيقا فى هـذا التنبيه ، فان سياق المفاخرة بين عروة وقيس يدل على أن البيت الثانى الذى نسبه البكرى الى قيس وهو « أتهزأ منى ... » ليس لقيس الا على تأول فى معناه بحمله على غير النحول ، فالسياق يرجح أنه لعروة وليس لقيس ، وقد نسبه الاصفهانى فعلا لعروة (١) وقد تحاشى ابن السكيت هذا البيت فيما جمعه من ديوان عروة ، فذكر بعض الأبيات السابقة ولم يذكر هذا البيت (٢) ، وكما التبس على القالى فنسب الأبيات كلها الى عروة ، فكذلك التبس الأمر على المبرد فنسبها كلهـا لقيس بقوله « وقال رجل من بنى عبس » « قال أبو الحسن يقوله لعروة بن الورد » (٣) ثم ذكر الأبيات الأربعة وأكثر ما وقع الاختلاف فى شعر الصعاليك كان فى شعر تأبط شرا ، ومن ذلك القصيدة التى أولها :

ان بالشعب الذى دون سلع ... لقتيلا دمه ما يطل

وهى قصيدة رثاء ، وقد نسبها أبو تمام الى تأبط شرا (٤) ولكن روايات أخرى تنسبها لابن اخت تأبط شرا يرثيه (٥) وبعض الروايات ترى أن ابن اخته هذا هو الشنفرى ، والتبريزى يرى أن القصيدة مولدة من شعر خلف الأحمر ويستنصر بالنمر وأبى الندى ، وليس لهم من دليل الا النقد الموضوعى للقصيدة ، قائلين ان من عباراتها « جل حتى دق فيه الأجل » أى عظم الخطب حتى صغر عنده كل عظيم ، ويرون أن الاعرابى « لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا » وأن القصيدة تحدد موضع قتله بسلع من ضواحى المدينة مع أنه قتل فى بلاد هذيل وألقى فى غار يسمى رخمان (٦) ، والواقع أنه وان كانت هذه الأدلة مجرد ترجيح الا أننا حين نتأمل القصيدة فى جملتها وأوزانها وحتى فى قافيتها نجدها غريبة على شعر تأبط شرا وعلى شعر الصعاليك بصفة عامة ، ومن ثم نجد لنقد التبريزى وصاحبيه وجاهته ، ومما اختلف فيه أيضا أربعة أبيات رواها بعضهم فى قصيدة امرىء القيس المشهورة « قفا نبك » وهى :

وقربة أقوام جعلت عصامها ... على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوى كالخليع المعيل

---

(١) الأغانى ٢/١٤ .
(٢) انظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٨٠ ، ٨٧ .
(٣) الكامل ٣٦/١ والضمير فى يقوله يعود على الشعر أى أن العجمى يخاطب عروه بهذا الشعر .
(٤) ديوان الحماسة ٣٤٢/١ .
(٥) العقد الفريد ١٢٧/٣ .
(٦) شرح التبريزى للحماسة ٣٤١/١ ، ٣٤٣ والأمالى ٢٧٨/٢ .

فقلت له لمـــا عـــوى ان شـــأننـــا قليل الغنى ان كنت لما تمول
كـــلانا اذا مـــا نال شـــيئا افاته ومن يحترث حرثى وحرثـك يهــــزل

ويرويها بعضهم لتأبط شرا (١) وبعضهم يلجأ الى النقد الموضوعى كالنقد السابق فيقول ان هذا أشبه بكلام الصـــعلوك لا كلام طالب الملك (٢) ، يعنى تصعلك تأبط شرا ، وطلب امرىء القيس للملك ، وهذا واضح فى حديث الأبيات عن تفاصيل خاصة بحياة الصعاليك وفقرهم وعدوهم ، والجاحظ يكرر الشك فى نسبة بعض الشعر لتأبط شرا أو غيره ، فمرة يقول : وقال تأبط شرا أو أبو محرز خلف (٣) ومرة يقول : وقال تأبط شرا ان كان قالها (٤) وأخرى يقول : ومن هذا الباب قول تأبط شرا أو قول قائل فيه (٥) ، وبعض الباحثين يستنتج أن الجاحظ يغلب عليه الاعتماد على ذاكرته فى الاملاء والكتابة دون الرجوع الى المصادر للتثبت من مصدر الرواية (٦) ومثل هذه التعبيرات من الجاحظ فى تشككه تجعل للرأى المشار اليه قيمة ٠

ومن أمثلة الخلاف فى نسبة الشعر ما نسبه أبو تمام الى أبى الطمحان بقوله « وقال أبو الطمحان القينى الأسدى وحلقه صاحب شرطة يوســـف بن عمر (٧) » والتبريزى يقول انما الأبيات لطخيم أبو الطخماء الأسدى وكان بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المرى وكان على شرطة يوسف بن عمر فحلق رأسه فقال هذه الأبيات (٨) ، والواقع يؤيد التبريزى ، فان أبا الطمحان مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، فلم يدرك ذلك العصر ، على أن الحادثة حتى لو كانت فى أول الاسلام فلا تناسب أبا الطمحان ، لأنه أسلم وهو شيخ أشيب ، فلم يكن فى لمته من الجمال ما يصفه هذا الشعر بقوله :

لقـــد حلقوا منهـــا غدافا كـــأنه عنـــاقيد كـــرم أينعت فاســـبكرت
فظل العـــذارى يوم تحـــلق لمـــتى على عجـــل يلقطنهـــا حيث خـــرت

ومال العذارى وشيب أبى الطمحان ؟

ومن أمثلة الخلاف أيضا عن شعر أبى خراش الهذلى ، حديث البغدادى عن البيت التالى :

---

(١) شرح القصائد السبع لابن الانبارى ومعنى الشطر الأخير ان من يعش فى مثل عيشى وعيشك يهلك من الهزال ٠
(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١/٩٣ ٠
(٣) الحيوان ١/١٨٢ ٠
(٤) الحيوان ٣/٦٨ ٠
(٥) الحيوان ٦/٢٥٥ ٠
(٦) هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، أنظر مصادر الشعر الجاهلى له ٠
(٧) ديوان الحماسة ٢/٤١٢ ٠
(٨) شرح التبريزى للحماسة ٢/٤١٢ ٠

انــى اذا ما حـــدث ألـــا أقــول يا اللهــم يا اللهمـــا

حيث يقول نقلا عن أبى زيد وهـــذا البيت من الأبيات المتداولة فى كتب العربية ، ولا يعرف قائله ولا بقيته وزعم العينى انه لابى خـراش الهـــذلى قال وقبله :

ان تغفـــر اللهـــم تغفـــر جمـــا وأى عبـــد لـــك لا ألـــا

وهذا خطأ ـ يعنى من أبى زيد الذى نقل عنه ما سبق ـ فان هذا البيت الذى زعم أنه قبله بيت ، مفرد لا قرين له ، وليس هو لأبى خراش وانما هو لأمية بن أبى الصلت قاله عند موته وقد أخذه أبو خراش وضمه الى بيت آخر ، وكان يقولهما وعو يسعى بين الصفا والمروة وهما :

لاهــم هــذا خامس ان تمـــا أتمـــه اللـــه وقـــد أتمـــا
ان تغفـــر اللهـــم تغفـــر جمـــا . . . . الـــخ

وقد تمثل به النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

ومن الحق أن نقول : انه اذا كان الاختلاف فى الألفاظ قد أصاب كثيرا من شعر الصعاليك ، فان الاختلاف فى نسبته لم يصب منه الا القليل .

وهناك صورة أخرى من الاختلاف ، لا تخلو من غرابة ، هى أننا نجد بعض شعر الصعاليك منبثا فى شعر غيرهم ، ومنسوبا الى غيرهم ، كالبيت الذى قال الأصفهانى عنه آنفا انه مذكور فى قصيدة جعفر بن علبة مع أنه بنصـــه ، فى قصيدة مالك بن الريب السابقة ، وكأبيات تأبط شرا الاربعة ، التى أدخلت فى قصيدة امرىء القيس .

ومع ذلك فتعليل هـــذا ميسور ، بحمله على الالتباس فى نفس الراوى ، حين يروى قصيدتين لشاعرين من وزن واحد وقافية واحدة ، فقد يخطىء بوضع بيت أو أكثر من احدى القصيدتين فى الأخرى :

ولكن الذى يصعب تعليله أن نجد مقطوعات كاملة أو شبه كاملة من شعر الصعاليك مذكورة ضمن قصيدة أخرى غير متفقة فى الوزن والقافية ، أو فى أحدهما مع قصيدة شاعر من غير الصعاليك ، مثال ذلك أبيات عروة بن الورد ، التى اتفقت الروايات على أنها له وهى :

لحـا اللـــه صـــعلوكا اذا جن ليله مصـافى المشـاش آلفـا كل مجـزر
يعـد الغنى من نفســـه كل ليـــلة اصـــاب قراها من صـــديق ميسر
ينـــام ثقيـــلا ثـم يصبح قاعـــدا يحث الحصـــى عن جنبـه المتعفـر

(١) خزانة الأدب ٢/١٠٣ .

يعين نساء الحي ما يستعنه فيضحي طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
وان بعدوا لا يامنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك أن يلق المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فأجدر (١)

وهذه الأبيات لم يختلف أحد فى نسبتها الى عروة ، وهى من قصيدة طويلة أوردها ابن السكيت فى شرحه لديوان عروة ٠

وهذه الأبيات نفسها بمعانيها ، وتكاد تكون بألفاظها نجدها فى قصيدة ميمية لحاتم الطائى حيث نجد فى آخر هذه القصيدة بنصه وترتيبه ما يأتى :

لحا الله صعلوكا مناه وهمه من العيش ان يلقى لبوسا ومغنما
ينام الضحى حتى اذا نومه استوى تنبه مثلوج لفؤاد مورما
مقيما مع المثرين ليس ببارح اذا نال جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوك يساور همه ويمضى على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة ان نالها عد مغنما
يرى الخمص تعذيبا ولم يلق شبعة يبيت قلبه من قلة الهم مبهما
اذا ما راى يوما مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثمت صمما
ويغشى اذا ما كان يوم كريهة صدور العوالى فهو مختضب دما
يرى رمحه ونبله ومجنه عتاد فتى هيجا وطرفا مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما (٢)

فهذا التوافق الذى يكاد يكون كاملا فى المعانى وان اختلف ترتيبها ، وفى كثير من الألفاظ أيضا ، يدعو الى النظر ، ويصعب تعليله، لأن القصيدتين ليستا متفقتين فى الروى حتى نقول بأحتمال أنه حدث تداخل بينهما فى رواية الأبيات ، ومع ذلك فلسنا نرى هذا التوافق الظاهر بينهما يدخل فيما أجازه النقاد للشعراء كتوارد المعانى أو توليدها او تجديد صياغتها ، ولا فيما لم يجيزوه كالسرقة والسطو ، لأن ذلك كله يحدث عادة فى البيت أو البيتين ، والمعنى أو المعنيين بين قصيدتين ، أما أن يحدث فى جملة أبيات تصلح أن تكون قصيدة فهذا ما يدعو الى النظر ٠

على أننا حين نعرض هاتين المجموعتين على النقد ، نجد أمامنا زاويتين متعارضتين مما يزيد الموضوع لبسا وغرابة ، فمن الناحية الفنية يمكن أن نقول أن هذا الشعر يصور نفسية الصعاليك ومذهبهم فى الحياة ، وهو يتفق مع

---

(١) الكامل للمبرد ٧٨/١ وديوان حماسة أبى تمام ١٥٩/١ ، ١٦٠ والقصيدة كاملة فى ديوان عروة ص ٩٢ ٠

(٢) خزانة البغدادى ٢٩١/٢ ٠

الاتجاه العام لشعرهم ، وما يتردد كثيرا من معانيهم ، ومن هذه الناحية يمكن أن يقال أن عروة هو السابق في هذا الشعر ، وان حاتما احد عنه معاويه كلها ٠ ولكننا من الناحيه التاريخيه نجد أنه وان لم تحدد الروايات بدء حياة كل من عروة وحاتم ووفاته الا انها تشير الى أن حاتما سابق على عروة رغم قرب زمنيهما، فان حاتما لم يدرك الاسلام ، وانما أدركه ابنه عدي وبنته سفانه ، ولقيـا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وعروة أدرك الاسلام وان لم يسلم ، ويدل على ذلك ما ورد في أخباره أن امرأته كانت فيمن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وان كان هذا ترجيحا ومن هذا لا نرى أمامنا الا أن نرجح أن حاتما الطائي هو السابق بأبياته ، وأن حديثه عن الصعلكة ليس بغريب ٠ بل ليس بغريب أن يكون قد زاول الصعلكة في فترات من حياته ، كما رأينا فيما سبق سادة مثله وأعلى منه سيادة زاولوها ، في مجتمع كان طابعه الغزو والسلب والنهب (٢) ، لا فرق في مزاولة أساليب الصعلكة فيه بين السادة والصعاليك الا أن الصعاليك كانوا يتخذون من الصعلكة حرفة دائمـــة ، وغيرهم كان يزاولها في ظروف خاصة ، وحاتم الطائي مرت به بعض الظروف التي يمكن أن تدفعه الى الصعلكه حينذاك ، ومنهـــا الفقر في بعض فترات حياته ، كمـا ورد في أخبـــاره (٤) وما يحدثنا به هو في شعره من مثل قوله :

غنينـا زمـــانا بالتصـــعلك والغنى فكـــلا ســقاناه بكاسيهما الدهـــر
فمـــا زادنا بغيا عـــلى ذى قـــرابة غنانا ولا أزرى باحســابنا الفقر (٤)

ونرجح أيضا أن عروة بن الورد بلغته أبيات حاتم ، وتأثر بها في شعره هذا ونستبعد أن يكون هذا من توارد الخواطر ، ونستبعد أيضا أن يكون من خطا الرواية ، أو تداخل الأبيات بين القصيدتين ٠

على أننا مهما نجد من اختلاف أو اضطراب حول شعر الصعاليك ، فان في شعرهم ميزة تحميه من الذوبان في غيره ، أو الالتباس بشعر آخر كما يحدث لغيره ، هذه الميزة هي أن شعر الصعاليك ـ كما سيأتي في الحديث عن منهجه وخصائصه ـ يتميز دائما بطابع خاص ، يميزه عن غيره من عدة زوايا ، بحيث يمكن للناقد ذي الذوق الأدبي الدارس لشعر الصعاليك ، أن يميزه عن غيره في غير جهد أو عناء شديدين ، وقد اعتمد البغدادي فعلا على هذا النقد الموضوعي في شعرهم عن غيره ، كما سبق في قوله عن أبيات تأبط شرا التي رويت في قصيدة أمرىء القيس ان هذا الكلام أشبه بكلام الصعلوك واللص ، لا بكـــلام

---

(١) خزانة البغدادي ٢/٢٩١ ٠
(٢) أنظر تفسير قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » الآية ٦٧ العنكبوت ـ تفسير الكشاف ، وأنظر ما سبق ٠
(٣) أنظر خزانة البغدادي ٢/٢٩٢ ٠
(٤)أنظرلسان العرب مادة (صعلك) ٠

الملوك (١) ولذلك اضطر الذين رأوا نسبة هـــذه الأبيات الى امرىء القيس ان يتلمسوا أخبار حياته ، ليجدوا فيها ما يثبت أنه تصعلك فترة من حياته ، او أنه كان يتتبع الصـــعاليك وذلك فى فترات حروبه وصراعه من أجـــل استعادة ملك أبيه (٢) ٠

لامية العـــرب :

من حق اللامية لأهميتها ولما دار حولها من حديث أن تحظى بحديث خاص لا يغمره سياق حديث آخر ٠

والواقع أنه لم تحظ قصيدة عربيــــة بمثل ما حظيت به لامية العرب من اهتمام سواء فى القديم والحديث ،فقد تداولها الرواة ، ثم تناقلها كثير من العلماء والمؤلفين ، ثم توالى عليها عدد كبير من الشراح فى شروح خاصة بها(٣) وأشهرها أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ، ثم جاء المستشرقون فأولعـــوا بها ولعا بينا، واكبوا على دراستها وترجمتها الى كل اللغات الأوربية تقريبـا ، مظهرين اعجابهم فى تقديم كل دراسة أو ترجمة عنهـــا وصاحب تاريخ الأدب العربى (٤) يسرد كثيرا من دراســات المستشرقين وترجماتهم لها ، ويصـــف اللامية بأنها تمثل مذهبا شعريا مستقلا عن الشعر العـربى القديم كله حيث يقول « أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كمـــا أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصـف الطبيعة من الجبال والفيافى وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر اللاميـــة هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله » (٥) ثم يصفها عقب ذلك بأنها « قصيدة لامعة بين قصائد الشعر الجاهلى » ، والواقع أن حديث اللامية يحتاج الى بحث خاص ، ولكننا لا نستطيع الافاضة فى حديثها لأنها وان كانت من صلب الموضوع كجزء من شعر الصعاليك ، بل غرة فى شعرهم الا أن الحديث عنها ليس مقصودا لذاته ، ومع ذلك يمكن أن نوجز ما يتعلق بها فى النقاط الآتية :

١ ـ صاحب اللامية وهو الشنفرى أزدى يمنى الأصل ، ولكنه سبى وهـو صبى ، وعاش أسيرا فى بنى شبابة بن فهم من نجد ، ثم انتقل الى بنى سلامـــان

---

(١) أنظر خزانة الأدب ٩٣/١ ٠

(٢) أنظر الشعراء الصعاليك د٠ يوسف خليف نقلا عن الاصمعى فصل (الأسلوب القصصى) ٠

(٣) أنظر فهارس الشروح بدار الكتب المصرية وبها أكثر من خمســـة عشر شرحا مطبوعا ومخطوطا للامية العرب كما عدد بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى كثيرا من الشروح ١٠٥/١ ترجمة النجار ٠

(٤) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما بعدها ترجمة النجار ٠

(٥) المصدر السابق ٠

ابن مفرج بنجد أيضا ، في حادث مبادله أسرى بين بني سلامان وبني فهم ، ومن خلال الروايات عن شخصيه الشنفرى وظروفه ، نرى فيه شخصيه فـذة في عدة نواح ، في قوة الارادة الى درجة غير مألوفة ، ومن امثلة ذلك تصميمه على قتل مائه رجل من بني سلامان وانفاذ عزمه ، وفي قوة تركيبه الجسمي ، ومن أمثلة ذلك أنه كان يسبق الخيل في عدوه ، وفي قوة عقليته وعمق تفكيره ، ومن أمثلة ذلك أنه كما يصفونه كان يضرب به المثل في الحذق (١) والدهـاء وما وصـل الينـا من شعره حتى غير اللامية يدل على ذلك ، وقد شاءت الظروف لهذه المواهب أن تعيش في أسوأ ظروف اجتماعية ، أبرزها أنه مجرد أسـير ذليل لا يملك حتى حريته ، بل ازدادت الظروف قسـوة عليه حين تعـرض لحوادث اضطهاد واذلال من بني سلامان حين تطلعت نفسه الى الارتباط باحـدى فتياتهم ، فاتجه الى الصعلكة حتى كان من أبرز الصعاليك وأشهرهم على الاطلاق صابا سخطه ونقمته على كل الناس ممثلين في بني سلامان ، وموجز وصفه أنـه شخصية فذة لامعة ، قسمت عليها الظروف حتى بغضت اليها الحياة ٠

وخلال وحدته وتشرده في الصعلكة قال هذه اللامية ، وهي ثمانية وستون بيتا ، فجاءت القصيدة مطابقة كل المطابقة لشخصيته بما فيها من مقومـات، وعقليته بما فيها من عمق ونضوج وظروفه بما فيها من قسوة وجفاف ، حتى كان القصيدة مرآة صقيلة نرى فيها الشـنفرى وحياته بوضوح وكما وصـف الشنفرى بأنه شخصية فذة لامعة ، كذلك وصفت اللامية بأنها قصيدة فـذة لامعة كما يقول كارل أنها فذة في مذهبها لامعة في وضعها بين القصائد ، وهـذا التطابق من أقوى الأدلة على أن اللامية من انتاجه ٠

٢ – ظلت اللامية منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر مشهورة بأنهـا للشنفرى ، وقد تناولها كثير من أجلة الأدباء والنقاد بالشرح ، ولم يبـدوا أى شك أو اشارة الى أنها نسبت لأحد من الشعراء غير الشنفرى ، ولم تؤثـر في ذلك بذرة الشك التي وضعت في زمن خلف الأحمر ٠ بأن اللامية من وضع خلف وليست للشنفرى فان مثل هذه الآراء الضعيفة أو الغمزات الأدبية الطائفية شائعة في الأدب العربي حول كثير من الشعر ولكنها لم تؤثر في الاتجاه العام للنقـاد والأدباء بمعنى أن كثيرا من القصـائد غير اللامية نسبت في رأى ضعيف أو في اشارة عابرة الى غـير شاعرها ، ولكن شـهرة القصـيدة في نسبتها لقائلها ومعرفة عامة العلماء لمصدرها ورواتها ، لم يجعل لمثل هـذه الآراء الضعيفة قيمة ولا تأثيرا في الاتجاه العام ، بل لم تكن هذه الآراء تحظى حتى بمجرد التعليق أو التعقيب في معظم الأحيان ، كالرأى الذى أثير في حيـاة القالي بأن اللامية من وضع خلف الأحمر ، فان القالي نفسه وهو رأوى هذا لم يعقب عليه ، ولم يجد فيما يبدو أنه يستحق المناقشة ٠

(١) أنظر ترجمته ومراجعها بهذا البحث فصل (الشعراء الصعاليك : الجاهليون) ٠

وظل الامر كذلك في شهرة اللامية بأنها للشنفرى ، وعدم التفات النقاد والعلماء الى ذلك الرأى المشكك حتى جاء المستشرقون في العصر الحديث ، ومع ما أبدوه من اعجاب شديد باللامية ، واهتمام بالغ بدراستها ونقلها الى لغاتهم، الا أن بعضهم مثل كرنكو (١) أثار الشك في نسبتها الى الشنفرى ، وجعل من هذا الشك موضوع دراسة واهتمام ، ويذكر أنه تتبع آراء قدامى اللغويين في شكهم هذا ، في حين أننا لا نعلم ان أحدا في تاريخ الأدب العربي منذ الجاهلية نفى اللامية عن الشنفوى الا ابن دريد في رواية القالى من أن ابن دريد حدثه ان هذه اللامية لخلف الأحمر (٢) ، ولكن بعض المستشرقين لا يوافقون بعضهم الآخر على نفى اللامية عن الشنفرى ، وينفون بشدة أنها لخلف الأحمر مؤيدين بشدة أيضا أنها للنشفوى كما فعل صاحب تاريخ الأدب العربي (٣) فيما قرره ٠

٣ ـ اقتفى بعض الباحثين (٤) أثر المشككين من المستشرقين ، مشيرا الى تأثره بهم ، وانتهى من حديثه عن اللامية بأنها ليست للشنفرى ، وانما هي لخلف الأحمر ، مع أنه اعترف بأن النقاد والعلماء والشراح العرب في كل العصور نسبوها الى الشنفرى دون شك أو اشارة الى أنهم يشكون في نسبتها الى أحد غير الشنفرى ، وأنه لم تشذ عن هذا الاجماع الا رواية ابن دريد ، وحصر أدلته على أن اللامية ليست للشنفرى فيما يأتي : ـ

(أ) ابن دريد كان قريب عهد بخلف فهو أكثر صلة بالروايات حينذاك ، ونقل هذا عن كرنكو الذى أشرنا الى أنه تزعم الحملة ضد نسبة اللامية الى الشنفرى فيما رآه ٠

(ب) الأصفهاني في أغانيه ، ولسان العرب ، على كثرة حديثهما في شعر الصعاليك أغفلا ذكر اللامية فلم يرد لها ذكر في أحدهما ، ولم يستشهدا بشيء منها ٠

(جـ) اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتا (٥) وهي في طولها هذا لا تتفق مع شعر الصعاليك من حيث أنه يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات مع أنه اعترف بأن للشنفرى قصيدة أخرى تبلغ خمسة وثلاثين بيتا (٦) وأنها أطول ما ورد من شعر الصعاليك ، وأضاف الى ذلك قلة الاضطرابات في ألفاظها

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية الألمانية ٤/٣٣٥ كما ذكر كارل في تاريخ الأدب العربي ترجمة النجار ١/١٠٥ ٠

(٢) أمالى القالى ١/١٥٥ وصاحب تاج العروس مادة (آم) ينسبها الى تأبط شرا وواضح منه أنه ليس غير مقصود به الرواية ٠

(٣) كارل بروكلمان ١/١٥٥ ٠

(٤) أعنى به الدكتور يوسف خليف في الشعراء الصعاليك ص ١٧٧ ـ ١٧٩ ٠

(٥) هي في رواية القالى في الأمالى ٦٧ بيتا فقط ٠

(٦) هي قصيدة تائية بالمفضليات ص ١٥٨ وهي ٣٦ بيتا وليس العدد كما ذكر من أنه ٣٥ ٠

وترتيب أبياتها بين الروايات بخلاف شعر الصعاليك ، وأضاف أيضـا ما لاحظه كرنكو من قلة اسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهى بذلك تخالف الشعر كله ٠

(د) ختم حديثه هذا بأن اللامية لخلف الأحمر ، وأن خلفا صـور فيها حيـاة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا حتى يصح أن نطلق عليه لاميه الصعاليك أو دنيا الصعاليك ٠ هذه الأربعة مسـتندات هذا الرأى ، وحين نأتى الى مناقشتها نقول : أما الدليـل الاول عن ابن دريد وقرب عهده من خلف وسلسلة تلاميذه ، فيرد عليه بعدة نوح ، منهـا أن القالى نفسه وهـو الذى روى هذه الرواية عن ابن دريد ، معاصر لابن دريد حيث يقـول « حدثنى أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التى أولها .

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميـل

له ـ يعنى لخلف الأحمر ـ وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة » (١) وهذا فى سياق حديثه عن خلف حيث يقول قبل هذه الرواية مباشرة : قـال أبو على : كان أبو محرز أعلم الناس بالشعر واللغة ، وأشعر الناس على مذاهب العرب ، ثم ساق روايته عن ابن دريد ٠

ومن نص رواية القالى نستنتج أكثر من ناحية ، منها أن نسبة اللاميـة للشنفرى كانت معروفة للقالى حيث يقول « القصيدة المنسوبة الى الشنفرى» ومنها أن رأى ابن دريد كان أول شك أثير حول نسـبة اللامية الى الشنفرى حيث لم يتحدث القالى عن شك آخر ولا عن رأى آخر يظاهر رأى ابن دريد فى شكه ، ومعنى ذلك انه حتى حياة لقالى وابن دريد كان العرب مجتمعـا ورواة وعلماء متفقين على أن اللامية للشنفرى دون أى شك فى ذلك ، ومنها أن الرواية نفسها تحمل طابع الضعف وتوحى بعدم الصحة ، لأن الرواية بدون سـند فلم يحدثنا القالى أن ابن دريد روى هذه الرواية عن أحد ، مع أن القالى من أدق العلماء فى التزام سلسلة الرواة فهو يلتزم دائمـا عدا حديثه المشـافه مع معاصريه أن يذكر سلسلة الرواية كاملة ، ففى الرواية السابقة لهذه الروايـة مباشرة مثلا يقول « حدثنى أبو بكر بن الانبارى قال حدثنا أبو عبد الله ابن أحمد البصرى المقدمى قال حدثنا الرياشى قال حدثنا محمد بن عبد الوهاب الثـقفى قال : دخلنا على خلف الأحمر نعوده فى مرضه الذى مات فيه ٠٠ الخ » ففى هذه الرواية عن خلف بجعل بينه وبين خلف أربعة رواة ، بينما اقتصرت روايتـه عن اللامية على قوله « حدثنى أبو بكر ابن دريد » ولم يذكر المصـدر الذى استقى منه ابن دريد روايته ٠

وقد يسأل سائل : فما تقول فى هذه الرواية اذن ؟

والجواب أننا لا نفترض كذب القالى فأنه من العلماء الثقات ، ولا ابن دريد

(١) الأمالى ١٥٥/١ ٠

كذلك ، وانما الأمر بالنسبة للقالى أنه ينبغى أن نرجع الى سياق الرواية ، فانه أوردها فى سياق حديثه عن أبى محرز خلف الاحمر ومقدرته الشعرية ، فكان من الطبيعى أن يذكر كل ما يعلمه عنه ، وكل ما ينسب اليه حقا أو غير حق ، وعلى غير المحق ان يتحمل تبعة جوره ، وكان مما يعلمه ما سمعه من ابن دريد ، فلا بأس عليه أن يذكره ، وعلى ابن دريد أن يتحمل تبعته ، وقد يقـال انه كان على القالى أن يبين رأيه فى هذه الرواية ، فنقول : انه وان لم يصرح برأيـه الا أنه عرض به بأكثـر من طـريق ، منهـا انه ترك رأى ابن دريد خـلوا من تأييد أو تدعيم مما يوحى بضعفه • ومنها أنه صرح خلال الرواية نفسهـا بأن القصـيدة منسـوبة الى الشنفرى ، ومنها وهو الأهم انه بينما ذكر هـذه الرواية فى الجزء الأول من أماليه ، عاد فى الجزء الثالث فنسبها للشنفوى دون اى اعتبار لهذه الرواية أو اشارة اليها ثم ساق القصيدة كاملة (١) ومعنى هـذا أنه مقتنع بأن اللامية للشنفرى دون شك منه ، وانه انما ذكر رواية ابن دريد عن نسبتها لخلف لمجرد الأمانة العلمية فى ذكر كل ما يعلمه عن شخص وان لم يكن مؤمنا به ، ولست أدرى لماذا لم يذكر أحد من الباحثين أن القالى سـاق اللامية فى الجزء الثالث منسوبة للشنفرى دون أن يشير الى أى شك فى هـذه النسبة •

وأما عن ابن دريد ، فاننا لا نفترض اختلاقه للرواية ، مع أن فى أخباره على شهرته بالعام الواسع ما ينزل به ولو قليلا عن ثقة العلماء من حيث الصلاحية لدقة الرواية ، فمن ذلك ما يروى البغدادى أنه « كان مواظبا على شرب الخمر » وكان يلقى الناس وهو سكران (٢) ، ومع ذلك لا نفترض كذبه ، وانما ينبغى أن ننظر الى التيارات الأدبية والعنصرية المعاصرة له ، فابن دريد عاش فى صدر العصر العباسى ، وعاصر الخليفة المقتدر ، وحينذاك كانت العصبية الطائفية بين العرب والفرس قد بلغت أوجها ، هـذه العصبية التى برزت الى الوجـود منذ الفتوحات الاسلامية ، وان كان بعض الباحثين يرجعها الى الجاهلية (٣) وتمثلت هذه العصبية فى عدة نواح منها المجال الأدبى ، الذى بدأت العنصرية الفارسية ضد العرب تتضح فيه على يدى بشـار ثم اكتمل نضجها فى عصر أبى نواس وزملائه ، حين فتح العباسيون أبوابهم وقلوبهم على مصاريعها للفرس ، فتكتلت القوى الفارسية ضد العرب ملتفة حول البارزين منهم كالبرامكة ، وفى حيـاة ابن دريد الذى ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومات سنة احـدى وعشرين وثلثمائة كانت هذه العنصرية فى قمتها ، وكان يهم الفرس أن يحشدوا أكبر عدد من شعرائهم ينافسون بهم الشعراء العرب ، وان لم يستطيعوا ذلك فلا أقل

---

(١) الأمالى ٣/٢٠٥ ولم يشر أحد من الباحثين الى ذلك •

(٢) انظر خزانة البغدادى ٢/٢٧٨ ، ٧٨٩ •

(٣) انظر الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب ـ المكتبة الثقافية ٩٣

من أن يحاولوا نسبة أكبر قدر من الشعر الموروث وخاصة جيده الى أحد شعرائهم، واذا لاحظنا ان خلفا الاحمر كان من الموالى (٤) أى من غير العرب ، فلا نستبعد أن أحد المتعصبين من الفرس فى زمن ابن دريد نفس على العـــرب أن يكون فى شعرهم قصيدة لامعة فذة كاللامية فزعم لابن دريد أنها لخلف الاحمر لينفيها عن العرب ، ويثبتها لشاعر فارسى الأصل هو خلف ، وأخذ ابن دريد الكلمة بحسن نية ولم يسأل صاحبها عمن روى عنه ذلك ، لشهرة خلف حينذاك بالوضع ، أو لعل ابن دريد من باب أمانة النقل كما فعل القالى قال لتلاميذه فى أثنـــاء الدرس - ومنهم القالى (٢) - كل ما سمعه عن خلف ومقدرته فى الوضع ، ومن ذلك هذا الخبر عن اللامية ، على أننا لا ينبغى أن نظـلم ابن دريد ، فعلى فرض أنه قــال ذلك لتلميذه القالى نقول : انه لو كان لهذا الخبر اعتبار فى نفس ابن دريد لساقه فى مؤلفاته التى عدد البغدادى تسـعة منها ، ولنقل تلميذه القالى عنها ذلك ، لأن القالى عاش بعد أستاذه ابن دريد نحو خمس وثلاثين سـنة ، حيث توفى ابن دريد سنة ٣٢١ هـ والقالى سنة ٣٥٦ هـ ، وبحـكم كونه أولى الناس بمعرفة مؤلفات أستاذه ، والاطلاع عليها ، على أننا لا نجد فيما وصـل الينا من كتب ابن دريد كالاكتشاف والجمهرة أثر لهذه الرواية ، ولم ينقل صاحب البحث الذى نناقشه شيئا من ذلك ، وكذلك المستشرق الذى تأثر الباحث به ٠

واذن فكل ما يمكن أن نتصوره فى هـــذه الرواية أنها مجرد محـــاولة للتشكيك ، لا نجد ما يدل على أن ابن دريد نفسه أو القالى تأثر بها أو اقاما لها وزنا ونرجح أن مصدر هذه المحاولة كما قلنا نزعة التعصب العنصرية من جانب بعض الفرس ، ليسلبوا من الأدب العربى درة من أبرز درره ، وينسبوهـا الى بعض طائفتهم، وقد يدعونا هذا الى التريث فى قبول كل ما نســب الى خلف الأحمر ، أو اتهم بوضعه ، لرده الى المكان الصحيح ، ومما يدل على أن بين هـذا التشكيك فى اللامية وعصبية الفرس صلة ، أننا نجد الطغرائى الذى جاء بعد ابن دريد بأقل من قرنين ، حيث توفى الطغرائى سنة ٥١٥ هجرية ، أظهر وهو فارسى غيرة الفرس من لامية العرب فوضع قصـيدته المشهورة ، وسماها لامية العجم (٣) ، ردا على لامية العرب ومنافسة لها ، أو منافسة للعرب فى لاميتهم ، ويبدو أن الطغرائى حين وجد أن التشكيك فى لامية العرب لم ينجح عمد الى محاربتها بطريق المنافسة والمعارضة ، وفى تسميته قصيدته بلامية العجم ما يحمل هذا المعنى ، وفيه اعتراف ضمنى بأن لامية العرب للشنفرى ، لأنها لو كانت لخلف لكانت لامية عجم أيضا ، ثم ظهرت أيضا لامية الروم لابن الحكيم الحلبى(٤)٠

هذا عن الدليل الأول من أدلة البحث الذى نناقشه ، وأما الدليل الثانى

---

(١) هو مولى الاشعريين ٠ انظر هامش البيان والتبيين ١/٢٩٣ ٠

(٢) خزانة البغدادى ٢/٢٨٨ ٠

(٣) أنظر الغيث المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى ٠

(٤) انظر فهارس الكتب بدار الكتب المصرية حتى آخر مايو سنة ١٩٢٦ ص ٣١٤

وهو أن الاصفهانى وصاحب لسان العرب على كثرة ما ذكرا من شعر الصعاليك لم يتعرضا للاميه ، ومعنى ذلك أنها ليست للصعاليك .

وللرد على ذلك نقول : أماعن الاصفهانى ، فانه فى أغانيه سيطرت عليه نزعتان ، احداهما جعلها عنوانا للكتاب ، وتحدث عنها فى مقدمته ، وهى الحديث عن أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، حيث جعل ذلك هدفا ، وما سواه فتبع واستطراد ، والاخرى ولوعه بغريب الأحاديث ، وطريف الاخبار والاحداث. ولم تكن اللامية من هذا ولا ذاك ، فلم يجد ما يدعوه الى الحديث عنها ، فضلا عن أنه لم يلتزم قط حين يتحدث عن شاعر أن يورد كل شعره ، أو حتى أن يعدد قصائده ، فلم يكن عليه بأس حين تحدث عن الشنفرى أن يذكر بعض شعره دون البعض الآخر ، فليس فى ذلك دليل ولا ترجيح ، والشبهة الوحيدة التى كان يمكن أن تثار حول اغفال الأصفهانى للامية ، هى أن اللامية لم تكن موجودة حتى زمن الأصفهانى ، وانما اخترعت بعده ، ونسبت الى خلف الأحمر ، لغرض من الأغراض ، كالعنصرية التى أشرنا اليها ، ولكن هذه الشبهة لا محل لها ، لأن السابقين للأصفهانى تحدثوا عن اللامية ، والمعاصرين له تحدثوا عنها ، ومنهم القالى الذى أورد نصها فى أماليه ، والقالى معاصر للاصفهانى ، بل تصادف أن توفيا فى عام واحد ، هو سنه ٣٥٦ هـ (١) والقالى يذكر انها منسوبه للشنفرى أى من قبل ذلك على اننا يمكن ان نتجـــاوز ذلك الى القـــول بأنه لو فرض أن الأصـــفهانى نفى اللاميه صراحه عن الشنفرى ، أو نسبها صراحه الى خلف أو غيره ، لم يكن ذلك بالحجه التى نطمئن اليها ، لأن الأصفهانى لم يكن موضع الثقة بين العلماء فى أخباره ورواياته (٢) وولعه بروايه كثير من الخرافات فى أغانيه يؤيد ذلك .

وأما عن اغفال لسان العرب الاستشهاد باللامية فنقول : أولا لم يقـــل صاحب البحث الذى نناقشه انه استقصى لسان العرب كله ، وعلى فرض أن اللسان خلا من الاستشهاد باللامية فليس فى ذلك دليـــل ولا ترجيح ، لأن صاحب اللسان لم يقل انه قصر استشهاده على شعر الصعاليك ،حتى نحاسبه على خلو شواهده من أبيات اللامية ، وحتى لو قال ذلك ، فليس فى اغفاله اللامية دليل أيضا ، لأننا حينئذ سنقول أيضـــا : هل قال اننى ذكرت كل شـــعر الصعاليك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخـرى ، لو فرضنا أن اللامية لخلف الأحمر ، فلم أغفلها ولم يستشهد بأبياتها ؟

ومن هذا نرى أن هذا الدليل من الوهن بحيث لا يفيد تدليلا ولا ترجيحا أيضا . على أننا أيضا لو فرضنا أن صاحب اللســان نفى اللامية عن الشنفرى أو

---

(١) أنظر ترجمة كل منهما فى صدر كتابه .

(٢) أنظر آراء كثير من العلماء فى تجريحه بترجمة المؤلف فى صدر كتاب الأغانى .

نسبها الى غيره لم يكن ذلك حجة ولا دليلا ، فهدفه وهدف غيره من أصحاب المعاجم شرح الالفاظ ، ونقل آراء العلماء فيها ، وهم في هذا ليس موضع تجريح ، ولكن بالنسبة للروايات يختلف الوضع ، حيث لا يلتزم كثير منهم الدقة ، فمثلا حينما يتعرض أحدهم لشرح لفظ ، نجد ذهنه منصبا على هذا الشرح ، فاذا خطر في ذاكرته بيت شعر استعمل هذا اللفظ ، ساقه شارحا استعمال هذا اللفظ ، غير مهتم كثيرا بقائل هذا البيت ، لأن ذهنه منصب على شرح اللفظ ، ومنهم صاحبا اللسان والقاموس ، كما عدا تأبط شرا والشنفرى من الأغربة الاسلاميين (١) ، مع أنه لا خلاف في أنهما جاهليان ، وكما نسب صاحب تاج العروس اللامية الى تأبط شرا ، مع أن ذلك لم يقل به أحد قط (٢) ، على أن هناك كتبا أخرى من أمهات المراجع استشهدت بأبيات اللامية ، ولم تبد شكا في نسبتها للشنفرى ، ومنها نهاية الأرب للنويرى (٣) ٠

وأما الدليل الثالث من أدلة البحث الذى نناقشه ، فللرد على النقطة الأولى منه ، وهى أن طول اللامية غير مألوف في شعر الصعاليك وأن أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، تبلغ خمسة وثلاثين بيتا وهى تائية الشنفرى (٤) ، وما عداها من شعر الصعاليك يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات ٠ للرد على ذلك نقول : ان الدليل نفسه يتضمن الرد عليه ٠ ففيه اعتراف بأن الشنفرى صاحب أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، ومعنى ذلك أنه أطولهم نفسا في الشعر ، وأقدرهم على انتاج المطولات ، فكيف نستبعد أن ينتج قصيدة تبلغ ثمانية وستين بيتا مع اعترافنا بأنه أطولهم قصيدا ؟ والذى ينتج قصيدة تبلغ ستة وثلاثين بيتا ، كيف لا يستطيع أن ينتج الثمانية والستين ونضيف الى ذلك أن الثمانية والستين بيتا لا تعتبر في عرف رواة العرب ونقادهم طويلة ، ولا يصفون مثلها بأنها من المطولات، أما التى يصفونها بأنها طويلة فمثل قصيدة النابغةالجعدى التى تبلغ مائتى بيت (٥) ، وقصيدة ابن دريد التى تسمى المقصورة وتبلغ مائتين وتسعة وثلاثين بيتا (٦) ، أو ما كان قريبا من ذلك ، أو على الأقل أطول من اللامية بكثير ، كالقصائد السبع الجاهليات (٧) ، أما الثمانية والستون بيتا كلامية العرب ، فلا تعتبر في عرفهم من المطولات ، الا بالاعتبار النسبى ، أعنى بالنسبة الى القصار ، وان لم يكن هناك ما يمنع من وصفها بالطول ٠

على أننا لا نسلم باطلاق حكم المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين الذين

---

(١) مادة (غرب) ٠
(٢) مادة (أم) ٠
(٣) أنظر ٢٢٧/٦ (أصوات القوس) ٠
(٤) هذه التائية بالمفضليات ص ١٠٨ وهى ٣٦ بيتا ٠
(٥) خزانة البغدادى ٣١٩/٢ ٠
(٦) المصدر السابق ٢٨٧/٢ ٠
(٧) أنظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ٠

هم موضوع البحث المذكور فقد وردت لهم قصائد كثيرة يمكن ان نسميها بعرفنا طويلة ، فمن ذلك عينية مالك بن حريم ، وتبلغ أربعين بيتا (١) ورائيه عروة بن الورد ، وتبلغ نحو أربعين بيتا (٢) وعينية قيس بن منقذ وهى أربعة وأربعون بيتا وكلهم (٣) صعلوك جاهلى ، وقصيدة عبدة بن الطبيب تبلغ واحدا وثمانين بيتا (٤) مع أنه مخضرم قضى معظم حياته فى الجاهلية يتلصص فى الرباب ٠

فلامية العرب اذن ، لا هى بالطويلة طولا غير عادى ، ولا هى الوحيدة التى تجاوزت حجم المقطوعات بين شـــعر الصعاليك ، ولا هى الوحيدة الطويلة بين شعر صاحبها ٠

وأما غلبة شعر المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين ، فذلك لضعف الرواية واضطرابها فى هذا العصر ، وكثير من الشعر الذى وصل الينا يبدو أنه مبتور من قصائد ، ضاع معظمها ولم تصل الينا منها الا هذه الأبيات المبتورة ، وخصوصا ما ورد من الشعر الذى عاش أصحابه فى زمن قريب من الاســـلام أما الذين عاشوا فى زمن أبعد من ذلك ، فاذا رجعنا الى الروايات وآراء العلماء لا نجد غرابة فى هذه المقطوعات ، فهم يروون أن الشعر الجاهلى بدأ بالمقطوعات ، وأن أول من قال قصائد كاملة هو مهلهل بن ربيعة ، وأنه لم يقل شاعر قبله عشرة أبيات كاملة ، وأنه سمى مهلهلا لأنه هلهل الشعر أى رققه (٥) ويروون ان عنترة لم يكن يقول الا البيتين والثلاثة ، حتى خاصمه رجل وسابه ، فقال قصيدة ، ثم درج على انشاء القصائد (٦) ٠

فالنقاد اذن يرون أن الشعر الجاهلى بدأ بالمقطوعات . ومن الطبيعى أيضا أن يبدأ كل شاعر حياته الشعرية بالمقطوعات ، وخاصة فى الجاهلية التى لم يكن الشعر فيها يرتبط بغرض معين يدفع الشاعر الى الشعر ، الا غرض واحد ، هو التعبير عن انفعاله هو ازاء مشاعره الشخصية ، وانفعاله بأمر من الأمور ، واذا أضفنا هذا الى ما هو معروف من أن التاريخ والرواية وجمع الشعر لـــم ينضجن الا مع الاسلام ، أو قبله بقليل ، لم يكن غريبا أن نجد المقطوعات شائعة فى الشعر الجاهلى كله ، وخاصة شعر الصعاليك الذى كان أصحابه بحكم حياتهم أو حرفتهم أقل اختلاطا بالمجتمعات والرواة ٠

ولكن ذلك لا يؤثر قط فى حديث اللامية من حيث ما يريدونه ، فقد قيلت

---

(١) الاصمعيات ص ٥٦ ٠

(٢) أنظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٩٢ ، ٩٣ ٠

(٣) هو قيس بن الحدادية أنظر الأغانى ١٤/١٤٤ ــ ١٦١ ٠

(٤) المفضليات للضبى ص ١٣٤ ٠

(٥) أنظر خزانة البغدادى ٢/٢٣/واعجب العجب شرح البيت ٢٩ ٠

(٦) المصدر السابق ١/٨٨ ٠

قصائد أطول منها ، وأسبق منها زمنا ، ولم تكن اللامية القصيدة الوحيدة الطويلة بين شعر الشنفرى ، ولم يكن هو الصعلوك الوحيد الذى قال قصائد طويلة فى الجاهلية كما قلنا .

وأما عن النقطة الثانية من هذا الدليل ، وهى قلة الاضطراب فى ألفاظها وترتيب أبياتها مما يخالف شـــعر الصعاليك ، فنقول : ان الواقع غير ذلك ، وحين نرجع الى المقارنة بين روايات شراحها وناقليها نجد بينهم اختلافا كثيرا ، ان لم يزد عن مستوى الاختلاف فى الشعر الآخر للصعاليك فلن يقل عنه ، ويكفى للمثال أن نختار عالمين من أدق العلمـــاء فى الرواية ، هما أبو على القـــالى ، والزمخشرى ، ومع دقتهما المشهورة نجـــد اختلافا بين روايتيهما للاميـــة فى الأمالى (١) وأعجب العجب فى شرح لامية العرب (٢) سواء من حيث الالفاظ أو من حيث الأبيات ، ففى الألفاظ نجد بينهما اختلافا فى أكثر من ثمانية وعشرين موضعا مع التجاوز عما يظن أنه من أخطـــاء المطابع ، وهى على وجه التحديد ـ حسب الترتيب الآتى عن رواية الأمالى ـ فى الأبيات الأول والثانى والسادس والثانى عشر والثالث عشر والثامن عشر والثانى والعشرين ، والبيتين اللذين بعده والتاسع والعشرين والثانى والثلاثين ، والرابع والثلاثين والذى بعده والثامن والثلاثين والثالث والأربعين والخامس والأربعين والثامن والأربعين والواحـــد والخمسين والذى بعده والرابع والخمسين والسادس والخمسين والثلاثة اللائى بعده والخامس والستين والذى بعده .

هذا عن الاختلاف فى الألفاظ ، وأما عن الأبيات ، فان القالى رواها سبعة وستين بيتا ، بينما رواها الزمخشرى ثمانية وستين .

وهذا الاختلاف يدل على أن الزمخشرى نقل عن رواية أخرى غير الأمالى ، لأن الزمخشرى جاء بعد نحو قرنين من القالى ، فالقالى ولد سنة ٢٨٨ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ بينما ولد الزمخشرى سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

فالقول اذن بأن اللامية لم يصبها ما أصاب شعر الصعاليك من الاختلاف ، لا يتفق مع الواقع ، ولا يصلح دليلا .

وأما النقطة الثالثة من هذا الدليل ، والتى نسبت الى كرنكو ، وهى قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها مما خالفت به المألوف فى شـــعر الصعاليك ، فنقول عنها : ان فى هذا القول بعدا عن النقد الموضوعى ، فليست أسماء الأماكن والأشخاص ملحا لا بد أن يضاف الى كل طعام ، وأن تحشا به كل قصيدة ، وانما ينبغى أن نسأل : هل كانت اللامية تقتضى ذكر الأماكن والأشخاص فخلت

---

(١) أمالى القالى ٣/٢٠٥ ـ ٢٠٨ .
(٢) للزمخشرى .

منها ؟ بل ، هل كانت تقبل استعراض اسماء الاماكن والاشخاص ؟ والواقع يجيب بلا ، فسياق اللامية وموضوعها ينحصر فى تصوير نفسية انسان ساخط، هجر حياة المجتمعات ليحيا حياة يرسمها هو لنفسه كما يريد ، وقد رسمها فى صورتين ، أو صورة واطار حول هذه الصورة ، فأما الصورة فهى الصعلكة ، بما تتطلبه حياتها من أسلحة ، ومن صفات معينة في مزاولها ، وأما الاطار فهو المغفل ، أو الصحراء التى يزاول منها صعلكته بما تحويه الصحراء حوله من مناظر وطبيعة وحيوان ، فهذه العناصر الثلاثة ، السخط ، وحياة الصعلوك والبيئة المحيطة به ، هي كل ما تشتمل عليه اللامية ، وقد وفت اللامية بأغراضها الثلاثة كأكمل مايكون الوفاء وأدقه وأبلغه ، بل وفت بغرضها فى درجة لا يتصور ان تربو عليها شاعرية أخرى أن بلغتها ، وفوق هذا فهي لم تتطرق الى أي غرض فرعي ، بل التزمت الوحدة بكل ما تعرفها بها مذاهبها ، من وحدة نفسية أو عضوية أو موضوعية أو فنية (١) .

وبعد ذلك نسأل : ما الحاجة الى أسماء الأشخاص والأماكن لدى شخص سخط على الناس فهجرهم متعمدا أن يعيش بين الوحوش ، كما فعل الشنفرى ؟ فهو ان كان فى حاجة فالى أسماء الوحوش التى يعيش بينها ، لا الى أسماء الناس الذين هجرهم الى غير رجعة ، وقد ذكر فعلا من أسمائها كل ما يمكن أن يراه انسان فى الصحراء .

واذن فهذه النقطة لا تتفق مع النقد الموضوعى للقصيدة بل توحى بنوع من تلمس الاتهام في شيء من تحامل النقد وأما الدليل الرابع من أدلة صاحب البحث الذى نناقشه ، والذى جعله فى صورة نتيجة لأدلته السابقةعليه،وهو أن خلفا الأحمر صور فى هذه اللامية حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا عن طريق تمثل حياة الصعاليك وشعرهم ، فنقول عنه : أنه من الغريب أنه كان ينبغى أن يصل به هذا المعنى الى الحكم أو الترجيح بأن اللامية للشنفرى ، ولكنه وصل به الى عكس ذلك فحكم فى بساطة بان اللامية لخلف الأحمر ، وذلك أن التصوير الرائع الممتاز لحياة الصعاليك بالذات ، لا يتصور أن يصدر من شخص غير صعلوك ، بل غير أصيل فى الصعلكة فليست حياة الصعاليك قصرا مزخرفا يمكن لأى شاعر أن يتجول فيه أو يتمثله فيصفه ، كما وصف البحترى ايوان كسرى فى سينيته الشهيرة ، أن حياة الصعاليك الحقة بكل جوانبها ، من حيث ما يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم فى مجاهلهم من مناظر قد لا يتاح لغيرهم أن يراها ، وما يسلكونه أو يتعرضون له من مواقف رهيبة فى تصعلكهم وأثر ذلك كله فى نفوسهم ، كل ذلك لا يتصور أن يصفه وصفا « رائعا ممتازا » شخص يعيش فى أحد الأمصار بين مجتمع وادع

---

(١) أنظر النقد الأدبى الحديث للدكتور غنيمى هلال ٤٠١ ـ ٤١٤ وآراء واتجاهات للدكتور محمد نايل ٥٢ ـ ٧٥ .

مطمئن ، من مجرد تمثله لحياة الصعاليك واشعارهم ان ما صورته اللامية من أثر الطبيعة في بردها الذي يدفع الصعلوك الى أن يحطم قوسه ليوقدهـــا ويستدفىء بها ، وحرها الذي يذيب اللواب وتتململ منه افاعي الصحراء ، ومطرها الذي يوحل الرمال فيجعلها غطشا وبغشا كما تقول أبياتها ، وما صورته من حيـــاة حيوان الصحراء ومناظرها لا يتصور قط أن يصدر الا عن شخص عاش في هذه البيئة عيشا طويلا ، وانفعل بهذا العيش انفعالا شديدا ، والذي يلفت النظر في صور اللامية أنها مثلا حينما تتحدث عن حيوانات الصحراء ووحوشها لا تعمد الى مجرد وصفها كالمألوف في الشعر ، وانما تلجأ الى تصوير معيشة هذه الحيوانات وحياتها مع علاقة ذلك بالصعلوك الذي يعيش في بيئتها ، وكأن اللامية لا تعنى وصف هذه الحيوانات ، ولا وصف مناظر الطبيعة ، وانما تتحدث عن الصعلوك وحياته ، فترتبط به بطريقة غير مباشرة كل ما يحيط به من برد وحـر ومطر وعيون مياه ، وعوالم من الحيوانات لكل منها معيشته وأسلوبه في الحياة ، فخشرم النحل – رئيس جماعة النحل – ورعيته من النحل ، لهن حياة ودفاع عن نتاجهن من العسل عجيب ، والأزل من الذئاب حين يجوع فيجمع عصـابته من ذئاب شيب الوجوه كأنها قداح ، والقطا في سباقها الى الماء وتهافتها عليـه ثم انصرافها مسرعة كأنها ركب مجفل من أحاظه ، وصورة الصعلوك في مكمنه وهو يراقب الطريق بعينين كعيني الأفعى ، ويضحى في صورته كابنة الرمـــل (١) المترقبة المتوثبة ، وغير ذلك من التصوير الذي نعود فنقول أننا لا نتصور شاعرية تربو عليه ان بلغته ، والشيء الذي انفردت به اللامية فوق جودتها البالغة والذي أشار اليه كارل برو كلمان في سياق اعجابه باللامية هو أنها لا تلجأ الى الحديث عما تعرض له أو تصـوره لذاته وانما تركز على النظرة الى هذا الشيء من خلال نفسية صاحبها وارتباط هذا الشيء الذي تتخذه موضوعا بصاحبها وحيـــاته ٠ وكل ذلك غير مستطاع الا لشخص يجتمع فيه أمران ، أحدهما التكيف مع حياة الصعلكة الى أبعد حدود التكيف ، والآخر القدرة على تصوير هذا التكيف الى أقصى حدود القدرة ، وهذان الأمران لم يكن خلف الأحمـــر منهما في شيء ، وكان الشنفرى منهما كل شيء فتكيفه مع حياة الصعلكة ظاهر وقدرته على تصوير هذا التكيف لا يبدو في اللامية وحدها وانما نجده في شعره كله ، فحـــين ندرس ما وصل الينا من شعره نعلم ان شاعريته لم تكن عظيمة في اللامية وحدها ، وانما كانت عظيمة في مواضع كثيرة من شعره ، وميزة اللامية عن شعره أنهـا جمعت متفرقات عظمته أو متناثراتها في لوحة كاملة ، فاللامية قريبة من شعر الشنفرى ومنهج تفكيره قربا واضحاً ، في حين أنها بعيدة عن شعر خلف ومنهج تفكيره على تلونه بعـــدا واضحا أيضـــا كما يؤيد ذلك صاحب تاريخ الأدب العربي (٢) ، ومن هذا نرى أن الحديث كان ينبغي أن يصل الى أن اللاميـــة

---

(١) الحية ٠

(٢) كارل بروكلمان ١/١٠٥ ٠

للشنفرى كما يقتضى منطق النقد ، لا خلف كما ذهب صـــاحب البحث الذى نناقشـــه ٠

ولسنا نريد من هذا الرد انكارا على باحث أن يبدى وجهة نظره أصاب أو أخطأ ، فالاجتهاد فى حالى صوابه وخطئه غير ممقوت ، غاية الأمر أن الاجتهاد لا ينبغى أن يترك الطريق النيرة المستقيمة الى الدروب الملتوية المظلمة ٠

ولكن الذى يلفت النظـــر أن يكون متعصبو الفرس فيما نرجح ، أول من يحاول سلب اللامية عن المنزع العربى فى القديم ، وأن يكون متعصبو المستشرقين أول من يحاول احياء هذا التشكيك فى الحديث ، والأشد غرابة أن هذا التشكيك سواء قديمه وحديثه لا يستند الى أى سند تاريخى أو فنى ، لأنه من حيث التاريخ لم يعتمد على أية رواية الا كلمة ابن دريد ، وكلمة ابن دريد لا تعتبر من الوجهة العلمية رواية ، لأنه لم يذكر سندا لها ، ولا تعتبر رأيا لابن دريد ، لأنه لـــم يسجلها فيما بلغنا من مؤلفاته وكثير من موضوعاتها حول الشعر ونقده ، ومن حيث الوجهة الفنية لا نجد شبها أو تقاربا قط بين شعر خلف الأحمر واللامية ، بينما نجد الناحيتين التاريخية والفنية تؤكدان أنها للشنفرى ، فقد اتفق العلماء فى كل العصور وفى مقدمتهم القالى الذى روى كلمة ابن دريد على أن اللامية للشنفرى ، ويكفينا بالاضافة الى شراحها الكثيرين الذين لا يبدون شكا قط فى نسبتها للشنفرى ، يكفينا بالاضافة اليهم أن يجمع ثلاثة من صفوة العلماء والنقاد على أنها للشنفرى ، وهم القالى (١) والزمخشرى (٢) والنويرى (٣) ٠

ومن الناحية الفنية يكفينا دليلا على نسبتها الى الشنفرى اعتراف المشككين أنفسهم بما بلغته من مقدرتها على تصوير حياة الصعاليك ، واعتراف البحث الذى نناقشه بأنها صورت هذه الحياة تصويرا « رائعا ممتازا » ٠

وأظننا بعد هذا الحديث عن اللامية فى حاجة الى ايرادها ، ولكننا مع ذلك نقول ان تذوق اللامية لا تكفى له القراءة العجلى ، وانما يحتاج الى تأن ودراسة ، وأيسر ما ينبغى الحرص عليه للاستمتاع باللامية وتذوقها أن نحاول فهم ألفاظها ، فتكاد تكون هى الحـــائل الوحيد بين القارىء العادى وبين ظهوره على جوهـــر اللامية ، لغرابة كثير من هذه الألفاظ ، وهذا نص اللامية كما رواها أبو عـــلى القالى وأشير الى أهم ما بينه وبين الزمخشرى من خـــلاف فى الرواية مستعينا بشرح الزمخشرى ٠

---

(١) الأمالى ٣/٢٠٥ ٠
(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٠
(٣) نهاية الأرب ٦/٢٢٧ ٠

أقيموا بني أمي صدور مطيكم   فاني الى أهل سواكم لأميل (١)
فقد حمت الحاجات والليل مقمر   وشدت لطياتى مطايا وارحل (٢)
وفى الارض منأى للكريم عن الاذى   وفيها لمن خاف القلى متعزل (٣)
لعمرك ما بالارض ضيق على امرىء   سرى راغبا او راهبا وهو يعقل (٤)
ولى دونكم أهلون سيد عملس   وأرقط زهلول وعرفاء جيأل (٥)
هم الرهط لا مستودع السر شائع   لديهم ولا الجانى بما جر يخذل (٦)
وكل أبى باسل غير أننى   اذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٧)
وان مدت الأيدى الى الزاد لم أكن   بأعجلهم اذ أجشع القوم اعجل
وما ذاك الا بسطة عن تفضل   عليهم وكان الأفضل المتفضل
وانى كفانى فقد من ليس جازيا   بحسنى ولا فى قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع   وأبيض اصليت وصفراء عيطل(٨)
هتوف من الملس الحسان يزينها   رصائع قد نيطت عليها ومحمل (٩)
اذا زل عنها السهم حنت كأنها   مرزأة ثكلى ترن وتعول (١٠)
ولست بمهياف يعشي سوامه   مجدعة سقبانها وهى بهل (١١)
ولا جبأ أكهى مرب بعرسه   يطالعها فى شأنه كيف يفعل (١٢)

وهنا زاد الزمخشرى بيتا لم يذكره القالى وهو :

ولا خرق هيق كأن فؤاده   يظل به المكاء يعلو ويسفل (١٣)

---

(١) فى رواية الزمخشرى الى قوم سواكم ، والتفضيل فى أميل على غير بابه أى مائل ٠

(٢) حمت : تهيأت ، ومقمر : مضىء ، والطية : الحاجة ، وأرحل جمع رحل ، ورواية الزمخشرى لطيات ٠

(٣) المتعزل : مكان العزلة ٠

(٤) رواية الزمخشرى ما فى الأرض ٠

(٥) السيد الذئب وقد يسمى به الأسد ٠ والعملس الذئب القوى السريع ، والارقط النمر والزهلول الأملس والجيأل الضبع وعرفاء : طويلة ٠

(٦) عند الزمخشرى هم الأهل لا مستودع السر ذائع ٠

(٧) يعنى مع قوة هذه الوحوش وبسالتها فانا أبسل منها وأسرع الى الصيد ، والزمخشرى يرى المراد بالطرائد الفرسان المتسابقون للصيد ، وهو أنسب لما بعده ٠

(٨) مشيع : كان له شيعة تناصره ، وأبيض أصليت : سيف صقيل ، وصفراء عطيل : قوس طويلة العنق ٠

(٩) الهتف الصوت والملاسة النعومة وبيطت علقت والمحمل علاقة السيف ٠ وعند الزمخشرى الملس المتون (جمع متن وهو الصلب) ونيطت اليها ٠

(١٠) للزمخشرى مرزأة عجلى وتعول من العويل ٠

(١١) المهياف السريع العطش والمجدعة المقطوعة الآذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة غير مصرورة ، يريد أنه لصبره على العطش يدخل سوائمه المراعى البعيدة ٠

(١٢) الجبأ الجبان والأكهى الأبخر والسىء الخلق أو البليد ، والمرب الملازم لامرأته والشطر الثانى معناه لا يحرص على استشارتها ٠

(١٣) الخرق الدهش والهيق الظليم والمكاء طائر يعنى لست هلوعا كالنعام ولا مضطربا كالطائر ٠

ولا خـالف داريه متغــزل ... يروح ويغـدو داهنـا يتكحل (١)
ولست بعــل شــره دون خــيره ... ألف اذا ما رعته اهتاج اعزل (٢)
ولست بمحيـار الظلام اذا انتحت ... هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل (٣)
اذا الأمعز الصـوان لاقى مناســمى ... تطــاير منه قادح ومفلــل (٤)
أديم مطــال الجــوع حتى أميتــه ... وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل (٥)
واستف ترب الأرض كى لا يـرى له ... على من الطـول امرؤ متطــول (٦)
ولولا اجتناب الذأم لم يبق مشــرب ... يعـاش به الا لدى ومأكــل (٧)
ولكــن نفســا حــرة لا تقيم بى ... على الضيم الا ريثمــا أتحــول (٨)
وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة مارى تغــار وتفتــل (٩)
واغدو على القوت الزهيد كما غـدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل (١٠)
غدا طاويا يعارض الريح هافيـا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل (١١)
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظــائر نحــل (١٢)
مهلهلة شيب الوجــوه كأنهــا ... قــداح بكفى ياسر تتقلقــل (١٣)
او الخشرم المبعــوث حثحث دبره ... محابيض رداهن ســام معسل (١٤)

---

(١) الخالف الذى لا خير فيه والدارى الملازم لداره يعنى لست تافها منقطعا للغزل والدهن والكحل ٠

(٢) العل : القراد والمراد الرجل المسن الضئيل الجسم كالقراد والألف العاجز ٠
واهتاج أسرع بحمق ٠

(٣) المحيار المتحير وعند الزمخشرى اذا انتحت أى قصدت واعترضت والهوجل الرجل الطويل الأحمق والعسيف الجاهل واليهماء المتاهة من الصحراء والهوجل آخر الفلاة لا أعلام بها ٠

(٤) الا معز لمكان الصلب كثير الحصى والصوان الحجارة الملس والمنسم فى الأصل خف البعير يريد رجليه والقادح الشرر والمفلل المكسر ٠

(٥) المطال من المماطلة وأذهل أنسى ٠

(٦) الطول المن ٠

(٧) عند الزمخشرى لم يلف ٠

(٨) عند الزمخشرى نفسا مرة وعلى الذأم ٠

(٩) الخمص الجوع الشـــديد والحوايا الأمعاء والخيـــوطة السلوك ومارى رجل وعند الزمخشرى تخاط وتفتل ٠

(١٠) الأزل الذئب الخفيف الوركين والتنوفة المفازة والاطحل الأغبر اللون ٠

(١١) الطاوى الجائع والهافى الجائع أو السريع ويخوت ينقض ويعسل يمشى الخبب ٠

(١٢) لواه مطله ودفعه وأمه قصده والنظائر الأشباه والنحل المهازيل ٠

(١٣) مهلهلة رقيقة اللحم والقدح السهم قبل أن يراش والياسر المقامر ٠

(١٤) الخشرم رئيس النحل أو بيت الزنابير والمبعوث مسرع السير وحثحث حض والدبر جماعة النحل والمحابيض العيدان التى يجمع بها العسل ورداهن أنزلهن والمعسل جامع العسل وسام مرتفع وعند الزمخشرى أرداهن ٠ وهو تصوير لقصة جماعة نحل وجدت خلاياها مهدمه ٠

مهرتة فوه كأن شدوقها ... شقوق العصى كالحات وبسل (١)
فضج وضجت بالبراح كأنها ... واياه نوح فوق علياء ثكل (٢)
وأغضى وأغضت واتسى واتست به ... أرامل عزاها وعزته أرمل (٣)
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ... وللصبر ان لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرات وكلها ... على نكظ مما يكاتم مجمل (٤)
وتشرب أسآرى القطا الكدر بعدما ... سرت قربا أحشاؤها تتصلصل (٥)
هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت ... وشمر منى فارط متمهل (٦)
فوليت عنها وهى تكبو لعقره ... يباشره منها ذقون وحوصل (٧)
كأن وغاها حجرتيه وحوله ... أضاميم من سفلى القبائل نزل (٨)
توافين من شتى اليه فضمها ... كما ضم أذواد الأصاريم منهل (٩)
فعبت غشاشا ثم مرت كأنها ... مع الصبح ركب من أحاظة مجفل(١٠)
وآلف وجه الأرض عند افتراشها ... باهدا تنبيه سناش قحل (١١)
وأعدل منحوضا كأن فصوصه ... كعاب دحاها لاعب فهى مثل (١٢)
فان تبتئس بالشنفرى أم قصطل ... لما أغتبطت بالشنفرى قبل أطول (١٣)

(١) مهرتة واسعة الاشداق وفوه مفتوحة الأفواه والشدق جانب الفم والكلوح التكشير والعبوس وبسل كريهة الوجوه •

(٢) البراح الأرض الفضاء والنوح جمع نائحة وثكل جمع ثكلى وعلياء بقعة مرتفعة يعنى رئيس النحل وجماعته •

(٣) يعنى أن رئيس النحل وجماعته جمعهن الحزن الشديد على العسل كانهن فى مأتم ، وحين يئسن من جدوى النواح أطرقن وتبادلن العزاء ، وأرامل جمع أرملة معروفة وعند الزمخشرى « مرامل عزاها وعزته مرمل » والمرمل الذى نفد زاده ومرامل جمعه •

(٤) فاء رجع وبادرات مسرعات ومجمل صانع الجميل وعند الزمخشرى نكظ بالظاء ولعله خطأ مطبعى فى الأمالى والنكظ العجلة أو الجوع •

(٥) السؤر بقية الشراب والقرب السير الى الماء على بعد ليلة وتتصلصل تصوت وعند الزخشرى أحناؤها تتصلصل والاحناء الجوانب •

(٦) أسدلت أرخت أجنحتها والفارط المتقدم والمتمهل المتئد فى أمره ، يعنى مسابقة بينه وبين القطار الى الماء •

(٧) يعنى شرب قبلها فلم يترك للقطا الا سؤرا فى عقر الحوض تكبو فيه لقلة الماء •

(٨) وغاها أصواتها حجرتيه جوانبه والأضاميم جمع اضمامة الجماعة منضمين وعند الزمخشرى، سفر القبائل أى مسافريهم •

(٩) توافين اجتمعن والذود ما بين الثلاثة والعشرة من الابل والاصاريم مجموعة الابل نحو الثلاثين والمنهل مورد الماء •

(١٠) العب شرب الماء من غير مص وغشاشا مستعجلة وأحاظة قبيلة من اليمن والأولى أنه مكان والركب قطيع وحشى •

(١١) الأهدأ شديد الثبات يعنى جسده وتنبيه ترفعه والسنا سن حروف فقار الظهر وقحل جافة •

(١٢) أعدل أتوسد ذراعا والمنحوص اليابس والفصوص المفاصل ودحاها بسطها •

(١٣) تبتئس تحزن وعند الزمخشرى أم قسطل بالسين وهو الغبار كناية عن الحرب ، والمعنى ان حزنت الحرب لمفارقتى لها الآن • فطالما سررتها قبل ذلك •

طريد جنايات تياسرن لحمه ... عقيرته لأيهاحم أول (١)
تبيت اذا ما نام يقظى عيونها ... حثاثا الى مكروهه تتغلغل (٢)
وألف هموم ماتزال تعوده ... عيادا كحمى الربع أو هى أثقل (٣)
اذا وردت أصدرتها ثم انها ... تثوب فتأتى من تحيت ومن عل (٤)
فاما ترينى كابنة الرمل ضاحيا ... على رقبة أحفى ولا أتنعل (٥)
فانى لمولى الصبر أجتاب بزه ... على مثل قلب السمع والحزم أفعل (٦)
وأعدم أحيانا وأغنى وانما ... ينال الغنى ذو البعدة المتبذل (٧)
فلا جزع لخلة متكشف ... ولا مرح تحت الغنى أتخيل (٨)
ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا أرى ... سئولا بأعقاب الاحاديث أنمل (٩)
وليلة نحس يصطلى القوس ربها ... وأقطعه اللائى بها يتنبل (١٠)
دعست على بغش وغطش وصحبتى ... سعار وارزيز ووجر وأفكل (١١)
فايمت نسوانا وايتمت الدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل (١٢)
فاصبح عنى بالغميصاء جالسا ... فريقان مسئول وآخر يسأل (١٣)
فقالوا لقد هرت بليل كلابنا ... فقلت أذئب عس أم عس فرعل (١٤)
فلم يك الا نبأة ثم هومت ... فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل (١٥)

(١) تياسرن لحمه اقتسموه ، والعقيرة اللحم أيضا ، والمعنى كثرت جناياته فلا يدرى بأيها يؤخذ •

(٢) عند الزمخشرى تنام يعنى الجنايات وحثاثا يعنى متعجلين •

(٣) عياد مصدر عاد والربع من الحمى أن تاخذ الحمى يوما وتدع يومين ثم تجىء وكذلك همومه •

(٤) وردت حضرت وأصدرتها رددتها وتثوب ترجع وتحيت تصغير تحت وعل من العلو •

(٥) ابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقبة يريد مكان الترقب وعند الزمخشرى رقة أى رقة حال •

(٦) مولى الصبر صاحبه والسمع ولد الذئب من الضبع والحزم مفعول مقدم •

(٧) اعدم افتقر والبعدة البعد والمتبذل المجازف يعنى ينال الغنى من يتنقل مبعدا مجازفا •

(٨) الخلة الفقر وعند الزمخشرى من خلة والتخيل من الخيلاء يعنى لا أظهر شعورى بالفقر ولا بالغنى •

(٩) تزدهى تستخف والأجهال جمع جهل وعند الزمخشرى بأعقاب الأقاويل ورجل نمل أى نمام •

(١٠) النحس البرد واصطلى استدفأ بالنار وربها صاحبها والاقطع نصال السهام يعنى يستدفىء بقوسه ونصاله من البرد •

(١١) الدعس الوطء والبغش المطر الخفيف والغطش الظلمة وعند الزمخشرى على غطش وبغش والسعار شدة الجوع والارزيز البرد والوجر الخوف والأفكل الرعدة •

(١٢) الايم من النساء والرجال من لازوج له وأيتمت اليتيم والدة أولاد وأليل مظلم •

(١٣) عند الزمخشرى وأصبح الغميصاء موضع بنجد يعنى أصبح أهل الحى الذى غزوته فريقين مسئول وسائل •

(١٤) هرير الكلب صوته وعند الزمخشرى فقلنا أذئب والعس الطواف بالليل والفرعل ولد الضبع •

(١٥) النبأة صوت وهومت نامت وريع أفزع للمجهول والأجدل الصقر وعند الزمخشرى فلم تك بالتاء •

فان يك من جن لأبرح طارقا ... وان يك انساماكها الانس تفعل
ويوم من الشعرى يذوب لوابه ... أفاعيه في رمضائه تتململ (١)
نصبت له وجهى ولاكن دونه ... ولا ستر الا الاتحمى المرعبل (٢)
وضاف اذا هبت له الريح طيرت ... لبائد عن أعطافه ما ترجل (٣)
بعيد بمس الدهن والفلى عهده ... له عبس عاف من الغسل محول (٤)
وخرق كظهر الترس قفر قطعته ... بعاملتين ظهره ليس يعمل (٥)
فألحقت أولاه بأخراه موفيا ... على قنة أقعى مرارا وأمثل (٥)
ترود الأراوى الصحم دونى كأنها ... عذارى عليهن الملاء المذيل (٧)
ويركدن بالآصال حولى كاننى ... من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل (٨)

منهج شعرهم وموضوعاته

باستثناء الشذوذ الذى لا تخلو منه قاعدة أو حكم ، يمكن أن يقال ان شعر الصعاليك ليست له موضوعات معينة يتجه اليها اتجاها مقصودا ، ومع ذلك نجده يكاد يطرق كل الموضوعات المألوفة فى الشعر العربى القديم على تفاوت فى تعرضه لهذه الموضوعات ·

وقد يبدو فى هذا شيء من التناقض أو الغرابة ، ولكنها الحقيقة التى ينتهى اليها الدارس الناقد لشعر الصعاليك ·

فشعر الصعاليك ، قصائده ومقطوعاته ، يغلب عليه نوعان ، نوع يحتوى على معان كثيرة رغم تقاربها ، وأغلب ما يكون ذلك فى القصائد ، كلامية الشنفرى ولامية عبدة بن الطبيب ونوع يطرق معنى واحدا أو يدور حول معنى واحد ، ويغلب ذلك فى المقطوعات ، وهى أكثر ما وصل الينا من شعر الصعاليك ·

---

(١) المراد بالشعرى شدة الحر واللواب ما ينتشر فى الجو مثل العنكبوت من الحر والرمض شدة وقع الشمس على الأرض ·

(٢) نصبته أقمته والكن الستر والأتحمى ضرب من البرود والمرعبل الممزق ·

(٣) ضاف سابغ واللبائد خصال الشعر بين الكتفين والأعطاف الجوانب وترجل تمشط أى لا يستر وجهى الا ثوب ممزق وشعر غير مرجل ·

(٤) العبس ما يتعلق بأذناب الابل من أبوالها وأبعارها فيجف عليها يعنى أن شعره لا ينال الدهن والتفلية فيتراكم عليه الوسخ والعبس ·

(٥) الخرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستواء والعاملتان رجلاه والضمير فى ظهره للخرق أى مكان غير مطروق ·

(٦) الضمير فى أولاه للخرق وموفيا مشرفا والقنة أعلى الجبل والاقعاء جلسة خاصة وأمثل انتصب قائما ·

(٧) ترود تذهب وتجيء والأروى انثى الوعل والصحم السود الى صفرة والملاء ضرب من الثياب يريد الأراوى تألفنى وعند الزمخشرى حولى كأنها ·

(٨) يركدن يثبتن والأصال جمع أصيل والأعصم ، الوعل فى ذراعه بياض والادفى ماطال قرنه وينتحى يعتمد ويقصد والكيح عرض الجبل وسنده والأعقل الممتنع ·

ولكن الذى يلفت النظر أننا لا فى هذا ولا ذاك نجد القصد الى الغرض أو الموضوع واضحا ، بمعنى أننا حين نتأمل شعرهم فى جملته نجد أنهم لا يقصدون قصدا واضحا الى الحديث فى غرض معين أو التركيز فى موضوع خاص ، وحتى المقطوعات التى تدور حول معنى واحد ، مع أنها فى ظاهرها مقصورة على غرض وموضوع معين ، الا أننا بعد قراءة المقطوعة وتأملها نجد فى نفوسنا احساسا بأن موضوع القطعة ليس غرضـــا مقصودا لذاته ، وحين نحاول البحث عن الغرض المقصود نجد أنه دائما ينتهى الى شىء واحد ، هو شخصية الصعلوك نفسها وحياته ، فقد يتحدث الصعلوك مثلا عن الفقر ، وقد يتحدث عن السلاح ، وقد يتحدث عن الوحوش ، وقد يتحدث عن الناس ، ولكننا نحس أنه لا يتحدث عن شىء من ذلك لذاته ، فلا يتحدث عن الفقر من حيث وصف آثاره وملابســاته لذاتها ، وانما يتحدث عنه من زاويته هو ، وعن موقفه منه وتأثره به ، ويتحدث عن البيئة مثلا ، فيصف ليلة شديدة البرد ، أو يوما شديد الحر أو وحوشا ترود من حوله أو أعداء يرصدونه متربصين به ، ولكنه لا يتحدث عن شىء من ذلك حديث الواصف فحسب ، كما يتخذ بعض الشعراء من مثل هذه الأشياء لوحات فنية مقصودة لذاتها ، فيصفون ما فيها قاصدين الوصف لذاته ، وانما يتحدث عن مثل هذه الاشياء من زاويته هو ، ومن حيث ارتباطه بها فى مزاولة الصعلكة وتأثره بها ، ومثال ذلك وصف عمرو بن براقة لظلام الليل وسكونه فى الصحراء فقد رسم لوحة فنية لاحدى ليالى الصحراء ، حين يوغل الليل ، فيخيم الظلام حتى لا يبدو فيه الا تألق النجوم ويسيطر النوم والسكون على البدو المقيمين بالصحراء ويخيم الهدوء والسكون فلا تسمع فيه الا أصوات البوم منبعثا من ثنايا الجبال ولكننا نجد أن هذا الوصف ليس مقصودا لذاته لديه ، وانما يسوقه عرضا فى خلال حديثه عن غاراته وصعلكته قائلا انه ينتهز مثل هذا الوقت من الليل ليغير على أعدائه ، فهو أضمن وقت لنجاح الغارة ، حيث يأخذ أعداءه على غرة ، أو ينسل من ما لهم بما يريد دون أن يشعروا به فيقول :

اذا الليل أدجى واسجهرت نجومه ... وصاح من الافراط بوم جوائم (١)
ومال بأصحاب الكرى غالباته ... فانى على أمر الغواية حازم (٢)

وكذلك نرى الشنفرى يرسم لوحة فنية لاحدى ليالى الشتاء فى الصحراء ، نرى السماء فى هذه اللوحة يتساقط منها المطر ، ونرى الأرض قد ابتلت رمالهـا فأصبحت موحلة ،ونرى فيما بين السماء والأرض بردا قارسا بالغ القسوة ،ونرى فى هذه اللوحة صعلوكا حائرا بين مطر السماء ووحل الأرض وبرد ما بينهما ، وحاصرته هذه العوامل ، فاستبد به الجوع حتى بلغ أقصاه ، واستبد به الخوف

---

(١) ادجى أظلم واسجهرت لمعت والأفراط مجموعة جبال .

(٢) أمالى القالى ١١٩/٢ واسجهرت نجومه رواية الأغانى أما رواية القالى فهى « واكفهر ظلامه » والكرى : النوم .

حتى بلغ أقصاه ، واستبد به البرد حتى ظل جسمه كله يرتعد وحتى دفعه هذا البرد الى تحطيم قوسه الذى يذود بها عن حياته الوحوش والمخاطر فيوقدها هى ونصالها ليستدفىء بهن ، ويدفع عن جسمه بعض هذا البرد الشنيع ٠

هذه لوحة بديعة رائعة يمكن أن تستوعب قصيدة كاملة فى غرض مقصود لذاته ، ولكننا نجد الشنفرى لا يسوق هذا الوصف كموضوع أو غرض مقصود ، وانما يسوقه عرضا فى خلال حديثه عن المتاعب والمخاطر الجسيمة التى يتغلب عليها بقوة عزمه وارادته فيجتازها حتى يبلغ هدفه من غاراته على أعدائه ، فليس هذا الوصف هو المقصود ، وانما المقصود أنه لا يرده عن عزمه شىء فيقول من لاميته الشهيرة :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ... وأقطعه اللائى بها يتنبل (١)
دعست على غطش وبغش وصحبتى ... سعار وارزيز ووجر وأفكل (٢)
فأيمت نسوانا وأيتمت الدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل

وهكذا نجد هذا الاتجاه غالبا على شعرهم كله كما سنرى خلال الموضوعات الكثيرة التى طرقها شعرهم ، ومن هذا نعلم أنه لا تعارض بين القول بأن شعرهم لا يتجه اتجاها مقصودا الى اتخاذ الموضوعات والقول بأنه طرق تقريبا كل الموضوعات المألوفة فى الشعر القديم ، فالفاصل بين الاثنين هو القصد والاتجاه، بمعنى أن الموضوعات نفسها موجودة ولكنها كما قلنا ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود هو شخصية الشاعر الصعلوك نفسها وحياتها ، ولعل هذا ماعناه المستشرقون خلال حديثهم عن لامية العرب ونقدهم اياها من قولهم انها تمثل مذهبا شعريا مستقلا عن الشعر القديم ، كما يقول صاحب تاريخ الأدب العربى « أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافى وغيرها غرضا مقصودا لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله » (٣) ولكن هذا الاتجاه أو المذهب ليس قاصرا على اللامية وحدها ، وانما هو طابع شعر الصعاليك كله فى جملته وهذا الطابع من العوامل الأساسية فى امتياز اللامية وبروزها بين الشعر العربى كله ، فحين نقول ان لامية الشنفرى طراز شعرى فذ ، فليس معنى ذلك ان ميزتها جاءت من قبل شاعريتها ، وانما جاءت قبل ذلك من قبل أنها تحمل هذا

---

(١) النحس البرد واصطلى استدفأ وربها صاحبها والاقطع نصال السهام ٠

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعار شدة الجوع والارزيز البرد والوجر الخوف والافكل الرعدة ٠

(٣) كارل بروكلمان ١/١٠٦ وما بعده ترجمة النجار ٠

الطابع المميز لشعر الصعاليك ، وأنها بلغت في هذا الطابع حد الكمال الشعرى، وهذا الكمال هو كل ماتتفوق به عن شعر الصعاليك ، فحين ندرس شعر الصعاليك نجد أن معانى لامية الشنفرى بل وكثيرا من طابع أسلوبها وخصائصها شائعـــا فيه ، واللامية جمعت أهم هذه المزايا ، وصاغتهـــا بما يلائمها من الأسلوب ، وصورتها فيما يبرز جمالها من الصور · ومعنى ذلك ان شعر الصعاليك ينهج منهجا متميزا عن غيره ، ويحمل طابعا يميزه عن سواه ·

واذا أردنا أن نلخص هذا الطابع في تقريبه الى الذهن نقول : ان شـــعر الصعاليك أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التى يدون الشخص فيها أفكـاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف · وموقف الصعاليك هو الصعلكة بما يلابسها من أسباب تدفع اليها كالفقر والحاجة ، ومخاطر يتعرضون لهـــا في مزاولة الصعلكة من أعداء ووحوش ومتاعب ، وآثار تتمخض عنها الصعلكة من جنايات يطالب أصحابها بالثأر لها ، وموتورين يتربصون بالصعلوك الانتقام ، وهذه المواقف وما يتعلق بها هي التى تثير مشاعرهم الى الشعر ، من ناحيـــة احساسهم وتاثرهم بها ، فيسجلون بشعرهم هذا الاحساس ، ولهذا لم يبـد في شعرهم تشتت أو تفكك رغم أنه لا يركز الحديث حول أغراض ثابتـــة أو موضوعات محددة فقد كان المتوقع وحال شعر الصعاليك كذلك من عدم تحديده موضوعات له أن يبدو مفككا متناثرا ، ولكنه لم يكن كذلك بل كان على العكس ، بادى الوحدة والترابط وعدم التنافر بين معـانيه ، وذلك لأن لجوءه الى أسلوب المذكرات الشخصية جعل فيه قاعدة ثابتة تشد اليها كل المعانى ، هذه القاعـدة هى شخصية الصعلوك ، فمهما كانت المعانى التى تطرقها القصيدة أو المقطوعـة متباعدة في ذاتها فان ارتباطها بشخصية الشاعر في صورة المذكرات يجعلهـــا شديدة الترابط لأنها تتجمع كلها حول هذه الشخصية ، والمعانى أو الأحـــداث لا بأس بتغايرها مادام هناك الرابط الذى يجمعها ، ومثال ذلك المذكرات الشخصية التى مثلنا بها ، فقد يكون هناك شخص في رحلة ، أو معركة ، أو موقف مثير ، فيسجل انفعالاته ومشاعره ، ويسجل مشاهده ، وقد تكون هذه المشاعر مختلفة، وقد تكون المشاهد ، متغايرة ، ولكنها ما دامت مرتبطة بصاحبها فهى جميعـــا أجزاء في وحدة مترابطة ، كمـا لو تخيلنا مثلا مسافرا ضل الطريق في احدى المجاهل فبات ليلة مخيفة عصيبة ، فحدثنا عن مشاعره في هذه الليلة ، فقـــد يحدثنا عن خوفه بما يشاء أن يصور في هذا الخوف ، وقد يحدثنا عن جوعـــه بما يشاء من تصـــوير ، وقد يحدثنا عن مفاجآت مرت به ، وقد تجمع هـــذه المفاجآت بين ما يشبه المتناقضات ، فيرى هذا التائه شبحا يتخيل فيه منقـــذا فيفرح أشد الفرح ، واذا الشبح وحش مفترس فيفزع أشد الفزع ، أو يبلغ منه العطش فيرى ماء فيفرح فاذا هو سراب، وفى خلال ذلك قد يحدثنا هذا التائه عما

يشاء من مناظر مهما كانت مختلفة ، بشرط واحد مهم ، هو أن تكون هذه المناظر مرتبطة بالموقف الذى هو فيه، فله أن يحدثنا عن مطر أصابه فى هذه الليلةويصور آثاره كما يشاء وله ان يحدثنا عن وحوش رآها من مكمنه فأخافته وعن أى شىء يحسه أو يراه مهما كانت الاحاسيس • أو المناظر مختلفة بشرط واحد كما قلنا هو أن ترتبط هذه الأمور بالموقف فاذا لم ترتبط كانت شتاتا مبعثرا ، لان الموقف هو الخيط الذى يربط هذه المعانى على اختلافها فتبدو شيئا واحدا ، فاذا انفصلت عن هذا الخيط كانت بددا مبعثرا •

ومثال ذلك أيضا القصه نجدها تتنقل من الاحداث الاصلية والفرعيةوالمواقف المختلفه ولكن ارتباطها بشخصيه بطل القصة ، وتتابعها فى خط يسير مع هذه الشخصيه يجعل من أحداثها ومواقفها مهما اختلفت شيئا واحدا متتابعا لأنها مرتبطة بقاعدة ثابتة هى شخصية البطل ، ولو تصورنا هذه الاحداث والمواقف التى تحتوى عليها القصة فى غير سياق القصة ، بأن أخرجنا منها شخصية البطل وارتباط الأحداث به ، ثم سردنا المواقف والأحداث المتعلقة بالشخصيات الأخرى لكانت صورة أحداث أى قصة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن صورتها فى القصة ومن أمثلة هذا المنهج فى الشعر المعاصر قصيدة « ليلة التنفيذ » (١) التى نالت تقديرا كبيرا من النقاد ، والتى تصور شخصا محكوما عليه بالاعدام يصور مشاعره فى ليلة تنفيذ الاعدام ، وهى مشاعر عديدة مختلفة ، عن والديه، وعن حياته وما مر فيها ، وعن نفسيته حينئذ ، وشعوره نحو ما حوله، وخاصة السجان وخطواته ، ونحو الغد وما وراءه ، ومشاعر أخرى ، وهذه المعانى على اختلافها بدت فى القصيدة مترابطة أشد الترابط ، لأنها مرتبطة بالقاعدة الثابتة ، التى تتمثل فى ليلة التنفيذ ، بالنسبة للمحكوم عليه •

وأوضح مثال لمنهج الصعاليك فى شعرهم لامية الشنفرى التى تصور فى جملتها شخصا ضاق بمقامه بين الناس ، حين ضاق بأخلاقهم وموقفهم منه ، وبلغ منه الضيق أن أبغض النوع البشرى كله ، فهجره الى حياة الصحراء بما فيها من وحدة ووحوش ، مسجلا ذلك كله فى قصيدة شعرية هى اللامية ، كما يسجل انسان مشاعره وبعض أحداث حياته فى مذكرات ومن هذا نصل الى نقطة أخرى مكملة للنقطة السابقة ، وهى انه ما دام شعر الصعاليك يصور أحداث حياتهم ومشاعرهم نحوها فهل يحمل طابع حياتهم ؟ وهل استطاع أن يعكس خصائص حياتهم ؟ بمعنى أن الصعاليك كانوا كما هو معروف يحيون حياة متميزة عن حياة غيرهم باعتمادها على العدوان والسلب والنهب ، ومعاناة مشقات كثيرة فهل استطاع شعرهم أن يحمل هذا الطابع المتميز ، بحيث يمكن تمييزه عن غيره من الشعر ، كما تميزت حياة أصحابه عن حياة غيرهم ؟ وحتى يصدق عليه أنه ينهج منهج المذكرات الشخصية وللاجابة عن ذلك نقول :

---

(١) للشاعر هاشم الرفاعى •

نريد قبل ذلك أن نحدد الناحية التى تميزت بها حياة الصعاليك ، لنرى بعد ذلك هل انعكست هذه الناحية بموضوعاتها فى شعرهم أم لا ؟ والناحية التى تميزت بها حياة الصعاليك متشعبة التفاصيل ، ولكن يجمعها جميعا أنها حياة صراع .

صراع مع كل شيء ، مع الأسباب التي دفعتهم الى الصعلكة ، كالفقر والشعور بالمهانة والضياع ، وصراع مع الصعلكة نفسها فى مزاولتها ، وما يتعرضون اه خلال ذلك من مخاطر ومشتقات ، وصراع مع آثار الصعلكة ، من الأعداء المجنى عليهم ، ونواحى أخرى تتمخص عنها الصعلكة ، فحياتهم يمكن تلخيصها فى أنها « حياة الصراع » وقد كان صراعا شاقا مضنيا قاسيا ، لا تقوى على دوام احتماله الا نفوس أوتيت مقومات خاصة من القوة والجلد وثبات العزيمة، ولو لم يؤت الصعاليك من ذلك كله حظا كبيرا لما استطاعوا ان يكونوا صعاليك .

وقد انعكس هذا الصراع فى شعرهم ، كما سنرى فى الموضوعات الآتية، فقل أن نجد مقطوعة منه ، بل قل أن نجد بيتين متجاورين يخلوان من التعبير عن هذا الصراع الذى شمل حياتهم كلها ، بل تعدى أحداث الحياة وأسلوب المعيشة الى دخيلة نفوسهم ، فتراهم يصارعون فى نفوسهم معانى قلما يعرض لها غيرهم ، كالهموم والخوف والتشاؤم من الحياة والاستخفاف بها ، حتى يمكن أيضا أن نسميه « شعر الصراع » وقبل أن ندخل فى تفصيل موضوعات شعرهم نحب أن نقول : انه يمكن اجمال موضوعات الصراع التى طرقها شعرهم فى ثلاثة موضوعات رئيسة كما أشرنا آنفا ، أولها الأسباب التى من شأنها أن تدفعهم الى الصعلكة كالفقر وآثاره ، والشعور بالهوان فى المجتمع والضياع فيه ، وثانيها حياة الصعلكة نفسها وبيئتها وأساليبهم فى مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك ، وما يعدونه من أسلحة لها وما الى ذلك ، وثالثها الآثار التى تجرها عليهم الصعلكة ، كالأعداء ، والسلطان فى الاسلام بما يحتوى عليه هذان المجالان من نواح .

وهناك أمران نحب أن نزيدهما وضوحا ، أحدهما أن الأحكام وخاصة فى الأدب لا ينتظر فيها أن تكون قاطعة جافة ، كالأحكام الرياضية مثلا ، بل فيها مجال للرأى واختلاف الوجهات ، وقد تختلف وجهتان فى الأدب ، ولا تستطيع أن نحكم على احداهما بالخطأ ، لأن كل منهما تنظر من زاوية ، والشأن فى نواحى الأدب ، وفى صوره بالذات أن يكون لها أكثر من زاوية كزاوية الأسلوب ، وزاوية المعنى ، وزاوية التصوير ، بل كل من هذه قد تكون له أكثر من زاوية أيضا فلا ينتظر من أحكام الأدب أن تكون قاطعة جافة ولا ينتظر منها وهو ما يعنينا أن تكون شاملة مستقصية ، بمعنى أننا حين نحكم على شعر الصعاليك حكما أو نصفه بوصف ، فليس معنى ذلك أن نجد هذا الوصف فى كل شعر لهم ، وانما يكفى أن يكون طابعا بارزا فى معظم شعرهم .

والامر الثانى اننا لا نتوقع ان تكون حياة الصعاليك ولا حياة أى انسان فى عزلة كاملة عن الناس والمجتمع ، فهم وان كانـــوا قد فرغوا حيـــاتهم أو معظمها للصعلكة ، الا أنه كانت تتخلل حياتهـــم فترات كثيرة يشـــاركون مجتمعاتهم فيها حياتهم وأحداثهم ومشاعرهم ، وفترات أخرى يكفون فيهـــا عن الصعلكة أما للشيخوخة كأخريات عبدة بن الطبيب ، وأما للاستغنـــاء بمصاحبة الأمراء كمالك بن الريب وبكر بن النطـــاح ، واما للتوبة كالأحيمر السعدى وعبيد بن أيوب فى أخريات أيامهما ٠

ففى هذه الفترات كانت حياة المجتمع تدعوهم الى التجاوب معها ،فينتجون شعرا يمثل حياتهم الاجتماعية ، بما فيها من غزل ومدح ورثاء وحكمة ونحو ذلك ، ولكننا حتى فى شـــعرهم الاجتماعى ، لا نعدم ما ينم عن أشخـــاصهم وطريقة تفكيرهم وأخلاقهم ، ويمكن أن نسمى هذا النوع « الشعر الاجتماعى »٠

واذن فشعر الصعاليك يشتمل على موضوعين أساسيين ، أحدهما « شـــعر الصراع » ويشمل الموضوعات المشار اليها بفروعها ، والآخر « الشـــــــعر الاجتماعى » ويشمل حياتهم وصلاتهم الاجتماعية ٠

ولنتحدث أولا عن الصراع بأنواعه المختلفة فى شعرهم ٠

صراع الضياع

فى هذا الحديث نرى شعرهم يصور صراعهم مع الاحســـاس بالضياع والهوان فى المجتمع ، ومن خلال شعرهم نراهم متفقين على اختلاف أماكنهـــم وعصورهم على نظرة واحدة ينظرون بها الى وضع الفرد فى المجتمع ، هـــذه النظرة هى أنأ الفرد ينبغى أن يكون ذا شأن فى مجتمعه أيا كان هذا الشـــأن فاذا لم يتح له وضعه الاجتماعى أن يكون فى المكان المرموق من الســـــيادة أو الفروسية أو حصانة الجانب ، فليسلك أى طريق تجعله فى مكان مرموق، ولو كانت هذه الطريق مضادة عدوانية كما يقول القائل :

اذا أنت لم تنفع فضر ، فانمـــا يرجى الفتى كيما يضر وينفعـا

وينظر الصعاليك الى أوضاع مجتمعهم فاذا أمامهم عقبتان من أشـــد العقبات صلابة ووقوفا فى طريقهم ، احداهما الفقر الذى يعتبر صفة مشتركة بينهم ، والذى لم تستطع حتى جهودهم فى الصعلكة على قوتها وعنفهـــا أن تخلصـــهم منه ، ولذلك أصر معظم علماء اللغـة على تفســير الصعلكة بأنهـــا الفقر ، مع اعترافهم بالمدلول العدوانى لها ، وينظر الصعاليك فاذا الفقـــر

بالاضافة الى كونه تهـديدا لحياتهم نفسـها هو أول عوامل هـدم الكيان الاجتماعى للمرء ، فالفقير شخص مهين فى المجتمع طالما كان فقيرا ، وانى له الخروج من هذا الفقر ، فى مجتمع يزداد فيه الفقراء كل يوم فقرا ، ويزداد فيه الاغنياء كل يوم غنى ويتبع ذلك انا يزداد الاغنياء تسلطا ومجدا وعلوا ، بينما يزداد الفقراء هوانا ومذلة ودنوا ، وليس من حق الفقـراء أن ينتقصوا من سلطان الاغنياء ، بينما من حق الأغنياء أن يزيدوا الفقراء ضعة وهوانا .

والعقبة الثانية احتكار المجد والسيادة فى المجتمع القبلى ، فالسيادة فيه دائما محتكرة فى بيوت معينة تتوارث السيادة ومهما تنقلت السـيادة بين الأفراد فلا ينبغى أن تتجاوز البيت الذى توارثها ، وقد كانت شيمة هـذه السيادة خاصة فى الجاهلية عتوا وتجبرا واذلالا للأفراد وفى مقدمتهم الصعاليك لأنهم فضلا عن وقوعهم فى نطاق السيادة فهم فقراء وينظر الصعاليك فاذا فى أشخاصهم من القوة والعزة ، ومن الحمية والأنفة ما يصطدم بالعقبتين معـا اصطداما عنيفا ، فلا تسيغ نفوسهم حال الفقراء وتعرضهم للموت جوعا ، والذل هوانا ، ولا تهضم عزتهم أن يعيشوا بين القطيع تدفعهم عصا السـادة وتحركهم كبرياء المتسلطين . ولكنهم فى مجتمع كهذا لا يجدون أمامهم سـوى طريقين اثنين ، طريق الاستسلام للهوان حتى الموت ، بكل ما يفرضه الاستسلام أو طريق التمرد ، وليس أمامه الا الصعلكة ، بما تكبدهم هـذه الطريق من مشقة وعناء .

وسنرى كيف صور شعرهم موقفهم من العقبتين ، عقبة « الفقر وآثاره » وعقبة « الهوان فى المجتمع »

الفقـــر وآثاره

١ - الفقـر :

لا شك أن أول ما نحسه فى حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذى لازمهم منذ نشأتهم والذى كان من أبرز الأسباب التى دفعتهم الى الصعلكة ، ولذلك نجد الروايات تقرن غاراتهم وغزواتهم بالفقر ، بل بالمجاعة فى أكثر الأحيان على انها سبب مباشر ، كما تردد كثيرا فى اخبار عروة بن الورد من مثل « كان عروة اذا أصابت قومه سنة شديدة .. وكان عروة اذا أجدب الناس ..

خرج للغزو » (١) وبلغ من فقره انه اضطر الى رهن امراته على الشراب فبنى النضير ، لأنه لم يكن يملك غيرها ، على الرغم من انه كان عائدا من احدى غزواته (٢) ومن مثل روايتهم عن السليك انه « صابته خصاصة شديدة فخرج على رجليه » (٣) وحين مر الوالى سعيد بن عثمان بمالك بن الريب وهو يقطع الطريق قال له ، ويحك يا مالك ، ما الذى يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال : أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافاة الاخوان ، قال : فان أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعنى ؟ قال : نعم ، أكف كاحسن ما كف أحد » (٤) ، وهكذا فى أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم الشديد .

وقد صوروا فى شعرهم حالهم مع الفقر ، وشعورهم نحوه ، وصراعهم لمقارمته ، فهذا تأبط شرا يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد الا تعلة تحول بينه وبين الموت ، حتى برزت أضلاعه من النحول ، والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقـول :

قليـل ادخـار الـزاد الا تعلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا(٥)

ويقول فى محادثة بينه وبين الذئب ، انتى مثلك لا أملك شيئا ، وانما اعتمد فى معيشتى كما تعتمد أنت على الفريسة كلما احسست الجوع :

وقربة اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى ان شاننا قليل الغنى ان كنت لما تمول (٦)

بل نراه فى قوله « ان كنت لما تمول » يشك فى أن الذئب بلغ من الفقر ما بلغه هو ، ويصف تأبط شرا تمزق نعله ، فيقول ان الجبال التى يتسلق صخورها ليصل الى مكمنه الذى يزاول منه صعلكته ، هذه الصخور فى حاجة الى نعل متينة تقى قدميه وأصابعهما من تمزيق الصخور ، ولكنه لا يملك الا نعلا بالغة الرثاثة والتمزق فيقول :

---

(١) أنظر ديوان عروة ص ٨٢ والأغانى ٣/٨١ .
(٢) أنظر أغانى الاصفهانى ٣/٣٨ .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٢٤ .
(٤) أمالى القالى ١٣٦ .
(٥) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والتعلة ما يتعلل به ونشز برز والشر سوف مقاطع الاضلاع والمعا الأمعاء .
(٦) خزانة البغدادى ١/٩٣ ونسبت هذه الأبيات فى رواية لامرىء القيس .

لا شيء في ريدهـــا الا نعامتهـــا منهـا هزيم ومنهـا قائم باق (١)
بشرثة خلق يوقى البنـــان بهـــا شددت فيها سريحا بعـد اطراق (٢)

وأبو خراش الهذلي يشبه تمزق نعله بهيكل عظمي لطائر بعد أن يؤكل لحمه ، ففي نعله من الخروق والتمزق مثل ما بين الأضلاع والعظام والأجنحة ويقول انه حين يضطر الى السـير بنعله هـذه في الندى والمطر والوحل فقد يفضل نبذها والسير على قدميه ٠

ونعل كأشـــلاء السماني نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٣)

وعن النعل أيضا نرى الشنفرى يقول مرة انه أحيانا يضطر الى الحفـاء لا يجد نعلا :

فاما تريني كابنـة الرمل ضاحيا على رقة أحفى ولا أتنعـــل (٤)

ومرة يصف تمزق نعله ، فيقول انني أسعى لا أملك شيئا الا نعلين تمزق صدراها لم أستطع حتى خصفهما ، وملحفة بالية ، وملاءة خلقة قصيرة ، اذا شددتها على جسمي من جانب تعرى الجانب الآخر فيقول :

قليل جهازى غـــير نعلين اسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف
وملحفة درس وجرد مـــلاءة اذا أنجمت من جانب لا تكفف

ويقول عروة بن الورد عن فقره الذى يدفعه الى مجابهة المخاطر :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا يغرر ويطرح نفسه كل مطرح (٥)

ويقول لامرأته انه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فان قتل فموته أرحم لها من عيش الذل ، وان غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين فيقول :

ذريني اطوف فى البـلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٦)
فان فاز سـهم للمنية لم أكن جزوعا ، وهـل عن ذاك من متاخر
وان فاز سهمى كفكم عن مقـــاعد لكم خلف ادبار البيـــوت ومنظـر

---

(١) المفضليات ص ٣٠ والريد أعلى الجبل والنعامة خشبات يجعلها الصعلوك كمينا كالمظلة للربيئة فى أعلى الجبل وهزيم متكسر يعنى بعض الخشبات قائم وبعضها متكسر ٠

(٢) الشرثة الخلق يعنى النعل الممزقة والبنان أطراف الأصابع والسريح السيور تشد بها النعل والاطراق أن يربط تحت النعل نعلا أخرى لتمزق العليا ٠

(٣) ديوان الهذليين ١٣١/٢ والسمانى طائر وخلاف عقب والرهم المطر الخفيف ٠

(٤) من اللامية ، وابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقة يعنى رقة الحال من الفقر ، أنظر أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٠

(٥) أمالى القالى ٢٣١/٢ ويغرر يؤخذ على غرة ٠

(٦) الاصمعيات ٣٦ ، ٣٧ وأخليك يعنى تكونين حرة بموتى ويعنى بسوء المحضر موقف

ويتحدث مالك بن الريب عن فقره وحرمانه من متع الحياة فيقول :

انى أتحت لشابك انيـــابه مستانس بدجى الظلام منازل
لم يدر ما غرف القصـــور وفيؤها طيبا ونخل سوادها المتمـــايل

ويقول الأعلم الهذلى فى وصف ما يعانيه بيته وأولاده من فقر يضطرهم الى التطلع الى ما فى أيدى الأقارب :

وذكرت أهـــل بالعـــرا ء وحاجـــة الشعث التوالب
المصرمين من التـــــــلا د اللامحين الى الأقارب (١)

وصخر الغي يتحدث عن فقره وضيق ذات يده فيقول :

انى بدهماء قل ما أجـــد عاودنى من حبابها زؤد (٢)

ويقول عن ثوبه :

أرى الأيام لا تبقى كريما ولا العصم الأوابد والنعاما
اتيح لها اقيدر ذو حشيف اذا سامت على الملقات ســـاما (٣)

ويقول عمرو بن براقة ان سيفه معظم ماله :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم (٤)

أما عروة بن الورد فيقول ان سلاحه كل ما يملك :

ومالى مال غـــير درع ومغفـــــر وابيض من ماء الحـديد صقيل (٥)

ويصف عبيد بن أيوب صبره على تمزق ثيابه وشعثه وشحوبه وجدبه بقـــوله :

رات خلق الأدراس أشعث شـــاحبا على الجدب يساما كريم الشـــمائل
تعـــود من آبائه فتكاتهم واطعامهم فى كل غبراء شامل (٦)

هذا عن حالهم مع الفقر .

السائل فى ذله .

(١) ديوان الهذليين ٨١/٢ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٨ م الخانجى .

(٣) ديوان الهذليين ٦٣/٢ والضمير فى لها يعود على الأوابد (الوحوش) والنعام والاقيدر قصير العنق يعنى نفسه . والحشيف الثوب الخلق الممزق والملقات جمع ملقة المكان الأملس من الجبل .

(٤) أمالى القالى ١١٩/٢ .

(٥) العمدة لابن رشيق ٣٥/٢ .

(٦) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

وأما عن أحساسهم بالفقر ، وبمكانة الفقير فى المجتمع ، وكيف ينزل الفقر بصاحبه الى درجة من الهوان على الناس ، بل وعلى الأقارب والزوجات ، فقد أكثروا من تصويره فى شعرهم ، فهذا أبو النشاش يفضل الموت على الفقر حيث يقول :

فلم ار مثل الفقـــر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليـــــل اخفق طالبه
فعش معـــــدما او مت كريما فاننى ارى الموت لا ينجو من الموتهاربه(١)

ومالك بن حريم يرى ان المال يرفع الخسة ، ويجعل الذميم حميدا وان الفقر مذلة لصاحبه بين الناس فيقول :

انبئت والأيام ذات تجـارب وتبــــدى لك الأيام مالست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربــــه ويثنى عليه الحــمد وهو مذمم
وان قليل المال للمرء مفســـد يحز كما حز القطيع المحرم
يرى درجات المجد لا يستطيعها ويقعد وسـط القـوم لا يتكلم (٢)

ويقول السليك عن احساسه بين الناس بعجزه عن نفع قريباته :

اشاب الراس انى كل يوم ارى لى خالة وسط الرحــــال
يشق على ان يلقين ضـــــيما ويعجز عن تخلصهن مـــالى (٣)

ويقول عروة بن الورد مقارنا بين منزلة الغنى ومنزلة الفقير بين الناس :

دعينى للغنى أسعى فانى رايت الناس شرهم الفقـــــير
واهونهم واحقـــــرهم لديهم وان امسى له كرم وخـــــير
ويقصى فى النـدى وتزدريه حليلته وينهره الصـــــغير
وتلقى ذا الغنى وله جــــلال يكاد فؤاد حاجبه يطـــــير
قليـــل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفـــور (٤)

ويقول أيضا :

قالت تماضر اذ رات مالى خوى وجفا الأقارب فالفـــؤاد قريح
مالى رايتك فى النـــدى منكسا وصبا كانك فى النـــدى نطيح
المال فيه مهابة وتجـــلة والفقر فيه مذلة وفضوح (٥)

ويقول الأحيمر السعدى :

---

(١) حماسة أبى تمام ١/١١٦ .
(٢) حماسة أبى تمام ٢/٣١ ، ٣٢ .
(٣) الكامل للمبرد ٢/١٤٠ ، ١٤١ .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٣٤ .
(٥) ديوان عروة ٨٩ ورويت الأبيات للنمر بن تولب .

تعيرني الاعدام والبـدو معرض وسيفى بامـوال التجار زعيم (١)

وأبو خراش الهذلى يشتد به الفقر فيجد من زوجه تنكرا وازورارا ويجد منها نعيرا واحتقارا ، فينشىء قصيدة يخاطبها بها ، محاولا ردها الى الروية والحكمة ، مبينا لها فضله على فقره ، ومنها :

رات رجلا قد لوحته مخامص وطافت برنان المعدين ذى شحم (٢)
تقول فلولا أنت أنكحت سـيدا أزف اليه او حملت على قرم (٣)
أفاطم انى أسـبق الحتف مقبلا واترك قرنى فى المزاحف يستدمى (٤)

ويقول عروة بن الورد لزوجه أيضا :

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى افيد غنى فيه لذى الحق محمل (٥)

٢ ـ آثار الفقر :

ولابد للفقر من آثار تترتب عليه ، وقد عانى الصعاليك منها أشـد العناء ، وصارعوها أشد الصراع ، وأبرز هذه الآثار الجوع ثم نحول الأجسام والهـزال ٠

وفى شعر الصعاليك صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسى الذى يتعرضون له كثيرا ، والذى بلغ من تعودهم عليه واستعدادهم لاستقباله دائما أن راضوا أنفسهم على طرق معينة يقاومونه بها ٠

وكذلك الهزال ونحول الأجسام نجده شائعا فيهم ، يشكونه فى ألم ويصورونه فى صور مختلفة مؤثرة ٠ وحين نستعرض حديث شعرهم عن كل منهما نقول :

(أ) الجـوع :

يصور تأبط شرا أثر قلة زاده وما ترتب عليه من ضعف جسمه وبروز عظامه ، والتصاق أمعائه من الجوع فيقول :

---

(١) أمالى القالى ١/٤٨ ٠

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٢٨ ٠ والمخامص جمع مخمصة من الجوع ، والمعدان الجنبان يعنى أنها رأته ناحلا من الجوع فتطلعت الى شاب مكتنز اللحم حتى لو ضرب جنباه لكان لهما رنين من اكتناز اللحم والشحم ٠

(٣) القرم الجمل القوى لم يستعمل ، يعنى لولاك لتزوجت سيدا موسرا ٠

(٤) أسبق الحتف يعنى ينجو من الميت بسرعة عدوه والمزاحف مواضع القتال ٠

(٥) حماسة أبى تمام ٢/٣٠ ٠

قليل ادخار الزاد الا تعـــــلة   فقد نشز الشرسوف والتصق المعا(١)

ويصف الشنفرى حيـاته فى رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم الى تأبط شرا ، وقد وجد تأبط شرا ان الزاد قليل ، فأخـــذ يقتر عليهم ولا يمنحهم الا القليل الذى لا يرد عنهم الجوع ، ولكنه بذلك يدفع عنهم جوعا أشد . فيقول :

وأم عيـــال قد شهدت تقوتهم   اذا اطعمتهم أو تحت وأقلت (٢)
تخاف علينا العيل ان هى أكثرت   ونحن جياع أى آل تألت (٣)
وما ان بهــا ضن بما فى وعائها   لكنها من خيفة الجوع ابقت (٤)

والسليك بن السلكة حصل فى احدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هى عدد من الابل ، فقرت بها عينه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو اليها فلم يبلغها الا بعد أن عرض نفسه لمخاطر كثيرة رأى فى بعضها الموت قريبا منه وحين ننظر فعلا الى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بنى تميم فى اليمامة والرباب فى الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت فى جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطويل وما يكتنفه من مخاطـــر الصحراء والجبال والمهالك ، يجد السعادة وقرة العين فى عدد من الابل ، ولكننا حين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التى كان يعانيها نعذره ان هو ســعد بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يحكيه فى هذا الشعر ، من انه كان يعانى الجوع الشديد فى الوقت الذى يخصب فيه الناس وهو الصيف ، فضـــلا عما يجدبون فيه من أوقات ، وان هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ به حالة من الضعف تجعله يشعر بالدوار واظلام البصر حين يقف كما يقول :

وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة   وكدت لأسباب المنية اعـــرف
وحتى رأيت الجـوع بالصيف ضرنى   اذا قمت تغشانى ظلال فاسدف (٥)

وأبو خراش الهذلى يتحدث عن ابنه خراش الذى كان قد خرج فى غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشفق عليه أحد الأعداء فألقى عليه رداءه ليخفيه ، وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصفه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار خراش ، مبينا أن سبب غارته لم يكن عداوة بينه وبين أحد

---

(١) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والشر سوف مقاطع العظام .

(٢) أراد بأم عيال تأبط شرا لأنهم جعلوه كالأم تعولهم وأوتحت أعطت قليلا وأقلت مثل أوتحت .

(٣) العيل والعيلة الفقر أى آل تالت تعجب معناه أى سياسة ساست يعنى سياسة حكيمة .

(٤) الضن البخل يعنى أن ابقاءها الطعام وتقتيرها كان لخشية الجوع بنفاد الزاد منهم .

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ٢/١١ وأسدف دخل فى السدفة وهى الظلام .

وانما الرغبة فى دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتح له الغنيمة آثر النجـــاء :

ولم يك مثـــلوج الفـــؤاد مهيجا   أضاع الشباب فى الربيلة والخفض(١)
ولكنه قد نازعتـــه مخامص   على أنه ذو مرة صادق النهض (٢)
كأنهم يشبثون بطـــــائر   خفيف المشاش عظمه غير ذى نحض(٣)

ولما كان هذا الجوع المضنى ليس شيئا عارضا فى حياتهم ، وانما هو حالة ان لم تكن دائمة فهى متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم التجارب الى طرق يعالجونه بها ، وأيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة الارادة ، والصبر الشديد ، فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى فى معالجته الجوع من انه يصبر عليه ، ويجاهد فى تجاهله وتناسيه حتى ينجح فى التغلب على الشعور بوطأته ، مبينا انه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض اذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه انسان باطعامه ، وانه لولا عزة نفسه والارتفاع بها عما يشينها لما عز عليه طعام ولا شراب فيقول من لاميته :

أديم مطال الجـــوع حتى أميتـــه   وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهـــل
وأستف ترب الأرض كى لا يرى لـه   على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتنـــاب الذأم لم يبق مشرب   يعاش به الا لدى ومأكل (٤)

وهذه الطريقة التى هدت الضرورة اليها الشنفرى ، اهتدى اليها أبو خراش ايضا ، فيقول انه فى صراعه مع الجوع يتذرع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع هذا الصبر فيذهب ، وكما قال الشنفرى انه يفضل استفاف التراب على الذل كذلك قال ابو خراش انه يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل فيقول :

وانى لأثوى الجـــوع حتى يملنى   فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى(٥)
وأغتبق المـــاء القراح فأنتهى   اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم (٦)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٥٨ ، ١٥٩ وأولها : حمدت الهى بعد عروة اذنجا .. خراش وبعض الشر أهون من بعض ومثلوج ضعيف بارد ومهيج رخو مثقل والربيلة كثرة اللحم والخفض الدعة والتنعم .

(٢) مخامص يعنى الجوع وصادق النهض قوى العزيمة ورواية أمالى القالى ١/٢٦٧ لوحته مخامص .

(٣) المشاش العظم والنحض ، يعنى الذين يعدون خلف خراش وجدوه كطائر خفيف العظم واللحم فى سرعة عدوه .

(٤) وفى اللامية أبيات أخرى عن الجوع منها : وأطوى على الخمص الحوايا .. الخ وأغدو على القوت .. الخ .

(٥) أثوى الجوع أطيل حبسه والجرم الجسه .

(٦) أغتبق يعنى أشرب والمزلج الضعيف وانتهى أكف أو أكتفى .

أرد شـجاع البطن قـد تعلمينـه   وأوثر غيرى من عيالك بالطعم (١)
مخافة أن أحيا برغم وذلة   وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويروون فى سبب هذه الأبيات ان أبا خراش أقفـر من الزاد أياما ، ثم مر بامرأة من هذيل موسرة ، فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش ريح الطعام قرقر بطنه ، فضرب بيده على بطنـه وقال : انك لتقرقر لرائحـة الطعام ، والله لا طعمت منه شيئا ، ثم قال : يا ربة البيت ، هل عندك من صبر أو شيء مر ؟ فأتته به ، فأكله ، ثم أهوى الى بعـيره فركبه وانصرف فظنت المرأة انـه أنكر من ضيافتهـا شيئا ، فأخذت تناديه : هل رأيت بأسا أو انكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الأبيات (٣) .

(ب) نحول الجسم :

ومن آثار الفقر التى شكاها الصعاليك بصورة ظاهرة نحول الاجسام وما يعتريها من هزال ونحافة شديدة ، فالشنفرى يصف جسمه حين ينام بأنه لا يبلغ الأرض ، لأن عظـامه وفقار ظهره البـارزة تحول بينه وبين الأرض وانه حين يتوسد ذراعه انما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها للحم فيقول :

وآلف وجه الأرض عند افتراشها   بأهدأ تنبيه سـناسن قحل (٤)
وأعدل منحوضا كأن فصوصه   كعاب دحاها لاعب فهى مثل (٥)

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه ، ويقول ان هذا النحول سببه الجوع ، وانه كان يمكن لجسمه أن يكون ضخما لو آثر نفسه برزقه ، ولكنه يؤثر أن يقسم هذه الضخامة فى أجسام كثيرة من الذين يجود عليهم ويشركهم معه فى رزقه من الناس فيقول :

ومن يؤثر الحق النـؤوب تكن به   خصاصة جسم وهو طيان ماجـد
اقسم جسمى فى جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد (٦)

---

(١) شجاع البطن يريد شدة الجوع والطعم الطعام والتى يخاطبها زوجه .

(٢) الرغم الهوان والذل . والأبيات من قصيدة بديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ .

(٣) أنظر الأغانى ٦٠/٢١ وبما أن هذه الأبيات ضمن قصيدة يحاور بها زوجه فيحمل على أنه قال القصيدة قبل هذه القصة ثم تمثل بهذه الأبيات منها فى المناسبة المذكورة مع الهذلية .

(٤) من اللامية : والأهدأ شديد الثبات يعنى جسمه والسناسن رءوس فقار الظهر والقحل الجافة .

(٥) أعدل أتوسد والمنحوض ذراعه اليابس والفصوص المفاصل ودحاها بسطها .

(٦) كامل المبرد ٣٦/١ وحماسة أبى تمام ٣٠١/٢ والامالى للقالى ٢٠٠/٢ والتنبيه للبكرى ١١٣ مع اختلاف فى محاورة بين عروة ورجل من قومه .

وأبو حراش يصف نحول زميل له فى الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف يابس ، فجسمه عظم لا لحم فيه ، كفه يابسة تبرز فى ظهرها أعصابها ، وساقاه يابستان لا يرى فيهما الا العظم فيقول عنه :

سمح من القوم عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنابيب (١)

كما وصف أبو خراش ابنه خراشا - وهو صعلوك - بضآلة جسمه ونحوله ، فعظامه رقيقة ضئيلة لا لحم عليها فى قوله « خفيف المشاش عظمه غير ذى نحض » (٢) وكما وصف نفسه بالنحول وضآلة الجسم ولا يؤثر فى السياق انه جعل سبب هذا النحول حزنه على صديق له ، فقد تحدث فى مواضع أخرى كثيرة عن السبب الحقيقى لهذا النحول وهو الجوع الشديد المضنى الذى كان يتعرض له دائما كما سبق فيقول :

وما بعد أن قد هدنى الدهر هـدة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٣)
وما قد أصاب العظم منى مخامر من الداء داء مستكن على كلم

وتأبط شرا يصف جسمه بأنه ليس فيه الا هيكل من العظم الضخم فى صدره ، ولكنه عظم لا يحمل لحما ولذلك كانت بقية جسمه فى نحول وضآلة فيقول حين حاصره أعداؤه من بنى لحيان الهذليين فاحتال للنجاة منهم بصبه عسلا على الصخور وانزلاقه عليها بعيدا عنهم :

وأخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصدر (٤)
فرشت لها صدرى فزل عن الصفا به جؤجؤ عبل ومتن مخصر (٥)

ويصف جسمه أيضا ببروز أضلاعه من الجوع فيقول :

قليل ادخار الزاد الا تعلة فقد نشز الشر سوف والتصق المعا(٦)

ويتحدث تأبط شرا أيضا عن هزال جسمه فى حديث له الى أحد الذئاب فيقول :

---

(١) عريان أشاجعه يعنى معرى عن اللحم والنواشر عصب ظهر الكف والظنابيب حروف الساق يعنى يابسه .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ وفى بيت قبله « لوحته مخامص » أمالى القالى ١/٢٦٧ تأكيد للنحول بسبب الجوع .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٥١ فى رثائه خالد بن زهير الهذلى وتضال مخفف تضاءل .

(٤) وأخرى يعنى الحيلة التى نجابها وأصادى النفس عنها يعنى أتدبرها والشطر الثانى معناه وجدت هذه الحيلة هى كل الحزم .

(٥) فرشت بسطت والصفا نوع من الحجارة وجؤجؤ عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر دقيق ضئيل أنظر الحماسة ١/١٨ .

(٦) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والنشوز الظهور والبروز والشر سوف الاضلاع حول البطن .

كلانا اذ ما نال شـيئا افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (١)

ومالك بن الريب يتحدث عن نحول جسمه ، مشيرا الى صراعه مع أعدائه وأثر ذلك في نحوله ، ولكن في حديثه عن فقره في مواضع أخرى ما هو أوضح سببا فيقول :

وقد تقـول وما تخفى لجارتهـا انى أرى مالك بن الريب قد نحلا
من يشهد الحـرب يصلاها ويسعرها تراه مما كسته شاحبا وجـلا (٢)

وعبيد بن أيوب العنبرى يتحدث أيضـا في تشرده في القفار عن ضآلة شخصه وضمور جسمه فيقول :

كأني وآجـال الظباء بقفـرة لنا نسب نرعاه أصبح دانيا
وأين ضئيل الشخص يظهر مرة ويخفى مرارا ضامر الجسم عاريا (٣)

ويسلك في تصوير نحوله أسلوب المبالغة فيقول ان تشرده في الصحارى وطول تنقله في الفيافي جعل من جسمه شيئا لو حملته حمـامة لطارت به كما قال :

حملت عليها ما لو ان حمـامة تحمـله طارت به في الخفاخف
رحيلا وانساما واعظم وامـق أضر به طول السرى في المخاوف (٤)

على انه ينبغي أن نلاحظ في مقارنتنا بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام فيحديثهم عن الفقر وآثاره . انه وان كان الجاهليون والاسلاميون قد اشتركوا في معاناة الفقر والشكوى منه على السواء ، الا اننا نجد صعاليك الاسلام لم يتحدثوا قط عن هذا الجوع الشديد المضنى الذى عاناه الجاهليون متألمين منه أشد الالم ، وكذلك نجد صعاليك الاسلام وان كانوا تحدثوا عن نحول أجسامهم الا انهم لم يربطوا بين هذا النحول وبين الجوع والحرمان كما ربط الجاهليون .

ومعنى ذلك ان صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام وان كانوا قد اشتركوا في الفقر الا أن درجة هذا الفقر كانت مختلفة ، فبينما نجد فقر الصعلوك الجاهلي يبلغ منه حد الجوع المهلك بحيث لا يرى أمامه الا أن يستف التراب كما يقول الشنفرى أو يغتبق الماء القراح كما يقول أبو خراش ، ولذلك يقترن بصعاليك

---

(١) خزانة البغدادى ٩٣/١ ويعنى بالشطر الأول سرعة العدو وبالثانى أن من يتعرض لمثل معيشتى ومعيشتك يهزل جسمه .
(٢) أنظر مهذب الأغانى ١٠/٥ ـ ١٩ .
(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .
(٤) الشعر لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجى والضمير في عليها للناقة .

الجاهلية كثيرا مثل قولهم « أصابته خصاصة شديدة فغزا » (١) بينما نجد صعاليك الجاهلية كذلك ، نجد فقر صعاليك الاسلام لا يبلغ بهم هذه الدرجة ولذلك لم يتحدثوا فيما بلغنا من شعرهم عن الجوع ، وتحدثوا عن نحول الأجسام ولكن لم يقرنوه بالجوع والمخامص ، وكذلك نجد ان ما يدفع صعاليك الاسلام الى الصعلكة ليس هذا الجوع كما كان لدى الجاهليين ، وانما مجرد الشعور بأن فقرهم يجعلهم دون الناس منزلة ويحرمهم من رغد العيش ونعمائه التي يرون غيرهم فيها ، فمالك بن الرب مثلا لا يشكو الجوع ، وانما يشكو حرمانه من غرف القصور وفيئها ونعيمها كما يقول عن نفسه :

لم يدر ما غرف القصــــور وفيؤها طيبا ونخل ســــوادها المتمايل (٢)

وحينما سأله الوالي عن سبب قطعه الطريق ، لم يقل الجوع والحرمان وانما قال « العجز عن مكافأة الاخوان » يعني مجرد شعوره بأن الفقر جعله في منزلة يراها غيرمناسبة له ٠

وهذا الفارق بين الاسلاميين والجاهليين يتضح من المقارنة بين الحــــالة الاقتصادية في الجاهلية والاسلام ، ومن النظرة الى أثر الفتوحات الاسلامية وما أفاضته من رخاء في المجتمع العربي ٠

ولكن هذا الفارق كان ذا أثر كبير في حياة كل من الجاهليين والاسلاميين بالنسبة للآخر ، وسترى فيما يأتي ان انفراد الجاهليين بهذا الجوع الشــــديد كان له تأثير كبير في حياتهم وبالتالي في شعرهم ، بل ترتبت عليه موضوعات كاد الجاهليون ينفردون بها عن الاسلاميين ، كشعر المراقب وشعر العــــدو ومعظم شعر الطبيعة ، فان شدة الجوع جعلت الجاهليين يرتادون أماكن لا يضطر اليها الاسلاميون ٠

صراع الهوان في المجتمع

ولئن كان شعر الصعاليك قد صور صراعهم الشاق مع العقبة الأولى وهي الفقر وآثاره كما رأينا ، فانه أيضا صور صراعهم مع العقبة الثانية مما كان يحول بينهم وبين أخذ مكانهم الصحيح في المجتمع ، أو على الأقل المكان الذي

(١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ والخصاصة الجوع ٠
(٢) أنظر مهذب الأغاني ١٠/٥ ٠

تطمئن اليه نفوسهم ، ولا يؤذى كرامتهم ويثبت كيانهم ، فاثبات الكيان هو غايتهم ولذلك يمكن تسمية هذا الفصل « اثبات الكيان » وهذه العقبة الثانية هى « احتكار السيادة » بمعنى ان تكون سيادة القبائل فى بيوت معروفة تتوارث السيادة ولو مداولة بين أفرادها ، وليس هذا ما ضاق به الصعاليك لذاته فانه لم يبد من شعرهم الاتجاه الى السيادة او الحرص عليها ، ولكن الذى ضاقوا به هو ان هذا الاحتكار قد تولدت عنه طبقية منكرة فى القبائل ، وتكاد هذه الطبقية وخاصة فى الجاهلية تحصر الأفراد فى ثلاث طبقات ، طبقة السادة وهم أفراد البيوت التى تتوارث السيادة ، وأفراد هذه الطبقة جميعا سواء أكانوا سادة أم غير سادة من حقهم أن يشمخوا بأنوفهم كما يريدون ، وأن يتجبروا كما يشاءون وأن يسلبوا أموال الناس وحقوقهم وكرامتهم وأعراضهم طالما كان فى سيوفهم قدرة على حماية بغيهم فى هذا كله ، ولم يكن بغيهم هذا مقصورا على القبائل المعادية ، أو المجاورة ، وانما كان يشمل أيضا البيوت والأحياء الأخرى من قبيلتهم نفسها ، وخاصة البيوت التى لا تظهر خضوعا وانقيادا ظاهرا لسيادتهم كبعض ما رأينا فى الحديث عن الجاهلية ، فهذه الطبقة فى قمة الوضع الاجتماعى · وهناك طبقة ثانية فى أسفل الوضع الاجتماعى وهى طبقة العبيد وسائر الأفراد الفقراء فى القبيلة من غير بيت السيادة فهؤلاء الفقراء كانوا هم والعبيد شيئا واحدا ؛ لأنهم وان اختلفوا من حيث الحرية والرق ، الا أن هذا الاختلاف من حيث التطبيق العملى فى المعيشة لا قيمة له . فكلاهما كان أمام طريق واحدة هى أن يقدم كل جهده فى خدمة السادة لقاء لقمة تحفظ عليه الحياة ، ولن تكون له حياة بدون هذه اللقمة ، ولن يحصل على هذه اللقمة الا بالخدمة لدى السادة والأغنياء ، لأن البيئة لا مجال فيها لوسائل أخرى من العيش ، وأهم وسيلة كان يستخدم فيها العبيد والفقراء الرعى ، وهناك فى المرعى يمحى الفارق بين الفقير الحر ، والراعى العبد فكلاهما راع ، وكلاهما لا يملك من الحياة غير ذلك ·

هاتان الطبقتان كانتا طرفى المجتمع ، أولاهما فى القمة ، وكل أفرادها يلقون التجلة الاحترام ، وأخراهما فى الحضيض ، وكل أفرادها يلقون المهانة والهوان ، وبينهما طبقة ثالثة ، تتكون من الأفراد البارزين بين أفراد القبيلة من غير بيت السيادة ، وبروز الافراد كان أمامه مجالان ، الغنى والفروسية ، الأغنياء والفرسان كانوا يكونون طبقة وسطا بين الطبقتين الأخريين وكانت منزلة أفراد هذه الطبقة تحددها المزايا التى يستطيع كل فرد الوصول اليها فالغنى بمقدار غناه ، والفارس بمقدار شجاعته واسهامه فى الزود عن القبيلة أو الرفع من شأنها ، وكان هناك مجال ثالث يستطيع الأفراد أن يجعلوا لهم مكانة أدبية منه اذا هيىء لهم وهو الشعر ، فالشاعر فى المجتمع العربى سواء فى الجاهلية والاسلام كان يحظى بقدر كبير من التقدير والاهتمام ، حتى انه من تقاليدهم انه كان اذا ظهر شاعر فى قبيلة أقبلت وفود القبائل تهنئها به

ولكن الشعر وخاصة فى الجاهلية حيث لم يشع التكسب بالشعر فيها (١) لم يكن وسيلة مجدية للمعيشة ، فلم يكن الشاعر يستطيع الاعتماد على شعره فى معيشته ، حتى ان النابغة الذبيانى على شهرته الشعرية اضطر الى مزاولة حياة الصعاليك (٢) ، أما الوسيلتان الأخريان فيمكن الاعتماد عليهما فى المعيشة لأن الغنى له من ماله ما يعوله ، والفارس ان لم يكن له مال ففى سيفه ما يمكنه من جلب المال ، ولو بالغزو والغارة ، كما كان شائعا فى الجاهلية ووضع الصعاليك من هذه الطبقات ظاهر فهم لم يكونوا من بيوت السيادة ، وكانوا مع ذلك فقراء ، بل غاية فى الفقر وبذلك اجتمعت فيهما الصفتان اللتان وضعتاهم فى الطبقة السفلى من المجتمع ، وكان بعضهم شعراء ، ولكن شعرهم لم ينفعهم ، فالشعر لم يكن فى الجاهلية مصدرا للعيش ، وحين أصبح الشعر فى الاسلام وسيلة للعيش أبت نفوسهم دون غيرهم من الشعراء أن يتخذوه وسيلة للعيش والتكسب ، فلم يتكسبوا به قط الا من شذ منهم مثل بكر ابن النطاح ، على ان الروايات تفيد انه لم يتكسب بشعره الا بعد ان أقصر عن الصعلكة (٣) وكون الصعاليك يأبون عامدين مترفعين أن يتكسبوا بالشعر حقيقة مشرفة لهم ، كما سيأتى فى موضعه ٠

واذن فقد كان الصعاليك ومعهم شعراؤهم فى الطبقة الدنيا من المجتمع ولكن نفوس بعضهم أبت بما تحمل من عزة وقوة واباء أن تستكين لوضعها فى هذه الطبقة ولم يكن كما قلنا أمام المتحفزين من هذه الطبقة ليرتفعوا الى الطبقة الوسطى الا طريقان طريق الثراء ، وطريق الفروسية ، فأما الثراء فهو موصد أمامهم باحكام ، لأنهم لا يملكون منه شيئا ، وأما الطريق الآخر وهو الفروسية والشجاعة فهو مفتوح أمامهم ، لأنهم يملكون وسائله وأسلحته بل يملكون منها قدرا من القوة والجرأة والمضاء والبسالة قلما يتاح لغيرهم ولكنهم بالطبع لم يكونوا فى درجة واحدة أو حالة واحدة ، فالذين كانوا فى نسب خالص وفروسية بارزة ، أصبحوا من الفرسان الذين تعتز بهم قبائلهم كعروة بن الورد العبسى ، ومالك بن حريم الهمدانى ، وقيس بن منقذ السلولى قبل أن يخلع ، ومنهم من حال وضع أمه دون ذلك كالسليك بن عمير السعدى الذى كانت أمه السلكة أمة رقيقة أو وضعه هو كالشنفرى الذى كان أسيرا فى بنى سلامان ٠

وليست هذه التفاصيل مما يعنينا فى هذا الموضع ، ولكن الذى يعنينا ان الصعاليك وجدوا أنفسهم فى الموضع المهين من المجتمع ، ولم تقبل نفوسهم بحكم

---

(١) أنظر العمدة لابن رشيق ٨٠/١ ٠

(٢) المصدر السابق ٢٦١/٢ ٠

(٣) أنظر مهذب الأغانى ٨٤/٨ وشرح حماسة أبى تمام ٩٣/٢ وكان فى العصر العباسى معاصرا للرشيد ٠

طبيعتها وتكوينها هذا الموضع ، ولم يكن أمامهم لتفادى هذا الهوان الا الاعتماد على أشخاصهم فى قوتها وعنفها ، أيا كان مظهر القوة ، وأيا كان أسلوب هذا العنف ٠

وقد عبر شعرهم عن هذه المعانى كلها تعبيرا واضحا عميقا ، ينم عن عمق احساسهم بهذه المعانى ، وتأثرهم بها ، واستماتتهم فى الخروج من نطاق الذل والهوان الذى يريد المجتمع أن يفرضه عليهم ٠

فالشنفرى يعبر عن نفوره من اذلال نفسه باستجداء حسنات النـــاس مفضلا استفاف التراب على ذلك فيقول من اللامية :

واســتف ترب الأرض كى لا يرى له ... على من الطــول امـرؤ متطـــول
ولـولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعـــاش به الا لــدى وماكـــل
ولكن نفســـا حـــرة لا تقيم بى ... على الضيم الا ريثما أتحول (١)

وابو خراش يقول مثل ذلك :

وانى لأثوى الجوع حتى يملنى ... فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى(٢)
مخـافة أن أحيـــا برغم وذلـة ... وللموت خير من حيـــاة على رغم

والسليك يقارن بين الحال التى يريدها لهم المجتمع ، والحال التى ارادوها لانفسهم فيقول :

فـــلا تصـــلى بصـــعلوك نؤوم ... اذا أمسى يعد من العيـــــال
ولكن كل صـــعلوب ضروب ... بنصل الســيف هامات الرجال (٣)

ومثل هذه المقارنة يقارنها ابو النشناش النهشلى ، ولكنه لا يرى ضرب هامات الرجال كما رأى السليك وانما يرى أن يسرح سواما من أبل الناس ويروح بها ، راكبا الى ذلك كل صعب ، متنقلا بين ارجاء واسعة من البيـــداء فيقول :

اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح ... سواما ولم تعطف عليه أقاربه (٤)
فللموت خير للفتى من قعـــوده ... عديمـا ومن مولى تدب عقـــاربه
ونائية الارجاء طامسة الصـــوى ... خدت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليكسب مجدا أو ليدرك مغنمـــا ... جزيلا وهـذا الدهر جم عجائبه

---

(١) أنظر أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى والطول المن والذام الذم ٠

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ وأثوى الجوع أطيل حبسه حتى يذهب والجرم الجسم يقول يذهب الجوع ويبقى عرضى وجسمى نظيفان ٠

(٣) كامل المبرد ٣١٠/١ ويعنى بالعيال الذين يعولهم غيرهم ٠

(٤) حماسة أبى تمام ١١٥/١ ويجوز ارادة سوائم الشخص نفسه مقارنة بين الغنى والفقر ٠

ويقارن بين الحالتين أيضا عروة بن الورد ، راسما صورتين متقابلتين ، احداهما تسخر سخرية موجعة من الصعلوك المستكين للهوان ، الذى يرضى لنفسه أن يكون كل أمله أكلة يجود عليه بها أحد الموسرين ، وأن يكون كل ما فى حياته حلقة مفرغة ، من النوم والكسل وخدمة المحسنين اليه ، والصورة الأخرى عن الصعلوك المستشيط حماسا وحيوية وحركة ، حتى كأن الحيوية جذوة نار تكسو وجهه ، هو فى صراع دائم مع العيش والحياة والأعداء ، ويبلغ من خطره أن أعداءه مهما يحاولوا البعد عنه أتقاء لشره ، فانهم يتوقعون دائما مفاجأته اياهم كما يتوقع الأهل حضور غائب منتظر الاياب فيقول :

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله   مصافى المشاش آلفا كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة   أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا   يحث الحصا عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه   ويمسى طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه   كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه   بساحتهم زجر المنيح المشهر
اذا بعدوا لا يأمنون اقترابه   تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك ان يلق المنية يلقها   حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١)

وفى شىء من هذه المقارنة أيضا يقول الاحيمر السعدى :

وقالت أرى ربع القوام وشاقها   طويل القناة بالضحاء نؤوم
فان أك قصدا فى الرجال فاننى   اذا حل أمر ساحتى لجسيم (٢)

وشعر الصعاليك ينبىء عن نفورهم الشديد من الهوان ، وصراعهم العنيف فى سبيل اثبات كيانهم فى المجتمع فهم ينعون نعيا شديدا على الخاملين منهم ، حاضين اياهم أشد الحض على أن يتحركوا ويخاطروا بأنفسهم فى أى شىء ، ومهما كانت نتيجة المخاطرة فهى خير من خمولهم وهوانهم بين الناس كما يقول عروة ابن الورد :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة   ان القعود مع العيال قبيح (٣)

وكما يقول أيضا :

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه   شكا الفقر أو لام الصديق فاكثرا

---

(١) حماسة أبى تمام ١/١٩٥٩ والمشاش العظم اللين يمكن أكله ومصافى من المصافاة والمجزر مكان الذبح ٠

(٢) أمالى القالى ١/٤٨ وربع القوام متوسط الطول والبيت الثانى معناه ان لم أكن ضخم الجسم فانى ضخم العزيمة والقوة ٠

(٣) ديوان عروة ٨٩ ٠

وصار على الأدنين كلا وأوشكت صلات ذوى القربى له أن تنكرا (١)

وأما مالك بن الريب فقد عبر عن نفوره من ذلك الهوان حين طلب اليه سعيد ابن عثمان الوالى أن يرعى ابله لقاء العطاء الشهرى الذى يمنحه اياه بقوله :

وانى لأستحيى الفوارس ان أرى بأرض العـدا بو المخاض الروائم
وانى لاستحيى اذا الحرب شمرت أن أرتضى دون الحرب ثوب المسالم(٢)

والشنفرى يؤكد فى اصرار نفـوره من كل ما يجعله ضعيفا أو خاملا أو كسولا أو مهينا أو مغلوبا على أمره أو أى شئ مما يريد المجتمع للصعاليك أن يكونوا فيه فيقول :

ولست بمهياف يعشى سـوامه مجدعة سقبانها وهى بهـل (٣)
ولا جبأ أكهى مرب بعرسـه يطالعها فى شأنه كيف يفعل (٤)
ولا خـرق هيق كأن فـؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل (٥)
ولا خـالف دارية متغـزل يروح ويغدو داهنـا يتكحل (٦)
ولست بعـل شره دون خيره ألف اذا مارعته اهتـاج أعزل (٧)
ولست بمحيار الظلام اذا نحت هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل(٨)

بل انهم ليفضلون الموت على تلك الحياة الخاملة المهينة كبعض ما مر فى هذا الشعر ، وكما يقول عروة بن الورد :

وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس الا من أجـد وشمرا
فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا (٩)

---

(١) ديوانه ٩٩ ٠
(٢) أنظر مهذب الأغانى ٥/١٠ ٠
(٣) المهياف السريع العطش ومجدعه مقطوعة الآذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة غير مصرورة ٠
(٤) الجبأ الجبان والأكهى الأبخر والبليد والمرب الملازم لامرأته والشـطر الثانى معناه بحرص على استشارة زوجه ٠
(٥) الخرق الدهش والهيق الظليم والمكاء طائر يعنى لست هلوعا كالنعام ولا مضطربا كالطائر
(٦) الخالف الذى لا خير فيه ، والدارى الملازم لداره يعنى لست تافها منقطعا للغزل والدهن والكحل ٠
(٧) العل القراد والمراد الرجل المسن الضئيل كالقراد والألف العاجز واهتاج أسرع بحمق ٠
(٨) المحيار المتحير والهوجل الرجل الطويل الأحمق والعسـيف الجاهل واليهماء المتاهة من الصحراء والهوجل آخر الفلاة ٠
(٩) ديوان عروة ٩٩ ٠

ويقول عروة :

فقلت لركب فى الكنيف تروحوا عشـــية بتنا عنـــد ماوان رزح
تنالوا الغنى او تبلغوا بنفوسكم الى مستراح من عناء مبرح (١)

ويقول أيضا :

فقلت له ألا احى وأنت حـــر ستشبع فى حياتك أو تموت (٢)

ومما لا شك فيه أن هذه المعانى الكثيرة التى كرروها فى شعرهم ، وأكدوا شعورهم بها من هوان الفقير فى مجتمعهم ، ومن ايثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة ومعان أخرى تدل على أن اتجاههم الى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول الى الغنى ، وانما كان مع ذلك يحمل الرغبة فى اثبات كيان لهم فى المجتمع ويحمل النفور الشديد الظاهر من أن يكونوا مجرد أفراد فى القطيع الذى يسوقه السادة الأغنياء ، ويحمل الاصرار الشديد على أن يظهروا لأنفسهم كيانا يشعر به الناس على الأقل ويحسبوا حسابه ، ان لم يرهبوه ويفرقوا منه ٠

ومما لا شك فيه أيضا أنهم قد استطاعوا أن يخرجوا أنفســـهم من زحمة القطيع وأن يجعل كل منهم لنفسه كيانا منفردا متميزا من القطيع ، ولكن هذا الكيان لم يكن ثابت الحجم والأهمية وانما كان مذبذبا قابلا للضخامة والتقلص ، بمعنى أن كلا منهم قد استطاع بعزة نفسه ، ورفضه أن يمتهن مرؤته وكرامته بصور الهوان والذل ، من استجداء الناس وخدمتهم ، بعد التســـكع والخمـول والضياع ، قد استطاع كل منهم بذلك أن يخرج نفسه من الطبقة السفلى فى مجتمعه وأن يلفت الانظار اليه ، على أنه رجل أبى ينفر مما يعيش عليه مثله ، ثم ان كيانه بعد ذلك وأهميته أو خطورته فى مجتمعه ، تتحدد بمقدار ما لديه من مقومات ، وما يستطيعه من قدرة على الصراع ، صراع كل الظروف المحيطة به والمقيدة لنمو كيانه ، وبمقدار ما يتهيأ له من ظروف وقد كان الصعاليك بالطبع متفاوتين فى مقوماتهم وفى قدرتهم على الصراع ، ولذلك اختلف شأن بعضهم عن بعض ، كمـــا أن الظروف لم تكن تسير على وتيرة واحدة لهم ، فقد تنكص الظروف عن بعضهم حينا ، ثم تتهيأ ، كما عاش الشنفرى دهرا من عمره أسيرا ، ثم تهيأ له الخروج على وضعه ذاك ، وقد تتهيأ الظروف ثم تنكص ، كما كان قيس ابن الحدادية،فارسا يكبره قومه ويستعين بهم على أعدائه وفى غزواته ، ثم خلعـه قومه حين كثرت جناياته وثقلت عليهم آثارها ، فأصبح خليعا منبوذا لا سند له

(١) أمالى القالى ٢٣١/٢ وماوان مكان ٠
(٢) ديوان عروة ٨٦

ولا معين ، حتى أنه ليقول للذين أرادوا أسره : وبم ينفعكم أسرى ؟ انكم لو طلبتم بى من قومى عنزا جرباء ما أعطيتموها ، وظل يقاتلهم حتى قتل (١) ٠

ويمكن حين تنتهى جولتنا مع صراعهم أن نسأل : هل حققوا كل ما يريدون من صراعهم مع المجتمع ومع الظروف ؟ أما الآن فنحن نتتبع مراحل حياتهم ومشاعرهم ، أعنى مراحل صراعهم وقد بلغنا منها مرحلتين ، أولاهما معاناة الفقر وآثاره ، وثانيتهما أحساسهم بهوان طبقتهم ورغبتهم فى الخروج من هذا الهوان ، ولكن هذا الخروج لم يكن سهلا ولا ميسورا ، وانما كان يقتضى منهم صراعا شاقا عنيفا ، فلننظر هذا الصراع ٠

صراع المهنة

حياة رهيبة حقا هذه التى عاشها الصعاليك ، وشقوا طريقهم فيها ٠

والواقع أن حياة الصعاليك الحقيقية لا تبدو قط من أخبارهم وتراجمهم ، وانما تبدو من خلال شعرهم نفسه ، فمهما قرأ القارىء من أخبارهم ، ومهما جمع الباحث من معلومات عنهم ، فانه لن يشعر بصراعهم ، وحياتهم الحقة كما عاشوها وتأثروا بها وصارعوها ، وانما يشعر بها حقا حين يدرس شعرهم ، ويرى ما فيه من انعكاس لرهبة حياتهم ، وقسوتها ، ويرى فيه عناءهم وصراعهم ومشاعرهم ازاء هذه الحياة التى خاضوا أشواكها وجابهوا أخطارها ، وصارعوا مرارتها وقسوتها ٠

ولامية الشنفرى نموذج كامل لحياة الصعاليك ، بكل ما فيها من قسوة ، وكل ما فيها من مخاطر ، وكل ما فيها من صبر وقوة ارادة ، وكل ما فيها من آلام الصعاليك وهمومهم ومشاعرهم نحو حياتهم ٠

ونحن مثلا حين نقرأ أخبار الشنفرى وما ساقته الروايات عنه ، نحسب أننا علمنا عنه وعن حياته شيئا كثيرا ، ولكننا حين ندرس لاميته نجد أن الأخبار والروايات لم تظهرنا من أمره الا على أيسره وأهونه ، وأن شعره هو الذى يظهرنا من أمره ونفسيته وصفاته حياته وبيئته على الشىء الكثير ، فالروايات مثلا تكاد تكتفى فى الحديث عن حياته وحياة غيره من أمثاله بأنه « صعلوك » تاركة ما تشير اليه هذه الكلمة للنفس تصوره كيف تشاء حسب تصورها للصعلكة ، ومعلومها عنها ولكن كلمة (صعلوك) هذه نجدها فى شعرهم حياة

(١) انظر أغانى الأصفهانى ١٤/١٤٤ – ١٦١ ٠

حافله بشتى وصنوف من الرهبة والمخاطر والقسوة والمشاعر وغير ذلك مما لايمكن لغير شعرهم أن يصفه أو يصوره .

فشعر الشنفرى يصف لنا حياته حيث يزاول صعلكته ، فيصور ليلة من ليالى هذه الحياة ، ونهارا من أيامها ، واصفا موقفه وصراعه ومشاعره ازاءهما ، فيصف الليلة بأنها ليلة حافلة بالبرد والمطر والوحل ، وأن بردها لا كالبرد ، حتى أن جسمه امتلأ رعدة وارتعاشا وحتى اضطر الى أن يوقد سلاحه الذى تعتمد عليه حياته فى مثل هذه الصحراء ليستدفىء به ، وأن هذه الليلة بمطرها وبردها ووحلها ورهبة صحرائها ووحوشها قد ملأته خوفا وجوعا وارتعاشا ، ولكن ذلك كله لم يرده عن عزمه ، فمضى فى هذه الاهوال الى غارته على أعدائه فيقول :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها وأقطعه اللاتى بهـــا يتنبل (١)
دعست على غطش وبغش وصحبتى سعار وارزيز ووجر وأفكـــل (٢)

ويصف النهار بأنه يبلغ من شدة حره أن الجو يمتلىء بما يشـــبه خيوط العنكبوت ، وأن شدة وقع الشمس الملتهبة على الرمال تحولها الى جحيم لا تطيقه حتى الأفاعى فى جحورها ، وأنه ازاء هذا كله لا يملك ما يتقى به بردا ولا حرا الا برد ممزق لا يكاد يستر جسده فيقول :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه فى رمضـــائه تتململ (٣)
نصبت لـــه وجهى ولاكن دونه ولا ســتر الا الأتحمى المرعبل (٤)

ويصف معيشته فى تلك الحياة البالغة القسوة ، بأنه تعود الجوع المضنى فهو يديم مطاله حتى يميته (٥) ، وأنه يطوى على الخمص حشاياه وأمعاءه كما تلف الخيوط ليطوى بعضها على بعض (٦) وحتى الماء غير ميسور له ، فهو يسعى آمادا طويلة ليعثر على بقعة ماء خلفها المطر أو السيل يزاحم فى شربها طيور الصـحراء وقطاها (٧) وأن شأنه فى البحث عن القوت شأن ذئاب الصحراء ، تظل رائحة

---

(١) النحس البرد واصطلى استدفأ بالنار والأقطع نصال السهام ويتنبل اى يســـتعملها للنبل : من اللامية .

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والارزيز البرد والوجر الخوف والأفكل : الرعشة .

(٣) المراد بالشعرى شدة الحر واللواب ما ينتشر فى الجو مثل العنكبوت والرمض شدة وقع الشمس على الأرض . البيت ٦٠ .

(٤) نصبته أقمته والكن بكسر الكاف الستر والأتحمى نوع من البرود والمرعبل الممزق . البيت ٦١ .

(٥) البيت العشرون من اللامية وما بعده .

(٦) البيت الرابع والعشرون ما بعده .

(٧) البيت الخامس والثلاثون وما بعده ٧

غادية مطوفة فى الصحراء حتى يتيح لها الحظ ما تقتات به (١) ، وأنه آلف النوم على الأرض ليس بينه وبينها بحرها وبردها حائل ، لا يشكو منها ، وانما يشكو من جفاف جسمه وبروز عظامه التى تحول بينه وبين الاستقرار أو الراحة فى النوم ، فاذا نام على ظهره وخزته فقار ظهره البارزة حين تلمس الأرض ، واذا اعتدل على جنبه لم يجد وسادة يتوسدها الا ذراعه ولكنها وسادة جافة خشنة ، لأن ذراعه ليس فيه الا عظام جافة ، ومفاصل يابسة صلبة كأنها كعوب القناة (٢) وأنه على هذا كله يمشى حافيا ولا يلبس الا بردا ممزقا ، وأن شعره الذى لا يحلق مسترسل حول صدغيه وعنقه ، وأن هذا الشعر تلبد فى بعضه من عدم النظافة لأنه قد يمضى عليه الحول لا يغسل ولا يفلى ولا يحلق (٣)، وفوق هذا كله الهموم المتدافعة نحوه ، والتى تأتيه لا يدرى من أين ؟ ولكنها تهب عليه من فوقه وتنبعث اليه من تحته ، والتى مهما يحاول صرفها تأب أن تفارقه الا ريثما تعود ، وكأنها حمى الربع التى تظل تعود صـــاحبها ثم تفارقه ثم تعـوده فى أوقات منتظمة محددة (٤) ٠

ولكنه ليس الشنفرى وحده ، وليست اللامية وحدها هى التى صورت حياة الصعاليك وصراعهم مع هذه الحياة ، بل نجد شعر الصعاليك كله يصور حياتهم وصراعهم على النحو الذى صورته اللامية ، وان اختلف التصوير أو درجة الصراع ، حسب الظروف التى تحيط بالشاعر من حيث درجة القسوة ، ومن حيث قدرته على تصويرها ٠

فعمرو بن براقة يصف لنا الوقت الذى يختاره لمزاولة حياته فى الصعلكة ، وفى هذا الوصف نرى ليلة من ليالى الصحراء ، لا يهمه فيها ان كانت باردة أو غير باردة ، ممطرة أو غير ممطرة ، وانما يهمه شىء واحد يترقبه دائما ، وهـــو سيطرة النوم والظلام والسكون على كل شىء ، حتى اذا اطمأن الى أن الليل بلغ من اظلامه مداه حتى لا يرى فيه الا تألق النجوم ، وبلغ من ســـكونه مداه حتى لا يسمع فيه الا صياح البوم الجوائم فى جبال الأفراط ، وحتى اذا اطمأن الى أن النوم قد مال بكل الناس ، هنالك يقدم على ما يريد كما يقول :

اذا الليل أدجى واسجهرت نجومه ... وصـــاح من الأفراط بوم جوائم
ومال بأصـــحاب الكرى غالباته ... فانى على أمر الغـــواية حـــازم (٥)

وفى حياة الصعاليك التى عاشوها فى الصعلكة جوانب كثيرة من الصراع ، فمنها ما كانوا يتعرضون له دائما من مخاطر الاعداء والوحوش والمفاجآت ، ومن

---

(١) البيت الخامس والعشرون وما بعده ٠
(٢) البيت الواحد والأربعون وما بعده ٠
(٣) الأبيات ٤٨ ، ٦١ ٦٢ ، ٦٣ ٠
(٤) البيت السادس والاربعون وما بعده وسبق ذكر نص اللامية كاملة ٠
(٥) أمالى القالى ٢/١١٩ واسجهرت نجومه رواية الأغانى أما رواية القالى فهى واكفهر ظلامه ٠

هذه المفاجآت ما تعرض له مالك بن الريب ذات ليلة ، حيث احتضن مالك سيفه ونام ، واذا هو يصحو من نومه على ثقل يجثم فوقه ، فانتفض بكل ما أوتى من قوة وحرص على الحياة ، فاذا شبح لم يمكنه الظلام من تبينه ، أو لم يجد من الوقت ما يسمح له بتأمله ، فأهوى عليه بسيفه فصرعه ، أوقده نصفين كما تقول الرواية ، ثم تبينه فاذا هو رجل أسود ، وقد صور مالك هذه القصة فى قوله :

ما نمت الا قليــلا نمته شئزا   حتى وجدت على جثمانى الثقلا
داهية من دواهى الليــل بيتنى   مجـاهدا يبتغى نفسى وماختـلا
أهويت نفحا له والليل ساترنا   الا توخيته والجرس فانخذلا (١)

والجاحظ يبين لنا شخصية هذا الداهية من دواهى الليل كما قال مالك ، فيقول فى مفاخر الحبش والزنج على العرب « قالوا – يعنى الحبش والزنج – ومنا أفلح الذى قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة ، قالوا : وانما قتله مالك بن الريب لأنه وطئه فى جوف الليل وهو سكران خاثر » (٢) ومن هـذا نعلم أن ما تعرض له مالك بن الريب ليس شيئا عاديا ، وانما هو خطر حقيقى ممثل فى رجل متوحش يقطع الطريق وحده على القوافل وليس على الأفراد فحسب ، عشرين سنة كاملة .

ومما تعرض له مالك بن الريب ذئب عدا عليه فى بعض الليالى ، ولكنه استطاع أن يقتله ثم يقول :

أذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة   تغادى بك الركبان شرقا الى غـرب
ألم ترنى ياذئب اذ جئت طارقا   تخاتلنى أنى امرؤ وافر اللب (٣)

ويصف مالك بن الريب حاله وهو يزاول مهنته فى ظلام الليل ، وما يتوارد على نفسه من نوازع الخوف والحذر والتيقظ لما يعرض من مخاطر ، وكأنه ذئب يتلمس طريقه فى غلس الظلام فيقول .

يعظ الفؤاد اذا القلوب تآنست   جزعا ورثية كل أروع باســل
حيث الدجى متطلعـا لغفوله   كالذئب فى غلس الظلام الخاتل (٤)

وأبو خراش الهذلى يصف ليلة من ليالى صعلكته ، بما فيها من برد وغيوم وأمطار وأوحال ومع هذا الوحل الذى يصعب فيه مجرد السير ، ومع هذا الظلام الذى لا يتيح للسارى أن يتبين ما تطأه قدماه ، تضطره الظروف الى أن يعـدو أحيانا بكل ما أوتى من قدرة على العدو حتى ان الاشجار الصغيرة التى تنبت فى الصحراء لتتحطم تحت قدميه من شدة عدوه ، ولا يبالى خلال ذلك ما قد يعترضه

---

(١) مهذب الأغانى ٩٢/١ والجرس الصوت .
(٢) رسائل الجاحظ ١٩٣/١ والخاثر غير النشيط .
(٤) المصدر السابق ١٥/٥ .
(٣) أنظر مهذب الأغانى ١٠/٥ .

من مخاطر الوحوش أو ما قد يطاه من حيات أو هوام ، بل انه ليجد أن نعله الممزقة قد أثقلته فيضطر الى نبذها والقائها فيقول :

وليلة دجن من جمادى سريتهـــا ... اذا ما استهلت وهى ساجية تهمى (١)
وشوط فضاح قد شـــهدت مشايحا ... لادرك ذحلا أو أشيف على غنم (٢)
اذا ابتلت الأقـــدام والتف تحتها ... غثـاء كأجواز المقرنة الدهم (٣)
ونعل كأشـــلاء السـمانى نبذتهـــا ... خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٤)

وعبيد بن أيوب يلغى النهار من حياته ، فلا يظهر فيه لشىء ، ولا يزاول فيه شيئا ، أما الليل ففيه كل حياته ، وفيه كل نشاطه حتى أصبح كأنه جنى لا يرى بالنهار ، ولا يألف مجامع الناس ، ومع ذلك فهو غير الجن فيما يصدر عنه كما يقول :

فليس بجنى فيعـــرف نجلـــه ... ولا هو انسى تحتـــويه المجالس
يظل ولا يبـــدو لشىء نهـــاره ... ولكنه ينباع والليل دامس (٥)

وقد سجل الصعاليك بشـــعرهم كثيرا من غاراتهم وأساليب صـعلكتهم واحداث حياتهم فى الصعلكة ولذلك اعتمد كثير من المؤلفين القدامى فى الحديث عنهم واستنباط أخبارهم على شعرهم نفسه كما يتضح ذلك فى كتـاب الاغانى حيث نجد معظم حديثه عن الصعاليك وسرد أخبارهم لا يعتمد على روايات أو أخبار ، وانما يعتمد على الشعر نفسه بما ورد فيه من أحداث وأخبار ، وقـــد لاحظ ذلك صاحب تاريخ الأدب العربى (٦) ، وقد ورد كثير من ذلك فى شعرهم ، فمن ذلك هذه القصة التى سجلها السليك ، حيث تسلل الى بيت يزيد الشيبانى ، وكمن خلفه انتظارا لسنوح الفرصة ، واذا ابن الرجل يروح بالابل ، فأنكر أبوه استعجاله فى الرواح بها قائلا : هلا عشيتها ساعة من الليل ، ثم زجر الرجل الابل وعاد بها الى مرعاها ، وجلس قريبا منها متدثرا بردائه من البرد ، وكان السليك حينئذ يتبعه ، فأهوى السليك على الرجل بسيفه فقتله ، وساق الابل حتى نجا بها ، ثم سجل هذه القصة بشعره حيث يقول :

---

(١) دجن يعنى الغيم المظلم وجمادى يعنى البرد وتهمى تسيل بالماء .
(٢) شوط فضاح مدى واسع يفتضح فيه المسبوق والمشايح الجاد والذحل الثأر وأشيف أشرف .
(٣) أجواز أوساط والدهم الابل والمقرنة التى تقرن ببعضها يعنى أنه حين يعدو يحطم تحت قدميه أشجارا كأوساط الابل .
(٤) أشلاء السمانى يعنى عظام طائر نبذتها طرحتها والرهم المطر الخفيف . ديوان الهذليين ١٣٠/٢ ، ١٣١ .
(٥) الحيوان للجاحظ ٢٣٥/٦ .
(٦) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما بعدها .

وعاشية رج بطان ذعرتهـــــا بصوت قتيل وسطها يتسيف (١)

ويصف هذا القتيل صاحب الابل بأن لون الدم المنساب فى خطوط على جسمه كان كأنه برد ملون مخطط ، وأن الصريخ من قومه حين يأتيه يجده كذلك فيقـــول :

كـــأن عليـــه لون برد محبـــر اذا ما أتـــاه صـــارخ متلهف

ويتحدث عن أصحاب الابل بأن فناءهم سيبيت خاليا منها لانه نجا بها ، فهى ليلة شؤم عليهم لانهم فقدوا الابل وفقدوا صاحبها ، وكأنهم لم يزجروا الطير ليعرفوا ما تخبئهم لهم هذه الليلة فيقـــول :

فبات لها اهل خلاء فناؤهـــم ومرت بهم طـــير فلم يتعيفـوا

ومن أجزاء القصة أنه كان للسليك رفقة ينتظرونه عن كثب يقول عنهم :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ماعلوا نشزا أهلوا وأوجفوا (٢)

والشنفرى كما يبدو من أخباره وشعره سيطرت عليه نزعة الانتقام من بنى سلامان أكثر من الرغبة فى الغنائم لانه أحس الذل فى معيشته بينهم أسيرا ، وقد زادوه ذلا بايذائه فى كرامته ونفسيته حين انكروا عليه التزوج منهم ، وفعلوا به ما كان سببا فى اندفاعه الى التصعلك بأقوى ما يملك من ارادة وصلابة ، وفى اللامية يحدثنا عن أثر غارة من غاراته على أعدائه الذين يغلب أنهم بنو سلامان ، وواضح من شعره عن هذه الغارة أنه لم يستهدف الغنيمة ، وانما استهدف القتل من أعدائه فيقول بعد حديثه عن ليلته الســـابقة ذات البرد والمطر والخـــوف والجوع والرعدة .

فأيمت نســوانا وأيتمت الــــدة وعدت كما أبدأت والليل اليـــل

فهو قد قتل أناسا تأيمت بموتهم نساؤهم ويتمت أولادهم ، ثم يصف حديث أعدائه حين أصبح عليهم الصباح واجتمعوا يتباحثون فيما حل بهم ، واعتراهم الدهش ، فأخذوا يتساءلون ويتجاوبون ويختلفون فيمن أو فيما فعل هذا الذى حل بهم ، فمنهم من يقول : لقد هرت كلابنا بالليل ، ومعنى ذلك أن طارقا غريبا طرق الحى ، ولكن ما الطارق ؟ انه لم يحدث صوتا ، فلعله ذئب عدا ، فافترس من افترس ، بل لعله ضبع صغيرة فعلت ما فعلت ، ومنهم من يقول انه لم يكن الا صوت حركة يسيرة أحسستها بالليل ثم هدأت ، فحسبتها قطاة ريعت أو صقرا أزعج ثم لم أجد بعد ذلك صوتا ولا حركة ، ومنهم من يقول : ولم لا يكون

---

(١) أنظر القصة كاملة فى مجمع الأمثال للميدانى ٢/٩ - ١١ وبطان ممتلئة البطون ويتسيف يعنى مضروبا بالسيف . وعاشية رج بطان وصف للابل يعنى ابلا معشاة ممتلئة سقتها تاركا قتيلا مضروبا بالسيف كان وسط الابل .

(٢) باتوا يظنون يعنى أصحاب الابل وما بعده وصف لزملائه والنشز المرتفع وأوجفوا خافوا يعنى خوفهم عليه ويجوز ارادة الوجيف من السير يعنى أسرعوا بالابل .

هذا الطارق شيطانا من الجن ؟ ان هذا الذى حدث لا يمكن أن يفعله انسى ، وقد كان مصدر خلافهم ودهشتهم أنه لم تحدث غارة عليهم كمـــا تعودوا أن يروا الغارات ، فهل يعقل أن يفعل انسان بمفرده كل ما حدث دون أن يحس أحد أو يشعر ؟ هذا مصدر الحيرة فى نفوسهم ، والشنفرى يصـــور حيرتهم هـذه فى قوله :

فأصبح عنى بالغميصـــاء جالسا — فريقان مسئول وآخر يســـأل
فقالوا لقد هرت بليــل كلابنــا — فقلنا أذئب عس أم عس فرعل
فلم يك الا نبـــأة ثم هــومت — فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
فان يك من جن لأبرح طارقـا — وان يك انسا ماكها الانس تفعل (١)

ومالك بن الريب حدثنا عن مورد رزقه ، فيقـــول انه وان كان لا يرفض الرزق الطبيعى الذى يتاح له كما يتاح للناس ، الا أن اعتماده الحقيقى فى رزقه على نصل سيفه وفرسه ، فهذان هما اللذان ينفعانه فى كراته على التجار وقطعه الطريق عليهم كما يقول :

سيغنينى المليك ونصـــل سيفى — وكرات الكميت على التجـــار (٢)

والاحيمر السعدى يحدثنا أيضا عن أسلوب صعلكته ، ونهجه فى المعيشة ، وأن أموال التجار هى هدفه ، وأن سيفه هو الوسيلة اليها فيقول :

تعيرنى الاعـــدام والبدو معرض — وسيفى بأموال التجار زعيم (٣)

ثم يفصل الاحيمر ما كان يتيحه له السطو على زوامل التجار من أنواع البز والطرف والثياب ، وان كان شعره الآتى قد قاله بعد توبته ، هذه التوبة التى لم تقتل فى نفسه الحنين الى ماضيه فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم — وما ألاقى اذا مروا من الحـــزن (٤)
قل للصوص بنى اللخناء يحتسـبوا — بز العراق وينسوا طرفة اليمن (٥)
فرب ثوب كـــريم كنت آخـــذه — من القطار بلا نقد ولا ثمن (٦)

وصخر الغى الهذلى يحكى لنا صورة من صور صراع الصعاليك فى حياتهم الشاقة الرهيبة ، بل يحكى عن صراع جانب يبدو للناس هينا يسيرا وهو الحصول

---

(١) من اللامية والغميصاء مكان وهرت صوتت والفرعل ولد الضبع والنبأة الصوت الضعيف والأجدل الصقر .

(٢) مهذب الأغانى ١٠/٥ .

(٣) أمالى القالى ٤٨/١ .

(٤) أمالى القالى ٤٩/١ والزوامل الابل المحملة .

(٥) البز الثياب والطرفة يعنى الشىء الثمين ويحتسبوا يتركوها حسبة لله .

(٦) القطار الابل المقطورة بعضها وراء بعض .

على الماء ، ومعه صاحب يرافقه فى حياة الصعلكة ، فيقول انه حين نفد الماء منه ، حمل قربته وأخذ يبحث عن ماء ، حتى علم مكانا للماء ، فسعى اليه ، ولكنه سعى الخائف المتوجس الحـذر ، لأن الامواه مطلب لسكان الصحراء دائما وملتقى لهم لقلتها ، وشدة حاجة الناس اليها ، وهو بسبب أحداثه وجناياته فى الصعلكة كثيرا لأعداء ، فانه لن يأمن أن يجد على الماء رصدا من أعدائه يوقعون به ، فأخذ يسعى وكأنه نمر مقرور من شدة البرد كما يقول :

ومـــاء وردت عـــلى زورة كمشى السبنتى يراح الشفيفا (١)

وظل صخر فى مشيته هذه المحاذرة البطيئة حتى بلغ الماء واطمأن الى خلوه من الأعداء فأراد أن يملأ قربته فى أقصى عجلة وتسرع ، خشية أن يفاجئه العدو من حيث لا يحتسب أو أن يكون مخدوعا فى اطمئنانه الى خلو المكان من الأعداء ، فدلى قربته فى الماء ولكنه وجد أن القربة قد تراكم عليها كثير من التراب والوسخ والروث ، فأخذ يخضها فى الماء خضا شديدا ليذهب عنها بعض ما تراكم عليها ، وكأنه والقربة فى يده يخضها هذا الخض الشديد مقامر قد أثارت هزيمته فى الميسر كل غيظه وغضبه ، فهو يخض القدح فى يده خضا شديدا لعله يفوز فى رميته القادمة كما يقول :

فخضخضت صفنى فى جمـه خياض المدابر قدحا عطوفا (٢)

ويتابع صخر قصة أمر يبدو يسيرا لغير الصعاليك وهو مجرد الحصول على الماء فيقول انه بعد أن ملأ قربته بالماء أراد أن يسرع بالعودة ، وكأنه انقض على غنيمة يريد النجاء بها بأقصى ما يتاح له من سرعة ، ولكن خوفه ليس على الماء ، وانما على نفسه من أعدائه الذين يتربصون به فى كل مكان ، ولذلك أخذ يفكر فى الطريق التى يسلكها فى عودته ، ان الحذر علمه أن يتجنب العودة فى طريقه التى جاء منها خشية أن يجد أعداءه قد أكمنوا له فيها فأخذ فى عودته الطرق الملتوية ، والملتفة خلف الجبال حتى يمكنه أن يتخذ من هـــذه الجبـــال وتعاريجها وكهوفها حصنا اذا أحس الخطر يحدق به فيقول :

فلمـــا جزمت بـه قـــربتى تيممت أطرقة أو خليفا (٣)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٧٤ والزورة الازورار والخوف والسبنتى النمر والشـفيف البرد ويراح يعنى يحس .

(٢) الخضخضة يعنى التحريك الشـــديد للشىء الذى يحدث صوتا خفيفا كالجاف مثلا والصفن قربة أكبر من العـــادية والجم الكثير يعنى الماء والمدابر يعنى المغلوب فى لعب الميسر وخياض فى معنى المصدر من خضخض وقدحا مفعول له والعطوف القدح الـذى يكرر رميه مرة بعد مرة .

(٣) جزمت ملأت وبه يعنى الماء وتيممت قصدت وأطرقة جمع طريق والخليف طريق وراء جبل أو واد .

ويتحدث عن رفيقه فيصفه بأنه رجل متمرس بالغـزو معـود عليه لأنه حرفته ولذلك فهو غير ضعيف ولا مذرى به في أعين الناس ·

معي صاحب ناجن بالغـزاة ولم يك في القوم وغـلا ضعيفـا (١)

وصخر من العـدائين المشهورين بأنهم لا تسبقهم الخيـل ، ولذلك فلابد لصاحبه أن يكون كذلك ، وهو يصف هذا الرفيق بأنه في عدوه كأنه حمار وحش عنيف ، قد عركه الصراع والجرى وتركت الجروح آثارها في جسـمه وكل جرح منها كأنه عضة فم ·

ويعـدو كعدو كدر تـرى بفـائله ونسـاه نسـوفا (٢)

والشنفرى يصف لنا طريقة ترصده لضحاياه وهو يقطع الطريق ، فيقول ان المكان المفضل لديه هو أن يختار كمينا في ذروة الجبل وأعلاه ، وان الوقت الأثير عنده هو حين يشتد الظلام فيصعد الى كمينه في ذروة الجبل ، هذه الذروة التي لا يستطيع بلوغها الا ذو القوة والصلابة وهناك يتكىء على ذراعين يشبهان السيف لصلابتهما وخلوهما الا من العظم ، ويظل عاقدا ذراعيه متكئا ومحدبا عليها ولكن بصره الحديد يجول في كل ناحية وكأنه أفعى متيقظ متحفز يدور برأسه وبصره في كل وجه يرقب ضحاياه فيقول :

ومرقبة عيطاء يقصر دونهـا أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف (٣)
نميت الى أعلى ذراها وقدنا من الليل ملتف الحديقة أسدف (٤)
فبت على حد الذراعين محدبـا كما يتطوى الأرقش المتقصف (٥)

ولكنه على هذا العناء وهذا الجهد كله ، وعلى ما يسلك من وسائل مختلفة في صعلكته لا يضمن الفوز بما يريد ، فقد يغنم وقد يخيب ، كما يقول :

وباضعة حمر القسي بعثتهـا ومن يغز يغنم مرة ويشمت (٦)

---

(١) ناجن متعود ويريد بالغزاة الغزو والوغل النذل ·

(٢) الكدر بضم الكاف والدال وتشديد الراء الغليظ ، وصف لحمار الوحش والفائل عرق غليظ يصل في باطن الفخذ الى الساق والنسوف آثار من عض والأظهر أنه يريد أن احتكاك باطن فخذيه من شدة العدو قد ترك فيهما هذه الآثار ·

(٣) مهذب الأغاني ١/٩٥ والمرقبة مكان الترقب وعيطاء مرتفعة والمشفف الذى شفته عوامل الضعف فأوهنته ·

(٤) نميت صعدت والشطر الثاني معناه أصبح الظلام شديدا ·

(٥) محدب مائل الأرقش الافعى الملون الجلد والمتقصف المتلوى ·

(٦) الباضعة القاطعة يعني جماعة غزاة وحمر القسي يعني أن القسي قد أحمرت من طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر ، ويشمت تصيبه الشماتة لعدم فوزه بغنيمة والبيت من قصيدة طويلة بالمفضليات ص ١١٠ ·

ولكنه على أى حال مستريح النفس ، فيكفيه أنه يبعث الروع والرعب فى قلوب أعدائه ، وهو ما يريد أن يحققه ، ولو ضحى فى سبيله بحياته فيقول :

أمشى عـلى الأرض التى لن تضرنى   لأنكى قوما أو أصادف حمتى (١)

وتأبط شرا يصف رهبة أصحاب الابل منه ، وتوقعهم لغارته فى كل حين ، وهم يعلمون انه قادر على الغزو ، سـواء كان وحده ، أو كان له شيعة فيقـول :

ولكن أرباب المخـاض يشفهم   اذا افتقروه واحدا أو مشيعا (٢)

وكما قال الشنفرى انه يغزو فأحيانا يغنم وأحيانا يشمت ، ولكنه فى الحالين يخرج بنتيجة تريح نفسه ، كذلك يقول مالك بن الريب :

وأنيـابى سيخلفهن سيفى   وشـدات الكمى على التجار
فان أسطع أرح منه اناسى   لضربة فاتك غير اعتـذار
وان يغلت فانى سوف أبغى   بنيه بالمدينـة أو صرار (٣)

ولئن كان كثير من الصعاليك يؤثرون الليل ، يتخذون منه ستارا لهم فى مزاولة أعمالهم الرهيبة فان عبدة بن الطبيب لا يستغنى عن الظلام ، ولكنه يؤثر أن يكون قريبا من طلوع الشمس ولئن كان كثير منهم يؤثر المراقب يكمن فيها ، ويؤثر قدميه يعتمد على نجائه بهما مهما تكن المخاطر ، فان عبدة بن الطبيب يؤثر الغزو على فرس ساهم الوجه كأنه ذئب ، ومهما تختلف الأساليب ، فان الصحراء ميدان الجميع ، يقول (٤) :

أفزعت منه وحوشـا وهى ساكنة   كأنها نعـم فى الصبح مشـلول
بساهم الوجه كالسرحان منصلت   طرف تكامل فيه الحسن والطول
وقد غدوت وقـرن الشمس منفتق   ودونه من سـواد الليـل تجليل

وأما عبيد الله بن الحر ، فهو رجل موتور من نسب أمه التى كانت قينة أصابها السبى ، فهو يريد أن ينتقم لها بسيفه ، وينتقم لما أصاب نسبه من رذاذ حول أمه فيجعل من أهدافه الأساسية فى الصعلكة سبى الحرائر حتى يشفى غليل صدره لسبى أمه فيقول :

---

(١) المفضليات ١١٠ ونكاه أصاب منه والحمة المنية •

(٢) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ •

(٣) مهذب الأغانى ٥/١٠/وصرار موضع قرب المدينة •

(٤) المفضليات ١٤٣ ومنه يعنى الكلا والنعم الابل ومشلول مطرود والسرحان الذئب والطرف الكريم والمنصلت الضامر الماضى والتجليل فى البيت الأخير التغطية الخفيفة •

ان تك أمي من نساء أصـــابها سباء القنا والمرهفات الصـــفائح
فتبا لفضل الحر ان لم أنل به كرائم أبنـــاء النســاء الصرائح (١)

ويزيد العقيلي يدرك مدى الأمن الذى أحس به أصحاب الابل حين أقلع عن الصعلكة ويمن عليهم بتوبته فيقول :

ألا قل لأرباب المخائض أهمـــلوا فقـــد تاب مما تعلمون يزيد (٢)

ولئن كان شعر الصعاليك قد تحدث عن جوانب كثيرة مختلفة من حيـاة الصعلكة ، وصراع الصعاليك فى هذه الحياة ، فان منهم من جعل لنفسه شعارا عاما يوجه حياته كلها ، وتخضع له كل وسائله في المعيشة ، كما يقول الأحيمر السعدى :

وانى لاستحيى لنفسى ان أرى امر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعـــيره وبعران ربى فى البـــلاد كثير (٣)

وكما يقول بكر بن النطاح فى هذا البيت الذى كان العرب يرون فيه مثالا لعزة النفس وابائها وعفتها :

ومن يفتقر منا يعش بحســـامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(٤)

أسلحة الصعلكة

وحياة الصعاليك التى قلنا انه لا يمكن لحديث أو روايات أو أخبار مهما تبلغ أن تصورها على حقيقتها بما فيها من رهبة وقسوة ومخاطر لا يدركها حق ادراكها الا الذين عاشوا فيها وتأثروا بها وانفعلوا بما فيها وهم الصعاليك أنفسهم وكذلك لا يمكن لأى أخبار أو روايات أن تصور مشاعر أصحاب هـذه الحياة كما يصورها الصعاليك أنفسهم ، لأنهم أصحاب هذه الحياة الذين عاشوا فيها ، وتأثروا بكل ما تنطوى عليه ٠

---

(١) أمالى القالى ٢٢٠/٣ ٠
(٢) كامل المبرد ٦١/١ ٠
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجى ٠
(٤) مهذب الأغانى ٨٤/٨ ٠

وحياة من الرهبة والقسوة والخطورة بهذا المكان ليست سهلة ولا ميسورة وليست مستطاعة لكل راغب فيها ، بل ولا لكل مضطر اليها ، ولئن كان بعض الناس يفخرون بمخاطرة أقدموا عليها ، أو موقف عصيب اجتازوه ، فان حياة الصعاليك بكل يوم من أيامها وبكل خطوة من خطواتها سلسلة متصلة متلاحقة من المخاطر والمواقف العصيبة فليست فى حياتهم ســاعة تخلو من خطورة أو خوف أو توقع المكروه ، وسنرى ان كل حياتهم كانت قلقا ورهبة وخوفا ، حتى نومهم كان قلقا مفزعا ، وليس أشد على نفس انسان من شعوره بأن كل ما حوله ومن حوله عدو متربص به ، حريص كل الحرص على أن ينال منه ان لم ينله ، ويكفى مثالا لذلك هذا الشعور الذى يحمله الشنفرى من أنه طريد جنايات كثيرة جناها ، وأصحاب هـذه الجنايات حريصـون على الثار منه ، يتنازعون لحمه ، ويتنافسون أيهم يكون أسبق الى صرعه وأن أعداءه الكثيرين لشدة غيظهم وحرصهم على الانتقام منه لا تنام عيونهم فكيف ينام هو حيث تبيت هذه العيون كلها يقظى حثيثة الى مكروهه ؟

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيهـا حم أول (١)
تبيت اذا ما نام يقظى عيـونها حثاثا الى مكروهه تتغلغـل (٢)

ومع ذلك فهذا جانب واحد من جوانب الخطورة والرهبة فى حياة الصعاليك وهو جانب مطاردة الموتورين للصعاليك ٠

واذن فهذه الحياة الخطيرة الرهيبة تحتاج بالضرورة الى أسلحة كثيرة يتذرع بها لمجابهة ما فيها ، ولكن هذه الأسلحة لا يكفى فيها أن تكون مجرد أسلحة قتال ، فكثير من مخاطر هذه الحياة ليس قتالا ولا يحتاج الى أسلحة قتـال وانما يحتاج الى صفات أساسية لازمة لكل من يخوض غمار تلك الحياة ، ولذلك يمكن أن ننظر الى الأسلحة التى يحتاج اليها الصعلوك على انها نوعان ، أسلحة « منظورة » وأسلحة « غير منظورة » ونعنى بالأسلحة المنظورة أو المحسوسة اللوازم المبـاشرة التى تحتاج اليها حياة العدوان التى يحياها الصعاليك ، فهم فى عدوانهم الدائب على الناس ، وفى تعقب المعتـدى عليهم للصعاليك ومطاردتهم اياهم ، لابد للصعاليك فى هجومهم وفى دفاعهم من أسلحة ووسائل للهجوم وللدفاع ٠ وأهم أسلحة الهجوم أسلحة القتـال المعروفة كالسيف والقوس ، والمطايا من الابل والخيل ، وأهم أسلحة الدفاع سلاح كاد الصعاليك ينفردون به وهو السرعة المدهشة فى العدو ، وأيضا الأماكن التى تتيح لمرتادها الاختفاء عن الأعين والهروب ، ولذلك نجدهم يحرصون دائما كما سنرى على مثل هذه الأماكن فى مزاولتهم للصعلكة ٠

ونعنى بالأسلحة غير المنظورة أو غير المحسوسة الأسلحة غير المباشرة التى

---

(١) من اللامية : وتياسرن تقاسمن والعقيرة اللحم أيضا ٠
(٢) تبيت يعنى الجنايات يقصد أصحابها وحثاثا يعنى متعجلين ٠

تلزم لكل صعلوك حتى يستطيع أن يحتل هذه الحيــــاة بما فيها من مخاطر وقسوة .

وأهم هذه الأسلحة الصفات التي ينبغى أن تتهيأ للصعلوك ، والتى يجب أن يكون متصفا بها حتى يستطيع أن يواجه المخاطر التى لابد أن يتعرض لها كل صعلوك ، والقسوة التى لا تخلو منها حياتهم ، وذلك كالجرأة وقوة الارادة والصبر واليقظة .

وهذه الأسلحة غير المنظورة أهم ما يلزم للصعلوك ، بل هى أهم من الأسلحة المنظورة ، وهى المعيار الحقيقى للتفاوت بين الصعاليك ، ولمدى خطورة الواحد منهم فى الصعلكة ونجاحه فيها ، وبدون هذه الأسلحة لا يصلح شخص لحياة الصعاليك الحقيقية مهما أتيح له من أسلحة منظورة ، أما الذين يتمتعون بقدر وافر من هذه الصفات فانهم كانوا دائما ينجحون فى تحقيق أغراضهم من الصعلكة ، ولذلك نجد فى أخبار كثير منهم كما سبق انه كان يغزو وحـــده ، أو كان يغزو على رجليه ، ونجد الشنفرى مثلا هذا الذى روع نجدا كلها وخاصة قبيلة بنى سلامان كان كما يؤكد شعره وأخباره يعتمد على نفسه ، وحتى فى الأخبار القليلة التى تحدثنا عن صحبه ، لا نجد له الا رفيقين فى أكثر الأحيـــان هما تأبط شرا وعمرو بن براقة ، ومما يدل على عدم ملازمة هذين الرفيقين له ان الأخبار تصف تأبط شرا بأنه كان يغزو وحده ، ومعنى ذلك ان هـــذه الصفات ألزم ما يحتاج اليه الصعلوك فى حياته ، وانه يستطيع أن يستغنى بها عن كثير من الأدوات المنظورة أو المحسوسة .

وفيما يلى نتحدث عن هذين النوعين من الأسلحة التى تتذرع بها الصعاليك لخوض حياتهم هذه الرهيبة القاسية الخطرة .

الأسلحة المنظـــورة

أ ـ أسلحة القتال

اذا كان حمل السلاح شيمة العربى ، يرى سلاحه جزءا منه ، لا يفارقه فى سلم أو غيره ، فهو ملازم له فى كل أوقاته ، فمن باب أولى الصعلوك الذى يعيش حياة عادية ومعدوا عليها كما يقول الصعاليك ، فلا يتصـــــور أحد من الصعاليك بدون سلاح ، ونرى شعرهم يعتز بالأسلحة اعتزازا شـــــديدا ، ويتفنن فى تصوير هذا الاعتزاز والتعبير عنه ، وقد تحدثوا عن أنواع كثيرة من الأسلحة نسوق أهمها فيما يأتى :

١ ـ السيف :

السيف هـــو الســـلاح الاول الذى كان يحــرص كل عربى على حمله واستعماله ، والأسلحة الأخرى تعتبر اضافية بالنسبة اليه • أو مدخـــــرة للظروف ، حيث ان الأسلحة الأخرى غير السيف كان مجالها القتال ، أما السيف فملازم للفرد دائما ، سواء فى الحرب والسلم وقد تحـدث شعر الصعاليك عن السيف باضافة وتفنن ، ولا يكاد شـــاعر منهم لم يكرر حديثه عن السيف فى صور وأسماء وتشبيهات مختلفة •

وأكثر الحديث فى شعرهم عن السيف ، كان عن لونه ، وهــو البيــاض ، فيقول الشنفرى :

اذا فزعوا طارت بأبيض صـــارم ورامت بما فى جفرها ثم سلت (١)

ويقول أيضا عن بياض سيفه الذى يجذ أطراف السواعد :

وأبيض من ماء الحـــديد مهند مجذ لأطراف السواعد معطف (٢)

ويتحدث عروة بن الورد عن بياض سيفه المشهر الوقع فيقول :

نطاعن عنها اول اليوم بالقنـــا وبيض خفاف وقعن مشـــهر (٣)

ويتحدث عروة أيضا عن بياض سيفه الذى لا يملك غـيره وغــير درعه ومخفره فيقول :

ومالى مال غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحـــديد صقيل (٤)

ويتحدث مالك بن الريب عن القرى الذى قدمه ، وقد كان هـــذا القرى سيفا أبيض كالعقيقة :

فقراك أبيض كالعقيقة صارم ذا رونق يغشى الضريبة فاصل (٥)

ولئن كان بياض سيف مالك فاصلا فى أعضاء خصمه كما قال ، فانه منجاة لصاحبه كما يقول :

فصرت لقى لما علاك ابن حـــرة بأبيض قطـــاع ينجى من الكرب (٦)

---

(١) المفضليات ١١١ والجفر كنانة السهام والصارم القاطع يعنى السيف •
(٢) مهذب الأغانى ١/٩٥ •
(٣) الاصمعيات ٤٠ •
(٤) العمدة لابن رشيق ٢/٣٥ •
(٥) مهذب الأغانى ٥/١٠ •
(٦) مهذب الأغانى ٥/١٦ •

وسيف مالك هذا يصفه راجز بأنه مسموم فيقول :

الله نجاك من القصيم ...

ثم : ومالك وسيفه المسموم (١)

ولكن صخرا الغي يرى هذا البياض غير خالص في سيفه ، بل مشـــوبا ببعض الميل الى السواد في بعض متنه ، وليس ذلك عيبا فيه ، بل زيادة في الجودة ، فهو سيف مستخلص ، انتقاه من سيوف أريحاء الكثيرة حتى انه لا يجد شبيها له ، وحتى ان ضربته لا يصلب أمامها شيء فيقول :

وصـــارم أخلصت خشيبته أبيض مهو في متنه ربد (٢)
فليت عنه سـيوف أريح حتى باء بكفي ولم أكد أجد (٣)
فهو حسام تتر ضربته سا ق المذكى فعظمها قصد (٤)

ويستغني الشنفرى بسيفه الأبيض وقوسه عن عـــون النـــاس جميعا وصداقاتهم وصلاتهم فيقول :

واني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض أصليت وصفراء عيطل (٥)

وعمرو بن براقة لا يرضى لسيفه الأبيض مكانا حين يضرب الا الجمـــاجم فيقـــول :

فلا صلح حتى تقدع الخيـــل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

وأما قيس بن الحدادية فيجعل سيوفهم البيض هي كل ما يقدمونه من مهر ليستحلوا بها نساء أعدائهم ، وذلك حين يصبحن أسيرات بهذه السيوف فيقـــول :

لقد علمت افناء بكر بن عامـــر بأننا نذود الكاشـــح المتزحرحا
وانا بلا مهر ســوى البيض والقنــا نصيب بأفناء القبائل منكحا (٧)

---

(١) معجم البكري ٣/١٠٢٧ .

(٢) صارم قاطع وأخلصت خشيبته اخلص طبعه ومهو رقيق والربد جمع ربدة وهي البقع المخالفة في اللون .

(٣) اريح هي أريحاء الشام بلدة وباء صار ولم أكد أجد يعني لم أجد له مثيلا .

(٤) تتر تقطع والمذكى المسن الصلب والقصد جمع قصدة وهي الكسرة . ديوان الهذليين ٢/٦٠ .

(٥) مشيع يعني كان له شيعة تناصره وأصليت قاطع وصف للسيف وعيطل قوس طويلة العنق . اللامية .

(٦) أمالي القالي ٢/١٦٦ .

(٧) الأغاني للأصفهاني ١٤/١٤٤ .

وأما مالك بن حريم فيصف قومه وسيوفهم البيض تلمع حين يضربون بها فيقول :

والبيض تلمـــــع بينهم تعصو بها الفرسان عصوا (١)

ومن الصعاليك من حاول تشبيه بياض السيف بشيء ، ولكنهم لم يخرجوا عن تشبيهه بالملح (٢) ، ولعل الملح أشد ما يعرفونه بياضا ، فلا نعلم شيئا فى حياتهم أكثر بياضا من الملح ، وحتى اللبن المعروف بالبياض لا يبلغ الملح فى صفاء بياضه ، وخاصة لبن الابل الشائع بينهم ، فبياضه غير خالص لما يشوبه من الدهن ، ومعنى ذلك انهم يريدون أن يشبهوا بياض سيوفهم بأشـــد ما يعرفونه بياضا وهو الملح ، فعمرو بن براقة يجعل فى سيفه الذى يشبه لون الملح غنى له عن المال ، ولاعتزازه بالسيف يذكره فى خمسة أبيـات من قصيدة غير طويلة ، تكاد الخمسة تكون مخصصة للسيف فيقول عن نفسه ،

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض اذا عض الكريهـــة لم يدع له طمعا طوع اليمين مـلازم
ثم : كذبتم وبيت الله لا تاخـذونها مراغمة ما دام للسيف قائم
ثم : متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظـــالم
ثم : فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٣)

ويقول مالك بن حريم عن لون سيفه الذى يشبه الملح ، والذى قتـل به سيد أعدائه :

بنى قمير قتلت ســـيدكم فاليوم لا فدية ولا جزع
جللته صارم الحـــديدة كالملح وفيـه سفاســـق لمع (٤)

ويقول عروة بن الورد :

يكفى من المأثور كالملح لونه حديث باخلاص الذكورة قاطع (٥)

والشنفرى يطلق لخيـاله العنـان ، فلا يكتفى بذكر الملح فى تشبيه لون سيفه ، وانما يلجأ الى اسلوبه الغالب على شعره كله ، وهو التصوير البارع العميق من مرثيات بيئته فيقول : بعد ذكر اللون والصفات المألوفة انه يشبه « اقطاع الغدير » أو أحد « أذناب الحسيل » :

---

(١) الحيوان للجاحظ ٦/٤٧٤ وتعصو تضرب والعصو الضرب .

(٢) شبهه مالك بن الريب بالعقيقة فى البياض كما سبق آنفا ولكنه تشــبيه لا يعتبر من البيئة . .

(٣) أمالى القالى ٢/١١٩ وتقدع تكف والجماجم الرءوس .

(٤) المصدر السابق ٢/١٢٠ وسفاسق طرائقه المسماة الفرند .

(٥) ديوان عروة ٩٩ .

حسام كلون الملح صاف حديده   جراز كاقطاع الغدير المنعت (١)
تراها كاذناب الحسيل صـوادرا   وقد نهلت من الدماء وعلت (٢)

وقد حظى متن السيف بأوصاف كثيرة فى شعر الصعاليك ، تنعته أحيانا بالحدة والشحذ ، وأحيانا بالرقة التى تدل على المضاء والنفاذ ، وأحيانا بالصلابة والمتانة ، وأحيانا بالطول مع مصاحبة ذلك لأوصاف أخرى ، وتشبيهات له ، أو نسبة الى صانع أو بلد ، أو غير ذلك من الأوصاف .

على اننا نلاحظ ان مقبض السيف وحمائله لم تحظ باهتمام شعرهم ، ولم يجعلوها موضوعا بارزا للحديث عنها ، وهذا أمرمتوقع من مثل الصعاليك فالمقبض والحمائل تعتبر زينة وكمالا ، أعنى ان العناية بهما انما تتوقع من فرسان المجتمعات والمدن ، الذين يختالون بأسلحتهم ويستعرضـونها أمام الناس ، فيهمهم جمال مقبض السيف أو حمائله أو غمده ، ليكون فى هـذا الجمال زيادة فى الهيبة والتمجيد ، أو جذبا لأنظار المفتونات ، أو حتى ارضاء للخيلاء ومباهاة بالثراء ، أما الصعاليك فلم يكن لهم فى شىء من ذلك أرب ، وما لهم والحلية والزينة ؟ انهم فضلا عن كونهم لا يستطيعونها لفقرهم ، ليسوا فى حاجة اليهم وحياتهم فى عزلة عن المجتمعات ، وسيوفهم قلما تستعمل فى ضوء النهار ، وانما مكانها الصحراء ، وزمانها جوف الظلام فحينما يتحدثون عن هذه الحلى يتحدثون عنها عرضا ، وفى سيوف غير سيوفهم ، كما يتحدث الأعلم الهذلى عن الضباع السود التى تشبه جلودها ثياب الرهبان ، وعن نزع هذه الضباع لجلد فريستها كمـا ينزع القين الحلية المذهبة عن جفن السيف ليضع غيرها مكانها فيقول :

سـود سـحاليل كـأ   ن جلودهن ثيـاب راهب (٣)
آذانهن اذا احتفـر   ن فريسـة مثل المذانب (٤)
ينزعن جلد المـرء نز   ع القين اخـلاق المذاهب (٥)

بل على العكس نجدهم يصرحون بخلو سيوفهم من الحلية ، وان مواضع الحلية منه خلقة بالية فيقول تأبط شرا :

---

(١) المفضليات ١١١ والجراز السيف القاطع والاقطاع يعنى الأمواج الرقيقة التى يضرب بها الهواء فتلمع بياضا والمنعت الكثير النعوت .

(٢) الحسيل جمع حسيلة وهى أولاد البقر ـ يشبه السيوف بأذناب أولاد البقر حين ترى أمهاتها وتهلت وعلت يعنى أن السيوف رويت من الدماء فى مقابلة رى صغار البقر من لبن أمهاتها .

(٣) سحاليل وصف للضباع بالضخامة يعنى ضباعا ضخمة سودا كأنها تلبس ثياب رهبان لسوادها .

(٤) احتفرن أوقعن والمذائب جمع مذنبة وهى المغرفة التى يغرف بها .

(٥) القين الحداد والأخلاق جمع خلق للشىء القديم البالى والمذاهب جمع مذهب أو مذهبة يعنى أن القين ينزع عن جفن السيف الشىء المذهب الملصق به حين يبلى ليضع جديدا مكانه .

فطار بقحف ابنـــة الجن ذو سفاسق قد أخلق المحملا (١)

ويقول عبيد بن أيوب أن طول احتضانه السيف جعـل جفنه وحمائله كأنهن جزء منه :

وطال احتضانى السيف حتى كأنما يلاط بكشحى جفنه وحمائله (٢)

فملازمة السيف لذاته هى التى تعنيهم ، ولا يعنيهم بعد ذلك شىء قط الا جودة السيف ولذلك حرصوا كثيرا على الحديث عن جودة السيف كما قال صخر الغى أنه افتلى سيفه من سيوف أريحاء حتى لم يكن لسيفه مثيل ، وعن مضـــائه فى النفاذ وتقطيع الأوصال وعن شحذ حده ، بالاضافة الى سرد أسماء كثيرة للسيف مأخوذة أصلا من صفات له ثم غلبت عليه كالمهند والشطب .

فمن ذلك وصف سعد بن ناشب لسيفه حيث يقول عن نفسه :

اذا هم ألقى بين عينيه عـــزمه وصمم تصميم السريجى ذى الأثر (٣)

وأبو خراش يرى غاية ما يطلب فى السيف أن يكون حادا مصـــقولا فيقول :

ولولا نحن أرهقــه صهيب حسام الحـــد مذروبا خشيبا (٢)

وأحيانا يسمى أبو خراش سيفه المهند كما يقول فى وعيـــده لشخص يدعى واقدا :

أوا قد لا آلوك الا مهندا وجلد أبى عجل وثيق القبـــائل (٥)

ومرة أخرى يضيف اليه صفة المهند القضاب فيقول :

فنشيت ريح المـــوت من تلقائهم وكرهت كل مهند قضـــاب (٦)

وأحيانا يتحدث عن اباء السيف وصلابته مشبها شخصا بنصله فيقول :

أشم كنصل السيف يرتاح للندى بعيدا من الآفات والخلق الوخم (٧)

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والقحف العظم فوق الدماغ والسفاسق طرائق السيف المسماة الفرند وابنة الجن الغول .

(٢) الكامل للمبرد ٢٠٠/١ ويلاط يلازم ويلتصق .

(٣) حماسة أبى تمام ٢٧٢/١ والسريجى نسبة الى صانع أو بلد والأثر صلابة المتن وحدته .

(٤) ديوان الهذليين ١٣٥/٢ وأرهقه أغشاه بمعنى ضربه والحسام الحاد والمذروب الحديد والخشيب حديث العهد بالصقل .

(٥) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ ولا آلوك يعنى ليس لك الا الســـيف وأبى عجل يريد جلد الثور صنعت منه ترس .

(٦) المصدر السابق ١٦٨/٢ ونشيت شممت والمهند المشحوذ والقضاب القطاع .

(٧) المصدر السابق ١٥٣/٢ فى رثاء قريبه خالد بن زهير والأوصاف فى البيت لخالد .

وأما صخر فيسمى سيفه الجراز متحدثا عن حدة متنه ومضائه ، فيقول حين طولب بدية أحد قتلاه مخاطبا خصمه أبا المثلم :

ليت مبلغا يأتى بقـــول لقاء أبى المثلم لا يريث (١)
فيخبره بأن العقل عندى جـــراز لا أفل ولا أنيث (٢)
به أقم الشجاع له حصاص من القطمين اذ فر الليـــوث (٣)

وأبو المثلم هذا الذى توعـــده صخر الغى قائلا ان الدية التى تطلبها لن تجدها عندى الا سيفا له صفاته السابقة ، نجد أبا المثلم هذا يؤمن عـــلى ما ذكره صخر عن سيفه ، بل يزيد فى وصف سيف صخر عما وصفه صخر نفسه فيقول :

يا صخر ان كنت ذا بز تجمعـــــه فان حولك فتيانا لهم خلل (٤)
أو كنت ذا صارم عضب مضــــاربه صافى الحديدة لا نكس ولا جبل (٥)
وسمحة من قسى النبع كاتمـــة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٦)
يا صخر فالليث يستبقى عشـــيرته قنية ذى المال وهو الحازم البطل (٧)

وتأبط شرا يؤكد أنه لا تهمه للسيف حلية أو رونق ، وانمـا يهمه أن يكون سيفه حديدا ماضيا ، ولذلك فانه اذا وجد سيفه قد فل أو كل شحذه بحد الحجارة دون أن يحتاج الى صيقل يصقله فيقول :

اذا كل أمهيته بالصـــفا فحد ولم أره صـــيقلا (٨)

أما عبد الله بن سبرة الحرشى فبهمه أن يجلى الصياقل عن سيفه ما يعلق بنصله فيقول :

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣/٢ ولقاء أى تلقاء وقبالة ويريث يبطىء •

(٢) العقل الدية والجراز القاطع والافل المفلول ولا أنيث يعنى حديده ذكر •

(٣) أقم الشجاع أرده وله حماص أى جد ونشاط فى مره وقطعه والقطمين المتهيجين من الفحولة •

(٤) البز السلاح والخلل جمع خله بطانة جفن السيف واراد بها السلاح نفسه : ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ •

(٥) النكس الضعيف والجبل بفتح الجيم وكسر الباء الكز الغليظ غير السهل والعضب القاطع •

(٦) وسمحة قوس سهلة الاستعمال وكاتمة ليس بها صدع والسبيكة الصفراء يعنى قوسا غير منكسة ولا عاطلة من الوتر •

(٧) القنية المال المقتنى يريد أن الحازم يستبقى أهله وعشيرته ويحرص عليهم فلا يعمل على قتلهم كما تفعل أنت •

(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وكل أى فل حده وأمهيته شحذته وحددته والصفا نوع من الحجارة •

كل ينوء بماضى الحد ذى شطب جلى الصياقل عن ذريه الطبقا (١)

وجحدر بن معاوية حين أودع السجن أشفق أن يموت ، لا رهبة من الموت ولا حبا فى الحياة ، وانما لأن لسيفه وسلاحه حقا وغاية لم يحققها بعد فيقول :

ولم أك قد قضيت حقوق قومى ولا حق المهند والسنان (٢)

ومالك بن الريب حين حلقت المنية فوق رأسه ، وأحس طعم الموت فى حلقه فى رحلته التى مات فيها مشردا غريبا ، حينذاك وجد نفسه وحيدا يصارع الموت والغربة ، ولكنه فى هذه اللحظات العصيبة لم ينس سيفه ورمحه ولئن كان سيفه قد صاحبه حياته صحبة الرفيق والساعد والسند القوى المتين ، فانه فى لحظات موته أيضا كان النادب والراثى والباكى ولا باكى غيره وغير رمحه وفرسه فيقول :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٣)

٢ ـ السهم :

ومن ألزم الأسلحة للصعاليك القوس والسهم ، لأنهم بحكم حياتهم يعتمدون اعتمادا أساسيا على أشخاصهم بمفردها ، وبحكم اعتماد الصعلوك على أسلوب الترصد ، والهجوم والدفاع الفردى ، يحتاج الى سلاح بعيد المدى فى الاصابة ، بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه ، والسهم خير ما يحقق له ذلك ، ولذلك نجد شعرهم يتحدث كثيرا عن السهم ويصور أهميته فى حياتهم وتحقيق أغراضهم ، فمن ذلك ما يصفه صخر البغى عن سهامه ، من أنها مع ترسه حصن منيع يحول بينه وبين أعدائه ، ويرد عنه مترعديه حيث يقول :

انى سينهى عنى وعيدهم بيض رهاب ومجنأ أجد (٤)

والشنفرى يتحدث عن أهمية السهام للصعلوك حتى انه يحمل منها ما يستطيع حمله دائما ، لأنها الحاجز المنيع بينه وبين أعدائه ، والقبضة الطولى فى بلوغه اياهم ، فيصف رفيقه تأبط شرا الذى يسميه « أم عيال » لأنه كان يدبر أمر قوتهم حين يغزون ، يصفه بأنه يحمل دائما جعبة فيها ثلاثون سهما مهيأة للاطلاق فور احساسهم بأول خطر فيقول :

---

(١) أمالى القالى ٤٧/١ والشطب طرائق السيف فى متنه وذريه لمعانه والطبق الوسخ .
(٢) أمالى القالى ٢٧٨/١ .
(٣) مهذب الأغانى ١٧/٥ مرثيته المشهورة .
(٤) ديوان الهذليين ٥٩/٢ والبيض الرهاب السهام المرهفة المرققة والمجنأ الترس واجد شديد صلب .

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا　　اذا آنست أولى العدى اقشعرت(١)
ثم ـ اذا فزعوا طـارت بأبيض صارم　　ورامت بما فى جفرها ثم سلت (٢)

ويصف أبو خراش سهمه الحاد العريض النصل ، وذلك خلال صـورة دقيقة جميلة يرسمها لقطيع من حمر الوحش تعرضن لصائد ، فبعد أن وصف القطيع بما فيه من أتن حوامل وذكور يحاولن النزو على الاتن رغم حملهن ، ثم ما يحدثه القطيع من تصايح وجلبة وتعارك يثور له حولهن وفوقهن غبـــار كأنه الثوب المنسوج ، ثم اشتداد وهج الشمس عليهن ، وسعيهن الى المـــاء وبعد أن شرب القطيع وعاد هنالك كان أبو خراش وسهامه راصدا للقطيـع فيقول مكملا هذه الصورة ٠

منيبا وقد أمسى تقدم وردها　　أقيدر محموز القطـاع نذيـل (٣)

يريد أن القطيع حين عاد وقد أمسى عليه المساء ، كان أبو خراش قد سبقه وترصد له فى طريقه وتابع القطيع سيره ، محاذرا بغريزته ، مرهفا سمعه خشية أن يكون فى طريقه صائد يكمن له كما كان أبو خراش كامنا حينئذ له وشىء واحد لم يستطع القطيع أن يخفيه ، هو وقع أرجـــله القوية فى طريق خشنة غليظة غير ممهدة ، وتزداد حدة وقع أرجله حينما يكون منحـــدرا من هضبة مرتفعة ، ويعبر أبو خراش عن ذلك فيقول :

فلما دنت بعـد استماع رهفنه　　بنقب الحجاب وقعهن رجيـــل (٤)

ويتابع أبو خراش صورته هذه الواقعية الجميلة ، فيقول ان الحمـــر الوحشية ظلت فى انحدارها القوى الوقع من المرتفع حتى نزلت بطن الوادى ، وفى مثل هذه الوديان المنخفضة من الصحراء تتجمع عادة مياه الأمطار والسيول ثم تجف أو يجف معظمها ، فتنبت منها طحالب وأنواع من نبات الصحراء قد يكون بعضها كثيفا أو مرتفعا ، ولذلك حينما نزلت حمر الوحش من مرتفعها لنجتاز هذه النباتات النابتة فى مياه آجنة أخذت الحمر تفتح ما بين رجليها

---

(١) المفضليات ١١١ والوفضة جعبة السهام والسيحف السهم العريض النصل وآنست أحست والعدى بفتح العين وكسر الدال جماعة العدائين واقشعرت تهيأت للقتال وضمير التأنيث يعود على أم عيال وهو تأبط شرا ٠

(٢) الصارم القاطع للسيف والجفر كنانة السهام يريد أنه يرمى سهامه فاذا نفدت سل السيف ٠

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٢٠ منيبا راجعا والورد مكان الورود من الماء وأقيدر قصير العنق يعنى نفسه ومحموز شديد صلب والقطاع السهام ونذيل من النذالة يريد أنه رث الثياب غير نظيف المظهر ٠

المظهر ٠

(٤) دنت يعنى حمر الوحش وبعد استماع رهفنه أى بعد تسمع أرهفن فيه آذانهن والنقب الطريق الغليظ والحجاب الأرض المرتفعة كالهضبة الصغيرة ، والرجيل القوى يعنى وقع أرجلهن قوى عنيف ٠

الأماميتين فيما يشبه الوثب المضطرب لتجتاز هذا الماء الآجن بما فيه من طحالب ونباتات ·

يفجين بالأيدى عـــلى ظهـر آجن له عرمص مستأسد ونجيـل (١)

وبعد أن اجتاز القطيع هذا الماء الآجن بما فيه من نباتات مضى فى طريقه صوب الجبل ، وهنا كان أبو خراش فى تتبعه القطيع ببصره قد وجد الفرصة لاقتناص أحد هذه الحمر بسهمه وقد اختار أقربها اليه ، وفجأة أحس الحمار بأبى خراش وسهمه ، فاعتراه فزع شديد ، وحاول النجاء ، ولكنه وجد نفسه وليس أمامه الا شق فى الجبل أحسن أبو خراش اختياره لاصطياد صيده ، واندفع الحمار فى الشق ، فأصبح كالصيد فى الفخ ، وحينئذ كان سهم أبى خراش الضخم الحاد العريض النصل كما يصفه يغور فى فؤاد الحمار ·

فلما رأى ألا نجاء وضمه الى الموت لصب حافظ وقفيـل (٢)
وكان هـو الأدنى فخـل فؤاده من النبل مفتوق الغرار بجيـل (٣)

ومن هذه القصة نرى جانبا من جوانب حاجة الصعاليك الى السهم ، وهو جانب الصيد ، الذى تعتمد حياتهم عليه ، ان طعامهم بحكم حياتهم فى الصحراء وانقطاعهم عن المجتمعات امادا قد تطول الى الأشهر الطويلة أو ما هو أطول من ذلك ، فى رحلات الغزو البعيدة المدى ، وفى الفترات الطويلة التى يضطرون فيها الى التخفى من المطاردة ، فى كل ذلك لا وسيلة لهم الى العيش الا الطرد والصيد لا يصلح له فى أسلحتهم الا السهم ، وعمرو ذو الكلب يجعل من سلاحه وسهامه خير رد على وعيد المتوعدين ، فسيفه الملازم له كالوشاح ، وترسه الذى يتقى به سهام العدو فتفل سهام العدو على صلابة ترسه وسهمه المعد للانطلاق ، وكنانته التى تحوى سهاما محددة كالشوك ، كل ذلك يجعل وعيد أعدائه هراء ، فيقول :

تمنانى وأبيض مشرفيـا أشاح الصدر اخلص بالصقال (٤)
وأسمر مجنأ من جلد ثور أصلا مفللا ظبـة النبـال (٥)

---

(١) يفجين بالأيدى يفتحن ما بين أيديهن والآجن الماء الراكد وله عرمص يعنى به نباتات والعرمص الطحلب من النبات ومستأسد يعنى هو نبات صلب ونجيل نبات رخو يريد أن الحمر فتحت يديها لتجتاز ماء آجنا به نباتات بعضها صلب وبعضها رخو ·

(٢) رأى يريد الحمار ولصب بكسر اللام وسكون الصاد الشق فى الجبل وحافظ لا منفذ فيه يمينا ولا شمالا وقفيل جاف يابس ·

(٣) الأدنى الأقرب يعنى أن الحمار الذى تخيره كان أقربها اليه ، وخل ثقب فؤاده بسهمه ومفتوق عريض يعنى السهم والغرار الحد وبجيل ضخم ·

(٤) ديوان الهذليين ١١٦/٣ وأشاح الصدر ملازم كالوشاح للصدر ·

(٥) مجنأ محدب يعنى الترس وأصم ليس فيه خلل ولا منافذ ومفللا اسم فاعل أى بكسر النبال والظبة الحد ·

وايفاقي بسهمي ثم أرمي والا فالاباءة فاشتمالي (١)
وفي قعر الكنانة مرهفات كأن ظباتها شوك السبال (٢)

والشنفرى يبين وجها من وجوه حاجة الصعاليك الى السهم أيضا ، أو موقفا من مواقف النفع له ، فيقول ان ورود الماء على ما فيه من أخطار ، حيث يكون الماء دائما في الصحراء مطلبا للناس ومنهم الأعداء ، ومطلبا للوحوش وكلها عدو ، لا يخفيه ما دام يحمل سيفه اليماني ، وسهامه المنتقاة من خير السهام والتي تعرف طريقها دائما حين يرميها الى القلوب ، لأنه تابع برى هذه السهام حتى ان لها حين تنطلق لصوتا وذفيفا عجيبا فيقول عن سهامه هذه وعن أصوات انطلاقها :

وانك لا تدرين ان رب مشرب مخوف كداء البطن أو هو أخوف (٣)
وردت بمأثور يمان وضالة تخيرتها مما أريش وأرصف (٤)
أركبها في كل احمر غائر وأنسج للولدان ما هو مقرف (٥)
وتابعت فيه البرى حتى تركته يزف اذا انفذته ويذفذف (٦)

ويمكن القول بأن السهم وأداة رميه وهي القوس أهم ما يلزم للصعلوك لاعتماده على شخصه كفرد ، ولاعتماد حياته على الترصد والخفية كما قلنا ، فهو في حاجة الى سلاح بعيد المدى بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر بأعدائه، بالاضافة الى حاجته الأساسية في الصيد ونحو ذلك مما أشارت اليه صور استعمالهم للسهم ، ولذلك نجد السهم مرتبطا في حديثهم دائما بهذه الأغراض بل هو مرتبط في خيالهم بالدفاع عن النفس ضد أشد المخاطر التي يتخيلونها أو بمعنى أصح بتخيلها بعضهم كخيالات عبيد بن أيوب عن الجن والغيلان ، هذه الخيالات التي حاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فنجده يربط السهم بهذه الخيالات في صراعه معها فيقول :

ولقد لقيت مني السباع بلية وقد لاقت الغيلان مني الدواهيا
اذقت المنايا بعضهن بأسهمي وقددن لحمي وامتشقن ردائيا (٧)

---

(١) الايفاق أعداد السهم للرمي والافالاباءة يعني اذا انفدت السهام لجأت الى السيف وروى فاستلالي وهو أوضح .
(٢) الكنانة جعبة السهام ومرهفات حادة والظبة الحد والسبال شجر له شوك .
(٣) مهذب الأغاني ١/٩٥ والمشرب مكان الشرب .
(٤) المأثور ذو الصلابة والحدة والضالة السهام والرصف في القاموس رصف السهم شد على رعظه عقبة .
(٥) يعني بالشطر الأول احمرار القسي من الشمس والاستعمال والقرف شجر .
(٦) يذف ويذفذف يعني صوت السهم عند انطلاقه وفي القاموس سهم مذفف سريع خفيف .
(٧) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ .

ولئن كان ذكرهم للسيف أكثر ، فان ذلك من قبيل التقليد العربى فى ملازمة السيف لكل فرد ، واعتباره السلاح الاساسى فى حياة كل منهم ، وأن كان بعضهم كالصعاليك أحوج فى معظم أحيانه الى غيره ٠

٣ ـ القــوس :

والقوس مرتبطة بالسهم لأنها الأداة التى يرمى بها ، واهتمامهم بالسهم ينعكس على القوس أيضا ، ونجد الحديث عن السهم مرتبطا غالبا بالحديث عن القوس ٠

وفى حديثهم عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثهم عنها ، أحدهما اللون ، وفى هذا المعنى نجدهم غالبا يصفونها بصفرة اللون ، وهو اللون الأصيل فيها ، وفى أحيان قليلة يصفونها بالاحمرار ، لا على انه لون أصلى وانما على أن طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر قد أثر فى صفاء صفرتها ،وحول هذا الصفاء الى شىء من الحمرة ، والمعنى الآخر الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم ، أو صوتها مع صوت السهم فى انطلاقه واندفاعه الشديد فى الفضاء ، وغالبا ما يجتمع حديثهم عن المعنيين ٠ ونلاحظ ان الشنفرى من أكثر شعراء الصعاليك حديثا عن القوس ، وانه مفتون أيما فتنة بالصوت الذى ينبعث منها ومن السهام حين الرمى ، فنجده مرة بعد أن يذكر انها « صفراء عيطل » (١) يقول عن صوتها وصفاتها :

هتوف من الملس الحسان يزينها   رصائع قد نيطت اليها ومحمل (٢)
اذا زل عنها السهم حنت كأنهـــا   مرزاة ثكلى   ترن وتعول   (٣)

ومرة أخرى يذكر لونها،ويشبه صوتها بصوت الحزين ، ولكنه لايكتفى بذلك ، وانما يشبهه أيضا بصوت النحل حين يخطىء غاره وخلاياه فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق فيقول فى سياق انه لا يملك غير سلاحه :

وصفراء من نبع أبى طهير   ترن كارنان الشجى وتهتـف (٤)
اذا طال عنهـا النزع تأتى بعجسها   وترمى بمذريها بهن وتهتف (٥)

---

(١) عيطل طويلة العنق : اللامية فى البيت الحادى عشر ٠

(٢) اللامية : والهتف الصوت والملاسة النعومة وفى رواية الملس المتون والمحمل ما تعلق به ونيطت شدت ٠

(٣) زل انفصل وحنت من حنين الابل الى أولادها بالصوت المخصوص ومرزأة كثيرة الرزايا تصيبها والثكلى المفجوعة بفقد ولدها وترن من رنين الصوت ودويه وتعول من العويل ٠

(٤) مهذب الأغانى ٩٥/١ والنبع شجر للقسى وللسهام ينبت فى قلعة الجبل كما فى القاموس مادة (نبع) ٠

(٥) العجس مقبض القوس ومذرا القوس الموضعان اللذان يقع عليهما الوتر واحدهما مذرى

كان حفيف النبل من فوق عجسها عوازب نحل أخطأ الغار مطنف (١)

ويصف الشنفرى مبلغ اعتزازه بقوسه ، فيجعلها قوينة لحياته ، بحيث لا يفرط فيها الا عندما تهدد حياته ، كما ذكر فيما مر من ليلة النحس الشديد الذى هدد حياته بالبرد فاضطر الى ايقاد قوسه ليستدفىء بها ، وقد تحدث عن احمرار لونها أحيانا كما سبق آنفا •

ويصف عبيد بن أيوب العنبرى قوسه بصفرتها ووترها ونصال سهامها فيقـــول :

ألم ترنى صاحبت صفراء نبعـة لها ربذى لم تفلل معابله (٢)

وأما صخر الغى فيرى لقوسه رنينا خاصا مفردا فى بحة ودوى ، كأنـه صوت العدائين حين يطلبون شيئا فيتجاوب صدى تناديهم فيقول :

وسمحة من قسى زارة صـــفرا ء هتوف عدادها غـــــرد
كأن ارنانها اذا ردمـــــت هزم بغاة فى اثر ما فقدوا (٣)

وأبو المثلم الهذلى خصم صخر الغى ، والذى كانت بينهما ملاحاة ومنافرات يؤيد صخرا فى الاعجاب بقوسه ، فيقول له انك ان تكن ذا سلاح تجمعه ، وذا سيف نوى ، وقوس محكمة ، فان فينا فتيانا لا يقلون عنك فيقـــول أبو المثلم فى خطابه هذا لصخر عن قوس صخر :

وسمحة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٤)

وعمرو ذو الكلب يصف متانة قوسه وصلابة تركيبها ، وجودة الخشب الذى صنعت منه فيقول :

وصفراء البراية فرع نبـــع مســنمة على ورك حـــدال (٥)

ومما يرتبط بالسهم والقوس الكنانة ، وقد تحدثوا عنها ، كما مر من خلال الشعر السابق « وفى قمر الكنانة مرهفات » (٦) ومثل « لها وفضة فيها ثلاثون

---

(١) الحفيف الصوت وعوازب مبعدة ضالة والطنف الحيد من الجبل يريد كصوت النحل حين يضل عن غاره فى منحنيات الجبل •

(٢) كامل المبرد ١/٢٠٠ والربذى الوتر والمعابل النصال العريضة الطويلة •

(٣) ديوان الهذليين ٢/٦٠ وزارة مكان مشهور بصناعتها والهتف الصوت والتغريد صوت مخصوص ، والردم هيئة مخصوصة فى استعمال القوس والهزم الصوت وبغاة طالبون •

(٤) ديوان الهذليين ٢/٢٣٠ وسمحة سهلة الاستعمال وكاتمة ليس فيها صدع والسبيكة الصفراء ولا ناب يعنى غير منكسة وليست عطلا من الوتر •

(٥) ديوان الهذليين ٣/١١٨ على ورك يعنى أصل الشجرة التى صنعت منها وحدال يعنى فيها طمأنينة من أحد رأسيها •

(٦) ديوان الهذليين ٣/١١٦ عمرو بن عجلان ذو الكلب •

سيحفا » (١) ، ويمكن أن نقول أن السيف والسهم وأدواتهما ، همـا الأسلحة الأساسية لحياة الصعلكة نفسها ، وان ما سواهما من الأسلحة التى ذكرها الصعاليك ليست أسلحه صعلكة ، وانما هى أسلحة حروب كالرمح والدرع ولكن حياة الصعاليك لم تكن صعلكة خالصة ، لأنهم مهما يكن من أمرهم فهم جزء من قبائلهم ، ولا يستطيعون التخلى من مشاركة أقوامهم ما يعرض لهم من حروب وصراع بينهم وبين غيرهم من الأعداء فهم فى هذا جزء من المجتمع ، ورجال حروب فى بعض المواقف ، ولا يستطيعون الاستغناء عن كل ما تضطر اليه الحرب من أسلحة وأدوات ، ولذلك نجدهم يتحدثون عن أسلحة الحروب ولكنه واضح من شعرهم انه حديث جانبى وليس صلبا فى أشعارهم وصراعهم الحقيقى ، لأن الصعلكة وحياتها وصراعها هى التى تملأ تفكيرهم ، وتوحى الى مشاعرهم بما تتضمنه حياتها ، ولذلك لم يكن الحديث عن أسلحة الحروب يحمل طابع الاهتمام أو الكثرة التى حظيت بها أسلحة الصعلكة فى شعرهم .

٤ ـ الرمـــح :

الرمح من الأسلحة التى يغلب استعمالها فى الحروب ، ولذلك لم يـكن حديثهم عنه مستفيضا ولا مطبوعا بالاهتمام ، ولكن الرمح ليس مقصـورا على الحروب ، بل يستعمل فى الصيد والصيد من الحاجات الضرورية لطعام الصعاليك ومعاشهم ، ولذلك نجد صخرا الغى يصف الرمح فى سياق صيد حمارى وحش فيقـــول :

فشامت فى صدورهما رماحا   من الخطى أشربت السمامـــا (٢)

ويرثى أبو خراش اخوته مشبها اياهم بالرماح الزرق الحداد الشداد فيقول:

حسان الوجوه طيب حجزاتهم   كريم نثاهم غير لف معازل (٣)
رماح من الخطى زرق نصالها   حداد أعاليها شداد الأسافل (٤)

وعروة بن الورد يصف رمحه بأنه دائم الغلبة والنصر ، وانه أســـمر القناة فيقول :

ومالى مال غير درع ومغفر   وأبيض من ماء الحديد صقيل
وأسمر خطى القناة مثقف   وأجرد عريان السراة طويل (٥)

---

(١) المفضليات للضبى ص ١١١ شعر الشنفرى .
(٢) ديوان الهذليين ٦٦/٢ والخطى نسبة الى مكان صنعه والسمام الثقوب .
(٣) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والحجزة فى الأصل معقد الأزار يريد وصفهم بالعفة ونثاهم ما يشيع عنهم يريد طيب حديث الناس عنهم والألف الثقيل والأعزل المجرد من السلاح .
(٤) الخطى نسبة الى المكان الذى صنعت فيه الرماح وزرق تستعمل مرادا بها البيض ويريد بالنصال الأسنة .
(٥) العمدة لابن رشيق ٣٥/٢ والمثقف الغالب المنتصر .

ويصفه مرة أخرى بأنه لدن محدد فيقول :

بكل رقاق الشفرتين مهنـــــد ولدن من الخطى قد طر أسمرا (١)

وأما مالك بن الريب فيجد رمحه ثالث اثنين ، لا باكى عليه غيرهن حين أشرف على الموت فى غربته فيقول :

تذكرت من يبكى على فلم اجد سوى السيف والرمح الردينى باكيا
واشقر محبوك يجر لجامـــــه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٢)

ويتحدث عمرو بن براقة عن قنوات رماحهم فيقول :

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنـــا وتضرب بالبيض الخفـاف الجماجم

ويقـــول :

متى تطلب المال الممنع بالقنـــا تعش مثريا أو تخترمك المخارم (٣)

ويقول قيس بن الحدادية عن أثر قنواتهم فى استباحة نساء أعدائهم ، واستيلائهم عليهن سبيات :

وانا بلا مهر ســـوى البيض والقنا نصيب بافناء القبائل منكحا (٤)

ويقول عبيد الله بن الحر أيضا عن أثر القنا فى سبى النساء اللاتى كانت منهن أمه :

ان تك امى من نســـاء أصابها سباء القنا والمرهفات الصـفائح (٥)

ويقول أبو خراش فى وصف الخيل التى يحثها على العـــدو الشديد فرسان يحملون القنا :

شواحى يمريهن بالقوم والقنــــا فروع السياط والأعنة والركل (٦)

ويقول جحدر بن معاوية عن خوفه من أن يموت ولما يقض حقوق سنان رمحه :

ولم اك قد قضيت حقـــوق قومى ولا حق المهنـد والســـنان (٧)

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٩٧ والطرير من السنان المحدد .
(٢) مهذب الأغانى ١٨/٥ من مرثيته .
(٣) أمالى القالى ١١٩/٢ .
(٤) أغانى الأصفهانى ١٤٤/١٤ .
(٥) أمالى القالى ٢٢٠/٣
(٦) ديوان الهذليين ١٦٥/٢ .
(٧) أمالى القالى ٢٧٨/١ .

ويريد مالك بن الريب أن يحفر قبره بأطراف أسنة الرماح فيقول :

وخطا بأطراف الأسـنة مضجعي   وردا على عيني فضل ردائيا (١)

٥ ـ الدرع والترس :

ومن أسلحة الحروب أو من وسـائل الوقاية فى الحروب الدرع ، ولكون الصعاليك ، يهتمون بحياتهم الخاصة فى الصعلكة دون الحروب ، لم يهتموا بالدرع ، بل لم تكن بهم حاجة اليها ، بل ان فى حملها مثقلة لهم تفسد عليهم حياتهم فى الصعلكة التى تحتاج دائما الى خفة الحركة وسرعة العدو ، ولم يتحدث عن الدروع الا الذين عاشوا فترات مع أقوامهم على انهم من فرسانهم كقيس ابن الحدادية ، الذى كان يعتبر قبل خلعه من فرسان قومه المعدودين كما يبدو ذلك واضحا فى شعره ، فيقول عن انتقاله من حيـاة الدعة والهدوء الى صراع الحروب :

واصبحت بعد الأنس لابس جبـة   أساقى الكماة الدارعين العواليا (٢)

وبكر بن النطاح وان كانت قد غلبت على حياته فترات من الركون الى أبواب الأمراء والسادة والعيش فى رحاب نعمتهم منصرفا عن معاناة حيـاة الصعلكة وقسوتها ، وقد شذ فى ذلك عن الصعاليك ولم يشاركه هذا الشذوذ الا فضالة بن شريك ،ومالك بن الريب فى فترات قليلة من حياتهما ، وكان بكر بن النطاح أكثر الصعاليك امعانا فى هذا الشذوذ كما يبدو من أخبـاره وشعره ، نقول مع هذا كان فيما بينه وبين نفسه مهيأ للصعلكة والعودة الى نشاطها فى أى وقت ، وكأنه فى حالة استعداد و « طوارىء » كما حدث فعلا حين استثاره أبودلف الأمير بقوله انك تكثر من وصف نفسك بالشجاعة دون أن أرى من شجاعتك شيئا ، فقال له : أيها الأمير واى غناء يكون عند الحاسر الأعزل ،ثم اخذ سيفا وفرسا ودرعا ورمحا فخرج حتى أغار على مال لأبى دلف نفسه فأخذه (٣) ، ولذلك يتحدث فى شعره عن انه وان كان اليوم فى ترف فانه يستطيع فى أى وقت أن يكون مقاتلا وصعلوكا :

اذا شئت غنتنى ببغـداد قينة   وان شئت غنانى الحمام المطوق
لبـاس الحسـام أو ازار معصفر   ودرع حديد أو قميص مخلق (٤)

---

(١) مهذب الأغانى ١٨/٥ .

(٢) أغانى الأصفهانى ١٥٤/١٤ ولا بس جبة يعنى درعا سابغة كالجبة وأغلب الظن أن أصلها لابس جنة بالنون ثم حرفت فى الروايات والدارعون لابسو الدروع والعوالى الرماح .

(٣) أنظر مهذب الأغانى ٨٤/٨ ـ ٩٠ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٩٦/٣ يريد بالحمام المطوق حياة الصحراء والصعلكة يعنى أن الحياتين مستطاعتان له وقميص مخلق مطيب بالخلوق .

وهناك أيضا الترس الذى كانوا يصنعونه من جلد قوى ؛ كانوا يؤثرون له جلد الثور ، وهو نوع من وسائل الدفاع كالدرع ، وعن هذا الترس يقــول صخر الغي :

أني ســــينهى عنى وعيــــدهم بيض رهاب ومجنا أجـد (١)

والترس أخف حملا من الدرع ، ولذلك فهو أنسب للصعاليك حتى لا يثقل حركتهم ولا يعوقهم عن العدو فان لم يكن بد من اتخاذ أحدهم شيئا يتقى به وقع النبال ، فالترس أنسب لهم من غيره ومن أجل هذا نجد حديثهم عنه أكثر وأحظى بالاهتمام من الدرع ، وهذا عمرو بن العجلان المعروف بذى الكلب ، يتحدث عن ترسه ، وعن أهميته فى صد النبال عنه ، مصرحا بالمادة التى صنع منها فيقول :

تمنانى وأبيض مشرفيــــا أشاح الصدر أخلص بالصـــقال
وأسمر مجنــا من جــلد ثور أصم مفللا ظبــة النبــال (٢)

وأما أبو خراش فيسترسل فى وصف الثــور الذى صنع من جلده الترس بأنه ثور قوى ضخم ، قد شبع غذاء من وديان جيدة الماء والنبات ، وانه ليبلغ من قوته انه لا يعبأ بالثيرا نحين تعرض له لتصده عن طريقه ، فان فعلت عادت الثيران مصدعة محطمة عنه بعد أن يكون قد أدمى جنوبها بقرنيه ، وانه ليبلغ من الضخامة انك حين تراه قائما على مرتفع بارز ، تحسبه لضخامته بيتا من جلد ، وتحسب قوائمه أوتادا أرسى بها هذا البيت ، يقول أبو خراش عن هذا المنظر مخاطبا عدوه واقدا :

أواقد لا آلوك الا مهنــــدا وجلد أبى عجل وثيق القبائل (٣)
غــــذاه من السرين أو بطن حلية فروع الأباء فى عميم الســوائل (٤)
يشب اذا الثيران صــــدت طريقه تصدعن عنه داميات الشواكل (٥)
يظل على البرز اليفــاع كأنه طراف رست أوتاده عنــد نازل (٦)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٥٩ والبيض يريد السهام ومجنا الترس واللفظ مأخوذ من معنى محدب لأن الترس كذلك وأجد صلب •

(٢) ديوان الهذليين ٣/١١٦ البيت الأول سبق ذكره فى السيف وأسمر ترس ومجنا أحدب وأصم ليس فيه خلل ومفلل يكسر حد النبال •

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٣٩ « آلوك يعنى ليس لك عندى وأبو عجل يعنى الثور وجلده يعنى به الترس •

(٤) السرين بلد وبطن حليه واد والأباء النصــب والعميم النبت المزدهر كان له عمـائم والسوائل أماكن سيل الماء •

(٥) المشب المسن فى قوة وصدت طريقه يعنى صدته عن الطريق وتصد عن تفرقن والشواكل ما يلى الورك من الجنب •

(٦) البرز ما برز من الأرض واليفاع ما ارتفع من الأرض والطراف بيت من جلد ورست فعل ماض بمعنى ثبتت •

ومن أهم الأسلحة الذاتيـة التى اعتمد عليهـــا الصعاليك فى حيـــاة الصعلكة ، العدو العجيب ، الذى يصفونه دائما بأنه لا تلحقه أو لا تسبقه الخيل ، وقد اتصف بهذه الصفة كثير جدا من الصعاليك كما مر فى تراجمهم وخاصة الجاهليين ، كالشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براقة ، وأشهر القبائل بكثرة عدائيها هذيل ، حيث نشعر من أخبارهم ان العدو كاد يكون شـيئا مألوفا فى حياتهم ، ويعلل السكرى هذه الظاهرة بأن هذيلا قوم رجالة ليسوا بأصحاب دواب (١) ، وهذا التعليل وان لم يكن كاملا ، بحيث يشمل تعليل هذه الظاهرة من نواحيها المختلفة ، الا انه يلقى ضوءا على جانب مهم من التعليل وهو أثر البيئة ، وأسلوب المعيشة الذى يشكل حياة المجتمعات ، ويضطرهـا الى صوغ حياتها لتتلاءم معه وتحقق كيانها وتواجه ظروفها على ضوئه .

ومهما تتعدد أسباب هذه الظاهرة يمكن فيما نعتقد ارجاعها الى ثلاثة أسباب ، أحدها التكوين الشخصى ، الذى يتيح لصاحبه أن يبرز فى ميدان تلك الظاهرة ، والذى أشار أبو خراش الهذلى الى شىء منه فى وصف ابنه خراش ، وتعليل سرعته الفائقة ، وعدم استطاعة مطارديه أن يلحقوا به ، حيث يقول عن ابنه هذا حين نجا بعدوه من مطارديه :

كانهـــم يشبثـــون بطـــائر خفيف المشاش عظمه غير ذى نحض(٢)

والثانى الوراثة . ولعل فى هذا تفسيرا لشيوع هذه الظاهرة فى هذيل مع ان كثيرا من القبائل تشاركها فى ظروف البيئة والمعيشة ، ومن ذلك ان أبا خراش كما سبق فى ترجمته كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل ، والثالث البيئة وأسلوب المعيشة ، حيث يضطر كل مجتمع الى صـوغ حياته على ضوء ما تتيحه له بيئته ومعيشـته وما تسمحان به كمـا يقـــرر ابن خلدون ذلك باستفاضة وتأكيد (٣) .

ويبدو بوضوح فى أخبار الصعاليك وأشعارهم ان العدو كان من أهم الأسلحة التى يعتمدون عليها ، والتى كانت تدفع معظمهم الى الاعتماد عـــلى نفسه فى الغزو أو الترصد ، بمفرده أو مع رفيق على الأكثر فى معظم الأحيان ثقة فى الاعتماد على هذه السرعة غير العادية فى العدو ، فيطمئن الى أن يغزو

---

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ والمشاش العظم اللين وهو من عظام الذبائح ما يمكن مضغة من رءوس العظام ومعناه مرونة المفاصل فى العدو ، والنحض اللحم يعنى أنه خفيف اللحم .

(٣) أنظر مقدمة ابن خلدون وخاصة الفصل الأول من الباب الأول بمقدمته من ص ٤٦ الى ٨٧ .

أو يترصد ، ولا يزعجه فيهما أن يكون وحده أو مع رفقة معدودة ، فان ثقته في ساقيه تجعل معه حصنا متنقلا يلوذ به فيحميه فى أحرج اللحظات فالعدو عند الصعاليك ملاذ أخير يلجأون اليه حينما تفل فى يديهم أسلحة الهجوم أو المقاومة كما عبر عن ذلك أبو خراش حيث يقول :

فان تزعمى أنى جبنت فاننى ... أفر وأرمى مـــرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لى مقـاتلا ... وأنجو اذا ما خفت بعض المهالك (١)

وقد تفنن العداءون من الصعاليك فى تصوير عدوهم وتشبيهه والاعتزاز به ، فنرى تأبط شرا الذى كان أحد ثلاثة لم تلحقهم الخيل قط وثانيهم الشنفرى وثالثهم عمرو بن براقة ، نجد تأبط شرا يعتمد على ساقيه هو ورفيقاه حينما حصرتهم بجيلة ، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلصهم ، وبعد نجاة تأبط شرا صور قصة نجاته هذه واصفا شدة عدوه ومطاردة أعدائه اياه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيـــلة اذ ... ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقى (٢)
ليلة صـــاحوا وأغـروا بى سراعهم ... بالعيكتين لدى معدى ابن براق (٣)
كأنما حثحثوا حصـــــا قوادمه ... أو أم خشف بذى شث وطباق (٤)

وبعد أن شبه سرعة عدوه بالنعام والظبية ، لم يرق له هذا التشبيه لأنه لا يعبر عن الحقيقة فهو أسرع من النعام ومن الظباء حقيقة فيما يعرفه من نفسه ، واذن فهذا التشبيه لم يؤد الغرض منه ، فبم يشبه عدوه اذن ؟ أغلب الظن انه لم يجد شيئا يشبه به عدوه فلجأ الى أسلوب الحقيقة ، ولئن كان الأدباء والبلغاء لا يكادون يختلفون فى أن أسلوب المجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة ، فانى لا أعتقد أن مجازا مهما يكن أبلغ من أسلوب الحقيقة الذى لجأ اليه تأبط شرا فى هذا السياق حيث يقول بعد الأبيات السابقة :

لا شىء أسرع منى ، ليس ذا عـذر ... وذا جنــاح بجنب الريد خفاق (٥)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ .

(٢) المفضليات ص ٢٨ وبجيلة القبيلة التى أسرته هو وصديقيه والقيت أوراقى استفرغت مجهودى فى العدو .

(٣) العيكتان موضع ومعدى للمكان أو مصدر ميمى وابن براقة عمرو وهو والشنفرى صديقاه اللذان أسرا معه .

(٤) حثحثوا حركوا وحص أحص ما تناثر ريشه والقوادم ما ولى الرأس من الريش يريد الظليم وهو ذكر النعام والخشف ولد الظبية والشث والطباق نباتان طيبا المرعى يشبه نفسه بالنعام والظبية فى العدو .

(٥) العذر جمع عذرة ما تدلى من ناصية الفرس على وجهها يريد الفرس وذا الجناح الطائر والريد أعلى الجبل ، وبعضهم يرى أن ليس أداة استثناء بمعنى الا الفرس والطائر والسياق يرجح أن ليس معناها لا أستثنى من الحكم السابق وهو لا شىء أسرع منى لا أستثنى فرسا ولا طائرا لأن الفرس ليس أسرع من النعام الذى أضرب عن تشبيه عدوه به قبل ذلك .

فقوله « لاشيء أسرع مني » في سياق اضرابه عن التشبيهين السابقين يجعل له مع كونه أسلوب حقيقة عادى جمالا ووقعا بالغى التعبير والايحاء ٠

وفي قصيدة أخرى يؤكد تأبط شرا انه يفوت الخيل الجياد بجريه فيقول :

لها الويل ما وجدت ثابتـــا ألف اليدين ولا زمـــلا (١)
ولا رعش الساق عنـــد الجراء اذا بادر الحمـــلة الهيضـــلا (٢)
يفوت الجيـــاد بتقريبه ويكسو هواديها القسطلا (٣)

ويعقد تأبط شرا مقارنة بينه وبين الذئب في معيشتهما وأســـلوب حياتهما وشدة عدوهما ، بل وفي هيكل جسميهما فيقول :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى ان شـــأننا قليل الغنى ان كنت لما تمول
كلانا اذا ما نال شـيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل(٤)

ويصف تأبط شرا أيضا تنقله بين الصحراوات والقفار المتباعدة بما فيها من مهالك ، في سرعة عجيبة لا تتاح الا للرياح ، فيقول عن نفسه :

يظل بموماة ويمسى بقفـــرة جحيشا ويعرورى ظهـور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شــده المتدارك (٥)

وأكثر من أظهر اعتزازه بعدوه وتفنن في تصويره أبو خراش الهذلي ، فهو مرة يلفت نظر زوجه التي أظهرت ازورارا عنه الى هذه الموهبة الرائعة في العدو فيقول :

أفاطم اني أسبق الحتف مقبـــلا وأترك قرني في المزاحف يستدمى(٦)

ويشرح أبو خراش هـذه الموهبة ، واصفا صـورة من صورها العجيبـة فيقسم انه ما رأى نعامة ولا حمار وحش ولا تيسا من الظباء أجود منه عـدوا حين يحدق به الخطر ، ويختار واحدا من الثلاثة ، وهو تيس الظباء أشـــهرها بالعدو فيقارن بينه وبين نفسه يقول :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وثابت اسمه والألف والزمل الضعيف الجبان ٠

(٢) الجراء الجرى والهيضل الجيش الكثير يعني أن الجرى لا يتعبه ، ولا تدهشـه كثرة الأعداء ٠

(٣) التقريب سرعة نقل القدمين في العدو والقسطل الغبار والهوادى الأعناق ٠

(٤) خزانة البغدادى ٩٣/١ والشـــطر الأول من البيت الأخير لسرعة العدو والثاني يعني الهزال لضيق المعيشة ٠

(٥) الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ ونسب هذا الشعر للسليك ٠

(٦) ديوان الهذليين ١٣٠/٢ والمزاحف أماكن الزحف والقتال ويريد بالشـــطر الأول أنه يسبق الذين يريدون قتله فينجو بعدوه والحتف الهلاك ويستدمى يريد تسيل دماؤه ٠

فوالله ما ربداء أو علج عـــانة أقب وما أن تيس ربل مصمم (١)

ويتابع حديثه عن هذا التيس من الظباء فيقول انه مهما تصـورنا من المفزعات التى تنفر الظبى وتزعجه ، ومن المعروف ان الظبى يكون فى أسرع حالات عدوه حين يخاف الخطر ومهما تصورنا من سيطرة الخوف والفزع عـــلى هذا التيس فى عدوه فلن يكون أسرع منى ، ومن الحالات التى يحيط الخطر فيها بالظبى حين يصطدم بفخ فينجو منه كقوله :

وبثت حبـــال فى مراد يروده فأخطـأه منها كفاف مخـزم (٢)

وحالة أخرى من حالات اهاجة الظبى ودفعه الى العدو الشـديد ، وهى تهافت الذباب اللاسع عليه ، حين ينوشه هذا الذباب بلسعه فينطلق مذعورا لا يلوى على شىء كأنه السهم فيقول أبو خراش عن ذلك :

يطيح اذا الشعراء صـاتت بجنبه كما طاح قدح المستفيض الموشم (٣)

وعن حالات ازعاج الظبى وعدوه الشديد ، احساسه بالصـــائد وكلابه وسهامه ، فينطلق عاديا وقد سد أذنيه كأنه أصلم لا يسمع شيئا ولا يصغى لشىء :

كأن الملاء المحض خلف ذراعـه صراحيـه والآخنى المتحـم (٤)
تراه وقد فات الرمـــاة كأنه أمام الكلاب مصغى الخد أصلم (٥)

يقول أبو خراش ان الظبى حتى فى هذه الحالات التى يكون فيها فى أقصى حالات نفوره وسرعة عدوه ليس بأسرع منى ٠

باجـود منى يوم كفت عاديا وأخطأنى خلف الثنية أسـهم (٦)

---

(١) ديوان الهذليين ١٤٥/٢ والربـداء النعامة الغبراء اللون وعلج حمار غليـظ والعانة القطيع من حمر الوحش والأقب ضامر البطن والتيس يعنى ذكر الظباء والربل نبات وروى رمل ومصمم من التصميم والاندفاع ٠

(٢) مراد يروده مسارح يسرح فيها والحبال حبال الفخ الذى ينصب للظبى ويغطى بالرمال والكفاف يعنى حبال الفخ ومخزم منظم يعنى أن الصائد بث الحبال والفخ ولكنها أخطأت القبض على يد الظبى ٠

(٣) يطيح يعنى يسرع فى عدوه والشعراء ذباب يلسع وصاتت صوتت فى جلبة والقدح السهم المستفيض الذى يفيض بالسهام يضرب بها والموشم ذو العلامات كالوشم ٠

(٤) يصف لون الظبى بأن خلف ذراعه بياض خالص وجســـمه ملون كالبرد ذى الألوان والمحض الخالص البياض والصراحى كذلك والآخنى نوع من الثياب والمتحم من الأتحمى نوع من البرود اليمانية المخططة ٠

(٥) مصغى حال مبنى للمجهول والأصلم مستأصل الاذن يعنى فى شدة اندفاعه كانه أصلم لا يصغى لما حوله ٠

(٦) الكفت الانقباض والسرعة وفيه معنى العود يعنى أسرعت عائدا ناجيا من مطاردى والثنية جزء من الجبل ٠

أوائل بالشـــد الذليق وحثـنى لدى المتن مشبوح الذراعين خاجم (١)

ومما ينبغى ملاحظته انهم يعتمدون على الصور الواقعية فى البيئة ، من المشاهد التى يرونها ويعانونها ويصارعونها ، أو يشاركونها صراع الحيـــاة وحتى حينما يلجأون الى المبالغة ، فان مبالغتهم مستمدة من البيئة وحيـــاتها كما رأينا فى تشبيه تأبط شرا عدوه بوفد الريح ، فانه وان كان فى هـذا التشبيه شىء من المبالغة ، الا انها مبالغة مستقاة من البيئة ومشاهدها ، فان الرياح وآثارها من المشاهد البارزة ذات التأثير فى حياتهم ، بل حتى الخيـال حين يلجأون اليه كما سيأتى فى خيالات الوهم ، نجد هذا الخيال نابعـــا من مخاوف البيئة الرهيبة ومجاهلها ·

ومن هذه البيئة يوالى أبو خراش وصف العدو وتصويره ، فيصف عدو ابنه خراش مشبها اياه بطائر خفيف اللحم مرن العظام كمـــا أسلفنـا (٢) ويحكى أبو خراش قصة نجاته من بنى نفاثة حين طاردوه بأجود ما لديهم من خيل ، وكيف أنه حين اشتم رائحة الموت ، وعلم انه لا نفع لسـيفه فى هـذا الموقف ، رفع ساقا يثق فيها كل الثقة ، وانطلق متخففا من كل شىء حتى ثيابه ، فكأنه حمار وحش ضامر البطن يقرب أرجاء الأرض بقوائمه تقريبا ومن هذا كله يعلم لائموه انه لم يترك صحبه عن طيب نفس ، وتعلم لائمته انها لو رأت هذا المشهد وما فيه من روع وفزع لبالت على نفسها خوفا ورعبا فيقـــول :

لما رايت بنى نفاثة أقبـــلوا يشـلون كل مقلص خناب (٣)
فنشيت ريح الموت من تلقائهم وكرهت كل مهند قضـــاب (٤)
ورفعت ساقا لا يخاف عثارها وطرحت عنى بالعداء ثيابى (٥)
اقبلت لا يشتد شـــدى واحـــد علج اقب مسير الأقراب (٦)
الله يعلم ما تركت منبهـــا عن طيب نفس فاسالوا أصحابى (٧)
لا مت ولو شــــهدت لكان نكيرها ماء يبل مشافر القبقـــاب (٨)

---

(١) أوائل أطلب النجاة بالشد وحثنى يعنى رجلا يعدو خلفه ومشبوح الذراعين عريضهما والخلجم الطويل والمتن يعنى ظهره ·

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ ·

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٨ ويشلون يدعون والمقلص الفرس الطويل القوائم الضامر البطن والخناب الطويل ·

(٤) نشيت شممت والمهند السيف والقضاب القاطع يعنى لم يعد السيف مجديا ·

(٥) العراء الصحراء يعنى انطلقت عاديا وأثناء ذلك طرحت ثيابى حتى لا تثقلنى ·

(٦) العلج حمار الوحش والأقب الضامر ومسير الأقراب يعنى فى خاصرته خطوط ·

(٧) منبه يبدو أنه رفيق اضطر الى تركه لدى الأعداء ·

(٨) مشافر القبقات يعنى صوت البول فى الفرج ·

وحين أحس أبو خراش الموت على أثر لدغ الحية له ، استطاع أن يغالب حب الحياة ، واستطاع أن يعزى الناس عن موته بأن المنايا متربصات بكل انســان ، تطلع له من حيث لا يحتسب ، ولكن شيئا واحـدا لم يستطع العزاء أن يخفف من شعور الأسى فى نفسه لفقده ، هذا الشىء هو ســاقه التى سيفقدها رفاقه من الصعاليك فيقول :

لعمرك والمنايا غالبـــات على الانسان تطلع كل نجد (١)
لقد اهلكت حية بطن أنف على الأصحاب ساقا بعـد فقـد (٢)

ونجد معانى الصعاليك وتشبيهاتهم تتفق مع معلومات العرب وخبرات مجتمعهم عن البيئة ، فحمار الوحش الذى تردد تشبيه الصعاليك سرعة العدو به ، نجد العرب يضربون به المثل فى السرعة ، فيقولون « أسرع من العير (٣) وكذلك يضرب العرب المثل بالجراد فى السرعة (٤) ونجد الصعاليك يشبهون العدو بالجراد فيقول أبو خراش :

وعادية تلقى الثياب وزعتها كرجل الجراد ينتحى شرف الحزم (٥)

وكذلك شبه الصعاليك سرعة العدو بالعقاب ، فهذا أبو خراش يشبه سرعته بعقاب منقضة على فريستها ، ولكنه فى هــذه المرة مندفع لقتال أعدائه وليس هاربا منهم كما صور فى بعض ما سبق ويقول :

كأنى اذ عدوا ضمنت بــزى من العقبان خائتة طلوبـا (٦)
جريمة ناهض فى رأس نيق ترى لعظام ما جمعت صليبا (٥)
رأت قنصا على فوت فضمت الى حيزومها ريشا رطيبا (٨)

وأما الشنفرى فيرى فى عدوه غناء له عن كل شىء ، حتى عن الرفقة والخلان ، فان فى عدوه غناء وشفاء لنفسه من كل شىء فيقول :

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٧١ وتطلع كل نجد يعنى لا يعجزها صــعود مرتفع مهما علا .
(٢) بطن انف هو المكان الذى لدغته فيه الحية وبعد فقد أصله بعد فقدى يعنى بعد موته سيفتقدون ساقه العداءة .
(٣) مجمع الأمثال ١/٣٥٠ .
(٤) أنظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٣٥٤
(٥) ديوان الهذليين ٢/١٣٢ وتلقى الثياب يعنى تتخفف من لبسها لسرعة العدو وينتحى يقصد والشرف والحزم المكان الغليظ .
(٦) المصدر السابق ٢/١٣٣ والبز السلاح وخائتة منقضة وطلوبا طالبة صيد يعنى كنت فى سلاحى كالعقاب .
(٧) جريمة ناهض كاسبة فراخ وصف للعقاب والنيق رأس الجبل والصليب يريد بقايا اللحم على العظم يعنى عقابا كثيرة الصيد لفرائسها .
(٨) القنص الصيد وعلى فوت يعنى سابقا لها يكاد يفوتها والحيزوم الصدر يعنى تهيأت للطيران والانقضاض .

ألا لا تعـــدني ان تشكيت خلتي　　　شفاني بأعلى ذى البريقين عدوتي (١)

ويصف الشنفرى هذا العدو الذى يشفي نفسه من كل شيء بأنه حين يعدو لا يعوق قدميه شيء ، بل ان الحجارة التى تعترض رجليه تتطاير فيقدح منها الشرر ويفل حدها كما يقول :

اذا الأمعز الصـــوان لاقى مناسمي　　　تطايـــر منه قادح ومفلل (٢)

ويصف الشنفرى صورة من صور هذا العدو ، ووجها من وجوه اعتماد حياته عليه ، فيصف مسابقة بينه وبين القطا ، فى الوصـــول إلى بقعة ماء مما تخلفه الأمطار والسيول في الصحراء ، كأنها الحوض ، فيقول ان سرب القطا الذى جاء من سفر بعيد ليشرب من هذا الحوض الطبيعى وصل بعد أن شربت فلم أترك له الا سؤرا قليلا ، ظل يتزاحم عليه ، ويكبو الى قعره بحواصله وذقونه لضآلة ما فيه من ماء فيقول :

وتشرب أسآرى القطا الكدر بعـــدما　　　سرت قربا أحناؤها تتصلصل (٣)
هممت وهمت وابتـــدرنا وأسدلت　　　وشمر منى فارط متمهـــل (٤)
فوليت عنها وهى تكبو لعقـره　　　يباشره منها ذقون وحوصل (٥)

وقد تبدو مثل هذه الصورة غريبة على غير الصعاليك ، بل قـــد نراها مسرفة فى المبالغة والبعد عن الواقع ، ولكننا لو أحسنا تصور حياة صعلوك يتجول فى أماكن ومجاهل متبـــاعدة فى الصـــحراء ، وتصـــورنا مدى حاجة رجل هذه حاله الى الماء ، لأمكننا أن نتصور انه وان كان في وصفه سرعة العـــدو بعض المبالغة ـ مع جواز ألا تكون هناك مبالغة ـ الا أن فى ربط حاجته الى الماء بالقطا غاية الواقعية التى لا يبلغها الا من يعانيها معاناة حقيقية فى حياته كالصعاليك ، فالصعلوك المتنقل بين الصحراوات لا يعرف مكانا للماء ، ولا يجد وسيلة لهذه المعرفة الا الاستدلال بالمخلوقات الطبيعية فى الصحراء ، فهـــو يعرف من تجربته ان سرب القطا يبحث عن الماء ، فيجب أن يتبعه بأقصى ما يمكنه من سرعة حتى لا يغيب عن بصره ، ولو تأملنا الصـــورة لعلمنا ان المسابقة بينه وبين القطا انما بدأت حينما أرخى القطا أجنحته أثناء الطيران (٦)

---

(١) المفضليات للضبي ١١٢ والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والعدوة المرة من العدو

(٢) اللامية ـ والأمعز المكان الصلب والصوان حجارة والمنســم أصلا خف العبير يعنى قدميه والقادح الشرر والمفلل المكسر حده ·

(٣) من اللامية ـ والسؤر بقية الشراب والقرب السير الى الماء على بعد ليلة والأحناء جمع حنو الجانب ·

(٤) أسدلت أرخت جناحيها والفارط المتقدم والمتمهل المتأنى يعنى سبقها ولم يجهد نفسه فى العدو ·

(٥) تكبو تميل والعقر يعنى شربت قبلها فلم أترك لها الا سؤرا تكبو اليه لقلته ·

(٦) عند قوله « وأسدلت » يعنى وأرخت أجنحتها ·

وهذه علامة تحديد هدفه وعثوره على الماء فالصورة فى تفصيلها كما توحيه ألفاظها ان الشنفرى بينما كان يبحث عن الماء نظر فوجد سرب قطا يبدو أنه قادم من بعيد باحثا عن الماء ، ونظر فوجده أرخى أجنحته مما يدل على انه رأى ماء فى مكان قريب ، ويتبع ارخاء الأجنحة انه قلل من سرعته ، لأنه حدد هدفه وسيستعد للنزول ، هنالك ينطلق الشنفرى الذى لم تلحقه خيل قط مباريا القطا ومن هذا نعلم انه لا مبالغة ولا خيال فى الصورة فيما يتعلق بالعدو ، ولكنه التصوير الذى لا يحسنه الا الصعاليك عن حياتهم ، والشنفرى يحدثنا عن ان المسافات بين الأماكن تكاد تمحى ، وان الأماكن مهما تباعدت يكاد يختلط بعضها ببعض حينما يحرك ساقيه فيقول :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته   بعاملتين ظهره ليس يعمل (١)
فألحقت أولاه بأخراه موفيا   على قنة أقعى مرارا وأمثل (٢)

وحبيب الأعلم الهذلى وقع فى مأزق اضطره الى الفرار بأقصى ما لديه من سرعة ، حيث تعرض لمطاردة عنيفة تزعمها عداء يدعى جذيمة العبدى ، ويصف الأعلم للائمته عدوه ، مشبها اياه بالنعامة ، معتذرا بأن الأعداء جعلوه يتصور ان حروف الجبل وهو يعدو سيوف مسلولة عليه ومن هذا الشعر قوله :

كرهت جذيمة العبدى لما   رأيت المرء يجهد غير آلى (٣)
فلا وأبيك لا ينجو نجائى   غداة لقيتهم بعض الرجال (٤)
كأن ملاءتى على هزف   يعن مع العيشة للرئال (٥)
على حت البراية زمخرى   السواعد ظل فى شرى طوال (٦)
كأن جناحه خفقان ريح   يمانية بربط غير بالى (٧)
بذلت لهم بذى شوطان شدى   ولم أبذل غداتئذ قتالى (٨)

---

(١) من اللامية البيت الرابع والستون والخرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستوا ء والعاملتان رجلاه وظهره ليس يعمل يعنى انه مكان خشن غير مطروق ، ولايتسنى لغيره السير فيه

(٢) الضمير فى أولاه للخرق يعنى قطعته مسرعا مشرفا والقنة أعلى الجبل مكان الترصد كالمرقبة والأقعاء جلسة خاصة وأمثل يعنى ينتصب قائما .

(٣) ديوان الهذليين ٢/٨٣ وجذيمة هو الذى طارد الأعلم والشطر الثانى يعنى أن عدوه لم يدخر جهدا فى مطاردته .

(٤) يخاطب المرأة اللائمة يعنى ليس فى أعدائه من يعدو عدوه .

(٥)ملاءتى تثنية ملاءة يعنى جانبى ردائه والهدف ذكر النعام يريد أن ثوبه أصبح حوله كجناحى الظليم ويعن يعترض والرئال فراخ النعام .

(٦) حت البراية ضئيل الجسم يعنى هو سريع على ضآلته وزمخرى أجوف عظام السواعد اشارة الى زعم العرب أن عظام النعام جوفاء لا مخ فيها والشرى نوع من الشجر يريد أن النعام افزعه منظر طول الشجر فعدا .

(٧) الربط مما يلبس وغير بالى يعنى هو جديد .

(٨) شدى عدوى يعنى بذ لت عدوى ولم أبذل غداتئذ قتالى .

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستلال (١)

وصخر الغى يشبه سرعة العدو بحمار وحش ذى قوة وصراع فيقول :

ويعدو كعدو كدر ترى بفائله ونساه نسوفا (٢)

والأعلم الهذلى له قصيدة كاملة فى قصة مطاردة أعدائه السابقة ، مشبها العدو بسرعة حمر الوحش وعدو النعام ، وتعتبر القصيدة من أدق الشعر وأعمقه فى وصف الطبيعة وحيوانها ، وما يكتنف هذه الحيوانات وحياتها ومعيشتها من جوانب لا يحسها الا الصعاليك ، لأنهم يعيشون معها ، ويشاركونها ظروف البيئة وجفافها وقسوتها ، فى أوثق ما تكون الشاركة ، وأقرب ما يكون الجوار وأولها :

لما رأيت القوم بالعلياء دون قدى المناصب (٣)

وحاجز الازدى يتعرض أيضا لمأزق لا ينجيه منه الا العدو ، حين أحدق به بنو عامر فعدا عدوه الذى لا يبارى ، وقد شبه عدوه بعدو ظبى طارده صقر يريد أن ينقض عليه ، وبهذا العدو استطاع أن ينجو من قوم حرصوا على الايقاع به فيقول :

عشية كادت عامر يقتلوننى لدى طرف السلماء راغية البكر
فما الظبى أخطت خلفه الصقر رجلها وقد كاد يلقى الموت فى حلقة الصقر
بمثل غداة القوم بين مقنع وآخر كالسكران مرتكز يفرى (٤)

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أنجاه عدوه فيها ، ولم تكن أيضا المرة الوحيدة التى وصفها وتحدث عنها بشعره ، ففى مرة أخرى كادت خثعم تفتك به لولا أن أنقذته ساقاه ، وقد تبعه بعض فرسان خثعم فلم يلحقوه ، ثم قال حاجز عن هذه الحادثة مشبها عدوه هذه المرة بثلاثة حيوانات مشهورة بالعدو :

وكانما تبع الفوارس ارنبا او ظبى رابية خفافا اشعبا
وكانما طردوا بذى نمراته صدعا من الأروى أحن مكلبا
أعجزت منهم والأكف تنالنى ومضت حياضهم وآبوا خيبا (٥)

ومن هذا كله نعلم مدى أهمية العدو فى حياة الصعاليك ، ومدى حاجتهم اليه كسلاح أساسى يعتمدون عليه ، بل كأهم سلاح يطمئنون الى الاعتماد عليه

---

(١) عرفط الزوراء مكان ويودى على يعين على ظن المكان سيوفا مسلولة عليه .
(٢) ديوان الهذليين ٢/٧٦ والكدر الغليظ والفائل عرق فى باطن الفخذ الى الساق والنسوف آثار من عض .
(٣) أنظر ديوان الهذليين ٢/٧٧ — ٨٢ .
(٤) مهذب الأغانى ١/٩٣ .

في كل الظروف ، وخاصة في الظروف التي لا تجدي فيها أسلحة القتال ولا سواعد المقاتلين ٠

ومن هذا نعلم أيضا ان حاجتهم الى العدو لم تكن لمجرد النجاة من الأعداء بل لنواحي أخرى في معاشهم وشرابهم أيضا ٠

ولكن الذي يلفت النظر ان ظاهرة العدو كانت في الصعاليك الجاهليين دون الاسلاميين ومع افاضة الروايات والأخبار في أحاديث العدائين في الجاهلية من الصعاليك ، نجد الروايات تسكت عن حديث العدو بالنسبة لصعاليك الاسلام ، ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة لو كانت موجودة كظاهرة لدى الاسلاميين لتحدثت عنها الروايات ٠

ويمكن تعليل ذلك بأن حياة صعاليك الجاهلية تختلف وخاصة من حيث الرخاء والفقر الشديد عن الاسلاميين ، فالحاجة الشديدة في الجاهلية ، جعلت الصعاليك يقضون حياتهم كلها أو معظمها في الصحراوات مستغلين كل امكانياتهم الجسمية ومنها العدو في سبيل دفع الجوع والمخامص ، والانسان ابن عوائده كما يقول ابن خلدون ، أما صعلوك الاسلام فانه وان كان فقيرا الا انه لم يبلغ حد الجوع الذي تحدث عنه الجاهليون كما قلنا حينذاك ، ومن ثم فلم يضطر الى مثل الجهد المضني الذي كان يبذله الجاهليون للحصول على مجرد لقمة العيش ، ومن ثم أيضا لم يضطر الى استغلال امكانياته الجسمية التي قد تكون لديه اذا حاول استغلالها ، فالفارق بينهما الاضطرار وعدمه ، ومن الواضح كما رأينا ان صعاليك الجاهلية لم يتخذوا العدو ترفا ولا فخرا وانما اقترن دائما بالاضطرار وأحرج اللحظات في حياتهم ٠

٧ ـ الأماكن

والصعلكة في طابعها العدائي نوع من الحرب ، وصورة من صورها ولذلك نجد الصعاليك يهتمون باختيار الموقع الذي يزاولون منه عدوانهم بحيث يتيح لهم نجاح الهجوم والدفاع معا كما يختار القائد موقعه في الحرب ٠

وأهم المواقع التي يتحدث عنها شعرهم ، والتي يبدو من وصفها حرصهم العامد على الدقة في اختيارها « المراقب » التي تشبه الكمين ، فالمرقبة مكان حصين يجتهد الصعلوك في حسن اختياره ، بحيث يحقق له غرضين ، أحدهما مراقبة الطريق والمكان المحيط به فيكتشف السائرين في الطريق أو الطرق المحيطة به ، والآخر حصانة المكان ، بحيث يتيح له التخفي عن الأعين ، ويتيح له الدفاع عن نفسه ان أحس الخطر ، ففي مثل هذا المكان يرقب صيده من

الناس والحيوان وينقض عليه حينما يرى الفرصة سانحة ، وفى مثله أيضا يخفى ، ثم يختار الوقت الملائم لغزواته الخاطفة ، وغاراته المفاجئة ، ثم يعود الى حصنه ، أو يتخذ حصنا مشابها .

ونظرا لان الهدف من اختيار المرقبة واحد ، لذلك نرى وصفهم لها متقاربا ويحمل الصفات الأساسية التى يطلبونهـا فى اختيارها ، فعمرو بن عجـلان يصف مرقبته بأنها مرتفعة شماء حتى ان الطرف يحار فى ارتفاعها ، ونفهم من اختيار هذا المرتفع الشاهق انه يرى كل الاماكن المحيطة ، وانه يضمن عدم استطاعة الاعداء أن يصلوا اليه ، ومن يجازف منهم بالصعود فان سهام الصعلوك تصرعه قبل أن يبلغه بأمد طويل ، ويصفها عمرو أيضا بأنها فى موضـع بارز مشرف من الجبل ، فهى رغم انها تتيح لمن فيها الاختفاء الا أن موقعها يمكن المختفى من المراقبة الكاملة لبروزها ، ويقول انه يقيم فيها وقتا طويلا آمنا متمكنا من استقراره كأنه قبال النعل بين الاصبعين ، ثم ينطلق فى أوقاته المختارة الى الأماكن التى يريدها فيقول :

ومرقبة يحار الطرف فيهـا ... الى شماء مشرفة القذال (١)
أقمت بريدها يوما طويلا ... ولم أشرف بها مثل الخيـال (٢)
ومقعد كربة قد كنت فيهـا ... مكان الاصبعين من القبال (٣)
فلست لحاصـن ان لم ترونى ... ببطن صريحة ذات النجال (٤)
وامى قينة ان لم ترونى ... بعورش تحت عرعرها الطوال (٥)

والشنفرى يصف مرقبته هذا الوصف أيضا ، فيقول انهـا عالية فى الذروة ، لا يستطيع أن يبلغها الا القوى الصلب وانه قضى فيها الليل عاقدا ذراعيه أمامه منحنيا عليهما متلفتا حوله كأنه الأفعى فيقول :

ومرقبة عيطاء يقصر دونها ... أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف
نميت الى أعلا ذراها وقـدنا ... من الليل ملتف الحديقة أسدف
فبت على حد الذراعين محـدبا ... كما ينطـوى الأرقش المتقصف (٦)

وأبو خراش الهذلى يصف مرقبته أيضـا بأنها مرتفعة تتيح له الاشراف وانها فى حرف ناتىء من الجبل كأنه حد الفأس ، وفى هذا الموضع صنع مظلة من خشب ولكنها أصبحت شبه منهدمة ، حيث سقط أحد جانبيها وبقى الآخر

---

(١) ديوان الهذليين ١١٩/٣ وشماء عالية والقذال الرأس .
(٢) الريد الحرف البارز من الجبل والشطر الثانى يعنى أقمت منكبا غير ظاهر .
(٣) معناه توسطتها كما يتوسط قبال النعل الأصبعين .
(٤) الحاصن المرأة العفيفة وصريحة موضع والنجال النز .
(٥) قينة أمة وعورش موضع .
(٦) مهذب الأغانى ٩٥/١ والمشفف الضعيف وأسدف من السدفة وهى الظلام محدبا منحنيا

قائما ، ولكن أباخراش يشير خـــلال وصفه اشارة مهمة الى هدفه من اختيـــار مرقبته فى هذا المكان ٠ وهو أن تكون مشرفة على طريق عـــام يتصل مرور الناس فيه ، وهذا الطريق العام لا يخلو من صـــيد لأبى خراش فى تجارة أو ظعينة أو قافلة ، فيقول :

لست لمرة ان لم أوف مرقبـــــة … يبدو لى الحرف منها والمقاضيب (١)
فى ذات ريد كذلق الفـــأس مشرفة … طريقها سرب بالنـــاس دعبـوب (٢)
لم يبق من عرشــــها الا دعامتها … جذلان منهدم منها ومنصوب (٣)

والأعلم الهذلى يصف تنقله بين قمم الجبال حين يغشاه الليل فيقول :

دلجى اذا ما الليل جن على المقرنة الحباحب (٤)

وكما وصف أبو خراش مرقبته ، كذلك نجد مثل هذا الوصف فى مرقبة تابط شرا ، فهـــو يصفها بأنهـــا بارزة ناتئة ، ويشبه حدها بسنان الرمـــح ويصفها بالارتفاع الشاهق ، وانها شديدة الحـــرارة فى الصيف ، لأن ظلتها لم تعد صالحة للتظلل ، فبعضها تهدم ، وبعضها باق ولكنه غير مغن ، وانه وصحبه يتخذون منها مرقبا وحصـــنا ، وان كان هو أسرعهم فى الصعود اليها فيقـــول :

وقلة كسنان الرمح بارزة … ضحيانة فى شهور الصيف محراق (٥)
بادرت قنتها صحبى وما كسلوا … حتى نميت اليهـــا بعـد اشراق (٦)
لا شىء فى ريدهـــا الا نعامتها … منهـــا هزيم ومنهـــا قائم باق (٧)

ويروى القالى قائلا : قال تأبط شرا يصف قلة جبل :

نهضت اليها من جثوم كانها … عجوز عليها هدمل ذات خيعـل (٨)

---

(١) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ ومرة أبوه لم أوف لم أشرف والمقاضيب مواضع علف الدواب. ورويت الأبيات لعروة أخيه ٠

(٢) الريد الحرف الناتىء من الجبل وذلق حد وسرب شائع كثير الســـير فيه ودعبوب موطؤ مطروق ٠

(٣) العرش المظلة وجذلان عودان أحدهما منهدم والآخر لم يتهدم بل قائم منصوب ٠ وانظر الحيوان ٤٥١/٤ ٠

(٤) ديـوان الهذليين ٨٢/٢ والمقرنة التى دنا بعضهـــا من بعض من الجبـــال والحباحب الصغار منها ٠

(٥) المفضليات ٢٩ والقلة أعلى الجبل وضحيانة بارزة للشمس ومحراق تحرق من فيها لشدة حرها ٠

(٦) القنة والقلة واحدة ، ولميت صعدت يعنى سبقت صحبى ٠

(٧) الريد أعلى الجبل والنعامة المظلة من خشب وهزيم متكسر يعنى بعضها تهدم وبعضها باق

(٨) الأمالى ٣٨/١ والهدمل الثوب الخلق ٠

ومما سبق نرى انهم يكادون يتفقون على أوصاف معينة للمراقب التى يختارونها،ويوحى حديثهم عنها بمدى الجهد الذى يعانونه فى الصعود والنزول الى هذه المرتفعات الشاهقة ، وما فى حياتها من صعوبه وقسوة لا يتاح التغلب عليها الا لمن وهب قدرة ونشاطا غير عاديين ، ومن الحق ان نقول ان الذين تحدثوا عن المراقب هم العداءون ، وهذا يفسر القدرة على الصعود والنزول الدائمين فى هذا العدو الشديد ، وقد لا يتصور غير الصعاليك ايضا مدى ما فى هذا الجهد العنيف ، فالشخص الذى يتاح له أن يصعد جبلا مرة فى حياته يعد حدثا فى حياته لا ينسى ، فكيف بشخص حياته صعود ونزول فى شواهق القمم من الجبال ، وهذا بالتالى يفسر ما ينبغى أن نثبته من ان الذين تحدثوا عن المراقب هم صعاليك الجاهلية ، أما صعاليك الاسلام فانهم وان تحدثوا كثيرا عن التنقل والصحراوات والايغال فى الاماكن الا انهم لم يتحدثوا عن المراقب ، ويمكن تعليل ذلك بأن المراقب فى صورتها تلك لا يقوى على ارتيادها الا الذين أوتوا نشاطا جسميا غير عادى كالعدائين ، وصعاليك الاسلام كما لاحظنا فى الفصل السابق لم يكن العدو صفة من صفاتهم ، ويمكن ربط هذا كله بما لاحظناه أيضا عند الحديث عن آثار الفقر والجوع ، من أن صعاليك الاسلام وان كانوا فقراء ، الا أن فقرهم لم يبلغ بهم حد الجوع الذى عاناه الجاهليون ، والذى ترتبت عليه أشياء كثيرة فى حياتهم ، منها ملازمة الصحراء والمخاطر ، وهذه الملازمة أثمرت فى حياتهم الاعتماد على العدو ، وهذا العدو ونشاطه يسر لهم ارتياد قمم الجبال واتخاذ المراقب ·

ومهمة المراقب فى حياتهم كما قلنا الترصد والتخفى ، وكذلك حين ينزلون منها يحرصون على هذا المعنى ، فيتخيرون مسالكهم فى دقة وعناية بالغة ، ولذلك نجدهم يؤثرون الطرق الملتوية والتى تدنو من أماكن تتيح لهم النجاة اذا أحدق بهم خطر ، كما وصف صخر الغى طريق عودته من الماء بعد ملء قربته بأنه آثر طرقا ملتوية خلف الجبل حيث يقول « تيممت أطرقة أو خليفا » (١) · وأما تأبط شرا فانه يرسم صورة للطريق الذى يسلكه وهو أن يكون متعرجا أو ملتويا كأنه خياطة الثوب ، ويصفه أيضا بأنه لا يخلو من منحنيات وصخور ، وانه لطول تجربته أصبح يهتدى الى مثل هذه الطرق التى تحقق له ما يريد ، وهو الأمن فى وصوله الى الماء فيقول :

وشعب كشل الثوب شكس قطعته   مجامع صوحيه نطاف مخاصر (٢)
به من سيول الصيف بيض أقرها   جبار لصم الصخر فيه قراقر (٣)

(١) سبق فى فصل العدو ·

(٢) الاصمعيات ١٣٥ والشعب الطريق فى الجبل والشل الخياطة وشكس صعب وصوحاه جانباه ونطاف مخاصر بقع ماء بارد ·

(٣) بيض يعنى لون الغدران وجبار يريد سيلا مهلكا وقراقر يعنى صوت تحدر السيل على الصخور الصماء ·

تبطنته بالقوم لم يهدني له دليل ولم يثبت لى النعت خابر (١)
به سملات من مياه قديمة مواردها ما ان لهن مصـــــادر (٢)

ويصف الشنفرى طرقه التي يسلكها بأنها فى وديان نائية ملتوية ، وانها كثيرة الأشجار مما يتيح له أن يتخذ منها كمينا يختفى فيه أو يترقب منـــه فيقـــول :

وواد بعيد العمق ضـــنك جماعه بواطنه للجن والأسد مألف
تعسفت منه بعد ما سقط النـــدى غما ليل يخشى غيلها المتعسف (٣)

ومن المعالم البارزة بصفة عامـــة فى شعر الصعاليك كثرة الحديث عن الأماكن ووصفها والتنقل بينها ، ولذلك كأن شعرهم من المصادر الأساســـية التى اعتمدت عليها معاجم الأماكن (٤) ، ومن هذه الزاوية يعتبر شعر الصعاليك من أكثر الشعر حديثا عن الطبيعة فى مختلف مشـــاهدها ، ومن حديث الصـــعاليك عن الأماكن نشعر انه تكـــاد تنعدم الفواصل بين الأماكن عندهم وانهم يشعرون كأن الأرض كلها ملك لهم ، وانه لا يعجزهم عن التنقـــل بين آمادها مهما تباعدت شىء ، فالشنفرى بصف لنا حولة من جولاته فى الصعلكة فيعدد خمســـة أماكن فى بيتين اثنين ، بعضهـــا جبال وبعضها صـــحراوات فيقـــول :

أمشى بأطراف الحماط وتارة تنفض رجلى أسبطا فعصوصرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجـــل هنالك يلقى القـــاصى المتغورا (٥)

على اننا ينبغى أن نلاحظ ان هذه الأماكن على كثرتها لا يسوقها على انها مقام أو مستقر له ، وانما معبر يجتازه الى غيره من الأماكن حيث عبر بقوله « امشى بتشديد الشين » وقوله « تنفض رجلى » (٦) ومثل ذلك يقوله عبدة بن الطبيب عن أماكن كثيرة يعرفها ، وله فيها ذكريات :

قفا نبك من ذكرى حبيب وأطـلال بذى الرضم فالرمانتين فاوعـــال
الى حيث سال القنع من كل روضة من العتك حواء المذانب محـلال (٧)

---

(١) تبطنته دخلت بطنه والنعت الوصف وخابر مختبر ٠
(٢) سملات بقايا ٠
(٣) مهذب الأغانى ١/٩٥ والغملول الوادى الضيق كثير الشجر وعسف عن الطريق مال وعدل ٠
(٤) أنظر للمثال معجم ما استعجم للبكرى فى التعريف بالأماكن والمواضع ٠
(٥) معجم البكرى ٣/٩٤٦ والحماط وأسبط وعصوصرا وذات الرس وبطن منجل مواضع ٠
(٦) بتشديد الشين فى أمشى وتشديد الفاء فى تنفض ، وتنفيض الرجل معناه آنه سائر ماشيا ٠
(٧) معجم البكرى ٢/٦٥٥ والرضم والرمانتان وأوعال والقنع والعتك أماكن ٠

وكذلك يقول توبة بن الحمير :

عفــت نوبــة من أهلهــا فستورها   فذات الصفيح المنتضى فحصيرها (١)

على ان الصعاليك يرون فى الأماكن نفسها من حيث بسطتها وتباعدها مهربا ومنجاة لهم من كل ما يخافونه ، ومن كل ما يضيقون به كما يقول مالك ابن الريب :

فانى ســوف يكفينيــك عــزمى   ونص العــير بالبــلد القفار (٢)

ويقول مالك أيضا حينما ضاق بتعقب الحجاج الثقفى له ان الأرض واسعة أمامه ، وانه لمشوق الى الصحراء ، بل ان ناقته لعطشى الى ريح الفــلوات فما مقامه فى أرض لا يجد فيها حريته ، وانه لقادر على أن يجعل من كل البلاد بلدا له ؟ فيقول :

أن تنصــفونا يال مروان نقترب   اليكــم والا فاذنوا ببعــاد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا   بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عــن دار المذلة مذهب   وكــل بــلاد أوطنت كبلادى (٣)

ومثل هذا المعنى نجده فى لامية الشنفرى (٤) ، وتأبط شرا أيضا يهددهم بتركهم الى آفاق رحبة فسيحة ، ثم لا يستطيعون العثور عليه بعد ذلك أبدا فيقــول :

انى زعيم لئن لم تتركوا عذلى   أن يســأل الحى عنى أهــل آفاق
أن يسأل القوم عنى أهل معرفة   فلا يخبرهــم عــن ثابت لاقى (٥)

ومهما تكن الأماكن التى يتحــدثون عنهــا فانها أماكن مقفرة مخوفة لا يستطيع أن يجوبها غيرهم ، ففى مثلها يجدون أمنهم كما يقول عــروة ابن الورد :

وغــبراء مخش رداهــا مخــوفة   أخوها باسباب المنايا مغرر
قطعت بها شــك الخلاج ولم اقل   لخبــابة هيــابة كيف تامــر (٦)

---

(١) المصدر السابق ٢/٤٥٣ ونوبة وستور والصفيح وحصير أماكن .

(٢) مهذب الأغانى ٥/١٠ والعيس الابل .

(٣) الكامل للمبرد ١/٣٠٢ وصوادى عطاش .

(٤) الأبيات الثالث والرابع والخامس .

(٥) المفضليات ٣٠ وثابت اسمه ولاقى من اللقاء يعنى مهما سألوا فلن يجدوا من يقول لهم لقيته .

(٦) ديوان عروة بن الورد ٩٦ والتاء فى خبابة وهيابة للمبالغة وأصلهما خباب وهياب أى ضعيف .

ويقول عبيد بن أيوب عن نفسه :

اخو فلوات صاحب الجن وانتحى   عن الأنس حتى قد تقضت وسائله (١)

وظروف الصعاليك وحيـــاتهم وآمالهم تهيىء لهم التنقل الدائم ، فهم لا يملكون شيئا ثابتا يحرصـــون عليه فيبقون فى ملازمته ، بل لا يملكون فى اغلب الأحيان شيئا ، واضطرارهم الى أن يحصلوا على معاشهم ، وعدم وجود مورد رزق لهم فى أماكنهم ، كل ذلك يجعل الرحلة والتنقل شيئا ميسورا لهـم وهذا مالك بن الريب يدع موطنه فى الحجاز ويرحل مع أحد الولاة الى خراسان لمجرد أن يحصل هناك على معاش ، وقد ترك فى سبيل ذلك موطنه وأهـــله ولم يرده حتى بكاء ابنته وهى تودعه (٢) ، بل يشعرنا كثير من شـــعرهم ان التنقل هو الهدف الذى يملأ نفوسهم ، وان الاقامة شىء عابر فى حياتهم كما يقول الشنفرى :

كأن قد فلا يغررك منى تمكثى   سلكت طريقا بين يربغ فالسرد (٣)

والسليك بن السلكة يخشى فى مرارة وألم أن يدركه الموت دون أن يروى ظمأه الى غارات كثيرة يبعد بها فى أماكن نائية حتى يبلغ أعماق اليمن من مأرب وبلاد الأزد فيقول :

امعتنقى ريب المنون ولم اروع   عصـــافير واد بـــين جاش ومارب
واذعـــر كلابا يقود كلابه   ومرجة لمـــا التمســـها بمقنب (٤)

ومثل هذه الأمنية يحمل الشنفرى حيث يقول :

ألا تزرنى حتفتى أو تلاقنى   امشى بدهر او غـــداف فنورا (٥)

وأما عروة بن الورد فقد كانت خيله فى الصعلكة تجوب أرجاء نجد والحجاز كليهما كما يقول :

ويوما على غارات نجد واهـــله   ويوما بارض ذات شث وعرعر
يناقلن بالشمط الكرام اولى النهى   نقاب الحجاز فى السريح المسير (٦)

وكذلك يقول أبو النشناش ، انه يرى فى مجاهل الصـــحراء خير ميدان لركائبه فيقول :

---

(١) كامل المبرد ٢٠٠/١ .
(٢) أنظر مهذب الأغانى ١٠/٥ .
(٣) معجم البكرى ١٣٦٢/٤ .
(٤) أنظر معجم البكرى ١١٧٠/٤ وجاش ومارب بلدان باليمن وكذلك . سرجة والمقنب جماعة الخيل .
(٥) معجم البكرى ٥٥٩/٢ ودهر وغداف ونور مواضع من ديار بنى سلامان أعدائه .
(٦) الاصمعيات ٤٠ وشث وعرعر شجر والشمط الخيل والكرام الفرسان .

ونابية الأرجاء طامسة الصوى خدت بأبى الشنشاش فيها ركائبه(١)

ومن ذلك كله نعلم مدى اعتماد الصعاليك على طبيعة البيئة من حيث المكان ومدى تسلحهم بها فى صراعهم مع الحياة ، سواء فى الهجوم والدفاع ، وكذلك صراعهم مع طبيعة هذه البيئة فى مجاهلها ، ومسالكها وقسوتها ومشقة السير فيها ، وما تفرضه على مرتادها من ذلك كله ٠

٨ - المطايا

ومهما اعتمد الصعاليك على أجسامهم وخصائصها ، ومهما اعتمد بعضهم على ساقيه وشدة عدوهما ، فان المطية من لوازم البدوى بصفة عامة ، لأن معاشه غير مستقر ، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن ، أو أصحاب المهن والزراعة ، وانما هو شخص متنقل دائم السعى وراء رزقه فى أى مكان يتاح له ، وأكثر ما يكون رزقه ارتباطا بالكلأ الذى تعيش عليه ماشيته ، فضلا عن أن الاقتصاد العربى وخاصة فى البادية كان أهم مجال له الماشية ، ومنها الابل والخيل وهما أهم المطايا ٠

ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة أو فرسا غنيا ، أو خارجا عن نطاق الفقراء والمحتاجين لأن الناقة الواحدة أو الفرس ليست ثروة بالمعنى المفهوم ، وانما هى أداة تنقل وسعى للرزق وكأنها جزء من حياته فى المجتمع العربى القديم ٠

والصعاليك كانوا أكثر الناس رحلة وتنقلا وراء الغارات التى يقومون بها والتى يدرسون أهدافها بعناية ودقة قبل أن ينفذوها ، فهم لا يغيرون جزافا وانما يدرسون فى أغلب الأحيان الموضع الذى يغيرون عليه من عدة نواح كقوة الدفاع لدى المغار عليهم ، والوقت الملائم للغارة ، وقبل ذلك الغنيمة التى يمكن الحصول عليها من هذه الغارة ، ومتى توافرت لديهم فى هذه الدراسة المعلومات التى ترجح نجاح الغارة وفوزها بالغنيمة انقضوا بغارتهم ، وكانوا يسلكون وسائل عدة فى جمع معلوماتهم عن مكان الغارة وموضع الغنيمة وطرق النجاة ، ومن هذه الوسائل ارتياد المدن والمجامع العامة التى يلتقى فيها جموع من القبائل المختلفة كموسم الحج فى مكة ، والأسواق التى كانت تقام فى مواسم معينة كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز كان الصعاليك يرتادون أحيانا هذه الأماكن ويختلطون بالوافدين من القبائل يستطلعون أخبار قبائلهم ، وخلال ذلك ، وعلى ضوء ما يصلون اليه من معلومات يضعون خططا

---

(١) حماسة أبى تمام ١/١١٥ والصوى الأعلام يعنى مطموسة المعالم واسعة الأرجاء ٠

لغاراتهم . كمـــا كان عروة بن الورد يرتاد يثرب (١) ، وكمـــا كان الهذليون يرتادون مكة (٢) وكما كان السليك يرتاد الأسواق (٣) ، وقد كانت هـــذه الغارات أحيانا تبعد الى أماكن نائية ، كما سبق آنفا من شعر عروة بن الورد عن غاراته فى نجد والحجاز ، وكغارات السليك على جوف مراد باليمن (٤) مع ان ديار بنى تميم قبيلته قرب يثرب .

وهذا الابعاد فى الغارات والغزو ليس من المعقول أن يعتمد فيه الصعلوك على قدميه ، فقـــد يمكن أن يستغنى قطاع الطرق منهم أو بعضهم عن المطايا أو على الأقل فى بعض الأحيان أما المغيرون والغزاة منهم فكان اعتمادهم الأساسى والضرورى على المطايا فى أغلب الأحيان ، ولا يستثنى من ذلك الا بعض العدائين الذين كانوا يثقون فى عدوهم أكثر من ثقتهم فى المطايا بما فيها الخيل ، فانهم لم يهتموا كثيرا بالمطية كالشنفرى وتأبط شرا وأبى خراش ، كما يبدو ذلك من شعرهم

عـــلى ان بعض الصعاليك كما قلنا كانوا فى بعض حياتهم يعتبرون من شجعان أقوامهم وفرسانهم فى الحروب التى تدور بينهم وبين القبائل والأحياء الأخرى ، كجحدر بن ضبيعة وعروة بن الورد ومالك بن حريم وقيس بن الحدادية قبل خلعه ، فهؤلاء كانت عدتهم حينذاك الخيل .

وقد كان بعضهم من أصحاب الخيل التى نالت شهرة فى العرب ، كالسليك فان له فرسا تسمى النحام ، من الخيل المشهورة المعدودة (٥) ، وكذلك حاجز ابن عوف الأزدى ، كانت له فرس تسمى ذئبة (٦) .

ويبدو من شعرهم أن الخيل والابل كانت من الوسائل الأساسية التى تقوم عليها صعلكتهم وانها أيضا من الأسلحة التى لا تستغنى عنهـــا الصعلكة فى جملتها ، سواء فى الغارات والغزوات والوصول الى أماكنها ، وفى التنقل من مكان الى مكان وفى الصراع مع الأعداء ، وفى النجاء بها فى بعض الأحيان .

ولئن كان الشعر العربى القديم ، جاهليه واسلامه ، حفل بالحديث عن الخيل والابل ووصفهما أكثر مما حفل به شعر الصعاليك ، فذلك لأن المطايا كما قلنا قدر مشترك فى أهميتها بين كل عربى والآخر ، ولكن نظرة الصعاليك وغيرهم اليهما تختلفان اختلافا واضحا ، فغير الصعاليك ينظرون الى الخيل والابل

---

(١) أنظر الأغانى للأصفهانى ٣٧/٣ وكان يبعث العيون على بعض الأغنياء ، كقصته مع بخيل كنانة أنظر شرح ابن السكيت لديوانه .

(٢) أنظر معجم البكرى ٥٣٠/٢ .

(٣) أنظر أغانى الأصفهانى ١٣٥/١٨ .

(٤) أنظر مجمع الأمثال للميدانى ٩/٢ .

(٥) أنظر أمالى القالى ١٨٦/٣ والقاموس المحيط مادة (نحم) .

(٦) القاموس المحيط مادة (ذأب) .

من خلال زاويتين ، ملكيتهم لها ، واعجابهم بها فى أداء ما يناط بها ، ولذلك نجد وصف الخيل والابل لذاتها شائعا فى شعرهم ، أما الصعاليك فينظرون اليها من خلال ارتباطها بحياتهم ، ومدى حاجتهم اليها فى الصعلكة ، ولذلك نجد حديثهم عنها يغلب عليه الارتباط بهذه الحياة ، كالنجاة عـــلى فرس ، أو الانتقال على الناقة من واد الى آخر ، أو الانقضاض بالفرس على قوافل التجار كناقة مالك بن الريب المتنقلة بن القفار (١) وشدات كميته على التجار (٢) ٠

فالشاعر من غـــير الصعاليك يرى فرسه أو ناقته فيتحدث عنها ويصفها لذاتها ، أما الصعلوك فيتحدث عنها غالبا خلال حديثه عن حياته ، وان وصفها فانما للرضى عن أدائها لدور مهم فى حياته ٠

٩ ـ الخيـــل

لم يكن الصعاليك يعنون بالخيل على أنها ثروة ، ولا على أنهـــا زينة ، وانما عناهم منها مدى ارتباطها بحياتهم فى الصعلكة، ولذلك نجد حديثهم عنها يحمل هذا الطابع ، وينحو هذا المنحى ، فالسليك السعدى مثـــلا يتحدث عن فرسه النحام ، وهو من الأفراس المعدودة المشهورة فى العرب كما قلنـــــا ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بجودة وصفات تميزه عن الكثـــير من غيره وكان يمكن للسليك وهو الشاعر القدير أن يستغل خياله فى الحديث عن شهرته ووصفه، ولكنا نراه حين يتحدث عنه لا يعنيه من ذلك الا ما حققه من نفع فى صعلكتـه فى حين كان يمكن أن يصوغ كغيره قصيدة كاملة أو قصائد فى التغنى به ،ولكنه اقتصر على وصف قوائمه القوية لأنهـا أهم ما يعنيه منه ، وعلى غرته المقترنة باليمن فى نجاح ما يناط به ، ثم ذكر له ثلاثة أغراض تشمل حياة الصعاليـــك هى الصيد ، والطاردة ، سواء كان الذين يطاردهم أعـــداء أو غنما ، والنجـــاء به من مطارديه فيقول :

كـــأن قـــوائم النحـــام لمـــــا تحمل صحبتى أصـــلا محـــار (٣)
على قرماء عاليـــة شـــواه كأن بيـــاض غـــرته خمـــار (٤)
وما يدريك ما فقـــرى اليـــه اذا ما القـــوم ولـــوا أو أغاروا (٥)

---

(١) أنظر شعره فى ذلك ٠ مهذب الأغانى ١٠/٥ ٠

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢ ٠

(٣) الكامل للمبرد ٥٧/٢ والأصل جمع أصيل العشى يشبه لون القوائم بالأصيل والمحار الصدف يعنى قوائم صلبة ملسا ٠

(٤) القرماء للموضع وشواه قوائمه ٠

(٥) ولوا أو أغاوروا معناه اذا هربوا أو طلبوا ٠

ويحضر فوق جهد الحضر نصا يصيدك قافلا والمخ رار (١)

وواضح من شعره أن فرسه هذا كان ذكرا ٠

ومالك بن حريم يقول انه آثر فرسه وافتلاها لغرضين ، أحدهما الغنم بها ، والآخر مجابهة المخاطر ، وتبلغ هذه الفرس من جودتها أنها حين تعثر احدى قوائمها لا تكبو ، وانما تعاونها الثلاث الأخرى من قوائمها فيستقيم سيرها ٠ يقول :

اذا وقعت احدى يديها بثبرة تجاوب أثناء الثلاث بدعدعا (٢)
ثم ـ مقربة أدنيتها وافتليتها لتشهد غنما أو لتدفع مدفعا (٣)

ويصف الجهد الذي تعانيه فرسه في الغزو والغارات والصراع فيقول :

ترى المهرة الروعاء تنفض رأسها كلالا وأينا والكميت المقدعا (٤)

وأما مالك بن الريب فيتحدث عن كميته ، فلا يرى حاجة لوصفه، وما حاجته الى الوصف ؟ ان حاجته أن يكون الكميت أداته لتحقيق ماربه فيقول :

سيغنيني المليك ونصل سيفي وكرات الكميت على التجار (٥)

أو يقول :

وانيابي سيخلفهن سيفي وشدات الكمي على التجار (٦)

ولم يخطر لمالك أن يصف جواده الا حينما أشرف هو على الموت، ولم يعد في حاجة الى جواد ، ولم يكن وصفه الاعجاب ، وانما كان وصف الاشفاق فيقول من مرثيته التي قالها عند موته :

تذكرت من يبكي على فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

وأبوخراش لم يتحدث عن خيل يستعملها ، ولم يبد في شعره أنه يعتمد على الخيل ، لأنه كان من أشهر العدائين ، حتى انه تراهن مع الوليد بن المغيرة

---

(١) الحضر ارتفاع الفرس في عدوه ويصيدك يصيد لك والمخ رار يعني تشبيهه بالنعام في خلو عظامه من المخ في زعمهم ٠

(٢) الاصمعيات ٦١ والثبرة الهوة والثلاث قوائمها الأخرى ودع دع صوت زجر الفرس أي كان الثلاث تنهضها بهذا الصوت ٠

(٣) افتليتها اتخذتها أو نتجتها والمقربة الأثيرة لديه والمدفع مصدر ميمي من الدفع ٠

(٤) الاصمعيات ٦٠ والروعاء كأنها فزعة من دوام نشاطها وحركتها والكلال والأين الجهد والتعب والمقدع النشيط ٠

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ ٠

(٦) أنظر مهذب الأغاني ١٠/٥ ٠

على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق ، فراهن أبا خراش على أنه ان سبقهما فهما له ، فسبقهما أبو خراش وفاز بهما كما مر ، فلم تكن بمثل عـــدوه حاجة الى الخيـــل لأنه أسرع منهـــا ، ولكنه مع ذلك يصـــف خيـــلا مغـيرة وصفا قلما يتاح لشاعر ، وذلك في قصة رجل من قومه قتل جارا له من بني تميم فانكر أبو خراش ذلك انكارا شديدا ، ونعى على قريبه نكسه في الجوار ، وهجاه بشعره ، ومما قال في هذا الشعر أن الغـــلام التميمي حين أحس الغدر والموت دعا قومه ، ولكن بينه وبين قومه وديانا وأنهارا ، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا اليه على خيلهم في اقصى عجلة وسرعة متصـــورة ، يلهبون خيلهم ضربا بالسياط والأعنة والركل بالأقدام ، وفي هذا السياق يصف أبو خراش الخيـــل وصـــفا عجيبا في انطلاقها كالسهام تحت هذا الحث العنيف من فرسانها ، وقد وصف هذه الخيل بوصفين يصوران أقصى ما يتاح لشاعر أن يصوره من خيـــــل في مثل تلك الحالة ، وهما أن الناظر الى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواهها ، ويرى أحداق أعينها في وضع غير عادي كأنه الحول ، والصورة في جملتها ، من الخيل في هيئتها هذه ، الى الفرسان في استعجالهم وتحفزهم ، وحثهم للخيل بكل وسيلة ، تعتبر من أجمل اللوحات الشعرية ، يقول :

دعا قومه لما استحل حرامـــه ومن دونهم عرض الاعقة فالرمل (١)
ولو سمعوا منهم دعاء يروعهـم اذا لأتته الخيل أعينها قبـــل (٢)
شـــواحى يمر يهن بالقوم والقنا فروع السياط والأعنة والركل (٣)

ولكن الذي يعنينا في الواقع من هذه الصورة التي تعتبر اتجاها بارعـــا في وصف أثر السرعة والحث الشديد في الخيـــل هو أن نتساءل : ولماذا كان أبو خراش هو الذي يمثل هذا الاتجاه دون غيره ؟ وأغلب الظن أن هنـــاك ارتباطا بين العدو وهذه الاجادة في وصف سرعة الخيل بالأســلوب الواقعي الذي لا يحمـــل شيئا من تكلف أو مبالغة أو خيـــال ، فأبو خراش عداء فذ وهو بهذا كثير السباق مع الخيل والتعرض لمطاردتها ، ومن ثم فانه كثير المشاهدة لأثر السرعة والاجهاد على الخيل ، ولذلك كان تعبيره واقعيا صادقا لا أثـــر فيه للمبالغة أو الخيال .

والأعلم الهذلي يصف فرسه ، فلا تعنيه منه الا سرعته التي تشبه ظليم النعام(٤)

---

(١) ديوان الهذليين ١٦٥/٢ واستحل حرامه يعني استحل جواره والأعقة جمع عقيق وهو الوادي الواســـع والرمل موضـــع فيه منازل بني مازن من تميم يقول عنه مالك بن الريب . وبالرمل منا نسوة ... الخ » في مرثيته .

(٢) الرواية (منهم) ولعل صحتها (منه) وقبل بضم القاف وسكون الباء اقبال احدى الحدقتين على الأخرى كالحول .

(٣) شواحى فاتحات أفواهها ويمريهن يستخرج نشاطهن تحريك السياط والركل ، يعني الخيل .

(٤) أنظر شعره في الحيوان للجاحظ ٣٢٦/٤ .

والذين كانوا يزاولون الحروب مع أقوامهم من الصعاليك كانوا أكثر حديثا عن الخيل ، وقد سلك بعضهم مسلك غيرهم من غير الصعاليك فى المبالغة فى وصف الخيل ، والعناية بحسنها وأوصافها الجسمية ، ولذلك عد بعضهم من أحسن الوصافين للخيل ، وقد قال عبد الملك بن مروان مرة : أشرف المناديل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول :

ثمت قمنا الى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل (١)

وهذا البيت من قصيدة طويلة لعبدة طرق فيها عدة عناصر منها الخيل ، ويبدو حسن البيت السابق فى موقعه من القصيدة ، فهو فى سياق أن عبدة وفرسانا معه جهدوا حتى صادوا ثورا ضخما ، وتحايلوا حتى طبخوه ثم أكلوا ثم قاموا الى خيلهم فامتطوها ، واتخذوا من أعرافها مناديل يمسحون بها عن أيديهم أثر اللحم ، ولكن شعر الصعاليك لا يخلو من طابعهم ، فنجد عبدة فى هذا الوصف يهتم بأن يصف جهد فرسه وعنايته فى التنقل وكثرة السير فيقول :

بساهم الوجه كالسرحان منصلت ... طرف تكامل فيه الحسن والطول (٢)
خاظى الطريقة عريان قوائمه ... قد شفه من ركوب البرد تذبيل (٣)

وقيس بن الحدادية يصف خيلهم التى يصارعون بها أعداءهم فيقول :

نحن جلبنا الخيل قبا بطونها ... تراها الى الداعى المثوب جنحا (٤)

ويقول عن خيلهم الكمت :

رميناهم بالحو والكمت والقنا ... وبيض خفاف يختلين السواعدا (٥)

ومالك بن حريم يقول :

يا عمرو لو أبصرتنى ... لرفوتنى فى الخيل رفوا
والبيض تلمع بينهم ... تعصو بها الفرسان عصوا
للقيت منى عربدا ... يقطو أمام الخيل قطوا
ثم ـ وسمعت زجر الخيل فى ... جوف الظلام هبى وهبوا (٦)

---

(١) البيت من قصيدة طويلة • انظر المفضليات ١٣٤ ـ ١٤٥ •

(٢) ساهم الوجه قليل اللحم فيه والسرحان الذئب والمنصلت المنجرد الماضى والطرف الكريم الطرفين •

(٣) الخاظى كثير لحم الجسم والطريقة طريقة ظهره وشفه أضمره وأهزله وركوب البرد يعنى أنه دائم ركوبه فى البردين الغداة والعشى والتذبيل من الذبول وهو الضمور •

(٤) أغانى الأصفهانى ١٤/١٤٤ •

(٥) المصدر السابق •

(٦) الحيوان للجاحظ ٦/٤٧٤ والرفو التسكين والعصو الضرب بالسيف وقطا يقطو تقارب مشيه وهبى وهبوا صوت زجر الفرس •

وكذلك نجد وصف عمرو بن براقة (١) ووصف تأبط شرا لادهمه (٢) ، وأما عروة بن الورد فانه يجعل أجرده جزءا من سلاحه الذى لا يملك غيره فيقول:

ومالى مال غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحـديد صقيل
وأسمر خطى القنـاة مثقف وأجـرد عريان السراة طـويل (٣)

ولا شك أن الخيل أكثر الموضوعات التى لقيت اهتماما كبيرا فى الشـعر العربى ، فلا يكاد شاعر من القدامى لم يتعرض لوصف الخيل والحديث عنها ، كثر حديثه أو قل ، وان كان فى أغلب أحيانه كثيرا ، لأن الخيل كانت تحقق فى حياتهم أكثر من غرض ، فضـلا عن أنها تنفرد بمواقف لا يصلح فيها غيرها كالحروب التى كانت جزءا أساسيا فى حياتهم ، وقد دعم الاسلام اعتزاز العرب بالخيل كما فى الحديث الشريف « الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة » وكما يقول عمر بن الخطاب « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » وفى رواية « ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » والصـعاليك وان كانوا فى اعتزازهم بالخيل جزءا من العرب ، الا أننا نجد فى حديثهم طابعهم الخاص بحياتهم وشعرهم ، حيث يركزون اهتمام حديثهم عن الخيل بمدى ارتباطها بصراعهم مع ظروفهم وأعدائهم .

١٠ ـ الابـل

والابل هى الأداة الطبيعية للسير فى الصـحراء بما هياها الله لذلـك ، ولكن الصعاليك ليسوا مجرد سائرين ، انهم متنقلون دائما بين أماكن متباعدة وصحراوات مترامية ، ولذلك نجد حديثهم عن التنقل مقرونا بالابل .

فتوبة بن الحمير مثلا يصف أجواز القفار المخوفة التى تجتازها به ناقته القوية الصلبة هذه القفار المهلكة التى يصـبح الضعيف فيها ذليلا مشرفا على الهلاك كانه بقايا حيوانات ضعيفة انحسر عنها الغدير فيقول :

وادماء من سر المهـارى كانهـا مهاة صـوار غير ما مس كورها (٤)
قطعت بهـا اجواز كـل تنوفة مخوف رداها كلما استن مورها (٥)

---

(١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وأمالى القالى ١٨٦/٣ .
(٢) العمدة لابن رشيق ٣٥/٢ .
(٣) أنظر العقد الفريد باب الخيل .
(٤) أغانى الأصفهانى ٢٨٠/٣ والادماء من الابل مافى لونه ابياض مع سواد المقلتين ، والسر المحض والمهاة البقرة الوحشية والصوار قطيع البقر .
(٥) الاجواز جمع جوز وسط الشىء واستن هاج والمور الغبار .

ترى ضـــعفاء القوم فيها كأنهم دعا ميص ماء نش عنها غديرها (١)

وعبيد بن أيوب المشهور بملازمته للقفار ، وبعده عن الأماكن المأهولة بعد أن كثرت جناياته وأباح السـلطان دمه ، يحمد من ناقته صبرها على حيـاته القاسية ، ومشاركته كل ما يعانيه ومن ذلك كثرة ما يتعرضان له من عطش فيقــول :

ظللت وناقتي نضــوى فــلاة كفــرخ الضـب لا يبغي ورودا(٢)

ومالك بن حريم يصف ابعادهم في التنقل والأسفار ، حتى أنهم يتركون أولاد أبلهم حيث تولد ويرحلون عنها ، حتى لا تعوق سيرهم فيقول :

فمن ياتنا أو يعترض بسبيلنا بجـد أثرا دعسا وسخلا موضعا (٣)

وقد رأينا أن مالك بن الريب هدد بني مروان ، أورد على مضايقة عمالهم له ، بأن ناقته عطشى الى ريح الفلاة ، يعني أن الرحلة والتنقل ميسوران له بقوله :

فان لنـا عنكم مراحا ومرحــلا بعيس الى ريح الفلاة صــوادى

وحين بلغه أن الحارث بن حاطب الوالي يتوعده ، رد عليه بقوله :

فاني ســوف يكفينيك عـزمي ونص العيس بالبلــد القفــار
وعنس ذات معجمــة أمــون علنــداة موثقــة الفقــار
تزيف اذا تواهقت المطــايــا كمــا زاف المشرف للخطار(٤)

ويقول في القصيدة نفسها أنه يستطيع بناقته هذه القوية الصبور أن يطأ أرضا لم يبلغها قبله أحد :

ولا جزع من الحـدثان يــوما ولـكني أرود لكــم وبار (٥)
بهــز مار تراد العيس فيهــا اذا أشفقن من قلق الصــغار
وهن يحشــن بالأعناق حوشا كأن عظـامهن قــداح بــار

---

(١) الدعاميص نوع من حيـوانات الماء أسـود صـغير كالدود يعيش في الغدران ونش انحسر وجف .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ والشطر الثاني اشارة الى زعم العرب أن الضب يصبر على العطش مدة طويلة .

(٣) الاصمعيات ٥٩ والدعس يعني أثر المشي وسخلا يريد ولد الناقة .

(٤) مهذب الأغاني ١٠/٥ والعنس الناقة ومعجمة ضخمة وأمون مأمونة السير والعلنداة الترية وتزيف تسرع والمواهقة المواظبة .

(٥) الحدثان الليل والنهار يعني ما يخبئانه من بلاء ووبار أرض تزعم العرب أنه لم يطأها أحد .

وهذه الناقة التى صاحبت حياته الشاقة العنيفة القاسية ، وشاركته كل ما عاناه ، نظر اليها مالك حين أشرف على الموت ، فتألم لفراقها ، وأحس أنهـا ستتألم أيضا لفراقه ، وأنها ستحزن وتحن اليه حنينا يفلق الأكباد فيقول :

وعطل قلوصى فى الركاب فانها ستفلق أكبادا وتبكى بواكيـا

وجحدر بن معاوية حين وضعه الحجاج فى السجن ، حن الى ناقته طيعة الزمام، التى كان يرحل بها الى أماكن حبيبة الى نفسه فيقول :

نظـرت وناقتـاى علـى تعـاد مطـاوعة الأزمـة ترحـلان
الى ناريهما وهمـا بعيـد تشـوقان المحـب وتوقـدان (١)

وعبدة بن الطبيب يهيم بناقته هياما جعله يخصها بنحو عشرين بيتا من قصيدته اللامية الطويلة (٢) وهى من أجمل ما وصفت به الابل ، وفيها يقـول أن طرف خفها يترك فى الأرض أثرا كأنه الأزميل يقطع الجلد ، وأنها مع سرعتها تجد لها تقدما وترجيعا كأنه الدلال ، وأن طرف منسمها من طول المتابعة ومصادمة الحصى فلل ، وأن الحصى يتطاير حـول خفيهـا كأنهما غربالان ينفيان الوغل الردىء فيقول :

عيهمة ينتحى فى الأرض منسمها كما انتحى فى أديم الصرف أزميل(٣)
تخذى به قدما طـورا وترجعـه فحـده من ولاف القبض مفلول (٤)
ترى الحصى مشفترا عن مناسمها كما تجلجل بالوغل الغرابيـل (٥)

ولم ينس مالك بن حريم الكرم العربى فى نحر الابل ، فهو يقول انهم يعطلون البعير اذا عجز عن السير ويطعمونه الناس ان سمن .

اذا ما بعير قام علق رحلـه وان هو أنقى الحموه مقطعـا (٦)

---

(١) أمالى القالى ١٣٥/٣ المرثية .

(٢) المفضليات للضبى ١٣٤ وعدتها واحد وثمانون بيتا .

(٣) عيهمة شديدة ينتحى يعتمد والمنسم طرف الخف والصرف الجلد والازميل يعنى كقطع الجلد بالشفرة .

(٤) تخذى تسرع وبه يعنى المنسم والولاف المتابعة فى المشى والقبض النزو ومفلول تثلم حده .

(٥) مشفتر متفرق وتجلجل تحرك الوغل الردىء يعنى مناسمها تميزا لحصى الكبير من الصغير فى تفريقه كما تفعل الغرابيل بالحب .

(٦) الاصمعيات ٥٩ وقام عجز عن السير وأنقى سمن ورواية الاصمعى أبقى .

وليس ما تقدم من الأسلحة والوسائل كافيا لأن يجعل شخصا ما صعلوكا من الصعاليك ، ولا أن يجعل الصعلوك ناجحا فى ميدان الصعلكة ، فالأسلحة والوسائل السابقة ميسورة لكل الناس ، فمن اليسير على أى شخص أن يملك سيفا وقوسا ومطية ثم يتوجه الى أى مكان من الصحراء أو الجبل ، ولكن هل هذا يكفى لأن يكون صعلوكا بالمعنى المفهوم ؟

ومما لا شك فيه أن ذلك لا يكفى مطلقا لأن يكون الوسيلة الوحيدة الى الصعلكة ، لأن هذه الوسائل كما قلنا يكاد يشترك فيها أفراد العرب جميعا . فالسيف والمطية من لوازم كل عربى ، والبيئة ملك مشاع للجميع ، أعنى البيئة التى كان يتخيرها الصعاليك ليتخذوا منها مواقع لمزاولة عدوانهم أو الاحتماء من آثار هذا العدوان كالمراقب والمجاهل والمغارات ، ومع شيوع هذه الوسائل بين أفراد العرب ، فلم يكونوا جميعا صعاليك وانما كان الصعاليك قلة بارزة فى حياتهم ، ونعود فنتساءل : لما اذن تهيأ لهذه القلة أن تتحكم فى هذا الميدان ؟ مع أنه كان ميدانا مرموقا وخاصة فى الجاهلية ، وكان كثير منهم يتمنى لو نجح فيه كما ينجح الصعاليك ، أو على الأقل لا يرى غضاضة فى أن يكون من هؤلاء الصعاليك الذين تتردد أسماؤهم فى أرجاء الجزيرة مقرونة بالرهبة دائما ، وبشىء من الاعجاب فى كثير من الأحيان ، ولكن هؤلاء الكثيرين لم ينجحوا فى الصعلكة ، وانما نجح فيها قلة بارزة ·

ولا نعتقد ان الاجابة عن ذلك عميقة أو ملتوية ، فالواقع أن الأسلحة الأولية والأساسية للصعلكة ليست السيف والمطية والمكان ، وانما الأسلحة الأولية والأساسية هى المقومات الذاتية والصفات الشخصية التى ينبغى أن تتوافر أولا فى الشخص ، ثم تدعمها تلك الأسلحة والوسائل وفى الذى سبق من الوسائل وسيلة واحدة تعتبر من الأسلحة الأولية وهى سرعة العدو ، لأنها أيضا من المقومات الذاتية فى الشخص ، ولتوضيح ذلك قليلا نقول ان ما فى حياة الصعاليك من متاعب وقسوة ، لا يمكن النظر اليه من زاوية واحدة ، وبالتالى لا يصلح له سلاح واحد ، ومثال ذلك أن فى حياتهم كثيرا من الزوايا والمواقف لا يصلح فيها السيف ولا غيره ، ولا ينقذ منها مخبأ أو غيره كالعطش الذى يتعرضون له كثيرا بحكم حياتهم فى الصحراوات ، وتنقلهم بين المجاهل والقفار ، وكذلك الجوع ، وكذلك الشعور بالخوف والوحدة ، وكذلك الوقوع فى مأزق كمحاصرة الأعداء للصعلوك ، ونواحى أخرى كثيرة ، هذه النواحى لا تصلح لها الا مقومات ذاتية فى الشخص ·

ومن هذه المقومات العدو ، وكان يمكن أن يكون حديثه هنا ، ولكننا آثرنا الحديث عنه مع الوسائل السابقة ، التزاما للتفريق بين الوسائل المنظورة وغير المنظورة ·

فالأسلحة أو الوسائل غير المنظورة نعنى بها المقومات الشخصية ،والصفات الخاصة التى ينبغى أن يتصف بها شخص ما اذا أراد أن يكون صعلوكا ،والتى من أجل فقدانها لم يتهيأ النجاح — من زاويتهم هم — فى الصعلكة الا لأفراد فى كل قبيلة أو حى ٠

ومن أهم هذه المقومات الذاتية قوة الارادة التى تمكنه من مواجهة المواقف الكثيرة الصعبة التى يتعرض لها ، والتى تجعـــل منه شخصا غير متردد فى المواقف التى يفسدها التردد وضعف العزيمة ، وكذلك الصبر وقوة الاحتمال، مما يتيح للصعلوك احتمال قسوة الحياة التى يعيشها ، والحرمان الذى يعانيه، والجوع والعطش اللذان ما أكثر ما يعرضان فى حياة الصعلوك كما رأينا فى شعرهم ، وكذلك الاستهانة بالموت ، فالموت مترصد لكل صعلوك فى كل وجه من وجوهه ، ان لم يكن من الأعداء فمن الوحوش وهوام الأرض ، ومن الضلال فى المجاهل وفقدان ضروريات الحياة كالماء والطعام ، فالجزوع من الموت لايصلح قط بين الصعاليك ، وكذلك الجرأة ، فالصعلكة تقوم على العدوان ، والمفروض فى الصعلوك أنه البادىء دائما بالسطو والعدوان ، فلا بد له اذن من أن يكون جريئا مقداما ، وكذلك الحذر واليقظة ، فالصعلوك محاط دائما بالأعداء من الناس وغير الناس ، وكما أنه متربص بالناس فالناس متربصون به ، فاذا لم يكن حذرا يقظا فانه سيكون ضحية لأول رصد يلقاه ، وكذلك الحيلة وحسن التخلص فالصعلوك الدائم التنقل والتجول فى أماكن محفوفة بالمخاطر والكمائن لابد أن يتوقع المآزق وبالتالى لابد أن يكـون مهيأ للتصرف السريع ، وحسن التخلص من المآزق ٠

وقد كان يمكن أن تعد هذه الوسائل أو الأسلحة صفات للصعاليك دون أن تسلك فى عداد الأسلحة ، ولكن الواقع أنها وان كانت بالنسبة لغيرالصعاليك مجرد صفات ، الا أنها بالنسبة لهم ليست مجرد صفات ، وانما هى وسائل كالأسلحة الحقيقية اعتمدوا عليها اعتمادا أساسيا — كما سنرى فى صعلكتهم، وفى صراعهم مع الظروف والأعداء ، فاستغلوا كل صفة منها بأقصى ما يمكن الاستغلال حتى جعلوها أسلحة واضحة فى حياتهم ٠

ومن الواضح أننا لا نعنى أن تكون هــذه الوسائل كاملة جميعا فى كل صعلوك ، ولا أن الصعاليك جميعا فى درجة واحدة من هذه الوسائل والصفات ولكن الذى لا شك فيه أن الصعاليك جميعا كما يبدو من شعرهم وأخبارهم ، وكما يفرض تصورنا لحياتهم وظروفهم لابد لكل منهم أن يتصف بقدر واف من هذه الوسائل كلها ، واذا فقد جانبا منها فلابد أن يكون فيه من الجانب الآخر قوة مضاعفة تعوض هذا الفقدان ، والا فبمقدار بعده عن هذا المستوى بمقدار ما يكون فاشلا بين الصعاليك ٠

١ ـ قوة الارادة

حين نستعرض شعر الصعاليك نرى فيه بوضوح أنه ينبع من أشخاص يعتزون بمقومات كثيرة ، تدور كلها حول قوة الشخصية واعتزازها بكيانها ، وعدم خضوعها أو خضوع سلوكها الا لما تمليه ارادة الشخص نفسه ، ومايرتئيه لها هو من اتجاه ، ولست أريد أن أزكى الصعاليك قبل أن أستعرض ما يمكن أن يكون فيه تزكية لهم ، ولكنا بصفة عامة نستطيع أن نقول أن السوء ليس كله فى الصعاليك ، وانما فى الظروف التى أحاطت بهم ، ثم انعكس بعض هذا السوء عليهم ، ومهما نعتقد فى الصعاليك من سوء ، فلا شك أن فيهم من الصفات ما يحملنا على تقديرها ٠ وعلى الاعتقاد بأن هذه الصفات لو وجدت ظروفا خيرا من الظروف التى أحاطت بالصعاليك لكان يرجى أن يكون شرهم خـيرا لهم وللناس ، ولكان يرجى خير كثير لهم ولمجتمعهم من هذه الصفات التى تحلوا بها ، والتى لا شك أنها لذاتها فضائل ، ولكنهم لم يجدوا مجالا يستفيد من هـــذه الصفات ، فحولوها الى أسلحة تدمير وعدوان من باب قولهم ٠

اذا أنت لم تنفع فضر فانمـــا   يرجى الفتى كيما يضر وينفعـــا

ومن أبرز ما يطالعنا من هذه الصفات الواضحة فى شعرهم ، والتى ينبع منها كثير من الصفات الأخرى قوة الارادة والحزم ، بحيث يمثل لنا شـــعرهم الصعلوك ماضيا دائما فى غير تردد ولا وجـل ، يجعل من عزمه وارادته ورأيه الهادى الوحيد له والدافع الوحيد لسلوكه كما يحدثنا سعد بن ناشب بأنه اذا هم بشىء ، فليس هناك شىء قط يستطيع أن يثنيه عن همه ، ولا أن يخيفه من مضيه ، لأنه يضع عزمه كله ، وعزمه وحده ، بين عينيه ثم يمضى بعزمه هو ، وعلى ضوء رأيه هو ، وبصحبة سيفه هو ، ولا شىء غير ذلك فيقول :

اذا هم لم تردع عـزيمـــة همه   ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
اذا هم ألقى بين عينيـه عزمـه   ونكب عن ذكر العـواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه   ولم يرض الاقائم السيف صاحبا(١)

ويقول أيضا عن نفسه مرددا هذا الشعور الذى يملأ عليه نفسه :

اذا هم ألقى بين عينيه عزمـه   وصمم تصميم السريجى ذى الأثر(٢)

وهذا صعلوك آخر يردد هذا المعنى أيضا ، قائلا أنه لا يقيم لرأى الناس وعذلهم ميزانا لأنه لا يتأثر برأى الناس الا العاجزون ، أما الحازم فانه ماض وراء حزمه ، مشيح عن تثبيط المثبطين فيقول :

---

(١) حماسة أبى تمام ١/١٦ ٠

(٢) حماسة أبى تمام ١/٢٧٢ والسريجى السيف والأثر الصلابة والمضاء ٠

غلام اذا ما هم بالفتك لم يبـل ... ألا مت قليلا أم كثيرا عواذله
وما العجز الا أن تشاور عاجزا ... وما الحزم الا أن تهم فتفعلا (١)

ويبين عروة بن الورد سبب اعراضه عن رأى الناس ومشورتهم ، بأنه يراهم لا يعجبهم حال ، فان زاول الصعلكة لاموه ، وان كف عنها افتقر فعيروه بفقره كما يقول :

وقد عيرونى المال حين جمعتـه ... وقد عيرونى الفقر اذ أنا مقتر (٢)

ولذلك صمم على أن يعتمد على حزمه ، وأن يجعل أمره دائما مزمعا ، لا يستشير فيه أحدا ، ولا يصده عنه شيء ، فيقول :

سأغنيك عن رجع الملام بمزمـع ... من الأمر لا يعشو عليه المطاوع (٣)

ويشير عروة الى اعتماده على رأيه وحده ، والى أنه لا ينقاد قط الا لما تمليه عليه ارادته يشير الى ذلك فى قصة اليهود من بنى النضير ، حين نزل بهم عروة ومعه سلمى زوجه التى كان أسرها من مزينة ثم تزوجها ، فراقت المرأة فى جمالها لليهود ، فاحتالوا على عروة وغرروا به ، وظلوا ينادمونه ويسقونه الخمر ، حتى سكر ، وظل يطلب شرابا ، فطلبوا منه أن يرهن زوجه ثمنا لما يشرب ، وظل يشرب مستزيدا فى رهنها حتى غلق الرهن ، وأصبحت المرأة ملكا لهم ، وحين صحا عروة من سكره أنكر ما صنع ، وعجب كيف يفعل شيئا لم تمله عليه ارادته وضميره ، وكأنه ألف من نفسه أنه حتى السكر لا يحول بين سلوكه وارادته وضميره فيقول :

سـقونى الخمر ثم تكنفـونى ... عـداة الله مـن كـذب وزور
فيا للنـاس كيف غلبت أمرى ... على شيء ويكرهـه ضميرى (٤)

وأما تأبط شرا فانه يقول : أنه اذا هم بشيء ولو لم يتحدث به فلا بد من نفاذه ، فكيف به اذا هم وقال ؟

وكنـت اذا هممت اعتـزمت ... وأحـر اذا قلـت أن أفعـلا (٥)

والأعلم الهذلى يدمى وجه زوجه اذا حاولت أن تثنيه عن عزمه مهما تعللت بالأسباب فيقول :

يدمى وجـه حنتـه اذا مـا ... تقـول تلفتن الى العيـال (٦)

---

(١) الكامل للمبرد ١/١٢١ ٠
(٢) ديوان عروة بن الورد ٩٦ ٠
(٣) ديوان عروة بن الورد ١٠٠ ٠
(٤) أنظر الأغانى للأصفهانى ٣/٢٨٠ ٠
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ ٠
(٦) ديوان الهذليين ٢/٨٣ وحنته زوجه يعنى يضربها حتى يدمى وجهها اذا أرادت منعه من مخاطر الصعلكة بحجة حاجة العيال اليه ٠

ومالك بن الريب يحدثنا بأنه حين يهم بالأمر لا يكتفي بمجرد انفاذه ، وانما يصمم على أن يكون انفاذه عاجلا غير متأن ، وأنه لم يكن قط مشتت العـــزم متردد الهمة ، مهما تفاقمت أمامه الخطوب ، ومهما اشرأبت له المخاطر فيقول :

وما أنا بالنائي الحفيظة في الوغى ... ولا الملتقى في السلم جر الجرائم
ولا المتـــأني في العـــواقب للـذي ... أهـــم به من فاتكـــات العـــزائم
ولكني مســـتوحد العزم مقـدم ... على غمـرات الحـــادث المتفـاقم
قليل اختلاف الرأي في الحرب باسل ... جميع الفـؤاد عند حل العظائم (١)

وحين نبحث في شعر مالك بن الريب لنرى ما يجعله يتشبث بهذا العزم، ولا يحيد عن هذا الصراع ، نجده مرتبطا بشيئين ، أحدهما خشية أن يجد نفسه مضيعا تافها في مجتمعه ، والآخر رغبته في أن يثبت وجوده وكيانه في المجتمع ، وهو ما يعبر عنه هو وبعض الصعاليك بالمعالي والمجد فيقول عن الأمر الأول الذي يخشاه :

وما أنا كالعير المقيـم لأهـــله ... على القيد في بحبوحة الضيم يرتع(٢)

ويقول عن الأمر الثاني الذي يتطلع اليه ، ويحرص على أن يكونه :

ليس شيء يشاؤه ذو المعـــالي ... بعـزيز عليـه فادعى المجيبـا (٣)

على أنه لا ينبغي أن نغفل أن صفة الارادة والحزم لا يستدل عليها بالنسبة الصعاليك بمثل هذه المعاني التي يصرحون بها في شعرهم عنها ، ولكن الواقع أن هذه الصفة تبدو واضحة وراء شعرهم كله ، ففي كل موضع يتحدثون عنه، تحس بأن المتحدث ليس شخصا عاديا ، وأن هذه المعاني ليست من مجرد شاعر يصوغ المعاني وينتقي الألفاظ ، وانما وراء ذلك كله شخصية ذات كيان ، وذات ارادة محسوسة ، ومثال ذلك حديثهم عن الجوع ، وعن حياة المراقب ، فاننا نحس من خلال صراعهم فيهما أننا أمام عزائم صلبة ، وارادات متميزة ٠

وكذلك أخبارهم ، فيما يتعلق بتحملهم للمشاق ، ومواجهتهم للمخاطر ، وشعرهم في ذلك وان كانت ستأتي له أحاديث تخصه ، الا أن فيه ولا ريب جانبا من قوة الارادة كبيرا ، ومثال ذلك قصة أبي خراش الذي أصابه الجوع أياما ، ثم رزق على هذه المخمصة الشديدة ذبيحة شهية ، وحين شم شواء اللحم قرقر بطنه ، واذا هو يطلب من المرأة التي ذبحت له الذبيحة شيئا مرا ، فيأكله أو يشربه ، نكاية في بطنه الذي أراد الخروج على ارادته ، ثم يصمم على أن لا يذوق الطعام ، ويمضي في طريقه بجوعه هذا الشديد (٤) ٠

---

(١) مهذب الأغاني ٥/١٥ ٠
(٢) المصدر السابق ٥/١٣ ٠
(٣) المصدر السابق ٥/١٥ ٠
(٤) أنظر الأغاني للأصفهاني ٢١/٦٠ م بولاق ٠

٢ ـ الصبر

وهناك صفتان تعتبران أثرا من قوة الارادة ، هما الصبر والجرأة ، وقد تبدو الجرأة لكونها صفة ايجابية أقرب الى قوة الارادة من الصبر ، ولكن الواقع العكس . فالصبر المرتبط بالارادة ، أعنى الصبر الذى يتحكم فيه صاحبه وليس الذى يكون نوعا من الضعف وخور العزيمة ـ ذلك الصبر هو الدليل الحقيقى على قوة الارادة والتحكم فى النفس ، ولذلك نجد أقوى الناس هم أقدرهم على ضبط أنفسهم فى المواقف العصيبة التى توصف بأنها ثبات ، أو بأنها حلم ، أو غير ذلك من المواقف المختلفة ، أما الجرأة فيمكن أن ينظر اليها من زاويتين ، احداهما جرأة مرتبطة بالارادة ، وقد تسمى شجاعة ، وهى المرتبطة أيضا بالارادة ، بمعنى أن يكون صاحبها متحكما فى ارادته ، ضابطا لتوجيه هذه الجرأة ، فتنعكس قوة ارادته على جرأته وتوجهها بقيادة هذه القوة ، والناحية الأخرى من الجرأة ، جرأة لا تمليها الارادة ، وانما تمليها انفعالات عابرة ، غير ثابتة ولا مستقرة ، كالغضب والمفاجأة ، وهذا النوع الذى لا تمليه الارادة الثابتة لا يعتبر من قوة الارادة ، وانما هو فى أغلب حالاته نوع من ضعف الارادة ، وفقدان السيطرة على النفس ومشاعرها ، وقد نجد تفسيرا للتفريق بين هذه الأنواع فى الحديث الشريف «ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم حين رجعوا من بعض الغزوات « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » يعنى جهاد النفس ٠

والواقع أن نصيب الصعاليك فى جملتهم من الصفتين كان موفورا ،وأن كلا من الصفتين الصبر والجرأة ، كان مرتبطا بقوة الارادة فيهم الى درجة كبيرة ٠

فأما الصبر ، فاننا حين نستعرض حياة الصعاليك من أخبارهم ، ومن تصوير شعرهم نجد أن حياتهم كلها كانت تقوم على الصبر الشديد الذى لا يقوى عليه غيرهم ، ولا تطيقه نفوس غير نفوس الصعاليك ٠

فحين ننظر الى الشنفرى مثلا وهو يقاوم الجوع الشديد المضنى ، فيظل يحتمل ، ويقاوم ، ويتجاهل ، حتى يكاد ينعدم لديه الشعور بالجوع ؛ حيث يقول :

أديم مطال الجـوع حتى أميته ۝ واضرب عنه الذكر صفحا فأذهل(١)

ولذلك يرى نفسه ليس صبورا فحسب ، وانما هو مولى للصبر متحكم فيه ، ولتعوده الصبر أصبح ثابت المشاعر ، لا يشتكى الجوع كما قال ، ولايجزع من الفقر ، ولا يفرح بالغنى ، ولا تثيره حماقات الجاهلين فيقول :

---

(١) من اللامية : سبق ذكر نصها مشروحا ٠

وانى لمولى الصبر اجتاب بزه على مثل قلب السمع والحزم أفعل
وأعدم أحيانا وأغنى وانما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل
فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيل
ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى سئولا بأعقاب الاحاديث أنمل (١)

ولئن كان الشنفرى صبورا على الجوع ، فان عبيد بن أيوب صبور على العطش ، فهو يحدثنا عن أنه هو وناقتــه يصبران على العطش أمدا طويلا كصبر الضب على العطش فيما تزعم العرب فيقول :

ظللت وناقتى نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغى ورودا (٢)

وصورة أخرى من صور الصبر ، يحدثنا عنها عمرو ذو الكلب ، وهى صبره اليوم الطويل على الاقامة فى مرقبة موحشة ، مختبأ كأنه الخيال لا يراه انسان فيقول :

أقمت بريدها يوما طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال (٣)

وكذلك صبر الشنفرى على أن يبيت الليل كله فى مرقبة محدبا منحنيا على حد زراعيه حيث يقول : « فبت على حد الذراعين محدبا » (٤)

وعروة بن الورد يحدثنا أيضا عن صورة من صور صبره فيقول :

صبور على رزء الموالى وحافظا لعرضى حتى يؤكل النبت اخضرا (٥)

ويقول ان صبره أقوى من كل حدث ، فلا شىء قط يدفعه الى شكوى أو جزع :

فلا أنا مما جرت الحرب مشتك ولا أنا مما أحدث الدهر جازع (٦)

وكل ما فى حياة الصعلكة لايقوى عليه الا الرجل الصبور ، فحياة الصعلكة من حيث هى نموذج للصبر الشديد على حياة قاسية مجهدة محفوفة بالمخاطر من كل جوانبها ، وفى كل خطواتها ، وقد صبر الصعاليك على حياتهم ، ولكنهم يواجهون آلاما خارج حياة الصعلكة ، فيصبرون أيضا ، كما يحدثنا أبوخراش عن صبره على موت أخوته فيقول :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى (٧)

---

(١) من اللامية .
(٢) أنظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ .
(٣) ديوان الهذليين ١١٩/٣ .
(٤) مهذب الأغانى ٩٥/١ .
(٥) ديونا عروة ٩١ .
(٦) ديوان عروة ٩٩ .
(٧) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ .

وهو يحدثنا عن أن مظهره لا يدل دائما على دخيلته ، لأنه يصبر على أمور لا يبديها فيقول :

وقـــد امنـــونى واطمانت نفوســـهم ولم يعلموا كل الذى هو داخلى (١)

٣ ـ الجرأة

وكون الصعاليك شجعانا أمر لا ينازع فيه • فان طبيعة حياتهم التى تعتمد على العدوان والصراع الدائم مع الناس لا يصلح لها الا رجل شجاع ، ولكنا نريد أن نبرز الجانب الذى يميز شجاعتهم عن غيرهم من شجعان العرب. وهذا الجانب يتمثل فى الجرأة ، بمعنى أن صفـة الشجاعة فيهم لا تحتاج الى تدليل وتوضيح ، وانما الذى يحتاج الى توضيح مظهر شجاعتهم ، أو طريقتهم فى استخدام هذه الشجاعة واظهارها ، وطريقتهم أو طابع شجاعتهم هو الجرأة، وتتمثل جرأتهم فى المخاطرة والمجازفة التى تشبه من يسمون فى التعبير الحديث الفدائيين ، ولعـله أقرب الأوصاف الى طابع شـجاعة الصعاليك ، فالصعلوك أشبه ما يكون بالفدائى ، غير هياب للموت ، لأنه غير حريص على الحياة (وسنرى افاضة شعر الصعاليك فى الاستهانة بالموت) وهو دائما البادىء بالعـــدوان أو الصراع ، ولا يلقى كبير بال لما تتمخض عنه الأحداث والأيام من نتائج . ومهما يبلغ من سوء النتائج فى توقعها فان ذلك لا يفزعه ولا يثنيه ، حيث أنه وضع فى مقـدمة احتمالاته دائما الموت ، وهو شر ما يتوقع ، فكل ما هو دون الموت هين يسير بالنسبة اليه •

ولذلك كانت مواقف الصعاليك وحياتهم تتسم دائما بالجرأة ، وعدم المبالاة بالنتائج ، ولو كان من بينها الموت ، حتى انه ليس من المبالغة أن يقال أنهم يسعون الى الموت أكثر مما يسعى هو اليهم •

وهـــذا سعد بن ناشب يبلغه ان الوالى هدم داره مطاردا اياه ، فيقـــول متحدثا عن جرأته ، ومظهرا استعداده لمواجهة الموت ، بل ساعيا اليه فى مقدمة الساعين :

فان تهدموا بالغدر دارى فانهـــا تراث كريم لايبـــالى العـــواقبا
أخى غمرات لا يريد على الـــذى يهم به من مقطع الأمر صـــاحبا
فيا لرزام رشحوا بى مقدمــــا الى الموت خواضـــا اليه الكتائبا
اذا هم ألقى بين عينيه عـــزمه ونكب عن ذكر العـــواقب جانبا (٢)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٣٤ •

(٢) حماسة أبى تمام ١/١٥ ، ١٦ •

وتأبط شرا يقول أنه وقف حياته على طلب الثأر ومقارعة صناديدالفرسان الذين تؤازرهم أقوامهم فى حين أنه هو لا يعتمد على أحد ، ويضيف معنى نبيلا قلما نجده فى شعر الشجعان ومفاخرهم ، وهو يقول أنه فى قتاله واستبساله لا يهدف الى أن يوصف بالشجاعة

قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقى كميا مسفعا (١)
يماصعه كل يشجع قومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وجحدر بن ضبيعة يأبى أن يجز شعر لمته كما فعل قومه من بكر . حين تعاقدوا على حلق رؤوسهم فى احدى مواقعهم مع تغلب لتكون علامة يعرف بها بعضهم بعضا ، ولكن جحدرا صعلوكهم الشاعر الفارس يقول لهم : دعوا لمتى لأول فارس يطلع غدا من الثنية ، يعنى أنه سيكون أسبق قومه الى القتال فى الموقعة ، وأنه سيجالد أول فارس يطل عليهم من أعدائهم ، فلم لا يتركون ناصيته لهذا الفارس يجزها ان لم يستطع هو أن يقتله ؟ ثم يقول لهم شاعرا ، ردوا على الخيل فى الحرب فأنا فارسها ، فان لم أفعل فلمتى حل لكم ، وقد علمتم بأسى وشجاعتى ، بل ان أمى لتعلم شجاعتى منذ كنت وليدا فى لفافاتى فيقول :

ردوا على الخيل ان ألمت ان لم أنا جزها فجزوا لمتى
قد علمت والدة ما ضمت ما لففت فى خرق وشمت (٣)

والذى يعنينا أكثر من غيره فى هذه القصة ، هو أنه لا يلفت نظرنا مجرد شجاعة جحدر ، فقد يكون قومه أو فرسانهم جميعا أو بعضا شجعانا ، ولكن الذى يلفت النظر تحفز جحدر لأن يكون أول مقاتل وساع الى القتال ، وهو من معنى الجرأة الذى نعنيه ، وعروة بن الورد سريع الاستجابة لداعى الوغى فيقول :

اذا قيل يا ابن الورد أقدم الى الوغى أجبت فلاقانى كمى مقارع (٤)

ويبين عروة سبب اقدامه وجرأته ، فيقول انه عدم الحرص على الحياة ، وعدم الجزع من الموت :

فان فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر (٥)

---

(١) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ والكمى الشجاع والمسفع المتغير لون الوجه من الحمية والغضب

(٢) يماصعه يجالده ويقاتله ويشجع قومه يعنى يشجعه قومه والشطر الثانى يعنى أن تأبط شرا لا يفعل ذلك ليوصف بالشجاعة .

(٣) حماسة أبى تمام ١٩٥/١ وألمت نزلت والبيت الثانى يعنى أن أمه تعلم شجاعته منذ كان فى لفافاته رضيعا . ويسمى هذا اليوم يوم التحاليق لحلق بكر رءوسها فيه وقد انتصروا على تغلب .

(٤) ديوانه ص ١٠٠ .

(٥) الاصمعيات ص ٣٧ .

وصخر الغى يتحدث أيضا عن سرعة استجابته للقتال فيقول :

وكنت اذا سـمعت دعـاء داع أجبت فـلا ألـف ولا مكيث (١)

ويصف لنا نفسه حين يجيب داعى القتال بأنه « ذو مبادهة » يعنى بذلك أنه صاحب البدء والمفاجأة بالقتال ، وانه ماض على الهول ، وأنه مقدام الوغى، وأنه بطل فيقول :

أبا المثـلم انى ذو مبادهة ماض على الهول مقدام الوغى بطل(٢)

ولم يكن وصف صخر لنفسه خيال شاعر ، فان الغريب أن خصمه أبا المثلم الهذلى ، الذى يخاطبه صخر بهذا الشعر ، لم ينكر على صخر ما وصف به نفسه من هذه الصفات وغيرها وقد اعترف بذلك فى منافراته الشعرية الكثيرة بينه وبين صخر (٣) وأبو خراش يقـول أنه يتقدم المغيرين ليهديهم فى دجى الليل ، وليكون أسبقهم الى القتال :

وانى لأهدى القوم فى ليلة الدجى وأرمى اذا قيل هل من فتى يرمى (٤)

وأما سعد بن ناشب فانه يلتزم تجاه أعدائه طابعا من الشراسة والفظاظة الدائمة ، حتى يحفظ على نفسه كيانها وهيبتها ، أنه فى الشدائد التى تثقل على الفرسان وأبناء الحروب يكون هو من أبر أبناء الحرب بها فيقول :

فانا اذا ما الحرب ألقت قناعها بها حـين يجفوها بنوها لأبرار (٥)

ويقول عن تلك الشراسة وسبب تمسكه بطابعها ، وميدان توجيهها :

تفندنى فيمـا ترى من شراستى وشـدة نفسى ومـا تـدرى
فقلت لها أن الكريم وان حـلا ليلفى عـلى حال أمر من الصبر
وفى اللين ضعف والشراسة هيبة ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بى على من لان لى من فظاظة ولكننى فـظ أبى عـلى القسـر
أقيم ضغاذى الميـل حتى أرده وأخطمه حتى يعـود الى القدر (٦)

ومالك بن الريب يحكى صورة من قتاله عدوه فيقول :

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٢٢٤ والألف ، الضعيف والمكبث من المكث وهو التقاعد .
(٢) ديوان الهذليين ٢/٢٢٩ والمبادهة المفاجأة .
(٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٢٢٣ ـ ٢٤١
(٤) المصدر السابق ٢/١٣١ .
(٥) المصدر السابق ١/٢٧٣ .
(٦) المصدر السابق ١/٢٧٠ ، ٢٧١ والصغا العوج والخطم من امساك خطام الدابة والقدر الاعتدال .

خـــذها وانى لضراب اذا اختلفت أيدى الرجال بضرب يختلى البصلا(١)

وحين تسلل ذئب ليفترسه صرعه مالك بسيفه ثم قال يخاطبه :

فانت وان كنت الجـــرىء جنـــانه منيت بضرغام من الأســـد الغلب
فلست ترى الا كميـــا مجـــدلا يداه جميعا تثبتان من الترب (٢)

وأما عبيد بن أيوب فيشبه نفسه بالصقر المتحفز دائما للانقضاض فيقول:

لكا لصقر جلى بعـدما صاد فتيـة قديرا ومشـــويا عبيطا خرادله (٣)

٤ ـ الاستهانة بالموت

لو كان بالصعاليك حرص على الحياة كما يحرص سائر الناس ، ولو كان بهم نفور من الموت كمـا ينفر ســـائر الناس لما تسنى لهم أن يكونوا صعاليك ، ولكن الصعاليك لا يحرصون على الحياة ولا يرهبون الموت كما يرهبه سائر الناس ، ولذلك تسنى لهم أن يعيشوا حياة تقوم على المخاطرة والمبادهة كما يقول صـــخر الغى (٤) ، وعلى ترقب الموت ، ليس من الأعـــداء والناس فحسب ، وانما من كل وجه من وجوه حياتهم بوحوشها وحياتها ومجاهلهـا وغير ذلك

ولئن كان بعض الناس من غير الصعاليك يتحدثون عن الاستهانة بالموت، فاننا فى سبيل محاولتنا دائما أن نبرز خصائصهم التى تميزهم عن غيرهم ، نقول أن الذين يتحدثون عن الاستهانة بالموت من غير الصعاليك يربطون ذلك بمواقف معينة يرون فيها أن الموت خير من الحياة ، وأن الذى دعاهم الى الاستهانة بالموت فى هذا الموقف انما هو مقارنة بين الموت وموقف أو نتيجة أسوأ منه ، كالمقارنة بين الفرار فى الحرب والموت ، حين يرى المقاتل أن الموت خير من عار الفرار أحيانا ، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلى عن الذود عن العرض ، حين يرى الذائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار ، وهكذا ، فى مواقف معينة

---

(١) مهذب الأغانى ١٣/٥ وخذها يعنى الضربة واختلاف الأيدى أن يضرب كل منهما ضربة معا والبصل بيضة الحديد يضعها المقاتل على رأسه ٠

(٢) مهذب الأغانى ١٦/٥ ٠

(٣) كامل المبرد ٢٠٠/١ وجلى نظر مستشرفا للانقضاض وقديرا مطبوخا فى قدر والعبيط اللحم الطرى والخرادل يعنى القطع يريد أنه بعد هجره حياة الناس أصبح كالصقر يعيش على الفرائس والبيت الذى قبله : فانى وتركى الانس من بعد حبهم وصبرى عمن كنت ما أن أزايله ٠

(٤) ديوان الهذليين ٢٢٩/٢ ٠

محددة ، ولكن نظرة الصعاليك فى جملتهم الى الموت غير ذلك ، انهم يستهينون بالموت لذاته ولو بغير مقارنة بينه وبين موقف آخر ، وكأن شعور الاستهانة بالموت صفة أصيلة دائمة فيهم لا يثيرها موقف معين ، ولا يتوقف ظهورها على ظرف من الظـروف كمـــا يلاحظ ان ذلك بالنســـبة لغيرهم من المستهينين بالموت هـــذا فضـــلا عن أن المستهينين بالموت من غـــيرهم أفراد قـــله فى مجتمعاتهم ، مما يضفى على مواقفهم طابع الشذوذ والتميز الذى يدعوهم الى الفخر بها ، ويدعو الناس الى الاعجاب بهذه المواقف لأنها غير مألوفة ، أمابالنسبة للصعاليك ، فهذا الشعور يبدو من شعرهم وأخبارهم ليس فى أفراد أو قلة منهم ، وانما هو شعور عام يغلب عليهم جميعا فى جملتهم ، حتى أننا نجـد الأمر فى مقارنتهم بغيرهم معكوســـا ، فبينمـــا يعتبر المستهين بالموت من غير الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور عن الكثيرين من مجتمعه ، يعتبر الهيـــاب للموت من الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور بين الصعاليك ، وليس هذا بالغريب ، فالمألوف فى الناس من غير الصعاليك الحرص على الحياة والرهبة من الموت ، والذى يشذ عن هـــذا الشـعور ، يعتبر منفردا متميزا بينهم ، وأما الصعاليك فشعورهم العام عدم الحرص الشديد على الحياة ، فالذى يحرص عليها هيابا للموت يعتبر ، شاذا منفردا بينهم ، ولذلك يجد الدارس لحياة الصعاليك وأشعارهم نشزا بارزا أمامه حينما يجد حديثا أو شعرا عن فرار أحدهم فى موقف وان كان عصيبا ، كبعض أخبار حاجز الأزدى(١) وأبى خراش الهذلى(٢) ، على أننا نلاحظ أن هؤلاء كانوا من أشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل، فكانوا اذا أحاط بهم الأعداء فى موقف يوقنون فيه بالموت يجدون معهم سلاحا خطيرا ، هو العدو ، فكان من الحكمة أن يتخذوا من موهبة العدو سبيلا للنجاة، ثم يعودون للانتقام من أعدائهم ، فذلك أقرب الى الحكمة من استسلامهم للموت، ولكن بعض الرواة بالمقياس الذى أشرنا اليه ، وهو شذوذ الهيبة من الموت بين الصعاليك كانوا يرون فى فرارهم هذا شيئا من الغرابة لا لذاته ، وانمالمقارنته بالمألوف والمتوقع من الصعاليك ، ومن المرجح أن هؤلاء الذين فروا بالعدو ، او لم تكن لديهم وسيلة العدو لآثروا الموت على الاستسلام لأعدائهم ، كما فعـل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية حين حاصره جمع من مزينة كانوا مغيرين للغنيمة ممن يجدون منه غرة ، على أسلوب الصعاليك ، فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخـذوه غنيمة ، فأبى قائلا : نفسى أكرم على من الأسر ، ولم يكن قيس من العدائين حتى يحاول النجاة بعدوه ، ولذلك آثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهينا بالموت :

أنا اذا المـوت ينـــال غاليـه مختلط أســـفله بعــــاليه

---

(١) أنظر مهذب الأغانى ٩٣/١ .
(٢) أنظر ديوان الهذليين ١٤٢/٢ ـ ١٤٤ .

قد يعلم الفتيـان أني صـــاليه   اذا الحـــديد رفعت عواليـــه (١)

وكما قدر تأبط شرا فى نفسه حيث وقع فى مأزق من هذه المآزق ، حين حاصره بنو لحيان الهذليون ، وطلبوا منه أن يستأسر ، فأبى الأسر ، وقدر فى نفسه مقارنة بين الأسر وما يتبعه من رق أو فداء أو منة ، وأيا كان فهو أسر ، وبين الموت ، فلم يتردد فى ايثار الموت اذا لم ينجه احتمال ثالث وهو عدوه المشهور بسبق الخيل فيقول :

هما خطتـا ، اما اسـار ومنة   واما دم ، والقتل بالحـر أجدر (٢)
واخـرى أصـادى النفس عنها وانها   لمورد حـــزم ان فعلت ومصـــدر(٣)

ولكن حظ تأبط شرا كان حسنا ، اذ نجح احتماله الثالث ، وهو اعمال الحيلة ، ثم النجاة عاديا على ساقيه (٤) والذى يعنينا هـــو أن تأبط شرا فى تندبره للموقف ، جعل الموت نصب عينيه ، مؤثرا اياه على الأسر حتى مع احتمال أن يمن عليه آسروه ، وهو فى هذا لا يمثــل خلقه وحده ، وانما يمثــل خلق الصعاليك ، جميعا ، وهذا البعض الذى تحدثوا عنه بالفرار من أفرادالصعاليك، انما كان موقفهم كموقف تأبط شرا هذا ، لأن الذين تحدثوا عنهم بالفرار كانوا من أشهر العدائين كما قلنا ، وقد فضل صخر الغى موته على الأسر(٥) ، وحديث الاستهانة بالموت من أبرز المعانى التى طرقها شعر الصعاليك ، حتى أنه لا يكاد شاعر منهم يخلو شعره من هذا المعنى ، بل أننا نراه مكررا فى صور مختلفة لدى معظم شعرائهم ، فتأبط شرا يستهين بالموت ، لأنه يعلم أن حياة مثله من الصعاليك الذين يغرون دائما بالأعداء معرضة لمواجهة الموت فى كل حين ،ولذلك فهو مهيىء نفسه لاستقباله ، ويزيد تأبط شرا على ذلك أنه يعلم أن الناس يعرفون فيه هذه الصفة ، فينصحون من يعنيهم شأنها ألا تتزوجه لأن هامته مهيأة لأول سهم يلقاها فيقول :

وقالـــوا لا تنكحيـــه فـــانه   لأول نصـــل أن يلاقى مجمعـا (٦)
ثم ومن يغـر بالأعداء لا بد أنـه   سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

---

(١) أنظر أغانى الأصفهانى ١٤/١٤٤ وما بعدها •

(٢) حماسة أبى تمام ١/١٧ ، ١٨ وخطتا يعنى هما احتمالان اما الأسر واما القتل ، يقول انه يفضل أن يقتل على أن يأسروه حتى ولو منوا عليه بعد ذلك باطلاقه بدون فداء •

(٣) واخرى يعنى هناك طريقة او حيلة اخرى يعنى محاولة النجاة وأصادى أشاورو الشطر الثانى يعنى أن محاولة النجاة فيها كل الحزم •

(٤) أنظر القصة فى شرح حماسة أبى تمام عن التبريزى ١/١٦ ، ١٧ •

(٥) أنظر قصة مقتله بشرح ديوان الهذليين للسكرى •

(٦) حماسة أبى تمام ١/١٨٩ ومجمع جماعة يعنى اذا لاقى جمعا سيقتل بأول نصل منهم والأبيات متفرقة فى القصيدة ولكنها مرتبطة المعانى وسنان الموت فى البيت الآتى يعنى الموت نفسه مشبها اياه بالسلاح •

ثم ـ وانى وان عمرت أعلم أننى　　سالقى ســنان الموت يبرق اصلعا

ويحكى تأبط شرا صورة من صور عدم مبالاته بالموت حين يمشى حافيا فى أماكن يعلم أن فيها هلاكه شاعرا بما فى سراه من مخاطرة فيقول :

يسرى على الأين والحيات محتفيــا　　نفسى فداؤك من سار على ساق (١)

ولذلك كله فهو ينصح نفسه ، وينصح غيره ، بأن يستغل ما يملك فى زكاء نفسه وكسب حمد لها ، لأن الموت متوقع فى كل حين فيقول :

سدد خلالك من مال تجمعــه　　حتى تلاقى الذى كل امرىء لاقى (٢)

والشــنفرى يبلغ أقصى الاستهانة والاستخفاف بالموت حــين يوصيهم ألا يدفنوه ، بل يتركوه للضباع توسعة عليها ، لأن الضباع خير من أعدائه الذين يحرصون على أن يحملوا رأسه يشفون بها صدورهم وصدور أهليهم ، ثم يتركوا جسده فى المكان الذى لاقوه فيه يقول :

لا تقبرونى ان قبرى محــرم　　عليكم ولكن أبشرى أم عامــر (٣)
اذا احتملوا راسى وفى الراس اكثرى　　وغــودر عند الملتقى ثم ســائرى

ويؤكد الشنفرى أن المــوت ليس رهيبا ولا مخـوفا لديه ، لأنه مستعد لاستقباله دائما ، ومما يزيد فى اطمئنانه الى الموت أنه لن يكون هناك عمــات ولا خالات بواكى عليه ، لأنه يعيش فى فلواته بعيدا عن الناس ، فضلا عن أن قومه من أزد اليمن قد انقطعت بينه وبينهم الصلة ، منذ اختطف صغيرا من بينهم ، وهو الآن فى صحراوات نجد وجبالها ، فيقول عن المعنى الأول :

اذا ما أتتنى ميتتى لم أبالهــا　　ولم تذر عماتى الدموع وخالتى
ولو لم أرم فى أهل بيتى قاعــدا　　اذن جاءنى بين العمودين حمتى (٤)

وأما عروة بن الورد ، فما أكثر ما تحدث عن استهانته بالموت ، واستعداده للقائه فى كل حين ، فنراه مرة يزجر امرأته التى تنهاه عن المخاطر خوفا من

---

(١) المفضليات ٢٧ والسرى السيرفى الليل والأين التعب أو نوع من الحيات ومحتفيا حافيا •

(٢) المفضليات ٣٠ وسدد من سداد الرأى وخلالك يعنى خصالك يريد أكتسب حمدا بمالك ولا تدخر فانك ملاق الموت •

(٣) حماسة أبى تمام ١٨٨/١ وأم عامر كنية الضبع يريد لن تقبرونى ولن يكون لى قبر ، لأنى واثق أن أعدائى الكثيرين سيظفر بعضهم بى فيحملون رأسى ويتركون جسدى للضباع وهذا المعنى لا يتعارض مع التقديم للبيتين •

(٤) المفضليات ١١٢ ولم أرم لم أبرح والعمودين يريد عمودى الخيمة والحمة الموت يعنى حتى لو ظللت مقيما فى أهل بيتى لجاءتى الموت فى خيمتى •

الموت ، يقول لها أنه يريد أن يستقبل الموت وهو يصارع الحياة وصولا الى هدف ، لا أن يستقبله قعيد البيت فيقول :

أرى أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس اخوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا ... يصادفه فى أهله المتخوف (١)

ويقول لها أيضا :

ذريني ونفسي أم حسان انني ... بها قبل ألا أملك البيع مشترى
فان فاز سهم للمنية لم أكن ... جزوعا ، وهل عن ذاك من متاخر (٢)

ويقول أيضا :

أليس ورائى أن أدب على العصا ... فيشمت أعدائى ويسأمني أهلى (٣)
رهينة قعر البيت كل عشية ... يطيف بى الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم ... فكل منايا النفس خير من الهزل

ويقول أيضا أن المنايا متربصة فى كل ثنية يواجهها المرء ، ولا مفر له منها ، فليس من الحكمة أن يتهرب من أمر لابد واقع فيقول :

وان المنايا ثغر كل ثنية ... فهل عن ذاك من متاخر (٤)

ويؤكد هذا المعنى أيضا فى قوله :

محالف قاع كان عنه بمعزل ... ولكن حين المرء لابد واقع (٥)

ولذلك فهو ينصح المرء بألا يترك خوف الموت يذيقه ذلا أو فقرا فيقول :

فقلت له ألا احى وأنت حر ... ستشبع فى حياتك أو تموت (٦)

وينصح الصعلوك بأن يبذل أقصى جهده فى صراع الظروف والفقر ، فان حقق أهدافه طابت نفسه ، وان مات فى سبيل تحقيقها مات محمودا فيقول :

ولله صعلوك صفيحة وجهه ... كضوء القابس المتنور (٧)

---

(١) حماسة أبى تمام ٢/٢٣٨ .
(٢) الاصمعيات ٣٦ .
(٣) مهذب الأغانى ٢/٢٣ وما بعدها والحيوان للجاحظ ٤/٣٥٦ والرأل فى البيت التالى ولد النعام .
(٤) ديوان عروة ٩٦ .
(٥) ديوانه ٩٩ والحين الموت .
(٦) ديوانه ٨٦ .
(٧) حماسة أبى تمام ١/١٦٠/١٦١ وصفيحة وجهه عرضه والقابس طالب النار من القبس وكذلك المتنور يريد ظهور الجد والحركة فى وجهه فى مقابلة نعيه على الكسل والخمول قبل ذلك .

مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
فذلك ان يلق المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فاجدر

وأبو خراش يؤثر الموت على حياة ذليلة مهما كانت صورة الذل ، فيقول فى سياق سبب احتماله الجوع الشديد :

مخافة أن أحيا برغم وذلة ولللموت خير من حياة على رغم (١)

وأما قيس بن متمد فهو متأهب للموت ولو فى غير اختيار بينه وبين موقف آخر فيقول :

فان تأتنى الدنيا بيومى فجاءة تجدنى وقد قضيت منها مآربى (٢)

ويزيد العقيلى يجعل من استهانته بالموت ما يشبه الحكمة فيقول :

اذا ما المنايا أخطاتك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود (٣)

وسعد بن ناشب يرفض أن يقيموا على هوان مخافة الموت فيقول :

ولسنا بمحتلين دار هضيمة مخافة موت ان بنا نبت الدار (٤)

وأما أبو النشناش النهشلى فانه وان كان يقارن بين الموت وحياة الحاجة والعدم ، الا أننا نحس أنه يركز على استخفافه بالموت لذاته ، ويتناول تهوينه من جوانب مختلفة فيقول :

فللموت خير للفتى من قعوده عديما ومن مولى تدب عقاربه
فعش معدما أو مت كريما فانني أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
ولو كان حى ناجيا من منية لكان أثبرا حين جدت ركائبه (٥)

وأبو الطمحان القينى يتمثل موته وما يعقب هذا الموت من تركه وحيدا فى لحد ضيق ، وكأنه مترقب لهذا الموت فيقول :

ألا علانى قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسي على غد اذا راح أصحابى ولست برائح
اذ راح أصحابى تفيض دموعهم وغودرت فى لحد على صفائح

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ٠
(٢) مهذب الأغانى ٩٣/١ ٠
(٣) كامل المبرد ٦١/١ ٠
(٤) حماسة أبى تمام ٢٧٣/١ ٠
(٥) حماسة أبى تمام ١١٥/١ والاصمعيات ١٢٥ وأثبر يبدو أنه شخص كان يضرب به المثل يعنى لو كان لأحد أن ينجو من الموت لنجا هذا الشخص ٠

يقولون هـل أصـلحتم لأخيكـم ... وما اللحد في الأرض الفضاء بصالح(١)

ومالك بن الريب يرى أن مروءته تمنعه من الفرار من الموت ، ولولا كرم نفسه وعزتها لكان له عن الموت منصرف فيقول :

أرى الموت لا أنحاش عنه تكرما ... ولو شئت لم أركب على المركب الأصعب(٢)

وأما توبة بن الحمير فيتحدث عن ليلى الأخيلية حبيبته ، قائلا أنه يخاطر ما يخاطر في صعلكته لاحدى غايتين ، فاما أن يسعدها بغنى وميسره ، واما أن يلقى حتفه ، فيفسح لها الطريق ويفك هو من أسر حبها فيقول :

أظن بهـا خـيرا وأعلم أنهـا ... ستنعم يوما أو يفك أسـيرها (٣)

وشعرهم في هذا المعنى يطابق أخبارهم ، حيث نجد أن معظم من بلغتنا تفاصيل من أخبارهم ماتوا قتلى بسيوف الأعداء وسلاحهم ، ومن هؤلاء الشنفرى وتأبط شرا والسليك بن السلكة ، وقيس بن الحدادية وعمرو ذو الكلب وصخر الغي وتوبة بن الحمير ، ولم تحدثنا الأخبار أن أحدا منهم قبل طائعا أن يكون أسير ، بل حققوا ما شاع في شعرهم من استهانتهم بالموت (٤) .

٥ ـ الحذر واليقظة

ومن الواضح أنه لا تعارض بين الاستهانة بالموت والحذر ، فالمحارب في ميدان القتال مهما بلغ من البسالة والاقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيطة وحذر ، ولا يخل هذا بوصفه بالبسالة والاقدام بل ان الحيطة والحذر جزء من كل ما يوصف به من بسالة واقدام وشجاعة .

ولم تكن حياة الصعاليك مجـرد ميدان قتال ، ولـم تكن المخاطر التى تتربص بهم مجرد أعداء محاربين أو متربصين ، أن حياة الصعاليك معركة مستمرة متصلة بين الحياة والموت ، لا فرق فيها بين ليل ونهار ، ولا بين صبح ومساء ، ولا بين حركة واستقرار كل ذلك أجزاء ومراحل وصور من المعركة المتصلة بينهم وبين الموت الذى يرقبونه في كل شيء ، في الضحايا الذين يتربصون أو يسطون

---

(١) حماسة أبى تمام ١/٢٧٣ وقد أظهر الخليفة المامون اعجابا بهذه الأبيات لما فيها من موعظة والصفائح الحجارة .

(٢) مهذب الأغنى ١٦/٥ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجي وأظن بها خيرا يريد أعتقد فيها الوفاء وستنعم يعنى بفناه أسيرها يعنى موته .

(٤) أنظر مراجع أخبارهم في تراجمهم باب (الشعراء الصعاليك) .

أو يغيرون هم عليهم ، وفي الأعـداء الكثيرين الذين خلقتهم غاراتهم وجناياتهم والذين يتربصون هم بدورهم بالصعاليك ، وفي الوحوش الضارية الكثيرة المنبثة من حولهم والتي لا يأمنون غرتها في كل حين ، وفي هوام الأرض وحياتها التي تنساب في كل وجه دون حس أو دبيب ، وفي ظـروف أخرى كثـيرة تكتنف حياتهم في كل وجه من وجوهها ٠

ولذلك كان لزاما على الصعاليك أن يجعلوا من صلب اسلحتهم في حياتهم هذه اليقظة والحذر الشديدين ، وكان من الصفات الأساسية في كل صعلوك أن يكون حذرا متيقظا شديد الحيطة والاحساس بالمخاطر ، وقد جعلت هذه اليقظة فيهم ما يشبه الغريزة في الاحسـاس بالخطر والتهيؤ له ، وعدم المفاجأة في وقوعه ٠

وقد ساعدتهم هذه اليقظة في الخلاص من مآزق كان مصيرهم فيها شرا اولا هذه اليقظة ، ومن ذلك قصة السليك مع الرجل الذى عدا على السليك وهو نائم ليأسره أو يقتله ان أبى الأسر ، ولكن يقظة السليك من حيث توقعه للمخاطر دائما ، وعدم ارتباكه بالمفاجأة هيأ له النصر على خصمه هذا (١) وقصة مالك ابن الريب مع أفلح الصعلوك الذى ظل عشرين سنة يقطع طريق خراسان وحده على القوافل ، حين جثم أفلح بضخامته على مالك وهو نائم (٢) ، ولكن مالكا مع ذلك لم تدهشه المفاجأة ، بل هب وكأنه لم يكن نائما فأهوى على أفلح بسيفه فصرعه (٣) ، وفي ليلة أخرى سطا ذئب على مالك أيضا ، ولكن مالكا كان أشد منه حذرا ويقظة ، فاستطاع أن يصرعه بسيفه (٤) ولذلك نرى حديث الصعاليك عن اليقظة والحذر بارزا في شعرهم ، ويبدو منه ضيقهم بالنوم ، لأنه يفسد عليهم التزامهم الحذر واليقظة ، ولكن مع ذلك لم يتركوا للنوم أن يفسد عليهم حياتهم فنرى في شعرهم أن نومهم يكاد يكون صوريا ، وأنه أقرب الى اليقظة منه الى النوم الحقيقي ، وأخبارهم الكثيرة تؤيد ذلك كما مثلنا ، وهذه الأمثلة لا تدل على أحداث فردية فقط ، وانما تدل على صفة عامة في الصعاليك ، هي اليقظة الشديدة التي جعلت حتى نومهم متيقظا ، ولو تصورنا نائما عاديا فوجىء بخطر كبعض ما مثلنا لما تسنى له أن يكون في شيء من هذه اليقظة العجيبة التي تحلى بها الصعاليك ، والتي لم يفسدها عليهم حتى نومهم ٠

وتأبط شرا يصور لنا يقظته هذه ، تصويرا عجيبا حقا ، فيقول ان بين عينه وقلبه صلة في الاحساس بالخطر ، فبينما قلبه يراوده الاحساس بالخطر ، اذا عيناه تنظران فتجدان سلاحا مصوبا نحوه ، ويعلل ذلك بأن الحذر أصبح

---

(١) أنظر مجمع الأمثال ١١/٢ ٠
(٢) أنظر رسائل الجاحظ ١٩٣/١ ٠
(٣) وانظر مهذب الأغاني ١٣/٥ ٠
(٤) أنظر مهذب الأغاني ١٥/٥ ٠

سجية فيه حتى انه اذا نام ظل قلبه حارسا يقظا محاذرا ، ينبهه الى أى خطر يحيط به يقول :

اذا خاط عينيه كرى النـــوم لم يزل — له كالىء من قلب شيحان فاتك (١)
ويجعل عينيــه ربيئة قلبـــه — الى سلة من حـد أخضر باتك

ويصف نومه القريب من اليقظة أيضا قائلا انه ينام ، ولكن قلما تصيبه من نومه غرة أو استغراق ، بل هو يقظ النوم لأنه بين خطرين ، فهو دائما طالب ومطلوب معا ، وأخشى ما يخشاه الغرة من أعدائه ، كما أن أحرص ما يحرص عليه أن يجد منهم غرة ، ويحدث بذلك المرأة التى أبت الزواج منه لأنه معرض دائما للموت من أول نصل يلاقيه فيقول :

فلم تر من رأى فتيــلا وحاذرت — تأيمها من لابس الليل أروعا (٢)
قليل غـرار النــوم اكبر همـه — دم الثأر أو يلقى كميـا مسفعا (٣)
على غـــرة أو نهزة من مكانس — أطال نزال القـوم حتى تسعسعا (٤)

ويصرح تأبط شرا بأنه يغالب النوم دائما ، لأن النوم عدوه الحقيقى ، وأنه يسلك كل وسيلة ليذود النوم عن عينه ، ومن ذلك أنه يوقد أحيانا النار فى بعض سراه ، لا لشىء الا ليصرف النوم عن عينه ، ويريح راحلته قليلا من جهد السرى الطويل ، ثم يواصل سراه بالليل بعد اطمئنانه الى ذهاب النوم عنه .

ونار قد حضـــأت بعيـد وهـــن — بدار ما أردت بهـــا مقامـــا (٥)
ســـــوى تحليل راحلة وعـــير — أكالئــه مخـــافة أن ينـاما (٦)

ويصف لنا الشنفرى صورة يقظته الدائمة ، فيقول انه يبيت الليل فى مرقبته يقظا ، وقد وضع ذراعيه أمامه وانكفأ محدبا عليهما ، ولكنه لايفعل ذلك بغية الراحة ، وانما ليتاح له أن يفحص ببصره الحديد الأماكن والسبل أمامه . ويدور برأسه كالأفعى الملتوى مراقبا ما حوله فيقول بعد وصفه المرقبة والظلام من حوله :

---

(١) أنظر الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ (هامش) والكالىء الحارس وشـــيحان حذر غيور والربيئة الراصد الذى يستطلع للقوم طريقهم والسلة المرة من سل سيفه .

(٢) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ والفتيل مثل للتفاهة يعنى كان رأيها تافها والتأيم فقد الزوج ولابس الليل كناية عن الحذر .

(٣) المسفع المتغير لون الوجه .

(٤) الغرة الغفلة والمكانس الملازم للكناس مأوى الظبى وتسعسع قارب النهاية .

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ٣٥٠/١ فى المثل (أسرع من العير) وحضأ النار أوقدها وأشعلها والوهن الكلال والتعب .

(٦) تحليل راحلة يعنى ارحلتها والعير انسان العين وأكالئه أراقبه وأحرسه يعنى انسان عينه .

فبت على حـــد الذراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

ويبين الشنفرى سبب هذه اليقظة الشديدة ، فهو بالأضافة الى أنه طالب صيد ، هو أيضا طريد جنايات كثيرة جناها ، جعلت له أعداء كثيرين يتربصون غرته ، ان نام هو فعيونهم هم يقظى متعجلة الظفر به ، فيقول :

طـريد جنـايات تياسرن لحمـــه عقيرته لأيهـا حم أول (٢)
تنـام اذا ما نام يقظى عيونها حثاثا الى مكروهـه تتعجل (٣)

ويقول مالك بن حريم ان طلبه للثأر نغص عليه النوم :

لم أك فيهـــا لما بليت بهـا نـؤوم ليـل يغـرنى الطمع (٦)

وليست حادثة معينة تدعو مالكا الى اليقظة ، ولكنه يقول انه جعل الحذر صفة فيه ، حتى لا يفاجأ بغارة ، فهو متيقظ لأدنى حركة من سوائم حيه ، هنالك يحس بأنها غارة الأعداء ، فلا يؤخذ حينذاك على غرة فيقول :

فواحـــدة ألا أبيت بغـــرة اذا ما سوام الحى حولى تضوعا (٥)

ويصــفون مالك بن الريب أنه من حذره ويقظته كان ينام دائما محتضنا سيفه ، وهو يقول ذلك للذئب الذى عدا عليه فى القصة السابقة ٠

فانت وان كنت الجرىء جنـانه منيت بضرغام من الأسد الغلب
بمن لا ينام الليل الا وسـيفه رهينة أقوام سراع الى الشغب (٦)

وأبو خراش يصور يقظته فى مرقبته مع صاحبه ، فيقول عن صاحبه انه لا يؤتى قط عن غرة ، وانه يبعثه ربيئة ومستطلعا فى أوقات من الليل ينام فيها طلاب النوم والدفء ، أما هما فليسا من طلاب النوم ولا الدفء فيقول :

لست لمرة ان لم أوف مرقبـــة يبدو لى الحرف منها والمقاضيب
بصـاحب لا تنال الدهـر غرته اذا افتلى الهـدف القن المعازيب
بعثتـه بســـواد الليـل يرقبنى اذا آثر النوم والدفء المناجيب (٧)

---

(١) مهذب الأغانى ٩٥/١ ومحدبا منحنيا والأرقش الحية الرقطاء ٠

(٢) من اللامية ــ وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه أيضا وحم يعنى اذا مات يريد أن أصحاب الجنايات يتسابقون فى تقسيم لحمه والسبق فى الظفر به ٠

(٣) تنام يعنى الجنايات يريد أصحابها ، اذا نام هو ناموا هم ولكن عيونهم يقظة اليه

(٤) أمالى القالى ١٢٠/٢ من قصيدة فى قصة ثأره لأخيه ٠

(٥) الاصمعيات ٥٨ وواحدة يعنى احدى صفاته والغرة الغفلة والسوام السوائم وتضوع فزع

(٦) مهذب الأغانى ١٦/٥ يخاطب الذئب والضرغام الأسد والشغب اثارة الشر

(٧) ديون الهذليين ١٦٠/٢ والدهر ظرف وافتلى احتجز والهدف الثقيل الوخم من الرجال والقن العبد الخالص الرق والمعازيب الاماء فاعل افتلى يعنى اذا احتجز الاماء ضعيفا فلا يزاول عملا جادا ٠ والمناجيب الضعفاء ٠

ومن صور الحذر التي يراعيها الصعاليك حسن اختيار الطريق الذي يسلكونه ، كما يصف صخر الغي ذهابه الى الماء ليملأ قربته محاذرا ، فلما أراد العودة آثر أن يرجع من طريق غير الذي ذهب فيه ، خشية أن يكون أعداؤه رأوه وهو ذاهب فتربصوا عودته ، وراعى في طريق عودته أن يكون الطريق خلف جبل أو مكان طبيعته تسمح له بالنجاة اذا هوجم فيقول :

فلمـــا جـزمت بـه قـربتي تيممت أطرقة أو خليفـــا (١)

وأما عمرو بن براقة فينفي عن نفسه نوم الليل ، ولكنه يعرف أنها ليست صفته وحده ، وانما هي صفة الصعاليك جميعا ، ويعرف كذلك أن الناس جميعا يعلمون أن هذه صفة الصعاليك ، لأنه إنما ينام الليل خلي البال والمسالم ، أما الصعاليك فلاهم خليو البال ، ولاهم مسالمون ، فلا عجب أن يكون نومهم قليلا غرارا ، فيقول :

تقـول سليمى لا تعرض لتلفـة وليلك عن ليل الصـعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صـارم
الم تعلمي ان الصـعاليك نومهم قليل اذا نام الخلي المسالم (٢)

٦ ـ الحيلة

ولكن الحيـاة المعتمدة دائما على المخاطرة لا تخلو من مآزق يتعـرض لها صاحبها مهما بالغ في حيطته وحذره ، وقد بذل الصـعاليك جهدهم في الحذر واليقظة حتى حرموا على أنفسهم لذة الاستغراق في النوم ، والتمتع به مهما يبلغ بهم الكلال ، كما رأينا من تأبط شرا الذي كان في تجوله وسراه بالليل ، يشعر بالكلال الشديد ، والارهاق المضني هو وراحلته ، ويحس الرغبة الملحة في النوم ولو لحظات يريح فيها جسده المنهك ، ولكنه يأبى الراحة الا لراحلته ، أما هو فلا يزيد على أن يوقد النار بما يبذله من جهد في سبيل اشعالها ليصرف عنـــه النوم ، ثم يواصل السرى والصحو واليقظة ، خشية أن تكون في نومه غرة يؤتى منها ٠

ولكن هذه اليقظة الشديدة لم تحل بينهم وبين المآزق يقعون فيها ، وأخطر هذه المآزق على الصعاليك حصار الأعداء ، حينما يكون هؤلاء الأعداء كثرة لا قبل للصعلوك بها ، ثم يأخذون عليه الطريق فلا يجد مفرا ولا مهربا ، وقد قلنا ان

---

(١) ديوان الهذليين ٧٦/٢ وجزمت ملأت وبه يعني الماء وتيممت قصدت وأطرقة جمع طريق وخليف خلف جبل أوواد والجمع في أطرقة يشير الى التواء الطريق وتعدد مسالكه ٠

(٢) أمالي القالي ١١٩/٢ وتعرض أصله تتعرض وتلفة المرة من التلف وجل معظم ٠

الصعاليك ليس من خلقهم الفرار من الموت ، بل على العكس ، خلقهم الاستهانة بالموت والاستعداد لمواجهته فى كل حين ، وقلنا ان الصعاليك كانوا ازاء موقف كهذا الموقف نوعين ، العدائين وغير العدائين ، أما غير العدائين فلم يكن أمامهم الا طريقان ، الاستسلام للأعداء ، أو الموت فكانوا لا يترددون فى أختيار الموت ، كما فعل قيس بن منقذ مع أنهم عرضوا عليه الأسر ، فأبى وأصر على أن يقاتل مع يأســه من النتيجة ، لانه كان وحيــدا وسط جمع كبير ، وظل يقاتل حتى قتل (١) ، ولذلك لا نعلم أن أحدا من الصعاليك أسر أو قبل الأسر ، مع كثرة ما تعرضوا له من مواقف يسوغ لكل امرىء فيها أن يقبله ، وأما العداءون من الصعاليك فكان أمامهم احتمال ثالث غير الأسر والموت فى مثل هذا الموقف ، وهو النجاة عدوا على أقدامهم ، فحينما يجدون أنفسهم فى الموقف الذى يحاصرهم فيه أعداؤهم ، يجدون مع ضيق الموقف وشدته احتمالا فى النجاة بعدوهم الذى لا تلحقه الخيل ، ولكن هنالك عقبة يجب أن يجتازوها حتى يستطيعوا استعمال أقدامهم ، هذه العقبة هى الخروج من الحصار ، فاذا استطاعوا النفاذ أو التسلل من الحصار كان الأمل فى نجائهم قويا مهما طاردهم الأعداء ، وهذا النفذ او التسلل لا يغنى فيه بالطبع القتال أو استخدام القوة ، لانه موقف فوق طاقة الصعلوك ، وانما يغنى فيه شىء واحد ، هو اللجوء الى الحيلة وحسن التخلص :

وأخبار الصعاليك وأشعارهم تحدثنا عن كثير من هذه المواقف التى استعمل عداءو الصعاليك حيلتهم وسيقانهم فيها حتى نجوا ، ومن ذلك قصة تأبط شرا مع بنى لحيان من هذيل حيث استطاعوا أن يرصدوه حتى صعد مرتفعا من جبل ليجنى عسلا يقتات به ، ولم يكن له طريق غير الذى صعد منه ، فحاصره بنو لحيان ، وطلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا فأبى ، وأصبح يواجه الموقفين ، الموت ، والأسر الذى أباه بشدة ، ولكنه أعمل ذكاءه لايجاد مخرج ثالث ، فالعقبة الكأداء الآن أمامه الحصار ، ولو استطاع النفاذ منه لكان له فى ساقيه شأن ، واذا ذكاؤه يهديه المخرج ، واذا هو يلجأ الى الجانب الآخر من المرتفع الذى يقف عليه ، فيصــب العسل الذى جمعه على صخور ذلك الجانب الآخر بعيدا عن بنى لحيان ، وقد كان صبه العســل ليستطيع الانزلاق عليه فوق الصخور بسلاسة ويسر ، دون أن تجرحه أو تسلخه الصخور التى تشبه ازلاقها حد الفأس كما يقول أبو خراش ، وبهذه الحيلة استطاع تأبط شرا النجاة من موقفه الخطير ، ثم يقول عن موقفــه هذا :

اذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر (٢)

---

(١) مهذب الأغانى ١/٢٢٥ ، وكذلك صخر الغى فى قصة مقتله • أنظر شرح السكرى لديوان الهذليين •

(٢) حماسة أبى تمام ١/١٧ ، ١٨ ولم يحتل من الحيلة ، والشطر الثانى يعنى الفشل وادبار الهزيمة •

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا — به الخطب الا وهو للقصد مبصر (١)
فذاك قريع الدهر ما عاش حـول — اذا سد منه منخر جاش منخر (٢)
أقـول للحيـان وقد صفرت لهم — وطابى ويومى ضيق الجحر معور (٣)
هما خطتا اما اســـار ومنـــه — واما دم والقتل بالحر أجـدر (٤)
وأخرى أصـادى النفس عنها وانها — لمورد حزم ان فعلت ومصدر (٥)
فرشت لها صدرى فزل عن الصفا — به جؤ جؤ عبـل ومتن مخصر (٦)
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا — به كدحة والموت خزيـان ينظـر (٧)
فأبت الى فهم ولم أك آيبـــا — وكم مثلها فارقتها وهى تصفر (٨)

ولم تكن المرة الوحيدة التى نجا فيها من هذيل وتركهم آسفين على نجاته كما يقول « وكم مثلها فارقتها وهى تصفر » ولم تكن هذيل وحدها التى نجا منها تأبط شرا وتركها آسفة مدهوشة ، بل نجا بحيلته وعدوه كثيرا من أعداء كثيرين ومن ذلك هذه القصة التى ترويها أخباره ، فى نجاته من بجيله وهى بروايتها « خرج الشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق (٩) فأغاروا على بجيله ، فوجـدوا لهم رصدا على الماء ، فلما مالوا له فى جوف الليل قال لهما تأبط شرا : ان بالماء رصدا ، وانى لأسمع وجيب قلوب القـوم ، فقالا ما تسمع شيئا وما هـو الا قلبك يجب ، فوضع أيديهما على قلبه وقال : والله ما يجب وما كان وجابا ، قالوا : فلابد لنا من ورود الماء ، فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصـد عرفـوه فتركوه حتى شرب من الماء ورجع الى أصحابه ، فقال : والله ما بالماء أحد ، ولقد شربت من الحوض ، فقال تأبط شرا للشنفرى : بلى ، ولكن القوم لايريدونك ، وانما يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع ولم يعرضوا له ، فقال تأبط شرا للشنفرى : اذا أنا كرعت فى الحوض فان القوم سيشدون على فيأسروننى ، فاذهب كأنك تهرب ، ثم كن فى أصل ذلك القرن فاذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا فتعال فأطلقنى ، وقال لابن براق : انى سآمرك أن تستأسر للقوم ، فلا تنأ عنهم ولا تمكنهم من نفسك ، ثم مر تأبط شرا حتى ورد الماء فحين كرع فى الحوض شدوا

---

(١) الخطب المكروه والقصد حسن التصرف •

(٢) قريع الدهر المجرب وحول بصير والشطر الثانى يعنى اذا سـد أمامه باب نفذ من باب آخر •

(٣) لحيان محاصروه وصفرت خلت والوطاب يعنى اناء العسل ويومى ضيق الجحر يعنى هو يوم لا منفذ فيه ومعور منكشف العور يريد يوما قاسيا •

(٤) خطتا يريد خطتان أى حالان اما الأسر أو القتل •

(٥) أصادى أستشير وأخرى يريد الحيلة يفكر فيها •

(٦) الصفا الحجارة وجؤجؤ عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر نحيل •

(٧) يكدح يؤثر يريد لم يؤثر فيه الصفا ولم يخدشه حتى وصل الأرض ناجيا من موت ماثل

(٨) آب رجع ولم أك آيبا لم يكن ينتظر رجوعى ومثلها يعنى هذيلا وتصفر آسفة يريد نجوت منها كثيرا •

(٩) الصحيح براقة لأنه اسم أمه •

عليه فأخذوه وكتفوه بوتر ، وطار الشنفرى ، فأتى حيث أمره ، وانحاز ابن براق حيث يرونه ، فقال تأبط شرا : يامعشر بجيلة ، هل لكم فى خير أن تياسرونا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ قالوا نعم ، فقال : ويلك يا ابن براق ، أما الشنفرى فقد طار ، وهو يصطلى نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك ، فهل لك أن تستأسر وييا سرونا فى الفداء ؟ قال : لا والله حتى أروز نفسى شوطا أو شوطين فجعل يستن نحو الجبل ويرجع ، حتى اذا رأوا أنه قد أعيا طمعوا فيه فاتبعوه ، ونادى تأبط شرا : خذوا خذوا ، فخالف الشنفرى الى تأبط شرا فقطع وثاقه ، فلما رآه ابن براق وقد خرج من وثاقه مال الى عنده ، فناداهم تأبط شرا : يامعشر بجيلة : أعجبكم عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا ينسيكم عدوه ، ثم أحضروا (١) ثلاثتهم فنجوا ، وفى ذلك يقول تأبط شرا :

ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهم ... بالعيبتين لدى معـــدى ابن بـــراق
كأنما حثحثـوا حصا قوادمـه ... أو أم خشف بذى شث وطبـــاق
لا شىء اسرع منى غير عــــدر ... أو ذى جناح بجنب الريد خفاق

فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدائين (٢) وقد ساق الضبس القصيدة التى اقتطف منها الميدانى الأبيات السابقة كاملة فى المفضليات (٣) ، وفيها يصرح بنسب أعدائه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيلة اذ ... ألقيت ليلة خبت الرهط أورواقى

وقصص الحيل التى نجا بها العداءون من الصعاليك وأشعارهم فيهـــا كثيرة ، ومنها قصة أبى خراش الهذلى فى نجاته من خزاعة بحيلة بارعـة وهى كما رواها صاحب ديوان الهذليين فى شرحه « وكان من حديث أبى خراش أنه خرج بزوجة أبيه مرة – وكان مرة خلف بعد لبنى أم أبى خراش واخوته السبعة عليها – وأن أبا خراش أتى بها مكة وأمرها أن تقضى ما أرادت من نســـك أو غيره ، وقعد لها بالأخشب (٤) وقال لها : احذرى أن يعرفك أحـــد ، فان بهذا البلد قوما قد وترتهم من بنى كعب بن خزاعة ، فلقيها فائد فعرفهـــا ، وقال لها : كم معك من بنيك ؟ فانى رجل من عشيرتك أحد بنى ســـهم ، فان بهذه القرية قوما قد وترهم أبو خراش ، فاقعدى وأخبرينى بحـــوائجك ، فأقعدها واشترى لها حوائجها ، وقال لهـــا : أى بنيك معك ؟ (٥) قـــالت : أبو خراش ، قال : فامضى ولا تخبرى أحدا سواى خبرى ، قال : وتقدم فائد

---

(١) أحضروا عدوا مسرعين ٠

(٢) مجمع الأمثال ٤٦/٢ ، ٤٧ والقصة أيضا فى خزانة البغدادى ٠

(٣) المفضليات ٢٧ – ٣١ وعدتها ستة وعشرون بيتا ٠

(٤) الأخشب جبل وهو أحد الأخشبين المشهورين ٠

(٥) يعنى أى بنى زوجك لأنها زوجة أبى أبى خراش وليست أمه ، وأبو خراش اسمه خويلد بن مرة وخراش ابنه ٠

لأبى خراش حتى قعد له بالطريق ، ورجعت المرأة الى أبى خراش ، فقال لها : من لقيك ؟ ومن رأيت ؟ قالت : رأيت رجلا من بنى سهم ، وكان احرص على أن أخفى أمرى منك ، فنعته لها أبو خراش ، فقالت : نعم انه لهو ، قال : ذلك فائد ، وقد قتلتنى ، قالت : فارجع الى قريش ، فخذ منها جوارا ، فأبى عليها أبو خراش وذهب بها ، وقال لها : القوم بالمغمس فامضى اليهم ، وحملها على جمل لمرة نجيب ، وقال لها ، اذا خلفت القوم فاجهدى بعيرك فانى شاغلهم عنك ، ولن يتعرضوا لك حتى ييئسوا منى ، فمضت ، وجاء أبو خراش يبطىء فى المشى ويصلح نعله حتى خلفتهم المرأة ، ثم جهدت بعيرها حتى كان خمارها فى أطراف الشجر نسج العنكبوت ، وأتاهم أبو خراش حتى سلم عليهم يطمعهم فى نفسه لتذهب المرأة فقالوا : مرحبا يا خويلد ، وأقبلوا اليه غير سراع وهم يميلون نحوه ، ولا يريدون ذعره ، وقد قدموا فائدا بذنب الثنية ، ثم عدوا عليه ، وشد أبو خراش يؤم ذنب الثنية أسفل من قائد ، وقالوا : اليك يا فائد ، اضرب يا فائد ، ارم يافائد ، وزعموا أن قوس أبى خراش انقطعت حمالتها وانفلت أبو خراش ، وجاءت امرأة مرة اليه (١) ، فقال لها : ويلك ما فعل أبو خراش ؟ قالت : قتل ، قتله فائد وأصحابه ، قال : ويلك ، قتل وأنت تنظرين ؟ قالت نعم ، قال : كيف انفلت أنت ؟ قالت : انه لم يقتل حتى خلفت القوم ، قال : فأخبرينى كيف كان قتله ؟ قالت : عهدى به وقد التف عليه القوم ، فقال : هل سمعت من شىء ؟ قالت : : سمعت « يا فائد اضرب ، يا فائد ارم » فقال : ان أخطأت سهام القوم أجابنى ، وصرخ مرة ، فاستجاب له أبو خراش ، ففى ذلك يقول أبو خراش :

رفونى وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم (٢)

الى أخر القصيدة » (٣) والقصيدة وصف دقيق لأحداث القصة ومطاردة أعدائه له ، وسرعة عدوه .

والسليك بن السلكه له قصص فى حيله ، وقد سجل بعضها فى شعره ، ومنها قصة غارته مع صاحبيه على جوف مراد باليمن ، حيث طلب من صاحبيه أن ينتظراه فى مكان قريب ، على أن يذهب هو الى ابل رآوها ، ليدرس خطة سلبها والنجاة بها ، وقال لصاحبيه : سأعلم من الرعيان مكان الحى ، فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا بعيدا لحنت لكما بقول فأغيرا ، وذهب فعلم من الرعاء أن الحى بعيد ، وأنهم ان طلبوه بعد سلبه الابل فلن يدركوه فقال للرعاء : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فقال بأعلى صوته مخاطبا رفيقيه اللذين ينتظرانه فى مكان قريب :

---

(١) يعنى جاءت الى زوجها مرة بعد أن تركت أباخراش يراوغ خزاعة .

(٢) الرفو التسكين يعنى حاولوا خداعه بأنهم لا يريدون به شرا وخويلد اسم أبى خراش .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٤٤ ـ ١٤٨ والقصيدة أربعة عشر بيتا .

يا صاحبي ألا لاحي بــالوادي الا عبيــــد وآم بين اذواد (١)
أتنظــران قليلا ريث غفلتهـم أم تعدوان فان الريح للعـــادي (٢)

صراع النتائج

ومع ان ما سبق يبدو صراعا في حياة الصعاليك ، فانه في جملته يعتبر مجرد أسلحة يتذرع بها الصعاليك للصراع الحقيقي العنيف الذي جابهوه في الصعلكة ، والذي تمخض عنه دخولهم هذا الميدان ٠

والصراع العنيف الذي جابهه الصعاليك منذ اختار كل منهـم الصعلكة طريقا له ، يمكن حصره في ثلاث جبهات محيطة بالصعاليك ، وتكاد تتكافأ في خطورتها وقسوتها على الصعاليك ، وهي :

١ - **الصراع النفسي** : وأقساه وأشده شعور الصعاليك بالمطاردة ، فانه يبدو في شعرهم شعورهم بأنهم مطاردون ، ويبدو أيضا أن هذا الشعور كان ثقيل الوطأة على نفوسهم وهم وان تفاوتــوا في مقاومته ، وان اختلفت قوة كل منهم في احتماله ومحاولة التغلب عليه الا اننا نحس بصفة عامة أنه كان شعورا مؤرقا لمضاجعهم جميعا ، وباعثا فيها قلقا وتوجسا شديدين ، وبلغ هذا الشعور من بعضهم حد الخوف الدائم من كل شيء ، بل بلغ من بعضهم حــد الوهم ، وتصور أعداء لا وجود لهم ، ومخلوقات لم تخلق قط الا في خيـــاله وخيـال الأساطير كالغول ٠

٢ - **صراع الأعداء** : وما أكثر أعداء الصعاليك ، بل لا يبالغ من يقول ان الناس جميعا أعداؤهم ، لأنهم بسلوكهم أعلنوا الحـرب على جميع الناس ، أليس كل انسان معرضا لسطوهم ؟ اما على شخصه ، واما على ماله ، واما على شيء يعز عليه كالقبيلة والحرمات ، فالناس بالنسبة للصعاليك نوعان ، نوع معتدى عليه ، فهو موتور يريد أن ينتقم من واتره الصــعلوك ، ونوع مترقب لعدوانهم عليه ، ان سنحت لهم الفرصة ، وكلا النوعين عدو للصعاليك ٠

٣ - **صراع البيئة** : فان البيئة التي كانت مهيأة بطبيعة تكوينهـا لأن تكون مجالا صالحا للصعلكة ، كانت من جانب آخر تحمل في ثناياها أخطــارا بالغة عليهم ، في نواحي عديدة ، أيسرها وأخطرها معا صعوبة الحصول على الماء ، ثم الوحوش والهوام والحيات ، ثم المجاهل نفسها ، تلك التي تعرض رائدها للضلال والهلاك كما حدث لعمرو بن عجلان (٣) ٠

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ١١/٢ وآم جمع أمة والأذواد جماعات الابل ٠
(٢) الريح القوة والغلبة ٠
(٣) أنظر مهذب الأغاني ١٨٨/٢ وفي موته خلاف أنظر أيضا ديوان الهذليين ١٢٠/٣ ٠

٤ ـ هناك جبهة رابعة قوية ، لم يعان منها صعاليك الجاهلية ، لانهم لم يدركوها ، وهى السلطة بنوعيها التشريعى والتنفيذى ، قد عانى منها المخضرمون والمسلمون ، لأنها كانت أقوى سلاح يهدد سلوكهم العدوانى . ولنتحدث عن هذه الانواع من الصراع فى شعرهم .

الشعور بالمطاردة

ليس من الغريب أن يسيطر على الصعاليك شعور نفسى عام بأنهم مطاردون ، بل الغريب ألا يكون لديهم هذا الشعور ، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعا ، وأصبح المجتمع بالنسبة لهم بين طالب ومطلوب ، وأصبح شعارهم هم أيضا نحو المجتمع كله أن يكونوا طالبين أو مطلوبين ، ولا وسط بين المرحلتين ، طائفة كذلك من الطبيعى أن تواجه بالعداء ، ومن الطبيعى أن يكون فى نفوسها من الشعور نحو المجتمع بقدر ما تحمل هذه النفوس للمجتمع ، ومن نوع ما تحمله نفوسهم ، ونفوسهم لا تحمل للمجتمع الا عدوانا وتربصا أو « لادرك ذحلا أو أشيف على غنم » كما يقول قائلهم (١) .

وبدء هذ االشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ، ونفورهم منه ، وهجرتهم عنه للعوامل التى أدت بهم الى الصعلكة ، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعا بارزا من النفور من المجتمع ، وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة ، كما يقول الشنفرى انه مصمم على هجرة الناس جميعا الى أى مكان لا أجاور فيه أناسا ، ولا أتعامل مع بشر ، وقد كان المكان الاثير لديه بعد تصميمه هذا هو الصحراء الموحشة المقفرة من البشر ، وكان أهله ومجتمعه الذى استبدله بمجتمع البشر ، هو مجتمع الوحوش ، فيعبر عن نفوره من الناس وهجرته عنهم بقوله من اللامية :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فانى الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر   وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القلى متعزل

ويعبر عن مدى سخطه على الناس جميعا ، وايثاره كل أنواع الوحوش على البشر فى جوارهم وخلقهم بقوله :

ولى دونكم أهلون ، سيد عملس   وارقط زهلول وعرفاء وجيال (٢) جيأل

(١) هو أبو خراش من قصيدة ميمية بديوان الهذليين والذحل الثار واشيف أشرف .

(٢) السيد الذئب والأرقط النمر وجيال الضبع والعملس القوى والزهلول الأملس وعرفاء طويلة .

هـــم الرهط لا مستودع السر ذائـع   لديهم ولا الجـــانى بما جـــر يخذل

وفي المعنى والهدف نفسهما يقول عروة بن الورد كما سبق « أقيموا بنى لبنى صدور مطيكم » ٠

وهو معنى شائع فى شعرهم ولو منطويا فى معنى آخر ، فهذا أبو النشناش النهشلى يجعل الصعلوك شيئا مستقلا عن الناس ، بعيدا عنهم كأنه فى غيب ، وحتى ان دنا فليس من حقهم أن يدخلوا عالمه ويطلعوا على دخيلته ، وهذا المعنى يعبر عن هجرة نفسية عن المجتمع حيث يعتبر الصعاليك أن الأسباب قد أنبتت بينهم وبين الناس فيقول قائلهم :

وســـائلة بالغيب عنـــى وســـائل   ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟ (١)

وهذا يعنى أن الصعاليك فى عزلة نفسية عن المجتمع بالاضافة الى عزلتهم الواقعية فى حياتهم ٠

وهذه العزلة حملت معها الى الصعاليك شعورا ثقيل الوطاة بأنهم أصبحوا مطاردين من أعدائهم ومن الناس جميعا ، فى صور كثيرة مختلفة يعبر بها شعرهم عن هذا الشعور ٠

فالشنفرى يرسم صورة دقيقة لهذا الشعور ، بأنه أصبح طريدا ، وطريدا لجنايات كثيرة جناها ، فهو لذلك لا يستطيع أن ينام مطمئنا ، لأنه ان اطمئن فى نومه ، فهناك عيون كثيرة غير مطمئنة فى نومها ، بل هى يقظى شديدة اليقظة فى تربصها به ، وتعجلها أن توقع به فى أقصى سرعة ممكنة فيقول :

طريد جنـــايات تياســـرن لحمـه   عقـــيرته لأيهـــا حـــم أول (٢)
تبيت اذا مـــا نام يقظى عيونهـــا   حثـــاثا الى مكروهه تتغلغـــل

وتأبط شرا موقن بأنه مطارد من أعدائه الكثيرين ، ولكنه يضيف أنه موقن أيضا بأن أعداءه ، سينالونه يوما ما ، ومعنى ذلك أن الشعور بالمطاردة قد بلغ منه حدا بالغا فيقول عن نفسه :

ومـــن يغـــر بالأعـــداء لا بد أنـــه   سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٣)

بل يبلغ هذا الشعور من نفس الأعلم الهذلى حدا رهيبا ، حيث يتصور أن كل ما حوله من شجر يخيل اليه أنه أعداء ، وأن فروعه سهام وسيوف مسلولة موجهة نحوه لتودى به فيقول :

---

(١) حماسة أبى تمام ١١٦/١ ٠
(٢) من اللامية وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه وحم يريد اذا نزل به الموت من حم القضاء ٠
(٣) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ ٠

واحسب عــرفط الزوراء يودى   على بوشك رجع واســتلال (١)

وهناك ارتباط بين طابع الحــذر واليقظة الذى تحدثنا عنــه بالنسبة للصعاليك وهذا الشعور الذى يعانونه ، وهو الشعور بالمطاردة ، فكثير من صور الحذر واتجاهاتهم فيه مرتبط بشعور المطاردة ، ويصلح أن يكون مثالا له •

وما من شاعر من الصعاليك الا ونجد فى شعره هذا الشعور بالمطاردة ، ان تصريحا وان تضمينا ، على تفاوت بالطبع فى الاحساس والتأثر به •

فمالك بن الريب يصور لنا حياته فى مهمه مقفر لا يرى فيه أحــدا ، ثم يخيم عليه الظلام فى هذه الوحدة الموحشة ، فيتضاعف شعوره بالرهبة والخوف غير المحدود ، لأنه خوف من كل شيء ، بل وخوف من لا شيء ، لأن هذه الوحدة نفسها وما يكتنفها من ظلام ووحشة هى فى ذاتها مصدر رهبة ، بالاضافة الى ما يتوقع صاحبهــا من أحداث فيها ، ولذلك يصــور مالك رهبته حينئـذ فى قوله :

أدلجت فى مهمه ما أن أرى أحــدا   حتى اذا حــان تعــريس لمن نزلا
وضــعت جنبى وقلت الله يكــلؤنى   مهمــا تنم عنــك من ليــل فما غفلا
والسيف بينى وبين الثوب مشــعره   أخشى الحوادث انى لم أكن وكلا (٢)

ولئن كان السبب الأساس فى هذه الرهبة الشــعور بالمطاردة ، الا أنه يصرح بأثر الوحشة ورهبة المكان المقفر حيث يقول :

أما ترى الدار قفــرا لا أنيس بهــا   الا الوحــوش وأمسى أهلها احتمــلا

والأعلم الهذلى يحكى صورة من صور خوفه ، وهذه الصورة وان كانت مرتبطة بحادثة معينة ، هى فراره ونجــاته من أعدائه بالعــدو ، لأنه كان من العدائين المشهورين ، الا أننا نجد معانى الخوف التى راودته ترتبط بشعوره بالمطاردة أكثر من ارتباطها بالموقف نفسه ، فاننا نراه لا يخشى أعداءه فقط ، ولا يخشى مجرد وقوعه فى أيدى مطاردين وانما يخشى حســابه على جنايات جناها ، وجزاؤها السيف وأن يصــير جسده صيدا للضباع والطيور والذئاب والثعالب وهذا هو أثر الشعور بالمطاردة فيقول :

لما رأيت القوم بالعليــــاء   دون قــدى المناصب (٣)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٨٥ والعرفط نوع من الشجر والزوراء موضع ويودى يهلك والوشك العجلة والسرعة ، والاستلال من سل السيف ومن شرح السكرى له « يقول كلما طلعت عرفطة أحسبها انسانا يعين على من الفرق » والفرق الخوف الشديد ومنه أيضا « كلما مررت بشجرة ظننتها تعين على » •

(٢) مهذب الأغانى ٥/١٣ والتعريس فى البيت الأول نزول السفر آخر الليل •

(٣) ديوان الهذليين ٢/٧٧ ـ ٧٩ وقدى بمعنى قيد من قولهم قيـد رمح والمناصب بلد •

وفريت من فزع فلا ارمى ولا ودعت صاحب (١)

ثم يقول :

وخشيت وقع ضريبة قد جربت كل التجارب (٢)
فأكون صيدهم بها وأصير للضبع السواغب (٣)
جزرا وللطير المربة والذئاب والثعالب (٤)

ولكن الشنفرى كان معتدلا فى أثر شعور المطاردة فى نفسه ، وقد تمثل هذا الشعور الذى صوره فى أنه أصبح طريد جنايات وأنه أصبح نومه غرارا ، تمثل فى خوف عادى لا يبلغ حد الدهش الذى عرا الأعلم ، وانما هو شعور بين مشاعر أخرى كثيرة ، منها الاحساس بالجوع والاحساس بالبرد والرعدة فيقول عن ليلة باردة ممطرة :

دعست على غطش وبغش وصحبتى سعار وارزيز ووجر وأفكل (٥)

وأما عبيد بن أيوب الذى ألجأته مطاردة المجتمع والسلطان الى الفلوات ليعيش فيها وحيدا خائفا قلقا مترقبا كل شر ، فى كل وجه من وجوه حياته ووجوه الصحراء ، فقد سيطر عليه الشعور بالمطاردة حتى أصبح يتلهف على أن يذوق طعم الأمن ولو لحظة ، لأن فؤاده قد خلعه الخوف والترقب فيقول :

أذقنى طعم الأمن أو سل حقيقة على وان قامت ففصل بنانيا
خلعت فؤادى فاستطير فأصبحت ترامى به البيد القفار تراميا (٦)

ويصرح عبيد مشيرا الى سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كل شىء من حوله عدو مطارد متعقب له ، حتى طيران الحمامة يظنه عدوا ، وحتى أصبح لا يصدق الا حديث الخوف ولا يثق فى أحد .

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشمر
وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٧)

---

(١) فريت تحيرت ودهشت يعنى عجزت عن الرمى لاضطرابى ولم أستطع توديع صاحبى الذى فررت عنه وتركته .

(٢) الضريبة السيف وجربت يعنى سيفا معودا على الضرب به يريد تجوت بعدوى من أعدائى خوف ضربى بالسيف والأحوال الآتية التى سيذكرها .

(٣) الضبع جمع ضبع والسواغب الجياع .

(٤) المربة المقيمة بالمكان الملازمة له .

(٥) من اللامية سبق نصها والدعس الوطء والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعار الجوع والارزيز البرد والوجر الخوف والأفكل الرعدة .

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م اخانجى .

(٧) الحيوان للجاحظ ٥/٢٤١ .

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من ظبـاء الوحش أن تخفيه فيقول :

الا يا ظبـاء الوحش لا تحـــذريننى وأخفيننى اذ كنت فيكـن خافيـا

صراع الأعــداء

ولئن كان يمكن اعتبار • المجتمع كله عدوا للصعاليك ، مما كان له اثر فى طابع العزلة النفسية والواقعية التى فرضها الصعاليك على أنفسهم ، ولئن كانت هذه العزلة نوعا من الصراع والحرب بين الصعاليك والمجتمع ، وجبهة من الجبهات التى يصارعون فيها ، الا ان الجبهه البارزة المحسوسة كانت الصراع المباشر مع الأعداء المباشرين • وأغلب هؤلاء الاعداء المباشرين للصـــعاليك كان يتمثل فى نوعين ، نوع نتج عن حياتهم فى الصعلكة وجناياتهم فيها وهو الاكثر والاظهر فى صراعهم مع الأعداء ، ونوع كان نتيجة ارتباط بعضهم بأقوامهم فى الحروب والتطاحن مع الاحياء والقبائل الاخرى ، فكان هذا البعض من الصعاليك يزاول هذا الجانب من الصراع بالاضـــافة الى حياته فى الصعلكة وصراعه فى جوانبها المختلفة ، ولكن هذا التعاون الذى يبذله الصعلوك مع قومه فى حروبهم بصفته فردا منهم كان يتحول الى عداء شخصى بينه وبين هؤلاء الأعداء ، ويصبح صراعه معهم جزءا من حياته وصراعه فى الصعلكة كما كان الوضع بالنسبة لمالك بن حريم وعمرو بن براقة وصعاليك هذيل ، والذى يعنينا من هذا الجانب هـو أثره فى حياة الصعاليك ، ومدى دلالته على وضعهم بين أقوامهم ، ودلالته أيضا على صفتيهم كمقاتلين فى الحروب ، كما سنرى ذلك فى شعرهم ، والواقع أن الصـــعاليك يختلفون اختلافا بينا فى صورة صراعهم مع الأعداء فى كلا النوعين ، فالعداءون بالذات كان يغلب عليهم طابع معين ، هو عدم الاشتراك فى الحروب القبلية أو حتى الجماعية ، وانما كانوا يؤثرون الرفقة المحدودة التى لا تتعدى غالبا الشخص الواحد كما نرى فى شعر الأعلم (١) وشعر أبى خراش (٢) الهذليين ، أو الشخصين كما نرى فى رفقة السليك (٣) ، ورفقة الشنفرى (٤) ثم يغيرون بهذه الرفقة المحدودة مترقبين الغرة ، معتمدين فى سلاحهم على السهام التى تنال عن بعد ، دون السيوف التى تحتاج الى المجابهة مع الأعداء ، والمجابهة فى حاجة الى عدد كبير لا يملكونه ، ولذلك نرى وصف القوس والسهام شائعا بادى الاهتمام

---

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٨/٢ ــ ٨٥ •
(٢) المصدر السابق ١٣٤/٢ وما بعده •
(٣) انظر مجمع الأمثال ١١/٢ •
(٤) المصدر السابق ٤٦/٢ •

في شعر العدائين أكثر من غيرهم وأكثر من حديثهم عن الاسلحة الأخرى ، فاذا ضاقت عليهم السبل أطلقوا لسيقانهم العنان ٠

وكان بعض هؤلاء العدائين يبلغ من ثقته بنفسه وسرعة عدوه أن يغير وحده كما كان يفعل تأبط شرا (١) وكما كان يفعل الشنفرى فى كثير من الأحيان (٢) ٠

ونجد شعر العدائين صورة واضحة مفصلة لا عن صراعهم وحياتهم فقط ، وانما عن كل ما يحيط بالحوادث وتفاصيلها ، فشعر العدائين أدق شعر الصعاليك من حيث دلالته على حياتهم وعلى البيئة من حولهم ، وعلى نفسياتهم وتقلبهم مع الاحداث ، وشعر الهذليين من أوضح الأمثلة لذلك ، فمثلا نرى صخرا الغى فى قصيدة واحدة ليست بالطويلة(٣) يصف حياته كلها في الصحراء ، واصفا الصحراء نفسها ، وما يراه حوله من أحوال الطبيعة ، مركزا على منظر السحاب الذى تشبه قطعه الضخمة السائرة سفنا ضخمة محملة تمخر عباب البحر ، والبرق يلمع بينها كأنه قدح البشير ، ثم يصفه حين أمطر و « أسال من الليل أشجانه » وكيف أن الوديان الشاسعة تحولت الى أحواض كبيرة من الماء ، حتى ان ما بين وادى القصور الى يلملم أصبح حوض ماء ، وكيف أنه حين جفت الارض وأصبحت صالحة للمشى أراد أن يستفيد من ذلك المطر ، وكل فائدته بالنسبة اليه أن يملأ قربته من أحد هذه الأحواض قبل أن تجف متحدثا خلال ذلك عن أن هذه الاحوال كلها لا تمنع أعداءه أن يتربصوا به ، ولذلك فهو يحاذر حذرا شديدا فى كل خطوة ، ويتخير الطرق التى يأمل فيها النجاة من تربص أعدائه ٠

والاعلم الهذلى فى قصيدة أخرى يقص قصة دقيقة مفصلة لحادثة نجاته من أعداء كانوا مترصدين له ، وفى هذه القصيدة نجد القصة كاملة ، بل نجدها أدق وأكثر تفصيلا وتوضيحا للمشاعر مما ترويها الروايات (٤) وفيها يصف أنه فوجىء بأن أعداءه قيد رمية منه فانتابه فزع شديد أذهله عن كل شىء الا انطلاقه الشديد فى العدو ، مصورا مطاردة عدائين آخرين لهما وكيف أن الأعداء يغرون عداءيهم باللحاق بالأعلم وصاحبه ويحثونهم بأقصى قوة ، والأعلم أيضا يحث صاحبه بأقصى قوة على العدو ، والطريف أن الأعلم خلال عدوه ظل يتصور صورا مفزعة من حاله لو تمكن منه أعداؤه ، متصورا سيفا صارما يهوى عليه (٥) ومتصورا نفسه جثة تهوى عليها الطير ، وتتسابق اليها الضباع والذئاب

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ ٠

(٢) أنظر اللامية وخاصة البيت الرابع والخمسين ٠

(٣) أنظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ - ٧٦ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا ٠

(٤) المصدر السابق ٧٧/٢ - ٨٣ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا وأولها :
لما رأيت القوم بالعلياء دون قدى المناصب ٠

(٥) أنظر البيت التاسع من القصيدة ٠

والثعالب مصورا تصويرا جميلا هذه الضباع التي يخشاها في ســواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، ونزع الضباع لجلد الفريسة كما ينزع الحداد غشاء عن جفن السيف ، وآذان هذه الضباع التي تشبه مغارف الطعام الكبيرة ، ويصف كيف أنه ظل يعدو كذلك حتى انتصف النهار عدوا دائبا جاهدا ، وصور الخوف من وقوعه في أيدي أعدائه وما يفعلونه به وما يترتب على ذلك ، فمن هذه الصور أولاده وأهله البؤساء لو هلك لاضطرتهم الحاجة الى سؤال الأقارب وهكذا ٠

وفي قصيدة تلي هذه القصيدة يصف جوانب أخرى من الحادثة السابقة في مطاردة جذيمة العبدي (١) وفي قصيدة بعدها يصف الأعلم صراعه مع عدو آخر ، واعداده سلاحه لهذا الصراع ٠

وأبو خراش يصف أيضا في شعره صورا من صراعه مع أعداء كثيرين ، في حوادث كثيرة ، منها قصته مع ابني شعوب واصفا عدوه ، واعتزازه بقوته وقوة قومه (٢) وقصته مع واقد (٣) ، وقصة نجاته من خزاعة بعد أن كادوا يفتكون به (٤) وقصة صراعه مع بني بكر (٤) ٠

وأما غير العدائين فنجد التعبير بالحرب والقتال شائعين في شــعرهم ، لانهم يعتمدون في صراعهم المباشر مع الأعداء على القتال بالسيف وأدوات الحرب العادية المألوفة لديهم ٠ وصور الصراع مع الأعداء في شعر الصعاليك عامة كثيرة مختلفة ، ولكنها جميعا توحي بصراع دائم أو مترقب دائما ، كما يقــول عبيد ابن أيوب :

فما زلت منذ كنت ابن عشرين حجة   أخا الحــرب مجنيا على وجانيا (٥)

ويعبر عمرو بن براقة عن استمرار صراعه مع أعدائه فيقول :

فلا صلح حتى تعثر الخيــل بالقنا   وتضرب بالبيض الخفـاف الجماجم(٦)

ويصف حاجز بن عوف راحة نفسه وشفاء صدره حين رأى صورة من صور نصره على أعدائه فيقول :

ولقــد شــفاني أن رأيت نســاءكم   تبكين مردفــة على الاكفـال (٧)

---

(١) ديوان الهذليين٢/٨٣ ـ ٨٥ واولها

أعبد الله ينذر يا لسعد   دمي ان كان يصدق ما يقول

(٢) المصدر السابق ٢/١٣٢ ـ ١٣٦ واولها « عدونا عدوة لا شك فيها » ٠

(٣) المصدر السابق ٢/١٣٨ ـ ١٤٠ وأولها « أواقد لم أغررك في أمر » ٠

(٤) المصدر السابق ٢/١٤٤ ـ ١٤٨ وأولها « رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع » ٠

(٥) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ ٠

(٦) أمالي القالي ٢/١١٩ ٠

(٧) مهذب الأغاني ١/٩٣ ٠

ويصف عمرو بن عجلان تصميمه على مواصلة صراعه مع أعدائه حتى يرى نساءهم يضربن صدورهن بالنعال كعادتهن فى البكاء على القتيل فيقول :

وأبـــرح فى طـــوال الدهـــر حتى ... أقيم نساء بجلة بالنعال (١)

ويصف مالك بن الريب صورة من قتاله مع منازليه فيقول :

خـــذها وانى لضراب اذا اختلفـــت ... أيدى الرجال بضرب يختلى البصلا (٢)

ويصف مالك بن حريم صراعهم مع أعدائهم ، وشفاء نفوسهم بدماء العدو ، وبسالة فرسانهم فى طلب الثأر والدفاع فيقول :

نريد بنى الخيفـان أن دماءهـم ... شـفاء وما والى زبيـــد وجمعـا
يقـــود بأرســـان الجياد سراتنـــا ... لينقمن وترا أو ليدفعن مدفعا (٣)

وجحدر بن ضبيعة الذى كان معدودا من فرسان قومه بنى بكر ، بالاضافة الى صفته كصعلوك ، يتحدث عن وضعه فى الحرب فيقول :

اذا الكمـــاة بالكمـــاة التفـــت ... أمخدج فى الحرب أم أتمت (٤)

وأما سعد بن ناشب فلا يقبل من عدو أن يصعر له خدا ، وانما يخطمه بشراسة وفظاظة حتى يقيم معوجه فيقول :

أقيـم صـــغا ذى الميـــل حتى أرده ... وأخطمه حتى يعـــود الى القـدر (٥)

ولكن عروة بن الورد يرسم نموذجا عاما للصعلوك ، كما ينبغى أن يكون عليه صراع كل صعلوك مع أعدائه ، أو هو الوصف لصراع الصـــعلوك الحقيقى كما يراه فيقول :

ولله صـــعلوك صـــفيحة وجهـه ... كضوء شهاب القابس المتنور (٦)
مطـــلا عـــلى أعـــدائه يزجـــرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر (٧)

---

(١) ديوان الهذليين ٣/١١٥ •

(٢) مهذب الأغانى ١٣/٥ وخذها يعنى الضربة ويختلى يريد يفلق والبصل الخوذة من الحديد على الرأس •

(٣) الاصمعيات ٦٠ ويلاحظ أنه قال هذه القصيدة فى أخريات عمره كما يدل مطلعها فهى لا تمثل الا ذكرياته كصعلوك •

(٤) حماسة أبى تمام ١/١٩٦ والمخدج الناقص يعنى حينئذ يعلم الناس هل ولدتنى أمى تاما أم ناقصا •

(٥) المصدر السابق ١/٢٧١ والصغا الميل والقدر الاعتدال •

(٦) الاصمعيات ٣٥ وحماسة أبى تمام ١/١٦٠ والقابس والمتنور حامل النار يعنى متوقدا حركة وحيوية •

(٧) المنيح المشهر نوع من قداح الميسر السيئة الحظ يعنى ينفرون منه نفور اللاعب من القدح التعس •

صراع الهمـــوم

قد يبدو غريبا أن تفرد هموم الصـــعاليك بحديث خاص ، ولكننا حـين نستعرض شعرهم نرى أن حديث الهموم فيه غير خفى ولا عابر . بل نحس أن الهموم كانت جانبا من الجوانب القاسية فى حياتهم ، والتى عانوا منها وظلوا فى صراع غير يسير معها .

ولكن الذى يلفت النظر هو التساؤل عما يمكن أن يكون مصدرا للهموم فى حياة الصعاليك ، مع بساطتها وعدم تعقيدها ووضـــوح أهدافها ، ومع قوتهم البالغة فى مواجهة الصعاب وتخطى العقبات ان لم يكن تحطيمها ؟

والواقع أن ذلك لا ينفى وجود الهموم ، ولا يتعارض مع كون الهموم جانبا بارزا فى حية الصعاليك بل يمكن اعتبار بعضه من الأســـباب المهمة فى سيطرة الهموم على نفوس الصعاليك ، فهذه القوة التى وهبوا اياها فى نفوسهم عامل من عوامل الهم والانقبـاض ومن المعروف أن أقرب النفـوس الى القلق والهموم والانقباض هى النفوس القوية ، سواء كانت قوية فى تفكيرها أو آمالها أو مقوماتها الأخرى ، لأن هذه القوة تفتح أمام صاحبها أبوابا كثيرة من الادراك ، وأبوابا كثيرة من الآمال والأهداف ، وأبوابا أخرى من الاحساس بأشياء قد لا يحس بها غيرهم، ومن التفكير فى وسائل وسبل لبلوغ الأهداف أو تحقيق أغراض قد لا يحتاج غيرهم الى التفكير فيها ، وكل هذه الأبواب والأحاسيس منافذ وثقوب وشقوق فى نفس صاحبها من شأنها أن تخلق فى نفسه صراعا ودوامات ، يحس بها هو ، لأنه يديرها فى نفسه ويتأثر بها ، ولا يحس منها غيره الا وصف هذا الشخص بأنه يعانى هما أو قلقا .

وقد تكون أبعد النفوس عن القلق والهموم النفوس الضعيفة ، الضعيفة فى ادراكها وتفكيرها والضعيفة فى آمالها وأغراضها ، والضعيفة فى احساسها بمـا حولها وبحقيقـة الطريق الذى تسلكه فى حياتها وما يكمن فى هذا الطريق لهم ولغيرهم . ولكن نفوس شعرائنا الصعاليك كانت قوية فى كل شىء ، قوية فى ارادتها ومقوماتها كما رأينا فى أخبارهم وشعرهم ، وقوية فى ادراكها وتفكيرها ، وليست فى حاجة الى التدليل على ذلك ، لأن شعرهم نفسه هو الدليل .

فهذه القوة فى نفوس الصعاليك اذن أول منابع الهموم فى نفوس الصعاليك وهناك منابع أخرى تخص الصعاليك بعضها عام وبعضها خاص ، فمن العام مثلا

(١) المتنظر المنتظر الرجوع يعنى يترقبون سطوه عليهم ترقب أهل الغائب المرتقب الرجوع .

شعور الصعلوك ولو شعورا خفيا بأنه يملك من المقومات ما لا يملكه كثير من الناس ، يملك شجاعة وبأسا شديدا تهفو كثير من النفوس الى أدناه فلا يتاح لها ، ويملك عقلية فذة وتفكيرا عميقا يصوغه شعرا ، ويملك أشياء أخرى قد لا يملكها كبير من الذين يتمتعون بالسيادة والغنى والجاه فى الناس ، ومع ذلك فهو لا يملك حتى لقمة العيش ، ويقضى حياته يصارع صخور الجبال ورمال الصحراء ووحوش القفار وأعداء كثيرين لا لشيء الا لمجرد أن يعيش ، يشعر بصفة عامة انه فى غير المكان الذى يليق به ، وأنه لم ينصف بهذا القسط القاسى المظلم الذى أعطيه من الحياة ، ظلمه الناس حيث أنكروا أن يكون له فى مكانتهم مكانا ، وأن يكون له فى عيشهم عيشا ، أليس ذلك شيئا يبعث الهم والانقباض فى كل نفس حساسة كنفس الشاعر ، قوية كنفس الصعلوك ، فكيف اذا اجتمعت الشاعرية والصعلكة كشعرائنا الصعاليك ؟

وهذا كله يعتبر من الأسباب العامة التى يمكن أن تكون سببا مباشرا أو غير مباشر للهموم ، ولكن حياة الصعاليك لا تتركهم للأسباب العامة وحدها ، وانما تهيل عليهم كل يوم أسبابا خاصة بكل منهم من شأنها أن تملا النفس هما وحزنا وانقباضا ، فهذا مثلا واحد منهم له رفيق يعانيان معا مخاطر الحياة ومشقاتها ينظر فاذا رفيقه قد اغتاله سهم من سهام الأعداء ، وهذا شخص يضطره العيش الى أن يترك صبية أشوق ما يكون الى التمتع بحياته معهم ليشخص فى رحلة نائية مسرفة فى النأى ، مبتعدا عنهم غير آمن أن يعود اليهم مرة أخرى ، وهكذا من ظروف كثيرة تنبت فى حياة كل منهم كما سنرى بعض ذلك خلال هذا الحديث ، والذى يبدو واضحا من حديث الصعاليك عن الهموم أنهم لا يتخذونها موضوعا مستقلا كشأنهم فى أغلب ما يعرض له شعرهم ، وانما يتحدثون عن الهموم حديثا عارضا ، والفارق بين الاثنين أن الموضوع المخصص يدعو الشاعر الى الخوض فى معانيه محاولا بما توحى شاعريته أن يبرزه فى ثوب من الخيال أو المبالغة أو التزيد حتى يصبح موضوعا متكاملا ، أما عرض الصعاليك لهمومهم وأغلب ما يعرض له شعرهم فهو حديث النفس المجرد من الخيالات فى انشاء المعانى أو المبالغة التى تخلق معانى غير واقعية ، أو التزيد الذى يقال على المعنى ليخرجه موضوعا متكاملا ، حديث النفس كمجرد انعكاس لما تعانيه وتصارعه ، فى صورة الخبر الموجز ، بل الذى يصاغ فى أقصى ما يمكن من ايجاز فى كثير من الأحيان ، ولذلك نجد عمق الصعاليك وكثرة ما يحمله شعرهم من معان ليس فى كثرة الألفاظ أو تعداد المعانى وانما فى الايحاءات التى يوحيها الصدق والتجربة بأكمل ما يعنيه — لا أقول هذان الاصطلاحان على أنهما من اصطلاحات النقد الأدبى — وانما أقول بأكمل ما يعنيه هذان اللفظان ، لأن صدق الصعاليك ليس مجرد صدق فنى — وانما هو صدق حقيقى ، وتجربتهم ليست تجربة نفسية شعورية فحسب ، وانما هى التجربة الحقيقية الواقعية فى كل ما يعرض فى حياتهم ويعانونه ، بل يصارعونه ، ثم يعكسونه بصورته

في نفوسهم ليكون شعرا مطابقا كل المطابقة لصورته فى نفوسهم ، ولصورته فى صراعهم معه في واقع الحياة ٠

والشنفرى يصف لنا همومه وثقلها على نفسه ، وأن هجومها أقوى من أى محاولة لردها ومهما حاول صدها فانها تأبى الا ان تعود ، حتى أصبح يعـــرف ويترقب مواعيد زيارتها كمـــا يترقب صاحب الحمى المتقطعة زيارة حمــاه ، فيقـــول :

والف همـــوم ما تـــزال تعـــوده عيادا كحمى الربع أو هى أثقـــل (١)
اذا وردت أصــــدرتها ثـــم أنهـــا تثوب فتأتى من تحيت ومن عـــل (٢)

ومع دقة هذه الصورة عن هموم الشنفرى ، أعنى تصويره لاحســـاسه بالهموم ، مع ذلك نجد أدق ما فيها ايحاءات ألفاظها البالغة الايحاء ، فمثلا لفظ « ألف » يوحى بأنه أصبح أليفا للهموم معتادا عليها وكذلك « ما تزال » يوحى باستمرار توارد الهموم عليه وكذلك تعوده يوحى بثقل الهموم عليه كأنه مريض منها ، وكذلك «اذا وردت أصدرتها» يوحى بالصراع العنيف الذى يعانيه مريض في مد الهموم وجزرها فى نفســـه وكذلك « من تحيت ومن عل » تعبير يوحى بأن الهموم قد لفته وأغرقته ، وأنها تاتى من مصادر عدة وأسباب مختلفة ، وكذلك لفظ « تحيت » وحده يوحى بقربها والتصاقها المؤلم به ، وكونها كالفراش ولكن لا مهرب منه ، بالاضافة الى ايحاءات أخرى مثـــل التأكيد الذى يوحيه « تعود عيادا » ، والتفضيل فى « أثقل » والاطلاق فى « عل » بما يوحى من فضاء واسع قد يكون كله هموما متلاحقة نازلة عليه ، والصورة كلها مع ذلك لها فى جملتها ايحاء خاص فوق ايحاء الألفاظ والتراكيب ، وقد يكون ذلك من نواح كالتنكير فى هموم الذى يوحى بكثرة الهموم وتنوعها ولكن الذى يستوقفنا باعجاب أمام صورة الشنفرى هذه أن يكون علم النفس الحديث مؤيدا للشنفرى فى تشبيهه عيادة الهموم بعيادة الحمى المتقطعة ، فان من أحدث ما وصلت اليه بحوث علم النفس منذ بضع سنوات فقط ، أن الشـــخص الذى تنتابه الهموم والانقباض تنتابه فى فترات تردد دورى ، بحيث يستطيع أن يســـجل ترددها ، وبالتالى يستطيع أن يعرف مواعيد ترددها (٣) ٠

ومعنى هذا أن الشنفرى لم يكن متخيلا ولا متكلفا فى صـــورته هذه عن الهموم ، وانما كان معبرا عن واقع يحسه ويعانى منه ، وهذا هو السبب فى أنه

---

(١) من اللامية وحمى الربع بكسر الراء المشددة هى الحمى التى تأخذ يوما وتدع يومين ثم تجىء يوما ثم تنصرف يومين وهكذا ٠

(٢) أصدرتها صددتها وتثوب ترجع وتحيت تصغير تحت ٠

(٣) أنظر صحيفة الأخبار ، أعداد شهرى ابريل ومايو سنة ١٩٦٣ باب « أخبار العلم » نقلا عن مجـــلة أجنبية ٠

استطاع أن يسبق بمعنى واقعي يبدو في صورته التي صورها الشنفرى وكأنه خيال شاعر ·

ويؤيد هذا أن الشنفرى وان كان سابقا بهذا المعنى وتصويره ، الا أنه لم يكن الوحيد الذى صوره من الصعاليك ، فهذا جحدر بن معاوية (١) يعبر عن هذا المعنى بالصورة التى صورها الشنفرى ، وبالمعنى الذى توصل اليه علم النفس الحديث ، حيث يقول وهو فى سجن الحجاج :

تأوبني فبت لهـا كنيعـا هموم ما تفارقني حـواني (٢)
هى العواد لا عـواد قـومى أطلن عيادتى فى ذا المكـان
اذا ما قلت قد أجلين عـنى ثنى ريعانهن على ثـاني
وكان مقر منزلهـن قـلبى فقد أنفهنه والهـم آنى (٣)

ومهما تكن من أسباب عامة لهموم جحدر ، فهناك سبب خاص واضح من أسباب هذه الهموم ، وهو كونه في السجن حبيسا يترقب نهاية رهيبة كمـا يقول بعد ذلك فى القصيدة ·

وتأبط شرا يتحدث أيضا عن الهموم التى تنتابه ، وعن الأرق الذى يعتاده، وهو وان لم يوضح هذا المعنى كما وضـحه الشنفرى وجحدر ، الا أنه يصرح به فى قوله « يا عيد » من التعود وفى قوله « ايراق » من الأرق ، مبينـا سبب هذا الهم المؤرق · وهو أنه يعيش حياته طيفا يسرى فى ظلام الليـل طراقا للأهوال ، ساريا فوق المخوفات من الحيات وغيرها ، حافى القـدمين على هذا السرى الطويل ، وفوق ما يطؤه من مخاوف فيقول :

يا عيد مالك من شوق وايـراق ومر طيف على الأهوال طراق (٤)
يسرى على الأين والحيات محتفيـا نفسى فداؤك من سار على ساق(٥)

ويشير قيس بن الحدادية الى تعود الهموم وترددهـا عليه ، حيث بدلت حياته بالوداعة والأنس صراعا رهيبا مع الأعداء فيقول :

وبدلت من جدواك يا أم مـالك طوارق هم يحتضرن وساديـا
وأصبحت بعد الأنس لابس جبـة أساقى الكماة الدارعين العواليا (٦)

---

(١) أنظر أمالى القالى ٢٧٧/١ وفيه (لجحدر وكان لصا مبرا فأخذه الحجاج فحبسه ·· الخ) وفى الصعاليك جحدران ، ابن ضبيعة وهو جاهلى ، وابن معاوية وهو معاصر للحجاج فتعين أن يكون المقصود جحدربن معاوية ·

(٢) المصدر السابق ، والكنيع المنقبض ·

(٣) أنفهنه أعيينه وهـذا البيت يعتبر سابقا لقول المتنبى فى قصيدة الحمى المشـهورة (بذلت لها المطارف والحشايا ·· فعافتها وباتت فى عظامى) يعنى الحمى ·

(٤) العيد ما يعتاد الانسان والايراق من الارق وطيف يعنى نفسه فى الظلام ·

(٥) الاين الكلال والجهد والشطر الثانى يعنى لاراحلة له ، المفضليات ٢٧ ·

(٦) أغانى الأصفهانى ١٥٤/١٤ وجبة يعنى الدرع ولعل أصلها جنة بالنون والكماة الشجعان و الدارعون لابسو الدروع والعوالى الرماح ومن الجميل فيه لفظ « أساقى » ·

ومالك بن الريب يعرض بعض الأحداث التى أثارت فى نفسه الهم والألم ، ومن ذلك اضطراره لترك ديار قومه ، وترك ابنته ليسافر الى خراسان مع الوالى (١) طلبا للعيش الذى ضاق فى موطنه ، ويصف مالك وداعه لابنته ، وبكاء ابنته فى توديعه ، وأثر ذلك فى نفسه وصفا مؤثرا بالغ التأثير فيقول لابنته حين رآها تبكى بكاء مرا وهى تودعه :

اسكتى قد حززت بالدمع قلبى طالما حز دمعكن القلوبا
فعسى الله أن يدافع عنى ريب ما تحذرين حتى أؤوبا (٢)
ودعى أن يقطع الآن قلبى أو تريني فى رحلتى تعذيبا

وحتى حينما أدركه الموت فى رحلته هذه لم ينس ألم هذا لوداع المحزن فيقول من مرثيته :

تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى سفارك هذا تاركى لا أباليا

ومرثيته هذه التى قالها عندما أحس الموت فى غربته ، تعتبر كلها أنة حزينة عميقة الحزن ، نفث فيها مالك بن الريب هموم حياته كلها ، ومشاعر حاضره كله ، وصاغ ذلك كله فى أبيات تحدرت من فمه كما تتحدر دموع حرى من مآقيها (٣)

وأبو خراش انبعثت له فى حياته أحداث كثيرة أثارت الهموم والأحزان فى نفسه ، وملأت قلبه كآبة وانقباضا ، ومن ذلك فقده لبعض اخوته الذين يقول عن فقدهم :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى (٤)

وأشد ما ملأ نفسه حزنا وهما فقد أخيه عروة ، الذى كان ساعدا له فى حياته ، والذى كان يرجيه لعظائم أموره ، حتى أنه كان يتصور أن مما يهون عليه الموت شعوره بأن وراءه سندا هو عروة حيث يقول لعروة قبل مقتله ·

لعلك نافعى يا عرو يوما اذا جاورت من تحت القبور (٥)
اذا راحوا سواى وأسلمونى لخشناء الحجارة كالبعير

ولكن الأمر انعكس ، فعروة هو الذى مات قتيلا قبل أبى خراش ، فحزن عليه أبو خراش حزنا عميقا متصلا ، فمرة يقول عنه ·

---

(١) سعيد بن عثمان بن عفان ·
(٢) ما تحذرين يعنى الموت وأؤوب أرجع والأبيات فى مهذب الأغانى ١٥/٥ ·
(٣) القصيدة سبق ذكرها عند الاختلاف فى شعرهم ·
(٤) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والأبجل أحد العروق ·
(٥) ديوان الهذليين ١٣٦/٢ ومن بمعنى الذين وخشناء الحجارة يعنى الحفرة والبعير تشبيه للقبر بالجمل البارك ·

فوالله لا أنسى قتيلا رزئته ... بجانب قوسى ماشيت على الأرض(١)

ويصور أبو خراش تجدد حزنه وهمه على فقد عروة كلما تذكر مبيتا أو مقيلا جمعهما ، ويصور الهموم التى تعاوده كلما طلع عليه صباح ، فيقول مخاطبا امرأة عروة :

ولا تحسبى أنى تناسيت عهده ... ولكن صبرى يا أميم جميل
ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل (٢)
أبى الصبر أنى لا يزال يهيجنى ... مبيت لنا - فيما خلا - ومقيل
وأنى اذا ما الصبح آنست ضوءه ... يعاودنى قطع على ثقيل (٣)

وقد تجمعت هموم أبى خراش كلها ، وحزنه كله فى صورة رثائه لقريبه خالد بن زهير ، ومن الواضح أنه ليس حزنه على زهير وحده مصدر هذه الهموم الطاحنة التى يعانيها ، ونما هى احدى المناسبات التى يبيح لنفسه أن يتحدث فيها الى الناس بهمومه وأحزانه الكثيرة ، قديمها وحديثها ، مقنعا اياها بقناع المناسبة التى يتحدث فيها فيقول من شعره فى هذه المناسبة ، وكما قال آنفا « يعاودنى » معبرا عن اعتياد الهموم وترددها ، فكذلك يكرر هذا المعنى فى قوله :

فباتت تراعى النجم عين مريضة ... لما عالها واعتادها الحزن بالسقم (٤)
وما بعد أن قد هدنى الدهر هدة ... تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٥)
وما قد أصاب العظم منى مخامر ... من الداء داء مستكن على كلم (٦)
وأن قد بدا منى لما قد أصابنى ... من الحزن أنى ساهم الوجه ذوهم
شديد الأسى بادى الشحوب كأننى ... أخو جنة يعتاده الخبل فى الجسم (٧)

ومالك بن حريم الهمدانى يستعرض همومه وأحزانه على قتل أخيه أيضا ، ويقارن همه وحزنه بحزن الناس فلا يرى له مثيلا مهما كانت دواعى الحزن المألوفة لديهم ، حتى أصبح « ينظر فى وجه الرجال فلا يعرف شيئا » وحتى أصبح الفراش غريبا عليه ، لأنه لم يعد يألف مضجعا فيقول :

لا أسمع اللهو فى الحديث ولا ... ينفعنى فى الفراش مضطجع
لا وجد ثكلى كما وجدت ولا ... وجد عجول أضلها ربع
أو وجد شيخ أضل ناقته ... يوم رواح الحجيج اذا دفعوا

---

(١) المصدر السابق ١٥٨/٢ وقوسى موضع .
(٢) شخصان يضرب بهما المثل من غابر الأمم .
(٣) ديوان الهذليين ١١٦/٢ ، ١١٧ .
(٤) ديوان الهذليين ١٥١/٢ ، ١٥٢ وعالها أثقلها وبلغ منها .
(٥) تضال تضاءل ورق عظمى نحل جسمى .
(٦) مخامر داء مستكن ملازم والكلم الجرح .
(٧) الأسى الحزن والجنة من الجنون والخبل بسكون الباء فساد العقل والجسم ، وفيه اشارة واضحة فى الاتفاق مع الشنفرى وجحدر فى تصويرهما السابق للهموم .

ينظر في وجه الرجـال فــــلا يعرف شيـئا فالوجـه ملتمع (١)

وكذلك عبيد الله بن الحر يتحدث عن فلق الهم قلبه فيقول :

فلو فلق التلهف قـلب حي لهم اليوم قلبي بانفلاق (٢)

وهذا سجين من الصعاليك يصف ما يورده عليه السجن من همـــــوم مختلفة ، وما يذكره به من ذكريات مؤلمة فيقول :

أقيـد وحبس واغتراب وفرقـة وهجـر حبيب ان ذا لعظيم (٣)

وهكذا نجد الهموم كثيرة متلاحقة في نفوس الصعاليك ، وهي وان اختلفت أسبابها وتنوعت مثيراتها الا أنها في نهايتها هموم تتوالى عليهم ، وتمثل جانبا مهما من جوانب صراعهم في الجوانب المختلفة من حياتهم ، ومع ذلك فحين نتأمل همومهم وأسبابها المباشرة ، قلما نجد ثقل الهموم التي يعانونها مناســــــبا للسبب المباشر الذي يذكرونه ومن هذه الأسباب القليلة المناسبة لما يذكرونـــه من هموم قول أبي الطمحان :

أرقت وآبتني الهموم الطـــوارق ولم يلق مالاقيت قبـلي عاشق (٤)

فمثل هذا النوع المألوف ، والذي يتناسب مع السبب المقرون به قليل جدا في شعرهم ، أما الغالب فهو همـــوم ثقيلة الوطأة ، مضنية للنفس ، طاحنة في القلب ، ككثير مما مثلنا ، ومثل هذا النوع من الهموم لا نستطيع أن نقتنع بأن مصدره سبب معين مباشر ، وانما المعقول أنها هموم دفينة كثيرة ، متعددة الأسباب والدوافع في نفوسهم ، وأن الأسباب المباشرة التي يذكرونها انمـــا هي مفتاح تفتح به مخازن ضخمة لهموم كثيرة دفينة .

الوحوش

ومن الواضح أن بين الصعاليك بحكم اعتمـــاد حياتهم على التنقل في الصحراوات والتخفي بها وبين الوحوش احتكاكا مباشرا . ولذلك نجد الحديث عن الوحوش شائعا بارزا في شعرهم ، بل لا يكاد شاعر يخلو شعره من حديث عن الوحوش ، بل أكثر من هذا أننـا لا نكاد نجد قصيدة كاملة تخلو من الحديث عن الوحوش ، اذا صرفنا النظر عن المقطوعات التي بلغتنا لأنها قيلت مقطوعات

---

(١) امالي القالي ١٢٠/٢ وربع في البيت الثاني يعني ضالة في مكان مضل ومن معاني الربع المنزل والمكان .

(٢) خزانة البغدادي ١٨/٢ في رثاء الحسين بن علي .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

(٤) مهذب الأغاني ٣٦/١ .

أو لأنه لم يصلنا منها الا هذا القدر من الابيات، وليس من ريب فى أن الوحش من أعداء الانسان ، ان لم يكن من أخطر أعدائه ·

ولكن الذى يلفت نظرنا فى حديث الصعاليك عن الوحوش على كثرته أنه مسوق فى غير الصورة التى نتوقعها ، فالواقع أن الصعاليك لا يبدون خوفا من الوحوش ولا يظهر من شعرهم أنهم يعتبرون الوحوش خطرا فى حياتهم أو مصدر قلق لهم كما يتبادر الى أذهاننا ، بل نجد حديثهم عن الوحوش يأخذ طابعين ، الطابع الأغلب ، وهو عكس ما نتوقع تماما ، حيث نراهم فيه يأنسون الى الوحوش ويمتدحونها وكثير منهم يعتز بجوارها وخلقها ويبدو فى حديثه وكأنه يتغزل فيها ، والطابع الثانى وهو الأقل ، نجد فيه حديثهم عن الوحوش عاديا ، يصفونها ويصفون حياتها وبعض خلقها ، وأحيانا قليلة خطورتها ، ولكنهم أيضا لايتحدثون عنها على انها مصدر خطر عليهم ، أو على أنها عدو يشغل بالهم كما تحدثوا عن مجالات كثيرة للصراع والعداء وسواء كان هذا أو ذاك فانه مما لا شك فيه ان شعرهم لا ينبىء عن أنهم يعتبرون الوحوش خطرا عليهم ، أو أنهم يضيقون بجوارها أو توقع لقائها أو ترقب هجومها أو غير ذلك ، بل على العكس الذى يظهره شعرهم أنهم يأنسون اليها ، أو يرون جوارها شيئا عاديا على أقل تقدير ، هذا لا مجال للشك فيه كما يبدو واضحا من شعرهم ، ولكن هل يمكن أن نعتبر هذا أمرا عاديا لا يحتاج الى تفكير أو تعليل ؟ ومن حق المجيب عن هذا أن يجيب بأن هذا الحديث من الصعاليك عن الوحوش لا يمثل حقيقة احساسهم ، وأنهم يحاولون تغطية شعورهم الحقيقى وهو الخوف من الوحوش مقنعين اياه بقناع من أحاديث الشجاعة والجرأة وعدم الخوف من الوحوش ، ومن حق معترض أن يعترض على هذا المجيب ، بأن الصعاليك لم يظهروا فى حديثهم عن الوحوش شجاعة أو بأسا ، ولم يتخذوا من هذا المجال ميدان فخر لهم حتى نتهمهم بأنهم ينسجون لأنفسهم أثواب بطولة غير حقيقية يغطون بها خوفهم من الوحوش ، فلم يكن حديثهم عن الوحوش أنهم قاهرون لهذه الوحوش ، وانما يريدون أن يقولوا : الوحوش أهلنا وأصدقاؤنا وجوارهم خير لنا من جوار البشر · ومن حق مجيب آخر عن السؤال أن يجيب بأن الانسان ابن بيئته كما يقول علماء الاجتماع ، والناس ينفرون من الوحوش ويرون فيها نكرا منكرا لأنها بيئة غير بيئتهم ، أما الصعاليك فالأمر بالنسبة لهم عكس ذلك ، لقد هجروا فى جملتهم بيئة الناس ، ليس بأجسامهم ومعيشتهم فقط ، وانما بنفوسهم وعواطفهم أيضا ، بمعنى أنهم أصبحوا أعداء كارهين للناس ومجتمعاتهم ، وأصبحت بيئتهم التى يعيشون فيها بأجسامهم ونفوسهم وآمالهم هى بيئة الوحوش فليس غريبا أن يحاولوا التكيف مع الوحوش ، فيروا فيها من الفضال ما لا يراه غيرهم ، ويروا فيها مخلوقات تشاركهم آلام البيئة وآمالها ، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من حقيقة لا تجوز فيها ، بل ليس غريبا أن يتابع بعضهم هذا المنطق فيرى فى الوحوش بيئته التى يألفها كل الالف ،

ويرى في الناس بيئة غريبة عليه ينكرها كل الانكار ، كما ننكر نحن الوحوش، لانها بيئة غريبة علينا • ومن هذا البعض الأحيمر السعدى الذى يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير (١)

وقد يجيب عن السؤال السابق مجيب ساخط على الناس ، بأن الوحوش ليست من النكر بالدرجة التى نصورها أو نتصورها ، وان فى الحيوان من الفضائل ما يخجل أخلاق البشر ، أليس فى الحيوان ما يضرب به المثل فى الوفاء ، فى حين يغدر الناس بعضهم ببعض لأتفه المطامع ؟ وأليس الحيوان أعف من بنى آدم فرجا ، حيث لا يتناكحن الا لبقاء النوع بالحمل ، فى حين يملأ بنو آدم أرضهم نتنا بفضائح الاعراض والفروج؟ وأليس الحيوان أملأ نفسا بالقناعة والرضا ، حيث لا يطلب رزقا الا حينما يجوع ، فاذا شبع كان عفيفا زاهدا مهما أغرته المغريات ، فى حين لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، وفى حين يسعى الشبعان المتخمة خزائنه منهم ، ليغتصب لقمة الجائع الهزيل ؟ ، وقد يضيف هذا المجيب بأنه اذا كان الناس يعلمون ذلك وغيره من فضائل الحيوان ويضربون ببعضه الأمثال فان هناك فضائل أخرى للحيوان قد تكون أكرم وأسمى ،ولكنهم لا يحسونها لانها فى بيئة غريبة عليهم ، فلم لا يكون الصعاليك بعيشهم فى تلك البيئة وتكيفهم معها قد أحسوا تلك الفضائل فانسوا اليها وآثروها ، حتى زادتهم رغبة فى جوارها والقرب منها ، ورغبة فى البعد عن مجتمعات البشر ، وآية ذلك هذا الألف والود الذى يبدو واضحا بينهم وبين الوحوش ، فى حديثهم عنها ؟

وقد يجيب مجيب آخر بغير ذلك ، ولكنى أقول لهذا وذاك ، فلننظر بعض شعرهم ، فقد يهدينا الى جواب آخر ، وقد نجد فيه هو الجواب ، فيكفينا جهد الخلاف ، وحين نذهب الى شعر الصعاليك ، نقول أولا أنهم تحدثوا عن كثير من الحيوان الذى يعيش فى الصحراء وحشيا ، سواء أكان مفترسا أم غير مفترس ، بل لا نعلم أن حيوانا من حيوانات بيئتهم لم يتحدثوا عنه ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ مجموعة من شعرهم عن حيوانات مختلفة ، يتفق كثير من حديثهم عن هذه الحيوانات مع معلومات بيئتهم عنها ومع الأمثال المضروبة بهذه الحيوانات (٢) ولكن معظم حديثهم عن الحيوانات غير المفترسة كان حديثا عارضا غير مقصود لذاته ، يسوقه فى سياق مثل او تشبيه ، كما يقول عبيد بن أيوب مشيرا الى زعم العرب أن الضب يصبر على العطش أمدا طويلا ، والى أسطورة عن فرخ الضب والضفدع يرويها الجاحظ :

ظللت وناقتى نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغى ورودا (٣)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ •

(٢) أنظر مجمع الأمثال للميدانى وخاصة ما جاء على أفعل من الأبواب المختلفة •

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ •

وفى الهجاء تشبيها بالضب (١) ، وكذلك القنفد (٢) والغراب فى ضرب المثل بحدة بصره (٣) والفارة تشبيها بها فى الهجاء (٤) والأرنب (٥) والظبى فى الصيد (٦) .

ولكن حديث الحيوانات المفترسة كان أحظى وأكثر اهتماما ، فهم حتى وان ساقوه خلال غرض آخر الا أنهم عندما يتحدثون عن هذه الوحوش يتوقفون وقفة متأنية لتنال من حديثهم قدرا غير يسـير ، فالشنفرى مثلا فى سياق حـديثه عن سخطه العارم على الناس ، وتصميمه على أن يهجرهم الى مجتمع آخر ، ننظر فاذا المجتمع الآخر هو مجتمع الوحوش ، واذا هو يتحدث عنها لا حديث الخائف الوجل ، ولا النافر المتوجس ، وانما حـديث الألف والود والاعجـاب فيقول مخاطبا الناس جميعا فى لاميته :

ولى دونكم أهلون سيد عملس　　وأرقط زهلول وعرفاء جيأل (٧)
هم الأهل لا مستودع السر ذائـع　　لديهم ولا الجانى بما جر يخـذل
وكل أبى باسل غير أننى　　اذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٨)

فهو اذن يهجر الناس الى بيئة الوحوش ، ثم يرى فى الوحوش أهـلا كراما لا يذعن سرا ، ولا يخذلن جانيا ، ثم يبـدأ فى التكيف النفسى معهن ، جامعا بينه وبينهن فى معيشة مشتركة وسباق مشترك فى المعيشة ، وهـذه الشركة فى الحياة والآمال أقوى روابط التكيف الاجتماعى ومن هذه الزاويـة لا يكون حديث الصعاليك عن الفهم مع الوحوش خيالا أو مجازا أو أى شىء غير الحقيقة وان لم تكن حقيقة كاملة ، ويوضح الشنفرى بعـد ذلك فى القصيدة نفسها هذه المشاركة مشبها حياته وسعيه لطلب العيش فى الصحراء ، بحياة الذئب وطلبه للعيش فيقول :

واغدو على القوت الزهيد كما غدا　　أزل تهاداه التنائف أطحـل (٩)

وتتزايد هذه المشاركة والألفة بينه وبين الوحوش حتى تنتهى الى التوافق بينهما ، وكأنه واحد منها كما يقول فى آخر القصيدة ان اناث الوعـول ألفته كأنه ذكرها :

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٦/٦٧ ، ١١٣ .
(٢) انظر المصدر السابق ٤/١٦٦ ، ١٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٣/٤٢١ .
(٤) المصدر السابق ٥/٢٦٣ .
(٥) انظر مهذب الأغانى ١/٩٣ .
(٦) مهذب الأغانى ١/٩٣ .
(٧) السيد العملس الذئب القوى وأرقط زهلول نمر أملس وعرفاء جيال ضبع طويلة .
(٨) يقارن بينه وبين الوحوش قائلا مع بسالتها فانا أسرع منها الى الصيد .
(٩) الازل الذئب الخفيف الوركين والتنوفة المفازة والاطحل الأغبر اللون وبعده أبيات مكملة للمعنى .

ترود الأراوى الصحم حولى كأنهـــا   عذارى عليهن الملاء المذيل (١)
ويركدن بالآصال حـــولى كأننى   من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل(٢)

وعبيد بن أيوب يصف أيضا مراحل الفته مع الوحوش ، قائلا انهــــن أنكرنه أول الأمر ، فلما تعودن عليه ألفنه ، وازداد هذا الألف توثقاحين شاركهن جفاف الحياة وصعوبة العيش فيقول :

فأجفلن نفرا ثم قلن ابن بلدة   قليل الأذى أمسى لكن مصافيــا
أكلتم عروق الشرى معكن والتوى   بحلقى نور القفر حتى ورانيـــا (٣)

ويؤكد عبيد حلفه للوحوش ، ولكن هذا الحلف لا يعنى تخلى كل منهمـــا عن طبعه ، فاذا بدر الطبع من أحدهما فالآخر متيقظ له فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتـــنى   بقرب عهودهن وبالبعــــاد
وأمسى الذئب يرصدنى مخشا   لخفـة ضربتى ولضعف آدى(٤)

ويتحدث الاحيمر السعدى عن حياته مع الوحوش فى القفار حين خلعـــه قومه وطارده السلطان فيقول :

« كنت أرى النوى فع رجيع الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر أحدا قبلى ٠٠ » (٥) ويؤكد هذا بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى   وصوت انسان فكـدت أطـــير (٦)

وتأبط شرا أيضا يتحدث عن ألف الوحوش له ، وأطوار هذا الألف ، فيقـول ان الوحوش تعودت رؤيته ليل نهار ، بل تعودت أن يبيت بمرأى منها ، فألفتـــه لتعودها رؤيته ، ولكونها لم تجد منه أذى أو تعرضا لها فى معيشتها ، تحـول الألف بينها وبينه الى ما يشبه الود ، حتى انها لتوشك أن تسلم عليــــه لو كانت تحسن السلام فيقول :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنــه   ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعـا (٧)
ثم رأين فتى لا صيد وحش يهمــه   فلو صافحت انسا لصافحنه معا (٨)

---

(١) ترود تذهب وتجىء والاروى أنثى الوعل والصحم السود الى صفرة والملاء نوع من الثيـاب ٠

(٢) الآصال جمع أصيل والأعصم الوعل فى ذراعه بيـاض والأدفى طويـل القرن وينتحى يقصد والكيح عرض الجبل وسنده والاعقل الممتنع ٠

(٣) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ ٠

(٤) الحيـــوان للجاحظ ٦/١٥٩ ٠

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٢٩٠ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجى مع اختلاف يسير فى الألفاظ ٠

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجى ٠

(٧) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والمغنى مكان النزول والشطر الثانى يعنى لا يمنعها من مرتع لها ٠

(٨) الشطر الأول يعنى رأينه منصرفا عن صيدهن الى شىء آخر ٠

فهذا الفريق من الصعاليك الذى مثلنا له بما سبق لا يرى فى الوحوش عدوا ، بل يرى فيه أهلا أو شريك حياة أو جارا غير لئيم على أدنى الفروض ، ولا يرى فى صلته بها عداء ولا صراعا ، وانما يرى ألفا وودا أو سلاما على أقل الفروض ·

وهناك فريق آخر من الصعاليك ، لا يرى فى جوار الوحوش الفا ولا ودا ، ولكنه أيضا لا يرى فيه عداء ولا صراعا صريحا ، وانما نحس أن فيه مجرد الريبة والتوجس ، أو لحذر على أبعد الفروض ، فما لك بن الريب يتحدث عن البيئة التى اضطرته الصعلكة الى ملازمتها والعيش فيها فيقول :

اما ترى الدار قفرا لا أنيس بها … الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا (١)

وحتى حينما عدا ذئب عليه ليغتاله فقتله بسيفه ، اعتبر مالك هذا الحادث فرديا ، فلم نشعر أنه غير رأيه أو أظهر رأيا أو مشاعر نحو الوحوش كلها ، وانما قصر حديثه على الذئب الذى عدا عليه وحده ، بل أكثر من هذا لم يذمم الذئب بأكثر من قوله « أذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة » (٢) ، بل مدحه فى مقابلة مدح نفسه بقوله :

فانت وان كنت الجرىء جنانه … منيت بضرغام من الأسد الغلب (٣)

ولكن المهم أن هذه الحادثة لم ينعكس أثرها فى نفسه على نوع الوحوش كله وأكثر ما بلغنا من شعر الصعاليك عن الوحوش وعن البيئة بصفة عامة فى ثوب الصدق والواقعية الحقة كان من شعر صعاليك هذيل وشعر الشنفرى ، وقد مثلنا من شعر الشنفرى واتجاهه نحو الوحوش ·

وأما صعاليك هذيل فنجد فى شعرهم طابع المعاناة الحقيقية لحياة الوحوش والفها ومراقبتها عن كثب ، وفى شعرهم صور رائعة عن بعض الوحوش ، تمثل لوحات فنية فى أدق صورها وقد أشرنا الى شيء من ذلك فيما سبق ·

وصخر الغي يرسم لوحة من هذه اللوحات ، تمثل حمارى وحش ، ويبدأ منظرهما فى روضة من أعشاب الصحراء يرعيان فيها ، وبعد أن شبعا تهيآ لطلب الماء يشربان ، وقربا من الماء ، ولكنهما أحسا صائدا يرصدهما ، فدارا والتفا حتى بعدا عن الماء ، ثم صعدا مرتفعا غليظا من الأرض ، ثم انحدرا بقوة ، وهما ما يزالان فى بحثهما عن ماء آمن ، وظلا طول الليل هكذا ، وحينما أطل عليهما الصباح ، ظنا أن أزمتهما قد فرجت ، ولكنها كانت فى الواقع أزمة جديدة فيها الردى لهما ، اذ فوجئا بخيل الصائدين تشيم الرماح فى صدورهما فيقول :

ولا علجان ينتابان روضا … نضيرا نبته عما تؤاما (٤)

---

(١) انظر مهذب الاغانى ١٠/٥ ·

(٢) أنظر مهذب الأغانى ١٦/٥ البيت الأول من القصيدة ·

(٣) المصدر السابق « البيت الثانى من القصيدة »

(٤) ديوان الهذليين ٦٣/٢ ـ ٦٦ والعلج حمار الوحش والعم بضم العين تام النبات وتوأم مزدوج ·

كلا العلجين أصـــعر صيعـــرى تخال نسيل متنيه الثغاما (١)

الى آخر هذه الصورة ، والذى يعنينا منها أنه ساقها مســـاق المرئيات التى يشاهدها ويتتبع أحوالها ، ثم نرى علاقته بها ، انها علاقة لا يتحدث فيها عن صراع ولا عداء الا فى حالة واحـــدة ، هى حالة الصيد ، حينما يحتـاج الى أن يصيد ، وهو يصف نفسه صائدا فيقول :

أتيـــح لهـــا أقيـدر ذو خشـــيف اذا سامت على الملقات سامـــا (٢)
خفى الشـــخص مقتـدر عليهـــا يشن على ثمائلهـــا السماما (٣)
فيبدرهـــا شرائعهـــا فـــيرمى مقاتلها فيسقيهـــا الزؤامـــا (٤)

فهذه صورة صراع مع نوع من الوحوش ، ولكنه صراع الخائف أو المدافع عن النفس ، وانما صراع الصائد المهاجم ، الذى يســـقى صيده الموت الزؤام كما قال :

والأعلم الهذلى يخشى الضبع ، ولكنه لا يخشاها وهو حى قوى ، وانما يخشى سطوها على جثمانه لو صرعه أعداؤه ثم تركوه جزرا للوحـــوش من ضبع وذئب وثعلب وكذلك الطـــير ، ولكن ذهنـــه تركز على الضبع لشهرتها بتتبع الجيف ، فتصور نفسه جثة ملقاة ، تتجمع حولها ضباع سود كأن جلودهن ثياب رهبان فى سوادها ، ذات آذان طويلة كأنها مغارف الطعام ، يعملن فى نزع جلده كما يعمل القين فى غمد السيف ، ولا يكتفين بأن يأكلن منه ، وانما يجـــررن جثته الى جرائهن الصغار اللائى تركنهن وراءهن كما يقول :

فأكـــون صيدهـــم بهـــا وأصير للضـــبع السواغب (٥)
جـزرا وللطـــير المـــربـــة والذئـــاب وللثعـــالـــب
وتجـــر مجـــرية لهـــا لحمى الى أجـــر حواشب (٦)
ســـود ســـحاحيـــل كـــأن جلودهـــن ثيـــاب راهب (٧)
آذانهـــن اذا احتفـــر ن فريســـة مثـــل المذانب (٨)

---

(١) أصعر صيعرى لاوى العنق والنسيل ما تطاير من شعره والثغام نبات جاف ·

(٢) المصدر السابق ٣٦٣/٢ واقيدر قصير العنق والحشيف الثوب الخلق والملقات جمع ملقة المكان الأملس ·

(٣) خفى مختبى لصيدها ومقتدر قادر ويشن يصب والثمائل مواضع الطعام يصيبها منها والسمام روى السهام ·

(٤) الزؤام الموت العاجل · والوحوش التى يعنيها فى الأبيات الوعول والنعام كما ذكر فى بيت سابق ·

(٥) ديوان الهذليين ٧٩/٢ ، ٨٠ والسواغب الجياع ·

(٦) مجرية ذات جراء هى صغارها وحواشب متتفخات البطون ·

(٧) سحاليل يريد ضخمة ·

(٨) المذانب مغارف الطعام ·

ينزعـــن جــلد المـــرء نـــــز   ع القـين   أخـــلاق المذاهب (١)

ومثل هذا المعنى يراود الشنفرى فى تصوره أن أعداءه سيقتلونه ، ويحملون رأسه ، ثم يتركون جسده للضباع (٢) ٠

ونخرج من هذا الحديث بأن نقول انه لا يبدو من شعر الصعاليك انهـــم كانوا يعتبرون الوحوش على خطورتها مشكلا أساسيا فى حياتهم ، او عقبة فى سبيل صعلكتهم ، حتى أننا نرى مشاكل أخرى قد تبدو أيسر من الوحـــوش كالحصول على الطعام والماء كانت تشـــغل حياتهم وتؤرقهم أكثر ممـــا تشغلهم الوحوش ، وقد يكون لمعيشتهم فى بيئة الوحوش والفهم لها ، وشعورهم النفسى بأنها البيئة التى لا مفر لهم منهـــا أثر فى وجود شىء من التقارب بينهم وبـــين الوحوش من حيث الالف ، وذوبان شىء من النفور الطبعى بـــين مجتمع الناس والوحوش ، ولكن ذلك كله لا ينفى خطورة الوحوش ، ولا احساسهم بالتوجس منها ، والمحاذرة من طبعها ، أعنى لا يعنى جهلهم أو تجاهلهم طبيعة الوحوش ٠

الوهـــم

فى المجتمعات البدائية تشيع الخرافات والأساطير ، يلقنها الطفل مـع فطامه ، وتظل عالقة بذاكرته مهما أنســته الأيام اياها ، فاذا أحاط به ظرف يساعد على ظهورها برزت فى ذاكرته وخياله الى الوجـــود ، بل الى التأثير فى نفسيته وسلوكه وادراكه أو احساسه ٠

ومن هــذه الخرافات فى المجتمعات البدائية وخاصـــة البادية ، الغيلان والسعالى ، والصور المختلفة للجن ٠

وحين نتحدث عن هذه الخرافات بالنسبة للصعاليك لا نستطيع التعميم ، فالواقع أننا حين نستعرض شعرهم نجد قلة قليلة هى التى تحدثت عن هذه الخرافات كشىء فى حياتها ، بل لعلنا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن اللذين تحدثا عن الخرافات بهذه الصورة هما عبيد بن أيوب العنبرى وتأبط شرا عـــلى وجه التحديد ٠

فأما عبيد بن أيوب فقد تحدث كثيرا فى شعره عن خرافات كثيرة كالغول والسعلاة ، والجن لا على أنها أشياء موجودة فحسب ، فلو كان الأمر كذلك لاختلف الحديث عنه ، ولكنه تحدث كثيرا عن أنه حالف هذه المخلوقات وعاشرها وجاورها ، أو صارعها وقاتلها ، فى صور لا شك قط فى أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة وعن أدنى مراحل العقل فى تصديقها ٠

(١) القين الحداد والخلق البالى والمذاهب الحلى المذهبة على جفن السيف ٠
(٢) أنظر حماسة أبى تمام ١/١٨٨ ٠

فهو يتحدث عن الغول مثلا بأنه رافقها بعد أن أوقدت حوله نارا وظلت ترن بألحان مختلفة فيقول :

ولله در الغـول انى رفيقهـــا — لصـــاحب قفـــر خائف يتســـتر
أرنت بلحـــن بعد لحـــن وأوقـدت — حـــوالى نيرانا تبوخ وتزهـــر (١)

بل يزيد الأمر تفصيلا فيصف أنه لقى غولين ذكرا وأنثى فيقول :

وحـالفت الوحـــوش وحالفتـــنيـ — بقـــرب عهودهـــن وبالبعـــاد
ثم ـ وغولا قفـرة ذكـر وأنثى — كـــأن عليهما قطـــع البجـــاد (٢)

وفى مرة أخـــرى لم يأنس الى الغول ، وانما لقيت منه الدواهى كمـا يقـــول :

ولقـــد لقيت منى السباع بليـــة — وقد لاقت الغيلان منى الدواهيا (٣)

ومرة يتحدث عن السعلاة والغول فيقول :

وســـاخرة منى ولـــو أن عينهـــا — رأت ما ألاقيـــه من الهـــول جنت
أزل وســـعلاة وغـــولا قفـــرة — اذا الليل وارى الجن فيه أرنت (٤)

ويتحدث عن صفائه مع الغول بعد عدائهما فيقول :

وصـــار خليـــل الغول بعد عداوة — صفيا وربته القفار البسابس (٥)

ثم يتحدث عن حلفه مع الجن بعد هجره الأنس ، وعن أن هـــذا الحلف كان ناجحا قويا لأنه هو شبيه بالجن فى شكله وشمائله فيقول :

أخـو قفرات حالف الجـــن وانتفى — من الانس حتى قد تقضت وســـائله
له نسب الانسى يعـــــرف نجـــله — وللجـــن منه خلقـــه وشمائله (٦)

وينكر على أعدائه أن يغيروا عليه وهو الذى « يثير الجن وهى هجـــود » كما يقول :

أقـــل بنو الانسان حتى أغرتم — على من يثير الجن وهى هجود ؟ (٧)

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجى وفى الحيوان للجاحظ ٤/٤٨٢ برواية « خائف متقفر » وقفر . مكان مقفر .
(٢) الحيوان للجاحظ ٦/١٥٩ .
(٣) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ .
(٤) الحيوان للجاحظ ٦/١٦٥ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق ٦/١٦٦ وأقل استفهام بمعنى هل قل .

ويزعم أنه أصبح معروفا بأنه خليل الغول فيقول :

تقـــول وقـــد ألمت بالانس لمـــة مخضبة الاطـراف خـــرس الخلاخل
أهـــذا خليل الغول والذئب والذى يهيم بربات الحجال الكواهل ؟ (١)

وأما تأبط شرا فلم يبلغ ما بلغه عبيد بن أيوب من الوهم والاسراف فى الخيال ، وانما هى حادثة واحدة ، تحدث عنها تأبط شرا فى شعره بأنه قتـل فيها الغول ، ولكونها حادثة واحدة قلنا فيما سبق انه من الناحية النظرية ، اذا نظرنا الى خبر كهذا فليس من الحتم أن نكذب دعواه ، لجواز أن يكون قد قتـل حيوانا غريبا فى الصحراء ، تمثل من شكله أنه الغول كما ارتسمت فى خياله ولكننا من الناحية التطبيقية حين نرى حديثه عن هذا الحادث لا نجد مفرا من حمله على الوهم ومجانبة الواقع والحقيقة ، ومن الحديث العادى الذى يمكن معه محاولة الدفاع عن تأبط شرا قوله :

ألا مـــن مبلـــغ فتيـــان فهـــم بمـــا لا قيت يـــوم رحى بطـــان
بأنى قد لقيت الغـــول تهـــوى بقفر كالصحيفة صحصحـــان (٢)

ومن الحديث المسرف الذى لا يترك مجـــالا للدفاع عن تأبط شرا ، قوله انه جاور الغول وتأمل خلقتها ، بل وطالبها بضعها حيث يقول :

فاصـــبحت والغـــول لى جـــارة فيـــا جـــارتا أنت ما أهـــولا
وطالبتهـــا بضـــعها فالتـــوت بوجه تهول فاســـتغولا (٣)

واذن فهـــذا النوع لا يمثل واقعـــا ولا حقيقة ، بل ولا استنادا الى شىء من الحقيقة ، وانما يمثل مجرد أوهام وخيالات بحتة .

ومع أن هذا النوع من الوهم لا يمثل ظاهرة عامة فى الصعاليك ، وانمـــا هو من قبيل الحـــالات الفردية التى يمكن أن تكون الى الشـــذوذ فى محيط الصعاليك أقرب منها الى الظاهرة العامة بينهم ، نقول مع ذلك فهو فى حاجة الى التعليل ، وفى محاولة تعليل هذا الوهم نعود فنقول ان بذوره من غرس الأساطير والخرافات التى تشيع فى المجتمعات البدائية ، وخاصة البوادى ، حيث يلقنها الصغار مع أقاصيص الطفولة ، ثم تظل متداولة بين السذج والبسطاء ، وحـين ينمو الطفل وتنضج شخصيته يحاول أن يتناسى هذه الخرافات والأساطير التى علقت بذاكرته طفلا ، ولكن هناك ظروفا يمكن أن تستخرج صور هذه الأســـاطير من الذاكرة وتعيدها ماثلة أمام الأعين ، وأكمل هـــذه الظروف وأصلحها لبروز الخرافات والأســـاطير حياة الصعاليك ، التى يعيشها معظمهم وحيدا أو شبيها

---

(١) المصدر السابق .
(٢) معجم ما استعجم للبكرى ١/٢٥٧ .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ والبضع الفرج .

بالوحيد ، فى صحراء مقفرة فيها كل عوامل الوحشة والخوف والرهبة الى أبعد حدودها ، هذه الحياة التى يرسم الاحيمر السعدى صورة منها ، كما يروى ابن قتيبة فيقول ، « وكان لصا كثير الجنايات ، وخلعه قومه فخاف السلطان وهرب ، وخرج الى الفلوات ، وقفار الارض . وقال : انى ظننت انى قد جزت نخل وبار (١) أو قد قربت منها وذلك انى كنت أرى فى رجيع الذئاب النوى ، وصرت الى مواضع لم يصل اليها أحد قط ، وكنت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر منى لأنها لم تر غيرى قط ، وكنت آخذ منها لطعامى ما شئت الا النعام فانى لم أره قط الا شاردا نادا » (٢) ومهما يكن فى هذا من المبالغة أو شىء من الوهم الذى نتحدث عنه ، فانه يدل على حياة الوحدة والوحشة والرهبة التى يعيشها بعض الصعاليك وهذه الحياة هى التى نعنى أنها أهم الظروف التى تساعد على تجسيد الخرافات والأوهام .

ومن هذا نقول ان حياة الصعاليك وبيئتهم تساعد على ظهور الخرافات والأوهام ، وأنها لو كانت شائعة بينهم لما كان ذلك غريبا ، بل يكون هو النتيجة الطبيعية المنتظرة ، خاصة وأنه صاحب وحشة البيئة ومخاوفها ووحدتهم فيها شعور عام بينهم بأنهم مطاردون ، مطاردة مطلقة مرتقبة من كل الوجوه ، من الأعداء وغير الأعداء كما سبق ، وهو شعور نفسى ثقيل الوطأة ، خطير الأثر ، وقد صور القرآن الكريم أثر هذا الشعور فى المنافقين بأنه يبلغ منهم أن يتصوروا أن كل صيحة انما هى خطر متجه اليهم ، حيث يقول تبارك وتعالى « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » (٣) وهو تحليل نفسى بالغ العمق والتعبير ، وقد كان هذا المعنى موردا للشعراء ينسجون على منواله ، وقد عدد المفسرون كثيرا من الشعراء الذين أخذوا من هذا المعنى (٤) وهذه الآية يمكن أن تكون تفسيرا للوهم الذى نتحدث عنه ، من حيث ان الشعور بالمطاردة — وهو أعمق وأوسع من مجرد الخوف — حينما يتمكن من النفس يفقدها اتزان الادراك وسلامة الشعور فيتولد فيها الوهم مختلطا بالحقيقة ، كما توهم المنافقون تحت وطأة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم .

ومن حق معترض أن يعترض هنا بأنه اذا كان الأمر كذلك فقد كان ينبغى أن يكون الوهم شائعا فى شعر الصعاليك وأحاديثهم ، حيث أنهم بصفة عامة — كما تقرر سابقا — قد عانوا من الشعور بالمطاردة ، فقد كان ينبغى أن يكون لهذا الشعور العام بالمطاردة نتيجة عامة أيضا هى شيوع الوهم لديهم ممثلا فى الخرافات والأساطير ، ولكن قلة قليلة منهم قد لا تتعدى عبيد بن أيوب

(١) مكان تزعم العرب أنه لم تطأه قدم انسان .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجى وانظر العقد الفريد ٣/٢٩٠ أيضا .

(٣) الآية ٤ من سورة المنافقون .

(٤) أنظر للمثال تفسير الكشاف للزمخشرى فى هذه الآية .

وتأبط شرا ، والأحيمر السعدى ، ان اعتبرنا فى بعض حديث عبيد السـابق شيئا من وهم ، هذه القلة فقط هى التى نجد الوهم فى كلامها ، فلماذا لـم يهم (١) الباقون ؟

ونجيب عن ذلك بأن الباقين كانت لديهم أسلحة مضادة للشعور بالمطاردة والخوف ، وهى القوة التى تميز بها الصعاليك ، والتى كانت ولا شـك قوة غير عادية ، بل لا ينازع فى أنهم فى جملتهم كانوا من القوة فى قمة عالية ، وأبرز مظاهر هذه القوة التى قاوموا بها الشعور بالمطاردة والخوف هو الاستهانة بالموت كما سبق ، فهذه القوة التى تبلغ فى بعض جوانبها حد الاستهانة العامة بينهم بالموت كانت سلاحا مكافئا للشعور بالمطاردة ، فلم يثمر شعور المطاردة ثمرته المنطقية المنتظرة ، وهى الوهم ٠

هذا عن أكثرية الصعاليك ، الذين حمتهم قوتهم واستهانتهم بالموت من سيطرة الشعور بالمطاردة الى حد الوهم ، أما الأقلية التى لم يكن نصيبها من القوة كبيرا فقد تمكن فى نفوسهم شعور المطاردة ، وسيطر عليها الخوف حتى بلغ بها درجة الوهم وفقدان الاحساس السليم بما حولهم من أشياء ، وليس هـذا التفريق بين الصعاليك فى هذا المعنى نظريا ، انما هو واقع ملموس فى شعرهم، فالواقع أن المستعرض لشعر الصعاليك يجد حديث الخرافات والوهم نشزا فيه، فمع كثرة حديث الصعاليك عن الوحشة والفقر والوحدة والوحوش ، مع كثرة ذلك كله فى شعرهم لا نجد اتجاها الى حديث الخرافات والأوهام الا لدى هذه القلة ، وقد قلنا ان أهم سبب من أسباب هـذه الخرافات والأوهـام سيطرة الشعور بالمطاردة والخوف الى درجة تتغلب على قوة صاحبها ، بمعنى أن تكون قوته أضعف من مقاومة هذا الشعور ٠ وهـذا الفارق بينهم فى قوة المقـاومة وضعفها نجده واضحا فى شـعرهم فأغلبية الصعاليك نجدهم مع حديثهم عن الشعور بالمطاردة أو حتى الخوف ان عرضـوا به يتحدثون أيضـا عن قوتهم وصلابتهم واستهانتهم بكل شىء حتى الموت ، أما القلة التى غلبها الشـعور بالمطاردة والخـوف وغلب قوتها ، فاننا نجـد ضعف المقـاومة بارزا فى شـعرهم ٠

فعبيد بن أيوب الذى تمثل الوهم المشار اليه فى شعره ، حيث كان أكثرهم حديثا عن الخرافات والأوهام بصورة ظاهرة ، عبيد هذا نجد حديثه عن الخوف البالغ المتمكن من نفسه ظاهرا متميزا فى شعره ، وكأنه هو نفسه يسوق لنـا سبب الأوهام التى شاعت فى شعره وهو الخوف الشديد غاية الشـدة حيث يصور معنى الآية الكريمة السابقة تصويرا يكاد يكون حرفيا فى قوله :

لقد خفت حتى لو تطـير حمـامة   لقلت عـدو أو طليعة معشر (٢)

(١) يهم مضارع وهم وهما ٠
(٢) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ ٠

ويصور مبلغ شعوره بفقدان الثقة فى عليا درجاتها فيقول :

فان قيـل خـير قلت هـذى خديعـة   وان قيل شر خلت حقـا فشمر
وخفت خليـــل ذا الصـفاء ورابنى   وقلت فلانا أو فلانة فاحـذر (١)

ويبلغ قمة الشعور بالمطاردة حينما يطلب من وحشى الصحراء أن يخفيه عن مطارديه فيقول :

ألا يا ظباء الوحش لا تحــذرينني   وأخفينني اذ كنت فيكن خافيـــا

بل انه ليثير الاشفاق عليه حينما يبلغ منه ذلك كله أن يتمنى مستعطفا لحظة يذوق فيها قلبه المخلوع طعم الأمن فيقول :

أذقنى طعم الأمن أوســـل حقيقـــة   على وان قامت ففصــــل بنانيـــا
خلعت فــؤادى فاستطير فأصبحت   ترامى به البيـد القفــار تراميـــا

وعبيد بن أيوب بهذا يريح المستنتجين وملتمسى الأسباب ، حيث يصرح لهم بأن الخوف والشعور بالمطاردة قد بلغا منه هذا المبلغ ، فيقطع نصف الطريق نحو النتيجة بذكره المقدمة المنطقية لها ، بل يمكن أن يقال انه صرح بالمقدمة المنطقية ، وصرح أيضا بنتيجتها ، غاية الأمر أنه ذكرهما منفصلتين، فلا ينقصهما الا الترتيب المنطقى ٠

والجاحظ يسوق فى تعليل هذا الوهم سببين أحدهما قوله « اذا استوحش الانسان تمثل له الشىء الصغير كبيرا ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير الحقير أنه عظيم جليل » (٢) وهو بهذا يشير الى بيئة الصعاليك التى قلنا أنها من العوامل المساعدة على ابراز مكنونات الذاكرة من الخرافات والأوهام وتجسيدها بقوله « اذا استوحش الانسان » ٠

والسبب الآخر يعرضه الجاحظ فى قوله « ومما زادهم فى هـــذا الباب وأغراهم به أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار الا أعرابيا مثلهم ، والا عاميـــا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك ٠٠ » (٣) ، وبهذا يشير الى ما ألمحنا اليه من أثر البدائية فى تقبـل الخرافات والأســاطير ونشرها فى المجتمعات البدائية ، وهذا يتضمن أن بعض الناس يحـــاول أن يستغل سذاجة مجتمعه لابســا ثوب البطولة بهذه الخرافات التى تجـــد من سذاجتهم مرتعا خصيبا ٠

ولئن كان السببان كلاهمـــا ينطبق على عبيد بن أيوب ، فاننا نرى أن السبب الثانى وحده هو الذى يمكن أن ينسب الى تأبط شرا فى حديثه المحدود عن بعض الخرافات ، لأن تأبط شرا فى جملة صفاته وأخباره وشعره ، لم يكن

---

(١) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ ٠
(٢) الحيوان للجاحظ ٢٥٠/٦ ٠
(٣) المصدر السابق ٢٥١/٦ ٠

من الذين يفقدهم الخوف أو الوحشة سلامة حسهم وادراكهم لما حولهم ، خاصة وأن في هذا الميدان كان عن حادثة واحدة هي حادثة قتله الغول فيما زعم ، وأنه لولا التفاصيل التي ساقها في هذه الحادثة لكان يمكن ان تلتمس له فيها وجها من وجوه الصدق ٠

صراع السلطة

وقد انفرد صعاليك الاسلام بصراع عنيف جديد ، هو صراع السلطة ، ممثلة في السلطتين التشريعية والتنفيذية ٠

وقد نظر صعاليك الاسلام فاذا شيء جديد يأخذ عليهم حياتهم من جميع أقطارها ، ويترصد مسالكهم ، بل يلاحقهم حتى في كهوفهم وخلواتهم ، بل وينفذ الى خبايا نفوسهم ، في كل وجه يجدون أمامهم هذا الشيء ، وفي كل خلوة ينفذ اليهم هذا الشيء ، لا يترك لهم ظلمة يتحصنون بها ، ولا منعرجا يأمنون فيه ، وكأنه ضوء النهار يكتسح كل ظلام ، ويكشف كل مخبأ وكان هذا الشيء الذي فوجئوا به هو الاسلام ٠

ولا شك أن الاسلام كان أخطر عدو واجهه الصعاليك ، كما كان أكبر ضربة منيت بها الصعلكة وقد كانت هزيمة الصعلكة والصعاليك أمام الاسلام أيضا أكبر هزيمة منوا بها ، ان لم تكن الهزيمة الوحيدة التي وضعت حدا فاصلا مميزا بين صعلكة الجاهلية وصعلكة الاسلام ، سواء في الأساليب والمشاعر ٠

ولا نعني بانتصار الاسلام على الصعلكة أنه قضى على الصعاليك أو حتى قلل من عددهم ، وانما نعني أن انتصاره كان في تغيير النظرة الى الصعلكة تغييرا كاملا ، فبعد أن كانت الصعلكة ميدانا للبطولة والتنافس ، ومحطا للاعجاب والتطلع ، أصبحت جريمة منكرة بغيضة ، لا تلقى من الاسلام الا انكارا شديدا ، وعقابا صارما ، ولا تلقى من المسلمين الا نبذا وبغضا ومطاردة ٠

وقد كان أثر الاسلام في قصم ظهر الصعلكة واضحا كل الوضوح في نقطة هامة جدا في شعر الصعاليك ، تعتبر محورا فيه ، هذه النقطة هي الذاتية في شعر الصعاليك ، فمن السمات البارزة في شعر الصعاليك كله الذاتية ، حيث يجعل الواحد منهم ذاته محورا لكل شيء ومنطلقا لكل معنى ، ومشرفا على كل ما يعرض له في شعره مصاحبا له ، ولكن هذه الذاتية تختلف اختلافا أساسيا في شعر الصعاليك الاسلاميين عنها في شعر الجاهليين ، فبينما نجد ذاتية صعاليك الجاهلية تتسم بالعزة البالغة ، والإعتداد الشديد بالنفس ، والاستهانة المطلقة بكل شيء ، نجد ذاتية صعاليك الاسلام عكس ذلك ، تتسم بالشعور بالضيعة ، وبالأنين ، والرغبة في التخفي ٠ والظروف المحيطة بكل

منهما لا تجعل في شيء من هذا غرابة ، فبينما يشعر الجاهلي أن سلوكه محط الاعجاب والرهبة والتقدير من المجتمع مما يدعوه الى الاعتزاز والفخر به ، يشعر صعلوك الاسلام أن سلوكه محط الانكار والبغض والمطاردة ، مما يدعوه الى عكس ما يشعر به صعلوك الجاهلية ٠

وقد تمثلت سلطة الاسلام التي واجهها الصعاليك في ناحيتين ، السلطة التشريعية ، وهي الاسلام من حيث انه دين ، والسلطة التنفيذية ، وهي سلطة القائمين على تنفيذ أحكام الاسلام من الخلفاء والولاة ٠

(أ) السلطة التشريعية :

وليس من المستطاع أن نطلع على صراع الصعاليك مع الدين من حيث هو دين ، فالمفروض أنه صراع نفسي لا يحس به الا صاحبه ، وانما عبرنا بلفظ « صراع » لأننا نعتقد أن الصعاليك لم يكونوا من الذين استجابوا للاسلام بسهولة ويسر ، وذلك لأكثر من سبب ، وأهم هذه الاسباب أنه اذا كان غير الصعاليك ليس بينه وبين الاسلام في غالب الأمر الا العقيدة ، بمعنى أنه حين يعتنق الاسلام فلن يتغير في حياته شيء الا العقيدة ، أما الصعلوك فحين يعتنق الاسلام ينقلب كل شيء في حياته رأسا على عقب ، وأهم هذه الأشياء جميعا أن الصعلكة مورد رزقه ، والمصدر الوحيد لعيشه ، ومعنى ذلك أنه حين يعتنق الاسلام يفقد مصدر رزقه الذي لا يملك سواه ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الصعلكة أصبحت في حياتهم كالحرفة التي تملك على صاحبها كل مشاعره واحساسه ، وكل هواه في كثير من الأحيان ، وهذه الحرفة التي تشبعت بها نفوسهم ، والفهم الطويل لها ، قد تجد نفوسهم شيئا من أحجام في التخلي عنها ، ولو من باب فراق شيء أليف ، وقد يألف الانسان شيئا ولو غير حبيب الى نفسه فلا يرحب بفراقه ، كما يقول المتنبي :

خلقت أليفا لو رددت الى الصبا — لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وهناك سبب آخر قد يزيدون به عن المترددين في الاسراع الى الاسلام ، وهو ما أشرنا اليه في أسباب الصعلكة من أنه قد يكون من دوافع الصعلكة وأسبابها الاستعداد الشخصي في التكوين ، والتهيؤ النفسي لدى بعض الأفراد بطبيعة تكوينهم للصعلكة ، مما يجعلهم أكثر من غيرهم ترددا في الاسراع الى الاسلام ومع ذلك نود أن نقول انه مهما اختلفت الأسباب وتنوعت العلل ، فان شعرهم نفسه يشير بوضوح الى أنه حتى الذين تابوا عن الصعلكة باسلامهم أو خلال عصور الاسلام ، يبدو من شعر أكثرهم أن التوبة لم تبلغ من نفوسهم مبلغ الاطمئنان الكامل ، ولم تحل بين نفوسهم والحنين ولو في خفية الى حياتهم في

الصعلكة ، ولـــم تغضض جفونهم عن أن ترنو الى ماض يبـــدو أنه حبيب الى نفوســـهم ٠

ومن الطريف فى ذلك تعبير أبى خراش الهذلى عن تقييد الاسلام لسلوكه ، وحيلولته بينه وبين ثارات كان يمنى نفســه بالانتقـام لها من أعدائه ، وعن أن الاسلام يرد طيش الشباب فيجعل منه اتزانا كاتزان الشيوخ فيقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهـل ليس بقـائل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل(١)

والأحيمر السعدى مع توبته لم يستطيع أن يغالب شوقا الى أيام غابرة كان يجد فيها متعته بالسطو على مثل هذه الزوامل فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما ألاقى اذا مروا من الحـــزن
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخـذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (٢)

ولئن كان الصراع فى الأبيات السابقة واضحا فى نفس الأحيمر بين شعوره بالتوبة ورغبته فى التمسك بها ، وبين حنينه الى الصعلكة ، فان الصراع فى شعر يزيد العقيلى أخفى من ذلك حيث يقول بعد توبته :

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعـلمون يـزيد
وان امرءا ينجو من النار بعد ما تزود من أعمـــالها لسعيـــد (٣)

فالبيت الثانى وان كان يظهر سعادة بالتوبة واطمئنانا اليها ، الا أن البيت الأول لا يخلو من الماح ولو يسير الى الحنين الى المخائض ٠

ولكن هذا الحنين لا يقلل من أثر الاسلام فى الصعلكة ، فان التوبة نفسها أثر من آثار الاسلام ، والذى يعنى التشريع من الناحية الاجتماعية هو الكف عن السلوك المنوع بصرف النظر عن نفسية صاحبه ، على أن بعض توبتهم توحى بالصدق الخالص ، واستهجان الماضى كقول عبيد بن أيوب :

يارب عفوك عن ذى توبة وجل كأنه من حذار الناس مجنـــون
قد كان قـدم أعمـــالا مقـاربة أيام ليس له عقل ولا دين (٤)

---

(١) الكامل للمبرد ٢٦٧/١ ٠

(٢) أمالى القالى ٤٩/١ والزوامل الابل المحملة والقطار الابل المقطورة بعضها فى أثر بعض والبيت الثانى نصح للصوص بالتوبة والأبيات فى جملتها تصور صراعا بين التوبة والحنين الى الصعلكة ٠

(٣) الكامل للمبرد ٦١/١ والمخائض الابل فى سن معينة ، وأهملوا يعنى اطمئنوا ويعنى بقوله تعلمون ما يعرفونه عنه من أساليب الصعلكة ٠

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ ٠

ب ـ السلطة التنفيذية :

ومع أن الروايات لم تحدد من الناحية الزمنية مراحل حياة الصعاليك ، بحيث نعلم مثلا متى تاب التائبون منهم ؟ بالاضافة الى نواحى غموض أخرى، الا أننا مع ذلك نحس بصفة عامة أن التوبة غلبت على الذين عاشوا فى صدر الاسلام ، وعلى المخضرمين ، ومعنى ذلك أن صراع السلطة التشريعية كان فى الذين عاشـوا أول الاسلام أوضـح منه فى المتأخرين ويتضح هـذا من شعر السابقين منهم ، كأبى خراش الذى مات فى خلافة عمر ، وكان من المخضرمين ، حيث نجد هذا المعنى فى شعره ، كما رأينا آنفا فى تعبيره عن احاطة الاسلام برقاب الصعاليك كما تحيط السلاسل ٠

ويبدو رغم عدم وضوح الروايات أن الفترة منذ سيطرة الاسلام على شبه الجزيرة الى خلافة على ابن أبى طالب كرم الله وجهـــه قد خفت فيهـا صـــوت الصعاليك ، وشلت فيها حركتهم ، بتأثر أغلبهم بالاسلام وتوبتهم الى الله ، كما تاب أبو خراش ، والحارث بن بدر التميمى (١) أو بتعرض بعضهم للعقاب كجعفر ابن علبة الحارثى (٢) ٠

ويبدو أيضا أن شيوع الفتن والخلافات والحروب فى الدولة منذ بدء خلافة على بن أبى طالب وخصـــومته مع معاوية ، فقد أتاحت للصعاليك أن يعاودوا نشاطهم مرة أخرى ، ولذلك نجد عددا من شعراء الصعاليك معاصرين لبدء هذه الفترة ، كعبيد الله بن الحر ، الذى تحدثت أخباره باتصالات وخلافات مع كل من معاوية وعلى ، ومثل شبيب بن عمرو الذى طارده جنود على بن أبى طالب ٠ ثم أخذ الصعاليك ينتشرون مع انتشار الفتن ٠

والذى نريد ان نقوله ، هـو أننا بعد هـــذه الفترة لا نحس ان صراع الصعاليك كان مع السلطة الروحية الممثلة فى الدين ، بمعنى أنهم شعروا أن الوازع الدينى بدأ سلطانه يخف عنهم ، ولذلك قل التائبون منهم بعد ذلك ، فى حين بدأوا يزدادون عددا ، وأصبح صراعهم ليس مع السلطة الروحية ، ولا مع السلطة التشريعية لذاتها ، وانما أصبح صراعهم مع السلطة التنفيذية الموكول اليها تنفيذ التشريع ، وقد عانى الصعاليك من صراعهم مع الولاه والخلفاء عناء شديدا ، كما كان الحال مع عبيد الله بن الحر ، الذى تحدى معظم ولاة عصره (٣) وظل فى صراع معهم أمدا طويلا ، وهذا شبيب بن عمرو الذى كان يقطـع الطريق ، يصور مطاردة على بن أبى طالب له ، وخوفه من الوقوع فى قبضته ، ورهبته من مخيس فيقول :

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى تفسير الآية ٣٤ من سورة المائدة ٠

(٢) انظر خزانة الأدب للبغدادى ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ومواضع أخرى ٠

(٣) المصدر السابق ١٨/٢ ــ ٢٢ ٠

ولما أن رأيت ابنى شميـــط بسكة طيىء والباب دونى (١)
تجللت العصـــــا وعلمت أني رهين مخيس ان أدركـونى (٢)
ولو أني لبثت لهم قليـــــلا لجرونى الى شيخ بطـــــين
شـــديد مجـــامع الكتفين باق على الحدثان مختلف الشئون (٣)

وسعد بن ناشب يحتدم الصراع بينه وبين بلال بن أبى بردة عامل بنى مروان على البصرة (٤) وقد هدم الوالى داره تنكيلا به ، ولكن هذه المطاردة بما فيها هدم داره لم تفت فى عضده وانما تلقاها بالصمود الشديد ، والتحدى العنيف ، فيقول مستهينا بهدم داره :

وأذهل عن دارى وأجعل هدمها لعرضى من باقى المذمة حاجبـــا
ويصغر فى عينى تلادى اذا انثنت يمينى بادارك الذى كنت طالبا
فان تهدموا بالغدر دارى فانهـا تراث كريم لا يبالى العواقبا (٥)

ثم يخاطب بلالا بقوله :

لا توعدنا يابلال فانـنـــــا وان نحن لم نشقق عصا الدين أحرار
وان لنا اما خشيناك مذهبـــا الى حيث لا نخشاك والدهـر أطـوار
فلا تحملنا بعد سمع وطاعـة على غاية فيها الشقاق أو العـار
فانا اذا ما الحرب ألقت قناعها بها حين يجفوها بنوها لأبـرار
ولسنا بمحتلين دار هضيمـــة مخافة موت أن بنا نبت الدار (٦)

ويتحدث عبد الله بن سبرة الحرشى عن الأمير ، فيقول انه لا يقيد نفسه بسلطانه ، وانه قادر على مخالفته ، لأنه يستوحى سلوكه من سلطان نفسه لاسلطان الأمير فيقول :

وانى اذا ضن الأمـــير باذنه على الاذن من نفسى اذا شئتقادر (٧)

ومالك بن الريب تعرض لمطاردة أكثر من وال من ولاة بنى أميـة ، فقد طارده الحارث بن حاطب وتوعده ، ولكن مالكا يرد عليه ساخرا من وعيده ومن ايمانه التى حلفها متوعدا فيقول :

---

(١) حماسة أبى تمام ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ وابنا شميط اللذان وجهما الخليفة لمطاردته والسكة السطر من الشجر .

(٢) العصا فرسه ومخيس بتشديد الياء المكسورة سجن بالكوفة بناه الامام على .

(٣) البيتان الأخيران وصف لعلى رضى الله عنه .

(٤) قيل هو الحجاج أنظر شرح الحماسة عن التبريزى ١٥/١ .

(٥) حماسة أبى تمام ١٥/١ والبيت الأول يعنى أجعل مالى فداء لعرضى والثـانى يعنى يصغر مالى مادمت منفذا عزمى .

(٦) المصدر السابق ٢٧٢/١ ويروى أن بلالا الذى يخاطبه خارجى ولكن موضوع الشعر وحوادثه مع بلال بن أبى بردة ترجح أنه بلال الوالى ابن أبى بردة .

(٧) حماسة أبى تمام ١٨٦/١ .

تالى حلفة فى غير جرم أميرى حارث شبه الفرار
على لأجلدن فى غير جرم ولا أدنى فينفعنى اعتذارى
وقلت وقد ضممت الى جاشى تحلل لا تالى على حار (١)

ثم يفسر فى شعر آخر سر تحديه للولاه وقدرته على الاستهانة بمطاردتهم ، وهو أنه قادر على التنقل والرحلة الى أى مكان فيقول :

احقا على السلطان أما الذى له فيعطى أما ما يراد فيمنع
اذا ما جعلت الرمل بينى وبينه واعرض سهب بين يبرين بلقع
فشانكم يا آل مروان فاطلبوا سقاطى فما فيه لباغيه مطمع (٢)

وحين طارده الحجاج الثقفى عامل بنى مروان لم يخضع ولم يهن أمام سطوة الحجاج وبطشه الشديد ، بل تحداه وتحدى بنى مروان معه ، بسلاحه الذى يتحصن به الصعاليك من كل شيىء ، وهو الرحلة ، والتحكم فى الأماكن المقفرة التى لا يجرؤ غير الصعاليك على ارتيادها فيقول لبنى مروان :

ان تنصفونا يا آل مروان نقترب اليكم والا فاذنوا ببعاد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد اوطنت كبلادى (٣)

وهذا السلاح ، سلاح الرحلة يروزه للحجاج ، هاجيا اياه هجاء موجعا ، ساخرا منه سخرية قلما استطاع أحد فى عصره أن يهديها الى الحجاج فيقول معرضا بالرحلة ، مشيرا الى تعليم الحجاج للصبيان فى كتابه قبل أن يصبح أميرا .

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد اياد
زمان هو العبد المقر بذلة يراوح صبيان القرى ويغادى (٤)

السجن

وكانت حصيلة صراعهم مع السلطة ، ومطاردة السلطة لهم أن انتهى بعضهم الى السجن ولئن كانت الروايات أيضا غير واضحة كل الوضوح فى أسباب دخولهم السجن ، ثم مصيرهم بعد السجن ، أو على الاقل لم تكن واضحة كل الوضوح

(١) مهذب الأغانى ٥/١٠ وتحلل يعنى من اليمين ولا تالى لا تحلف وحار مرخم حارث .
(٢) المصدر السابق ١٢/٥ .
(٣) الكامل للمبرد ٣٠١/١ .
(٤) الكامل للمبرد ٣٠٢/١ .

بالنسبة لبعضهم ، الا انه من المفهوم أن الصعلكة كانت طريقهم الى السجن ، مهما اختلف أسلوب الصعلكة ، من قطع طريق أو سرقة أو قتل ، أو غير ذلك ٠

وقد انتهى السجن ببعضهم الى القتل ، كجعفر بن علبة الذى حبس فى سجن المدينة ، ثم قتل لدم أراقه (١) ومنهم من قدر له أن يخرج من السجن ، كمالك بن الريب الذى حبس بمكة لاتهامه بالسرقة (٢) ومنهم من لا نعلم عن سجنه ونهايته الا آهاته التى انبعثت منه فى سجنه ، كجحدر بن معاوية (٣) والجرنفس (٤) ومهما يكن من شىء فقد كان السجن والخوف منه من العقبات التى أرقت مضاجع صعاليك الاسلام ، وكذلك من العقبات التى أثرت فى سلوكهم وحياتهم نفسها ، فان كثيرا من الذين هجروا حياة الناس الى القفار كالأحيمر السعدى وعبيد بن أيوب كان السجن هو السيف المصلت الذى أرهب بريقه نفوسهم فضلا عما يتوقعون بعد هذا السجن ٠

وهذا شبيب بن عمرو حين فر من مطاردة جنود على بن أبى طالب يركز خوفه ورهبته من مخيس وهو السجن الذى بناه على رضى الله عنه بالكوفة فيقول :

تجللت العصـــا وعلمت انى رهين مخيس ان ادركونى (٥)

ولذلك قال على حين بلغه هذا الشعر « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى لوضعته فى مخيس ٠

ومالك بن الريب يبدى حزنه على حبسه فى سجنه بمكة ، متذكرا رفاقه وصحبه فى الريب من أرض بنى مازن فيقول :

اتلحق بالريب الرفـــاق ومــالك بمكة فى سجن يعنيه راقبه (٧)

والجرنفس يبعث الى قومه برسالة يصف لهم فيها حياته ، وما يعانيـــه نهاره من القيد والسلاسل وما يعانيه ليله من ضيق السجن ووحشته فيقول :

أبلغ بنى ثعل عنى مغلغـــلة فقد انى لك من نىء وانضــاج
اما النهار ففى قيد وسلســـلة والليل فى جوف منحوت من الساج (٨)

---

(١) خزانة البغدادى ٤٦/٢ ٠
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ ٠
(٣) أمالى القالى ٢٧٧/١ ٠
(٤) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ ٠
(٥) حماسة أبى تمام ٢٥٣/١ ٠
(٦) شرح حماسة أبى تمام عن التبريزى ٢٥٣/١ ٠
(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ والريب موضع لقومه تحدث عنه فى مرثيته - ويجوز أن يكون المراد به أباه ٠
(٨) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ ٠

وهذا لص آخر من الصعاليك يهوله ما هو فيه من قيد وحبس ، وما يعانيـــه من وحشة وشعور بالغربة وهجر الأحبة فيقول :

أقيد وحبس واغتراب وفرقـــة وهجر حبيب أن ذا لعظيـــم (١)

ولكن رسالة جحدر بن معاوية الى قومه من سجن الكوفة ، كانت أشـــد ألما ، فهو لا يعاني مرارة السجن فحسب ، وانما يحاذر أيضا وقع سيف الحجاج ، وهو لا ينكر أن الحجاج وان كان قاسيا، الا أنه لن يظلمه اذا قتله ، لأنه جنى ما يستحق به صولة الحجاج فيقول :

اذا جاوزتمـا سعفات حجـر واودية اليمامة فانعيـــــاني
وقولا جحدر أمسى رهينـــا يحاذر وقع مصقـول يمـــاني
يحاذر صولة الحجاج ظلمـا وما الحجاج ظلام لجـــاني (٢)

وقد كان يمكن أن تكون لهجة يائس مترقب للموت كجحـدر أكثر حزنا وشعورا بالرهبة والفرق الشديد ، ولكنه تماسك الصعاليك ، وصلابتهم ، وتهيؤ أنفسهم دائما للموت ، ولكنه مع ذلك صب حزنه ويأسه فى ثنايا القصـــيدة كلها ، حين تحدث عن الهموم التى تكنفته وأفعمت قلبه فى أبيات منها ٠

تاوبنى فبت لهـا كنيعـــا هموم ما تفارقنى حـــــوانى

وحين تحدث عن شوقه الشديد الى موطنه ، بل الى كل ما يمكن أن يتصـــل بموطنه ، حتى البرق ، فيقول من القصيدة :

ألبس الله يعلم أن قـــلبى يحبك أيهـــا البرق اليمانى ؟

ولكنه يصب سخطه كله ، ونقمته كلها ، ويأسه كله ، على الســـجن الذى صوره بأنه قطعة معجلة من سقر ، حيث يقول فى شعر غير الشعر السابق ٠

يا رب أبغض بيت أنت خالقـه بيت بكوفان منه استعجلت سقر (٣)

الشعر الاجتماعى

وبحكم أن الانسانى اجتماعى بطبعه ، فليس من المعقول أن يكون الصعاليك بمنأى كامل عن المجتمع ، ولا أن يكونوا خلقا آخر فى نفسياتهم وعواطفهم الاجتماعية فكل منهم لابد أن تربطه بالمجتمع أى رابطة ، ولو كانت هذه الرابطة عـــداء وخصومة من باب اعتبارهم الضدية نوعا من الروابط ، ولكن الصعاليك لم تكن

---

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ ٠
(٢) أمالى القالى ٢٧٨/١ ٠
(٣) معجم ما استعجم للبكرى ١١٤١/٤ وكوفان يعنى الكوفة ٠

الضدية ، أو الضدية وحدها هي الرابطة بينهم وبين المجتمع ، بل كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يرتبطون فيها بمجتمعاتهم كآحاد منهم ، فضلا عن أزواجهم وأولادهم ، وفضلا عن أن كثيرا منهم كما قلنا كان معدودا من فرسان قـــومه وشجعانهم ، وشارك قومه حروبهم وبأساءهم ، واصطلى بآثار هذه الحروب فوق ما اصطلاه في حياة الصعلكة ، لذلك نرى هذا الجانب الاجتماعي من حياتهـــم منعكسا في شعرهم بجوانبه المختلفة ، وهم في هذا مختلفون ، ولئن كان الشعر السابق في الموضوعات المختلفة ينطبق عليهم بصفة عامة ، فانه في الشـــعر الاجتماعي لا ينطبق كل موضوع أو كل معنى عليهم جميعا • لأن الشعر السابق يمثل حياتهم في الصعلكة وصراعهم في هذه الحياة ، وهم في الصعلكة سواء ، لذلك كانت الموضوعات والمعاني السابقة شاملة لهم في جملتهم الا حين يشـــار الى استثناء واحد أو بعض بعينه ، أما في الشعر الاجتماعي فانهـــم مختلفون ، فبعض الموضوعات تنطبق على بعضهم ، لأن هذا البعض زاول هذا الجانب من الحياة الاجتماعية ، ولا ينطبق على البعض الآخر لأنه لم يزاوله أو لم يتعرض له ولو كانت هذه التفاصيل تعنينا لذاتها لأمكن بسطة الحديث فيها ، ولكننا انما يعنينا اتجاه شعرهم وخصائصه ، ومبلغ تميزه عن شعر غيرهم ، ولذلك نجدنا مضطرين الى سرد الجوانب البارزة في شعرهم الاجتماعي مكتفين بالاشارة الى منهجهم وطابعهم فيها • ويمكن تقسيم شعرهم الاجتماعي الى نوعين :

١ – النوع التقليدي في أغراضه كالمدح والهجاء والرثاء والغزل •

٢ – النوع الذي يمثل خلق الصعاليك الاجتماعي ، وطابعهم في هـــذا الخلق •

ولكننا نقول بصفة عامة ، ان الناحية الاجتماعية قد تكون بارزة في شعر بعض الأفراد من الصعاليك ، ولكنها غير بارزة في شـــعرهم ككل ، وحتى اذا برزت في بعض النواحي فاننا نجدها وقد اكتست ثوب الصعاليك ، وشعارهـــم الذي يكسو شعرهم كله ، فشعر الصعاليك في جملته لا يبرز فيه الا طـــابع الصعلكة ، مهما تعددت أغراضه وموضوعاته وكأنه الخاتم التي يختم به كل شعر لهم •

الأغراض التقليدية

ونعني بالأغراض التقليدية الموضوعات الشائعة في الشعر العربي القديم ، كالفخر والاعتزاز بالقبيلة والمدح والهجاء والرثاء والغزل ، وحين نســـتعرض شعر الصعاليك عن هذه الاغراض نلمس فيه ما يأتي :

١ ـ الفخر :

الفخر صفة مشتركة بين الشعراء جميعا قديمهم وحديثهم ، فلا يتصور شاعر قط لم يفخر بنفسه وان لم يكن يستحق من الفخر شيئا ، بل كثير من الشعراء على مر العصور يعلم ويعترف بأنه لا يحمل مما يستحق أن يفخر به شيئا ، ومع ذلك لا يستطيع ألا يفخر ، وكأنه يشعر بأنه يتميز بنوع من الموهبة غير المتاحة لكل الناس ، وهى الشعر ، ومن ثم يجد فى نفسه احساسا خفيا بأنه يستحق أن يفخر بنفسه ، فان لم يفخر بشاعريته نفسها ، فخر بنفسه فى أى صورة من صورها ، ومعنى ذلك أنه يمكن القول بأن الشاعرية نفسها هى المصدر الأول للشعور بالفخر عند الشعراء ، بالاضافة الى ما يدعمها فى شخصية الشاعر من صفات تستحق الفخر .

واذن فمن الطبعى أن يفخر شعراء الصعاليك بأنفسهم ، وقد فخروا ، ولكننا نلاحظ أنهم لم يجعلوا الفخر موضوعا ولا حتى غرضا مقصودا لذاته ، وانما يأتى فى معظم الأحيان عرضا ، واستنتاجا من أحداث ومعانى سابقة ، وكأنه تعليق أو تعقيب على حديث ، على أن فخرهم لا يخلو فى معظم الأحيان أيضا من كونه فى محيط الصعلكة ، اشادة بجانب أو صفة من صفاتهم السابقة التى جعلوها أسلحة لهم فى الصعلكة ، كقوة الارادة والحزم والجرأة والاستهانة بالموت وبقية ما سبق من ذلك ، وحتى فى بعض المعانى التى تخرج من محيط الصعلكة نجدها مقرونة بصفات الصعلكة ، كقول الشنفرى بعد حديثه عن صبره وقوة ارادته .

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى   سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل (١)

وكقول مالك بن حريم مشيرا الى قدرته على ارغام أنف كل أبى

وآخذ للمولى اذا ضيم حقه   من الأعيط الآبى اذا ما تمنعا (٢)

وقد فخر مالك هذا بنفسه ، فى أبيات كثيرة (٣) فعدد لنفسه ثلاث خصال . وان كان عدها فى شعره أربعا ، اثنتان منها فى البذل والسخاء وتعتبر صفة واحدة ، وواحدة فى العفة التى سيأتى أنها من خصائص الاتجاهات العامة فى عصر الصعاليك ، والثالثة وهى أولها ذكرا فى القصيدة من أسلحة الصعاليك ، تمثل الحذر واليقظة حيث يقول :

فواحدة ألا أبيت بغـرة   اذا ما سوام الحى حولى تضوعا (٤)

(١) من اللامية .
(٢) الاصمعيات ٥٨ والأعيط الأبى .
(٣) أنظر الاصمعيات ٥٦ ـ ٦٣ .
(٤) الاصمعيات ٥٨ .

وعروة بن الورد يفخر باكرامه الضيف ، واكرام الضيف والفخر به شائع في شعر العرب ، ولكن غير الشائع ما قرنه به عروة ، من أنه يجعل من اكرامه الضيف محادثته حيث يقول :

فراشي فراش الضيف والبيت بيتـــه ولم يلهني عنه غزال مقنع
احدثه أن الحديث من القـــرى وتعلم نفسي انه سوف يهجـع (١)

وتأبط شرا يفخر بأنه يضرب هام العدا ، وضرب هام العدا أيضا شائع في الفخر ، و لكن غير الشائع أن يقول انه لا يهدف من ذلك الى فخر أو ذكر بين الناس فيقول :

يماصعه كل يشجع قـــومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وهكذا حين نتتبع فخر الصعاليك نجد أنه ليس فخرا عاديـا كالمألوف في فخر غيرهم ، وانما نجد لهم دائما طابعهم المعين ، أو اتجاها خاصا يميزون به أنفسهم ، ويميزون به شعرهم ٠

٢ ـ الاعتزاز بالقبيلة :

والاعتزاز بالقبيلة من أكثر الموضوعات والأغراض شيوعا في الشعر العربي القديم ، نتيجة لوضعهم القبلي الاجتماعي ، وما يترتب على ذلك مما هو معروف في علم الاجتماع ، من تأثر الفرد بالقبيلة ، وترابط أفرادهـــا وطغيان شخصية القبيلة من حيث هي على شخصية الأفراد في جملتهم ٠

ولكن الصعاليك شذوا في جملتهم ، حيث كان الواحد منهم يعتبر نفسه قوة مستقلة ، وكيانا مستقلا ، ولذلك انفردوا بأن الواحد منهم كثيرا مايتصدى لقبيلة أو حي بأكمله ، ويهدده ويتوعده بمفرده ، وكأنه قوة مماثلة لقـــوة قبيلة أو حي ، كما فعل الشنفرى مع بني سلامان وكما فعل تأبط شرا مع بني لحيان من هذيل ، ولكن بعض الصعاليك كانوا من العمد التي تقـــوم عليها قوة قبيلتهم ، كجحدر بن ضبيعة البكري ، ومالك بن حريم الهمداني ، وعروة بن الورد العبسي ، وقيس بن منقذ السلولي قبل خلعه ، وهذا النـوع من الصعاليك شارك قبيلته في كل ظروفها ، من حيث صراعها مع القبـــائل الأخرى ، وانعكست مشاركته في شعره ، وكان من أثر هذه المشـــاركة والارتباط بمصير القبيلة وظروفها احساس الفرد بأنه مستمد لجانب من قوته من قوة القبيلة نفسها ، وهذا هو المصدر الأساسي للفخر بالقبيلة والاعتزاز

---

(١) ديوانه ١٠٠ ٠

(٢) حماسة أبي تمام ١٩٠/١ ويماصعه يجالده ويقاتله ، وليشجعا يعني لا ليقال انه شجاع وقومه فاعل يشجع يريد كل يشجعه قومه ٠

بها ، وهذا المعنى نجده فى شعر أفراد من الصعاليك ، منهم مالك بن حريم(١) وأبو الطمحان القينى (٢) وعروة بن الورد (٣) وقيس بن منقذ (٤) .

وهناك صورة من صور هذا المجال ، تتمثل فى المنافرات الشعرية التى كانت بين بعض الصعاليك وأفراد من القبائل أو الاحياء الأخرى ، ومصدر هذه الخصومات فى معظم الأحيان خصومة القبيلتين أو الحيين يمثلها شاعر من احدى القوتين فى منافرات مع شاعر من القوة الاخرى ، ولم يكن هذا الجانب واضحا فى شعر الصعاليك ، باستثناء منافرات صخر الغى مع أبى المثلم الهذلى (٥) ومنافرات قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدوانى (٦) ، ولكن الذى نلاحظه على المنافرات التى اشترك فيها الصعاليك أنها كانت منافرات كريمة ، لم يشبها قط هجاء مقذع ، أو سباب قبيح ، بل لم تشبها روح الحقد والغل ، وانما كان طابعها كرم الخصومة وتقدير الخصم ، وأوضح ما يكون ذلك فى منافرات صخر الغى مع أبى المثلم فانها نموذج للخصومة السامية الكريمة التى لا يتحامل الخصم فيها على خصمه ، ولا ينكر عليه فضائله ، بل كثيرا ما يعترف لخصمه بفضائل لم يزعمها لنفسه (٧) ، وكذلك مفاخرة قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدوانى اثر حروب كانت بين قوميهما ، فان أقسى ما بلغه قيس من ابن الأحب قول قيس :

غداة توليتم وأدبر جمعكم وابنا بأسراكم كانا ضراغم (٨)

والذى نريد أن نلفت النظر اليه أنه كان بعضهم قد تحدث كثيرا فى مجال الاعتزاز بالقبيلة ، الا أن هذا الاعتزاز لم يطغ على شخصياتهم كما طغى فى شعر كثير من غير الصعاليك ، وانما نحس أن شخصية الصعلوك هى البارزة ، وهى التى يجعلها الصعلوك محورا لكل شىء ، وكأن قوة قبيلته أوحيه سلاح من أسلحة قوته هو كسائر الأسلحة التى يدعم بها صراعه وقوته .

٣ ـ المدح :

لم يكن الشعر ى الجاهلية الأولى كما هو معروف وسيلة للكسب ، ثم عرف الشعراء طريقهم الى الكسب بالشعر على يد نفر منهم فى مقدمتهم النابغة

---

(١) أنظر الاصمعيات ٥٦ ـ ٦٣ .
(٢) انظر الكامل للمبرد ١/٣٠ ، ٣١ .
(٣) أنظر ديوانه ٩٧ .
(٤) أنظر أغانى الاصفهانى ١٤/١٤٤ ـ ١٦١ .
(٥) أنظر ديوان الهذليين ٢/٢٢٣ ـ ٢٤٠ .
(٦) أنظر أغانى الاصفهانى ١٤/١٤٤ ـ ١٦١ .
(٧) أنظر للمثال ديوان الهذليين ٢/٢٣٠ من شعر أبى المثلم « يا صخر ان كنت ذابز تجمعه .. » ردا على شعر صخر ٢/٢٢٨ « ماذا تريد بأقوال أبلغها » ..
(٨) مهذب الأغانى ١/١٠٤ .

الذبياني ، ثم الأعشى وبعض من عاصرهما ، وما جاء الاسلام حتى كان التكسب بالشعر قد وضح ، وأصبح مشهورا غير خفي ، ومعروفا غير منكر عليه ، فمنذ بدء الاسلام كانت رحلة الأعشى الى النبي صلى الله عليه وسلم متكسبا بقصيدته التي يقول فيها عن ناقته ورحلته الى النبي :

فآليت لا ارثي لها من كـــلالة ولا من حفى حتى تلاقي محمـــدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله نـــدى

فانه وان كانت رحلته لم تتم بسبب منع قريش اياه ، الا أنـــه كان معروفا أنه متكسب بقصيدته ، وأن النبي كان سيمنحه عطاء سمحا كعهـــد الناس بسماحته دائما ، وكما أعطى شعراء آخرين وحين جاءت خلافة عمـــر كان الأمر أكثر شهرة وأوضح عرفا ، حتى ان عمر يقول مقرا للشعراء عـــلى تكسبهم بالشعر « نعم ما تعلمته العرب ، أبيات من الشعر يقدمها المرء بين يدى حاجته » .

واذن فقد كان التكسب بالشعر سبيلا غير خفية ولا منكرا عليهـــا ، سواء في الجاهلية والاسلام ، بل كثيرا ما رفع التكسب بالشعر بعض الشعراء في مكانتهم ومعيشتهم الى مستوى السادة والأمراء ، كما كان النابغة في أيامـه مع آل المنذر ، وكما كان شعراء كثيرون في الاسلام ، وقد يسأل ســـــــائل هنا : فلماذا لم يرح شعراء الصعاليك أنفسهم من هذا العذاب الأليم الذى عانوه في الصعلكة ليتكسبوا بشعرهم ، خاصة وأن التكسب بالشعر لم تكن فيـــه غضاضة على شاعر ؟

والجواب أنها عزة النفس ، والحرص على حريتها في غير حدود لهـــذه الحرية ، هذه العزة وهذه الحرية التي لا تحد ، هي التي منعتهـــم من التكسب بالشعر ، وحيث ان لكل قاعدة شذوذا ، فان قلة قليلة جدا من الصعاليك ، تكاد تنحصر في بكر بن النطاح ، وأبي الطمحان القيني ، همـــا اللذان اتخذا شعرهما وسيلة للكسب في فترات من حياتهما ، وأما من عداهما من شـــعراء الصعاليك ، فقد أبى أن يبيع حريته وعزة نفسه لسيد أو أمير لقاء أى شيء ، وأصروا على التزام هذا المبدأ أشد الاصرار ، مفضلين مخاطر الصعلكة وشقاءها على التفريط في شيء من هذه العزة ، وقد صور الشنفرى وأبو خراش هـــذا الاصرار تصويرا واضحا ، حيث يقول الشنفرى :

وأستف ترب الأرض كي لايرى له على من الطول امرؤ متطول (١)

---

(١) من اللامية والطول المن .

بل يوضح اشارته الى التعفف عن أى أسلوب كأسلوب التكسب بالشعر أو غيره فيقول :

ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب يعاش به الا لدى ومأكل (١)

وأبو خراش يعبر عن هذا كله بقوله :

واني لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى
وأغتبق الماء القراح فانتهى اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويعبر بكر بن النطاح عن شعار الصعاليك فى هذا المعنى قبل أن يتخلى هو عن هذا الشعار فيقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(٣)

فقد كانوا اذن يعرفون ان هناك وسائل سهلة وادعة للكسب منها التكسب بالشعر ، وكانوا يعرفون أنه يمكنهم أن يعيشوا من ورائها فى لين ورغد ، ولكنهم فضلوا على هذا الرغد أن « يستفوا الترب » وأن « يثووا الجوع » الى أبعد مداه ، لا لشيء الا « مخافة أن أحيا برغم وذلة » كما يقول أبو خراش ، أو أن يرى أحد له عليهم « طولا » كما يقول الشنفرى .

وقد يثور سؤال آخر وهو : كان التكسب بالشعر يتمثل فى المدح ، فهل معنى ذلك أن شعر الصعاليك خلا من المدح ؟ والجواب أنه ورد لنا فى شعر الصعاليك مدح وان لم يكن كثيرا ، ولكننا باستثناء الشذوذ كبكر بن النطاح الذى انقطع فترة من حياته الى مدح نفر من السادة والأمراء كخربان بن عيسى وأبى دلف متكسبا بذلك (٤) باستثناء هذا الشذوذ نلاحظ أن لمدحهم على قلته طابعا خاصا يتميز به ، وهذا الطابع يتضح فى ناحيتين ، احداهما أنهم فى أغلب الأحيان لا يقصدون المدح لذاته ، وانما يكون مدحهم مرتبطا بحياتهم فى الصعلكة ، أو شكرا على موقف نبيل كان فيه نفع لهم أو لم يكن .

والناحية الأخرى أن مدحهم باستثناء الشذوذ أيضا الذى يكاد ينحصر فى بكر بن النطاح وأبى الطمحان القينى ، من أعف أساليب المدح ، وأبعده عن التمجيد والمبالغة ، حيث يكتفى بسرد بعض الفضائل فى بساطة وحرص على الحقيقة ، ومجافاة للغلو والتصوير والافراط اللائى يشعن فى مدائح غيرهم

(١) من اللامية أيضا والذأم الذم .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ وأثوى يعنى أحبس والجرم الجسم والمزلج البخيل أو الضعيف والرغم الهوان والذل .

(٣) مهذب الأغانى ٨٤/٨ .

(٤) أنظر أمالى القالى ٢٣٦/١ وكامل المبرد ٨٧/٢ ومهذب الأغانى ٨٤/٨ .

من الشعراء ، بل نلاحظ أن كثيرا من مدحهم لا يبرز فى الممدوح الا الصفات التى عرف بها الصعاليك أو اختصوا بها .

ومن هذا النوع الأخير مدح تأبط شرا لقريب له ، يصفه بالصبر ، والتنقل بين المخاطر والمهالك ، وسرعة العدو ، والحذر واليقظة ، والجرأة والاقدام ، ويصفه بايثار الوحشة والعزلة على الأنس ، وبهذا يكون قد جمع فيه أهم ما يميز الصعاليك فى صفاتهم فيقول :

انى لمهد من ثنائى فقاصد ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك
اهز به فى ندوة الحى عطفه ... كما هز عطفى بالهجان الاوارك (١)
قليل التشكى للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها ... جحيشا ويعرورى ظهور المهالك (٢)
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى ... بمنخرق من شده المتدارك (٣)
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىء من قلب شيحان فاتك (٤)
ويجعل عينيه ريئة قلبه ... الى سلة من حد أخلق صائك (٥)
اذا هزه فى عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الانيس ويهتدى ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٦)

وأبو خراش له شعر فى المدح ، ولكننا نجد مدحه اما لشخص يعتبره عضدا له فى الصعلكة وعونا على أعدائه كخالد بن زهير ، أو ذامنة ومكرمة ، كالشخص الذى أنقذ ابنه خراشا من القتل حين كان خراش مع عمه عروة فى رحلة صعلكة ، فقتل عروة ، ونجا خراش بفضل شخص ألقى عليه رداءه فحجبه عن القوم حتى عدا ونجا بنفسه ، فمدح أبو خراش هذا الرجل دون أن يعرفه (٧) وقيل فى هذا أنه لا يعرف شاعر مدح من لا يعرفه قبل أبى خراش (٨) وفضالة بن شريك يمدح يزيد بن معاوية ، ولكن لا متكسبا ولا متوددا ، وانما شاكرا له حمايته من أمير المدينة الذى طارد فضالة لهجائه عاصم بن عمر (٩) ، وقيس بن منقذ يمدح أسد بن كرز شاكرا له أنه تحمل عنه ما جناه ، ويمدح عدى بن عمر حين آواه بعد أن خلعه قومه وتبرأوا منه ، ويمدح عدى بن نوفل بسبب فك اساره هو وجماعة من قومه (١٠)

---

(١) حماسة أبى تمام ١/٢٢ ، ٢٣ والهجان الابل الكريمة والأوارك راعية شجر الأراك .
(٢) الموماة المفازة لا ماء فيها والجحيش المنفرد ويعرورى يركب .
(٣) وفد الريح أولها وينتحى يقصد والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق .
(٤) حاص خاط والكرى النوم الخفيف والكالىء الحافظ والشيحان الفاتك الحازم .
(٥) الربيئة بمعنى الرقيب والسلة المرة من سل السيف والأخلق الأملس والصائك القاطع .
(٦) أم النجوم يعنى الشمس أو المجرة يريد أنه يستأنس بالوحدة ولا يضل فى سراه بالليل .
(٧) انظر ديوان الهذليين ٢/١٥٧ وحماسة أبى تمام ١/٣٢٦ .
(٨) انظر شرح حماسة أبى تمام عن التبريزى ١/٣٢٦ عن الأصمعى وأبى عبيدة .
(٩) انظر مهذب الأغانى ٢/٢١٠ .
(١٠) انظر أغانى الأصفهانى ١٤/١٤٤ ـ ١٦١ .

وكذلك مدح قليل من مالك بن الريب لسعيد الوالي على اجرائه عليه رزقا (١) ولكنه كما تفيد القصة والشعر لا يعتبر تكسبا ·

٤ - الهجاء

ولئن كان مدح الصعاليك لغيرهم لم يجر على عزة نفوسهم . ولم ينزل الى التهافت والمغالاة فان هجاءهم كان أدل على خلقهم ، وأقرب الى أن يكون ممثلا لطابعهم الذاتي في صفاتهم الشخصية ، والاجتماعي في خلقهم العام ، على أن بعضهم تعفف عن الهجاء قاطبة كعبدة بن الطبيب الذي ترفع عن الهجاء (٢) وحين ننظر الى هجاء الصعاليك لغيرهم نجد أول ما يبادهنا منه عفة بالغة في الألفاظ والمعاني ، فلا نعلم صعلوكا قط جنح الى الاسفاف والاقذاع في هجائه لاحد مهما يبلغ بينهما من عداء ، ثم نرى بعد ذلك أنهم يعفون عن أن يجعلوا سبب هجائهم لاحد سببا من الأسباب الشائعة لدى الشعراء . كحرمان من عطاء ، أو نكوص عن قرى وضيافة ، لانهم لا يطلبون عطاء ، ولا يلتمسون قرى وضيافة ، باستثناء الشذوذ في هذا المعنى كهجاء فضالة بن شريك لعاصم بن عمر لعدم استضافة عاصم اياه (٣) ، وانما يغلب على هجائهم أن هجوا أن يكون سببه العداوة (٤) ، أو موقف خصومة أو ايذاء صدر من المهجو ، بل أحيانا يكون سببا انسانيا نبيلا لا نعلم أن أحدا تأثر به من الشعراء غير الصعاليك ، كقصة أبي خراش مع غاسل السعدي الذي قتل جارا له ، مع أن غاسلا كان من قبيلته ، ولكن أبا خراش لامه بشعره لوما عنيفا على هذه الفعلة التي يأباها الخلق الكريم ، وتنكرها تقاليد العروبة ، وكان القتيل غلاما تميميا من بني حنظل ، ومن لوم أبي خراش لغاسل على قتله ·

أبات على مقراك ثم قتلته على غير ذنب ذاك جد بك الثكل
فهل هو الا ثوبه وسلاحه وما بكم عرى اليه ولا عزل (٥)

وقد تهاجى صخر الغي مع أبي المثلم في منافراتهما ، ولكنا نجده هجاء بالغ العفة ، حتى ليحسبه الحاسب عتابا بين صديقين ، على ما بين صخر

(١) أنظر مهذب الأغاني ٥/١٠ ·
(٢) أنظر شرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ١/٣٢٨ ·
(٣) المصدر السابق ٢/٢١٠ ·
(٤) أنظر دوان الهذليين ٢/٢٢٣ - ٢٤٠ بين صخر الغي وأبي المثلم ·
(٥) أنظر ديوان الهذليين ٢/١٢٤ - ١٦٦ والمقرى القصعة يقرى فيها الضيف وجد بك الثكل دعاء على القاتل ومعنى الشطر الأخير لستم عريا ولا عزلا من السلاح حتى تقتلوه من أجل ثوبه وسلاحه ·

وأبى المثلم من عداء (١) والأعلم الهذلى وان كان أيضا قليل الهجاء ، الا أن هجاءه على قلته يمتاز دائما بطابع معين ، وهو كونه صدى لحياته فى الصعلكة ،وهو ما لم يؤلف فى الهجاء ، فأحيانا يشبه مهجوه ببعض مرثياته فى حياة الصعلكة فيشبهه بالضبع فى عدم عفة نفسها وتخنثها (٢) وأحيانا يصفه بقصور الهمة عن مراتب السيادة ، ثم يبين له مراتب السيادة فاذا بعضها من صفات الصعاليك (٣) ٠

ولعل أكثر من بلغنا فى شعرهم هجاء فضالة بن شريك ، وهو وان كان هجاؤه يعتبر من الشذوذ فى شعر الصعاليك ، حيث انه هجا لمنع العطاء وكف القرى عنه ، الا أن هجاءه يتسم مع نيله من المهجو بعدم الفحش والاقذاع فقد هجا عاصم بن عمر لأنه لم يقره فكان مما قاله :

ألا أيها الباغى القرى لست واجدا قراك اذا ما بت فى دار عاصم

ثم تذكر أباه عمر فخفف من غلواء هجائه قائلا :

ولولا يد الفاروق قلدت عاصما مطوقه يخزى بها فى المواسم (٤)

وكذلك هجا عبد الله بن الزبير لتجاهل ابن الزبير عطاءه (٥) ، حين قدم على ابن الزبير قائلا : ان ناقتى تعبت ودبرت ، فقال له ابن الزبير : ارقعها واخصفها ، قال فضالة : انما جئتك مستحملا لا مستشيرا ، فلعن الله ناقة حملتنى اليك ، قال ابن الزبير : ان وراكبها (٦) ، ثم قال فضالة من هجائه:

شكوت اليه أن تعبت قلوصى فرد جواب مشدود الصفاد
يضن بناقة ويروم ملكا محال ذلكم غير السداد (٧)

ويبدو أن فضالة كان نزاعا الى الهجاء مع عفة الفاظه ، فقد قلنا أنه يعتبر شاذا بين الصعاليك فى هجائه من ناحيتين ، احداهما أنه أكثر من بلغنا هجاء فى شعره منهم ، والأخرى أنه الوحيد من بينهم الذى بلغنا أنه هجا لعدم القرى والعطاء ، وكان مظهر مقدرته فى الهجاء أننا نجد لهجائه وقعا بليغا عميقا يهز كيان المهجو مع عدم الفحش فى الهجاء ، والمتأمل فى هجائه يجد أنه بارع براعة

---

(١) انظر الهذليين/١٢٣ ــ ١٤٠ ٠
(٢) انظر المصدر السابق ٢/٨٦ ، ٨٧ ٠
(٣) أنظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٧٥ بيتان أولهما (وان سيادة الأقوام) والذى بعده
(٤) انظر مهذب الأغانى ٢/٢١٠ ٠
(٥) قيل أن ابن فضالة هو صاحب القصة المذكورة وليس فضالة نفسه ٠
(٦) انظر مهذب الأغانى ٢/٢١٠ وان بمعنى نعم وراكبها أى لعنها الله ولعن راكبها ٠
(٧) المصدر السابق ومشدود الصفاد كناية عن البخل من قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ٠

بينة فى اصابة المواضع القاتلة من مهجوه ، ففى هجائه السابق لعاصم بن عمر بن الخطاب ، يصيب نقطة خطيرة من عاصم تكفى لهدم مركزه فى مجتمعه ، فمن أهم مفاخر قريش فى العرب منذ القديم الانتماء الى قريش نفسها ، ولكن فضالة يريد أن يستل عاصما من مجد قريش فيقول فى أسلوب البساطة :

فتى من قريش لا يجـــود بنائـل ويحسب أن البخل ضربـة لازم

وفى قوله « فتى من قريش لا يجود بنائل » شيء من التعجب الخفى ، وكذلك مع ابن الزبير ، كان أهم ما يطمح اليه ابن الزبير ويقـــاتل من أجله بلوغه الخلافة ، ولكن فضالة يضع بينه وبين الخلافة عقبة صلبة ، ويتعمـــد أن يحاربه فى أهم آماله حيث يقول : « يضن بناقة ويروم ملكا ؟ » ولو كان ابن الزبير يدرك ما لهذه العبارة من أثر فى الدعاية ضده لملأ له الوادى نوقا وكذلك فعل فضالة بن شريك مع ابن مطيع الوالى الذى كان يدعو لعبد الله ابن الزبير بالكوفة مبايعا له ، ثم استحوذ على الأمر المختار بن عبيد (١) فقال فضالة يهجو عبد الله بن مطيع هجاء بالغا ، مع أنه لم يكد يهجو منه غـــير كفه ، ولم يهج كفه ببخل أو شيء ، غير شكلها وملمسها ، فيقول (٢) ·

دعـا ابن مطيع للبيــاع فجئته الى بيعة قلبى بها غير عـارف
فقرب لى خشناء لما لمستهــا بكفى لم تشبه أكف الخـــلائف
معودة حمل الهراوى لقومهـــا فرورا اذا ما كان يوم التسايف
من الششنات الكزم أنكرت لمسهـــا وليست من البيض السباط اللطائف(٣)

٥ ـ الرثاء :

وأما رثاء الصعاليك لغيرهم فقد كان أضيق نطـــاقا ، حيث لا نجد فى شعرهم رثاء الا لدى نفر محدود منهم ، ويتسم رثاؤهم بالطابع الشخصى · بمعنى أنه لا يبدو أن الرثاء غرض مقصود لذاته لديهم ، وانما كان تنفيسا عن عواطف حقيقية أحسوا بها ، وذلك لأنا نجد الذين رثاهم الصعاليك ذوى صـــــلة شخصية وثيقة بهم ، كان يكون المرثى ابنا أو أخا أو زميـــلا فى الصعلكة ، أو معينا فى وجه من وجوه حياتهم ·

فمثلا نجد أبا خراش ورد فى شعره رثاء كثير ، ولكنه جميعا لأشـــخاص تنطبق عليهم الصلات السابقة ، فقد رثى أخاه عروة الذى كان فضلا عن اخوته

(١) انظر هامش البيان والتبيين ١٥/٣ وانظر مهذب الأغانى ٢١٢/٢ ·
(٢) ذكر الجاحظ الشـــعر الآتى فى البيان والتبيين ١٥/٣ غير منســـوب لأحد ولكن الأصفهانى ساقه لفضالة فى ترجمته وحديثه عنه انظر مهذب الأغانى ٢١٢/٢ نقلا عن الأغانى ·
(٣) انظر مهذب الأغانى ٢١٢/٢ وفى البيان والتبيين للجاحظ ١٥/٣ خلاف فى الترتيب وبعض الألفاظ ·

زميلا فى الصعلكة (١) ورثا نفرا من اخوتـه الأشـــقاء بنى لبـــنـى (٢) ورثى زهير بن العجـوة الذى قتله المسلمون فى عزوة حنين (٣) ورثى دبيـــة السلمى سادن العزى الذى قتله خالد بن الوليد (٤) ويبدو من حديثه أنه كان صـــديقا له ، ورثى زهيرا أخاه حين قتله بنو لحيان (٥) ، ورثى خالد بن زهير صديقه وزميله (٦) ٠

وصخر ألغى رثى أخاه عبد الله (٧) ، وكذلك يرثى ابنه (٨) ، وله قصيدة أخرى فى رثاء ابنه فيها حزن عميق ، حيث يشبه صخر نفسه بحال حمامـة مفجوعة فى مخاطبة مع هذه الحمامة ، هو يشكو اليها فجيعة فقد ابنه تليـــد ، وهى تشكو اليه فقد فرخها الذى سماه « ساق حر » ومن هذا الشـــــعر يقول :

وما أن صوت نائحـــة بليــــل ... بسبلل لا تنام مع الهجــود
تجهنا غـــادين فســـاءلتنى ... بواحدها وأسأل عن تليـــدى
فقلت لها فأما ساق حـــــر ... فبان مع الأوائل من ثمـــود
وقالت لن ترى أبدا تليـــدا ... بعينك آخر العمـــر الجـديد
كلانا رد صاحبــــه بيـأس ... وتأنيب ووجـــدان بعيـد (٩)

ومن أشهر رثاء الصعاليك ، رثاء عبدة بن الطبيب لقيس بن عاصــــم المنقرى ، الذى نافسه فيه بعض الشعراء فلم يلحقوه (١٠) ، وهو

عليك سلام الله قيس بن عاصـــم ... ورحمته ما شاء أن يترحمــا
تحية من غادرته غرض الردى ... اذا زار عن شحط بلادك سلمـا
فما كان قيس هلكه هلك واحـد ... ولكنه بنيان قوم تهدمـا (١١)

وقد أشار الى صلته به ، وسبب رثائه بقوله « من غادرته غرض الردى» يعنى نفسه ٠

---

(١) انظر ديوان الهذليين ٢/١٣٦ - ١٣٨ ٠
(٢) المصدر السابق ٢/١٢٣ ٠
(٣) المصدر السابق ٢/١٤٨ - ١٥٠ ، ٢/١٥٧ ٠
(٤) المصدر السابق ٢/١٥٥ ، ١٥٦ ٠
(٥) انظر معجم ما استعجم للبكرى ٢/٥٣٠ ٠
(٦) انظر ديوان الهذليين ٢/١٥١ - ١٥٤ ٠
(٧) المصدر السابق ٢/٥١ ، ٥٢ ٠
(٨) المصدر السابق ٢/٦٢ ٠
(٩) ديوان الهذليين ٢/٦٧ ٠
(١٠) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/١٢٢
(١١) حماسة أبى تمام ١/٣٢٨ والشحط البعد ٠

٦ ـ الغـزل :

ومهما تكن عزلة الصعاليك ، ونأيهم عن المجتمع ، وايثارهم للعزلة ، فهم بشر ، فيهم ما فى الناس من عواطف وغرائز ، ولذلك لم يكن غريبـــا أن يكون فى شعرهم غزل ، بل الغريب ألا يكون ·

وليس يعنينا كثيرا غزلهم لذاته ، وانما يعنينا طابعهم فى الغزل ، ومنهجهم فى حديثهم عنه · وأول ما يطالعنا من طابع الصعاليك فى الغزل العفـــة فى آكرم صورها ، سواء فى حديثهم عن عواطفهم وأشواقهم ، أو عن صـــــفات حبيباتهم وخلقهن ، وستأتى لهذا الحديث بسطة ، ثم أمر آخر يبدو واضحـــا فى غزل الصعاليك ، وهو الواقعية الحقيقية ، والصدق فى تصوير صلاتهـــم العاطفية ، مما يتبين منه أنهم يتحدثون عن حقائق عاشوها وتأثروا بهـــا ، خاصة وأن بعضهم كان من مشهورى العشاق فى العرب ، كتوبة بن الحمـــير صاحب الحب المشهور مع ليلى الأخيلية (١) وعمرو بن عجلان الذى ضـــرب به المثل فى الحب (٢) ، فليس فى غزلهم شطحات الخيـــال ، ولا أوهـــام الأمانى الكاذبة ، وهناك أمر آخر يتميز به غزل الصعاليك ، وهو شـــيوع الغزل بالزوجات (٣) وهو ما لم يؤلف فى غزل الشعراء ، حتى ان النقاد عدوا رثاء جرير لزوجه الذى يقول فيه :

لولا الحيـــاء لها جنى اســـــتعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

عدوه غريبا فى الشعر العربى ، وبين الرثاء والغزل رابطة ، كما ان بين الرثاء والمدح رابطة أيضا ، ومعنى ذلك ان الغزل بالزوجات غـــير مألوف ولا شائع فى الأدب العربى ، وهو حقيقة ، ولكن الصعاليك يشيع فى غزلهم الغزل بالزوجات بل لا تقل حرارة عواطفهم فى آكثر الأحيان حين يتحدثـون عن أزواجهم عنها حينما يتحدثون عن حبيباتهم ، ويمكن تعليل ذلك نظريا بكثرة أسفار الصعاليك وتنقلهم بين أماكن متبـــاعدة تضطرهم الى الاغتراب والبعـد المتواصل ، فيجدون فى هذا البعـد من الحنين الى أزواجهم ما يجـــده العاشق المحروم من حنين الى من يعشق ، ومن المعروف ان الحرمان روح الحب وانه كلما فقد الحب شيئا من الحرمان فقد جانبا من حدته ، وفى أســـفار الصعاليك وبعدهم عن أزواجهم ما يحقق كثيرا من هذا الحرمان ·

وثمة أمر رابع يبدو فى غزل الصعاليك ، وهو ابتكار معان كثيرة لا نعلم انهم سبقوا اليها ونعتقد ان الصدق والتجربة الحقيقية كانت أهم الدوافع فى ابتكار هذه المعانى ·

---

(١) انظر الشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى وحماسة أبى تمام ١٠٨/٢

(٢) انظر أمالى القالى ٢١٦/٢ ·

(٣) انظر مثلا الأصمعيات ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م خانجى ·

وحين نسوق بعض الأمثلة للميزات السابقة ، نقول : من أمثلة السمة الأولى فى غزلهم وهى العفة ، قول الشنفرى يصف امرأة :

فيا جـارتى وأنت غـير مليمة ... اذا ذكـرت ولا بذات تقلت (١)
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... اذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها ... لجارتها اذا الهـدية قلت (٢)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... اذا ما بيوت بالمذمـة حلت (٣)
كان لها فى الأرض نسـيا تقصه ... عـلى أمها ، وان تكلمك تبلت (٤)
أميمة لا يخزى نثاها حليلهـا ... اذا ذكر النسوان عفت وجلت (٥)
اذا هو أمسى آب قـرة عينـه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت (٦)

وأما عن السمة الثانية وهى الواقعية ، فنقول ان واقعية غزل الصعاليك ليس معناها انها فى طابع أو معان واقعية ، وانما معناها انهم عانوا ما تحدثوا عنه من غزل حقيقة ، ومعانيهم فى واقعيتها وقربهـا من الحقيقة تزيد ذلك بل هناك معان تبدو متسمة بالخيال المبعد كقول جحدر بن معاوية :

أليس الليل يجمع أم عمـرو ... وايانا فذاك لنا تدانى
نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهـار كما علانى (٧)

فمثل هذا المعنى يبدو لذاته مسرفا فى التخيل ، مبعدا عن الواقع ، من حيث أنه يقنع بأن الليل يجمعها ، وانهما يريان الهلال معا ويعلوهما النهـار معا ، وانه يعـد ذلك تدانيا بينهما ، ولكنا حين نلم بظروف الشاعر نعلم انه لا خيال ولا تكلف ، فان جحدرا قال هذه القصيدة وهو مودع فى سجن الحجاج يترقب قتله جزاء جنايات جناها فليس فى مستطاعه حين قال ذلك ، بل وليس فى أمله من لقـاء بينهما الا فى هذه المشاركة الطبيعية ، والعزاء النفسى كذلك من الواقعية البينة الصدق لهجة قيس بن الحدادية فى غزله بنعم بنت ذؤيب على كثرة غزله بها ، ومن أمثلة ذلك فى غزله بها انه لم يجنح الى الخيـال أو المثالية الانسانية التى يعزى اليائسون بها أحيانا أنفسهم ، وانما كان واقعيا فى أمله فيها ، وواقعيا فى خوفه من أن يبعد البعد قلبها عنه ليدنيه من شخص آخر ، وكان واقعيا فى ثورته على هذه الصورة ، معرضا بالدعاء

(١) المفضليات ١٠٨ ، ١٠٩ ومليمة أى غير ملومة ولا بذات تقلت اى لا يقال فيها أنها ذات تقلت وتقلت من القلى وهو البغض .
(٢) الغبوق شراب الليل يعنى تؤثر جارتها بشرابها .
(٣) روى البيت باختلاف فى الفاظه .
(٤) النسى المنسى والأم بفتح الهمزة القصد وتبلت توجز .
(٥) النثا سيرة الغائب وحليلها زوجها .
(٦) آب رجع وقرة عينه يعنى قرير العين والجملة الأخيرة يعنى ملازمة بيتها .
(٧) أمالى القالى ١/٢٧٨ .

عليها وعلى من تختاره ، بألا يذوقا لذة عيش ، ولا يحرما من فجيعة ، جـــزاء نكرانها وتحولها عنه ، فيقول من ذلك :

فان كانت الأيام يا أم مالك تسليكم عني وترضى الأعاديا
فلا يأمنن بعدي امرؤ فجع لذة من العيش أو فجع الخطوب العوافيا(١)

ويقول عن صلتها به ، ومبلغ عفتها في هذه الصلة :

قد اقتربت لو ان في قـــرب دارها نوالا ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راء وســـــامع (٢)

وأما غرامهم بالزوجات فقد شاع في شعر نفر منهم ، على رأسهم عروة ابن الورد ، ومالك بن حريم ، وعبدة بن الطبيب (٣) .

وأما المعاني التي لا نعلم ان أحدا سبقهم اليهـــا ، والتي كانت موردا للشعراء من بعدهم ، والتي نعتقد ان المعاناة الحقيقية ، والصدق ، هو الذي هيأ لهم هذا السبق بها ، بالاضـــافة طبعا الى قوة شاعرية السابقين منهم بهذه المعـــاني .

ومن هذه المعاني قول الشنفرى في الوصف بالعفة والحياء :

كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها ، وان تكلمك تبلت (٤)

واذا كان قول النابغة الذبياني في وصف المتجردة زوج النعمان :

نظرت اليك بحاجة لم تقضـــها نظر السقيم الى وجوه العـــود

أدل على جمال العينين وأكثر ايحاء بالانوثة ، فان وصف الشنفرى أدل على العفة والحيـــاء بالاضافة الى ايحاءات أخرى يوحيها بيت شعره ، على أن بيت الشنفرى أكثر ملاءمة لخلقه ، وأدل على ما يريد التعبير عنه ، فان اتجاهه في شعره كله فيما يتعلق بالغزل هو العفة البالغة . سواء من ناحيته هو ، ومن ناحية من ارتضاها حبيبة له ، في حين يعتبر بيت النابغة غـــير مستوف لما يتقضيه الحال مما ينزل بدرجته في ميزان البلاغة التي تعتمد على مراعاة مقتضى الحال ، ومقتضى الحال لشاعر كالنابغة يصف امرأة ملك محسن اليه كالنعمان أن يفضل وصفها بالعفة على ما يوحي بأنه غزل بها ، ولو قال النابغة مثل بيت الشنفرى مكان بيته لكان أبلغ وأنسب لما يقتضيه المقام .

---

(١) أغاني الأصفهاني ١٤/١٥٤ .
(٢) أنظر مهذب الأغاني ١/١٠٢ .
(٣) انظر للمثال ديوان عروة بن الورد ، والمفضليات ٣٥ ، ١٣٦ ومصادر مالك بن حريم في ترجمته .
(٤) المفضليات ١٠٩ والنسي المنسي وتقصه تقتفي أثره والام بفتح الهمزة القصد وتبلت توجز

ومن هذه المعانى التى تفوق بها الصعاليك ، وكانت موردا للشعراء من بعدهم ، قول بكر بن النطاح الحنفى :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وحف أسحم (١)
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم (٢)

فالبيتان وخاصة الثانى منهما كان معناهما موردا لشعراء كثيرين بعد بكر بن النطاح ، حتى عصرنا الحاضر •

ومن هذه المعانى أيضا ما سبق من قول جحدر بن معاوية :

أليس الليل يجمع أم عمرو وايانا فذاك لنا تدانى
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علانى (٣)

ويزيد جحدر عمن أخذوا هذا المعنى انه أقربهم الى الحقيقة والاقتناع لأنه قال ذلك وهو يائس فى سجنه •

ومن الحق أن نضيف الى ما سبق من سمات غزل الصعاليك سمتين أخريين ، قد تكونان أكثر تمييزا لغزلهما من السمات الأخرى ، لوضوحهما وكونهما حسيتين لا تحتملان التأويل واختلاف الرأى •

واحدى السمتين أننا كثيرا ما نجد غزل الصعاليك يأتى فى حشو القصيدة (٤) ، لا مطلعا لها كما هو مألوف لدى الشعراء ، وحين نحاول أن نلتمس أوضح تعليل لذلك نقول انه الصدق فالصعاليك يتحدثون دائما عن واقع حياتهم ، وشعرهم دائما يمثل مشاغلهم ومشاكلهم وما يعانونه فى الحياة فحين ينشىء الواحد مثلا قصيدة يغلب أن تكون تعبيرا عن شواغل نفسه وما يعانيه فى حياته ، فيتحدث عن هذه الشواغل ، وقد يكون من بينها حب يعانيه ، فلا يعنيه أن يكون أول القصيدة أو آخرها ، انما يعنيه تعبيره عن احساسه به كما يعبر عن احساسه بأى شىء من الأغراض التى احتوتها القصيدة ، أما الشعراء الآخرون ، فهم بالنسبة للغزل بين حالتين ، اما أن تكون القصيدة مقصورة على الغزل ، ومن الطبعى فى هذا أن تكون مبدوءة بالغزل

---

(١) أمالى القالى ٢٢٤/١ حماسة أبى تمام ٩٤/٢ والفرع يعنى الشعر والوحف الكثير الاسود والسحم لون •

(٢) على منواله نسج شعراء كثيرون منهم على محمود طه فى قوله ودخلت فى ليلين شعرك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك •

(٣) أمالى القالى ٣٧٨/١ •

(٤) انظر للمثال ديوان الهذليين ٧٣/٢ وأمالى القالى ٢٧٨/١ ومهذب الأغانى ١١/٥ الأول من غزل صخر الغى والثانى لجحدر بن معاوية والثالث لمالك بن الريب وانظر الاصمعيات ٥٧ لمالك بن حريم •

واما أن يكون هدف القصيدة غرضا يستدعى بدءها بالتشويق كالمدح وطلب العطاء فيبدؤها بالغزل ٠

والسمة الأخرى انه باستثناء الأفراد الذين اشتهروا بحب امرأة معينة كتوبة بن الحمير صاحب ليلى الاخيلية (١) ، وقيس بن الحدادية صاحب نعم بنت ذؤيب (٢) نجد الغزل ليس من الموضوعات الأساسية ، أو الاغراض البارزة فى شعر الصعاليك ، حيث نجده فى أغلب الأحيان غرضا عاديا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن سائر مشاغل حياتهم وآلامها وهمومها ، ولعل هذا من أسباب كون غزلهم يأتى كثيرا حشوا فى القصيدة لا مطلعا لها ٠

الخلق الاجتماعى للصعاليك

ولسنا نريد الحديث عن خلق الصعاليك بصفة عامة ، فان كثيرا مما سبق يمثل خلقهم ، كالصبر والجرأة وقوة الارادة والحزم ، والحذر واليقظة ونحوهن فهذه ولاشك صفات لهم ، وتعتبر خلقا لهم ، ولكنها صفات ذاتية شخصية كان تأثيرها فى ميدان صعلكتهم حتى انهم تسلحوا بها لنجاحهم فى حيـــاة الصعلكة ، ولم يكن يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك بدونها ٠

ولكننا هنا نريد أن نتحدث قليلا عن الجانب الاجتماعى فى خلق الصعاليك والصلات والروابط الاجتمـــاعية كثيرة متشعبة ، ولكننا كهدف البحث كله نقتصر منها على الجوانب التى كان للصعاليك فيها طابع معين ، ومنهج متميز عن غيرهم ، وفى هذا النحو كان للصعاليك ثلاثة جوانب ، لهم فى كل منها طابع خاص ، ومسلك معين يمتازون به فى جملتهم عن غيرهم ، ويمكن حصر هذه الجوانب فيما يأتى :

١ ـ الصلة الشخصية :

فقد كان كما يبدو من شعرهم لهم اتجاه معين فى صـــلاتهم وصداقاتهم الشخصية من حيث الصفات التى يرونها لازمة فيمن تروق لهم الصلة به ، ومن حيث سلوكهم هم نحو من تربطهم به صلة شخصية ٠

(١) أنظر مصادره فى ترجمته وللمثال الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى وحماسة أبى تمام ١٠٨/٢ ٠

(٢) أنظر مصادر ترجمته فيما سبق وللمثال أغانى الأصفهانى ١٥٤/١٤ وما بعدها حيث ساق له غزلا كثيرا ٠

٢ – العفـــــة :

حيث يبدو واضحا من شعرهم ان نفوسهم كانت تتميز بطـــابع خلقي ممتاز بنبله وسموه ، في عفتها عما من شأنه أن يكون حطة خلقية ، أو سبة اجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالأعراض .

٣ – الاشــــتراكية :

وقد كان للصعاليك طابع اشتراكي من حقه أن ينوه به ، حيث لمع هذا الخلق الأصيل فيهم منذ الجاهلية الأولى بين ظلمات ظلم اجتماعي حالك ، وفي مجتمع كان من هذه الزاوية بالذات كالسمك يأكل كبيره صــغيره ، حتى ان الذي يشذ بمظهر فردي من مظاهر التعاون والتعاطف الاجتماعي كان ينظر اليه بعين الاكبار والاعجاب لغرابة سلوكه بالقياس الى الوضع العام في المجتمع ، ولكن الصعاليك كانوا في هذا الميدان يمثلون غرة في مجتمعاتهم ، ولكن هذه الغرة لم يقدر لها اللمعان والبروز لظروف أحاطت بالصعاليك كما سيأتي .

وهذه الجوانب على انحصارها تبرز الاطار العام لوضعهم في المجتمع ، وتشمل أهم النواحي التي تربط فردا أو طائفة بمجتمعه .

١ – الصلة الشخصية

يطالعنا في الصلات الشخصية للصعاليك طابع معين يغلب عليهم جميعاً هو بعد صلاتهم عن النفاق الاجتماعي ، مما يسميه الناس مداراة أو مجاملة أو مصانعة ، فهم لا يقرون هذه المصانعات ، ولا يعترفون بالمداراة والمواربة وانما يؤثرون دائما الصراحة الواضحة في صلاتهم ، بحيث نشعر بأنه ليست هناك مرحلة وسط عندهم بين الصداقة والعداوة فاما صداقة خالصة نقية ، وأما عداوة صريحة بينــة ، أما ما بينهمــا من مصانعات ومداورات والتواءات وسائر الأصباغ التي تغطي الوجوه غير المحبوبة فلا يعترفون بها ولا يقرونها ويمكن تعليل ذلك بأن اشتراك المصالح والمنافع ، والاحتكاك الدائم بين الناس في صلاتهم بعضهم ببعض ، يضطرهم الى المصانعة والمداراة والتجاهل ، لأنه لا تستقيم حياتهم الاجتمـــاعية الا بذلك ، ولو كشف كل منهم ما في نفسه للآخرين من مطامع وعواطف بأنواعهما وتضاربهما لتحولت حيـــاة الناس الى حرب دائمة لا هوادة فيها ، فهم مضطرون الى تجاهل ما في نفوس الآخرين نحوهم ، وتغطية ما في نفوسهم نحو الآخرين ، حتى تستقيم لهم الحيــــاة

او تكون أدنى الى الاستقامة ، أما الصعاليك فبحكم أشياء كثيرة منها عزلتهم التى تتيح لهم الاستغناء عن حياة الناس بما فيها ، ومنها فقرهم الذى لم يبق لهم شيئا يصانعون الناس من أجله ، ومنها طبيعة نفوسهم المقطورة على القوة التى لا يحتاجون معها الى منافقة أو مداورة تحميهم من غيرهم ، بحكم أشياء كثيرة منها هذه الأشياء لم تكن بالصعاليك حاجة الى أن يضعوا فى صلاتهم مرحلة وسطا بين الالف والرغبة أو الصداقة ، وبين العداوة ، فاما أن يكون المرء بالنسبة اليهم مرغوبا فيه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون مرغوبا عنه بأى مرتبة من مراتب النفور ، ولكن فى كلا الحالين لا يخفون ما فى نفوسهم عنه ، ولا يضللونه ، كما أنهم لا يحاولون تضليل أنفسهم ٠

هذا شعار عام للصعاليك فى جملتهم ، نحسه من خلال شعرهم ، حيث نراهم ينبذون من لا يجدون لنفوسهم رغبة فيه على النحو الذى أشرنا اليه ، واما الذين يجدون فى نفوسهم رغبة فيه ، فنشعر من خلال شعرهم انهم يؤثرون فيه صفات معينه ، معظمها صفاتهم كصعاليك وكأصحاب خلق معين وهم بهذا يسلكون الطريق الطبعى فى الصداقة ، فمن المعروف ان أوثق الصداقات ما قامت على تشابه وتقارب بين الصديقين ٠

وهذا تأبط شرا يبين لنا مذهبه فى الصداقة ، فيقول ان الصداقة الواهية التى لا يرجى منها بذل ولا تضحية فى الشدائد ينبذها غير مشتاق اليها ٠ ولا مشفق من نبذها فيقول :

انى اذا ما خلة ضنت بنائلها   وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق(١)
نجوت منها نجائى من بجيلة اذ   ألقيت ليلة خبث الرهط أوراقى (٢)
ثم ـ ولا أقول اذا ما خلة صرمت   يا ويح نفسى من شوق واشفاق (٣)

ويبين الصفات التى يلتمسها ليكون صاحبها صديقا محببا اليه ، وهى صفات كثيرة ، ولكن تبرز من بينها صفات للصعاليك وخاصة فى البيت الثالث مما يأتى :

لكنما عولى ان كنت ذا عول   على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد فى عشيرته   مرجع الصوت هدا بين ارفاق (٤)
عارى الظنابيب ممتد نواشره   مدلاج أدهم واهى الماء غساق (٥)

---

(١) المفضليات ٢٨ والخلة الصداقة والوصل يعنى حبل الصداقة والاحذاق المتقطع ٠

(٢) بجيلة قبيلة أسرته ثم نجا منها والخبت اللين من الأرض والرهط موضع وأوراقى يعنى بذلت جهدى عدوا ٠

(٣) صرمت قطعت ٠

(٤) مرجع الصوت تأمر وتنهى وهدا رافعا صوته يعنى رئيس جماعته أو عصابته ٠

(٥) الظنابيب حروف عظم الساق والنواشر عروق ظاهر الذراع يعنى هزاله مدلاج كثير سفر الليل والادهم الليل ٠ وواهى الماء صفة الليل يعنى شديد المطر ٠

حمال ألوية شـــهاد أندية قول محكمـة جواب آفـاق (١)

ومن أهم الصـــفات التى يطلبها اذن فى صديقه أن يكون نحيلا ، كثير الحركة والعمل فى الليل جوابا للآفاق ، وكأنه يشترط أن يكون صديقه صعلوكا وهو فعلا ما يريد أن يقوله وبعد هذه الأبيات أبيات أخرى تؤكد هذا المعنى .

والشنفرى يصوغ هذا المعنى فى صورة أخرى ، فهو أن أحس فى الصداقة شكا أو شيئا يشكوه أعرض عنها لاجئا الى قوته ، مبينا انه بين حالين لا ثالث لهما ، فهو حلو لمن طلب حلاوته ومر اذا توجس أو أنكو من أحد شيئا ، وليس ينتظر منه بين الحالين حال أخرى فيقول :

الا لا تعدنى ان تشكيت خلتى   شفانى بأعلى ذى البريقين عدوتى (٢)
وانى لحلو ان أريدت حلاوتى   ومر اذا نفس العزوف استمرت (٣)
أبى لما آبى سريع مباءتى   الى كل نفس تنتحى فى مسرتى (٤)

ويعبر الشنفرى مرة أخرى عو هذا المعنى فى صورة أخرى أيضا فيقول :

وانى كفانى فقد من ليس جازيا   بحسنى ولا فى قربـــه متعلل
ثلاثة أصحاب فـؤاد مشـيع   وأبيض أصليت وصفراء عيطل (٥)

وسعد بن ناشب يعبر عن هذا أيضا ، فيجعل نفسه فى طرفين متباعدين فهو اما حلو كريم ، واما شرس عنيف ، ولكنه حين يعنف فلا حدود لشراسته وعنفه فيقول :

تفندنى فيما ترى من شراستى   وشدة نفسى أم سعد وما تدرى (٦)
فقلت لها ان الكريم وان حـــلا   ليلفى على حال أمر من الصـــبر
وفى اللين ضعف والشراســـة هيبة   ومن لم يهب يحمل على مركب وعر (٧)
وما بى عـــلى من لان لى من فظاظة   ولكننى فظ أبى على القســـر (٨)

ويتحدث مالك بن حريم عن أصدقائه واخوان صفائه ، بأنهم حين رأوا شيبه أعرضوا عنه الى من رأوه أكثر نفعا لهم ، وأجدى عليهم عونا ، وكأنه يؤيد

---

(١) المحكمة الكلمة الفاصلة وجواب آفاق صاحب أسفار وغارات .

(٢) المفضليات ١١٢ ولا تعدنى تعبير عن السخط والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والعدوة المرة من العدو .

(٣) استمرت أرادت المرارة .

(٤) المباءة الرجوع تنتحى تقصد .

(٥) من اللامية ومتعلل يعنى النفع ومشيع قوى كان له شيعة والابيض السيف والصفراء القوس .

(٦) حماسة أبى تمام ١/٢٧٠ ، ٢٧١ وتفندنى تلومنى وتجهلنى .

(٧) يعنى من لم تكن له هيبة يستضعف .

(٨) الفظاظة الغلظة والقسر يعنى الظلم .

مذهب الصعاليك في صداقاتهم حيث لا يبقون منها ما يتوجسون فيه ريبة وما لا يثقون ثقة كاملة في صدقه ونقائه ، فيقول عن اخوان صفائه ، بعد حديثه عن شيب رأسه :

واقبل اخوان الصفاء فاوضعوا الى كل احوى في المقامة افرعا (١)

وليس معنى ذلك ان الصعاليك انفردوا بهذا الاتجاه في الصداقة ، وانما نعني منه اننا قد نجد بعض هذا في شعر غيرهم ، ولكن بصورة فردية ، وغالبا ما يصحبه في شعر غيرهم خلق وسط ، يعبر عنه بالحلم ، أو التغاضي أو التسامح او نحو ذلك ، ولكن هذا الاتجاه في شعر الصعاليك ليس فرديا وانما هو عام يغلب على شعرهم في جملته ، دون أن تصحبه مرحلة وسط في صلاتهم الفردية ، وحتى ان وردت عبارات توحي بالتوسط ، فاننا نجدها كالشاذة هنا لا تمثل خلقا ، ولا يدعمها السياق ، كقول الشنفرى :

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى سئولا باعقاب الأقاويل أنمل (٢)

٢ ـ العفـة

قد يبدو الحديث عن عفتهم متعارضا مع مسلكهم ، حيث يعتمد سلوك الصعاليك على العدوان على أموال الناس ، وحيث يعتمد رزق الصعاليك على سلب ممتلكات غيرهم ، ولكن الواقع ان هذا السلوك مذهب اجتماعي آمنت به نفوسهم ، وارتضوه لحياتهم ، لا يرون فيه غضاضة ولا خزيا ولا شيئا يسيء الى مرؤتهم ، وانما يرون فيه عكس ذلك ، كرامة لهم ، وارتفاعا بأنفسهم عن ذل السؤال ، وهوان المن بالاحسان والتفضل عليهم كما رأينا ، وكما عبر عن ذلك بكر بن النطاح بقوله :

ومن يفتقر منـا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسال

وكما يقول الأحيمر السعدى :

واني لأستحيي لنفسي ان أرى أجرد حبلا ليس فيه بعير

وأما عفة الصعاليك في خلقهم الاجتماعي كما يبدو واضحا من شعرهم فقد سمت الى درجة من النبل ، لا نظن ان شعرا صور خلقا أو نبلا أسمى منها

---

(١) الاصمعيات ٥٧ واوضعوا أسرعوا والأحوى أسود الشعر والمقامة المجلس والافرع التام الشعر ، يعني تركوه الى مجالس الشباب .
(٢) من اللامية : سبق نصها مشروحا .

وليس شعرهم وحده هو الذى يصور هــذه المثـــالية الرفيعة فى أخلاقهم فأخبارهم أيضا لا تعارض هذا ولا تنفيه ، بل تؤيده وتؤكده ، فهذه زوج عروة ابن الورد ، تصفه قائلة : « انى لا أعلم امرأة ألقت سترا على خير منك ، أغفل عينا ، وأقل فحشا ، وأحمى لحقيقة » (١) ، ولم تقل ذلك وهى فى كنفه وانما قالته حين هجرته هجرة لا أمل فى رجوعها عنها ، مختارة عليه قومها ، فى قصة تخييرها بين زوجها عروة وقومها (٢) ٠

وعفة الصعاليك فى ترفعهم عن كل ما يسىء الى المروءة ، وكل ما يخدش الكرامة والخلق النبيل عفة مطلقة ، غير محدودة بنوع أو مجال معين ، ففى كل مجال من مجالات السلوك الاجتماعى يتميزون بهذه العفة والخلق الكريم وقد عرف هذا عنهم حتى ان واحدا منهم شذ عن هذا الخلق ، كان شذوذه بينا متميزا ، وكان موضع غرابة وانكار من رواة الأخبار وكأنهم يقولون ان هــذا ليس خلق الصــعاليك ، وهو أبو الطمحــان القينى فى بعض أفعال تسىء الى الخلق ، كسطوه على مال امرأة وعرضها بعد أن أحسنت اليه (٣) ٠

وأوضح ما تكون عفة الصعاليك فيما يتعلق بالمرأة ، ومن نواحى هــذه العفــة انفرادهم بالغزل فى الزوجة ، مما يوحى بالاتجــاه الخلقى المشروع فى عواطفهم ٠

وأما عن الغزل بصفة عامة عند الصعاليك ، فالواقع انه من الهضم لحق الصعاليك أن يوصف غزل قط بأنه أعف من غــزل الصعاليك ، ولئن كان غزل بنى عذرة قد اشتهر بالعفة ، فان غزل الصعاليك كان أسبق وأعف ٠

وبينما نجد الشعراء يفرغون معظم جهدهم الشعرى فى الهيــام بالمرأة مركزين معظم هذا الجهد فى تتبع مواضع الانوثة والعفة ، مما يشف عن شهوة جامحة الى كل شىء فى المرأة ، بل ان كثيرا من شعرهم يتتبع أعضاء المرأة عضوا عضوا ، وجزء جزءا من أعلاها الى أدناها ، مما تفيض به كتب الأدب والشعر (٤) بينما نجد الشعراء كذلك ، نجد غزل الصعاليك يسمو عن ذلك كله ، فلا يعرض قط لعورة ، ولا يشير قط الى موضع انوثة أو عفة ، ولا يشف قط عن تهافت أو جموح ، بل على العكس نلمس فيه تعمد الحديث عن العفة سواء فى خلق المرأة المتغزل بها ، أو فى خلق الشاعر نفسه ، بل نجد شخصا كالسليك يضع لنفسه هذا الشعار الذى ينبىء عن العفة المترفعة باحتقاره لغير النوار وهى المرأة النفور من الريبة فيقول :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ ، ١٦٠ م الخانجى ٠

(٢) أنظر المصدر السابق وديوان عروة ٠

(٣) انظر الأغانى للأصفهانى ٧/١٣ ٠

(٤) انظر للمثال نهاية الارب للنويرى ١٨/٢ ــ ٦٥ عما قاله الشعـــراء فى تتبع أعضاء المرأة وكذلك ١٣٤/٢ ــ ٢٧٧ عما قالوه فى أحوال العشق ٠

يعاف وصال ذات البذل قلبى ويتبع المنعة النوارا (١)

ويصف المرأة التى يتحدث عنها بقوله :

من الخفرات لم تفضح أباها ولم ترفع لاخوتها شنارا (٢)

ويصف الشنفرى من يتغزل بها بقوله :

فيا جارتى وأنت غير مليمة اذا ذكرت ، ولا بذات تقلت (٣)
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها اذا الهدية قلت (٤)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها ، وأن تكلمك تبلت (٥)
أميمة لا يخزى نثاها حليلها اذا ذكر النسوان عفت وجلت (٦)

وهذا توبة بن الحمير مع عشقه المشهور لليلى الأخيلية ، هذا العشق الذى يبيح له فى عرف العشاق أن يطمع وأن يؤمل ، ولكنه لا يطمع ولا يؤمل وانما يكتفى منها بما لا يكفى سواه فيقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودونى جندل وصفائح
تسلمت تسليم البشاشة أوزقا اليها صدى من جانب القبر صائح
واغبط من ليلى بما لا أناله الا كل ما قرت به العين صالح (٧)

وليلى الأخيلية هذه تعترف لتوبة بعفته وحيائه فتقول عنه بعد موته :

فتى كان احيى من فتاة حيية واشجع من ليث بخفان خادر (٨)

وقيس بن الحدادية مع هيامه الشديد بحبيبته نعم بنت ذؤيب ، يصف عفنها مع مبادلتها اياه الحب فى شعر كثير يقول منه :

قد اقتربت لو ان فى قربها نوالا ، ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع
كأن فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع (٩)

---

(١) مهذب الأغانى ١٧٠/٢ ·
(٢) المصدر السابق ·
(٣) المفضليات ١٠٩ وتقلت من القل البغض ·
(٤) الغبوق شراب الليل ·
(٥) الأم القصد وتبلت توجز الكلام ·
(٦) نثاها سيرتها ·
(٧) حماسة أبى تمام ١٠٨/٢ والصفائح الحجارة وزقا صاح ·
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى ·
(٩) أغانى الأصفهانى ١٥٤/١٤ ·

وبكر بن النطاح يصف عفة حبيبته ، ويأسه من الطمع فيها ، مع ما تفعله هذه العفة فى نفسه من ترديده بين نوازع مختلفة ، ولكنه مع ذلك قانع راض عفيف فيقول :

فلا كبدى تبلى ولا لك رحمـــــة ولا عنك اقصار ، ولا فيـــك مطمع
فلا تسألينى فى هواك زيـــادة فأيسره يجزى وأدنـاه مقنــع (١)

ومالك بن حريم يحدثنا عن حبه ، وعفة هذا الحب فيقول :

أهيم بها لم أقض منها لبانة وكنت بها فى سالف الدهر موزعا (٢)

ويقول أيضا عن عفته عن التطلع الى جارته أو ايذائها فى عرضـــها ويجعل ذلك احدى صفات أربع عدها فى نفسه :

وثالثة ألا تقذع جـــارتى اذا كان جار القوم فيهم مقذعا (٣)

وأبو خراش الهذلى يصف أخاه ورفيق صعلكته زهيرا حين قتل فيقول :

قتلتم فتى لا يفجر الله عامـــدا ولا يجتويه جاره عام يمحل (٤)

ولئن كانت العفة فى صلة المرأة بارزة فى شعر الصعاليـك ، فليست هى الجانب الوحيد فى عفتهم ، ولا هى أبرز الجوانب ، وانما نحس ان العفة خلق أصيل فى الصعاليك تبدو فى كل ما يمكن أن يوصف بالعفة كما يقول مالك ابن حريم :

وأكرم نفسى عن أمور كثيرة حفاظا وأنهى شحها أن تطلعـا (٥)

والشنفرى يتحدث عن نحو ذلك من العفة فيقول :

ولولا اجتنـاب الذأم لم يلف مشرب يعاش به الا لـدى ومـأكل (٦)

بل يبلغ بالعفة الى مراعاتها حتى فى أدب الطعام فيقول :

وان مدت الأيـــدى الى الزاد لم أكن باعجلهم اذ أجشع القوم أعجل (٧)

ومن صور العفة عند الصعاليك عفة اللسان ، حتى فى الشتم والهجاء كما يقول مالك بن الريب :

---

(١) مهذب الأغانى ٨/٨٤ ·
(٢) الأصمعيات ٥٨ ·
(٣) الأصمعيات ٥٨ والقذع الفحش ·
(٤) معجم ما استعجم للبكرى ٢/٥٣٠ ·
(٥) الأصمعيات ٥٨ ·
(٦) من اللامية والذأم المذمة ·
(٧) من اللامية ·

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى　　وعن شتمى ابن العم والجار وانيا (١)

وشعر الصعاليك كله شاهد على عفة ألسنتهم ، فلم يبلغنا شعر كان فى جملته أعف لفظا وأكرم معنى من شعر الصعاليك ، فغزلهم كريم عفيف كما قلنا وهجاؤهم أيضا كله كرم وعفة لسان اذا قيس بغيره من الهجاء فى أى عصر من العصـــور ، فبينما نجـــد هجاء الشـــعراء يفيض تجريحا وسبا للمهجوين ونيلا من أعراضهم ومرؤاتهم ، نجد شعر الصعاليك ــ كما أشرنا ــ يلتزم حدود العفة الكريمة ، فلا يفحش ولا يقذع ، بل سما كثير منه الى النماذج المثالية فى الخصومة ، كما فى خصومة صخر الغى وأبى المثلم الهذلى (٢) ٠

وقد يبدو غريبا ظهور العفة فى طابع متقارب بين طائفة لم يجمع أفرادها مكان واحد ولا زمان واحد أيضا ، بل عاشوا فى أماكن وأزمنة متفرقة ، ولكننا يمكن أن نحاول تعليل ذلك بأنهم وان اختلفوا فى المكان والزمان ، الا انهم اتفقوا أو تقاربوا فى صفاتهم الذاتية ، من حيث الصفات والأخلاق التى سبق الحديث عنها بالنسبة لهم ، ومحورها القوة ، وقد تكون هذه القوة فيهم بجوانبها مصدر عفتهم ، لأن عدم العفة نوع من الضعف لا يلائم قوتهم المتعددة الجوانب ، كما انهم وان اختلفوا فى الأماكن ، الا أنهم جميعا تجمعهم بيئة الصعلكة ، وأماكنها المفضلة من الصحراوات والقفار كما سبق ٠

٣ ــ الاشتراكية

ولقد كان من العجيب أن يبرز فى الصعاليك خلق اجتماعى كريم ، هو الاشتراكية فى خير صورة يدعو اليها تشريع ، أو تهتدى اليها حضارة ٠

ومصـــــدر العجب ان الظروف الشخصية والاجتماعية التى أحاطت بالصعاليك لم تكن لتساعد على خلق كهذا ، فأما الظروف الشخصية فلأنهم كانوا فقراء ، وظلوا طوال صعلكتهم فقراء كما قلنا ، ومع فقرهم هذا فقد كانت الاشتراكية طبعا أصيلا فى حياتهم ، وأما الظروف الاجتماعية ، فنعنى بهـــا ظروف المجتمع الجاهلى ، حيث كان مجتمعا طبقيا ، لا يبرق فيه أى وميض من معـــانى التعاون أو التكافل الاجتمـــاعى الا ما يتفضل به بعض المحســـنين من الأغنياء على الفقراء ، بصورة فردية لا يبدو فيها التعاون الاجتماعى ، أو حتى الخلق ، بمقدار ما تبدو فيها الأنانية والرغبة فى الفخر والتعالى ٠

ومع هذه الظروف الشخصية القاسية للصعاليك ، ومع هـــذا الظلام

(١) أنظر مرثيته : سبق نصها ٠

(٢) أنظر ديوان الهذليين ٢/١٢٣ ــ ١٤٠ ٠

التعاون الحالك فى المجتمع فقد رفع الصعاليك لواء مشرقا من اشتراكية كريمة كانت محط اعجاب المجتمع ، ومضرب إمثاله *

ونحب قبل أن نتحدث عن اشتراكية الصعاليك ، أن نلقى نظرة على أثر الاشتراكية فى مجتمعهم حتى نستطيع أن نحكم على اشتراكيتهم ، وهل استطاعت أن تتقدم عن إشتراكية مجتمعهم أم لم تستطع ؟

والواقع أن هناك صفات لا ينازع فى وجودها فى المجتمع العربى ، كاكرام الضيف ، والسخاء والجود ، واعانة المنكوب ، ولكنها ليست فى درجة واحدة من وضعها فى المجتمع أو التزام الأفراد حيالها . فاكرام الضيف وحده هو الذى يمكن أن نعتبره صفة عامة فى المجتمع العربى بحيث يلتزم الأفراد اياها بصفة عامة ، وهذه الصفة وان كانت فى صورة التعاون الاجتماعى الا أنها على أهميتها ، وعلى ما أدته من فوائد حيوية لا تعتبر فى أصلها أو فى الدافع اليها ، تعاونا اجتماعيا وانما تعتبر ضرورة اجتماعية ، والفارق بين المعنيين كبير ، رغم اتفاقهما فى النتيجة ، لأن التعاون نزعة اختيارية ، و عمل يقوم على الاختيار مهما دعت الظروف اليه ، أما الضرورة فأمر لا مفر منه من الناحية الاجتماعية ، وتطبيق ذلك بالنسبة لاكرام الضيف ، ان طبيعة البيئة والحياة حينذاك كانت تحتم التزام المجتمع رعاية الضيف ، لأن الضيف عندهم رجل مسافر ، فى بيئة قاحلة قد لا يجد فيها طعاما ولا شرابا ، ومهما حمل من زاد ، فطول السفر ، وتباعد أماكن البيئة ، يعرضه لنفاد زاده ، وليست هناك أماكن لبيع الطعام ، أو لتقديمه ، فضلا عن انه فى معظم الأحيان ، حتى لو فرضنا وجود أماكن عامة للطعام — وهو فرض غير واقعى فى بيئتهم — فان هذا المسافر قد لا يجد ما يشترى به ، والأهم من هذا ان السفر والتنقل ليس فى حالات فردية فى مجتمعهم ، وانما هو طابع البيئة كلها فالقبائل دائمة التنقل وراء الرعى والأفراد دائمو التنقل وراء رزقهم ، وحتى أصحاب المدن ، دائمو التنقل والاسفار فى تجارتهم ورحلاتهم ، ومراعيهم أيضا . واذن فكل فرد معرض لأن يكون مسافرا ، ومعرض لأن يكون ضيفا نازلا لدى أى انسان ، فى أى مكان ، فهو ملزم بأن يأوى أى انسان يمر بهذا الظرف ، ظرف الضيافة لأنه هو أيضا معرض دائما لهذا الظرف أيضا ، فالضيافة فى العرف العربى حينذاك ، غير الضيافة التى يعنيها عرفنا اليوم من أنها استضافة شخص معروف ذى صلة فى ظروف تختلف كل الاختلاف عن تلك الظروف . لأن الظروف المحيطة بالضيافة كما قلنا هى التى جعلت رعاية الضيف عندهم ضرورة اجتماعية ، ولذلك نجد الضيافة والاهتمام بها تتأثر دائما من مجتمع الى آخر حسب هذه الظروف ، كما نلمس فى الفارق بين نظرة القرية الريفية الى الضيافة من حيث الاهتمام بها . وبين نظرة المدينة من حيث عدم الاهتمام بها ، لأن ظروف الضيف فى المدينة غيرها فى الريف ، حيث يستطيع أن يجد فى المدينة من حاجته فى المطاعم والفنادق ما لا يجده فى القرية ، واحساس

مجتمع المدينة ، ومجتمع القرية بظروف الضيف في كل منهما هو الذى يحدد السلوك نحو الضيافة ٠

واذن فالضيافة العربية القديمة على أهميتها فى حياة المجتمع ، وحلها لمشكلة كبرى فى حياة الافراد كانت ضرورة اجتماعية أكثر منها مظهرا من مظاهر التعاون الاشتراكي وأما المظاهر الأخرى التى كانت تأخذ جانبا من طابع الاشتراكية فى مظهرها ، كالجود واغاثة المنكوب ، فقد كانت أقرب أيضا الى النزعة الفردية والرغبة فى الفخر والتعالى منها الى التعاون الخلقى الاشتراكى كما يبدو ذلك واضحا فى أشعار الكرماء والمحسنين من العرب ، حيث نجدهم دائما يتخذون من مواقف الجود والاحسان موردا فياضا للفخر والتعالى ، وليسوا هم وحدهم الذين يفخرون ، انما يفخر أيضا أولادهم وأقرباؤهم بهذه المواقف بل يتوارثون هذا الفخر جيلا بعد جيل ، وهذا التهافت الواضح فى الفخر بمواقف الجود والاحسان يدل على أن هذه المواقف مهما سمت فهى أقرب الى الانانية منها الى الخلق الاشتراكى النابع من الايمان به لذاته ٠

ولسنا بهذا نريد أن نقلل من قيمة الفضائل العربية ، فالواقع ان هذه الفضائل كانت سناء مشرقا فى ظلام الطبقية الجاهنية ، التى يتصارع فيها الأفراد على الثروة فى أنانية لا تبالى أن تحطم فى طريقها أى شىء ، وأى انسان ، فى سبيل الوصول الى غايتها ٠

ولكن الذى نريد أن نقوله ان هذه الفضائل على أهميتها فى حياتهم ، وحلها لكثير من مشاكل بعض الأفراد ، لا تعتبر خلقا تعاونيا بالمعنى الصحيح ويكفى فى بعدها عن الاشتراكية الصحيحة انها مطبوعة دائما بطابع المن والتفضل والتعالى ، وقد يكون هذا الطابع على دقة مدلوله ، من الفوارق الأساسية بين الاشتراكية الصحيحة ، وبين صورة من صور الاحسان والتفضل الفردى أو الجماعى ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الفارق فى وضوح مبينا الفرق بين الصورتين فى قوله تعالى : « **والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** » (١) فكلمة (حق) هى الفاصل بين المعنيين ، وهى صلب الاشتراكية الصحيحة ، ولذلك نجد التشريع الاسلامى يهدف دائما الى تقرير هذا المعنى وتوضيحه ، مبعدا بكل شدة واصرار ، الشعور بالتفضل والمن عن نفوس المتصدقين والمزكين ، كما يقول تبارك وتعالى « **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** » (٢) ، واضعا المزكين والمتصدقين بين شعورين اثنين ، لا ينبغى أن يتعدوهما الى ثالث ، وهما

---

(١) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج ٠
(٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة ٠

ان ما يخرجونه من أموالهم حق واجب عليهم ، وان جزاء ما يخرجونه عند الله وحده ، وليس عند الناس ، ولا عند أحد من الذين ينالون هذا المال ، وعندئذ لا يجد المتصدقون والمزكون فرصة قط للشعور بالتفضل والمن ، ولا لانتظار المدح أو التأثر باحسانهم لدى أحد من الناس ·

والواقع ان هذا الحديث يحتاج الى بسطة واسعة لا يقتضيها الموضوع ولذلك نعود الى الصعاليك ، فنقول ان اشتراكيتهم كانت أقرب ما تكون الى الاشتراكية الأصيلة فى أوضح صورها حتى التى عرفتها الشرائع والحضارات ·

وأخبار الصعاليك تؤكد اشتراكيتهم قبل شعرهم ، فمن أخبار عروة بن الورد انه « كان اذا أصابت الناس سنة شديدة (١) تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم أما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه ، فاغار وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى » (٢) ومن أخباره أيضا « أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك (٣) أغثنا فرق لهم ، وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا» (٤) ومن أخباره فى اشتراكيته مع رفاقه أنه « خرج هو وأصحابه حتى أتى ما وان (٥) فنزل أصحابه ، وكنف عليهم كنيفا من الشجر ، ثم مضى يبتغى لهم شيئا » (٦) وفى تكملة هذه القصة السابقة نجد صورة بالغة من صور الاشتراكية ، حيث انه بعد أن ترك هؤلاء الفقراء الذين كنف عليهم كنيفا من الشجر ومضى يبتغى لهم شيئا يعولهم به ، قدر له أن يصيب عددا كبيرا من الابل ، ويصيب معها امرأة ، ورجع بالابل والمرأة ، فقسم الابل بين هؤلاء الفقراء الذين لم يصنعوا شيئا غير انتظار احسانه ، وجعل لنفسه نصيبا مثل واحد منهم ، ولكنهم أبوا عليه أن يأخذ المرأة ، وقالوا كما تسوق الرواية « لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا ، فمن شاء أخذها » ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم

---

(١) يعنى المجاعة والقحط ·

(٢) مهذب الأغانى ٢/٣٦ ·

(٣) يعنون بالصعاليك هنا المعنى اللغوى وهو الفقراء ، وكان عروة يسمى عروة الصعاليك اى عروة الفقراء ، انظر القاموس المحيط مادة صعلك ·

(٤) أغانى الأصفهانى ٣/٨١ ·

(٥) موضع ·

(٦) أغانى الأصفهانى ٣/٨٥ ·

فينتلهم وينتزع الابل منهم ، ثم يذكر انهم صنيعته ، وانه ان فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلا ثم أجابهم الى أن يرد عليهم الابل الا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم ، فجعل له راحلة من نصيبه » (١) ، وواضح من هذه الأخبار انها ليست مجرد جـــود أو كرم ، وانما هي شعور بالرعاية الاجتماعية . والتكافل الاجتماعي ، وهما جوهر الاشتراكية ، بل انهم بلغوا فى الشعور بالاشتراكية حدا أبعد من هذا حد استباحة أموال الأغنياء ليردوها الى الفقراء ، وهم فى هذا لا يختلفون عن جوهر التشريعات السماوية والوضعية ، ولا ينقص سلوكهم هذا الا الحماية التشريعية ليكون سلوكا مشروعا ، ومن أخبارهم فى هذا ان عروة بن الورد سمع أن رجلا من كنانة بحيل ، فبعث عليه عيونا ، فأتوه بخبره ، فشد على ابله فاستاقها ، ثم قسمها فى قومه » (٢) ومما قاله فى ذلك :

واذا افتقرت فلن أرى متخشعا لأخى غنى معروفه مكدود (٣)

أليس هذا السلوك من عروة يتفق مع قول النبى صلى الله عليه وســـلم لعامله على الصدقـــة : خذها من أغنيائهم ، فاجعلها فى فقرائهم ؟ (٤) غير أن مسلك عروة ينقصه حماية التشريع ، والصفة الشرعية ، فأصبح صعلكة ، وليس سلوك تشريع .

وكذلك مالك بن الريب ، حينما سأله سعيد بن عثمان الوالى قائلا « ويحك يا مالك ، ما الذى يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ » أجابه مالك بأن سببا واحدا يدعوه الى العداء وقطع الطريق ، ولم يكن هذا السبب طلبا لنفع شخصى ، وانما كان مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، حيث أجابه قائلا « أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان » (٥) .

وهكذا نجد أخبار اشتراكيتهم كثيرة متعددة الجوانب ، وقد عرف المجتمع فيهم هذه الصفة ، حتى أصبحوا مضرب المثل ، ففى أمثالهم « كل صـــعلوك جواد » (٦) ، وقد نال عروة بن الورد بسبب شهرته الاشتراكية هذه منزلة رفيعة فى المجتمع ، وظلت هذه المنزلة مقرونة بسيرته عدة أجيال ، حتى قال معاوية بن أبى سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم (٧)

---

(١) انظر مهذب الأغانى ٢/٢٧ .
(٢) شرح ديوان عروة بن الورد لابن السكيت ٨٧ .
(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٧ .
(٤) انظر صحيح البخارى والرواية بالمعنى .
(٥) انظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٥١ وأمالى القالى ٣/١٣٦ .
(٦) انظر مجمع الأمثال للميدانى ٢/١٥٩ المثل ٣١٣٤ .
(٧) ديوان عروة بن الورد ٨٠ .

وحتى قال عبد الملك بن مروان : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني كان ولدني الا عروة بن الورد لقوله :

واني امرؤ عـــافي انائي شركة وأنت امرؤ عافي انائك واحد (١)

وقال عبد الملك ايضا : من زعم ان حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد (٢) ، والذى نريد أن يكون واضحا في حديثنا عن هذه الصفة في الصعاليك ، انها لم تكن مجرد كرم أو رغبة في الجود ، وانما كانت صـفة أصيلة في نفوسهم ، توحي بايمانهم بأن ما في أيديهم ينبغي أن يكون شركة بينهم وبين غـيرهم ، وبأنه لا ينبغي أن يترك محـروم أو بائس دون عـون ورعاية وهذان المعنيان بالذات ، هما اللذان نريد أن نصل اليهما في حديثنـــــا عن اشتراكية الصعاليك ، لأنهما المعنيان اللذان امتازوا بهما عن مجتمعهم ، وسبقوا بهما كل اتجـــاه الى الاشـــتراكية من حيث التطبيق والتنفيــــذ والالتزام وأهم هذا السبق الذى حازوه في هذا المجال ، ان ايمانهم هذا ، وســـلوكهم الاشتراكي لم يكن نابعا من دعوة خارجية ، أو اقتداء ، أو من أى مؤثر خارج نفوسهم ذاتها .

وحين نذهب الى شعرهم نجده يفيض بأخبار اشتراكيتهم هذه ، ومهما صورها شعرهم في صورة الكرم أو البذل أو العون ، فاننا نحس ان وراء هذه الصور جميعا صفة أصيلة غير متكلفة ، وصفة انسانية لا يراد بهـا فخـــر أو استعلاء ، وقد يقال ان كثرة الحديث عن هذه الصفة في شعرهم ، تـوحي بالرغبة في الفخر ، مما يتنافى مع ما قررناه آنفا ، والجواب عن ذلك ، ان حديثهم كله في جملته عن صفة الجود الأصيل فيهم تلك التي ســـــميناها اشتراكية ، لا يبدو منه نزوع الى الفخر ، بل ولا مجرد الخبر في معظم الأحيان وانما نجد حديثهم هذا في أكثر الأحيان دفاعا عن أنفسهم ضد لائميهـــم على الاسراف وتبديد المـال ، ومعظم اللائمين كن أزواجهم ، وفي الأحيـــان القليلة الأخرى كان حديثهم أخبارا عن حادث من حوادث اشتراكيتهم ، أو دعوة اليها أما نزعة الفخر التي نراها في شعر غيرهم فلا تبرز قط في شعرهم بروز الفخر والتعالي وطلب الذكر . وكما كان عروة بن الورد أكثر الصعاليك حرصا على الاشتراكية ودعوة اليها ، كان شعره ايضا أكثر شعرهم حديثا عنهـا ودعوة اليها ، وكثير من شعره هذا اقترن بحوادثه الاشتراكية ، ففي قصة أصحاب الكنيف السابقة يصور نفسه بالنسبة لهم كالأم الحنون التي لا تبخل على وليـدها بأعز ما تملك ، فيقول من شعره في هذه القصـــة عن أصحاب الكنيف :

(١) ديوان عروة ٨٠ .
(٢) المصدر السابق .

وانى واياهم كذى الآم أرهنت له ماء عينيها تفــدى وتحمل (١)

وامرأته تصده عن المخاطرة بنفسه فى غارات الصعلكة ، فيقول لها : انه يطلب الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لاغاثة المنكوبين الذين تفجؤهم المغارم والديان ، وفى هذا يستعظم عروة أن يرى أحدا منكوبا ويجد نفسه عاجزا عن عونه ويرى الموت خيرا له من هذا العجز فيقول :

دعينى أطوف فى البــــلاد لعلنى أفيد غنى فيـه لذى الحق محمل (٢)
أليس عظيما أن تلم ملمة وليس علينا فى الحقوق معـول (٣)
فان نحن لم نملك دفاعـــا بحادث تلم به الأيام فالموت أجمـــل

ولنا أن نسأل : هل يبدو فى الابيات السابقة أثر قط لفخر أو ما يشبه الفخر ؟ وهل هناك سماحة أو اشــتراكية أبلغ من اشــتراكية شخص يدفع بنفسه الى مخاطر فى مقدمتها الموت ، لا لشىء الا ليتحمـــل عن المنكوبين نكباتهم ؟ لا أظن فى الجواب خفاء ، ويتحدث عروة أيضا عن معنى نبيل آخر هو انه قد يكسب مالا ، ويخيل اليه حينئذ انه سيصبح غنيا ، واذا هو يرى صورا من الفقر والحاجة تدفعه الى نبذ ماله ، ليعود فقيرا ، ومن هذه الصور ، فقير ذو عيال ، يشكو هزال جسمه وحاجة أولاده ، وهو مع ذلك كريم ، ولكن الأيام والحـوادث أصابت كرمه ومكانته ، فيقول مخاطبا امـرأته التى تصر على صده عن المخاطرة بنفسه فى حياة الصعلكة :

أرى أم حسان الغـــداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف (٤)
لعل الذى خوفتنا من أمامنـــا يصادفه فى أهله المتخلف (٥)
اذا قلت قد جاء الغنى حـــال دونه أبو صبية يشكو المفاقر أعجف (٦)
له خلة لا يدخـــل الحق دونهـــا كريم أصابته حوادث تجرف (٧)

وتواصل امرأته كفه عن المخاطرة ، ولكن ايمانه بأن فى الناس من هم فى حاجة الى عونه يزيده اصرارا على معارضتها ، وتنفيذ ما يؤمن به ، فيقول لها ان فى قرابتى نساء قد أرهقهن كدح العيش ، ورجالا ينتظرون عونى ، ولا أستطيع أن أخيب أمل أولئك ولا هؤلاء ، فيقول :

---

(١) اغانى الأصفهانى ٨٥/٣ وانظر ديوانه ٠

(٢) حماسة أبى تمام ٣٠/٢ ، ٣١ وذو الحق يعنى شخصا لزمته ديات ومغارم ومحمل بمعنى حمل أى عون ٠

(٣) يستعظم أن يرى نكبة تلم بأحد ولا يستطيع عونه والحقوق يعنى الديات لانها كانت ابرز مشاكل الاحتياج للعون والمساعدة حينذاك ٠

(٤) حماسة أبى تمام ٣٣٨/٢ والنفس أخوف يعنى الموت العادى أقرب من القتل ٠

(٥) يعنى قد أموت فى بيتى اذا لم أتعرض للأعداء فى غاراتى ٠

(٦) المفاقر الحاجات والأعجف الهزيل ٠

(٧) الخلة الحاجة والحق يعنى القرابة وتجرف تذهب بالمال ٠

ذريني ونفسي أم حسان انني ... بها قبل أن لا أملك البيع مشترى (١)
أبى الخفض من يغشاك من ذى قرابة ... ومن كل سوداء المعاصم تعترى (٢)
ومستهنىء ، زيد أبوه فلا أرى ... له مدفعا ، فاقنى حياءك واصبرى (٣)

ويقول عروة لامرأته أيضا :

سلى الطارق المعتر يا أم مالك ... اذا ما أتانى بين قدرى ومجزرى
أيسفر وجهى انه أول القرى ... وأبذل معروفى له دون منكرى ؟ (٤)

والشنفرى يرسم لنا صورة من صور الاشتراكية فى حياة الصعاليك ، حيث جعلوا زادهم وكل ما يكسبونه من قوت الى واحد منهم ، هو تأبط شرا وكان يعولهم كما تعول الأم أولادها ، ويتحكم فى الانفاق عليهم كما يشاء بما تقتضيه ظروف الرحلة ، فلا ينكرون ولا يناقشون ، مع انهم شركاء له فيقول :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... اذا أطعمتهم أو تحت واقلت (٥)
تخاف علينا العيل ان هى أكثرت ... ونحن جياع أى آل تالت (٦)
وما ان بها ضن بما فى وعائها ... ولكنها من خيفة الجوع أبقت (٧)

ويقول أبو خراش فى رثاء أخيه ورفيقه زهير بن مرة ، متحدثا عن اعتماد جاره عليه حين تصيبه الفاقة :

قتلتم فتى لا يفجر الله عامدا ... ولا يجتويه جاره عام يمحل (٨)

وأما تأبط شرا فانه لا يبقى على مال ، ويجد لوما عنيفا من اللائمين واللائمات ، ولكن هذا اللوم لا يثنيه عن خلقه فى البذل والعون ، ويبلغ به تمسكه بخلقه الاشتراكى ، أن يهددهم بهجرهم الى الأبد ، بحيث لا يعلمون عنه بعد ذلك خبرا ، ولا يجدون له أثرا فيقول :

---

(١) الاصمعيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ وقبل أن لا أملك البيع يعنى قبل الموت ، ومشترى يعنى طالبا مجدا وخيرا .

(٢) الخفض اللين والشطر الثانى كناية عن كثرة العمل باليدين .

(٣) مستهنىء طالب عطاء وزيد أبوه يعنى يجمعنى واياه زيد فى القرابة .

(٤) حماسة أبى تمام ٢٥٨/٢ والمعتر يعنى الفقير الذى لا يسال والمجزر موضع الذبح ويسفر يتهلل .

(٥) المفضليات ١٠٨ وأم عيال يعنى تابط شرا واو تحت أعطت قليلا وكذلك اقلت خوف نفاد الزاد .

(٦) العيل الفقر والحاجة وأى آل تالت ؟ تعجب يعنى اى سياسة ساست تعجبا من حسن سياستها .

(٧) أبقت ادخرت يعنى أن تقتير تابط شرا عليهم ليس بخلا ولكن خوف نفاد الزاد خلال السفر

(٨) معجم ما استعجم للبكرى ٥٣٠/٢ .

بل من لعذالة خذالة أشـــب ... حرق باللوم جلدي اى تحـــراق(١)
يقـــول أهلكت مالا لو قنعت به ... من ثوب صـدق ومن بز وأعلاق
عاذلتى ان بعض اللـــــوم معنفة ... وهل متـــاع وان ابقيتـــــه باق ؟
انى زعيم لئن لم تتركوا عذلى ... ان يسأل الحى عنى أهل آفاق
ان يسأل القوم عنى أهل معرفة ... فلا يخبرهم عن ثابت لاقى
سدد خلالك من مال تجمعـــــه ... حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى

وهكذا نجد تأبط شرا بعد انفاقه ماله ، لا يحس شعورا بالفخر ، ولا رغبة فى المباهاة ، وانما يجد حربا مع لائميه وعذاله من أهله ، ولكن هذه الحـــرب لا تزعزع ايمانه بمسلكه ، بل تزيده اصرارا عليه ٠

وسعد بن ناشب يرد على عاذلته أيضا ، بأنه قد يفتقر ، وقد يغنى ، ولكنـه حين يفتقر يمسك نفسه عن التعرض لعون الناس واحسانهم ، فلا يظهر على حاجته أحدا ، أما حين يغنى ، فغناه شركة بينه وبين الناس ، فيقول :

أن تعذلينى تعذلى بى مرزءا ... كريم نثا الاعسار مشترك اليسر (١)

ويعبر عروة بن الورد عن كراهته للبخل ، وانه لا يقبل قط أن يتصف به ، بل ولا يلم به مهما تكن حاله حتى انه ليعتبر هو والبخل ضــــدان فيقـــول :

وقد علمت سليمى ان رايى ... وراى البخل مختلف شتيت
وانى لا يرينى البخل رأيا ... سواء ان عطشت وان رويت (٣)

ومالك بن حريم ، يعدد صفات أربعـا له ، احـداها انه لا يحجب قدره وطعامه حين يشتد احتياج الناس فى الشتاء الى الطعام ، ولا يرى من الخلق أن يشبعوا هم والناس جياع ، فيقول :

ورابعة ألا أحجل قـــــدرنا ... على لحمها حين الشتاء لنشبعا (٤)

واذن فهذه النزعة لم تكن فردية أو شاذة فى محيط الصعاليك ، وانمـــا كانت عامة فيهم ، وقد عبر المثل العربى القديم « كل صعلوك جواد » عن هذا العموم ، ولم تكن أيضـــا فى حـوادث فردية عرضت فى حيـاة الصعاليك ، وانما كانت نزعـة أصيلة عميقـة فى نفوسهم وأخلاقهم وأوضـــح دليـــل على تأصلها تكلفهم المخاطر والمشقات من أجلها ، كما رأينا فى حوادث عروة بن

---

(١) المفضليات ٣٠ والتاء فى عذالة وخذالة للمبالغة فى عذال وخذال والأشـــب المعترض وثابت اسمه ٠
(٢) حماســة ابى تمام ٢٧١/١ والمرزأ كثير الرزايا تصيبه والنثا الخبر واليسر الغنى ٠
(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٦ ٠
(٤) الاصمعيات ٥٩ ٠

الورد ، وفي جواب مالك بن الريب لسعيد الوالي ، وحيث كانت عامة فيهم ، وأصيلة في نفوسهم ، فهي اذن صفة من صفاتهم ، وخلق من أخلاقهم ، وكما رأينا في مسلكهم ازاء هذه النزعة ، لا نرى انه يكفى التعبير عنها بالجود أو الكرم أو السخاء ، وانما من حق ما تميزوا به في هذا الخلق أن يعبر عنه للفظ يبرر هذا التميز كالاشتراكية ٠

الطبيعــة

احتلت الطبيعة مكانا بارزا في شعر الصعاليك ، والواقع أن الحديث عن الطبيعة ومناظرها أمر متوقع من طائفة كالصعاليك ، يعيشون مع الطبيعة وجهـا لوجـه بحيث تحجبهم عنها حجاب من الحيـاة الصناعية بمبانيها وزروعهـا ومظاهرها المختلفة ، كما يعيش معظم الناس في بيئات من صنعهم هم ، أمـا الصعاليك فبيئتهم الحقيقية التى تناسب صعلكتهم ٠ البيئـة الطبيعية بجبالها وصحراواتها وسحبها وأمطارها ، ورمالها ، وكهوفها ، وما يلازم حيـاة هذه الوحوش والحيوانات من صور حياتها ومعيشتها ، وتآلف بعضها ، وتنافر البعض الآخر ٠

هذه البيئة الطبيعية التى عاش فيها الصعاليك ليزاولوا تصعلكهم وقـد تشبعت نفوسهم بها ، وانفعلت مشاعرهم بأدق تفاصيلها ، ولذلك نجد حديثهم عنها يختلف عن حديث غيرهم من الشعراء ، فهم لا يتحدثون عن هذه البيئـة ومشاهدها حديث المتخيل ، أو حديث المشاهد العابر ، كما يتحدث الشـعراء ، وانما يتحدثون حديث المنفعل المتأثر ، وحديث الخبير المجرب عن تفاصيل لا يتسنى للمشاهد العابر أن يحيط بها ٠

وبيان ذلك أن أى شاعر من غير الصعاليك لا نتصور منه ازاء هذه الطبيعة الا احدى حالتين ، أما أن يكون متخيلا ، مجرد خيال فى حديثه عن هذه البيئـة ومشاهدها ، واما أن يكون صادقا ، ولكن صدقه يتمثل فى مشاهدة أو رؤية عابرة ، كأن يكون فى سفر مثلا فيرى بعض الصور الطبيعية فى أرضها أو سمائها أو يرى بعض وحوشها وحيواناتها ، فيصف ما رآه من هذه المناظـر ، وصـف المشاهد لمناظرمتحركة عابرة أمام عينيه ، أما الصعلوك ، فمناظر هذه البيئة غير متحركة ولا عابرة بالنسبة له ، وانما هى ثابتة ملازمة للبيئة ، وملازمة له هو بحكم معيشته فى هذه البيئة ، وقضائه معظم وقته وحياته فيها ، ولذلك حينما يصفها ، يصف تفاصيل دقيقة لا يتاح للمتخيل ولا للمشـاهد العـابر أن يتأملها ، ومثال ذلك وصف الشنفرى لحياة وحوش الصـحراء وحيـواناتها ومعيشتها ، فقد وصف مثلا فى اللامية ثلاث صور ، عن حياة الذئاب ، وعن حياة النحل ، وعن حياة القطا ، ولو كان شاعرا من غير الصعاليك لما أتيح له الا

منظر هذه الحيوانات ، فيصفها كما رآها بما تتيح له شاعريته فى تصويرها ، ولكن الشنفرى لا يتحدث عن منظرها أو لونها ، أو شكلها ، أو ناحية من نواحى الرؤية العابرة ، وانما يرسم صورة كاملة لجانب من حياة هذه الحيوانات ، ويتتبع جوانب هذه الصورة بتفاصيلها التى لا يتاح الاطلاع عليها الا لشخص مقيم فى هذه البيئة ، خبير بطبائع مخلوقاتها وأساليب هذه المخلوقات فى حياتها ومعيشتها ، وكل ما يتعلق بها •

وأمر آخر يمتاز به شعر الصعاليك عن غيرهم فيما يتعلق بالبيئة ، وهو أنهم لا يتحدثون عن مشاهد البيئة ومخلوقاتها لذاتها ، كما يشيع فى وصف الشعراء لهذه النواحى ، مما يشعر دائما بأنه وصف مقصود لذاته ، فقد يصف الشاعر مثلا السحاب والمطر وأثرهما ، فيجعلهما موضوعا وغرضا مقصودا لذاته ، وقد يستوعب ذلك قصيدة كاملة ، أو ما يمكن أن يكون قصيدة مستقلة ثم لا نشعر بأثر للشاعر نفسه فى هذا الوصف ، لأنه كالمشاهد المنفرج ، الذى يصف ما يعرض أمامه ، أو ما يمر فى خياله ، دون أن يكون له هو دخل فى الموضوع الا مجرد الوصف ، ونقل الصورة الى غيره ، أما منهج الصعاليك فغير ذلك ، انهم دائما جزء أساسى من الصورة نفسها ، بحيث تقرأ وصف الصعلوك لهذه المشاهدة ، فتراه هو جزءا من الموضوع ، وفى مكان بارز من الصورة • لأنه لم يكن فى موضع المشاهد المتفرج كغيره من الشعراء ، وانما كان هو نفسه جزءا من البيئة ، ومنظرا من مناظرها الثابتة الملازمة ، أو كالثابتة الملازمة • فهو يصف المنظر على أساس أنه هو جزء منه ، وعلى أساس مراعاة مدى ارتباط الأجزاء الاخرى به هو • فالشنفرى مثلا حينما يتحدث عن الذئاب فى اللامية لا يصفها لذاتها ، وانما لأنه هو وهى شريكان وشبيهان فى حياتهما فى الصحراء وفى بحثهما عن الطعام ، وفى نواحى أخرى ، وحينما يتحدث عن سرب القطا • لا يتحدث عنه لذاته ، وانما يتحدث عنه لأنه يستدل به على وجود الماء الذى هو فى حاجة اليه ولأنه شريك وشبيه به فى السعى الى الماء ، بل ومنافس له فى الحصول على بقع الماء اليسير الذى تخلفه السيول والأمطار فى الصحراء •

وحينما يتحدث الأعلم الهذلى عن الضباع مثلا ، فيصف ضخامة أجسامها وضخامة آذانها التى تشبه معارف الطعام ، وسواد جلودها الذى يشبه ثياب الرهبان ، لا يتحدث عنها كمنظر طريف أو غريب رآه ، وانما يتحدث عنها على أساس أنها احدى جيرانه وشركائه فى البيئة ، ولكنها جار رهيب ، ولذلك يركز حديثه عنها على أنه يتوقع أن تسطو على جثمانه يوما فتنتزع جلده عنه • كما ينزع الحداد الغشاء عن غمد السيف ، ليلبسه غشاء آخر ، فهو لا يعنيه حديث الضباع لذاتها • وانما يعنيه احتكاكه بها ، وتأثره بحياتها فى جواره (١) •

(١) أنظر ديوان الهذليين ٢/٧٩ – ٨١ وأول الابيات « فاكون صيدهم بها •• الخ •

وعمرو بن براقة مثلا حينما يصف فترة معينة من ليل الصحراء ، بأن الظلام قد خيم على كل شيء فلم يبد فيه الا تألق النجوم ، وبأن السكون قد عم كل شيء فلم يقطعه الا صياح بومات من الجبال القريبة ، وبأن النوم قد أغرق كل ساكني هذه البقعة ، هذا المنظر لا يصفه عمرو بن براقة لذاته ، ولا لأنه فترة شاعرية ، ولا لشيء الا أنه الوقت المفضل لديه للانقضاض على أعدائه وضحاياه (١) .

والشنفرى حين يصف فى اللامية ليلة نحس شديدة البرد ، ذات مطر ووحل ، لا يصفها لذاتها ، ولا وصف المشاهد المتفرج . وانما يصفها لأنها أثرت فيه حتى أرعشت جسده ، وحتى اضطرته شدة بردها الى تحطيم قوسه ليوقدها ويستدفيء بها . وحتى اضطره جوعه مع بردها ومطرها ووحلها الى مواصلة المشى والسرى طلبا للطعام والانتقام من أعدائه . وكذلك حين وصف الحر الشديد فى الصحراء ، هذا الحر الذى ملأ الفضاء خيوطا تشبه خيوط العنكبوت ، والذى بلغ من قسوته أن الأفاعى ضاقت بها حجورها ، وهذه الصورة لم يتحدث عنها الشنفرى لذاتها ، وانما لأنه عانى من هذا الحر ما عانته الأفاعى التى واجهت حرارة الجو ، ونار الرمال بجلودها ، فواجه هو أيضا كل هذا وليس على جسده الا ثوب ممزق لا يحميه من لذع هذا الحر ، ونعل ممزقة أيضا لا تحمى قدميه من الرمضاء (٢) .

وكذلك حين يصف ابو خراش ليلة دجن شبيهة بليلة النحس فى لامية الشنفرى ، لا يصفها لذاتها ، وانما لأنه جزء من صورتها ، وقد عانى عواملها وتأثيرها ، حيث اضطر الى السرى فيها (٣) .

وصخر الغى حين يصف الوعل وسيره فى الرمال ، وتباهيه بقرون كأشراف الرواجب ، ثم ايثاره مبيت العزلة والانفراد ، ثم روعه ورهبته من صوت الغراب ، وحياته في بيئته ، معنيا من ذلك كله بما يتعلق به هو ، وبترصده لصيد هذا الوعل (٤) .

وتأبط شرا يصف طريقا ملتويا فى الجبل ، يشبه فى تلويه خياطة الثوب ويصف ما يحيط بجانبيه من بقع الماء الصغيرة ، والغدران الكبيرة ، حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها ، ودرجة انخفاض الحفر ، بما تحمل من مياه خلفتها سيول جارفة ، لخريرها من المرتفعات ، واصطدام مياهها بالصخور فى قرقرة ذات صوت رتيب ، ولكن تأبط شرا لا يعنيه هذا المنظر الطبيعى لذاته ، وانما يعنيه وضعه وتأثره هو بهذا المنظر ، من حيث قدرته على اجتياز وعورة هذا الشعب .

---

(١) انظر أمالى القالى ١١٩/٢ اذا الليل أدجى .. وما بعده .
(٢) انظر اللامية (سبق نصها مشروحا) وكذلك الصور السابقة عن الذئاب والنحل والقطا
(٣) انظر ديوان الهذليين ٣٠/٢ .١
(٤) المصدر السابق ٥١/٢ ـ ٥٤ .

ومعرفته لثناياه والتواءاته معرفة دقيقة لا يحتاج معها الى دليل ، ولا الى خابر يثبت له نعته (١) ٠

وعبدة بن الطبيب يصف منظر طلوع الشمس ، فى انفتاق قونها ، وما يزال يخالط الفضاء رداء من سواد الليل ، تتردد أصوات الديكة تبشر بالصباح ، ولكن عبدة أيضا لا يعنى بمنظر طلوع الشمس وما يحيط به لذاتها ، وأنمـــا لأنه وقت حركته ، وسعيه الى بغيته من التجار (٢) ٠

وليس معنى ربط صور الطبيعة بأشخاصهم ضعف التركيز فى وصفها أو ابراز جوانبها بل على العكس ، كان لاحتكاكهم الدائم والمباشر بصور الطبيعة ومناظرها وملازمتهم اياها قوة فى الوصف والتصوير واستكمال دقائق الصورة التى أشرنا اليها ، والتى سبق ذكر الشعر الخاص ببعضها وخاصة فى حديث الأماكن والوحوش ، تبلغ درجة من الروعة فى التصوير بالغة ٠ حتى ليخيـــل للدارس المتأمل لها ، أنه أمام لوحة فنية رائعة التجسيد ، ومن روائع هـــذه اللوحات الفنية للطبيعة احدى قصائد صـــــخر الغى الهذلى (٣) عن البرق والسحاب والمطر ، وما يحيط بهذه العوامل ، حيث يشبه تراكم قطع السحاب الضخمة بالسفن الكبيرة المليئة بسلع بيعت جزافا بغير كيل لكثرتها ، ويشبه السير البطىء لهذه الكتل الضخمة من السحاب بتهادى السفن بعضها فى اثـر بعض ، وبمشى المقيد القدمين الذى يرسف فى سلاسله ، وبأن هذه السحب حين أشرفت على بعض المواضع ، كأنها أحست شجنا فسالت منها دموع فياضة فى صورة مطر ، وظل هذا المطر يهطل بغزارة ، فلو نظرت الى جبل ذى السطاع بعد هذا المطر الذى غسل صخوره السمراء لحسبته جملا قد نتفه الجرب فلم يبق فى جلده شعره ، فطلاه صاحبه بالقطران ، ويشـــبه سير السحاب بتـشبيهات أخرى ، ثم يصف أثر الأمطار الغزيرة ، بأن ما بين وادى القصور ويلملم أصبح كأنه حوض ماء ، ويتابع سخر تصوير هذا المنظر بما فيه من برق ورعد ، حتى يبلغ منه ما يريد ، ولكننا نجد أنه هو ليس بمنأى عن هذا المشهد ولا معزل ٠ ولا يكتفى بأن يكون فى موضع المشاهد المتفرج وحسب ، وانما يبين ارتبـــاطه بهذه العوامل من الطبيعة ، وموضعه من المشهد مبينا أن مثل هذا المشهد الرهيب هو بيئته التى يدير منها الحرب والغارة على أعدائه ، بالاضافة الى آثار أخرى من هذا المشهد فى حياته ، منها أن هذه المياه كلها تصبح فاذا هى بقع وغدران تغدو من

---

(١) أنظر الأصمعيات ١٣٥ وأول الأبيات « وشعب كشل الثوب ٠٠ الخ » ٠

(٢) أنظر المفضليات ١٤٣ وأولها « وقد غدوت وقرن الشمس ٠٠ الخ » ٠

(٣) يعتبر شعر صعاليك هذيل وخاصة العدائين منهم وهم أبو خراش وصخر الغى والأعلم يعتبر شعرهم كله فى جملته نموذجا رائعا لا جمل ما وصفت به الطبيعة من شعر ، ويكاد شعرهم يستقصى كل مشاهد البيئة ومخلوقاتها فى تصويره ٠ أنظر ديوان الهذليين ٠

حولها الأوابد التى يترصـــدها صائدا لها ، أو يسعى الى هذه الغدران ليملأ قربته منها (١) ٠

وكذلك يصور أبو خراش حياة حمر الوحش ، فى صورة رائعة فى تفاصيل هذه الحياة وحركاتها ، وألوان الحمر ، راسما خلال ذلك صورة جميلة ، ليـوم شديد الحر ، ومنظرا لغروب الشمس وشعاعها الذى يشبه قطيفة ذات خمائل ، ولكننا نجد أبا خراش نفسه صلب الصورة وأوضح جزء فيها ، لأنه يصور المشهد فى سياق تربصه بحمر الوحش ليصيد واحدا منها ، واصفا ما حـدث خلال ذلك من منظرها ، وفزعها حين أحست به الى آخر صورته (٢) ٠

واذن فالظاهرة المميزة دائما لشعر الصعاليك فى الطبيعة عن شعر غيرهم هى أن الصعاليك يجعلون أشخاصهم دائما جزءا أساسيا فى المشهد ، بـل كثيرا ما يكون شخص الصعلوك أهم جزء من المشهد ، بخلاف شـعر غير الصعاليك ، حيث نجد الشاعر مجرد مشاهد أو ملاحظ من خارج المشهد ، ولعل هذه الميزة فى شعر الصعاليك هى التى أشار اليها كارل بروكلمان فى سياق حديثه عن لامية الشنفرى ، ونفيه نسبتها الى خلف الأحمر (٣) حيث يقول « أما أبو على القالى فقد صرح فى الأمالى بأن اللامية من صـنع خلف الأحمر ، ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافى وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصـوير الانسـان نفسه وأعماله (٤) » ولكن هذا المذهب الشعرى الذى أشار اليه كارل ليس مذهب الشنفرى وحـده ، ولا اللامية وحـدها ، وانما هو مذهب الصعاليك الجاهليين جميعا كما مثلنا لمعظمهم فى مشاهد مختلفة عن طلوع الشمس وعن غروبها ، وعن الليل ، وعن الحـر ، وعن البرد ، وعن الجبـال وطرقها وعن الأرض ، وطبيعتها ، وعن السحاب والأمطار ، وعن الوحوش والحيوانات وحياتها ، وغير ذلك ٠

والواقع أن هذا المذهب ليس للجاهليين من الصعاليك وحـدهم ، ولا هو فى شعر الطبيعة وحده ، وانما هو مذهب الصعاليك جميعا ، وفى شعرهم جميعه أيضا ، وان كان الجاهليون فى بعض موضوعاته كشعر الطبيعة أوضح

---

(١) أنظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ – ٧٧ وأولها « لشماء بعد شتات النوى ٠٠ الخ » ٠

(٢) المصدر السابق ١١٧/٢ – ١٢٣ وأولها « أرى الدهر لا يبقى ٠٠ الخ » ٠

(٣) ناقشنا هذا الموضوع فى موضع خاص باللامية خلال الحديث عن الاختلاف فى شـعر الصعاليك ٠

(٤) أنظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ترجمة النجار ١٠٥/١ ٠

فى هذا المذهب من صعاليك الاسلام ، بسبب عاملين ، غلبا على صعاليك الجاهلية، هما سرعة العدو ، وشدة الفقر الى درجة الجوع المضنى كما أشرنا الى ذلك سابقا . هذان العاملان جعلا صعاليك الجاهلية ألزم للصحراء ، وأكثر اقامة وتوغلا فيها ، فأتيح لهم الاحتكاك المباشر الطويل بكل مشاهد البيئة ومخلوقاتها، بل أصبحوا كما قلنا كأنهم جزء ثابت من البيئة ، وكأنهم نوع ملازم من أنواع مخلوقات هذه البيئة ، مما جعلهم يتفوقون على صعاليك الاسلام فى بعض موضوعات شعرهم وفى مقدمتها شعر الطبيعة ٠

ولكن هذا التفوق لا يقصر هذا المذهب عليهم ، وانما هو مجرد تفضيل أو زيادة بمقدار ما يعنيه لفظ التفوق ، وفى بعض الموضوعات فقط كما أشرنا فيما سبق ، وأهمها ما يتعلق بالأماكن والبيئة بصفة عامة ٠

ومع ذلك فشعر الصعاليك كله جاهليه واسلاميه ، يتسم بهذا المذهب ، ويعتبر هذا النهج من المميزات الأساسية التى تميزه عن غيره من الشعر ، بحيث نجد شعرهم دائما مرتبطا بأشخاصهم ، لا يتحدثون عن موضوع ، ولا يعرضون لمعنى الا وأشخاصهم جزء أساسى من الموضوع ، ان لم تكن محورا له ، وهذا ما سميناه فيما سبق من الموضوعات بالصراع ، حيث رأينا كيف أنهم تناولوا كل ما تناولوه من الموضوعات السابقة - باستثناء بعض الشعر الاجتماعى - لا من زاوية المشاهدة والملاحظة كما يغلب على شعر غيرهم ، بل من زاوية الاحتكاك والصراع ، وحتى الشعر الاجتماعى ، تناولوا معظمه من هذه الزاوية أيضا ، والاحتكاك والصراع جوهر هذا المذهب كما هو واضح ٠ ونعود الى حديث شعرهم عن الطبيعة ممثلة فى البيئة ومشاهدها ومخلوقاتها ، فنقول : انهم لم يكادوا يتركون شيئا من ذلك كله الا وتحدثوا عنه ، فبالاضافة الى الصور السابقة يحدثنا مثلا شعر الشنفرى عن الرياحين (١) وعبدة بن الطبيب عن المطر ، وعن الأوابد (٢) ومالك بن حريم عن البقر الوحشى وعن القطا ، وعن أماكن الماء فى الجبال (٣) ومالك بن الريب عن القطا وعن الرياح ، وعن الذئب وعن الظباء ، وعن النجوم ، وعن البيئة وبقرها الوحشى (٤) وصخر الغى عن الطيور الجوارح وقلوب الطير من ضحاياها حول أوكارها ، وعن الأوابد ، وعن النعام وحياتهما وخصائصهما ، وعن حمر الوحش وصراعه معها فى صيدها ، وعن الحمامة وحواره معها (٥) ، والأعلم الهذلى عن السحاب وحمر الوحش ، وعن النعامة ، وعن الضباع والذئاب والثعالب ، مكررا حديثه عن الضباع ،

---

(١) أنظر المفضليات ١١٠ ٠
(٢) أنظر المفضليات ١٤٢ ٠
(٣) أنظر الاصمعيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ٠
(٤) أنظر مرثيته وانظر مهذب الأغانى ٥/١٠ - ١٩ ٠
(٥) انظر ديوان الهذليين ٢/٥٢ - ٧٦ ٠

وعن حمر الوحش بصفة خاصـــة (١) ، وأبو خراش الهذلى عن حمر الوحش وصيدها ، وعن الصفر وحياته ، وعن غروب الشـــمس ، وعن الجراد ، وعن العقاب ، وعن النعامة ، وعن الحمام (٢) وتوبة بن الحمير عن الحمامة وتشبيه حاله بهـــا (٣) وتأبط شرا عن الليل وتداخل الصبح فيـــه وتمزيق جلباب الليل (٤) وعمرو بن براقة عن الليل وسكونه (٥) وجحدر بن معـــاوية عن البرق وعن حمامتين يشبه نواحهما نواحه (٦) وهكذا عن كـــل ما تحوى البيئة من مشاهد ومخلوقات ، وليس شعرهم بالطبع فى هذا درجة واحدة من الجودة أو دقة التصوير ، ولا أيضا من الاهتمام بتصوير ما يتعرض له من هذه المشاهد والمخلوقات ٠

وتبدو روعة شعر الصعاليك عن البيئة ومشاهدها حينما يصور المنظر كاملا ، وحينما لا يكون حديثه عارضا ، كما يقضى السياق بذلك أحيانا ، فحين يصور المنظر كاملا يتجلى طابع الصعاليك الذى أشرنا اليه آنفا ، والذى يتمثل فى أمرين ، أحدهما دقة الملاحظة الى حد بعيد ، بحيث يصف أحدهم مشـــاهد لا يعن لأحد أن تكون موضع ملاحظة أو حديث ، كما يصف الشنفرى جماعة من النحل ، عادت الى خلاياها فوجدت أن أحد جامعى العسل قد عدا على الخلايا فحطمها ليجمع عسلها « فاعترى النحل دهش شديد جعلها تفتح أفواهها كأن هذه الأفواه شقوق العصى ، وبدا على النحل الوجوم والكآبة الشديدان ، ثم صببن حزنهن ووجومهن فى مأتم صاخب أقمنه على خلاياهن المهدمة ، يقودهن فى هذا المأتم الخشرم (٧) فأصبح الخشرم وجماعته من النحل فى مأتمهن كأنهن نساء نوح ثكل ، وظللن فى ضجيجهن ومأتمهن ، ثم بدأن يحسسن بأن هذا المأتم لن يجدى عليهن شيئا ، وانه لا مفر لهن من التعزى ومعاودة الحياة والبناء من جديد ، فيقول :

أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محابيض أرداهن سام معسل
مهرتة فـــوه كأن شـــدوقها ... شـقوق العصى كالحات وبســـل
فضـــج وضجت بالبراح كأنهـــا ... وإيـاه نوح فـوق علياء ثكـــل
واغضى وأغضت واتسى واتست به ... أرامـل عزاها وعزته مرمـــل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ... وللصبر ان لم ينفع الشكو أجمل
وفـاء وفـاءت بادرات وكلهـــا ... على نكظ ممـــا يكاتم مجمل (٨)

---

(١) أنظر ديوان الهذليين ٢/٧٨ ـ ٨٣ ٠
(٢) المصدر السابق ٢/١١٧ ـ ١٤٥ ٠
(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ ٠
(٤) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى ٠
(٥) أمالى القالى ٢/١١٩ ٠
(٦) انظر أمالى القالى ١/٢٧٧ ، ٢٧٨ ٠
(٧) الخشرم ملك النحل ورئيس جماعته وهو المعروف الآن بملكة النحل ٠
(٨) من اللامية : سبق نصها مشروحة ٠ ونوح وثكل جمع نائحة وثكلى ٠

فدقة الملاحظة التى تبلغ درجة مراقبة حركات النحل ، ووصف أفواهها وما يعتريها من آثار وانفعالات ، ثم متابعة موقف كامل من ظروف النحل وحياته حتى يبلغ الشاعر بمراقبته وملاحظته نهايته ، هذه الدقة لا تتاح للمشاهد العابر ، وانما تتاح لشخص ملازم للبيئة ، خبير بها وبحياةمخلوقاتها فيها كالصعاليك ٠

ومن ذلك هذه الدقة البالغة فى الملاحظة التى يرسمها أبو خراش لصورة من صور حياة حمر الوحش ، تتمثل هذه الصورة فى قطيع من حمر الوحش اشتد به العطش فى يوم شديد الحر ، فيصفه أبو خراش فى أبيات طويلة (١) متتبعا حركاته منذ خروجه باحثا عن الماء ثم وقوفه على مرتفع متطلعا باحثا عن الماء ، ثم سعى القطيع الى الماء ، فيصف أبو خراش غريزة الحذر فى القطيع ، وكيف أنه يسعى مرهفا آذانه لما يبدو حوله من حركات حذر أن يكون فى طريقه صائد ، ويصف طريقة مشيه ، وصلابة أرجله ، وشدة وقعها على الأرض الغليظة ، ثم يصف كيف يفتح الحمار رجليه الأماميتين ، ليجتاز فيما يشبه القفز نباتا كثيفا فى أرض موحلة بها بقية ماء آجن فيقول من وصفه :

فلما دنت بعد استماع رهفنه بنقب الحجاب وقعهن رجيل (٢)
يفجين بالأيدى على ظهر آجن له عرمض مستأسد ونجيل (٣)

وهذه الدقة فى ملاحظة طبيعة حمر الوحش وحذرها ، وتسمعها الشديد لما يحسسنه حولهن من حركات ، ثم طريقة مشيهن فى اجتياز هذا النبات الصلب فى الأرض الموحلة المبللة ، هذه الحركات لا يتاح وصفها للمشاهد العابر ، وانما لملازم البيئة الخبير بها وبطبيعة مخلوقاتها وحياة هذه المخلوقات، ولا تتاح هذه الملازمة الا لمثل الصعلوك ٠

ودقة الملاحظة ، هذه التى أتاحتها لهم ملازمة البيئة ، والخبرة المباشرة بخصائصها ، وخصائص مخلوقاتها ، هى احدى جانبى الطابع المميز لشعر الصعاليك نحو البيئة ، والجانب الثانى هو ما قلنا من أن شعر الصعاليك يتميز دائما ببروز شخصياتهم فى صوره ومشاهده ، وهو ما سميناه بالصراع ، لأنهم كما بينا فى أكثر من موضع ، لا يبدو أنهم يقولون الشعر لذاته كما يبدو فى شعر الشعراء ، وانما يقولونه كالتعبير عن صراعهم فى كل وجه من وجوه حياتهم من حيث احساسهم بهذا الصراع ، وتأثرهم به ، وهو فارق أساسى

---

(١) نحو اثنى عشر بيتا ، انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ ـ ١٢١ وأولها « أرى الدهر لا يبقى ٠٠ الخ » وفيها ترصده هو وزميل له للصيد من هذا القطيع ٠

(٢) بعد استماع رهفنه يعنى بعد استماع أرهفن فيه آذانهن والنقب الطريق والحجاب المرتفع ووقعهن أى وقع أرجلهن ورجيل قوى شديد ٠

(٣) يفجين يفتحن أيديهن والآجن الماء الراكد والعرمض نبات صلب ومستأسد قوى والنجيل نوع من الحشائش يعنى يفتحن ما بين أيديهن لاجتياز هذا النبات الصلب فى الأرض الموحلة ٠

بين شعرهم عامة وشعر غيرهم ، وان كانت بعض الموضوعات أكثر ابرازا لهـذا الفارق كشعر الطبيعة ٠

ولذلك نجد كما قلنا أشخاصهم دائما فى الصورة ، فحين يقول الشنفرى مثلا واصفا ليلة شديدة البرودة :

وليلة نحس يصطلى القوس ربهـا   واقطعه اللائى بهـا يتنبـل

نجده هو بارز الموضع فى الصورة فيقول عقب ذلك :

دعست على غطش وبغش وصحبتى   سعار وارزيز ووجر وأفكـل (١)

وحين يقول واصفا الحر الشديد :

ويوم من الشـعرى يذوب لوابه   افاعيـه فى رمضـائه تتملـل

نجده هو بارز الموضع فى الصورة أيضا فيقول عقبه :

نصبت لـه وجهى ولاكن دونه   ولا ستر الا الأتحمى المرعبـل (٢)

وحين يقول أبو خراش واصفا أيضا ليلة باردة مظلمة ممطرة :

وليلة دجن من جمادى سريتهـا   اذا ما استهلت وهى ساجية تهمى (٣)

يبرز موضعه من الصورة بقوله « سريتها »

وحين يصف أبو خراش حمر الوحش السابقة ، يبرز موضعه من صورتها أيضا بأنه كان مترصدا لها بغية الصيد منها بقوله عن موضعه من هذه الحمر :

منيبا وقد أمسى تقـدم وردهـا   اقيدر محموز القطاع نذيل (٤)

وحين يصف تأبط شرا واديا واسعا ضخما يشبه فى نواحى منه جوف العير ، ويتردد فيه عواء الذئاب ، يبين موضعه من الصورة أيضا فيقول :

وواد كجوف العير قفـر قطعته   به الذئب يعـوى كالخليع المعيل

فقوله « قطعته » هو موضعه البارز من الصورة ٠

وهكذا حين نتتبع شعر الصعاليك عامة ، وكثيرا من أغراضـه خاصة كشعر الطبيعة ، نجد أنه لابد أن يكون للصعلوك فيه أثر يدل على شخصه ، وموضعه من الصـورة فقول الشنفرى « دعست » وقوله « نصبت له وجهى »

---

(١) البيتان من اللامية : سبق نصها مشروحا ٠

(٢) البيتان من اللامية أيضا ٠

(٣) أنظر ديوان الهذليين ١٣٠/٢ ٠

(٤) ديوان الهذليين ١٢٠/٢ ومنيبا راجعا والورد مكان ورود الماء والاقيدر قصـير العنق والمحموز شديد الفؤاد والقطاع السهام يريد حاد السهام والنذيل الرث الهيئة المتقشف ٠

وقول أبي خراش « سريتها » وقوله « تقدم وردها أقيدر » وقول تأبط شرا « قطعته » في الأبيات السابقة أمثلة للأثر الذي يدل دائما على أشخاص الصعاليك في شعرهم ، ويجعلهم دائما جزءا مما يعرضون للحديث عنه ، وليسوا مجرد مشاهدين أو متفرجين من خارج الصورة ، كما يغلب على شعر غيرهم .

الخصائص العامة

ونعني بعموم الخصائص ، تلك السمات التي يتفق فيها شعر الصعاليك، سواء كان من شعر الجاهليين منهم ، أو المخضرمين ، أولا الاسلاميين ، لأننا سنتحدث بعد ذلك عن بعض سمات ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، وأخرى ينفرد بها شعر الاسلاميين منهم ، وحينذاك نؤثر عدم افراد شعر المخضرمين بقسم خاص في خصائصه لسببين ، أحدهما أننا نحس أن شعر المخضرمين الذي قالوه في الاسلام كان يحمل روحهم الخاصة بهم ، أعني روح الصعاليك، نتيجة لانطباع نفوسهم بحياتها ومشاعرها الخاصة ، وأوضح دليل على ذلك أنه حتى الشعر الذي قالوه في التوبة عن الصعلكة لم يخل من هذه الروح(١)، فكان الأنسب الحاق هذا الشعر ، بالشعر الجاهلي لهم ، الا ما كان أثرا مباشرا من آثار الاسلام كصراع الولاة والسجن ، فقد ألحقناه بالشعر الاسلامي لهم ، والسبب الثاني عدم وضوح الروايات ، بكونها لم تحدد الشعر الذي قالوه في الاسلام ، من الذي قالوه في الجاهلية ، ولذلك كان جل الاعتماد في هذه النقطة على موضوع الشعر نفسه وملابساته .

ونعني بالخصائص السمات العامة التي يتسم بها شعر الصعاليك في جملته ، والتي يتميز بها عن غيره من الشعر ، ومن الواضح في هذا أن المقارنة ليست بين شاعرين ، أو قصيدتين ، حتى نتوقع شمول المقارنة واستقصاءها لكل المواضيع والنواحي ، ولكننا نقارن بين شعر طائفة مهما اتفقت في البيئة والنزعة والظروف ، فلا تخلو من بعض ما يقتضيه اختلاف العصور والظروف المحيطة بكل شاعر ، ولكن هذا الاختلاف ، أو مخالفة الحكم العام الذي نطلقه على شعرهم ، لا يؤثر على الحكم ، ما دام في نطاق الندرة أو القلة أو الشذوذ ، بمعنى أننا حين نطلق حكما على شعر الصعاليك ، ثم نجد مقطوعة أو قصيدة أو شعر شاعر منهم يخالف هذا الحكم ، فلن نعد هذا غريبا أو نقضا للحكم ، فمن المعروف أن لكل قاعدة شذوذها الذي لا يؤثر في سلامتها .

فلنتحدث عن أهم ما نراه مميزا لشعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم

(١) أنظر فيما سبق فصل صراع السلطة التشريعية .

١ ـ تميز روح الشعر

ان أيسر ما يجده الباحث فى شعر الصعاليك ، وأبرزه أيضا ، أن شعرهم عامة متميز عن غيره من الشعر تميزا واضحا ، لا يحتاج الى عناء كبير فى تبينه ، ولا الى عمق نقد فى الاحساس به ٠

وهذا التميز الذى يتسم به شعر الصعاليك لا ينحصر فى موضوعات ، ولا فى أغراض ، ولا يتمثل فى أساليب ومعان ، ولا فى منهج واتجاه ،فحسب، تتمثل أحيانا فى ناحية من تلك النواحى ، تتمثل أحيانا فى اختياره أغراضـــا تتمثل أحيانا فى ناحية من تلك النواحى ، تتمثل أحيانا فى اختياره أغراضا لا يطرقها غيره ، أولا تشيع فى غيره ، وتتمثل أحيانا فى منهج واتجاه لا يظهر فى غيره من الشعر ، وتتمثل أحيانا فى نواح أخرى يتميز بهـــا ، ولكن ذلك كله يكون تميزه فى أغلب الأحيان نابعا من تميز الروح التى تسرى فيه ، ولكننا لا نستطيع ان نحدد هذه الروح لأننا لا نستطيع أن نحس بها ، وان كنا ندركها ونشعر بها ٠

وعلاقة الشعر بالروح ليست غريبة ، بل يمكن اعتبار الشعر أوثق الانتاج البشرى صلة بالروح ، أو بهذا الشىء الخفى الذى اتفقت العصور على ربط الشعر به ، فقد أحس الناس بصلة خفية بين الشعر ، وبين شىء خفى فى الشاعر أو فى النفس ، وكانهذا الاحساس منذ القديم ، بل منذ قالوا الشعر وعرفوه، ثماختلفوا فى تصويره ، وفى التعبير عنه ، فسموه أحيانا الهاما ، ثم اختلفوا أيضا فى مصدر هذا الالهام ، فعزاه بعضهم الى الآلهة ، كما فعل نقاد اليونان الأقدمين ، وعلى رأسهم افلاطون وتلاميذه (١) ، وجعل بعضهم مصدره العبقرية والموهبة ، كبعض كتاب الرومانتيكية ومن تابعهم من كتاب عصر النهضـــة (٢) وجعل البعض الآخر مصدره الروح ومجاهل خفية مستسرة فى النفوس البشرية (٣) ، وسمى بعضهم هذا الشىء الخفى ، أو الصلة بين الشعر وهذا الشىء الخفى بالشيطان ، كما فعل شعراء العرب الأقدمين ، حيث صور كل منهم لنفسه شيطانا يوحى اليه الشعر كما يقول حسان بن ثابت :

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقـــول وطورا هوه (٤)

---

(١) أنظر النقد الأدبى الحديث الدكتور محمد غنيمى هلال ٣٧٢ ، ٣٧٣ ٠

(٢) المصدر السابق ٣٧٥ ٠

(٣) أنظر المصدر السابق وايضا كتاب فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ١٠٥ ـ ١١٦ ٠

(٤) الحيوان للجاحظ ٢٣١/٦ ٠

ومهما اختلف تصويرهم أو تعبيرهم عن هذا الشيء الخفي ، أو عن الصلة بين الشعر وهذا الشيء ، فان هناك اتفاقا بين كل العصور والامم على أن هناك رابطة ما بين الشعر والنفس أو الروح أو هذا الشيء الخفي ، وعلى أن هـذه الرابطة ليست كرابطة الانتاج العقلي البحت ، وقد يختلفون أيضا في تصوير هذه الرابطة والتعبير عنها ، ولكنهم لا يختلفون على مبدئها وجوهرها وقد عبر نقاد العـرب القدامى عن جانب من ذلك بقولهم « وانما سمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر بمـا لا يشعر به غيره » (١) ٠

واذن فالشعر يرتبط ارتباطا مباشرا بروح الشاعر ومشاعره ، وبالتالي تنعكس هذه الروح ، وتلك المشاعر في شعره ، ومما سبق كله علمنا أنه كانت للصعاليك روح خاصة في مقوماتها الذاتية ، ومشاعر خاصة نحو أنفسهم ونحو الناس ، ونحو الحياة نفسها ، كما كانت لهم حياتهم ومعيشتهم وأساليبهم الخاصة التي أثرت في نفوسـهم ومشاعرهم ، ومن البدهي في الاستنتاج أنه ما دام الشعر مرتبطا بالروح والمشاعر ارتباط الانعكاس والتأثير ، وما دامت للصعاليك روحهم ومشاعرهم الخاصة ، فينبغي أن يكون شعرهم ذا طابع خاص نتيجة لذلك ٠

وكما قلنا لا نعني من هـذا الحديث الآن أن نفرق بين شـعر الصعاليك وغيره من حيث الموضوعات والأغراض ، أو من حيث النواحي المحسوسة في الشعر ، وانما نعني الروح التي تسري في الشعر فيصطبغ بها ، ومن الواضح أنه يمكن التفريق بين شعر وآخر بمجرد اختلاف صبغة هذه الروح ، كما يمكن التفريق مثلا بين روح شعر الرثاء وروح شعر الفخر أو المدح ، وان كان التفريق أو النقد لمجرد الروح ، دون تمثل هذه الروح في مواضع محسوسة ، من الدقة بمكان في أغلب الأحيان ٠

وقد أحس نقاد العرب بهذا الفارق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، فنراهم قد اعتمدوا في بعض المواضع في التفريق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، لمجرد احساسهم بروح الصعلكة في الشعر ، سواء تمثلت هذه الروح في موضع محسوس من الموضوعات التي طرقها الصعاليك وغلبت عليهم دون غيرهم ، أم لم تتمثل ، فنجد البغدادي مثلا يخرج أربعة أبيات من معلقة أمرىء القيس اللامية وهي :

وقربة اقـوام جعلت عصـامها ... على كاهـل مني ذلول مـرحل
وواد كجوف العير قفر قطعتـه ... به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى ان شـاننا ... قليل الغنى ان كنت لما تمـول

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/١١٦ وخزانة البغدادي ١/١٨٤ (الشاهد ٣٨) ولفظ الخزانة « ٠٠ لأنه يشعر لمالا يشعر له غيره » ٠

كلانا اذا ما نال شيئـــا افاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (١)

وقد أيد البغدادى نفى هـذه الأبيـات عن امرىء القيس ونسبتها الى تابط شرا ، مكتفيا فى تعقيبه على نسبتها لتأبط شرا بقوله « وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك ، لا بكلام الملوك (٢) » فحكم بنسبتها الى تأبط شرا لمجرد احساسه بأن دلالتها وروحها توحى بأنها شعر صعلوك •

ومما يجعل هذا التمييز بين شعر الصعاليك وغيره واضحا ، أن شـعر الصعاليك فى جملته لا يعدو تصوير حياة الصعاليك ونفسياتهـم ، وحيـاة الصعاليك بطبعها متميزة كل التميز عن الحياة العادية للناس ، وكذلك نفسياتهم متميزة أيضا نتيجة لتكوينها الخاص ، ولانعكاس حياتهم عليها ، وقد رأينا فيما سبق أن موضوعات شعرهم لا تكاد تخرج عن هذين الحدين ، تصوير حياتهم ونفسياتهم ، وأن شعرهم كان وسيلتهم الى تصوير هذين الجانبين •

وبعد هذا الحديث عن الطابع العام الذى يتسم به شعر الصعاليك ، والذى يمكن اعتباره لدى الناقد الدقيق الحس من أهم الفواصـل التى تميز شـعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم ، بعد ذلك نستعرض أهم الخصائص الموضوعية والفنية التى نراها بعد دراستنا لشعرهم مميزة له عن غيره •

ومن الواضح أن الخصائص والمزايا التى يحملها أى شعر ، ليست حواجز حسية غير قابلة للرأى والاختلاف ، كما أن الحديث عن كل من هذه الخصائص والمزايا لا يعنى الاستقصاء الكامل ، ولا يعنى أن الخصيصة والمزية موجودة فى كل شعر ، ولدى كل شاعر ممن يعنيهم الحديث ، وانما يكتفى فى ذلك كله بالأكثرية والغلبة ، كشأن الاحكام العامة ، وعلى هذا الأساس نتحدث عن أهم خصائص شعر الصعاليك ومزاياه •

٢ - الخصائص السلبية

ونعنى بالسلبية أن فى الشعر العربى عامة موضوعات تشيع فيه ، ولكننا لا نجد هذه الموضوعات فى شعر الصعاليك ، فخلو شعرهم من هذه الموضوعات هو ما نعنيه بالسلبية •

والموضوعات والاغراض التى خلا منها شعر الصعاليك مع شيوعها فى غيره من الشعر غير قليلة ، ويمكن أن نقول عنها بصفة عامة ، ان الفارق بينهم وبين غيرهم من الشعراء فى اختيار الموضوعات والأغراض ، بمقدار الفارق بين رجل

(١) الشطر الأول يعنى به سرعة عدو كل منهما ، والشطر الثانى يعنى أن معيشة كل منهما تجعل جسمه هزيلا نحيلا •

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٩٣/١ (الشاهد ١٥) •

مجاف للمجتمع ، يعانى مرارة الفقر ، ويصارع أشد الصراع ليحصل على عيش يقيم أوده فى كرامة وعزة ، وليثبت لنفسه مكانا وموضعا فى مجتمعه ، وبين رجل وادع هادىء الحياة ، ميسور الحال ، شديد الخلطة بالمجتمع وبما فيه من الوان الحياة والمعيشة .

وحين لا نرى بدأ من تحديد هذا الحكم غير المحدود ، نقول أن أبرز ما خلا منه شعر الصعاليك مع شيوعه فى غيره ما يأتى :

١ ـ شعر الترف :

والترف بالطبع أمر نسبى يختلف باختلاف المجتمعات من حيث أسلوب حياتها ، ومن حيث مستوى معيشتها ، ومن حيث نواح أخرى كثيرة ، ففلاح القرية مثلا يرى ترفا شديدا فى أشياء يعدها ساكن المدينة من أبسط ضروريات الحياة ، وهكذا فالترف الذى نتحدث عنه هو الترف فى عرف البيئة التى عاش فيها الصعاليك .

واهم مجال لترف الحياة فى البيئة حينذاك كان يتمثل فى ناحيتين احداهما مجالس اللهو ومتعتها الخمر ، والأخرى التهافت على المرأة والتمتع بها ، واذا كان لنا أن نعتبر أن فى الشعور النفسى ترفا ، فان هناك ترفا ثالثا فى بيئتهم، هو الشعور بالزهو والخيلاء .

هذه المجالات الثلاثة للترف نجدها فى ثلاثة موضوعات رئيسة فى الشعر العربى ، تفيض بها دواوين الشعراء ، وروايات الرواة ، هى أشعار الخمر ، وما يحيط بها من وصف مجالس الشراب ، وما فيها من قيان فى الجاهلية والاسلام ، ثم الغلمان فى بعض عصور الاسلام ، وأشعار الغزل وما أفاض فيه الشعراء من هيام بالمرأة ، ولهفة جامحة اليها ، واسراف أحيانا فى فحش الغزل وتتبع العورات فيه ، وأشعار الفخر ، وما أفاض فيه الشعراء ، وخاصة فرسانهم من زهو وخيلاء شديدين ولكننا حين نذهب الى شعر الصعاليك نجده يختلف عن غيره اختلافا واضحا فى هذه النواحى جميعا .

فأما الخمر ، فلا نكاد نجد لحديثها أثرا فى شعر الصعاليك ، جاهليهم ومسلميهم ، فلم يتخذها شاعر منهم قط موضوعا مستقلا أو غرضا بارزا فى شعره ، أو حتى عنصرا فى قصيدة ، ومن باب أولى ما يحيط بها من مجالس الشراب وما فيها ، ففى المرات المعدودة التى عرض فيها ذكر الخمر فى شعر الصعاليك ، لم يتخذوها حينئذ موضوعا ولا غرضا ، وانما ذكرا عابرا حينا ، ونفورا منها أحيانا ، وفى كلا الحالين لم يبد قط أنهم اتخذوها متعة من متع حياتهم ، أو حتى شيئا مألوفا ، وأبرز حديث على ندرته فى شعرهم عن الخمر ، حديث عبدة بن الطيب ، حيث يتحدث عن الخمر واصفا مجلس شرابها فيقول :

وقد غدوت وقرن الشـــمس منفتق ودونه من ســـواد الليل تجليل
الى التجـــار فاعـــداني بلذته رخو الأزار كصدر السيف مشمول(١)
خرق يجد اذا ما الأمـر جـــد به مخالط اللهو واللذات ضـــليل (٢)
حتى اتكانا عـــلى فـرش يزينهـــا من جيد الرقم أزواج تهـــاويل (٣)
فيها الدجاج وفيها الأسد مخـــادرة من كل شيء يرى فيها تماثيل (٤)

الى أن يقول :

ثم اصطحبت كميتا قرقفا أنفـــا من طيب الراح واللذات تعليل (٥)
صرفا مزاجـــا وأحيانا يعللنـــا شعر كمذهبة السمان محمـــول (٦)

فعبدة بن الطبيب بهذا يصف الخمر وساقيها ومجلس شرابها وصف الشارب ، المتلذذ ، ولكننا حين ننظر الى الظروف المحيطة بهذا الشـــعر نلاحظ ما يأتي : -

١ - عبدة بن الطبيب من المخضرمين ، وقد قال هذه القصيدة بعد وقعة القادسية وكان حينئذ فى أخريات أيامه حيث يتحـــدث فى البيت الثامن من القصيدة نفسها عن شيبه ، ومعنى ذلك أنه كان حينئذ قد ترك الصعلكة أما لتوبته بدليل أنه شهد القادسية كما روى الطبرى (٧) ، وأما لأن شيخوخته قد صرفته عن الصعلكة ، وحيث ان القصيدة قد صدرت فى ظروف بعيدة عن حياة الصعلكة ، فقد كان من الممكن استبعادها من شعر الصعاليك بالمعنى الدقيق لشعرهم لولا انها تحمل بقية من روح الصعلوك ومشـــاعره وذكرياته فى الصعلكة .

٢ - القصيدة طويلة ، تبلغ واحدا وثمانين بيتا ، وأبيات الخمر هذه تعتبر قلة فيها ، بالاضافة الى أنها مسوقة فى آخر القصيدة .

٣ - أخبار القصيدة ، وموضوع القصيدة نفسه ، كل ذلك يفهم منه أن هذه الحادثة التى وصفها عبدة لم تكن بموطنه ولا بأرض العرب ، وانما كانت فى العراق ، حيث شهد عبدة مع المسلمين وقعة القادسية ، وان كان سبب سفره الى هناك أنه تبع حليلة له هاجرت الى هذا الموطن ، وأبت أن تعود معه ، وهناك فى احدى بلاد العجم عرض له هذا المجلس بخمره ، أو هذه الخمر بمجلسها . ووصفه للستائر والبسط ، والمبانى ، والرسوم والتماثيل يؤكد ذلك ، حيث لم تكن هذه المظاهر قد عرفت حينذاك فى موطن عبدة من بلاد العرب ، ومعنى

---

(١) المفضليات ١٤٣ - ١٤٥ والتجار يعنى الخمارين وأعدانى أعانني .
(٢) خرق بمعنى متفنن مختلف الشئون والضليل المتمادى فى غيه .
(٣) يعنى الرسوم فى البسط والستائر .
(٤) من أنواع الرسوم فى البسط .
(٥) الكميت الخمر والقرقف التى ترعش شاربها والأنف يعنى البكر .
(٦) السمان وشى مقارب مأخوذ من سم الخياط .
(٧) تاريخه ٤/٤٣ .

ذلك أن حديثه هذا ، أو حادثته تلك ، لا تمثل أسلوب حياته ، ولا طابع معيشته وانما تمثل فترة عارضة عابرة فى حياته ، ولذلك لم تتكرر فى شعره • واذن فلا تصلح هذه الحادثة التى وصفها عبدة مثالا لحياة الصعاليك ، ولا لحياته هو وبالتالى لا يعتبر الشعر المصور لها مثالا لشىء من ذلك •

وعروة بن الورد يتحدث مرة عن الخمر ، ولكن ليس حديث الود بينه وبينها ، وانما حديث السخط عليها ، حيث ارتبط شربه اياها بموقف آلمه وبعث فى قلبه ندما شديدا ، وذلك أنه كان قد اصاب فى احدى غاراته امرأة كنانية من مزينة ، فاتخذها زوجا ، ومر بها على بنى النضير ، فراق لهم أن يسلبوها منه ، فدبروا حيلة خبيثة ، مؤداها أنهم أسكروه بشرب الخمر ، ثم استوهبوه زوجه ، فوهبها لهم وهو سكران كما يقول ابن السكيت (١) ، أو رهنها فى سكره ثم ظلوا يسقونه مستزيدين اياه فى الرهن حتى غلق كما يقول الأصفهانى (٢) ، وأياما يكون فقد كان تصرفه بالهبة أو الرهن خلال سكره ، ثم أفاق على هذه الحقيقة المؤلمة التى يأبى العرف الرجوع فيها ، وقد عبر عروة بعد ذلك عن سخطه على الخمر وعلى اليهود بقوله :

سقونى الخمر ثم تكنفونى ... عداة الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمى ... بمغن ما لديك ولا فقير
فلا والله لو ملكت أمرى ... ومن لى بالتدبر فى الأمور
اذا لعصيتهم فى حب سلمى ... على ما كان من حسك الصدور
فيا للناس كيف غلبت أمرى ... على شىء ويكرهه ضميرى (٣)

وهكذا استطاع اليهود بخبثهم وخديعتهم أن يسلبوا عروة زوجه ، ثم كانت سلمى هذه معهم حين أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن المدينة (٤) •

وهذه القصة توحى بأن عروة لم يكن مدمن خمر ، فلو كان كذلك لم يكن حديثه عن الخمر ، بهذا التعبير الذى يوحى بأنها شىء غريب على حياته ، وليست شيئا أليفا له ، وهو « سقونى الخمر » بدليل أننا لم نر له حديثا آخر عن الخمر ومن الواضح أن ذكره للخمر بهذه الصورة لا يعتبر من باب الخمريات ، من حيث وصفها ووصف مجالسها ، أو الولوع بها أو نحو ذلك •

---

(١) انظر شرح ديوان عروة لابن السكيت ٨١ •

(٢) أنظر أغانى الاصفهانى ٧٥/٣ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ١٥٩ لم يذكر قصة الخمر فى أخبار سلمى هذه •

(٣) أغانى الأصفهانى ٣٧/٣ وديوان عروة بن الورد ٨١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ ـ ١٦٠ مع اختلاف فى السياق حيث ذكر أن سبب فراق سلمى هذه لعروة اختيارها قومها عليه ، مع اختلاف فى الفاظ الشعر أيضا •

(٤) أغانى الأصفهانى ٧٥/٣ •

على أننا نحب أن نعقب على هذه القصة التى سلب فيها عروة زوجه ، بأنها لا تسىء الى عروة ، لأنه لم يتعد فى شربه الخمر سلوكا يقره عرف مجتمعه • وانما الاساءة كل الاساءة من اليهود ، ومن العرف الذى يجعل مثل خديعتهم هذه عملا مشروعا ، ومن العجيب أننا فى الوقت الذى نعتقد فيه أن مثل هذا السلوك وهذا العرف كان فى جاهلية متخلفة ، نجد هذه القصة ، وبصورتها تحدث فى أيامنا هذه ، كما طالعتنا الصحف منذ بضعة أيام فقط ، بقصة كهذه القصة (١) وحين يصدق القول بأن عروة بن الورد كان يعيش فى مجتمع جاهلى ، لا يصدق القول بأن المجتمع الذى حدثت فيه قصة اليوم جاهلى ، ولكنه مع وضوح خبث اليهود فى قصة عروة ، لا نستطيع اعفاء مجتمعى القصتين من جريمة الاعتراف بمثل هذا المسلك الخادع فى غير شرف ، واعتباره عملا مشروعا ، وهذا المعنى بالذات ، هو الذى يلفت نظرنا فى قصة اليوم ، فهى لا تعنينا من حيث انها حادث ، فالشذوذ الفردى لا يخلو منه مجتمع وانما تعنينا من حيث اعتراف المجتمع بهذا الشذوذ ، وحمايته له ، واعتباره عملا مشروعا •

ولسنا نمتطى الشطط حين نقول ان مجتمع قصة اليوم ، لم يرتفع كثيرا عن جاهلية مجتمع عروة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ان لم يكن قد نزل عنه درجات باسم الحضارة والقوة والحرية •

فاذا كان مجتمع ايطاليا الذى يبيح عرفه وتشريعه لرجل قانون أن يشترى امرأة من زوجها جاعلا امرأة كأى سـلعة تباع وتشترى ، فليس هـو المجتمع الوحيد فى الغرب الذى ينزل الى هـذه الجاهلية الخلقية والاجتماعية ، ألسنا نرى هذه الأسابيع فى بريطانيا موجة من الاحياء والحماية لرذائل كانت تنفر منها أشد المجتمعات ايغالا فى الجاهلية والبداوة ؟ كما فعل مجلس عمومهم — وهو أعلى هيئة فى الدولة — حين وافق بما يشبه الاجماع على اباحة الشـذوذ الجنسى واعتباره عملا مشروعا ، كما وافقوا بما يشبه الاجماع أيضا على اباحة الاجهاض (٢) الذى يعنى — فضلا عن قتله نفوسا بريئة — اباحة البغاء ، لأن الاجهاض فى معظم صوره تخلص من ثمرة خطيئة •

وألسنا نرى فى أمريكا اليوم صورا من التفرقة العنصرية لم يعرفها أشـد

---

(١) ورد فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٦٧/٧/١٦ بعنوان « رجل يبيع زوجته ب ١١ جنيها و ١٠ شلنات « باع رجل زوجته ب ١١ جنيها و ١٠ شلنات فى مدينة ميلانو الايطالية ، قال الرجل واسمه أنطونينى داندينا وهو فلاح عمره ٤٢ سنة فى بلاغه الى البوليس أنه كان يشرب الخمر فى بار ، واستمر فى الشرب حتى فقد وعيه الى حد أن صديق زوجته وهى شابة جعله يوقع على عقد يبيع فيه الزوجة ، قال الزوج السكران الشـاكى أن صديق زوجته محام ، وقد استغل خبرته القـانونية فى تحرير العقد ، وهو ينص على أن يبيع زوجته لقاء ٢٠ ألف ليرة ايطالية ، أى ما يقرب من ١١ جنيها استرلينيا و ١٠ شلنات •

(٢) انظر صحف شهرى يونيه ويوليه سنة ١٩٦٧ وخاصة صحيفة الأهرام فى ١٩٦٧/٧/٢٩ ص ٨ •

المجتمعات أبعادا فى الجاهلية ، حيث لا يستطيع الرجل من غير البيض أن يركب عربة أو يدخل مطعما أو ينتسب الى مدرسة فيها البيض ؟

واذا كانت هذه الصور تعنى على وجه اليقين التاريخى ، كما يؤيد التاريخ كله — أن هذا الانهيار الخلقى والاجتماعى يعنى ارهاصا مباشرا ، يؤذن بأفول الدولة ، والانحدار السريع لمجدها وحضارتها ، فان ذلك لا يمنع من القول كنوع من التعليل بأن مجتمع الغرب اليوم شديد الشبه بمجتمع عروة بن الورد فى وقوع كل منهما خارج دائرة النور السماوى بهديه وخلقه وتشريعه ، حيث كان مجتمع عروة سابقا لنور السماء ، وحيث يعيش مجتمع اليوم فى ظلامه الخلقى والاجتماعى منذ أطفأ البقية الباقية من نوره السماوى منذ نحو قرن من الزمان فيما سموه فى الغرب حينذاك بالاصلاح الدينى . وبينما يمكن لمجتمع عروة أن يجد ما يدافع به ، لا نرى لمجتمع اليوم فى الغرب هذا الدفاع ، على أنه مما لا شك فيه أن مجتمع عروة ربأ بنفسه عن كثير من تلك الخطايا .

ولم نعن بهذا الحديث استطرادا ، وانما هى تكملة صورة اقتضاها مقام المقارنة بين مجتمع من مجتمعات موضوع البحث ومجتمع يزعم لنفسه حضارة وخلقا ومبادىء ، وأهم من ذلك توضيح ملابسات أحاطت ببعض سلوك شاعريهم موضوع البحث وهو عروة بن الورد .

ونعود الى عروة بن الورد ، فنقول انه لم يكن بشعره هذا واصف خمر ، وانما كان شاكيا خبث قوم حمتهم جهالة المجتمع .

بل من الغريب أنه حتى الذين اتصلت حياتهم بحياة المجتمعات ، ومجالس السادة والأمراء ، كبكر بن النطاح ، وأبى الطمحان القينى ، لم يرد فيما بلغنا من شعرهم حديث للخمر . فقد خلا اذن شعر الصعاليك من هذا النوع من الترف الذى كان أبرز مجال للترف والمتعة واللهو حينذاك ، كما كان من أبرز موضوعات شعرهم وأغراضه أيضا .

ولم يكن خلو شعرهم منه ، ومن الترف بصفة عامة غريبا ، فحياتهم جادة كادحة لا تحتمل ترفا ولا دعة ولا لينا ، فضلا عن أنهم لم يكونوا يملكون ما يترفون به ، حتى ان الرواية التى ذكرت ان عروة رهن زوجه فى القصة السابقة ، ذكرت أن اليهود استغلوا فقر عروة ، حيث لم يكن لديه شىء يرهنه غير زوجه (١) وحتى اننا نرى صعلوكا كالأعلم الهذلى ، لا يرقى خياله فى الترف الى أن يملك زقا من خمر ، وانما يتصور أن أقصى ما يتخيله من ترف يجعله كالملوك أن يملك قربة صغيرة يملؤها من طعام جيد فيقول عن نفسه :

---

(١) أنظر الأغانى للأصفهانى ٣/٣٨ .

ويحسب نفسه ملكا اذا ما توسد ظبية الأقط الجلال (١)

ومالك بن الريب يحدثنا عن أنه لم يذق طعم الترف قط فيقول عن نفسه :

لم يدر ما غرف القصور وفيؤها طيبا ونخل سوادها المتمايل (٢)

وحين نعود الى حياة الفقر والجوع والهزال التى عاشوها وعانوا منها ، والتى كانت فى جملتها غالبة عليهم جميعا ، والتى لم تستطع جهودهم على صلابتها فى الصعلكة أن تخرجهم منها أو تبعدهم عنها كثيرا ، حين نعود لنلقى نظرة أخرى على هذه الحياة نعلم أنه لا غرابة فى أن تخلو حياتهم وبالتالى شعرهم من أى مظهر من مظاهر ترف المعيشة ، بل الغرابة أن يوجد فيها ذلك ، حينئذ كان سيبدو التناقض أو التباعد الشديد بين بعض شعرهم كشعر الفقر وآثاره ، والبعض الآخر كشعر الترف ·

٢ ـ الفحش :

ومما خلا منه شعر الصعاليك بصورة واضحة أيضا الفحش ، فبينما نجد الفحش فى الألفاظ والمعانى شائعا فى كثير من الشعر ، وخاصة فى شعر الغزل ، وشعر الهجاء ، نجد شعر الصعاليك كما أشرنا الى ذلك فى هذين الموضعين أعف الشعر لسانا ، وأبعده عن الفحش والبذاءة ·

فمما يبعث على التقدير لشعر الصعاليك ، سواء جاهليه واسلاميه ، أن تراه دائما متزملا رداء من العفة والحياء ، ومكتسيا ثوبا ناصعا ، لا تدنسه بقعة من فحش ، ولا يعيبه ثقب يكشف عن ستر ·

ومما يدعو للعجب ، أننا نحاول أن نجد كلمة لهم نستثنيها من هذه القاعدة ، أو شيئا فيه حتى شبهة فحش تستدعى شرحها أو بيان موقفهم منها ، فلا نعثر من ذلك على شىء ·

بل نجد شعرهم على العكس من ذلك ، لا يكتفى بمجرد خلوه من الفحش ، وانما يفيض بألفاظ العفة ومعانيها ، واضعا نفسه موضع النموذج والقدوة الكريمة فى هذا المجال ·

ومن الغريب أنه حتى من شذ منهم ــ على الندرة ــ فى خلقه كأبى الطمحان

---

(١) ديوان الهذليين ٨٣/٢ والظبية جراب صغير قيل أنه يتخذ من جلد الظبية ، والأقط طعام يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل ·

(٢) مهذب الأغانى ١٤/٥ ·

القينى الذى يصفه الأصفهانى بأنه « أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيهما » (١) والذى يصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقا » (٢) والذى اتفقوا جميعا على مزاولته شيئا من سلوك ينافى الخلق ، وينافى ما عرف عن الصعاليك كما قلنا سابقا ، نقول أنه حتى مثل أبى الطمحان ، مع مزاولته لبعض الفحش فى سلوكه ، الا أننا لا نجد فيما بلغنا من شعره فحشا ، ولا ما هو قريب من الفحش ٠

واذا أردنا أن نتبين مدى نصاعة شعر الصعاليك وطهره من الفحش ، فلنلق نظرة عليه ، ثم لنلق نظرة على ما ساقته كتب الأدب من فحش الشعراء ، وخاصة فى الغزل وتتبع عورات النساء (٣) وكذلك أبواب الهجاء فى دواوين الشعر وكتب الأدب ٠ فاننا حين نرى ما تفيض به من فحش ، نرى فى أى موضع من العفة والحياء كان الصعاليك وكان شعرهم سواء فى الجاهلية والإسلام ٠

٣ ـ الزهو والخيلاء :

ومما خلا منه شعر الصعاليك أيضا ظهور الزهو والخيلاء ، وليس معنى ذلك أنه خلا من الفخر ، الذى ينطوى فيه الزهو ، فقد فخر الصعاليك كما فخر غيرهم ، ولكن فخرهم يختلف اختلافا بينا عن فخر غيرهم ، فأول ما يلاحظ على فخر الصعاليك أنه يبدو وكأنه غير مقصود لذاته ، بل كثيرا ما يبدو فى ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده بعيدا عن الفخر ، بل قد يحمل شيئا مما يتعارض مع الفخر ، وأبواب كثيرة مما سبق يصلح شعرها كله مثالا لذلك ، فشعرهم فى الصبر وقوة الارادة ، والاستهانة بالموت ، قد يبدو كل ذلك فى ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده لا يحمل الا شعورا بجهد الحياة ، والصراع معها ومجالدتها ٠

ولذلك كان فخرهم قليلا محدودا ، ومع قلته فانه يختلف بصورة بينة عن غيره من أشعار الفخر ، فبينما نجد أشعار الفخر لدى غيرهم تفيض مباهاة وتحديا وزهوا وتهويلا فى وصف القوة والاعتداد بالنفس وفضائلها ، نجد فخر الصعاليك رزينا متواضعا كريما ، لا يلجأ قط الى تهويل أو مبالغة ، بل يكتفى فى أقل الأحيان بتصوير موضع الفخر فى بساطة وقرب شديد من

---

(١) الأغانى ٢/١٣ ٠

(٢) الشعر والشعراء ٣٤٨/١ ٠

(٣) أنظر معاهد التنصيص للعباسى وانظر نهاية الارب للنويرى وخاصة المواضع الآتية ١٨/٢ ـ ٦٥ ، ١٢٥/٢ ـ ١٣٢ ، ١٣٤/٢ ـ ٢٧٧ ٠

الحقيقة ، أما فى أكثر الأحيان فانه يكاد يمحو الفخر محوا ، كأن يتحدث مثلا عن قوة الارادة أو الصبر ، وقد يبدو هذا الحديث سياق فخر ، واذا الشـــاعر يكسوه صبغة الصراع ، وكأنه يقول : لا تظنوا أنى أفخر ، وانما أضرب لكم مثلا مما أعانيه ، وكأن يتحدث مثلا عن كرمه وجوده ، وكان يمكن أن يتخذ منه مجالا رفيعا للفخر فى مجتمع يمجد الكرم ، واذا الشاعر يحول أنظارنا عن الفخر الى معركة حول هذا الجود ، هو أحد طرفيها ، والطرف الآخـــر خليط من زوجه وعذاله وأهله والطامعين فى الكرم ، وكأن الشاعر يقول لنا أيضا اننى لا أفخر بهذا الكرم ، وانما أشكو الذين يريدون أن يحولوا بينى وبينه ، كما سبق عند الحديث عن اشتراكيتهم ، وقد يتحدث أحدهم أيضا عن القوة والبسالة والجرأة ، فيبدو وكأنه يفخر ، واذا هو يحول الأنظار عن أن نفهم ذلك بأى معنى يبعد حديثه عن الفخر ، وكأنه يقول : اننى لا أعنى من حديثى فخرا ولا زهوا بقوتى ، وانما أعنى أننى قادر على انفاذ ما أريد ، وقادر على تحدى الأعداء ، ومستهين بالنتائج مهما تكن .

وهذه المعانى نجدها دائما محور شعر الصعاليك حين يتحدثون عما يوحى بأنه فخر ، ونجدهم دائما يحولون وجهـــة حديثهم عن طريق الفخر الى طريق الصراع ، أو طريق الرزانة والاعتدال ، وفى كلا الحالين نشعر كأنهم يتعمدون عدم الفخر . هذا فى الوقت الذى نجد فيه غيرهم من الشعراء يحاول على عكسهم أن يكبر الصغير فى صفاته ، وأن يجعل من يسيرها شيئا عظيما بما يضفيه عليها من صور المبالغة والخيـــال ويمكن تعليل عدم نزوع الصعاليك الى الجمـــوح والتطرف فى الفخر ، بأنه تكملة لصفة الثبات والاعتدال فيهم ، تلك الصفة التى بدت فى تحملهم للفقر وآثاره ، وللمشقة العنيفة التى يقاسونها فى حياتهم ، دون ضجر أو تذمر ، فكما أن جهد الحياة ومشقتها وآلامها لم تزعزع ثباتهم ، ولم تخرجهم عن اعتدالهم وتحمل نفوسهم ، كذلك لم تستطع عوامل الفخـــر أن تخرجهم عن ثبات نفوسهم واعتدالها لتدفعهم كما دفعت غيرهم الى صـورة من صور التطرف ومجاوزة الاعتدال كالزهو والخيلاء والغرور .

وهذا الثبات والاعتدال ليس اختياريا بالنسبة لصاحبه ، بمقدار ما هو صفة أو أثر لصفة فيه ، فيمكن أن نرد هذا الثبات والاعتدال فى حالى الخير والشر فى نفوس الصعاليك الى قوة نفوسهم ، حيث كانت نفوسهم أقوى من أن تجذبها عوامل الابتئاس الى أسفل بالضعف والانهيار ، أو أن تجذبها عوامل الفخر الى أعلى بالزهو والغرور ، وشعرهم نفسه يصرح بهـــذا المعنى ، حيث يتردد فى شعرهم كثيرا أنهم لا الفقر يضعف نفوسهم أو يغيرها عن خلقهـــا ، ولا الغنى يزدهيهم أو يخرجهم عن وقارهم كما يقول الشنفرى من اللامية :

وأعدم أحيانا وأغـــنى وانمـــا ينـــال الغـــنى ذو البعـدة المتبـذل

فـــلا جـــزع من خلة متكشف ولا مـــرح تحت الغنى أتخيـــل (١)

وكما يقول سعد بن ناشب عن هذا المعنى أيضا :

فان تعـــذليني تعـــذلي بـــي مرزءا كريم نثا الاعسار مشترك اليسر (٢)

فكما كان الصعاليك مثلا رائعا فى الصبر والقدرة على مشقات ومصـــاعب لا يقوى على احتمالها غيرهم ، كذلك كانوا مثلا فى تجنبهم الزهو والخيلاء ، مع أنهم كانوا يملكون قدرا عظيما من أهم صفتين يتفاخر بهما مجتمعهم ، وهما القوة التى لا ينازع فى أنهم بلغوا منها مكانا رفيعا ، والكرم الذى سبقوا باشتراكيتهم فيه مجتمعهم ، حتى ضرب بهم مجتمعهم المثل فيه ، حيث قالوا « كل صـــعلوك جواد » (٣) .

٣ ــ تمثيل الحياة الشخصية

نعنى بتمثيل الحياة الشخصية أن شعر الصعاليك يصور الحياة الشخصية لكل منهم ، ولئن كان شعرهم متفقا أو متقاربا فى تصويره هذا ، فلأن حياتهم نفسها متفقة أو متقاربة، ومن البين الواضح في شعر الصعاليك أننا حين نقرأ شعر أحدهم نستشف من خلاله حياة صاحبه ، وأسلوب معيشته ، ومذهبه فى الحياة ، وصلاته بغيره ، بل وأفكاره ومشاعره فى أغلب الأحيان ، ولذلك نلاحظ بوضوح أن المؤلفين يتخذون دائما من شعرهم مصدرا أساسيا فى أخبارهم وتراجمهم ، وأن اعتمادهم فى هذا على شعرهم نفسه أكثر من اعتمادهم على الروايات والأخبار، نظرا لأن الروايات عن أشخاص الصعاليك وظروفهم وأحداثهم ليست ، بالكثرة التى ترسم لكل منهم تاريخا وترجمة كاملة ، لعدة أسباب منها تعثر الرواية فى العصر الجاهلى ، ومنها عزلة الصعاليك ، وصدور معظم أحداث حياتهم فى أماكن عزلتهم بالصحراوات ، مما لا يتيح للمجتمع أو الرواة الالمام بها الماما واضـــحا مفصلا كأحداث غيرهم من سكان المجتمعات ، وقد يكون منها أيضا شيء من حذر أحاط بالعلماء فى الاسلام فى تناولهم لأحداث الصعلكة وجرائمها التى ينكرها الاسلام ويحاربها ، ولذلك كان هم العلماء نحو من تناولوا ذكرهم من الصعاليك منصبا على شعرهم نفسه ، لأن الاسلام من فضائله اقرار الشعر لذاته ، بصرف النظر عن صدوره من شخص مرضى عنه أو مسخوط عليه ، وبصرف النظر عن تناول الشعر نفسه لموضوع معروف أو منكر ، وبالاضافة الى سماحة أخرى فى الاسلام ، وهى عدم الانكار على راو فى رواية معروف أو منكر مما صـــوره

---

(١) اللامية : والخلة الفقر ومتكشـــف يعنى لا ينكشـــف فقرى لأحد وأتخيل من الخيلاء .

(٢) حماسة أبى تمام ٢٧٢/١ والنثا الخبر والاعسار الفقر واليسر الغنى .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١٥٩/٢ .

العلماء فى قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر » ولولا هذه السماحات فى الاسلام لخسرنا جوانب كبيرة ومهمة من الأدب العربى وتاريخه ٠

ومهما تكن الاسباب ، فمن الواضح أن المؤلفين اعتمدوا فى جانب كبير من أخبار الصعاليك على شعرهم ، حيث وجدوا هذه الاخبار واضحة فى شعرهم ، وأوضح ما يكون ذلك فى حديث الأصفهانى عن الصعاليك ، بل الأغرب من ذلك أننا نجد وصف أجسام معظمهم وأشكالهم فى شعرهم (١) وقد يكون شعر الصعاليك بهذه الميزة منفردا عن غيره قاطبة من الشعر ، فقد نقرأ ديوانا لشاعر من غير الصعاليك ، فنرى فيه موضوعات شتى ، وأفكارا مختلفة ، وأحداثا متنوعة ، ولكننا لا نكاد نعلم عن شاعر الديوان نفسه كثيرا ، ونجدنا بعد قراءة ديوانه كله فى حاجة الى أن نعلم من هو ؟ وما معيشته وعمله ؟ وما أخباره وأحداث حياته ؟ لأن شعره ان يكن أظهرنا على أفكاره واتجاهاته ، وعلى أحداث بارزة فى حياته أو حياة مجتمعه ، الا أنه لم يظهرنا على الحياة والظروف الشخصية لهذا الشاعر ، ويمكن أن يقال هذا بالنسبة للشعراء جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ، ومجيدهم وتافههم ٠

أما شعراء الصعاليك ، فحين نقرأ شعر أحدهم نجد فيه حياته وظروفه الشخصية ، ان لم تكن مفصلة كل التفصيل ، فهى واضحة كل الوضوح ، بل لسنا فى حاجة الى أن نستقصى شعر الشاعر منهم كله لنعلم حياته وظروفه ، وانما يكفى أن نلم بقدر من شعره ، فنعلم عنه وعن حياته الكثير ، وأول هذه الدلالة المهمة أن نعلم أنه صعلوك ، فنعلم عنه بذلك شيئا مهما ، ثم نجد تفاصيل حياته وصورتها ماثلة فى شعره ، ونعود فنقول ان أبلغ دليل على هذه الظاهرة فى شعرهم اعتماد المؤلفين عليه فى استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها ، ولذلك نجد شعرهم دائما مقترنا بأحداث أو صور من حياتهم ، فمثلا نذهب الى شعر عروة بن الورد فنعرف منه أنه فقير ، وأنه دائم الغارات والغزو ، وأنه يؤوى المحتاجين دائما ، ويغزو ليعولهم ، ثم نجد فى شعره أخبار حوادث كثيرة تعرض لها كقصة احتيال اليهود لسلبه زوجه سلمى منه ، وقصة أصحاب الكنيف الذين أبوا عليه أن يمتاز عنهم فى نصيبه مع أنهم صنائعه ، وقصة سطوه على منزل رجل بارع الخبرة بالأرض ، دقيق الملاحظة لما حوله ، وهكذا نجد أحداث حياته مسطرة بوضوح ، بل وبتفصيل فى شعره ٠

وكذلك شعر الشنفرى نعلم منه عن شخصيته ومعيشته وظروفه أكثر مما نعلمه عنه من أخباره ، فأخباره فى الروايات محدودة ، لا تكاد تتعدى نسبه ، ثم انتقاله أسيرا بين قبيلتين ، ثم نقمته على بنى سلامان ، وأحداثا معدودة خلال ذلك فى صعلكته ، وفى رفقته مع تأبط شرا وعمرو بن براقة ، ولكن شعره يطلعنا من شخصيته ومعيشته وظروفه على أكثر من ذلك بكثير ، فحين نقرأ ديوانه

---

(١) انظر للمثال ما ورد من شعر فى فصل الفقر وآثاره فيما سبق ٠

على قلة شعره ، نجد فيه حياته كاملة بظروفها وأحداثها ومشاعرها ، بل حين نقرأ لاميته نجده هو أوضح فيها منه فى الاخبار والروايات ، حتى ليخيل الينا أننا نراه بأعيننا ، ونتابع حركاته وأعماله ، ومعيشته ، ونسمع نجوى نفسه ، ونرى مشاعره وأفكاره ، فنرى مشاعره نحو الناس بهجرته عنهـــم ، ونرى أسلحته التى يحملها بألوانها وصفاتها ، ونحس البرد والحر الذى يعانيه ، ونرى الوديان والقفار التى يعيش وينتقل فيها ، ونرى فى هذه البيئة مخلوقاتها التى يشاطرها الشنفرى حياتها ، بل ونرى وصفا دقيقا للشنفرى نفســـه ، فنرى نحول جسمه ، وبروز عظامه وفقار ظهره ، ونرى ثوبه ونعله الممزقين ، ونرى شعره الضافى الذى لم يقص ولم يغسل ولم يدهن ولم يفل منذ حول كما وصفه ونرى حدة بصره ، ثم نرى معيشته وطريقة حصوله على الطعام والماء ، وحاله ان فقدهما ، وهكذا في تفاصيل كثيرة دقيقة عنه ، في جسمه ، وفى نفسيته ومشاعره ، وفى بيئته ، ومخلوقاتها ومشاهدها وفى معيشته وفى أشياء أخرى نخرج منها جميعا ، ولسنا فى حاجة الى السؤال عن شىء من أحواله ، فقد علمنا منها كل شىء عنه ، حتى اسمة ، واشارة الى نسبه فى أحاظة اليمنية كما يقول فى اللامية عن ركب أحاظة المجفل ، وهكذا فى شعر الصعاليك كله ، بل اننا لنرى البيتين والبيت الواحد أحيانا يطلعنا على صورة من حياة الصعلوك ، ويشرف بنا على معيشته ، فبيت واحد لتأبط شرا كقوله مثلا يخاطب الذئب :

كـــلانا اذا مانـــال شـــيئا أفاته ‏ ‏ ‏ ‏ ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (١)

نعلم من شطره الأول أنه عداء ، ومن شطره الثانى أنه يعيش حياة قاحلة تنتج الهزال ، بالاضافة الى ما يوحيه كل معنى منهما من تصور ، وحين نقــرأ قول ابن براقة :

اذا الليـــل أدجى واكفهــر ظلامـه ‏ ‏ ‏ ‏ وصاح من الأفراط بوم جــوائم
ومـــال بأصـــحاب الكرى غالبـــاته ‏ ‏ ‏ ‏ فانى على أمر الغـــواية حـــازم (٢)

نعلم أنه صـعلوك ، ونعلم أســـلوبه فى الصعلكة ، وكذلك قول مالك ابن الريب :

حيث الدجى متطلعـــا لغفـــوله ‏ ‏ ‏ ‏ كالذئب فى غلس الظـلام الخاتل (٣)

وكذلك قول الأحيمر السعدى مبينا أسلوبه فى حياته :

وأنى لأســتحيى لنفسى أن أرى ‏ ‏ ‏ ‏ أمـــر بحبل ليس فيـــه بعـــير
وأن أســـأل العبد اللئيـــم بعـــيره ‏ ‏ ‏ ‏ وبعـــران ربى فى البـــلاد كثير (٤)

---

(١) خزانة البغدادى ١/٩٣ .
(٢) أمالى القالى ٢/١١٩ والافراط جبال والكرى النوم وأمر الغواية يعنى أعمال الصعلكة .
(٣) مهذب الأغانى ٥/١٤ .
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣١٢ .

وكقول الشنفرى واصفا المكان الذى اتخذه رصدا وكمينا ، والوقت الذى يختاره للترصد وحاله أثناء الترصد :

ومرقبـــة عيطـــاء يقصر دونهـــا	**اخو الضروة الرجل الخفيف المشفف**
نميت الى أعـــلى ذارهـــا وقـــدنا	**من الليل ملتف الحديقـــة أســـدف**
فبت على حـــد الذراعـــين محـــدبا	**كمـا يتطوى الأرقش المتقصـف (١)**

ومما لا نشك فيه أن شعر الصعاليك بهذه الميزة يتفـــرد عن غيره من الشعر قاطبة ، واذا أردنا أن نقرب هذه الميزة الى الاذهان كما أشرنا فيما سبق نقول : ان شعر الصعاليك فى تسجيله لحياة الصعاليك ، وتتبع أحداث حياتهم، وابراز مشاعرهم نحو هذه الحياة وهذه الأحـداث ، أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، التى يروق لبعض الناس أن يسجلوا فيها أحداث حياتهم ومشاعرهم نحو هذه الأحداث ، واحساسهم بما حولهم من الناس والأحداث وبالحياة نفسها ، وحين نلقى نظرة على مجرد عناوين الأغراض الكثيرة التى سبق عرضها ، والتى شملت حياتهم من فقر وجوع وهزال ، ومذهبهم نحو هذه الحياة من حرص على العمل واستهانة بالموت ، ثم أســلحتهم الحسية والنفسية التى لازموها ، ثم صراعهم مع كل شىء ، وهكذا من موضوعات وأغراض شتى ، ان لم يكن اتخذها كل فرد منهم موضوعا وغرضـــا فقد اتخذوها فى جملتهم كطائفة أغراضـــا وموضوعات،وساهم كل منهم بقدر كبير أو يسير فيها . حين نلقى نظرة على شعرهم فى هذه الأغراض جميعا ، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية . ولو تتبعنا شعر كل شاعر منهم ، وجمعنا شعره فى كل غرض من هذه الأغراض والموضوعات ، لخرجنا بمذكرة شخصية نجده قد سجل فيها ما نريد أن نعلمه عنه ، وأحيانا فوق ما نتوقع أن نعلم عن شخصه وظروف حياته ، وعن نفسيته واتجاهه ، وحتى عن شكله وصفاته الجسمية فى كثير من الأحيان .

ويمكن تعليل ذلك بأمرين : الأمر الأول أنه لا يبدو من شعرهم كله أنهم يقولون الشعر لذات الشعر ، بما يتضمنه هذا المعنى من حوافز تغلب على الشعراء فى انتاجهم الشعرى ، كرغبة الشاعر فى أن يبرز فى ميدان الشـــعر ، وأن يثبت لنفسه مكانة فى مجتمعه بهذا الشعر ، وما الى ذلك مما يدفعه الى اختيار أغراض وموضوعات يصوغ فيها الشعر وقد لا تكون هذه الموضوعات شاغلا له هو بالذات ، أو هى كأحد أفراد من مجتمعه فى تأثره بهذه المشاهد أو الاغراض ، ومما يدفعه أيضا الى الاجادة ، ومما يدفعه الى مراعاة اعتبارات أخرى ، حاشدا كل امكانياته لينجح كشاعر .

أما شعراء الصعاليك فلسنا نقول انهم لا يراودهم شىء من هذا الشعور ، ولكننا نقول انهم لم يتأثروا بهذا الشعور ، ولم يكن موجها لهم ، أو مؤثرا فى

(١) مهذب الأغانى ٩٥/١ .

شعرهم تأثير الوضوح والجلاء ، كما يتضح ويتجلى فى شعر غيرهم ، وهذا المعنى المميز لهم له تأثير فى طابع شعرهم ، وفى خصائصه فى أكثر من موضـــع كما سنرى ، وقد كان تأثيره فيما نعنيه الآن ان الشعراء الصعاليك لم يعنهم الشعر لذاته حين قالوا الشعر ، وانما عناهم احساسهم بحياتهم وأحـداثها ومشقاتها فسجلوا هـذا الاحساس ممثلا فى الأحداث والصـــور ، ولذلك حين ننظر الى شعرهم ، لا نجد فى شعر الفرد منهم موضوعات وأغراضا مقصودة لذاتها ، وانما نجد حياته هو مصورة فى سلسلة أحداث ومشاعر وان بدت فى أحيان قليلة ، فى صورة أغراض وموضوعات ٠

والأمر الثانى وان كان فى بعض جوانبه متداخلا مع الأمر الاول ، الا أن مصدره متميز عنه ، وهو عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمع ، هذه العزلة بجانبيها جعلت مشاعر الصعاليك وحواسهم مركزة على أنفسهم ، وعلى حياتهـم الشخصية لكل منهم ، فنشعر من حديث شعرهم واتجاهه أنهم لا يعنيهم المجتمع وما فيه ، ولا تنصب مشاعرهم الا على ذواتهم وحياتهم وما يعانونه ويشعرون به ، وحتى اذا نظروا الى المجتمع ، أو الى أى شىء خارج نطاق حياتهم ، فانمـــا ينظرون اليه من زاويتهم هم ، ومن خلال احساسهم بحياتهم هم ، كما رأينا فى منهج شعرهم الاجتماعى ، حيث نجد فيه دائما نظرتهم الخاصـــة ، وانعكاس حياتهم فى الصعلكة ، فحتى الرثاء مثلا نجدهم يركزون حديثهم فيه عن المرثى ، على صفات الصعلكة وطابعها ، وليس ذلك تعبيرا عن اعجابهم بحياتهم أو فتنتهم بها ، وانما هو تعبير عن أن شاغلهم الأول هو حياتهم الشخصية ، وعن أن تفرغهم لهذه الحياة وانقطاعهم لها قد ملأ عليهم مشاعرهم واحساسهم بهـا ، فانعكس ذلك كله فى شعرهم ، بحيث أصبح شعرهم كالمرآة الخاصة التى يمسكونهـا بأيديهم ، فأول ما يطالعنا فيها أشخاصهم وانفعالاتهم ، وحركاتهم ، وحتى ان بدا فيها شىء غيرهم ، فانما يبدو وكأنه خلف ظهر الصعلوك ، أو نطاقا مضروبا من حوله ، وبهذا أصبح شعرهم كالمذكرات الشخصية ٠

والشىء المشترك الذى قد يثور التساؤل به فى مواضع كثيرة ، منها هذا الموضع ، هو ، كيف تسنى اتفاق شعر الصعاليك ، ووحدته أو تقاربه فى منهجه وخصائصه ، مع اختلاف الصعاليك فى أشخاصهم ، وبيئـــاتهم ، وعصورهم ؟ ونقول عن ذلك أنهم جمعتهم المهنة الواحدة ، وهى الصعلكة ، والصعلكة متشابهة فى دوافعها وأساليبها ، حيث يجمعها جميعا أنها سلوك عدوانى ، ومتشابهة فى البيئة التى تصلح لمزاولتها من الصحراوات والجبال والمراقب ، ومتشابهة أيضا فى الأشخاص الذين يصلحون لمزاولتها فلابد أن تكون فى الصعلوك صفات معينة مما سبق الحديث عنه حتى يصلح للصعلكة ويقوى على مزاولتها ، والصعاليك يتفقون أو يتقاربون فى هذه الصفات ، وبهذا نرى الصعاليك أشد الناس تشابها

أو تقاربا ، فى أشخاصهم وصفاتهم وبيئاتهم وأسلوب حياتهم ، مهما تباعدت بينهم العصور ، أو نأت بينهم الأماكن ٠

ومن هـــذا أصبح شعرهم أشد الشـــعر تشابها أو تقاربا ، فى طابعه ، وخصائصه ، وفى زوايا منهجه ٠

٤ ــ الذاتيـــة :

ومن كل ما سبق نجد أن شعر الصعاليك ذاتى ، ولكنها ليست ذاتيـــة اصطلاحية ، كالتى يعرفها نقاد الأدب الغربى فى الرومانتيكية التى تعتمد فى مصدرها على الروحيات وفى كيانها على مشاعر الفرد وسبحاته نحـــو الطبيعة والخيالات (١) ، والتى ضل فى متاهاتها الروحية والوهمية كثير من الشـــعراء والأدباء ، والتى ابتذل الأدباء فيها أنفسهم وأدبهم حتى ذابت ذاتيتهم نفسها فى صور من ابتذال منكر ، وضياع فى أجواء خيالات مختلفة متناقضة ٠

ولكن ذاتية الصعاليك شىء آخر ، فهى ذاتية حية متحركة ، وذاتية واقعية معقولة فى آن واحد ٠ وفى كلا الحالين ، فهى ذاتية متميزة محددة ، لا تلتبس بغيرها ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد ، لأن طابعها لا يشيع فى أدب آخر غير أدب الصعاليك ، حتى يتخذ من الجميع مذهب أدبى وكما كان الصعاليك فى أشخاصهم وأســـلوب حياتهم طابعا فريدا بـــين الناس ، فكذلك شعرهم ، لا يعدو الحقيقة كثيرا من يقول انه فريد فى طابعه وصبغته ، وليس فى هـــذا المعنى بالذات نقد أدبى له ، أو حكم على مستواه من الوجهة الأدبية ، وانما هو حكم على طابعه من حيث التميز لذاته ، بصرف النظر عن تقويمه والحكم عليه ، ولكننا من جهة أخرى نجد أن التميز لذاته فضيلة أدبية ، فمن الواضـــح أن أوضح مراتب الجودة فى الأدب ، بل وفى الانتـــاج البشرى كله ، هو التميز ، وانه لا يصبح الأديب أديبا حقا الا اذا كان له طابعـــه المميز ، الذى يبعده عن التقليد ، وعن الذوبان فى فصيلته التى ينتمى اليها ، بل يسرى هذا الحكم على كل الانتاج الفنى ، سواء كان أدبا أو رسما أو تصويرا أو غيره ، حتى الصناعة التى تتسم بالطابع الفنى ، لا يعتبر الصانع فيها صانعا حقا الا اذا كان لصناعته طابعها المميز لها ، فان نزل عن هذه المرتبة كان عاملا وليس صانعا ٠

ولكننا لا نعنى هذا المعنى الآن فى حديثنا عن ذاتية شـــعر الصعاليك ، وانما نعنى أن ذاتيتهم كانت طابعا مختصا بهم ، لم يستوحوه من نقد أو مذهب شـــعرى ، ولا من ثقافة البيئة واتجاهها الأدبى ، ولا من شىء آخـــر الا حياتهم الشخصية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة ٠

---

(١) انظر كتاب فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ص ١١٠ ــ ١١٧ ٠

فالصعلوك يجعل نفسه في شعره دائما صلب الحديث ، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه ، مشدود الى شخصه بخيوط واضحة ، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينه واضحة كل الوضـــوح ، فهو لا يتحدث عن شيء لذات هذا الشيء وانما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشيء ، وقد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، حيث قلنا ان من أبرز ما يميز شعرهم عن غيره ، ان غيرهم من الشعراء يغلب عليه حين يصف شيئا أن يقف خارج هذا الشيء ، ثم يصفه وصف المشاهد المتفرج ، أما الصعلوك فلابد أن يكون داخل هذا الشيء ، ولابد أن تكون هناك علاقة بينه وبين هذا الشيء ، وأغلب ما تكون هذه العلاقة الصراع فى أى صورة من صوره بين الصعلوك وهـــذا الشيء فحينما يصف الصعلوك مثلا ليلة باردة مظلمة ، أو يوما قائظا شـــديد الحر أو مكانا صعبا خشنا ، أو وحشا من الوحوش ، لا يصفه لذاته ، وانما يصـفه من زاوية ما يعانيه فى علاقته بهذا الشيء ، وشعرهم فى الطبيعة كله يصلح مثالا لذلك

وهكذا حين نتتبع موضوعات شعرهم وأغراضه ، نجد كل هذه الموضوعات والأغراض مشدودة الى أشخاصهم ومرتبطة بها ، فهم مثلا حينما يتحدثون من الفقر ، أو الجوع ، لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من وجهـــة الحكمـة والفلســـفة ، فيتحدثون مثلا عن الفقر أو الجوع لذاته ، وأثـره فى النـــاس وما ينتج عنه من شر أو أثر أو يدعون الى محاربته وعلاجه ، أو غير ذلك من الزوايا التى يتناول منها الشعراء ما يعرضون له من أمور ، وانما يتناولونه من ناحيتهم هم ومن ناحية أثره فيهم ، واحساسهم به ، ووسيلتهم لعلاجه ومقاومته كما يقول الشنفرى :

اديم مطال الجوع حتى أميتــه   واضرب عنه الذكر صفحا فأذهل (١)

والواقع ان التمثيل لا يبرز هذا الطابع فى شعر الصعاليك ، لان هـذا الطابع ليس فى موضع بعينه من شعرهم ، ولا هو لدى شاعر مخصوص منهم وانما هو طابع عام فى شعرهم ، نحسه بوضوح فى كل شعرهم ، ولدى جميع شعرائهم ٠

واوضح ما فى هذا الطابع احساسنا دائمـــا بشخصية الشـــاعر من الصعاليك فى كل شعره ، ووراء كل تعبير من تعبيراته ٠

واذا أردنا التعليل لهذا الطابع ، نقول ان أهم ما يمكن أن يعلل به هو طابع المذكرات الشخصية الذى تحدثنا عنه آنفا ، فمن الطبعى أن تكون مذكرات أى شخص عن نفسه ذاتية ، وأن نحس بشخصيته فى كل ما يتحدث عنه فى هذه المذكرات ٠

---

(١) من اللامية : البيت العشرون ٠

يعرف نقاد الأدب الواقعية على أنها عدم خـــروج الأديب بأدبه عن دائرة الواقع المألوف الذى يألفه الناس ، ويتفق مع معلوماتهم عن طبيعة الموضوع وتقابل الواقعية عندهم المثالية حيث يحلق الأديب فيها فى أجواء مثالية يتخيلها وتهفو نفسه الى تحقيقها ، كما تخيل المفكرون والأدباء منذ القديم مدنا فاضلة تخلو من الشر والفساد ، وتتسم فى جميع جوانبها بالخير الكامل الذى لا يعكره شر ولا فساد كمدينة أفلاطون الفاضلة كما تخيلها ، وكما تصور الأدباء فى قصصهم وأشعارهم نماذج من شخصيات تمثل المثل العليا فى الأخلاق التى يصفها الأديب ، من شجاعة أو عدل أو احسان أو غير ذلك من صفات الخير بحيث يكون تصور هذا النوع من الأدباء لهذه الصفات وحديثهم عنها فى أدبهم لا يمثل الواقع ، وانما يمثل الأمانى التى يتمنون أن يروا هذه الصـــفات فيها وأحلامهم فى أن يروا مجتمعهم وقد سادت فيه هـذه الصفات بالصـورة التى تخيلوها .

فهذا النوع من الأدباء يسمى المثاليين ، وهم مقابلون للواقعيين الذين لا يسبحون مع الخيال المبعد ، ولا يصـــــورون فى النـــــاس ما ليس فيهم وانما يصفون الواقع كما هو (١) .

وقد اختلفت نظرة النقاد العرب الى الواقعية من حيث تصورهـم لها فى الصورة المثلى التى توصف بالاعتدال والجودة ، ولم يضع نقاد العرب مصطلحات فنية للواقعية وما يقابلها من المثالية ، وان كانت قد غلبت على أحاديثهم ألفاظ جرت مجرى الاصطلاح ، حيث يعبرون دائما عن الواقعية بالصدق ، ويعبرون عما يقابله بالغلو والافراط ، ويقرنون بالصدق الكذب فى الشعر ، ولكننا نحس انهم لا يجعلونه مقابلا للصدق دائما ، بل يختلفون ، فمنهم من يرى الكذب مقابلا للصدق ، وبهذا يكون الكذب رداءة أدب عند هؤلاء ، ولكننا نرى بعضا آخر من النقاد العرب ، لايجعل الكذب مقابلا للصدق بل نشعر بأنه يعنى بالكذب التصوير الشعرى بما يكتنفه من مبالغة وخيال . فلا يكون الكذب بهذا مقابلا للصدق عند هؤلاء ، وانما هو صورة من صور الواقعية والصدق الفنى ، وان كانت صورة مجاوزة للوضع السليم عند الآخرين ، وهو الصدق (٢) ، وشعار

(١) انظر أسس النقد الأدبى للدكتور أحمد بدوى ٤٣٥ ـ ٤٤٥ وفى الأدب والنقد للدكتور مندور ١١٦ ـ ١٢٠ .

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٢/١ ـ ٢٦ والشعر والشـــعراء لابن قتيبة ٣٦/١ ـ ٣٩ وأسس النقد السابق ٤٣٩ .

هؤلاء العبارة المأثورة « خير الشعر أكذبه » (١) ، وقد اختلفت وجهـات نظر النقاد في القديم والحديث حول الواقعية ، وعلى الأخص حول الوضع الأمثل فيها ، فما الواقعية المثلى التى تعتبر مقياسـا يقاس به الأدب ويوزن به شعر الشعراء ؟ والى أى مدى يباح للشاعر الخروج عن الواقعية المثلى الى المبـالغة أو الخيال ؟ والى أى مدى أيضا يباح للأديب والشاعر الدخول فى الواقعية الى ما يسمونه « أدب الكاميرا » ؟ الذى يعنون به الامعان فى الواقعية حتى يصـير الأدب صورة حرفية مباشرة للواقع ٠

والاجابة على هذه الأسئلة ظلت فى القديم والحديث موضـع خلاف ، وستظل أيضا موضع الخلاف ، لأن الأدب ليس أقيسة منطقية محددة لا تقبل الخلاف ، ولا هو أمر حسى لا تختلف عليه الحواس ، وليس الأدباء أيضا مصنعا يخرج سلعا ذات أوصاف محددة يحاسب الصناع على تجاوزها ٠

واذا نظرنا الى واقعية شعر الصعاليك نجدها تتمثل فيما يأتى :

١ ـ شعرهم كله لا يعدو تصوير الواقع الذى يعيشـون فيه ، وتصوير احساسهم بهذا الواقع ، ويكفى توضيحا لذلك ما قررناه آنفا من أن شعرهم يعتبر كالمذكرات الشخصية ، التى دون كل منهم فيها خواطره الواقعية ، فى نطاق حياته ومعيشته ، وصلاته وصراعه مع ما حوله ومن حوله ٠

ولو رجعنا الى كل الموضوعات والأغراض التى طرقها شعرهم ، لوجدناها جميعا تصـويرا لواقعهم الذى يعيشون فيه ، ولوجدنا التصـوير نفسه واقعيا فالموضوع واقعى ، وتصويره أيضا واقعى ، فمثلا قول أبى خراش يصـور صراعه مع أعدائه ، واستفادته بموهبة العدو ، فيقول :

فان تزعمى أنى جبنـت فاننى   افر وأرمى مرة كل ذلك
اقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا   وانجو اذا ما خفت بعض المهالك (٢)

فقد علمنا من ذلك صفتين فى أبى خراش ، انه يحسن القتال ، وانه عداء وقد كان يمكن أن يتخذ من الصفتين سبيلا للتصوير والخيال ، مبعدا بذلك عن الواقع والحقيقة ، ولكنه آثر أن يصور واقعه تصويرا حقيقيا لا مبالغة فيه ولا خيال ، ولا مغالطة ، فوصف انه أحيانا يفر من أعدائه ، ولكنه فرار المقاتل لا فرار الجبان المذعور ، بدليل انه أثناء فراره يلتمس كل فرصة ليرمى فيها بسهامه ، ثم يقول انه يعتمد على الحكمة ، فحين يجد نفسه قادرا متمكنا ، يقاتل حتى يحطم القوة التى يقاتلها ، وحين يجد ان الموقف ليس لصالحه ، لا يعطل موهبة وهبها وهى العدو ٠

---

(١) أنظر العمدة لابن رشيق ١/٢٢ ٠
(٢) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ ٠

والاحيمر السعدى يصور لنا نفسيته تصويرا واقعيا صادقا ، فمع انه كان حينئذ قد تاب عن الصعلكة ، الا انه آثر الواقعية والصدق ، فى حديثه عن مشاعره كلما راى قافلة من التجارة ، وكيف ان رؤيته للقوافل تبعث فى نفسه حنينا الى الصعلكة ، أو شيئا من حزن على فراقها حيث يقول من شعره فى ذلك :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم   وما الاقى اذا مـــروا من الحزن
فرب ثوب كريم كنت آخــــذه   من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

وكذلك يصدق الأعلم الهذلى ، فى واقعية صريحة لم يكن هناك ما يدعوه الى ابرازها لأنها فى خفايا نفسه ، ولكنها رغبة الصدق والواقعية ، حيث يصور كيف انه فى أثناء عدوه لينجو من الأعداء كان يخيل اليه ان الأعداء قد أخـــذوا عليه كل سبيل ، حتى ان الشجر الذى يمر به كان يحسبه أعـــداء يسلون سيوفهم عليه فيقول ·

واحسب عرفط الزوراء يــــودى   على بوشـــك رجع واستلال (٢)

وكذلك أيضا يصف لنا عبيــــــد بن أيوب نفسيته وصفا واقعيا دقيقا لا يمكن اتهامه معه بغير الصدق لأنه وصف لا يفخر به ، حيث يقول :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة   لقلت عدو او طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة   وان قيـــل شر قلت حقا فشمر
وخفت خليلى ذا الصـــــفا ورابنى   وقلت فلانا او فلانة فاحذر (٣)

ويصف السليك بن السلكة حرمانه وبؤسه فى أشد أيام الناس خصبا وكيف انه حتى فى الصيف الذى يكثر فيه الخير عند الناس يبلغ به الجوع حد الهزال والضعف ، حتى انه اذا وقف اعتراه دوار فأظلمت عيناه ، فيقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف ضرنى   اذا قمت تغشانى ظلال فاسدف (٤)

وهكذا نجد شعرهم دائما فى محيط الواقع من حيث الأغراض ، فلا يخلق موضوعات خيالية ، ولا موضوعات عامة لا تعنى أشخاصهم ، بل دائما نجد واقع كل منهم باعتبار شخصه هو وما يرتبط به ، سواء أكان يعنى غيره أم لم يــكن من حيث اعتباره هو ، لأنه كما قلنا لا يظهر من شعر الصعاليك رغبتهم فى الشعر لذاته ، وانما الذى يبدو واضـــحا رغبتهم فى التعبير عن حيـــاتهم واحساسهم بها ، وهذا الفارق النفسى بينهم وبين غيرهم من الشعراء فارق يتعلق بجوهر الاتجـــاه ، وتترتب عليه آثار كثيرة مهمة فى كثير من الموضـــوعات

---

(١) أمالى القالى ٤٩/١ والزوامل الابل عليها احمالها والقطار الابل المقطورة ·
(٢) ديوان الهذليين ٨٥/٢ والعرفط شجر والزوراء موضع والوشك العجلة ·
(٣) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ ·
(٤) مجمع الأمثال ٩/٢ ـ ١١ واسدف أدخل فى السدفة وهى الظلام ·

والجوانب ، ومنها ما يعنينا الآن أن نقوله ، وهو ان من أسباب واقعيتهم عدم احترافهم الشعر لذاته ، حيث اقتصروا منه على تصوير حيـــاتهم ومشاعرهم نحوها ، ولو قد عناهم الشعر لذاته من حيث احترافه والتفرغ له والمباهاة به لكان من المتوقع أن يحاولوا طرق موضوعات مختلفة ، منها الواقعى ، ومنها غير الواقعى ، وان يطلقوا لخيالهم الشعرى العنان فى كل اتجـــاه ، وقد يكون من هذه الاتجاهات كثير من صور الخيال ومجافاة الواقع ، خصوصا وان قدراتهم الشاعرية كما يبدو فى شعر كثير منهم تهيىء له القدرة على الخوض فى أى مجال من مجالات الشعر ، وأى اتجاه من اتجاهاته ، ولو وقفنا وقفة تأمل مقارنين بين التزام الصعاليك الواقعية الكاملة والمثلى كما يراها نقاد العرب ، من حيث التزامهم الواقعية مجردة من المبالغة والغلو والافراط والخيال المبعد عن الحقيقة حيث يرى معظم النقاد العرب ان هذه الصور أهم ما يخل بالصدق والواقعية(١) او تساءلنا لماذا التزم شعراء الصعاليك تحاشى هذه الاتجاهات المخلة بصدق الشعر وواقعيته ، ملتزمين المنهج الأمثل فى الواقعية ، فى الوقت الذى تكثر فيه صور الاخلال بالواقعية المثلى فى شعر شعراء معاصرين لهم ، من مبالغة وغلو وافراط وخيال غير واقعى النسج ؟

لو تساءلنا عن السبب فى الفارق بين الاثنين لوجدنا انه من الأســباب البارزة فى هذا ، هو ان الصعاليك لم يحترفوا الشعر ، حتى يفرغوا كل جهدهم ويستفرغوا كل طاقتهم الشعرية فى معان وأغراض يحـــاولون اكثارها ، وان لم تتح البيئة لهم استنفاد طاقتهم هذه ، خلقوا من خيالهم أغراضا يستفرغون فيها هذه الطاقة ، ولم يتفرغوا أيضا للشعر لينكبوا على تنميقه واستقصاء تفريعات معنوية فلسفية فيـه ، أو متابعة صـوره حتى يبلغوا بها مراحل من الخيال والتصوير الشعرى البحت ، كما تفرغ كثير من الشعراء لشعرهم وخاصة أصحاب الحوليات (٢) ، وكان من أوضح آثار عدم احترافهم الشــعر لذاته وعدم تفرغهم له أو من أوضح أسباب هذا أيضا انهم لم يتكسبوا بالشعر — سواء جاهلوهم ومسلموهم — الا من شذ منهم كما قلنا ٠

٢ — والأمر الثـــانى الذى تتمثل فيه واقعية شعر الصعاليك ، انهم بالاضافة الى أن موضوعات شعرهم وأغراضه كانت واقعية بحتة ، كان تعبيرهم وتصويرهم لها واقعيا بحتا أيضا ، ومن الواضح ان هناك فرقا بين الناحيتين فلا يلزم من كون الموضوع واقعيا أن يكون تصوير الشـــاعر له وتناوله اياه واقعيا ، فكثير من الشعراء قد يتناول موضوعا واقعيا ، ولكنه يتخذ منه منطلقا

---

(١) أنظر أسس النقد الأدبى للدكتور أحمد بدوى ٤٣٥ — ٤٤٥ وانظر العمدة لابن رشيق أيضا ٢٢/١ الى ٢٦/١ فى بعض هذا ٠

(٢) من أشهر أصحاب الحوليات زهير بن أبى ســلمى الذى كان يقضى فى اعداد بعض قصائده حولا كاملا ٠

الى أجواء خيالية ، أو جوانب غير واقعية لا يربطها بالموضوع الا مجرد المقارنة أو نفسية الشاعر وعواطفه نحو كل منهما ، كما في سينية شوقى التى قالها فى منفاه بالأندلس ، حيث جعل موضوعها الأساسى أطلال المجـــد العربى فى الاندلس ، ولكنه اتخذ من الموضـــوع مرتكزا للانطلاق الى مقارنات يستعرض فيها حاضر مصر ، ومجدها الفرعونى القديم بآثاره ، متحدثا عن خواطره فى رحلة البحر والسفينة ، وأغراض كثـــيرة يتعرض لها بجامع المقـــارنة ووحدة مشاعره نحوها

ولكن الصعاليك لا ينهجون هذا المنهج فى واقعيتهم ، وانما يلتزمون أن يكون الموضوع من واقع حياتهم ، ثم يلتزمون أيضا حدود الموضوع ، لا يخرجون منه الى نطاق آخر ، ويلتزمون أيضا الواقع نفسه فى تصوير الموضوع والتعبير عنه ، فكثير من الشعراء يجنحون أيضا فى تصويرهم للموضوع الواقعى الى صور خيالية ، كما شبه ابن المعتز الهلال بزورق عليه حمولة من عنبر ، ولكن الصعاليك لا يتعدون فى تشبيهاتهم وحتى فى خيالهم الصور الواقعية البحتة بمعنى أنهم حينما يريدون تشبيه شىء واقعى لا يشبهونه بشىء خيالى ،وانمـــــا يشبهونه بشىء واقعى أيضا ، كما فعل أبو خراش في تشبيهه للقبر ، حيث شبه القبر البارز فوق الأرض بالبعير البارك فى قوله :

لعلك نافعى يا عـــــــرو يوما   اذا جاورت من تحت القبور (١)
اذا راحوا ســـواى وأســـلمونى   لخشـــناء الحجـــارة كالبعير (٢)

فالموضوع وهو القبر واقعى ، والمشبه به أيضا واقعى ، وهو الجمـــل البارك وحين نستقصى تشبيهات شعر الصعاليك وصوره الشعرية ، نجدها من صميم البيئة ، وفى أقرب حالاتها من الواقع والحقيقة المحسوسة فى حياتهم بل تبلغ واقعية الصعاليك اننا نرى المشبه به في شعرهم – على عكس غيرهم – أقرب الى الواقعية أحيانا من المشبه نفسه ، حيث نرى أغلب الشعراء يحاولون أن يضفوا على صورة المشبه به ثوبا من الخيال والرونق ، لأن الشاعر يعتبر المشبه به صنيعته وخلقه هو ، وهو الواقع لأن الشاعر يأتى بصورة المشبه به من خياله وتصويره ليعبر بها عن شعوره نحو شىء واقع يتحدث عنه هو المشبه ، فحين يريد الشاعر مثلا أن يصف زهرة ، أو أن يصف معركة ، تكون الزهرة والمعركة شيئين واقعين ليسا من صنع الشاعر ، وانما الذى من صنعه هو الوصف والتصوير اللذان يتمثلان أحيـــانا فى تشبيه الزهـرة والمعركة بأشياء أو بصور أخرى ، وهذه الأشياء والصور الأخرى من صنعه ومنسوبة

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٣٦وعروة أخوه ومن بمعنى الذين يعنى اذا أكامت .

(٢) أسلمونى يعنى تركونى يريد المشيعين لجنازته وخشناء الحجارة يعنى حجارة القبر وأصله لحجارة خشناء وكالبعير يعنى ظهر القبر كأنه بعير بارك .

اليه ، وهي في الوقت نفسه مقياس وحكم على شاعريته ، ولذلك يجتهد كثير من الشعراء أن يلبسوها ثوبا شاعريا مزخرفا بما يستطيعون ، وما يروق لهم من خيال وصور ،ومن هذه الزاوية نجد المشبه به في أغلب الأحيان وان كان أوضح من المشبه في المعنى الذي يريده الشاعر ، الا انه أبعد عن الواقع بسبب ما اكتنفه من خيال وتصوير كما أشرنا اليه من تشبيه ابن المعتز للهلال بزورق عليه حمولة عنبر

ولكن شعر الصعاليك غالبا ما نجد المشبه به فيه أقرب الى البساطة والواقع والالف من المشبه ، كما رأينا في تشبيه أبي خراش للقبر بالبعير البارك ، وكما في تشبيه الأعلم الهذلي لنزع الضباع جلد الفريسة بنزع الحداد حلية جفن السيف ، فهم يألفون ان غمد السيف يوضع عليه غشاء موشى ليكون حلية له ، وحين يبلى هذا الغشاء ويخلق يذهبون به الى الحداد لينزع هذا الغشاء البالي ويضع مكانه غشاء جديدا محلى بالوشي ، فيشبه الأعلم نزع الضبع لجلد الفريسة بنزع الحداد لهذا الغشاء ، فيقول في سياق حديثه عن الضباع : :

ينزعن جلد المرء نـــز ع القين أخلاق المذاهب (١)

ومن جوانب الواقعية في الصورة ، مراعاة ما هو معروف عن الضباع من تتبعها للجثث والجيف ، مما يجعل صورة الأعـــلم عن نزع الجلد أعمق في الواقعية والحقيقة ، فان نزع الجلد في الحيوان وهو ميت أيسر منه وهو حي ٠

ويتأثر الشنفرى بالرنين الذي ينبعث من القوس حين ينطلق منها السهم فيشبه هذا الرنين الحزين بأبلغ صوت تعرفه البيئة في الحزن ، وهو حنين الناقة على ولدها حين تفقده :

اذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعـــول (٢)

٦ ـ التجربة والصدق

التجربة والصدق اصطلاحان يترددان كثيرا في النقد الأدبي ٠

ويعني النقاد بالتجربة الشعرية ، وضوح الصورة الشعرية في نفس الشاعر ، وفهمه الكامل لجوانب موضوع شعره ، بمعنى أن يكون مدركا ادراك الاقتناع والفهم العميق لموضوع شعره ، ولا يقصدون بالتجربة ، التجـــربة

(١) ديوان الهذليين ٢/٨٠ والقين الحداد والأخلاق البالية والمذاهب المذهب ٠

(٢) من اللامية : والمرزأة كثيرة الرزايا تصيبها يعني فقدها ولدها وتعول من العويل ٠

الحسية التي يتصور معها أن يكون الشاعر قد عانى الموضوع معاناة حقيقيــة واقعية ، فقد يكون الموضوع خياليا ، وقد يكون واقعيا ولكن الشاعر لم يعانه ولم يتصل به اتصالا مباشرا ، بل قد يكون موضوعه تاريخيا في عصور غابرة ، ولكن ذلك لا يمنع من وصفه بالتجربة . فالذي يعنونه مـن التجـربة أن تـكون صورة الموضوع وعناصره وجوانبه ، واسبابه وملابساته واضــحة في نفس الشاعر ، مؤثرة في انفعاله كأنه عاناها حقيقة واحتك بها احتكاك التجـــربة العملية (١) ويجعلون الصدق من مقتضيات التجربة الشعرية السليمة المقبـولة في النقد ، بمعنى أن يكون الشاعر صادقا في نقل التجربة الذهنية الماثلة في نفســه للناس ، دون أن يـكون في ذلك مداراة أو التواء أو مجـاملة ، ويجعلون الصدق الفني في نقل التجربة من النفس الى الناس يتسم بالايمان والاخـلاص كايمان الصوفي واخلاصه لعقيدته ، فالشاعر يحتم عليه صدقه الفني أن ينقل تجربته على الصورة التي يؤمن بها ويعتقدها دون مراعاة أي اعتبار خـــارجي ولذلك يخرجون من التجربة الشعرية شعر المناسبات ، لأنهم يرون الصدق الفني فيها غير كامل نظرا لتأثر الشاعر بظروف المناسبة وملابساتها (٢) .

ونقاد العرب الأولون لا يجعلون لفظ التجربة اصطلاحا يتحدثون عنــه وان كان مضمونه يتردد كثيرا في نقدهم ، وأما الصدق فانهم وان كانوا قد اتخذوه اصطلاحا الا أنهم لم يضعوا له تعريفا محددا ، كشأنهم في معظــم اصطلاحات النقد الأدبي التي رددوها في نقدهم ، وقد اختلف فهمهم للصدق في الشعر ، فأحيانا يرونه الصدق الذي يقابل الكذب ، وأحيانا يتحدثون عنه على انه الصدق الفني الذي يتمثل في التصوير الشعري المقنع ، الذي لا يعارض التفكير والمنطق (٣) وحين نطبق التجربة والصدق على شعر الصعاليك ، نجد ان انطباقهما على شعر الصعاليك لا يكاد يماثله انطباق آخر .

فأما عن التجربة ، فقد كررنا ان شعر الصعاليك في جملتــه لم يعـــد حياة الصعاليك ومشاعرهم نحو حياتهم ، في نطاق بيئتهم المحددة التي يعيشون فيها ، ولم يعنهم خارج هذا النطاق شيء ، وحين يتحدثون عن هـذه النـواحي التي عنتهم نجد ان حديثهم حديث المجرب تجربة حقيقية بما عاناه وأحســه ، وبما يراه من حوله ، وقد قلنا في شعرهم عن الطبيعة انه يمتاز بأنهم دائما في الصورة وليس خارجها ، وانهم يضعون أنفسهم دائما موضع الجزء الأساسي من الصورة ، وليس موضع المشاهد المتفرج من خارج الصورة والمشهد . وان ذلك يسري على شعرهم كله بوضوح في كل موضوعاته وأغراضه .

واذا كان النقد يشترط في الشعر التجربة ، ويجعلها شرطا أساسيا في

---

(١) انظر النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٣٩٠ ـ ٤٠٠ .
(٢) المصدر السابق ٣٩٢ .
(٣) أنظر اسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ٤٣٦ .

تقبله ، فانه يكتفي بموقف المشاهد من خارج المشهد والصورة ، مادام المشهد أو الصورة واضحين في دهنه ، فكيف بالشاعر اذا كان داخل المشهد ، وجزءا منه ، وعاملا من العوامل المحركة فيه ؟ وكيف يقول النقد عنه ؟ لاشك أنـــه ــ من حيث التجربة ــ يكون هذا الشاعر قد بلغ قمة التجربة الحقيقية الواقعية وبالتالي يكون قد بلغ أقصى ما ينتظره النقد من شاعر ازاء التجربة ، بصرف النظر عن العوامل الأخرى التي تساهم في جودة الشعر ، وتدخل في عناصر الحكم عليه ، وكون شعر الصعاليك شعر تجربة حقيقية أمر لا يحتاج الى توضيح فحين نستعرض موضــوعات شعرهم وأغراضــه نفسها نجـــدها موضــوعات خاصة بهم من حيث انهم عانوها وصارعوا ظروفها ، فالفقر والجوع والهـــزال وتوقع الموت ، وقسوة البيئة ، بما فيها من عطش وجوع وخوف ، ومن حر وبرد وما الى ذلك ٠ كل ذلك عاناه الصعاليك معاناة حقيقيـــة ، ولذلك كان شعرهم عنه شعر التعبير عن ظروف وأحداث حقيقية في حياة أصحابهـــا فحين يقول أبو خراش مثلا :

واني لأثوى الجـوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي(١)

واصفا معالجته للجوع ، وموقفه منه ، فانما يعبر عن تجربة حقيقية عاناها٠

وحين يقول الشنفرى واصفا نعليه الباليتين ، اللتين لم تخصف خروقهما :

قليل جهازي غير نعلين اسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف (٢)

فانما يصف مشهدا حقيقيا يعانيه ويلابسه ٠

وحين يقول شبيب بن عمرو واصفا هروبه ونجاته من مطاردة جنود علي رضي الله عنه :

ولمـــا ان رايت ابني شميط بسكة طيء والبـــاب دوني
تجللت العصـا وعلمت اني رهـــين مخيس ان ادركوني (٣)

فانما يصور مشهدا حقيقيا تعرض له ٠

وحين يقول جحدر بن معاوية واصفا نفسيته وهمومه في سجن الحجاج :

تاوبني فبت لهـــا كنيعـــا هموم ما تفارقني حـــواني
هي العواد لا عواد قومي اطلن عيادتي في ذا المكـان (٤)

---

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ وأثوى من الثواء وهو الاقامة والجرم الجسم يعني لم يدنس عرضي ٠

(٢) مهذب الأغاني ٩٥/١ ٠

(٣) حماسة أبي تمام ٢٥٢/١ والعصا فرسه ومخيس سجن ٠

(٤) أمالي القالي ٢٧٧/١ ٠

فانما يصف نفسيته فى تجربة حقيقية مر بها وعاناها ·
وأما عن الصدق فى شعرهم فنقول :

ينبغى أولا أن نلقى نظرة على ظروف الصعاليك فى حياتهم ، وعلى بيئتهم اعنى نلقى نظرة على واقع الموضوعات والأغراض التى تعرض لهـا شعرهم لنرى هل وصفهم يطابق واقع هذه الأغراض أم يخالفها ، وحينئذ نستطيع أن نحكم عليهم بالصدق أو عدم الصدق ·

وحين نعود الى حديثنا عن ظروفهم وبيئتهم ، نجدها تتلخص فى أنهـــم كانوا فقراء فقرا أثر فى أجسامهم ، وحدد سلوكهم ، ومن هذا التحديد الجازم الى سلوك الصعلكة فى بيئة رهيبة بكل ما فيها ، وقد تميزوا بصفات من القوة النفسية والجسدية أعانتهم عليها ، وانهم كانوا فى شبه عزلة نفسية وواقعية عن المجتمع ، وانهم حددوا صلاتهم الاجتماعية على أساس هذه العزلة ، ونظروا الى الأمور ، والى الناس من زاويتهم هم ونفسياتهم ، هذه حقيقة الصعاليك وهذا واقعهم · وفى مقام البحث عن مدى صدق شعرهم فى التعبير عن هـذه الحقيقة ، وفى تصوير هذا الواقع نقول ان شعرهم عبر عن هذه الحقيقة ، وصور هذا الواقع بكل صدق وأمانة ، فاما عن حقيقتهم ومعيشتهم فقد نقـــل لنا شعرهم واقعهم فيها فى صدق بالغ ، وأوضح دليل على ذلك أن واقـع الصعاليك فى حياتهم لم يكن موضع فخر ولا مباهاة ، بل كان على العكس ، صورا مؤلمة حزينة ، من الفقر والجوع والهزال ، وتمزق الثياب والنعال ، والحرف والتوجس ، الى آخر ما مثلنا له كثيرا فى موضعه مما سبق ، وليس من شك فى انه لولا قوة شخصيات الصعاليك لخجل كثير منهم من أن يتحدث عما من شأنه أن يغض من قدره فى مجتمع يشيع فيه التفـــاخر بكل شىء ، وبأدنى شىء ، ومما لاشك فيه ان صراحتهم هذه فى وصف ما يمكن أن يغض من قدرهم تعتبر ناحية من نواحى قوتهم وشجاعتهم النفسية · فحين يصف الشنفرى مثلا حفاء قدميه ، وتمزق ثيابه ، وشعره الضافى الذى مر عليه نحو حول لم يغسل ولم يفل ولم يقص لا يقول ذلك فخرا ، ولا يقول انه أصبح بشعره ذا لبد كالأسد ، وانما يقوله واصفا حاله ومعيشته فى عـزلة الصحراء دون مواربة أو تضليل ، وللنـــاس بعد ذلك أن يروا فى ذلك ما يروا ، ولهم أن يرفعوه فى أعينهم أو يخفضوه ، ولكنه لا يعنيه من ذلك شىء وانما يعنيه أن يكون صادقا مع نفسه ومع غيره ، فيقول بعد قوله انه يحفى ولا يتنعل ، وبعد وصفه لردائه الأتحمى الممزق :

وضاف اذا هبت له الريح طيرت لبائد عن اعطافه ما ترجـل
بعيد بمس الدهن والفلى عهـــده له عبس عاف من الغسل محول (١)

---

(١) من اللامية : وضاف يعنى شعره المتهدل وترجل تمشط والعبس الوسخ ومحول من الحول يعنى لم يغسل منذ حول ·

وهكذا شعرهم عن أنفسهم ومعيشتهم وحتى نفسياتهم ومشاعرهم التى كان يمكن أن يخفوها آثروا أن يحدثونا عنها فى صدق بالغ ، كما يقول صخر الغى مصورا فزعه حين فر عاديا من أعدائه لم يستطع حتى أن يودع رفيقه من الفزع ، فضلا عن أن يعينه ، فيقول :

وفريت من فزع فــلا أرمى ولا ودعت صاحب (١)

وكما قال عبيد بن أيوب مصورا خوفه الذى سيطر على نفسه :

لقد خفت حتى لو تطير حمــــامة لقلت عــدو أو طليعــة معشر (٢)

وهكذا نجد الصدق فى شعرهم يبلغ أقصى ما يتصوره النقاد ٠

وقد يقول قائل : فكيف بحديث الوهم عندهم ؟

ونجيب عن ذلك بأننا تحدثنا حقا عن الوهم فى شعرهم ، من حيث انــه ورد فى شعرهم وهم لا يعقل أن يكون واقعا ولا صدقا ، لأن موضوعه غير موجود أصلا ، كحديثهم عن الغول والسعالى ، فى معاشرتهم لها ٠ ولكننا قلنا هناك ان هذا الوهم لم يشع فى شعرهم الى درجة أن يكون ظاهـــرة فيه ، بل حددنا اننا لا نعلم أن أحدا منهم صدر عنه هذا الوهم الا شخصين ، هما عبيد بن أيوب ، وتأبط شرا ، فأما عبيد بن أيوب فقد أكثر حقا من ذكر الوهم فى شعره ، وأما تأبط شرا فلم يتحدث عن الوهم الا فى حادثة واحدة زعم فيها أنه لقى الغول ، وانتهى أمره معها الى قتله اياها ٠ ومن الواضح أن انحصـار معنى من المعانى فى شخصين اثنين من طائفة ، لا يمثل هذه الطائفة ، بل يعتبر شذوذا لا يؤثر على الحكم العام بالنسبة للطائفة ككل ، والشذوذ لا يخلو منـه حكم ، كما لا تخلو منه جماعة ، ومعنى هذا ان صدور الوهم الذى لا يتفق مع الصدق والتجربة من هذين الشخصين لا يؤثر على صفة الصدق والتجربة فى شعر الصعاليك ، لأن هذا الوهم الذى صدر من عبيد وتأبط شرا كان نشذا شديدا فى شعر الصعاليك ، فلم يكن فى شعرهم ما يماثله ، أو حتى يقرب من اتجاهه ٠

على اننا حين نعلم الظروف المحيطة بعبيد بن أيوب وتأبط شرا ، وتأثـير هذه الظروف فى نفسيتهما وأعصابهما ، فقد نغير حكمنا على موقفهم من هـــذا الوهم لنقول أنه حق وصدق ، وليس كذبا واختراعا ٠

وذلك ان عبيد بن أيوب كما نجد فى ترجمته وأخباره (٣) ، كان حين قال شعر الوهم قد خلعه قومه لجنايات جناها ، وطارده السلطان طلبا لعقابه

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٧٨ ٠

(٢) الحيوان للجاحظ ٥/٢٤١ مع شعر آخر فى المعنى نفسه ٠

(٣) أنظر ترجمته وأخباره ومراجعها فيما سبق من فصل « الشعراء الصعاليك » ٠

على هذه الجنايات ، فاضطر الى اللجوء الى الصحراوات وحيدا فريدا ، يعـانى أشد الخوف من خلع قومه له ، ومن مطاردة السلطان ، ومن أعدائه أصحاب الجنايات التى جناها ، ومن الوحوش المحيطة به من كل جانب ، فسيطر عليه رعب شديد . وخوف مهلك ، وقد عبر هو نفسه فى صدق عن مبلغ خوفه فى شعر كثير يقول منه البيت السابق :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو او طليعة معشر

ويقول منه « وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى » (١) ويقول منه :

اذقنى طعم الأمن أوسل حقيقة على وان قامت ففصل بنانيا
خلعت فؤادى فاستطير فأصبحت ترامى به البيد القفار تراميـا (٢)

فهو يصرح اذن بأنه أصبح يرى فى كل شىء عدوا ، وفى كل صـوت صيحة عليه من أعدائه ، وأن الخوف الشديد ملك عليه نفسه وحواسه ومعنى ذلك ان احساسه وادراكه لما حوله أصبح غير سليم ، بالاضافة الى أساطير وخرافات عالقة بذهنه من أساطير البيئة عن الغيلان والسعالى والجن ، فتحت وطأة هذا الخوف الشديد ، من المحتمل أن يكون قد تصور هـذه الأساطير حقائق ماثلة فيما يراه من الظلال والكهوف وأصوات الطيور وأشباح الحيوانات فى الليل ، وبهذا لا يكون كاذبا فى دعواه عن هذه المخلوقات لأنه تحدث عما خيل اليه انه رآه وأحس به ، ولذلك آثرنا هناك أن نسمى هذا النوع بالوهم ، لأن صاحبه فى أغلب الظن لم يكن كاذبا ولا مختلقا ، وانما كان معبرا عما خيل اليه كحقيقة واقعة فى اعتباره .

والجاحظ يؤيد ذلك ، حيث انه بعد أن ساق شعرا كثيرا من شعر الوهم لعبيد بن أيوب ، لم يتهمه بالكذب والاختلاق ، وانما علل ذلك بقوله « اذا استوحش الانسان تمثل له الشىء الصغير فى صورة الكبير ، وتفرق ذهنـه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير أنه عظيم جليل » (٣) وأضاف الى هذا التعليل قوله أيضا « ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم بـه انهم ليس يلقون بهذه الأشعار والأخبار الا اعرابيا مثلهم والا عاميا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٤) ولـكن الدليل الثانى لم يسقه الجاحظ عن عبيد بن أيوب خاصة ، وانما ذكره فى مقام الوهم فى الشعر من حيث هو ولذلك ذكر شعرا آخر لغير عبيد فيه مثل هذا الوهم ، كشعر القتال الكلابى ، ومهما يكن فالجاحظ فيما يبـدو من حديثه

---

(١) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجى .
(٣) الحيوان للجاحظ ٢٥٠/٦ .
(٤) المصدر السابق ٢٥١/٦ .

لم يعتبره كذبا ، بل صرح بالنسبة لعبيد بن أيوب وكأنه يقدر ظروفه التى أشرنا اليها ، والتى صرح بها الجـــاحظ فى الدليل الأول « اذا استوحش الانسان ·· الخ » صرح بالنسبة لعبيد فى اكثر من موضع بأنه تصور حقيــقى كما فى عنوان احد الفصول « شعر فيما يصوره الفزع » (١) ثم ساق قــول عبيد السابق « لقد خفت حتى لو تطير حمـــامة ·· » وفى عنوان آخر يقول « مذاهب الاعراب وشعرائهم فى الجن » (٢) وفى عنوان آخر يقول «ما يتصوره الأعراب من عزيف الجنان تغول الغيلان » (٣) ومن هــذه العناوين نأخـذ أن الجاحظ لا يتهم عبيدا بالكذب والاختراع ، وانما يحمله على انه تصور حقيقى ناتج من عاملى الفزع وتأثير الأساطير فى النفس ·

وأما تأبط شرا ، فانه وان لم يكن خليعا ، ولم يتعرض لكل ظروف عبيد ابن أيوب ، فقد عانى ظروف عبيد فى وحشة الصحراء ومخاوفها العديدة وخوفه من أعدائه الكثيرين الذين يتوقع بل يوقن أنهم سيقتلونه كما يقول عن نفسه :

ومن يغـر بالأعـــداء لابد أنــه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا(٤)

ولكن هذه الظروف لم تبلغ من نفسه ما بلغت من نفس عبيد ، ولذلك كان حديثه عن الأوهام دون حديث عبيد ، فان تأبط شرا كما قلنا لم يتحدث عن وهم الا فى حادثة واحدة زعم انه قتل فيها الغول ، وقد قلنا انه كان يمكن أن نتصور انه فعلا قتل وحشا غريبا من وحوش الصحراء ظنه غولا ، لولا انه تحدث عن تفاصيل لا تترك مجالا للدفاع عنه كقوله عن الغول « وطالبتهـــا بضعها فالتوت » ·

ونعود فنقول ، ان شذوذ شخصين من طائفة بأكملها لا يؤثر عـــلى الحكم العام بالنسبة للطائفة ، على انه يمكن حمل حديثهما فى الوهم على انه صـــدق وليس كذبا ، وذلك باعتبار الزاوية التى علل بها الجاحظ هذا الوهم ، من حيث ان الانسان اذا سيطرت عليه الوحشة وما يحيط بها من عوامل الخوف والرهبة تمثلت أمامه أشباح وخيالات يظنها مخلوقات حقيقية ·

ولكن الشيء الذى ينبغى ألا نغفله أنه حتى مع فرض عدم الصدق الخلقى فى هذا الوهم ،فلا شك أن فيها صورة من الصدق الفنى والتجربة الشعرية كما يقرها النقاد · لأن هذا الوهم يدل أول ما يدل على جو الرهبة والوحشة الذى أحس به الشاعر وتأثرت به نفسه ومشاعره، ومن هذه الناحية يعتبر حديث الوهم هذا

---

(١) الحيوان ٢٤١/٥ ·
(٢) الحيوان ١٦٥/٦ ·
(٣) الحيوان ٢٥١/٦ ·
(٤) حماسة أبى تمام ١٨٩/١

تجربة شعرية صادقة من الوجهة الفنية ، بصرف النظر عن الصدق الخلقي الذى يقابل الكذب ، لأن هذا الجو الرهيب المخيف الذى عاش فيه الشاعر هو حقيقة واقعه وكونه عاش فيها وتأثرت بها نفسه يجعلها تجربة حقيقية · ونقله لهذه التجربة يعتبر من الناحية الفنية صدقا فى نقل مشاعر وأحاسيس ، والى هذا الحد يعتبر شعراء الوهم غير مخلين بالتجربة والصدق ، أما ما بعد ذلك من التفاصيل(١) فهو موضع النظر ، واختلاف النظرة · واذن فشعر الوهم من حيث تصويره لجو رهيب مخيف يملأ النفس بأحاسيس الخوف والتصورات ، يمثل تجربة حقيقية ، ونقل الشاعر لاحساسه بهذا الجو وانفعالاته واحساسه به فى جملته يعتبر صدقا فنيا ، وهذا القدر يكفينا دليلا على أن شعر الصعاليك كله بما فيه شعر الوهم يمثل تجارب حقيقية عاشها الصعاليك وتأثرت بها نفوسهم ومشاعرهم ، وكانوا صادقين صدقا فنيا بالغا فى نقل صورة تجاربهم حتى كأننا نعيش فى هذه التجارب ونحسها ·

ولا نحب أن يصرفنا حديث الوهم عن الطابع العام والغالب على شعر الصعاليك ، فالواقع الذى لا ينازع فيه بين الدارسين لشعر الصعاليك أن شعرهم يمثل تجارب حياتهم الواقعية ، وأنهم قد نقلوا هذه التجارب على حقيقتها ، وكما احسوا بها ، وأن شعرهم بلغ فى الناحيتين أقصى ما يتاح لشعر فى تمثيل الواقع ، وأقصى ما ينتظره النقد من صدق التجربة ، وصدق الشاعر فى نقلها · حيث جعلنا شعر الصعاليك كأننا نرى حياتهم وظروفهم بأعيننا ، ونلمسها بحواسنا كما رأينا فى الحديث عن شعرهم كله فى مختلف الموضوعات والاغراض، ونقاد العرب يرون فى هذه الصفة ميزة ترتفع بالشعر الى قمة الجودة ، كما يقول ابن رشيق « وأحسن الوصف ما نعت به الشىء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع ، وأحسنهم وصفا من أتى فى شعره أكثر المعانى التى الموصوف بها مركب فيها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها به ، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته ، وقال بعض المتأخرين أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا » (٢) والعبارة الأخيرة أصدق ما ينطبق على شعر الصعاليك · واذا أردنا أن نناقش انحصار شعر الصعاليك فى حدود بيئتهم وحياتهم ، نقول أنه لم يكن ينتظر من مثلهم غير ذلك ، لأنهم لم يلموا ببيئة غير بيئتهم ، ولم توسع آفاقهم ثقافة يطلون منها على مجتمعات أو معلومات غير مجتمعهم ومعلومات بيئتهم ، ولا يقلل من قدر شاعر أن تنحصر موضوعاته فى نطاق بيئته ومعلوماته ، وانما يقلل من قدره كشاعر أن يقصر فى الموضوع من حيث استيفاء معلوماته وتطبيقها وأن يقصر فى قدرته على التصوير نفسه، بمعنى أن تكون قدرته الشعرية دون الوفاء بالتصوير الجيد لموضوع شعره ، وقد عرف نقاد العرب منذ القديم أن الشاعر لا ينتظر منه أكثر من صور بيئته ومعلوماتها ، كما يقارن ابن رشيق بين شعراء البادية ، وشعراء الحضارة المحدثين

(١) أعنى بالتفاصيل ، تفاصيل ما دار بين الشاعر والمخلوقات الوهمية فيما يصوره الشاعر فى وهم عبيد بن أيوب ·

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٥ ·

فيقول « وليس بالمحدث من الحاجة الى أوصاف الا بل ونعوتها والقفار ومياهها وحمر الوحش والبقر والظلمان والوعول ، ما بالاعراب وأهل البادية ، والاولى بنا فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان والكئوس والقنانى والاباريق وباقات الزهر ... » (١) والنقاد والمحدثون يهتمون فى حديثهم عن التجربة الفنية الحقة بمعنى يعنينا فى الحديث عن شعر الصعاليك من حيث التجربة الشعرية ، فالنقاد يرون التجربة الفنية الحقة هى التى يتمثلها الفنان أو الشاعر لنفسه قبل أن يعني بها اثارة غيره ، وكأنه حين ينسج مشاعره الفنية لا يعنيه أحد ، وانما تعنيه نفسه ، ولا يقصد الى اثارة مشاعر أحد ، وانما يقصد أولا الى اشباع شاعريته والى ارضاء مشاعره هو ، فاذا خاطب الناس بعد ذلك بفنه أو شعره ، فهو انما يخاطبهم ليشاركوه فى لذته الفنية ، ومتعته الشعورية ، فالمتعة الفنية واللذة الشعورية يقصد بها نفسه قبل كل شىء ، ويصرف فيها النظر عن كل مخاطب ، فاذا خاطب الناس بفنه أو شعره · لم يكن يقصدهم هم فى الحقيقة بهذه المخاطبة بمعنى أنه لم ينشىء فنه وشعره من أجلهم وانما مجرد اشراكهم أو اطلاعهم على متعته الفنية وعلى مشاعره التى نسجها وصورها لنفسه ، وهذا المعنى تترتب عليه آثار كثيرة فى منهج كل فنان وشاعر ، والنقاد يعتبرونه من حيث التجربة هو المقياس الحقيقى الذى يتفاوت به الفنانون والشعراء ، فيقولون عن هذا المعنى مثلا « وقد يوجه التعبير عن الشعور الى مخاطب ، ولكن هذا التوجيه لا يقصد منه اثارة شعور مماثل من الغير ، وانما يقصد به أن يدرك فقط ما يحسه المتكلم » (٢) ويقولون أيضا « أما المرء الذى يعبر عن شعوره بحق فهو الذى يقف من نفسه ومن مستمعيه موقفا واحدا فيوضح شعوره لهؤلاء المستمعين توضيحه لنفسه سواء بسواء · والأصل اذن هو تعبير المرء لنفسه عن نفسه ثم لمن يفهمه ، وهذا تفريق واضح بين من يعبر عن شعوره ، ومن يثير شعور الآخرين » (٣) ·

وحين نعود الى ما قررناه غير مرة ، من أننا نحس دائما كأن شعراء الصعاليك لا يقولون شعرهم للناس ، وانما يقولونه أولا لأنفسهم ، وأن شعرهم فى هذا أشبه بالمذكرات الشخصية التى يسجل فيها امرؤ خواطره ومشاعره ومشاهداته لنفسه ، حين نعود الى ذلك نجد أن شعر الصعاليك يمثل التجربة الشعرية فى أصدق صور فنية ترجى من شاعر ، وفى أمثل مستوى شعرى ينتظره النقاد من الشاعر ازاء التجربة الشعرية ·

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/٢٩٥ ·
(٢) الأسس الفنية للنقد الأدبى للدكتور عبد الحميد يونس ص ٩٨ ·
(٣) المصدر السابق ص ٩٩ ·

من الملامح الواضحة فى شعر الصعاليك ، والتى تميزه عن الشعر المعاصر له ، الطابع الخاص بوحدة القصيدة ، فبينما نجد الشعر العربى القديم يلتزم ما يسميه النقاد القدامى عمود الشعر ، وعمود الشعر يتفقون فى فهمهم له ـ رغم اختـــلاف نظرتهم فى تفاصيله ـ على أنه التزام الطابع التقليدى المتوارث عن الشعراء القدامى ، سواء من حيث المطلع أو المعانى أو الالفاظ أو النواحى البيانية والبلاغية (١) بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع ومن بينه اشتمال القصيدة على عدة عناصر فى أغلب الأحيان ، وفى مقدمة هذه العناصر الغزل فى مطلع القصيدة ، ثم وصف حال الشاعر غالبا ثم الموضوع الأســاسى ، وما تستتبعــه من عناصر ، وهذا الطابع معروف فى الشعر العربى القديم ٠

نقول بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع نجد شعر الصعاليك يخالفــه فيه مخالفة واضحة فشعر الصعاليك مثلا يندر ان نجد فيه بدء القصائد بالغزل كطابع تقليدى ، الا اذا كانت القصيدة نفسها غزلا ، فلا تكون حينئذ ذات مطلع ، لأن مطلعها وموضوعها واحد وهو الغزل ولو ذهبنا نستقضى شعر الصــعاليك كله لما وجدنا فيه قصيدتين أو ثلاثة يبدآن بهذا المطلع التقليدى فى الشعر القديم، وحتى بعض هذه القصائد القليلة التى بدئت بالغزل مع اشتمالها على أغراض أخرى ، يحدثنا الرواة بأن الغزل فيها حقيقى وليس مطلعا تقليديا ، كقصيدة عبدة بن الطبيب التى أولها ٠

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (٢)

فالرواة يذكرون فى سبب هذه القصيدة أن عبده كان قد هاجر لمهاجرة حليلة له ـ وهى التى يتحدث عنها فى القصيدة ـ فلما آيسته رجع الى البادية فقال هذه القصيدة ، فأول طابع تقليدى كان الشعر القديم يلتزمه وهو استهلال القصيدة بالغزل ، لم يكن شعر الصعاليك اذن يلتزمه ٠

ثم نذهب الى بقية جوهر الطابع التقليدى ، فنجد شعر الصعاليك لا يلتزمه أيضا ، بل يكاد يعارضه معارضة واضحة ، وذلك أننا نجد شعرهم لا يتجه الى طابع القصائد التى تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة ، وانما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا لا تعدو تصويره ، أو تصوير جوانبه وملابسات المباشرة ، ولو أخذنا أطول قصيدتين وردا لنا من شعر الصعاليك ، وهما لامية عبدة بن الطبيب ولامية الشنفرى ، لرأينا أنهما مع طولهما ، ومع ما يبدو فى

(١) أنظر أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد بدوى ٥٣٥ ـ ٥٣٩ ٠
(٢) المفضليات ص ١٣٥ ٠

بعضهما من معان مختلفة ، يمثلان الوحدة فى القصيدة بصورة تخالف الطابع التقليدى فى الشعر المعاصر لهما •

فأما قصيدة عبدة وهى ذات المطلع السابق ، وتبلغ واحدا وثمانين بيتا ، فالظروف التى أحاطت بانشاء عبدة لها ، أن زوجه خولة رحلت الى المدائن ، وقد ذكر الرواة كما قلنا أنه هاجر وراءها فلما أيسته رجع من المدائن التى شهد فيها وقعة القادسية ، الى باديته فى الحجز ، ثم قال القصيدة ، وحين نستعرض القصيدة نجد أنها على طولها لم تعد وصف الرحلة وسببها ، فتبدأ بحنينه الى خوله ثم حلولها المدائن والكوفه ثم يعبر عن يأسه منها ، ونفض يده متخلصا الى حديث رحلته بقوله :

ان التى ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول
فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ان الصبابة بعد الشيب تضليل
بجسرة كعلاة القين دوسرة فيها على الاين ارقال وتبغيل (١)

ويتخذ من هذه الأبيات تحللا من حديث خولة ، ومنطلقا لوصف الرحلة وبمقدار طول الرحلة كان وصفه لها أيضا ، فقد وصف من مطاياهم فى الرحلة الناقة والفرس وصفا طويلا جميلا ، ووصف معيشتهم وحصولهم على الطعام أثناء الرحله ، فوصف الصيد الذى يعتمد عليه مسافر الصحراء ، وكان الصيد الذى هز مشاعره صيد، ثورا أبيض اللون يخالط قوائمه سواد ، ووصف الصراع مع هذا الثور ، ووصف الثور نفسه وصفا بديعا ، كوصفه اياه وهو يعدو من مطاردة الصائد عدوا يثير التراب فى كل وجه بكل قوائمه ، وقد نال منه الجهد حتى خرج لسانه مائلا عن شدقه فيقول :

مستقبل الريح يهفو وهو مبترك لسانه عن شمال الشدق معدول
يخفى التراب بأظلاف ثمانية فى أربع مسهن الأرض تحليل (٢)

ثم يصف عبدة ما لقيه من البذخ والترف فى بلاد العجم ، مصورا اياه فى مجلس شراب بما فيه من بسط وستائر وتماثيل وسقاة •

وهكذا نجد القصيدة كلها موضوعا واحدا هو وصف رحلة مقرونة بسببها ، مستعرضة أبرز المشاهد التى أثارت مشاعره فى هذه الرحلة •

وأما لامية الشنفرى فهى جاهلية ، وعدتها ثمانية وستون بيتا ، والظروف المحيطة بها ، ان الشنفرى حين قالها لم يكن له وطن ولا أهل كما كان للناس

---

(١) المفضليات ١٣٦ والجسرة الناقة الصلبة والقين الحداد والعلاة سندان الحواد والدوسرة الصلبة الضخمة والاين الأعياء والارقال والتبغيل نوعان من المشى السريع •

(٢) المبترك المجتهد فى العدو ومعدول مائل ويخفى بمعنى يظهر ويثير ، والثمانية لان فى كل رجل ظلفين وتحليل من تحليل القسم •

فقد سبي من أهله في أزد اليمن وهو صغير ، لينقل الى نجد أسيرا فيها ولم يلبث أن أحس الهوان والذل الذى يعيش فيه بمرارة لم تطقها نفسه ، وقد ضاعف مسلك بنى سلامان فى اهانته من احساسه بالذل والهوان ، فامتلأت نفسه سخطا على الناس جميعا ، وآثر الصحراء بوحشتها ووحوشها وقسوة حياتها ومخاطرها على حياة الناس ·

ونحن ننظر الى اللامية نجدها لا تعدو تصوير هذه الظروف ، ولا تطرق أى غرض آخر خارج نطاقها ، فالقصيدة تبدأ باظهار سخطه على الناس ، وتصميمه الجامح على هجرة مجتمعهم كله الى الأبد حيث يقول فى مطلعها :

أقيموا بنى أمي صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

ثم يبين القوم الآخرين الذين آثرهم على الناس الذين هجرهم فاذا هم قائمة من الوحوش الضارية ، يرى فيها الأهل والأنس والفضيلة اللائى افتقدهن فى مجتمع الآدميين ، ثم يصف حياته فى الصحراء ، ومشاهده فيها من الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام مثله ، ومن النحل الحزين الصاخب لسطو آدمى على خلاياه مهدما اياها خلال جمعه العسل ، ويصف مناخ الصحراء ببردها الشديد فى الليل وحرها القائظ فى النهار ، وما يعانيه من عطش وجوع ، ويصف نفسه هو فى هذه الحياة ، فنراه ناحل الجسم بارز العظام ، مهلهل الثياب حافى القدمين ، ضافى الشعر الملبد الذى لم يرجل ولم يغسل منذ أمد بعيد ·

وهكذا نجد اللامية لا تعدو قط حدود الظروف التى اقتضتها ، ولا تتعرض قط لغرض او معنى خارج نطاق موضوعها ، كما لم تتعرض قصيدة عبدة ابن الطبيب لغرض أو معنى يشذ عن نطاق موضوعها ·

واذا كانت هاتان القصيدتان وهما أطول ما وصلنا من شعر الصعاليك تمثلان هذه الوحدة الموضوعية التى لم يخلل بها نشذ فاولى بما دونهما طولا من شعر الصعاليك أن يكون ألزم للوحدة وأحرص عليها ،ولسنا نقول ذلك استنتاجا او قياسا ، فالواقع أن طابع شعر الصعاليك كله يكاد يكون فريدا فى التزامه الوحدة فى أكمل صورها اذا قيس بالشعر المعاصر له ، وليس معنى ذلك اتهام الشعر المعاصر لشعر الصعاليك بمجافاة الوحدة كما يزعم كثير من النقاد المحدثين الذين أولعوا بترديدهم عبارة الوحدة العضوية ، متخذين منها سلاحا غير لين ولا مرن يحطمون به عن عمد أو عن غير عمد تراثنا العربى القديم ·

ولم يصدر أولئك النقاد فى مهاجمتهم للقصيدة العربية فى وحدتها عن الدراسة والتذوق والانصاف بقدر ما تأثروا ببريق النقد الغربى ومقاييسه

الحرفية الجافة للأدب ، وكان فى مقدمة الذين نشروا هذا التشكيك فى الشعر العربى خليل مطران (١) ، ثم تتابع من بعده عـدد من هؤلاء ، فى مقدمتهـم أصحاب مدرسة الديوان التى حمل لواءها المرحوم عباس العقاد ، ولست أريد أن أخوض فى هذا الحديث الا بالقدر الذى يعنينا منه الآن ، فأقول : ان هذه الدعوة كانت أثرا مباشرا لتأثر هؤلاء الادباء بثقافة الغرب وأسلوب نقـده ، كما يصرحون جميعا بذلك ، وخاصة فى مقارنتهم بين الأدب العربى والغربى وحديثهم عن تاريخ الوحدة العضوية فى النقد الغربى ، وفى نظرة مجملة الى هذه الدعوة نراها تتضمن أمرين ذوى خطورة بالنسبة لأدبنا العربى .

١ - لم يراع أصحاب هذه الدعوة طبيعة الأدب العربى وتذوقه وطابعـه الفكرى والخيالى واللغوى الخاص به ، ومهما يكن الأدب انسانيا أو عالميا فلا شك أن لكل أمة طابعها وأسلوبها ومنهجها الادبى الخاص . ولكن أصحاب هذه الدعوة فى نشوة تأثرهم بالثقافة الغربية أرادوا أن يطبقوا كل شىء فيها على كل شىء فى الثقافة العربيةالشرقية دون مراعاة الظروفالتاريخيةوالطبيعية فى كل من المجتمين مع انهم يعترفون ان الوحدة العضوية حتى فى النقد الغربى انما نشأت بالنسبة للمسرحيات والملاحم وظلت حتى اليوم ، وأهم مجـال لتطبيقها هو المسرحية (٢) كما ان الشعر الغربى يختلف فى طابعه عن الشعر العربى ، مما يجعل لتطبيق الوحدة العضوية فيه أثرا ، وكذلك شعر المسرحيات ، والشعر القصصى (٣) فى الأدب الغربى ، يتيح للوحدة العضوية أن تراعى فيه كما يتحدثون عنها ، ولكن أدبنا العربى فى طابعه وأسلوب اتجاهاته وتكوينـه لا يحتمل مثل هذه الدعوة الحرفية الجافة ، وموضع الخطورة فى انها صدرت وانتشرت على يد أفراد كانت ظروف المجتمع العربى الثقافية ، تجعل منهم قادة ليسوا لامعين فحسب ، بل وفى موضع القدوة التى تتحكم فى توجيه الشباب وفى رسم الكثير من الخطوط الثقافية للمجتمع .

٢ - اذا كانت هناك أسباب كثيرة يعلل بها ركود الشعر العربى وضعف مستواه بصفة عامة فى الفترة القريبة فلاشك ان من بين هذه الاسباب هذه القيود الجافة التى أشاعها بعض نقادنا المحدثين وفى مقدمتها الوحدة العضـوية كأصحاب الديوان ومن سار فى فلكهم ، فمن اليسير أن نتصور الناشئين من الشعراء أمام دعوة كهذه ممن يعتبرونهم قادة لا يرقى الخطأ أو سوء التوجيه اليهم بين أمرين ، فاما أن يحاولوا النسج على منوال هذه الوحـدة العضوية وما صاحبها من قيود وحرفية ، فيأتى شعرهم بعيدا عن روح الشعر العربى وحريته وانطلاقه فى أجوائه الفسيحة التى ألفهـا ، واما أن يؤثروا العافيـة

(١) النقد الأدبى الحديث للدكتور غنيمى هلال ٤٠٦ نقلا عن مرجع آخر .
(٢) أنظر المصدر السابق ص ٤٠١
(٣) انظر المصدر السابق ٤٠٦

فيهجروا الشعر الى شيء آخر وقد كانت النتيجة أن أصيب الشعر العربي المعاصر تحت ضربات هذه الوحدة وقيود النقد الاخرى - بالاضافه الى عوامل اخرى - بضعف وثقل شديد في الحركة والانطلاق وفي مقدمة الذين تأثر شعرهم تأثرا ضارا بهذه الدعوة ، أصحاب الدعوة نفسها ، فان منهم من كان يمكن أن يكون شاعرا ذا قدم في الشعر ، وأن يكون شعره أرفع مما كان عليه بكثير ، لولا هذه القيود التي كبله بها باسم الوحدة العضوية وما أحاط بها ، حتى كان كثير منه أقرب الى البحث العلمي منه الى الشعر ٠

على اننا نلاحظ ان التأثر الشديد بنقد الغرب وأدبه لم يجرف كل الأدباء والنقاد العرب ، فمنهم من استطاع أن يحافظ على تذوقه السليم للأدب العربي منكرا مهاجمة الشعر العربي واتهام قصائده بمجافاتها للوحدة ، كما صرح الدكتور طه حسين بذلك ، حيث يقول بعد أن عرض اتهام بعد النقاد للقصيدة العربية بالتفكك والاخلال بالوحدة ، ممثلا بقصيدة لبيد « وانما أقف معك عند قصيدة لبيد ٠٠ وأتحداك وأسألك أن تبين لى من أين يأتيها الاضطراب والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة الا من الوزن والقافية ٠٠ أمامك قصيدة لبيد ، فأرنى كيف تقدم فيها وتؤخر ؟ وكيف تضع فيها بيتا مكان بيت دون أن تفسد معناها افسادا ، وتشوه جمالها تشويها ٠٠ انها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئا الا أفسدت البناء كله ، ونقضته نقضا ٠٠ » (١) كما أنكر بعض النقاد أيضا التسمية بالوحدة العضوية والزام شعرنا العربي مضمونها الذي يريدونه كالدكتور محمد مندور (٢) ولكننا في الوقت الذى نكبر موقف هذا البعض من الأدباء والنقاد ، من حيث محافظتهم على الذوق العربي في أدبه ، وعدم تخليهم عن مراعاة طبيعة الفارق بين الأدب العربي والغربي في ذوقهما ومنهجهما ، في وقت كان يمكن أن يلتمس لبعض المتأثرين بثقافة الغرب ونقده بعض العذر ، من باب قول ابن خلدون « المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » (٣) في الوقت الذى نكبر فيه موقف أولئك في ذلك الوقت ، نجد من نقادنا المعاصرين من لا يزال يصر على متابعة هذه السبيل التي جنت على شعر أصحابها ، وعلى شعر مجتمعهم أيضا من حيث المساهمة في اضعافه بل وعلى تراث العرب الشعرى كله ، من حيث محاولة هدمه والتشكيك في مستواه وسلامته الفنية ، فلازال في نقادنا المعاصرين من يقول « فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال ، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها ٠٠ على ما بين أجزائها من تنافر

(١) حديث الاربعاء ص ٣٠

(٢) الشعر المصرى بعد شوقى ص ١٠٥ ، ١٠٦ سنة ١٩٥٨ نقلا عن النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٤١٠ وما بعدها ٠

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ (هذه العبارة عنوان لفصل) ٠

يتنافى والوحدة العضوية فى معناها الصحيح » (١) وقائل هذا الكلام لا يكتفى بهدم الشعر القديم وحده ، وانما يهدم كل ما جاراه من الشعر الحديث ، حتى شعر شوقى كنقده الهادم لسينية شوقى المشهورة ، حيث كان من نقده لها « فهى تسير على طريقة تقليدية محضة » وقوله « فنظام القصيدة تقليدى محض اذا تراءت فيه وحدة نفسية فلا وحدة عضوية له » (٢) ونقد كثير هادم لها من نواح أخرى ولكننا لا يعنينا النقد الموضوعى ، فليس لنا أن ننكر على ناقد اجتهاده فى النقد الموضوعى ، وليس لنا أن نسيء الظن به وان أخطأ فى هذا ، مادام ملتزما المنهج الموضوعى الذاتى ، مترسما طريق النقد الذى ينبع من تذوقه واحساسه ، ولكن الذى ننكره أن نجعل من مصطلحات النقد الغربى سيفا على تراثنا العربى وأن نلغى ذوقنا العربى لنضع مكانه ذوقا واصطلاحا أجنبيا نحكمه فى تراثنا وأدبنا ، وأن نجعل من مجرد الطابع التقليدى فى الأدب العربى سبة فى الأدب وحطا من شأنه ، فلسنا نعيب على هذا الناقد أن ينظر الى قصيدة شوقى هذه من أى زاوية يريد ، ولكننا ننكر عليه أن يركز حطه من شأنها ومحاولة هدمها على مجرد انها سارت على الطابع التقليدى فى الشعر العربى ، وكان هذا الطابع سبة يجب أن ينأى عنها كل شعر ، وأن ينفر منها كل شاعر ، وقد يقال ان الطابع التقليدى قيد أثقل شاعرية بعض الشعراء فى القديم والحديث ، وقد لا نتشدد فى انكار هذا القول ، ولكننا نتشدد كل الشدة منكرين أن يجعل هذا الطابع علامة على رداءة الشعر وجموده وهوان أمره ، بل ننكر مجرد ادخال هذا الطابع فى نقد أى قصيدة ، فلنا أن نجعل حديثنا عنه مستقلا ، هل أجدى هذا الطابع على الشعر العربى أم لم يجد ؟ ولكن ليس لنا أن نجعله لذاته نقيصة فى أى قصيدة فقد تلتزم قصيدة هذا الطابع ، ومع ذلك تبلغ قمة الجودة الشعرية ، وقد تجانب قصيدة أخرى هذا الطابع ، ومع ذلك تنزل الى درك سافل فى ميزان الأدب والشعر ·

والعجيب أن يرى هذا البعض من النقاد أن هذه الدعوة الى الوحدة العضوية قد أفادت الشعر المعاصر فائدة « بعيدة المدى » كما يقول « وكان لهذه الدعوة أثر ثورى بعيد المدى فى ادراك الشعر ، وفى ادراك القصيدة بوصفها وحدة حية كاملة ، وفى السمو بموضوعها وغاياتها ، وفى صدق صورها وتآزرها جميعا على الوصول الى هدفها » (٣) ومعنى ذلك ان القصائد العربية لم تعرف السمو فى الموضوع والغايات ، ولم تعرف الصدق والتآزر الا بفضل هذه الدعوة ، وانهم بمحاولتهم هدم مثل شعر شوقى ، قد رفعوا ما جاء بعده من الشعر رفعا « بعيد المدى » ولكننا نكتفى فى الاجابة عن هذا كله ، بأن نسأل هذا البعض : هل حقا تؤمنون بأن الشعر العربى كان وضيعا لم يسم

---

(١) هو الدكتور محمد غنيمى هلال فى النقد الأدبى الحديث ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ ·

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ·

(٣) النقد الأدبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ٤١٠ ·

الا بالوحدة العضوية العربية ؟ وهل حقا تؤمنون بأن هذه الوحدة قد سمت بالشعر الحديث سموا بعيد المدى ؟ وهل حقا تؤمنون بأن محاولتكم هدم مثل شعر شوقى ، قد بنت بعد شوقى شعرا خيرا من شعره وأسمى منه ؟

على ان التأثر بالثقافة الغربية وآراء المستشرقين كما لم يجرف كل أدباء ونقاد الجيل الماضى كذلك لم يندفع كل نقاد الجيل المعاصر فى هذا التيار . بل نرى أن نقدنا يتجه الى الطريق العربى الأصيل (١) وان التأثر بالروح الغربية ونزعة المستشرقين أخذت تتضاءل فى مجتمعنا العربى ، وهذا ولاشك أثر مباشر من آثار استقلال الكيان العربى ، وشعوره بذاته وضعف نزعة التقليد التى عللها ابن خلدون فى نظريته السابقة ، فنجد ناقدا كالدكتور أحمد بدوى يعود الى الروح العربية فى النقد بقوة وعمق ، مبينا كيف ان القصيدة العربية مهما بدت مشتملة على أغراض وعناصر مختلفة ، فان لها أسلوبها فى ربط هذه العناصر واحكام وحدتها ، وان الذوق السليم لابد أن يحس بأن هذه الأغراض عناصر متحدة الغاية والهدف ، محققة للوحدة ، مستعرضا مواقف نقاد العرب القدامى الذين لم يفتهم الحرص على الوحدة ، ولكن من زاوية الأفق الواسع ، والذوق العميق للروح العربية ، مشيرا الى أثر المستشرقين فى بث هذا التشكيك فى قيمة الأدب العربى حيث يقول « وهنا يحسن بى أن أشير الى ما شاع على الألسنة ، وما ردده كثير من المستشرقين من اتهام القصيدة العربية بخلوها من صفة الوحدة الفنية » (٢) وقد بين رأيه فى موقف المستشرقين ومن شايعهم من أصحاب الوحدة العضوية فى قوله « هذا الاتهام للقصيدة العربية ولنقاد العرب فيه ظلم بالغ وحيف كبير .. » (٣) .

والموضوع الذى آثار هذا الجدل حول وحدة القصيدة العربية ، هو ما شاع فى القصائد العربية ، من اشتمالها على أكثر من عنصر ، ومن ذلك استهلالها بالغزل ، ولو لم يكن موضوعها غزلا ، فيصبح المطلع عنصرا مستقلا يضاف الى ما فيها من عناصر أخرى ، وأوضح ما يكون ذلك فى قصائد المدح حيث يغلب اشتمالها على ثلاثة عناصر ، الغزل ، ثم وصف الرحلة الى الممدوح ثم ما قد يصحب ذلك من حكم أو نحوها وقد بين النقاد القدامى وفى مقدمتهم ابن قتيبة (٤) ثم المنصفون من الذين لم يجرفهم تيار المستشرقين فى الحديث ان ذلك لم يخل بوحدة القصيدة العربية ، وأصبح موقف الذين جرفهم تيار المستشرقين لا يمثل فى جملته نقدا موضوعيا للشعر العربى ، وانما عداء

---

(١) أنظر آراء واتجاهات للدكتور محمد نايل ٥٢ ـ ٧٥ .
(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٢٢ وما بعدها منبها الى مراجع أخرى .
(٣) المرجع السابق ٣٢٣ وما بعدها .
(٤) الشعر والشعراء ٦ .

نافرا وتنكرا شديدا لكل ما يحمل الطابع العربى من الشعر ، ولو بلغ حد الاعجاز الفنى ، وكأن الطابع العربى لذاته علامة فى نظرهم كما قلنا على الرداءة والتفاهة ، ولا أظن ان هذا يصلح لسبيل النقد الموضوعى المنصف ٠

وكان لزاما أن أتعرض لهذا الحديث الموجز وحدة القصيدة ، لأبين أن الشعر العربى ، بما فيه الشعر المعاصر لشعر الصعاليك لم يخرج عن حدود الوحدة ، سواء فى نظر القدامى من نقاد العرب أم فى نظر الذين ظلوا عربيى النقد والذوق والنظرة من المحدثين ٠

وعلى ضوء هذه النقطة ننظر الى شعر الصعاليك فنقول انه مع كون الشعر المعاصر لهم تمثل قصائده الوحدة التى يقتضيها الفن الشعرى ، الا أن شعر الصعاليك كان أبلغ فى تمثيله لهذه الوحدة ، حيث سلك منها منهجا أوضح وأعمق ، وكان له فيها طابع أكثر وضوحا وتميزا ٠

فقد قلنا انه حتى فى أطول قصيدتين بلغتانا من شعر الصعاليك كانت الوحدة بينة محكمة فيهما ، وقد كان انتقال عبدة بن الطبيب من حديثه عن امرأته التى كانت سبب رحلته الى وصف الرحلة نفسها ، وكان ربطه بين المعنيين يمثل أبلغ ما يصفه النقاد العرب بحسن التخلص ، وقد تمثل تخلصه هذا البليغ فى الأبيات الثلاثة التى ذكرناها آنفا وصلبها :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ان الصبابة بعد الشيب تضليل

فقد جعل هذا البيت حدا فاصلا بين المعنيين ، ولكنه مهد له بالبيت السابق له ، كما تدرج منه الى المعنى التالى بالبيت اللاحق له ، فأصبح البيتان من حوله كالحبلين اللذين يربطانه بما قبله وما بعده ٠

ونقول انه اذا كانت القصائد الطويلة فى شعر الصعاليك تمثل الوحدة بهذه الصورة ، فان القصائد العادية والمقطوعات أظهر فى التزامها وحدة كاملة لا يثور حولها جدل ، ولا يستطيع حتى المستشرقون ومن اقتدى بهم من نقادنا الا أن يروا فيها أكمل ما يتحدثون عنه من أنواع الوحدة فى الشعر ٠ لأن شعرهم كما قلنا خلا من التزام المطلع الغزلى ، وكذلك خلا من تعدد العناصر ، فنجد القصيدة أو المقطوعة منصبة على غرض واحد معين ، لا تمهد له فى الدخول اليه ، ولا تتعداه حين تدخل اليه ، ولذلك نجد المعانى التى يغلب أن تكون فى مقام الاستطراد كالحكمة غير شائعة فى شعر الصعاليك ، وقد نقرأ للشاعر القصيدة الكاملة ، بل وعددا من القصائد والمقطوعات فلا نجد فيها بيتا من الحكمة المقصودة ، أو الاستطراد ولو قريبا من المعنى ، ومن أبرز ذلك ان معظم شعر الصعاليك يمثل حوادث حقيقية فى حياتهم ، فنجد شعرهم فى هذه الحوادث مجرد وصف وتعبير عن الشعور ، بصورة مباشرة ليس فيها تمهيد أو استطراد ، وانما يكتفى الشاعر منهم بتصوير الحادث وأقصاه تعقيب

يمثل مشاعره نحو هذا الحادث ، وهذا النوع لا يحتاج الى تمثيل لأنه يمثل معظم شعر الصعاليك كما رأينا في شعر عروة عن قصة احتيال اليهود لسلبه زوجه ، وقصة أصحاب الكنيف ، وقصة غارة السليك على جوف مراد باليمن وقصائد الهذليين ومقطوعاتهم عن أحداث نجاتهم بالعدو ، وصور الصيد ورثائهم لبعض رفاقهم وذوى الصلة بهم لكننا نجد حتى القصائد التى لا ترتبط بحادث معين ، لا تخرج قط عن موضوعها أيضا ، ولا تمهد له · فمثلا رائية عروة بن الورد وهى احدى قصائده غير القصيرة ، اذ تبلغ سبعة وعشرين بيتا ، لا ترتبط بحادث مباشر ، وانما يتحدث فيها عن اضطراره الى حياة الصعلكة على ما فيها من أخطار وكل ما يتصل بالقصيدة من سبب أن زوجه كانت تكثر من لومه على المخاطرة بنفسه ، متمنية أن يستكين الى جوارها تاركا حياة التصعلك فيرد عليها بسخرية تنم عن الاصرار على عزمه ، والاستخفاف بتثبيطها قائلا :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى(١)

ثم يتابع حديثه متصلا بصلب الموضوع ، وسبب اصراره على الصعلكة قائلا :

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٢)

وأبياتا أخرى عما يضطره الى الصعلكة ، مقارنا بين الصعلوك ــ بمعنى الفقير ــ الخامل الكسول الذى يرضى لنفسه حياة الكسل والهوان ، والصعلوك الأبى الذى يغتصب عيشه ومنزلته بين الناس اغتصابا ، لأنه لا يرضى لنفسه شيئا مما رضيه زميله الذى اختار طريق الكسل والخمول والهوان مختتما القصيدة بالمنزلة الرضية لديه ، والتى أبلغته اياها صعلكته · وهكذا نجد القصيد غرضا واحدا لا يتشعب ولا يتعدد الجوانب · ونجد الطابع الغالب ، ان لم تكن الصفة الملازمة ، لكل شعر الصعاليك أن تكون القصيدة أو المقطوعة غرضا واحدا لا يتعداه الشاعر ·

وهذا هو موضع التميز فى شعر الصعاليك عن غيره من الشعر العربى فبينما نجد الطابع الغالب على الشعر العربى تعدد العناصر فى القصيدة ، نجد شعر الصعاليك يختلف عن ذلك بأن الطابع الغالب عليه ، عدم تعدد العناصر وبينما كان تعدد العناصر فى القصيدة العربية موضوع جدل بين النقاد ، لا يحتمل شعر الصعاليك هذا الجدل ، لالتزام القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا ، وعدم تعدد العناصر فيها ، وبهذا يكون شعر الصعاليك محققا لوحدة

(١) الاصمعيات ص ٣٦ ·

(٢) أخليك يعنى أقتل فيخلى سبيلك وسوء المحضر يريد ذل الفقر والمراد أغنيك أو ترتاحى من فقرى ·

القصيدة على أكمل وجه فنى ، سواء من وجهة نظر نقاد العرب القدامى ، ومن تابع نظرتهم من النقاد المحدثين ، أم من وجهة نظر النقد الغربى ، ممثلة فى آراء المستشرقين ، ومن تابع نظرتهم من نقادنا المحدثين ، وسواء نظرنا الى الوحدة ، على أنها وحدة نفسية أو وحدة فنية ، أو وحدة عضوية ، فمن كل هذه الزوايا نجد شعر الصعاليك يحقق الوحدة فى قصائده ومقطوعاته فى أكمل صورها ، وفى طابع يتميز به عن غيره من الشعر العربى ·

٨ ـ عدم التزام التصريع

ومن السمات الواضحة فى شعر الصعاليك عدم التزامه التصريع ، فبينما نجد القصائد العربية يغلب عليها الطابع المعروف بالتصريع ، بمعنى أن يكون مصراعا البيت الأول من القصيدة متفقين فى الكلمة الأخيرة ، التى هى قافية القصيدة ، فالقافية الملتزمة فى أواخر أبيات القصيدة ، نجدها أيضا ملتزمة فى آخر الشطر الأول من البيت الأول ·

ولكن شعر الصعاليك يخالف هذا الطابع ، فنجده لا يلتزم التصريع ، بل يغلب عليه كله خلوه من التصريع ، حيث نجد نسبة قليلة منه مصرعة أما الكثرة الغالبة فلا تصريع فيها ، ويمكن أن نفرق فى هذا بين القصائد والمقطوعات ·

فأما القصائد التى تعتبر طويلة بالنسبة للمقطوعات القصيرة الكثيرة التى وردت الينا من شعرهم فنقول ان هذه القصائد هى المقياس الذى ينبغى أن يكون محور الحديث ، لأنها لا يثور حولها الخلاف ، أو لا يقوى الظن بأنها مبتورة المطلع ، بمعنى ان المقطوعات القصيرة يمكن أن يقال انها كانت فى الأصل قصائد مصرعة ، ولكنها بترت ، ولم يصل الينا منها الا هذا الجزء ، أما القصائد فلا يثور حولها فى جملتها هذا الاحتمال ·

والقصائد التى وردت الينا من شعرهم فيها أيضا هذا الطابع ، وهو غلبة عدم التصريع عليها ، فقليل منها مصرع ، والكثير لا يلتزم التصريع ·
ومن القليل الذى ورد الينا مصرعا قصيدة عبدة بن الطبيب التى أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١)

وقصيدة عروة بن الورد التى أولها :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ... ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى (٢)

---

(١) المفضليات ص ٣٦ وعدتها واحد وثمانون بيتا ·
(٢) الاصمعيات ص ٣٦ وعددها سبعة وعشرون بيتا ·

وقصيدة قيس بن الحدادية التي أولها :

أجدك أن نعـم نـات أنت جازع قد اقتربت لو ان ذلك نافـــع (١)

وقصيدة الشنفرى التي أولها :

ألا أم عمـــرو أجمت فاستقلت وما ودعت جيرانهـــا اذ تولت (٢)

وقصيدة مالك بن حريم التي أولها :

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربعى الشباب فودعـا (٣)

وقصيدة تأبط شرا التي أولها :

يا عيـــد مالك من شـــوق وايراق ومر طيف على الأهوال طـــراق (٤)

وأما الكثرة التي وردت الينا غير مصرعة من شعرهم ، فمنها لاميـــة الشنفرى وأولها :

أقيموا بني أمي صـدور مطيكم فاني الى قـوم سواكم لأميـــل (٥)

ومن الكثرة غير المصرعة أيضا مرثية مالك بن الريب وأولها :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليـــلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا (٦)

وقصيدة جحدر بن معاوية التي أولها :

تأوبني فبت لهـا كنيعـا هموم ما تفارقني حـــواني (٧)

وقصيدة تأبط شرا التي أولها :

وقالوا لهـــا لا تنكحيه فانه لأول نصـــل أن يلاقي مجمعـا (٨)

وقصيدتان أيضا لتأبط شرا (٩) ، وقصيدة صخر الغي التي أولها :

لعمر أبى لقد ساقه المنا الى جدث يوزى له بالأهاضب (١٠)

---

(١) الأغاني للأصفهاني ١٤/١٤٤ ـ ٦١ وعددها أربعة وأربعون بيتا .
(٢) المفضليات ص ١٠٨ ـ ٣٦ بيتا .
(٣) الاصمعيات ص ٥٧ وعددها أربعون بيتا .
(٤) المفضليات ص ٢٧ وعددها ٢٦ بيتا .
(٥) سبق نصها بعنوان مستقل ـ ٦٨ بيتا .
(٦) سبق نصها (فصل الاختلاف في شعرهم) وهي ٥٨ بيتا .
(٧) أمالي القالي ١/٢٧٧ ، ٢٧٨ وهي ٢١ بيتا .
(٨) حماسة أبي تمام ١/١٨٩ ـ ١٩١ وهي ١١ بيتا .
(٩) أنظر حماسة أبي تمام ١/١٧ ، ١٨ ، ١/٢٢ ـ ٢٤ وكل منهما ٩ أبيات .
(١٠) ديوان الهذليين ٢/٥١ وهي ٢٤ بيتا .

وقصيدة حبيب الأعلم الهذلى التى أولها :

لما رأيت اقوم بالعلياء دون قــــدى المناصب (١)

وقصيدتان له أيضا بعد هذه القصيدة ، وكذلك معظم قصائد الهذليين كقصيدة أبى خراش الهذلى التى أولها :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم (٢)

والقصائد التى جاءت مصرعة فى شعر الهذليين قليلة معدودة ، أما سائر القصائد فقد جاءت بدون تصريع ، مع ان معظمها واضح انه لا بتر فيه ، والمطلع ينبيء عن أنه المطلع الأصلى للقصيدة ، فقصائد الصعاليك معظمها اذن ورد الينا بدون تصريع والقلة هى التى نجدها مصرعة ·

وأما مقطوعاتهم القصيرة ، فهذه النسبة فيها أشد وأوضح ، فقليل جدا من مقطوعاتهم نجد فيه التصريع ، أما سائرها فبدون تصريع ، بل ان المقطوعات التى وصلتنا مصرعة تكاد تكون معدودة محصورة فى بضع مقطوعات ، ومنها مقطوعة لأبى الطمحان القينى أولها :

ارقت وآبتنى الهمـــــوم الطوارق ولم يلق ما لا قيت قبلى عاشق (٣)

وهى أربعة أبيات بل نجد فيما وصل الينا من شعر أبى الطمحان بيتين مشهورين ، أولهما مصرع ، وهما :

الا علانى قبـــل نوح النوائح وقبل نشور النفس بين الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسى على غد اذا راح أصحابى ولست برائح (٤)

ولكن هاتين المقطوعتين يبدو منهما بوضوح انهما بدء مبتور من قصيدتين ، لم يصل الينا باقيهما ، وهذا الاحتمال يمكن أن يوجه الى سائر المقطوعات التى بلغتنا من شعرهم ، الا ما كان أولها يوحى بأنه مطلع ، فنستدل منه على أنه لم يبتر من أولها أبيات ، اذا تجاوزنا عن احتمال أن يكون قد بترت من آخرها أبيات ، كمقطوعة عروة بن الورد التى أولها :

أرى أم حسان الغـــداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف (٥)

وهى أربعة أبيات ، أو كانت الرواية تصرح بأن ما أوردته من شعر ليس مبتور الأول كما فعل الجاحظ فى روايته لبعض شعر الصعاليك ، حيث يقــول

(١) المصدر السابق ٢/٧٧ وهى ٢٣ بيتا ·
(٢) المصدر السابق ٢/١٤٤ وهى ١٥ بيتا ·
(٣) مهذب الأغانى ١/٢٧ ·
(٤) المصدر السابق ·
(٥) حماسة أبى تمام ٢/٣٣٨ ·

« وهذا أولها » (١) • أما فيما عدا هذا فالاحتمال قائم ، بل وقوى فى امكان توجيهه الى المقطوعات بأنها مبتورة من قصائد ، ويؤيد هذا ما نراه كثيرا فى اختلاف الكتب حين تروى شعر الصعاليك ، ونعنى بهذا اختلافهم فى عدد الأبيات حين يروون ، فبينما نجد كتابا يروى بضعة أبيات ، نجد هذه الأبيات ضمن قصيدة كاملة فى كتاب آخر ، وهذا كثير فى الكتب ، لأن كل مؤلف يأخذ غالبا من القصيدة الموضع الذى يعنيه الاستشهاد به ، سواء كان استشهاده لمعنى من المعانى ، أو لقاعدة ، أو لموضوع معين ، كما فعل الجاحظ فى أبواب الحيوان حيث يسوق عند حديثه عن كل حيوان ما قيل فيه من الشعر مجتزئا هذا الشعر الذى يستشهد به من قصيدته الأصلية ، وقد أشار المبرد الى هذا الاجتزاء فى بعض ما رواه من شعر عروة (٢) ولكن معظم المؤلفين لا يشيرون الى ذلك •

وهنا نجد مفترقا من الطرق فى حكمنا على مقطوعاتهم من حيث التصريع فقد يقال ينبغى أن نحكم على هذه المقطوعات كما وصلتنا ، فالذى يعنينا هو الموجود بين أيدينا من شعر الصعاليك ، والموجود من مقطوعاتهم يغلب عليه بصورة عامة عدم التصريع ، وقد يقال ان احتمال كون المقطوعات مبتورة من قصائد يجعل حكمنا عليها بوضعها الحالى غير سليم ، لأن نظام التصريع مألوف فى القصائد لا المقطوعات ومادام هناك احتمال قصائد بترت منها هذه المقطوعات فلا يكون الحكم بالتصريع أو عدمه سليما الا على القصائد الأصلية للمقطوعات وهذه القصائد لم تصلنا وانما وصلتنا منها أجزاء ، هى هذه المقطوعات فحكمنا بالتصريع أو عدمه حينئذ غير سليم بالنسبة للمقطوعات مادمنا لم نهتد الى قصائدها الأصلية ، أو ما دام هناك احتمال انها بترت من قصائد • قد يقال ذاك ، ولكننا نرى الأمثل أن يقال أننا نفترض فعلا أن هذه المقطوعات مبتورة فى جملتها من قصائد ، ثم نقيس هذه القصائد المفترضة على القصائد التى وصلتنا فعلا ، وحينئذ سننتهى الى نتيجة واحدة ، هى ان الغالب على شعر الصعاليك عدم التصريع ، واذن فسواء أحكمنا على المقطوعات بوضعها الحالى ، أم جارينا افتراض بترها من قصائد ، وقياس قصائدها على ما وصلنا من قصائدهم ، فالنتيجة لا تتغير ، وهى ان الطابع الغالب على شعرهم عدم التصريع •

وحين نقارن بين هذا الوضع فى شعر الصعاليك ، وبينه فى الشعر المعاصر لهم ، نقول ان الوضع فى الشعر المعاصر لهم عكسه فى شعرهم ، فبينما كان شعر الصعاليك يغلب عليه عدم التصريع ، كان شعر غيرهم يغلب عليه التصريع ، ولكننا نحب أن نلفت النظر الى شيء لا نحب أن يفهم من الحديث

---

(١) أنظر الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ وهى قصيدة لا مقطوعة •

(٢) انظر الكامل للمبرد ٧٨/١ •

فليس معنى تميز شعر الصعاليك بهذا الطابع أن شعر غيرهم التزم التصريع وانما الواقع أن التصريع غالب مجرد غلبة على القصائد العربية فى غير شعر الصعاليك حيث نجد كثيرا من القصائد غير مصرع ، ومنها ميمية حاتم الطائى (١) وهمزية عوف بن الأحوص (٢) ، بل كثير مما جاء أطول من ذلك نجده أيضا غير مصرع ، كقصيدة الحصين بن الحمام الميمية (٣) ، ومثل يائية مزرد بن ضرار الذبيانى (٤) ، وعينية متمم بن نويرة (٥) ، ورائية المرار بن منقذ (٦) ، وكذلك لامية كعب بن سعد الغنوى (٧) ، وميمية عمرو بن الأسود (٨) ، ورائية أعشى باهلة (٩) ، وواوية الاسعر الجعفى (١٠) ،وغير ذلك كثير من القصائد جاء غير مصرع ، ولكن هذه القصائد على كثرتها تعتبر قلة اذا قيست بمجموع الشعر كله ، وكذلك الوضع بالنسبة للمقطوعات التى وردت عن غير الصعاليك نجد الكثرة الغالبة فيها جاءت غير مصرعة (١١) ٠

ومن هذا كله نعلم أن عدم التصريع ليس خاصا بشعر الصعاليك ، فقد ورد عدد غير قليل من القصائد سواء للصعاليك أو غيرهم غير مصرع ، وورد عدد أكثر منه من المقطوعات للصعاليك ولغيرهم أيضا غير مصرع ، ولكن الفارق بين شعر الصعاليك وغيره فى هذا فارق النسبة كما قلنا فبينما نجد الاكثرية من شعر الصعاليك جاءت غير مصرعة ، نجد الأكثرية من شعر غيرهم جاءنا مصرعا ٠

على اننا نحب أن نقول ان احتمال كون المقطوعات بترت من قصائد ، ليس الا مجرد افتراض عقلى ، وليس هناك ما يوجب قيام هذا الاحتمال بالنسبة لشعر الصعاليك ، فالمقطوعات شائعة فيما ورد الينا من الشعر العربى كله ، سواء فى الجاهلية والاسلام (١٢) ، وان كان ما ورد منها من شعر الجاهلية أكثر مما ورد منها فى شعر الاسلام ، ويؤيد هذا ما تنقله الروايات من أن الشعراء لم يلتزموا أو لم تغلب على شعرهم القصائد الكاملة الا قبيل الاسلام أما قبل ذلك ، فكان الشائع لديهم انشاء الأبيات والمقطوعات ، كما يروى فى

---

(١) خزانة البغدادى ٢/٢٩١ وهى ٢٨ بيتا ٠
(٢) المفضليات ١٧٣ وهى ٢٣ بيتا ٠
(٣) المفضليات ٦٤ وهى ٤٢ بيتا ٠
(٤) المصدر السابق ص ٧٥ وهى ٤٣ بيتا ٠
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٥ وهى ٥١ بيتا ٠
(٦) المصدر السابق ص ٨٢ وهى ٩٥ بيتا ٠
(٧) الاصمعيات ص ٧١ وهى ٢٧ بيتا ٠
(٨) المصدر السابق ص ٧٧ وهى ١٧ بيتا ٠
(٩) المصدر السابق ص ٨٩ وهى ٣٣ بيتا ٠
(١٠) الاصمعيات أيضا ص ١٥٧ وهى ٣٠ بيتا ٠
(١١) أنظر للمثال المفضليات والاصمعيات ٠
(١٢) أنظر المصدرين السابقين ٠

سبب تسمية مهلهل اخى كليب ، ان اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسمي مهلهلا لأنه اول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وانه أول من قصد القصيد وانه لم يقل أحد قبله عشرة ابيات (٢) ، ويروون أن عنترة « لم يكن يقول من الشعر الا البيتين والثلاثة (٣) حتى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وانه لا يقول الشعر » (٩) فقال القصائد بعد ذلك ، واذن فليس من الصحيح تصور ان الشعر العربى كله قصائد كاملة ، وان المقطوعات لابد أن تكون مبتورة من قصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور ان القصائد العربية تلتزم التصريع ، وننتهى من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبه غير مصرع ، وهذه الأغلبية هى التى نعنيها بعدم التزام التصريع ٠

خصائص الشعر الجاهلى

ونجد فى شعر الصعاليك الجاهليين بعض الخصائص التى يمتاز بها عن شعر صعاليك الاسلام ٠

واذا كانت الخصائص العامة السابقة فى مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فان هذه الخصائص التى نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها عن الشعر العربى كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الخصائص العامة ،ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الإسلام فى هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهليين فى أن ينوه بمزاياه الخاصة به آثرنا أن نضعه فى هذا الموضع الذى يبرزه ويميزه ٠

وهذه الخصائص التى امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام ، وعن غيرهم فى بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم ٠

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر فى حياتهم وسلوكهم ثم فى شعرهم تبعا لذلك

(٦) قيل اسمه عدى مرجحا ٠
(٢) خزانة البغدادى ٢٣/٢ ٠
(٣) خزانة البغدادى ٨٨/١ ٠

فشدة الجوع التى عاناها صعاليك الجاهلية أكثر من الاسلاميين ، جعلتهم ألزم للصحراء ، وأحرص على حياتها طلبا لضحايهم فى الصعلكه ، وطلبا للصيد ، وكل الوسائل التى تصد عنهم هذا الجوع المهلك ولزومهم للصحراء والجبال نتج عنه مقدرتهم الفائقة على تصوير هذه البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومن فخلوقات فبالاضافة الى انفرادهم بحديث الجوع ، نجد انهم انفردوا بالقدرة الفائقة على تصوير البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومخلوقات ، ونتج عن ملازمتهم للصحراء أيضا دقة الحس ودقة الملاحظة وليس بالغريب أن تكون ملازمة الصحراء مرهفة للحس ، منمية لدقة الملاحظة ، فلو قارنا بين شخص يعيش فى بيئة كثيرة المخلوقات والحركة وشخص يعيش فى بيئة ساكنة قليلة المخلوقات والحركة ، لتبينا الفارق ، فالشخص الذى يعيش فى البيئة المتحركة كثيرة المخلوقات ، كالمجتمعات مثلا ، لا تجد حواسه الوقت الكافى للتركيز والملاحظة الدقيقة أمام مناظر ومشاهد كثيرة دائمة الحركة • من أناس مختلفين وحيوانات مختلفة ، وطيور متنوعة ، وحركة دائبة ، وأصوات متعددة ، لا يكاد بصره أو حواسه تستقر على شىء حتى تنتقل الى شىء آخر ، فلا تجد فرصة للتركيز على شىء بعينه لفحصه وتمحيصه ، أما الشخص الذى يعيش فى بيئة ساكنة قليلة الحركة كالصحرا ء، فقلما تتغير أمامه المشاهد وقلما يسمع الصوت • فبين الفينة والفينة ، قد يرى حيوانا ، فتجد حواسه وقتا كافيا لفحصه بدقة ، ومتابعة حركاته ، وما يصدر عنه من صوت أو مسلك لأنه ليس أمام الحواس مشهد آخد يصرفها عنه ، وكذلك بالنسبة لرؤيتها سحابا أو مطرا أو مشهدا معينا ، أو سماعها صوتا لحيوان أو رعد أو غير ذلك ، ففى كل ذلك تكون الحواس متفرغة كل التفرغ لمتابعة هذا الشىء وملاحظة خصائصه وحركاته ، ولعل هذا أوضح تعليل للقدرة الفائقة الواضحة التى تميز بها شعر الجاهلية فى وصف الطبيعة ومشاهدها وفى دقة الملاحظة العجيبة فى الأشياء والحركات والأصوات الدقيقة التى برع فيها شعرهم ، ومن هذا نجد أن هذه الأسباب قد أنتجت مزايا معينة فى شعرهم كما سيأتى •

وكذلك نجد أن مما ساهم فى هذه الخصائص ، بعض المزايا التى امتاز بها صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فى صفاتهم الشخصية ، وأبرز هذه المزايا العدو حيث قلنا ان سرعة العدو كانت شائعة فى صعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، وسرعة العدو وان كانت مرتبطة أيضا بملازمتهم للصحراء الا أنها أنتجت فى شعرهم موضوعات خاصة بالاضافة الى مساهمتها فى الموضوعات التى أثمرتها ملازمة الصحراء ، ومن الموضوعات الخاصة التى أنتجتها سرعة العدو شعر العدو نفسه فى تصويره للعداء ، ولطريقة عدوه ، والمواقف التى يتعرض لها ، وكذلك شعر الحيلة ، حيث نجد ما ورد فى شعرهم من الحيل وصورها وأحداثها مرتبطا بالعدو •

وهناك بعض الخصائص التى اتسم بها شعر صعاليك الجاهلية ، قد

تساهم هذه الأسباب فيها أو لا تساهم ، كصعوبة الألفاظ وغرابتها فى كثير من شعرهم وكالأسلوب القصصى الذى يبدو فى بعض شعرهم ·

ونعود فنكرر أن المقارنة الرئيسية فى هذه المزايا ليست بين شعر الصعاليك وغيره من الشعر كما سبق فى المزايا العامة ، وانما بين شعر صعاليك الجاهلية ، وصعاليك الاسلام بصفة خاصة ، الا ما قد يكون متميزا عن شعر صعاليك الاسلام وغيره من الشعر عامة ، فنشير اليه فى موضعه ·

وأوضح هذه الخصائص ما يأتى : –

أ – انفراده ببعض الموضوعات

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية بأنه طرق موضوعات بدت فيه واضحة ، فى حين لم تظهر هذه الموضوعات بهذه الصورة فى شعر صعاليك الاسلام،وأهم هذه الموضوعات ما يأتى : .

١ – الجوع : (١)

قلنا ان الحديث عن الفقر كان شركة بين صعاليك الجاهلية والاسلام ، وان تفاوتت درجة الحديث عنه ، وكذلك نحول الأجسام وهزالها ، وان اختلفت درجته أيضا ، ولكن حديث الجوع انفرد به صعاليك الجاهلية ، كما رأينا من صور الجوع العنيف المضنى الذى صوره الشنفرى وأبو خراش وتأبط شرا ، والسليك بن السلكة (٢) وقد أشرنا الى انفرادهم بحديثه ، وأن سببه اختلاف المستوى الاقتصادى والمعيشى للمجتمع فى كل من الجاهلية والاسلام ، واختلاف ما تدره – تبعا لذلك – أعمال الصعلكة على أصحابها ، ونستطيع أن نقول ان الحديث عن الجوع بهذه الصورة ينفرد به صعاليك الجاهلية عن غيرهم من الشعراء على الاطلاق ، سواء كانوا من الصعاليك أو غيرهم ·

٢ – العدو :

وقلنا أيضا ان ظاهرة العدو لم توجد فى صعاليك الاسلام ، ولكنها تبدو بوضوح فى صعاليك الجاهلية ، وخاصة الهذليين ، حيث كان معظم هذيل من

---

(١) أنظر فصل الجوع من هذا الكتاب ·
(٢) مشهور بلقب عمرو ذى الكلب

العدائين . ومنهم من الشعراء الصعاليك أبو خراش وصخر الغى وحبيب الاعلم، ومن غير الهذليين جار هذيل عمرو بن عجلان (١) ، والشـــنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براقة وحاجز الازدى ، وقد رأينا شعرهم فى موضعه (٢) ، وأشرنا الى أن ميزة العدو انفرد بها صعاليك الجاهلية عن الاسلاميين ، وان كانوا لم ينفردوا بها عن معاصريهم من الجاهليين .

٣ ـ الحيلة :

والحيلة مسلك من مسالك الحياة لا ينفرد بها الصـــعاليك عن غيرهم . ولكننا حين نقارن بين شعر صعاليك الجاهلية وصعاليك الاســـلام عنها ، نجد أن شعر الجاهليين هو الذى اتخذها حديثا ، ومرد ذلك أن شعرهم لم يتحدث عن الحيلة من الوجهة النظرية أو الخلقية ، وانما تحدث عنها فى أحداث حقيقية مرت بهم ، تتلخص فى وقوعهم فى مأزق ، لم يكن فيها مفر من الموت ، ولكن شيئا واحدا أنجاهم من الموت المحقق هو العدو ، فحديث شعرهم عن الحيلة اذن ليس حديثـــا نظريا أو خلقيا ، وانما ارتبط بأحـداث معينة مرتبطة أيضـــا بالعـــدو ، ولذلك نجـــد الذين تحـدثوا عن الحيلة كانوا من العـــدائين ، كأبى خراش ، والسليك ، وتأبط شرا ، وكان حديثهم عن أحداث معينة استعانوا فيها بالعدو ، ولم يكن العدو من صفات صعاليك الاسلام ، ولذلك لم تترتب عليه أحداث الحيل التى ذكرها صعاليك الجاهلية فى شعرهم .

٤ ـ الطبيعـــة :

ونعنى بشعر الطبيعة، شعر البيئة الطبيعية بمشاهدها ومخلوقاتها ، ولسنا نعنى مجرد ذكر المشاهد والمخلوقات ، فذلك القدر لا يكاد يخلو منه شعر شاعر فلا يكاد يخلو شاعر من أن يشبه شيئا بالبرق مثلا أو الغمام ، أو الليل أو الشمس أو بحيوان من حيوانات البيئة الطبيعية فلسنا نعنى ذلك أو نحو ذلك ، وانما نعنى اتخاذ المشهد أو المخلوق أو غيرهما من محتويات البيئة الطبيعية غرضا بحيث يبرز فى صورة واضحة محددة ، وهذا المعنى يمتاز به شعر صعاليك الجاهليـــة عن زملائهم الاسلاميين .

وأقوى شعر أبرز لنا صورا تكاد تكون مجسمة واضحة المعالم عن الطبيعة ومشاهدها شعر الهذليين وشعر الشنفرى ، حيث نجد فى شعرهم هذه الصور

---

(١) أنظر فصل العدو من هذا الكتاب .
(٢) أنظر فصل الحيلة .

عن كل شيء في بيئتهم ومشاهدها ، كما رأينا من صور صخر الغي عن الوعول وحياتها وعن حمر الوحش وصراعه معها ، وعن الطيور الجوارح ، وعن الحمامة وحواره معها وعن السحاب والمطر (١) وكذلك شعر الأعلم عن السحاب وعن النعام وعن الضباع (٢) وكذلك قصائد أبي خراش وما فيها عن حمر الوحش والجراد والعقاب ، وعن غروب الشمس والظلمة والمطر (٣) وكذلك شعر الشنفرى حافل بصور الطبيعة ومشاهدها وبخاصة اللامية (٤) ، ولكن الذي يلفت النظر أننا نجد أقوى وصف للطبيعة ومشاهدها ومخلوقاتها ما نجده في شعر العدائين ، ولعل مرد ذلك الى ملازمتهم للصحراء كما قلنا ، وسرعة تنقلهم مما يتيح لهم تعدد المشاهد •

ب ــ القصص والتصوير

وانما فرقنا بين القصة والصورة في هذا العنوان ، لأننا لا نرى ما يراه بعض الباحثين من أن الصور الشعرية التي وردت في شعرهم تعتبر قصصا ، وأن تمثيل شعرهم لأحداث حياتهم وصعلكتهم يعتبر قصصا (٥) ، فقد يكون هذا نوعا من التصوير الفني ، وقد يكون مبادىء قصص ، ولكننا لا نرى فيه معالم القصة الفنية بمعناها الذي يعرفه الفن والأدب ، فالقصة لها اطار ، ولها خطوط أساسية ، ولا نستطيع أن نطلق اسمها على موضوع أدبي الا اذا استوفى المعالم والخطوط الرئيسة في مفهومها على الأقل ولذلك آثرنا أن نفرق بين التصوير الأدبي ، والقصة الفنية ، على أن في شعر الصعاليك ما هو أقرب الى القصة وأوضح في مفهومها فأولى أن نستشهد به عند حديثنا عن القصة في شعرهم وعلى أساس هذا التفريق نتحدث عن كل منهما فنقول ••

١ ــ الاسلوب القصصي :

يشيع بين الباحثين أن أول من استعمل اسلوب القصة امرؤ القيس في لاميته التي يصور فيها قصته مع عشيقته ، والتي يقول من قصته معها :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ويرى بعض الباحثين الذين تحدثوا عن عمر بن أبي ربيعة أنه خير من

(١) انظر ديوان الهذليين ٥٢/٢ ــ ٧٦ •
(٢) المصدر السابق ٧٨/٢ ــ ٨٣ •
(٣) المصدر السابق ١١٧/٢ ــ ٤٥ ١•
(٤) انظر فصل الطبيعة من هذا الكتاب •
(٥) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ ــ ٢٨٠ •

استعمل القصـــة فى شعره وذلك فى رائيته التى تحـدث فيها عن قصته مع العشيقة التى طلع عليه الصباح عندها فدهشت ، ثم استعانت بأختيهـا ، ثم اخفينه بينهن حتى خرجن به من الحى ، فكن كالمجن له ، كما قال :

فكان مجنى دون من كنت أتقـــى   **ثلاث شـــخوص كاعبـــان ومعصر**

والواقع أن الدارس لشعر الصعاليك لا يشك فى أن الذين أسسوا القصة فى الشعر العربى ، بل والذين وصلوا الى مستوى القصة الشـــعرية الكاملة بمفهومها الفنى فى شعرهم ، هم الصعاليك ، وأن هذا النهج لو وجد من الشعراء من تابعه لكان للقصة فى الشعر العربى شأن غير ما كانت عليه ٠

ونضرب مثالا للمستوى الذى وصلت اليه القصة فى شعر الصعاليك ، بقصة قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية مع ابنة عمه نعم بنت ذؤيب ، كما سجلها فى شعره ، ولكننا لكى نعلم فضله على امرىء القيس فى هـذا المجال ، وكذلك سبقه وفضله على عمر بن أبى ربية ، نقول ان قصتى امرىء القيس وعمر ابن أبى ربيعة المشار اليهما ، لا يمثلان قصة فنية ، وانما يمثلان موقفا أو مشهدا من قصة ، وان كان ابن ابى ربيعة أقرب الى القصة من مشهد امرىء القيس ، وسواء أكانا مشهدين أم قصتين ، فان ما ينقصهما من القصة أكثر من هذا ،وهو النواحى الفنية المعروفة فى القصة ، أما قصة قيس بن منقذ ، فقد راعى فيها كل الخطوط الأساسية للقصة الفنية من نواحيها النفسية ، ومن جوانب الوصف ومن الحوار ، ومن جو القصة وروحها ، وقد سجل قصته هذه فى قصيدة طويلة نجتزىء منها هذه الأبيات التى تمس صلب القصه ، لنرى منها الى أى حد بلغ شعر الصعاليك الجاهليين بالقصة (١) :

أجـدك أن نعم نأت أنت جازع   **قـــد اقتربت لوان ذلك نافـــع**
قد اقتربت لو ان فى قرب دارهـــا   **نوالا ولكن كل من ضن مـــانع**
وقد جاورتنـــا فى شـــهور كثيرة   **فمـــا نولـــت والله راء وســـامع**
وقلت لها فى السر بينى وبينهـا   **على عجل أيان من ســـار راجـــع**
فقالت لقاء بعد حـــول وحجـــة   **وشحط النوى الا لذى العهد قاطع**
وقد يلتقى بعـد الشتات أولو النوى   **ويسترجع الحى الســـحاب اللوامع**
وما ان خذول نازعت حبـــل حابل   **لتنجـو الا استسلمت وهى ظـالع**
باحسن منهـــا ذات يوم لقيتهـــا   **لها نظر نحوى كذى البث خاشـــع**
فقلت لأصحابى اصطلوا النار انهـــا   **قـــريب فقـــالوا بل مكانك نافع**
بكت من حـــديث بثـــه وأشـــاعه   **ورصفه واش من القـــوم راصـــع**

---

(١) وظروف القصة أن قيسا يحكى ما دار بينه وبينها من حوار وأحداث ووداع فى ليلة سفرة ، واصفا استعداد الحداة ورفقاءه فى القافلة واعدادهم للرحيل ٠

بكت عين من أبكاك لا يعـــرف البكا   ولا تتخالجك الأمـــور النـــوازع
فــلا يســـمعن سرى وسرك ثالث   الا كل سر جـــاوز اثنين شـــائع
وكيـــف يشـــيع السر منى ودونه   حجاب ومن دون الحجاب الأضـــالع
وحب لهـــذا الربع يمضى امامـــه   قليل أنقـــلى منـــه قليـــل ورادع
وما راعنى الا المنـادى الا اظعنـــوا   والا الرواعى غـــدوة والقعـــاقع
فجئت كأنى مستضيف وســـائل   لأخبرهـــا كل الذى أنا صـــانع
فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجـة   اليـــك ولا منا لفقـــرك رائـــع
فما زلت تحت الســـتر حتى كأننى   من الحر ذو طمرين فى البحر كارع
فهـــزت الى الرأس منى تعجبـــا   وعضض ممـــا قد فعلت الأصـــابع
فأيهما منى أتبعت فـــاننى   حزين عـــلى اثر الذى أنا وادع
بكى من فراق الحى قيس بن منقـــذ   وازراء عينى مثله الدهـــر شـــائع
بأربعـــة تنهـــل لما تقـــدمت   بهم طرق شـــتى وهن جـــوامع
وما خلت بين الحى حتى رأيتهـــم   ببينونة الســـفلى وهن ســـوافع
كأن فؤادى بين شقين من عصـــا   حـــذار وقوع البين والبين واقع
يحث بهم حـــاد سريع نجـــاؤه   ومعرى عن الساقين والثوب واســـع
فقلت لها يا نعم حـــلى محلنـــا   فان الهوى يا نعم والعيش جامـــع
فقالت وعيناها تفيضـــان عـــبرة   بأهلى بين لى متى أنت راجـــع
فقلت لهـــا تالله يدرى مســـافر   اذا أضمرته الأرض ما الله صـــانع
فشدت على فيها اللثام وأعرضت   وأمعن بالكحل السحيق المدامع (١)

فقد مهد فى الابيات الأولى بوصف بطلة القصة ، وأخلاقها ، والجو الذى جرت فيه القصـــة ثم هيأ لجـو الوداع ، وما صاحب ذلك من ضجة وصخب ، ثم تسلله تحت الستر ، وفزعها من هذا المسلك الخطير على سمعتها ، ثم حوار الوداع بينهما ، واصفا صدق مشاعره وأعماق نفسه ، ثم اللوعة التى اجتاحت قلبه حين سمع مؤذن الرحيل ، ثم حوار الفراق ، وما تخلل ذلك من وصف لجو القصة ، وما يحيط بالحدث الأصلى من أحداث فرعية متصلة به ، واصفا فى دقة كل أطراف القصـــة وأشخاصها ، حتى حادى القافلة لم ينس أن يصفه بهـــذا الوصف الشامل •

يحث بهم حـــاد سريع نجـــاؤه   ومعرى عن الساقين والثوب واســـع

ومما لا شك فيه أن امرأ القيس لم يصل فى شعره الى هذا المستوى الفنى او الى هذا القدر من فنية القصة الشعرية ، وكذلك لا نعلم أن شاعرا فى الجاهلية بلغ هذا المستوى ، لأنهم لا يذكرون شاعرا اتجه الى أسلوب القصة فى الجاهلية

---

(١) مهذب الأغانى ١٠٧/١ •

غير امرىء القيس (١) واذا كنت لا أستطيع إن أقطع بالسبق الزمني لأى من قيس بن منقذ أو امرىء القيس لأن الروايات التاريخية – فى مبلغ علمى – غير واضحة كل الوضوح فى التحديد الزمنى للجاهلية ومراحلها وأجيالها وأشخاصها أقول اذا كنت لا أستطيع ذلك ، فانى أستطيع أن أقول ان امرأ القيس ليس هو رائد القصة فى الشعر العربى ، ولكن الصعاليك ولو ممثلين فى قيس بن منقذ ، هم رواد القصة بمعناها الفنى كما رأينا فى قصيدة قيس السابقة التى تمثل قصة كاملة ، ومهما حاول ناقد قصصى أن يقلل من كمالها الفنى ، فلابد أن ينقدها على أساس انها قصة،لا على أساس أنها صورة أو حدث مفرد أو مجموعة مشاعر ، أو أي شيء يشكك فى مبدأ أنها قصة ، كما يمكن ان يوجه الى غيرها مما يوصف بأنه بوادر قصة أو نحو ذلك • والفارق كبير بين أن ينقد شيء على أساس أنه قصة ، وأن ينقد على اساس عدم الاعتراف بأنه قصة ، ولعلى لا اتجاوز السبيل اذا قلت ان كل ما عدا قصة قيس بن منقذ هذه من شعر الجاهلية ، يمكن أن يوجه اليه عدم الاعتراف بأنه قصة ، بما فيه حادثة امرىء القيس التى أشرنا اليها

واذا كان شعر صعاليك الجاهلية قد وصل الى هذا المستوى الذى نراه متكاملا بالنسبة للقصة الشعرية ، فانه قد وضع أسسا كثيرة عريضة لما يمكن أن نسميه مبادىء قصص شعرى ، وقد وصل بعض هذه النزعة الى درجة تقرب جدا من القصة القصيرة بكل مقوماتها الفنية التى يسمح بها الشعر ، ونجد هذا كثيرا فى قصائد شعر الهذليين ، ومنه على سبيل المثال ، وصف صخر الغى لحمارى وحش ، وصف جسميهما وصفا دقيقا حتى ما تساقط عن جلدهما من شعر ، ثم تابع مسيرهما الى الماء ، وما صاحب ذلك من حذرهما وتوجسهما ، ثم رمى الصائد نبله نحوهما ، وخطأ الرمية الذى ترتب عليه تحطم النبل ، وفزع الحمارين من ذلك ، ثم علوهما مرتفعا بأقصى سرعة حتى أثارا أمامهما الصخور وحولهما الغبار ، وظلا كذلك حتى واجههما الصباح ، وواجههما مع الصباح الصائدون بخيلهم التى وصفها ، ووصف تمكن الصائدين من اصابتهما، وهذا الوصف رغم أنه لصورة من مشاهد الطبيعة فى الصحراء ، الا أنه يصلح مبدأ للقصة ويعتبر تقدما كبيرا للدخول فى نطاق القصة الفنية •

والذى يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاها أصيلا بل ومقصودا اننا نجدهم لم يكتفوا بهذا الوصف الذى يمكن أن يقال عنه أنه تصوير لمشهد ، يمكن أن نجده فى شعر غيرهم كوصف المعارك والرحلات ومتابعة احداثها ونحو ذلك ، بل اتجهوا الى التخيل فى الصنعة بذكر أحداث أو قصص متخيلة وذكر الأحداث القصصية بطريق التخيل مهما يكن له من مدلولات ، فلن من بين هذه المدلولات نزعة القصة ، أعنى الميل الى القصص ، كالصورة الخيالية التى

---

(١) أنار للمثال الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ٢٧٩.

توهمها تأبط شرا في محادثته مع الغول ، ووصفه اياها ، ومطالبته اياهـــا بضعها (١) ، ثم قتله اياها وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيدا لنزعة القصص حيث كان التصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة ٠

وكذلك خيال صخر الغي في رثاء ابنه تليد ، حيث تخيل أنه لقي بموضع يسمى سبلل حمامة تشبهه في حاله ، بفقدها ولدها الوحيد الذي يدعى «ساق حر» وتشبهه في حزنها ، لأنها لا تنام كما لا ينام هو عندما ينام الناس ، وقد صور حوارا طريفا بينهما ، فيقول في هذا الخيال :

وما ان صـوت نائحـــة بليـــل بسبلل لا تنــام مع الهجود (٢)
تجهنـــا غـاديين فســـاءلتني بواحدها وأسال عن تليـدي (٣)
فقلت لها فأما ســـاق حـــر فبان مع الأوائل من ثمـود (٤)
وقالت لن تـــرى أبدا تليـــدا بعينك آخر العمر الجـديد (٥)
كلانا رد صـــاحبه بيـــأس وتأنيب ووجـــدان بعيـد (٦)

ومثل هذا النوع الخيالي لا أرى له مجالا نسلكه فيه الا القصة ، فهو ليس تصويرا للطبيعة ، ولا وصفا لمشهد من المشاهد ، فليس لنا الا أن نعده نوعا من القصة القصيرة ، على أننا نجد فيه كل معالم القصة ، من الوصف ، والحـــوار والتحليل النفسي ، وهو أدل على تأصل الاتجاه القصصي في شعرهم لأن الشاعر فيه متعمد خلق الموضوع ، ومتعمد الباسه الثوب القصصي ، بخلاف ما اذا قص الشاعر حادثة رآها أو عاشها ، لأنه حينئذ يحكي شيئا واقعا ، وهو في هـذا وان كان أيضا قاصا ، الا أنه قصص عفوي أو غير مقصود ، بخلاف الخيـــال المقصود موضوعا وصياغة وقالبا ٠

وهذه الميزة القصصية لا يمتاز بها صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها في جملتها عن الشعراء عامة ، لأنهم فضلا عن تفوقهم الفني الذي وصلوا اليه في مستوى القصة ، فانهم يمتازون بروح القصة ، والاتجاه اليها اتجاها واضحا ومقصودا في كثير من شعرهم ، وليس امتيازهم في حوادث فردية أو فلتات شاذة ٠

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والبضع الفرج ٠
(٢) ديوان الهذليين ٦٧/٢ والنائحة الحمامة والهجود النيام ٠
(٣) تجهنا تواجهنا وتقابلنا ٠
(٤) بان هلك ٠
(٥) الجديد يعني أن كل يوم يجيء فهو جديد ٠
(٦) يروى بوجدان شديد ٠

٢ ـ التصـــوير :

قلنا اننا آثرنا فصل التصوير عن القصة ، لأن القصة لها مفهوم فنى لا نستطيع أن نطلقه على موضوع الا اذا استوفى الخطوط الرئيسية والاساسية فيه على الأقل ، والتصوير وان كان يسلك مراحل من القصة ، ويقرب من نطاقها الا أننا نقلل من شأن القصة ، ونضعف مفهومها اذا أطلقنا على كل محاولة ، أو سمينا كل مرحلة من مراحلها قصة .

وقد يقال ان الترتيب الفنى كان يقضى بالبدء بالتصوير أولا ، ثم بحديث القصة بعد ذلك ، كأن يقال انهم سلكوا طريق المقدمات ، ثم وصلوا الى مستوى كامل أو قريب من الكمال فى القصة ، ولكنى آثرت البدء بالقصة رغبة فى الايجاز فى توضيح الفارق بين أسلوبهم القصصى والتصويرى ، فحينما نبين مستواهم فى القصة ، يبدو تبعا لذلك أن كل ما دونه أو سواه من هذا الموضـــوع هو التصوير ، ونعنى بالتصوير الصور الفنية التى رسمها شعرهم ، والتى أشرنا اليها فيما سبق ، وبخاصة فى الحديث عن الطبيعة فى شعرهم ، حيث صوروا لوحات فنية رائعة من مشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، ولكون شعر الصعاليك فى منهجه كله سلك طريقا منفردا متميزا عن الشعر العربى كله بما سميناه فيما سبق شعر الصراع أو روح الصراع ، وبما بدا فيه من حركة وحيوية يجعلون أشخاصهم محورا لها دائما حتى فى شعرهم الاجتماعى كان مجال الحكم والاستنتاج فيه واسعا ، ويمكن أن يكون مجال اختلاف النظرة اليه واسعا أيضا ، لأن شعرهم بهذه المزايا أصبح له أكثر من زاوية ينظر اليه منها ، فمثلا لامية الشنفرى اذا نظرنا اليها باعتبار اجرائها ، نجد أنها تحوى صورا كثيرة لكل حياة الصعلوك وسلاحه ومعيشته وبيئته بمشاهدها ومخلوقاتها ، واذا نظرنا اليها باعتبار روحها نجد أنها تمثل نفسية الصعلوك فى عزلته ونفوره من الناس ، وشعوره بالمطاردة ، وصراعه الدائم مع كل شىء ، وفى كل وجهة يتجه نحوها ، واذا نظرنا اليها فى جملتها نجد أنها تمثل ما يمكن أن نسميه حقيقة مذكرات شخصية كاملة عن شخصية صاحبها ونفسيته ومشاعره وحياته وبيئته بمشـــاهدها ومخلوقاتها ، وصلته بكل شىء ، من الناس والبيئة بما فيها ، وحياته وما يعانيه ونوع هذه الصلة التى تربطه بكل هذه الاشياء ، واذا كان يمكن أن نسمى اللامية فى جملتها مذكرات شـــخصية على وجه الحقيقة ، لأنها حقيقة تؤدى ما تؤديه المذكرات الشخصية ، فيمكن أن نسميها مجازا قصة ، باعتبار أنها قصة حياة انسان معين ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين أن يعتبروها هى وطرازها من شعر الصعاليك أسلوبا قصصيا (١) ولكننا اذا أطلقنا عليها وعلى طرازهـا أنه قصص مجازا فلا أظن أن بوسعنا من الناحية الفنية أن نسلك هذا النوع فى أسلوب القصة كما فعلوا .

(١) أنظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠ .

ولكن الذى يعنينا ابرازه فى هذا المقام الذى نتحدث فيه عن اتجاههم نحو القصة ، ان شعر صعاليك الجاهلية يمتاز بميزة بارزة فيه ، هى تصوير المشاهد المتحركة ، والواقع ان شيوع التصوير سمة عامة فى شعرهم ، سواء كان للمشاهد الثابتة كتصوير لامية الشنفرى لحياة الذئاب ، وصورة من حياة النحل ، وحياة القطا ، وكتصويرها لليلة الباردة بما فيها ، وليوم الحر بما فيه ، وكتصوير شعر الهذليين للسحاب الذى يشبه السفن المحملة ، وتصويرهم جميعا للمراقب ، ونحو ذلك مما نكتفى فى التمثيل له بالاحالة الى ما سبق من الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، ونعنى بالمشاهد الثابتة فيها المشاهد التى تخلو من أحداث متتابعة كأحداث القصة ، أو تكون ذات أحداث ضئيلة لا تكفي لأن نسلكها بها فى مرحلة من مراحل القصة ونعنى بالمشاهد المتحركة ، عكس ذلك ، وهى المشاهد التى تشتمل على أحداث متحركة متتابعة تمثل صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها ، وهذا النوع غير قليل فى شعر الصعاليك الجاهليين ، بل نجد معظم شعرائهم طرقوه ، وخاصة شعراء هذيل ، ككثير مما جاء فى شعر صخر الغى ، وحبيب الأعلم ، وأبى خراش ففى هذه الصور نجد حدثا أو مشهدا متحركا ، يتابعه الصعلوك بشعره ، كأنه يقص قصة ، وهى فعلا صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها تقرب جدا فى بعض الأحيان من نطاق القصة بمعناها الفنى الكامل كما قلنا ، وذلك كالصورة الكاملة التى صورها أبو خراش عن قطيع حمار الوحش الذى يطلب ذكوره من أتنه السفاد فى غير موضعه لكونهن حوامل ، ثم سعى القطيع الى المرتفع من الأرض ، ثم اشتداد الحر وطلبه الماء ، ثم احساسه بمغيب الشمس وجده فى العدو باحثا عن الماء قبل حلول الظلام ، ثم ترصد أبى خراش لهذا القطيع ، ثم تسمع القطيع وارهافه آذانه حذر الصائدين ، الى آخر هذا المشهد المتحرك الذى يشبه القصة الفنية (١) وكذلك مشهد الوعل فى شعر صخر الغى (٢) وهكذا ، وفى هذا النحو الذى نحاه صعاليك الجاهلية بكثرة ووضوح نجد فيه معالم من الأسلوب القصصى ، واتجاها قويا نحو القصة ، كان يمكن أن يثمر فى الأدب العربى نوعا مزدهرا ، لو انه وجد من الشعراء من يتابعه ويتقدم به نحو الكمال ، وقد بلغ من قوة صعاليك الجاهلية فيه ، ووضوح روحهم القصصى فى هذا الشعر ، أن عده بعض الباحثين قصصا أو أسلوبا قصصيا كما قلنا ، وبلغ من قوة هذا المعنى فى شعرهم أن عد بعض الباحثين شعر الشنفرى « فى المرتبة الأولى من ناحية التمثيل والتصوير » (٣) .

---

(١) انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ ـ ١٢٢ واول الأبيات (أرى الدهر لا يبقى .. الخ)
(٢) المصدر السابق ٥٢/٢ ـ ٥٥ وأول الأبيات (فعينى لا يبقى على الدهر قادر .. الخ)
(٣) انظر الشوامخ للدكتور محمد صبري ص ١٢٥ .

جـ ـ اختلاف مستوى الألفاظ وغرابتها

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام بأنه فى جملته غريب الألفاظ بعيد عن الوضوح فيها ، والواقع أن ألف الألفاظ وغرابتها أمر نسبى فنحن نرى ألفاظ قبيلة غاية فى الغرابة والصعوبة ، وفى الوقت نفسه قد ترى هذه القبيلة ألفاظنا التى نراها نحن سهلة غاية أيضا فى الصعوبة والغرابة لأن الغرابة والصعوبة ليسا فى ذات الألفاظ ، وانما فى استعمالها وتداولها ، فاللفظ سهل مفهوم المدلول طالما استعملناه وتداولناه ، وهو صعب غريب طالما لم نستعمله ولم نتداوله •

ولكنهم ألفوا أن يجعلوا من لهجة قريش وألفاظها مقياسا للالف والغرابة فى الألفاظ ، ولم يكن علماء اللغة ونقادها ليستطيعوا غير ذلك ، فقريش فى الجاهلية والاسلام مركز الجزيرة ومحورها ، ومصدر الاشعاع الفكرى والدينى فيها ، ولهجتها أوسط اللهجات •

والواقع ان مسألة الألفاظ واللهجات متشعبه واسعة ، تدخل فيها عوامل عديدة ، من حيث التغييرات التى حدثت فيها ، وأبرزها أثر القرآن الكريم ، ثم ما أحدثه الاسلام من كثرة الاحتكاك والاختلاط بين قبائل العرب وأحيائها ثم أثر الفتوحات وما بثته فى العرب من تداخل واختلاط ، ومن رغد وخصب حياة ، وغير ذلك •

ولكن الذى يعنينا من ذلك كله الآن أمران ، أحدهما ان شعر صعاليك الجاهلية لم يكن فى مستوى واحد ، من حيث الغرابة والألف ، والأمر الثانى هو ان شعر الصعاليك الجاهليين فى جملته كان أبعد عن الالف ، وأقرب الى الغرابة من شعر الاسلاميين منهم •

فاما عن اختلاف مستوى شعر الجاهليين منهم فنقول اننا نلاحظ اختلافا شديدا فى مستوى ألفاظهم من حيث الغرابة والالف ، وأوضح ما تكون المقارنة اذا كانت بين من يعيشون متعاصرين ، واذا أخذنا شعر شاعرين منهم يعيشون فى جيل واحد كأبى خراش وعبدة بن الطبيب اللذين كان كلاهما من المخضرمين أحدثنا فارقا كبيرا واضحا كل الوضوح ، حيث نجد شعر أبى خراش يمتاز بصعوبة الألفاظ وغرابتها ، بينما شعر عبدة يمتاز بوضوح الألفاظ وألفها ، وليس ذلك فى مواضع أو قصائد معينة حتى يحتاج للتمثيل وانما طابع شعر كل منهما كله ، كذلك هناك شخص معاصر لهما ، وان كان أسبق منهما قليلا ولكن هذا السبق لا ينفى انه عاصرهما وعاش فى جيلهما شطرا غير قليل من عمره ، وهو عروة بن الورد العبسى الذى نعلم من تاريخه الزمنى ان احدى نسائه كانت فيمن أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من يهود خيبر عن

المدينة (١) ، وأبو خراش وعبدة مخضرمان أدركا الاسلام بعد الجاهلية ، ومعنى ذلك ان عروة عاصرهما ، ولكننا نجد شعره في الفاظه يختلف عن شعر كل منهما ، فمع أن شعر عبدة بن الطبيب أوضح الفاظا من شعر أبى خراش الا أن شعر عروة أوضح الفاظا من كليهما ، واننا لنلحظ فى عجب ان شعر عروة لا يشوبه شىء من الغرابة أو صعوبة الألفاظ ، بل انه أوضح الفاظا من معظم شعر قريش نفسها في الجاهلية .

ولو ذهبنا نعلل ذلك ، لا نستطيع أن نقول ان للصعلكة دخلا في هذه الناحية من الألفاظ ، لأنهم جميعا صعاليك ، وفي عصر واحد ، وبيئة الصعلكة متقاربة ، ومع ذلك فألفاظهم من حيث الغرابة والالف مختلفة أشد الاختلاف ولا نستطيع أن نقول ان التأثر بلغة قريش له دخل فى هذا الاختلاف ، أعنى تأثر لهجة قريش فى قبائل أولئك الصعاليك لا تستطيع أن تقول ذلك ، لأن الهذليين ومنهم أبو خراش شعرهم أصعب شعر الصعاليك ألفاظا وأكثرها غرابة مع ان موطنهم فى أقرب مكان من مكة ، وهو بوادى الطائف وما حولها ونجـــد شاعرا من صعاليك الجاهلية موطنه فى أقرب مكان من موطن هذيل ، ومع ذلك فألفاظه فى غاية السهولة والالف اذا قيست بألفاظ هذيل ، وهو قيس بن منقذ السلولى الخزاعى (٢) المعروف بابن الحدادية ، كذلك اذا نظرنا الى أثر الخصب والتفر والبادية فى الألفاظ لا نستطيع أن نقطع به ، لأن الشنفرى مثلا عاش معظم حياته فى نجد ، وهى أكثر خصبا من بادية اليمامة التى عاش فيها عبدة بن الطبيب التميمى (٣) ، ومع ذلك فألفاظ الشنفرى أكثر صعوبة ، وأشد غرابة من ألفاظ عبدة .

ولعل أقرب ما نستطيع أن نعلل به هذه الظاهرة ان الألفاظ فى أصلها تتأثر بالبيئة ، بمعنى ان البيئة فى الأصل لها دخل كبير فى تحديد الألفاظ من حيث الصعوبة والالف ، ومن حيث الجرس ، ومن حيث نواحى أخـــرى لا يقتضى المقام الافاضة فيها ، فالبيئة هى العامل الأول ، ثم يأتى النظـام القبلى بما يتضمنه من انطواء القبيلة على تراثها وتقاليدها اللغوية ، فيحافظ على الطابع اللغوى لها ، ويظل هذا الطابع اللغوى للقبيلة محفوظا طالما ظلت محافظة على طابعها القبلى الذى يتميز بالاعتزاز بالتراث والتقاليد ، والتشبث بكيان القبيلة ، وحمايته من التفكك وحماية أسراره التى تفصله أو تميزه عن غيره من كيان قبيلة أو مجتمع آخر .

فهذه القبيلة يمكن أن نتصور أنهـــا حتى لو انتقلت الى بيئة مختلفة ،

---

(١) انظر أغانى الأصفهانى ٧٥/٣ وهى سلمى التى احتال اليهود بسقيهم عروة الخمر حتى رهنها وأخذوها .

(٢) انظر خريطة بلاد العرب قبل الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ٩/١ .

(٣) المصدر السابق .

او مجتمع مغاير ، تظل محافظة على طابعها ، طالما ظلت محافظة على كيانها كقبيلة او على الأقل يكون تأثير البيئة الجديدة فى لغتها بطيئا شديد البطء ، لا يقاس بالسنين ، وانما يقاس بالقرون .

وتطبيق ذلك أننا يمكن أن نتصور أن قبيلة كهذيل كونت لهجتها فى بيئة تقتضى أن تكون لهجتها كذلك ثم ظلت بطابعها القبلى تحافظ على هذه اللهجة ، مهما جاورت من لهجات مختلفة ، ومهما تنقلت فى بيئات تختلف عن بيئتها التى كونت لهجتها الأولى ، واذا صح هذا يمكن أن نعلل به اختـــلاف اللهجة عما تقتضيه البيئة ، بأن هذه اللهجة تكونت فى بيئة أخرى ثم انتقلت الى هذا المكان ، أعنى انتقلت القبيلة صاحبة هذه اللهجة الى هذا المكان ، ويؤيد هذا ما هو معروف عن طبيعة التنقل فى القبائل العربية وما يتحدث المؤرخون به كثيرا من تنقل قبائلهم بين أماكن كثيرة (١) ، ومن أمثلة هذا ما نراه حتى اليوم فى النصف الجنوبى من صعيد مصر ، حيث كثيرا ما نجد منطقتين ، أو قريتين متقاربتين فى المكان ، بل أحيانا متلاصقتين ، ومع ذلك فلكل منهما لهجة خاصة متميزة عن الأخرى ، وحين نبحث لا نجد فى ظروفهما كلها أى اختلاف جغرافى أو ثقافى أو اجتماعى ، الا شيئا واحدا هو احتفاظ كل منهما بجوانب من الطابع القبلى ، يتمثل أبرزها فى الاعتزاز بالنسب التاريخى الذى تنتمى اليه هذه المنطقة أو القرية ، والعصبية الجماعية ، التى تجعل من المنطقة أو القرية قوة مترابطة ضد المناطق أو القرى الأخرى . واعتقد ان هذا أيضا شائع فى أرياف الأقطار العربية وبواديها .

وأما عن الأمر الثانى ، وهو اختلاف طابع الألفاظ فى شـــعر صعاليك الجاهلية ، عنه فى شعر صعاليك الاسلام ، فنقول ان مما يميز شعر صعاليك الجاهلية فى جملته شيوع الألفاظ الصعبة الغريبة فيه ، مما يجعل له مســتوى مختلفا عن شعر صعاليك الاســـلام فى هذه الناحية ، حيث نجد شعر الأخيرين تغلب عليه السهولة والالف فى ألفاظه ، وهذا أمر واضـــح لدارس شعر المجموعتين . بل الغريب اننا نجد فارقا بينا فى شعر المخضرمين أنفسهم ، بين ما قالوه فى الجاهلية وما قالوه فى الاسلام ، وأوضح ما يكون ذلك فى شـعر أبى خراش الهذلى ، حيث نجد شعره الجاهلى يتسم بغرابة الألفاظ وصعوبتها بينما نرى شعره الاسلامى يجنح بقوة نحو السهولة والالف ، متخليا عن كثير من طابعه الجاهلى فى الغرابة ، وانظر مثلا الى قوله فى الاسلام :

فليس كعهـــد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل (٢)

(١) أنظر تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ٨/١ نقلا عن مراجع أخرى .
(٢) الكامل للمبرد ٢٦٧/١ ويعنى بالسلاسل تقييد الاسلام لسلوكه وأعماله .

وقوله فى الاسـلام أيضا حين هاجر ابنه خراش غازيا فى خلافة عمر ابن الخطاب ، يعبر فى شعره عن وحدته بعد خراش وشوقه اليه :

الا من مبلغ عنى خراشا — وقد يأتيك بالنبأ البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا — تجهز بالحذاء ولا تزيد (١)
يناديه ليغبقه كليب — ولا يأتى لقد سفه الوليد (٢)
فرد اناءه لا شىء فيه — كأن دموع عينيه الفريد

وأبياتا أخرى من طرازها •

ثم ننظر الى ألفاظه فى الجاهلية فنجد فيها طابعا من الغرابة والصعوبة يختلف عن طابع ألفاظه الاسلامية اختلافا واضحا فمن ذلك قوله يصف صورة من عدوه وفراره من مطارديه :

فعديت شيئا والدريس كأنما — يزعزعه ورد من الموم مردم
تذكر ما أين المفر واننى — بغرز الذى ينجى من الموت معصم (٣)

وقوله من وصفه لليلة باردة ممطرة اضطر فيها الى قطع أشواط واسعة فى ودبان فسيحة جاد الشمائل والعزيمة ليدرك ثأرا ويشرف على غنيمة :

وليلة دجن من جمادى سريتها — اذا ما استهلت وهى ساجية تهمى
وشوط فضاح قد شهدت مشايحا — لأدرك ذحلا أو أشيف على غنم (٤)

ومن الواضح فى شعر أبى خراش ان ما قاله فى وصف حياة الصعلكة أصعبه ألفاظا ، وأبعده عن السهولة واليسر فى فهمنا له ، ولكن ما قاله فى الجاهلية كله ، حتى شعره فى الأغراض الاجتماعية كالرثاء ، يختلف أيضا اختلافا بينا من حيث صعوبة الألفاظ عن شعره فى الاسلام •

واذا كان شعر الشخص الواحد قد تأثر بالاسلام فى ألفاظه وتعبيره اللغوى فأولى أن يكون هذا الفرق أوضح بالنسبة للذين عاشوا حياتهم كلها فى الجاهلية والذين عاشوا حياتهم كلها فى الاسلام ، أعنى فى المقارنة بين ألفاظ شعر كل منهما •

---

(١) اشارة الى قول طرفة بن العبد : ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا •• ويأتيك بالاخبار من لم تزود •

(٢) كليب عبد أبى خراش ويغبقه يسقيه اللبن أول الليل • ديوان الهذليين ١٧٠/٢ ، ١٧١ والفريد يعنى اللؤلؤ وفى الأغانى ٦٨/٢١ أن عمر حينئذ أمر برد ابنه والا يغزو وحيد الأبوين الشيخين الا بعد اذنهما •

(٣) ديوان الهذليين ١٤٤/٢ والدريس الثوب البالى والموم الحمى والمردم الملازم والبيت الثانى يعنى عدوت مفكرا فى طريقة للهروب متشبثا بوسيلة الهرب والفرار •

(٤) المصدر السابق ١٣٠/٢ •

والواقع ان هذا الفارق اللغوى يبرز فى المقارنة بين أدب الجاهلية وأدب الاسلام عامة ، ولا نستطيع أن نحصر تعليله فى سبب واحد فرعى ، وان كانت كل العلل متصلة بالاسلام نفسه وأهمها القرآن الكريم ، وبالآثار التى ترتبت على الاسلام من كثرة الاختلاط والتداخل بين أصحاب اللهجات المختلفة ، ومن ظهور لهجة قريش بظهور قريش نفسها فى مقام التوجيه والقدوة ولكن مهما تعددت الاسباب فاننا نعتقد ان السبب الرئيس هو ما أشرنا اليه آنفا ، وهو الكيان القبلى الذى نعتقد أن تفككه أو ضعفه أو تأثره بأى عامل هو فى مقدمة أسباب تأثر لهجة القبيلة أو تحولها ، كما أنه يمكن أن نقول ان التأثير الكبير الذى أحدثه الاسلام فى اللهجات العربية ، من حيث تقارب لهجات كثير من أبنائها ، وانطوائها فى لهجة متقاربة تدور حول لهجة قريش ، كان من أهم أسبابه قدرة الاسلام على التأثير الكبير فى الكيان القبلى للقبائل ، حيث صرف معظم أبناء القبائل عن الانزواء فى الكيان القبلى والاعتزاز به وحده ، الى مجتمع أرحب ، هو مجتمع المسلمين عامة ، والى اعتزاز أسمى هو الاعتزاز بالاسلام من حيث هو دين ، وبالأمة العربية الاسلامية من حيث هى أمة ، وكان لهذا التغيير آثاره البعيدة المدى ، ومن بين هذا التغيير ، ضعف اعتزاز الفرد بلهجة قبيلته ، وايثاره لهجة الدين الذى يعتنقه والتى تتمثل فى لهجة القرآن الكريم ، وايثاره لهجة الامة التى استبدلها بكثير من اعتزازه القبلى والتى تتمثل فى لهجة قريش مركز قيادة الأمة الدينى والسياسى ٠

على اننا فى مقام الحديث عن الألفاظ ، نود أن نشير الى ملاحظة لا تخفى على الدارس لشعر الصعاليك ، وبخاصة الجاهلى ، وهى اننا حين نتتبع شعر كل شاعر منهم ، نشعر ان هناك فارقا وان كان يتفاوت قوة وضعفا بين شعرهم فى حياة الصعلكة ، أعنى الشعر الذى قالوه فى مجال الصعلكة ، وهو ما سميناه شعر الصراع ، وشعرهم الاجتماعى ، حيث نجد ألفاظ الشـــاعر فى مجال الصعلكة ، أقرب الى الصعوبة والغرابة ، بينما نجد ألفاظه فى الشعر الاجتماعى لها طابع آخر أقرب الى السهولة والالف ، وكأنه يصور بذلك نفسيته وحياته فى جملتهما فى المجالين ، وأوضح ما يكون ذلك فى شعر الهذليين ، والشنفرى كما نرى فى شعر كل من صخر الغى وأبى خراش فى ديوان الهذليين ٠

خصائص شعر الاسلاميين

١ ــ العكوس

ونعنى أيضا فى هذه الخصائص مقابلة شعر الصعاليك الاسلاميين بشعر صعاليك الجاهلية ٠ ومن الواضح ان من هذه الخصائص عكوس الخصائص السابقة

فى شعر صعاليك الجاهلية ، والتى قلنا أنه يتميز فيها عن شعر الاسلاميين منهم ، وأبرز هذه العكوس ما يتعلق بالألفاظ ، وما يتعلق بالتصوير ، فنجد فى الالفاظ فارقا كبيرا ، حيث يغلب على شعر الاسلاميين سهولة الألفاظ والفها ، بينما يغلب على شعر الجاهليين صعوبة الالفاظ وغرابتها ، ولكننا لانغفل هنا فارقا ملحوظا فى شعرهم ، وهو عدم التفاوت البين فى شعر الاسلاميين • فقد قلنا ان شعر صعاليك الجاهلية متفاوت المستوى من حيث الألفاظ ، فنجد فيه شعرا سهل الألفاظ ميسور الدلالة ، كشعر عروة بن الورد ، بينما نجد آخر صعبا غريب الألفاظ كشعر الهذليين ، ولكن شعر صعاليك الاسلام لا نجد فيه هـذا التفـاوت البين ، بمعنى انه وان كان فيه شىء من تفاوت كشأن التفـاوت بين شاعر وشاعر دائما ، الا انه تفاوت غير كبير ، ولا يمثل طابعا معينا ، بل يمكن أن يقال عن شعرهم كله انه يتسم بالسهولة والوضوح ، بالنسبة لشعر صعاليك الجاهلية •

ومن هذه العكوس ايضا ما يتعلق بالتصوير ، فقد قلنا ان شعر صعاليك الجاهلية يتميز بشيوع الصور الفنية فيه ، بمعنى اننا نجد فيه طابعا يمثـل صورا كاملة عن صاحبه ونفسيته ، أو عن مشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، أو غير ذلك ولكن شعر الاسلاميين من الصعاليك عكس ذلك ، لا يشيع فيه التصوير وانما يعتمد على المعانى المفردة المتلاحقة ، التى لا ترسم صورا ولوحات فنية وانما يكتفى فيها غالبا بالمعانى المجردة المرسلة ، ولذلك قلنا ان شعر الصعاليك فى الجاهلية انفرد فيما انفرد به عن شعر الاسلاميين بشعر الطبيعة ، وقلنا اننا لا نعنى بشعر الطبيعة مجرد ذكر الجبال أو الصحراء أو الأمطار أو غـير ذلك ، فذلك لا يخلو منه عادة شعر عربى قديم ، وانما نعنى بشعر الطبيعة الشعر الذى يرسم صورا متكاملة لمشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، ويجعلنا نشعر كأننا نعيش مع هذه اللوحات فننظر اليها ، أو كما يروى ابن رشيق يقلب السمع بصرا (١) • فهذه الميزة بادية فى شعر الصعاليك الجاهليين ، وخاصـة شعر الهذليين والشنفرى ولكن شعر الاسلاميين لا يحمل هذه الميزة بل يندر أن نجد لها فى شعرهم أثرا ، وانما يعتمد دائما على المعانى المجردة ونعنى بالاسلاميين فى هذا الحديث الذين نشأوا فى الاسلام أما المخضرمون ، فاننا نجد فى بعض شعرهم الاسلامى بقية من روح التصوير ، كالصور التى جاءت فى لامية عبدة بن الطبيب التى قالها بعد القادسية مصورا فيها رحـلة بدوية بمطاياها ، وصائديها وبخاصة صورة الثور الذى صادوه ثم طبخوه ثم قاموا بعد الأكل الى خيل جعلوا من أعرافها مناديل لأيديهم وما علق بها من آثار الأكل (٢) ، ولكننا باستثناء الآثار التى أدخلها الاسلام فى شعر الصعاليـك

(١) أنظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٩٤ •

(٢) انظر المفضليات ص ١٣٤ ـ ١٤٥ •

من حيث الروح والألفاظ والموضوعات نرى أن شعر المخضرمين من الصعاليك امتداد لشعرهم فى الجاهلية أو بمعنى أوضح نرى شعر المخضرمين من الصعاليك فى الاسلام من حيث الصعلكة امتدادا لشعرهم الجاهلى ومنطويا فى الحكم العام عليه ، لأن شعرهم الاسلامى يحمل كثيرا من روحهم وذكريات حياتهم فى الصعلكة، لا على انها ذكريات يتمسكون أو يعتزون بها ، وانما لأن نفوسهم انطبعت بصورها واتجاهها الشعرى فى أغلب انتاجها الاسلامى ، وان كنا نكرر ما قلناه فى بدء الحديث عن شعر الصعاليك من ان الروايات لم تكن واضحة فى تحديد الشعر الذى قاله المخضرمون فى الجاهلية ، والذى قالوه فى الاسلام .

ومن هذه العكوس أيضا الجوع ، فبينما نجد شعر الجوع واضحا فى أشعار صعاليك الجاهلية كما قال الشنفرى « أديم مطال الجوع حتى أميته » (١) وكما قال أبو خراش « وانى لأثوى الجوع حتى يملنى » (٢) وكما قال السليك « اذا قمت تغشانى ظلال فأسدف » (٣) بينما نجد مثل ذلك فى شعر الجاهليين من الصعاليك ، لا نجد مثله فى شعر الاسلاميين منهم بل لا نجد الجوع نفسه موضوعا لحديثهم وان كانوا قد شاركوا الجاهليين فى الحديث عن الفقر .

ومن الفوارق أيضا الروح التى يكتسبها شعر كل منهما ، حيث نجد الظروف المحيطة بالجاهليين منعكسة فى شعرهم كما نجد ظروف الاسلاميين وخاصة شدة مطاردة التشريع والولاة لهم ، وشعورهم بالانكار على سلوكهم ونحو ذلك من آثار الاسلام منعكسا فى روح شعرهم ، وان لم نستطع تحديد موضعه دائما ، ومثاله أشعار عبيد بن أيوب فى الخوف الشديد .

٢ ـ انفراده ببعض الموضوعات

وكما انفرد شعر صعاليك الجاهلية عن شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات ، كذلك انفرد شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات عن شعر زملائهم الذين سبقوا الاسلام .

واذا كنا فى معظم ما سبق اعتبرنا الشعر الاسلامى للمخضرمين امتدادا لجاهليتهم ، ففى هذا الموضوع بالذات ، نعتبر شعر المخضرمين ـ بالنسبة للموضوعات الآتية ـ من الشعر الاسلامى وليس امتدادا لشعرهم الجاهلى ـ لأن الموضوعات الآتية ـ كما سنرى ـ من الآثار المباشرة للاسلام بصفته دينا وتشريعا ، ونحن قلنا ان شعر المخضرمين انما يعتبر امتدادا لشعرهم الجاهلى

(١) من اللامية .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ .

(٣) مجمع الأمثال ١١/٢ وأسدف أدخل فى السدفة وهى الظلام .

اذا كان متعلقا بالصعلكة ، واستثنينا صراحة ما كان أثرا من آثار الاسلام المباشرة ٠

وأهم هذه الموضوعات التي انفرد بها شعر صعاليك الاسلام عن صعاليك الجاهلية ما يأتي :

أ ـ الشعور بالذنب :

ومن الواضح أن الشعور بالذنب غير الشعور بالمطاردة الذى تحدثنا عنه فيما سبق من الموضوعات ، لأن شعور المطاردة معنى عام عانى منه الصعاليك نتيجة لأن سلوكهم بطبعه عدوانى ، ومن شأنه أن يخلق لهم أعداء كثيرين من الذين يتوقعون أو يخشون هذا السلوك ، ومن الذين أصابهم فعلا هذا السلوك ، ولكن الشعور بالذنب احساس روحى دينى ، كان نتيجة لمخالطة الدين الاسلامى نفوس بعض الصعاليك ، وتذوقهم لذة الايمان بالله ، وتأثرهم بالتشريع وحكمته ٠

ولكننا قلنا عند الحديث عن صراعهم مع السلطة ، انه نتيجة لكون الصعلكة متعلقة بأرزاقهم ، وكونها المصدر الأساسى لمعيشتهم ، فلم يكن تقبل نفوسهم للتوبة عميقا ، وهذا لا ينفى أو لا يتعارض مع اسلامهم ، فمن اليسير أن نتصور انهم أسلموا ، كما ورد فى أخبار الذين تحدثنا عنهم من المخضرمين ولكنهم مع اسلامهم صارعوا فى نفوسهم حنينا ولو خفيا الى الصعلكة التى أفنوا حياتهم فى مزاولتها والتعود على حياتها ، بالاضافة الى سبب مهم ، هو كونها مصدر معيشتهم ، ولكن هذا الصراع نفسه دليل على احساسهم بالذنب وقد صوروا هذا الاحساس فى شعرهم عن التوبة ، كما سبق فى موضوع صراعهم مع السلطة مما نكتفى بالعودة اليه ، دون حاجة الى التمثيل (١) ٠

فصعاليك الاسلام اذن شاركوا صعاليك الجاهلية فى الشعور بالمطاردة ، ولكنهم تميزوا عنهم بالشعور بالذنب ٠

ومن حق السائل أن يسأل : فلماذا لم يبد شعراء صعاليك الجاهلية احساسا بالذنب ، والصعلكة سلوك اجرامى بطبعه سواء فى الجاهلية أو الاسلام؟ ويمكن أن نجيب عن ذلك بأن أساليب الصعلكة أصبحت فى الجاهلية جزءا من الحياة الاجتماعية للقبائل التى كانت حياتها صراعا متبادلا طاحنا ، لا تنقطع فيه الغزوات والغارات وأساليب التربص ، حتى أصبحت أساليب الصعلكة شائعة يزاولها كثير من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كما قلنا فى مطلع

(١) انظر فصل صراع السلطة من هذا البحث ٠

البحث ، وحتى أصبح الفارق بين الصعاليك وغيرهم فى هذا ، ان الصعاليك يحترفون هذا السلوك ويتفرغون له ، بينما غيرهم يزاوله فى بعض الظروف او تختلط فيه هداف الصعلكة بأهداف عصبية وقبلية كالثأر والانتقام واظهار البأس ، وان كانت أهداف الصعلكة وهى المغنم دائما فى صلب الأهداف ، فالصعلكة فى الجاهلية اذن كانت جزءا من حياة اجتماعية غير قويمة ، وكونها جزءا من حياة اجتماعية ، ينزع منها الصفة الخلقية التى تشعر صاحبها وتشعر غيره بأن الخروج على المقتضى الخلقى فيها أمر معيب يشعر صاحبه بالذنب ، ويحمل غيره على توجيه تهمة الذنب والسوء اليه • ولذلك نرى الجاهليين يعيبون أمورا كثيرة ، ويحملون على أصحابها فى نقد مر وهجاء موجع ، كالبخل ونكث الجوار ، وخلف الوعد وغير ذلك مما نرى نقده فى أشعارهم وأخبارهم ، وكما نرى فى انكار الصعاليك أنفسهم لهذه المعايب ، مثل هجاء أبى خراش لغاسل ابن قميئة حين غدر بجاره الحنظلى (١) ، ومثل ما نجده كثيرا فى شعر الصعاليك من تمسكهم بالفضائل ، ونعيهم على الخارجين عليها (٢) ، وفى حين نجــد الجاهليين بما فيهم الصعاليك ينعون على أمور كثيرة ويعيبونها ، لا نجد هــذا النعى موجها الى الصعلكة فلسنا نجد فى شعر صعاليك الجاهلية احساسا قط بالذنب نحو الصعلكة ، ولسنا نعلم أن نديا من نوادى الجاهلية التى أقاموها فى مكة ، وفى أسواقهم العامة ، قد أنكر الصعلكة أو دعا الى محاربتها ، كما أننا لا نعلم انه ورد فى شـــعر الجاهليين قط شىء من ذلك ، فليس بغريب اذن ألا يشعر صعاليك الجاهلية بالذنب نحو الصعلكة ، لانها لم تكن حينذاك ذنبــا بالمعنى الذى نفهمه من الذنب •

أما صعاليك الاسلام فقد ووجهوا بعكس ذلك ، ووو جهوا بالدين يوضح لهم أن الصعلكة جريمة نكراء ذات عقــوبات صارمة (٣) ، ووو جهوا بالمجتمع يعلن لهم استنكاره أيضا ، فكان حينئذ احساسهم بالذنب ، وتمثل هــذا الاحساس فى شعرهم عن التوبة ، وتمثل أيضا فى خوف شديد تجاوزوا فيه الخوف المألوف فى حياة الصعاليك ، ويتضح هذا الخوف الشديد فى شــعر عبيد بن أيوب (٤) الذى بلغ به حد الوهم •

ب ـ صراع الولاة والسجن :

تحدثنا فيما سبق عن صراع الصعاليك الاسلاميين مع الولاة والسجن (٥)

---

(١) أنظر ديوان الهذليين ١٦٤/٢ •

(٢) انظر فصل الخلق الاجتماعى فى شعر الصعاليك من هذا البحث (بالفهرس) •

(٣) أنظر الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة •

(٤) أنظر الحيوان ١٦٥/٦ ، ٢٣٥ •

(٥) أنظر فصل صراع السلطة من هذا البحث (بالفهرس) •

ونود أن نقول أيضا ان هذا الصراع بدأ منذ استقرار سلطة الاسلام ، ولذلك نجد بعـــض المخضرمين كجعفر بن علبة يتعرض لهـذا الصراع (١) وبعـــض اصعاليك تعرض لمطاردة الخلفاء كما سبق فى مطاردة على بن أبى طالب كرم الله وجهه لشبيب بن عمرو (٢) وكما فى أخبـــار عبيد الله بن الحر مع عمال عـــلى ابن أبى طالب ومعاويه بن أبى سفيان (٣) ثم تتابع اخبارهم مع الولاة والسجون كما تحدثنا فى صراعهم مع السلطة ، مصورين هذا الصراع فى شعرهم • على ان أهم ما نتج عن احساسهم الذنب ، ومطاردة الولاة ، فقدان صــــعاليك الاسلام لجانب غير يسير من العزة الذاتية ، فحين نقارن بين شعرهم وشعر صعاليك الجاهلية نحس أن هناك فارقا مهما فى روح كل منهما ، فبينما نحس فى شعر الجاهليين روح الاعتزاز بالنفس ممثلا فى الاعتزاز بالصعلكة نفسها ، نجد شعر الاسلاميين منهم ، وان كان لا يفقد روح العزة الفردية ، الا أن هذه الروح تختلف اختلافا واضحا فى درجة الاعتزاز بالنفس ، حيث تضعف درجة الاعتزاز فى شعر الاسلاميين ، وتختلف هذه الروح اختلافا أوضح فى الاعتزاز بالصعلكة ، حيث نرى الجاهليين عـــلى كثرة ما يتحدثون عما يعانونه فيها ، يرتفعون فى الاعتزاز بها الى أقصى ما يستطيعون ، بل يتخذون مما يعانونه فيها عنوانا للعزة والاباء ، كما يقول الشنفرى تعقيبا على معاناته الجوع الشديد •

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له   على من الطول امرؤ متطـول (٤)

وكما يقول أبو خراش بعد قوله « وانى لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب »

مخافة أن أحيا برغم وذلة   وللموت خير من حياة على رغم (٥)

فبينما نجد الشنفرى وأبا خراش يريان فى جوعهما عزة يحرصان عليها، نجد مالك بن الريب الاسلامى يقول للأمير الذى قال له : فان أنا أغنيتك ، فهل تكف عما أنت فيه ، يقـــول له مالك « نعم ، أكف كأحسن ما كف أحد » (٦) غير معتز بالصعلكة ولا متمسك بها ، وكما فعل بكر بن النطاح وأبو الطمحان القينى فى ركونهما الى السادة والأمراء معرضين عن الصعلكة ، فى غير توبة عنها ، ولكن التماسا لحياة أيسر وعيش أرغد (٧) •

---

(١) انظر خزانة البغدادى ٢/٤٦ الشاهد ١١٥ •
(٢) انظر حماسة أبى تمام ١/٢٥٢ •
(٣) انظر خزانة البغدادى ٢/١٩ ـ ٢٢ •
(٤) من اللامية : سبق نصها (بالفهرس)
(٥) ديوان الهذليين ٢/١٢٧ •
(٦) أمالى القالى ٣/١٣٦ •
(٧) أنظر مراجع ترجمتهما واخبارهما فيما سبق (باب الشعراء الصعاليك) •

وهناك عدد غير قليل مع المراجع أشرت الى بعضه فى المقـــدمة رأيت ألا أذكره فى هذه القائمة مع اننى استشهدت منه خلال البحث لأن اعتمـــاد البحث عليه لم يكن قويا ، وقد اكتفيت بالاشـــارة اليه فى موضع الاســتشهاد بالهامش ٠

وأشير الى أن بعض المراجع قد نقلت عنه من نسختين فى طبعتين مختلفتين أثبت احداهما فى القائمة ، والأخرى فى موضع الاستشهاد بها فى الهامش ، على ان بعض المراجع ليست لها الا طبعة واحدة لم أر ما يدعو الى تحديد طابعها أو ناشرها

١ - **الأمالى لأبى على القالى** (مطبعة السعادة)

٢ - **الأغانى للأصفهانى** (مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨)

٣ - **أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى** (مطبعة دار المعارف)

٤ - **الأصمعيات للأصمعى**

٥ - **أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى**

٦ - **الأسس الفنية للنقد الأدبى للدكتور عبد الحميد يونس**

٧ - **آراء واتجاهات للدكتور محمد نايل**

٨ - **البيان والتبيين للجاحظ**

٩ - **تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان (ترجمة الأستاذ الدكتور النجار)**

١٠ - **تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم (الطبعة السابعة)**

١١ - **تاريخ الأمم والملوك للطبرى** (مطبعة الاستقامة)

١٢ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري
١٣ ـ التنبيه على أوهام القالي للبكري (مطبعة السعادة)
١٤ ـ تفسير الكشاف للزمخشري (مطبعة الاستقامة)
١٥ ـ جمهرة أشعار العرب للقرشي (مطبعة بولاق الأميرية)
١٦ ـ الحيوان للجاحظ
١٧ ـ حديث الأربعاء للدكتور طه حسين (مطبعة الحلبي)
١٨ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي (مطبعة نهضة مصر)
١٩ ـ ديوان الهذليين للسكري (مطبعة دار الكتب المصرية)
٢٠ ـ خزانة الأدب للبغدادي (مطبعة دار العصور)
٢١ ـ ديوان الحماسة لأبي تمام (مطبعة الوهبية سنة ١٢٩٣)
٢٢ ـ ديوان عروة بن الورد (مطبعة السعادة)
٢٣ ـ ديوان الشنفرى (مخطوط بدار الكتب المصرية)
٢٤ ـ دائرة معارف البستاني
٢٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين
٢٦ ـ رسائل الجاحظ للجاحظ (مطبعة الخانكي)
٢٧ ـ السلطة في المجتمع للدكتور عبد العزيز عزت
٢٨ ـ شرح التبريزي لحماسة أبي تمام (تحقيق محمد سعيد الرافعي)
٢٩ ـ شرح ابن الانباري للمفضليات (مطبعة دار المعارف)
٣٠ ـ شرح ابن السكيت لديوان عروه ابن الورد (المطبعة الوهبية سنة ١٢٤٣ هـ
٣١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (مطبعة الحلبي)
٣٢ ـ شرح ديوان الهذليين للسكري (مطبعة دار الكتب المصرية)
٣٣ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانباري (مطبعة دار المعارف)
٣٤ ـ الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف (مطبعة دار المعارف)
٣٥ ـ الشوامخ للدكتور محمد صبري (مطبعة دار الكتب المصرية)

٣٦ ـ **الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب** (المكتبة) الثقافية ٩٢)

٣٧ ـ **العقد الفريد لابن عبد ربه** (المطبعة الأزهرية)

٣٨ ـ **العمدة لابن رشيق** (مطبعة السعادة)

٣٩ ـ **العالم غير المنظور للدكتور على عبد الجليل راضى** (مطبعة دار الفكر العربى)

٤٠ ـ **الغيث المسجم فى شرح لامية العجم لابن أيبك**

٤١ ـ **فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور** (مطبعة لجنة التأليف والنشر)

٤٢ ـ **القاموس المحيط للفيروز ابادى**

٤٣ ـ **الكامل للمبرد** (مطبعة الاستقامة)

٤٤ ـ **لسان العرب لابن منظور**

٤٥ ـ **مجالس ثعلب لأبى العباس ثعلب** (مطبعة دار المعارف)

٤٦ ـ **مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد** (مطبعة دار المعارف)

٤٧ ـ **المفضليات للضبى** (مطبعة دار المعارف)

٤٨ ـ **مقدمة ابن خلدون**

٤٩ ـ **معاهد التنصيص للعباسى**

٥٠ ـ **معجم ما استعجم للبكرى** (مطبعة لجنة التأليف والنشر)

٥١ ـ **مجمع الأمثال للميدانى** (مطبعة السنة المحمدية)

٥٢ ـ **مهذب الأغانى للخضرى** (مطبعة دار الكتب المصرية)

٥٣ ـ **نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى** (مطبعة دار الكتب المصريه)

فهرس

الموضـوع — الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/٣٥٨٧

ISBN ٩٧٧ ـ ٢٠١ ـ ٧٣٠ ـ